شارلوت برونتي

ڤيليت

ترجمة
محمود فاضل الخفاجي
وهوبرج يوسف الشماسي

مكتبة النهضة بغداد

twitter.com/ahmadsdarwish

شـــارلوت بـــرونتي

ڤيليت

ترجمـــة

جورج يوسف الشماس و محمود فاضل الخفاجي

منشـــورات

مكتبة النهضة - بغداد

الفصـــل الاول

ـ بلـدة بريتـــون ـ

عاشت عرابتي في بيت انيق كائن في بلدة بريتون القديمة وكانت عائلة زوجها تقطن هناك منذ اجيال بحيث حملت اسم مسقط رأسهـا ·· بريتون او البريتونيين ولا دري ما اذا كان هذا قد حدث مصادفة ام لا لان احد الاجداد القدامى كان شخصية تتسم بالاهمية اللازمة بحيث ترك اسمه عند جيرانه الى هذا المدى من الواقعية ·

عندما كنت فتاة كنت اذهب الى بريتون مرتين في العـام الواحـد متمتعة بتينك الزيارتين ذلك ان الدار ونزلاءه كانت تروق لـدي بشكل خاص بغرفه الكبرى الهادئة والاثاث المرتب ترتيبا جيدا والنوافذ الوسيعة النيرة والشرفة الخارجية المطلة على الشارع العتيق الزي وديمومة الآحـاد والعطل · وكان لهدوء الاجواء ونظافة رصيف الشارع وغير ذلك وقعهـا البهيج في قلبي ·

ان طفلة في دار فيه قاطنون كبار السن كانت مثار تدليل واهتمام وكانت السيدة بريتون الارملة تملك ابنا واحدا فقط قبل ان اعرفها ·· لقد كان زوجها طبيبا مات وهي لم تزل امرأة شـابة وسيمة · ولم تكن صغيرة السن كما اتذكر ولكنها كانت مع ذلك لا تزال وسيمة فارعة الطول، ذات تكوين جسماني جميل ومعانها كانت سمراء بالنسبة للمرأة الانكليزية الا ان امارات الصحة كانت بادية على محيا وجهها وعلى خديهـا الاسمرين وتشع عيناها السوداوان المرحتان الرائعتان باشعاع نوراني ·

واعتبر الناس ان مما يوجـب الاستغراب المؤسي الا تترك الوالدة سماتها وصفاتها الجسمانية وشكل بشرتها على الطفل الـذي كانت عيناه زرقاوين وفي ايام صباه حادتين وثاقبتين وكان لون شعره الطويل قد حير

twitter @baghdad_library

الاصدقاء فلم يقووا على المجازفة بوصفه ما عدا عندما كانت الشمس تشع عليه فيسمونه بالشعر المذهب ٠

لقد ورث خطوط ملامح وجه امه وشكل اسنانها الجميلة وقامتها او توقع حمل شكل قامتها اذ كان لا يزال طفلا لم يكتمل نموه بعد واذا اردنا الوصف بشكل افضل نقول ورث صحتها دونما نقص وحيويتها المنبثقة من نبرات صوتها وهي افضل من كنز لدى من يملكها ٠ وفي خريف ذلك العام مكثت في بلدة بريتون وجاءت عرابتي شخصيا تطالب بي وتعتبرني واحدة من اقربائها لتثبت معها في ذلك الوقت اقامتي الدائمة ٠وفي اعتقادي انها رات آنذاك الاحداث قادمة بشكل واضح دون ان استطيع الا بصعوبة ان ادرك ظلها او خيالها غير ان الشك الضئيل كان كافيا لان يضفي علي كآبة لا تعرف الاستقرار ولكن أبهجني ان ابدل المنظر والمجتمع ٠

ومرت الايام على طول مرورا رائقا وانا بجانب عرابتي ٠٠ لم تكن تمر بسرعة مضطربة وانما كانت تمر رقراقة ومنسابة كانسياب النهر الفياض في السهل ٠ واشبهت زياراتي لها واقامتي معها اقامة « الانسان المفعم بالامل » بجانب جدول يهيج على ضفتيه تنتصب الاشجار الخضر والمروج التي تمج بها وتجملها الزنابق طيلة العام ٠ ان سحر الاشياء المتنوعة لم يكن لها من مثيل وكذلك الاحداث المثيرة وكنت اتعشق الهدوء والسلم ولا اريد دائما التحريض او الاثارة بدليل انه ما ان يحدث شيء كهذا الا واشعر انه من قبيل القلاقل المزعجة التي اتمنى سرعة ازالتها والقضاء عليها ٠

وفي ذات يوم استلمت السيدة « بريتون » رسالة سببت لها محتوياتها استغرابا وقلقا وظننت لاول وهلة ان الرسالة هي من البيت فارتعشت وتوقعت عدم معرفة ما يتصل بي منها من مزعجات ولم يتبين احد محتوى هذه الرسالة وبدا كما لو ان الغيمة قد توارت ٠ وفي اليوم التالي عند عودتي من نزهة طويلة مشيا على القدمين توقعت وانا ادخل الى فراشي حدوث تبدل فجائي ، فعلاوة على سريري الموضوع في موقع منعزل عاينت سرير طفلة صغيرة مكسو باللون الابيض ووجدت علاوة على خزانتي العشبية المزخرفة ذات الادراج خزانة صغيرة مصنوعة من خشب الورد ووقفت صامتة احدق متفرسة بماث وجدت وافكر مليا بها واسائل نفسي عم تدل او ترمز اليه هذه العلاقات والنماذج ٠ وكان جوابي على تساؤلي

هذا واضحا .. لابد ان ضيفا ثانيا قدم الينـــا فالسيدة بريتون غالبا ما تستقبل الزوار الآخرين .

ولدى نزولي لتناول الطعام ظهرت الايضاحات وقيـــل لي ان طفلة صغيرة سترافقني عما قريب ، هي طفلة صديق وقريب كان مقربا عنـــد المرحوم الدكتور بريتون وتوفيت والدتها مؤخرا علما بأن السيدة بريتون كانت تريد اخذها قبل ذلك ومع ذلك لم تكن الخسارة فادحة كما ظهر لاول وهلة وقيل ان السيدة « هوم » كانت جميلة جدا ولكن في الوقت عينـــه طائشة ومهملة غالبا ما كانت تهمل امر طفلتها فخيبت بذلك أمل زوجهـا بها وثبطت من همته وما ان حصل التفاهم بينهما على الزواج حتى تحقق الفراق في آخـر الامر بموافقة الطرفين ودون اية اجراءات رسميـة او قانونية .

وبعد هذا الحدث بمدة وجيزة اجهدت المرأة نفسها اكثر من الـلازم واصابها البرد الشديد ثم الحمى وتوفيت بعد مرض قصير الامد ، امـــا زوجها الذي كان بطبيعته رجلا ذا مشاعر حساسة فقـــد صدمه الخبر ان الفاجئان جدا وهما اللذان لم يقو على التعبير عنهـا ولم يصغ الى ما حاول الناس مؤاساته به وراح يستذكر القسوة المتناهية التي بـدرت منه اراءها ويلوم قلة اصطباره وعدم تساهله في علاقاته معها الامر الذي جعله يؤمـن بانه هو الذي عجل بوفاتها .

وراح يطيل التفكير بذلك ليل نهار الى ان اثر ذلك اسوأ تاثير على حالاته النفسية والح الاطباء عليه بوجوب السفر كعلاج له ووعدت السيدة بريتون بتولي امر طفلته وقالت لي عرابتي اخيرا ان الطفلة لن تكون كأمها التي كانت تتصف بالغباء والتفنج وان مغازلة لعوبة من لدنها ــ وهي ما دأبت عليه ــ كانت قد جعلت الرجل الحساس اضعف من ان لا يتزوجها في حينه .

قالت العرابة ايضا ان المستر « هوم » كان مرهف الحس بطبيعتـــه علاوة على انه لم يكن جد عملي انما كان مولعا بالعلم امضى نصف عمره في تجاريبه المختبرية وهو امر لم يكن بوسع زوجته الشبيهة بالفراشة ان تفهمه او تتحمله واعترفت عرابتي قائلة « انا نفسي لم يكن يعجبني » واجابتني على سؤالي ان زوجها المرحوم كان يكرر القول بأنه استمد نزعته العلمية من خاله الذي كان عالما فرنسيا انحدر من ارومة فرنسية واسكتلندية وله

twitter @baghdad_library

الاغنياء يعيشون الان في فرنسا يضع معظمهم كلمة « آل » امام اسمائهم ويعتبرون انفسهم من اروع النبلاء ·

وفي الساعة التاسعة من تلك الليلة ارسل خادم للقاء العربة التي كانت زائرتنا الصغيرة موجودة فيها وجلست انا والسيدة بريتون وحيدتين في غرفة الرسم منتظرتين قدومهاوكان جون غراهام بريتون غائبا في زيارة لواحد من زملائه في المدرسة كان يعيش في الريف وكانت عرابتي تقسرا جريدة مسائية وهي تنتظر وكنت امارس الخياطة في تلك الليلة الرطبة التي كان فيها المطر المدرار منهمرا تضرب قطراته زجاج النوافذ والرياح تعوي وتلعلع غضبى على غير هدى ·

وكانت السيدة بريتون تكرر هذا القول بين الفينة والفينة « ياله من جو سيء على هذه الطفلة ·· لكم اريدها في امان هنا » وقبل الساعة العاشرة بقليل انبأ جرس الباب عن مقدم « وارن » وما ان فتح الباب حتى هرعت في النزول الى الردهة حيث خزانة الثياب والقبعات المنزلية وقد وقف خلفها خيال شخص يشبه الممرضة وتحت السلم وقف « وارن »وبين ذراعيه حزمة من شال ·

وسألته هل هذه هي الطفلة ؟ فاجابني « نعم ايتها السيدة » ·وكنت اروم فتح الشال لالقاء نظرة على وجهها ولكنها تحولت عني الى كتف«وارن» بسرعة ، وند صوت ناعم من فم الطفلة عندما فتح « وارن » باب غرفة الاستقبال قائلا « رجاء انزلني وارفع عني هذا الشال » ·وبعد ان خلعت الطفلة بيدها الناعمة الدبوس ورفعت عنها بسرعة الغطاء الثخين حاولت برشاقة ان تطوي الشال ولكن الغطاء الفضفاض كان اثقل واكبر من ان تقوى تانك اليدان الصغيرتان والذراعان الصغيرتان على معالجته وتثبيته وبعد ان قالت ·· « اعطيه لهريت فهي التي ستسويه » حولت وجهها الى السيدة بريتون ورنت اليها باهتمام ·

وقالت السيدة بريتون «تعالي الي ايتها العزيزة ··تعالي ودعيني ار ما اذا كنت قد اصبت بالبرد والرطوبة ·· تعالي ادفئك قرب النار» وتقدمت الطفلة صوب السيدة بسرعة وبعد ان تخلصت من غطائها بدت صغيرة ونظيفة واثيقة وخفيفة الوزن ونحيفة ذات قامة معتدلة وبعد ان جلست في حضن عرابتي الرحب ظهرت كما لو انها مجرد دمية رقيقةرقيقة كالشمع والذي يزيد في هذا التشبيه ترتيب شعرها الفضي المعقوص وشكله ·

وتحدثت السيدة بريتون معها بعبارات الشوق البسيطة وهي تمرر بأناملها ـ حنانا ـ على يدي الطفلة وذراعيها وقدميها وجوبهت من قبل الطفلة في بادىء الامر بنظرة تائقة ثم بابتسامة سريعة ويمكن القول ان السيدة بريتون لم تكن بالامرأة الملاطفة حتى مع ولدها الذي كانت تعزه كثيرا جدا ونادرا ما كان مزاجها لطيفا انما كان الامر معكوسا ولكن ماان ابتسمت لها الطفلة الغريبة حتى قبلتها وسألتها عن اسمها فقالت « اسمي ميسي » واجابتها هل يوجد لك اسم اخر سوى « ميسي » فقالت .. انا بي يناديني .. بولي .. وسألتها السيدة بريتون « هل ان بولي تريد العيش معي » فاجابتها « ليس دائما .. ابقى معك حتى وصول والدي الذي هو في الخارج » .

وهزت الطفلة رأسها بشكل معبر قائلة « سيعود الى بولي او يرسل في طلبي اليس كذلك يا مدام .. هل تدرين انه سيفعل ذلك ؟ » واجابتها السيدة بريتون « اظن انه سيفعل ذلك » الا آن « هريت » ترى انه لن يفعل ذلك ولمدة طويلة في الاقل لانه مريض .. وترقرقت الدموع في عينيها وجرت يدها من يد بريتون وقامت بحركة همت بها ان تغادر حضنها في اول الامر غير ان الطفلة قالت للسيدة بريتون « ارجوك دعيني اذهب فبوسعي الجلوس على المقعد الصغير » .

وسمحت لها السيدة بريتون بالانفلات من ركبتها ورفعت مقعد القدمين وحملتها الى زاوية ظليلة وقعدت هي نفسها هنالك . والمعروف عن السيدة انها وان كانت في الاغلب هي صاحبة الامر والنهي وحتى دكتاتورة في الشؤون الخطيرة الا انها كانت مع ذلك متساهلة في الشؤون الاعتيادية او التافهة فقد سمحت للطفلة ان تمضي في طريقها قائلة « لا تهتمي بذلك في الوقت الحاضر » .

غير انني لاحظت ذلك واهتممت به .. لاحظت بولي تضع مرفقها على ركبتها الصغيرة ورأسها على يدها وتسحب منديلا جيبيا بحجم انچ مربع او انچين من جيب ثياب دميتها وسمعتها تبكي . ان الاطفال الآخرين يجهشون بالبكاء اذا كان هنالك ما يحزنهم او يؤلمهم دون استحياء ودون كبح ولكن تلك المخلوقة بكت ودلت شهقاتها اثناء البكاء على مدى جيشان عواطفها ، اما السيدة بريتون فلم تسمعها تبكي وانما سرعان ما وصل الي صوتها من زاوية البيت تطالبني بدق الجرس على هريت ودققت الجرس وجاءت

twitter @baghdad_library

الممرضة هريت حيث قالت لها سيدتها الصغرى ٠٠ « هريت ٠٠ اريد ان انام وعليك ان تعرفي اين هو فراشي » ٠

وافادت الممرضة انها سبق ان سألت عن مكان فراشها وقالت لهـــا الطفلة « اسالي عنه اذا كنت تريدين ان تنامي معي يا هريت » واجابتهـا الممرضة هريت قائلة « كلا ٠٠ يا ميسي ٠٠ عليك ان تشاركي هذه السيدة الصغيرة غرفتها في النوم » واومات الي وهي تقول ذلك ٠ ولم تغادر ميسي مقعدها ولكنها أجالت عينيها في وبعد دقائق من امعان النظر في وجهي بصمت خرجت من زايتها وهي تقول للسيدة بريتون « ليلة سعيدة يامدام» واجتازتني بصمت فقلت لها « ليلتك سعيدة يا بولي » ٠

وقالت لي بولي ٠٠ « لا حاجة لان تقولي ذلك لاننا سننام في الغرفة ذاتها » ثم خرجت من غرفة الاستقبال وسمعت هريت وهي تقترح حملها الى الطابق الاعلى ٠

وجاء الجواب لا حاجة لذلك ٠٠ لا حاجة٠٠لا حاجة وسمعت خطواتها على درجات السلم ٠ وعند ذهابي الى فراشي بعد مرور ساعة وجدتها يقظة لم تنم بعد وقد هيأت وسادتيها لاسناد جسمها الصغير على هيئة الجلوس واستقرت يداها المتداخلتان الواحدة مع الاخرى على الغطاء الملائي بهدوء بعيدا عما يفعله الاطفال واعرضت عن التحدث معها برهة وجيزة ولكن قبل اطفاء الضوء طالبتها بأن تتعمد لتنام ٠

وكان جواب الطفلة « وداعا ٠٠ » وقلت لهـــا « اخشى ان تبتردي يا ميسي » ولدى سماعها كلامي تناولت قطعة خفيفة من القماش الموضوع على الكرسي الذي كان بجانب السرير غطت به كتفيها وخليتها تفعـــل ما تشاء وبعد ان ارهفت سمعي برهة في الظلماء ادركت انهـــا لا تزال تيكي ولكن بهدوء وحذر وكبح ٠

واستيقظت حين طلع الصبح على صوت قطرات مـــاء تسيل وصحت بها ٠٠٠ حذي حذرك ٠٠ فقد كانت قد نهضت من نومها وصعدت عـلى الكرسي الذي يستعمل لسند القدمين وكان موضوعا بالقرب من المغسلة وبكثير من الصعوبة والمعاناة ارادت ان تملي الكور او الابريق لتصب من مائه في الحوض دون ان تقوى على رفعه وأمالته وكان امرا ملفتا للنظر

ان يشاهدها المرء وهي تنتسل او ترتدي ثيابها وهي في سنها الطفولي وحرصها على ان لا تحدث ضوضاء ..

ويبدو انها لم تألف كثيرا انجاز شؤون الحمام والغسل وما الى ذلك، وكان يصعب عليها ايضا ما يتصل بالازرار والخيوط والكلاليب والعرى بيد انها استطاعت تذليلها بالمراقبة والمثابرة بحيث اخذت تطوي ثوبها الليلي بنفسها وتنعم اقمشة سريرها واجواخها وتمسدها تمسيدا بيديها الى حد النظافة التامة . وعاينتها وانا نصف يقظة وقدتراجعت الى الزاوية تخفيها ذيول الستارة البيضاء وظلت على صمتها ، ثم رفعت رأسي لارى ما الذي كانت تعمله فوجدتها راكعة وجبينهامائل على كلتا يديها وادركت انها كانت تصلي .

وطرقت ممرضتها الباب فجفلت ونهضت وخاطبتها من وراء الباب قائلة « ارتديت ثيابي يا هريت .. ارتديتها ولكنني لم انظف نفسي بعد ... دعيني انظف نفسي » . وقالت لها الممرضة « لماذا ارتديتها يا ميسي ؟ » واجابتها الطفلة « صه .. تكلمي بصوت واطىء يا هريت لئلا توقظين الفتاة النائمة » وكانت تعنيني بالذات دون ان تدري انني كنت يقظة وان عيني مغمضتان .

واجابتها الممرضة « هـــل تريدين ان اذهب » واجابتها « قلت لك مرارا انني اريدك ان تذهبي ولكن ليس قبل ان تشدي حزامي شدا محكما وتمشطي شعري ... رجاء » واجابتها الممرضة « حزامك مشدود شـدا صحيحا .. ما ابدع جسمك وطولك » واجابتها الطفـلة « ليس حزامي مشدودا على الشاكلة الصحيحة ارجوك تعالي وشديه مرة اخرى » وقالت لها الممرضة « انا ذاهبة واطلبي من هذه السيدة الصغيرة ان تشده لك » وقالت الطفلة .. « كلا .. ابدا .. » وقالت لها الممرضة « لماذا ؟. انها سيدة صغيرة وفي منتهى اللطف . آمل ان تتصرفي معها تصرفا لائقـا وحسنا يا ميسي والا تبدي لها تبرمك منها او تعاليك عليها » . واجابتها الطفلة « قلت لك كلا .. كلا .. ابدا لا اريدها ان تلبسني ملابسي » .

وقالت الممرضة لها « شيء يدعوللضحك » وقالت لها الطفلة « لاينبغي عليك يا هريت ان تدخلي المشط مباشرة في شعري ودفعة واحدة لان اسنان المشط ستلتوي » وقالت الممرضة « تتحدثين بلهجة ليس فيها رجاء فهل يليق هذا بك ؟ » واجابتها الطفلة « حسنا .. واين سأذهب الآن بعدان ارتديت

twitter @baghdad_library

ملابسي ؟ » .. واجابتها الممرضة سآخذك الى غرفـــة الافطار » فاجابتها الطفلة .. « تعالي اذن » .

وما ان انطلقنا خارج البـــاب حتى توقفت الطفلة قائلة « آه .. يا هريت .. كنت اتمنى ان يكون هذا الدار دار ابي فانا لا اعرف هؤلاء الناس » وقالت لها الممرضة « كوني طفلة مؤدبة يا ميسي » واجابتهـــا الطفلة « انا مؤدبة ولكنني اشعر بألم في هذا المـــكان واومأت الى مكان قلبها وراحت تئن مرددة كلمة « ابي ... ابي .. ابي » .

ونهضت من فراشي ورحت اتفحص هذا المشهد وهـــو قريب مني وقالت هريت للطفلة « قولي للسيدة الصغيرة .. صباح الخـير » وقالت الطفلة لي « صباح الخير .. ثم لحقت بالممرضة هـريت من غرفتها » وحدث ان الممرضة غادرت الدار بصورة مؤقتة في ذلك اليـــوم لزيارة البعض من صديقاتها اللواتي كن يسكن بجوار الدار .

وعند نزولي وجدت بولينا في غرفة الافطار (اسمت الطفلة نفسها برلي علما بان اسمها الكامل كان بولينا ماري) وقـــد جلست الى جانب السيدة بريتون وامامها كوز من الحليب وملأت قطعة من الخبز يدها التي كانت موضوعة على منضدة الملابس ولكن لم تكن تأكل .

وقالت السيدة بريتون لي « لا ادري كيف نرضي هـــذه المخلوقة الصغيرة فهي لم تتذوق طعاما ويبدو من ملامح وجهها وعينيها انها لم تنم وقلت لها « انني على ثقة من ان هذا سيسوى بمرور الوقت وبابداء جانب العطف عليها دائما » واجابتني السيدة بريتون « لو انها ابدت ميلالاي شخص كان في هذا الدار لهان الامر ولسوي وضعها معنا ولكنها لم تبد مثل هذا حتى الآن » .

الفصـــل الثـــاني

ـ بولينـــا ـ

مرت بضعة ايام وظهر ان ليس هناك احتمال ان يكون لها ميـــل خاص لاي من اهل الدار رغم انها لم تكن بالشريرة ولا بالمكاره ولم يبد عليها قط انها غير مطيعة ٠ وانما كمن قلما سيفضي بها الامر الى السلوان بل حتى الى اقل من الطمانينة التي كانت تتظاهر بهـــا تظاهرا وكانت امكانية تحقيق ذلك امام مرأى الانسان نادرة ٠٠ كانت تستغرق بتفكيرها الكئيب وما كان بمقدور شخص اكبر منها سنا ان يكمل مهمتها العسيرة بصورة افضل مما كانت تفعله ٠

ولم يكن هنالك من وجوه ـ حتى وان كانت كالوجوه المتغضنـــة للمبعدين عن دورهم التي يتوقون اليها ـ تحمل امارات الحنين اليهـــا كالامارات التي كان يحملها محياها الطفولي ويبدو انها كانت تترعرع ولكن على هيئة غريبة وحيثما كنت افتح باب الغرفة كنت القاها جالسة في الزاوية وحيدة ورأسها في راحة يدها الصغيرة الناعمة ٠ انا المدعوة لوسي سناو بريئة من تلك اللعنة فقد كانت ذات خيال هائم مترقد وكنت اتصور ان غرفتها تلك غير مسكونة بل مسحورة ٠

وفي الليالي المقمرة حين كنت استيقظ كنت اعاين وجهها الجميل الابيض وهي في لباس النوم راكعـــة في منتصف الفراش تصلي او كقديسة باكرة النضوج جاءت قبل اوانها ٠ ومن النادر ان اعرف ماذا كان يدور في رأسي من افكار في مثل تلك الحالات وكل ما استطيع ان اقوله ان ذهنيتها كانت اصح واكثر عقلانية مما يمكن ان يملكه اي فكر طفـــولي ٠

وقلما كنت اسمع كلمة من كلمات صلواتها لانها كانت صلاة خافتة كالهمس واحيانا لم تكن تهمس همسا قط وانما تند عن فيها بلا لفظ غير ان بعض عباراتها النادرة التي كانت تصل اذني كانت تحمل هـــذا المبء ٠٠٠ ابي ٠٠٠ ابي العزيز ٠٠ واحسست ان مثل هذه العبارات كانت ذات طبيعة احادية الفكرة تلفظ الاتجاه الاحادي المس الذي غالبا

twitter @baghdad_library

ما يتعرض له الشخص الاتعس حظا باللعنات والاعذبة (جمع عذاب) ويا ليت شعري ما الذي سيؤول اليه هذا القلق والاضطراب لو استمر دون ان يوضع له حد ؟ انه طي الحدس والتخمين ... وظهر أن حدثا فجائيا قد طرأ .

في ظهيرة احد الايام حاولت السيدة بريتون ان تثنيها ـ باللطف ـ عن عادة جلوسها في زاوية الغرفة وحولتها الى مقعد بجانب الشباك ولتحويل وجهة اهتمامها الى وجهة اخرى طلبت منها ان تراقب المارة وتتفرج عليهم وتعد كم سيدة تكون قد مرت من الشارع ضمن وقت محدد . وقد جلست ميسي كسلى فاترة الهمة قلما تراقب او تتفرج على من يمشي في الشارع ودون تعداد .

ولما كانت عيناي مسمرتين عليها فقد لاحظت من خلال قزحيتهما خطرا خارجيا مروعا . ان هذه الطبائع الخطرة المفاجئة التي تسمى بالحساسة تبدي وتظهر الكثير من المشاهد الغريبة امام اولئك الذين تصونهم طبائعهم الباردة عن ان يسهموا في تقلباتهم واوهامهم المزوية. وطافت النظرة المتفرسة وارتعشت ثم تألقت كتألق لهيب النار ، واستنار حاجبا الصغيرة المعتمان واستنارت ملامحها وتوارت السيماء الحزينة وحل محلها شوق مفاجيء وترقع انفعالي . ونددت عن شفتيها الكلمتان التاليتان .. انه هو .. انه هو ..

وخرجت من الغرفة بسرعة الطير او بسرعة اي شيء يتصف بالسرعة ولا ادري كيف وجدت باب الدار مفتوحة .. ربما كان مفتوحا بشكل جزئي وربما كان الرجل الذي رأته « وارن » يمضي في طريقه فاطاعها ونفذ مطلبها الذي ربما اعتبر طائشا بما فيه الكفاية . لقد شاهدتها وانا ـ اراقبها من الشباك بهدوء ـ تمرق كالسهم وسط الشارع في ثوبها الاسود ومئزرها المزركش الصغير وتقطع نصفه .

وعندما هممت ان أنبيء السيدة بريتون بأن الطفلة جنت وان من الضروري ملاحقتها في الحال وجدت ان احدا امسك بها فاختفت عن ناظري بعد ذلك وظهر ان سيدا من بين المارة المدهوشين قام بهذه الفعلة الجيدة فقد لفها في معطفه الفضفاض وتقدم قبالها ليسلمها الى الدار التي رأها خرجت منه . وظننت انه سيسلمها للخادم ثم يعود الا انه دخل الدار بها وبعد ان تلكأ هنيهة في ارضية البيت صعد بها الى الطابق الفوقاني.

وظهر من حسن استقبال السيدة بريتون لذلك السيد انه كان معروفا لديها فقد عرفته ثم حيته وظهر انه كان مضطربا ومستغربا وانه فوجيء دون علم منه بذلك . حتى ان نظرتها وسلوكها دلتا على ما يشبه المجادلة والتانيب وجوابا على ذلك وبدلا من الكلمات قال « ماكان لي بد من ذلك آيتها السيدة فقد احسست بأن من المستحيل ان اغادر البلد دون ان اطمئن على مشاهدتها مستقرة وقالت له « ولكنك بذلك لن تجعلهـــا مستقرة » فأجاب « أمل الا يكون الامر كذلك » .

وسال الرجل بولينا بعد ان جلست بلطف على الارض امامه « كيف حال والد بولي ؟ » واجابته بلهجة التساؤل وهي متكئة على ركبته ومتفرسة في وجهه « كيف حال والد بولي ؟ » ولم يكن ذلك بالمشهد المليء بالضوضاء او بكثرة الكلام وكبرت فيها ذلك وانما كان مشهد الشعور المترع المليء ولان الكأس لم تصعد رغوته الى فوق ولم يطفح بشدة كان ذلك ادعى الى زيادة الالم والعذاب لدى المرء ففي كل المناسبات الملتهبة بالعنف والاتساع السائب يكون التحسس بالازدراء والسخرية مدعـاة لارتيـاح المشاهـد المرهـــق .

لقد كان المستر هوم ذا محيا صارم او بالاحرى رجلا عنيفا جبينـه ذو عقد ونمطا خديه بارزان وشكل وجهه يدل على انه لابد ان يكون مـن اسكتلندا ويشع الاحساس من عينيـه والعواطف من محيـــاه المنفعل الان وكانت لهجته الشمالية تنسجم اثناء الحديث مع اساريره ويستحيل بذلك توا من منظر المتكبر الى منظر رجل الدار وقد وضع يده على رأس الطفلة المرفوع اليه فقالت له الطفلة « قبل بولي .. » فقبلها ..

وكنت اود منها ان تجهش ببكاء هستيري ولو لمدة قليلة كي اتنفس الصعداء ويرتاح بالي الا انه لم يكن يصدر عنها سوى بعض من الضوضائية ويظهر انها كانت تحصل على ما تريده .. كل ماتريده .. وتحظى بنشوة القناعة ولم تكن تلك المخلوقة تشبه من آنجبها لا من حيث سيماء الوجه ولا مـن حيث المنظر عـدا ارث العنت والاجهاد .. لقد امتلأ ذهنها من ذهنـه كامتلاء الكاس من القنينة او من الابريق .

والذي لا جدال فيه ان المستر هوم كان يسيطر سيطرة رجولية عـلى نفسه وربما كان يشعر شعورا خفيا فيما يخص بعض القضايا ، وقال وهو

twitter @baghdad_library

ينظر صوب طفلته ·· « اذهبي الى غرفة الجلوس حيث تجدين فيها معطف بابا موضوعا على كرسي ·· ضعي يدك في جيبه وستعثرين على منديل في الجيب المخصص لوضع المنديل فأجلبيه معك لي »واطاعته فذهبت وعادت بالمنديل برشاقة وفطنة وكان يكلم السيدة بريتون آنذاك فانتظرت والمنديل بيدهـا ·

وكان مشهدا جميلا ان ينظر اليها المـــرء بقوامها الصغير وهيكلهـا الانيق المزخرف وهي جالسة على ركبته وبعد ان شاهدته الطفلة وهـــو يواصل السير دون ان يعلم بوجودها امسكت بيـــده فاتحة اصابعها دون مقاومة حيث دست المنديل بينها ثم ثنت الاصابع واحدة فواحدة عليها وظل كما لو انه لم يشاهدها ولم يتحسس بوجودها واستكانت اليه ومع ان احدا منهما لم ينظر الى الآخر ولم يكلمه طوال ساعة من الزمن فانني موقنـة بانهما كانا يستشعران الراحة والرضى بذلك ·

واثناء شرب الشاي كـــان الناظر اليهما يهتـم بدقائق الاشيـــاء والسلوكيات ففي اول الامر كانت توجه اباها في وضع الكراسي ··«ضع كرسي بابا هنا وضع كرسيي انا بجانبـــه وعلي ان اعطيك كوب الشاي بنفسي وجلست على مقعدها وأومأت بيدها الى كرسي والدها في الطريق واخذته ثم حركت السكر ووضعت القشدة عليه بنفسها وقالت لابيها « كنت دائما افعل ذلك لك في الدار ولا احد يستطيع ان يفعل ذلك احسن مني حتى لو كنت انت بنفسك » ·

وعندما دنا ميعاد تناول وجبة الطعام واصلت ملاحظاتها واهتمامهـا حتى وان بدا ان بعضها كان يتصف بالسخف فقـــد كانت ملاقط السكر اوسع مما تحمله احدى يديها بكثير لذلك اخذت تستعمل كلتا يديها لتدبر ذلك · ان ثقل كوز القشدة الفضي وصحون الخبز والزبدة واقداح الشاي ذاتها ارهقت قواها الواهنة كما اوهنت قوتها الابداعية ومع ذلك ترفـع هذا وتمسك بذاك وتسعى جاهدة لتجنب كسر اي شيء مما جاء ذكره واذا تحريت الصراحة ينبغي ان اقول انها كانت جسما منشغلا رغم صغره غير ان اباها ـ وما اعجـب ذلك ـ كـان يرضيـه ويروق له ما تقوم بـــه من مثل هذه المهمات ·

وكان لا يألو جهدا في ان يقول للسيدة بريتون ان الطفلة كانت سلواه الخاصة ومصدر رضاه وان لا نظير لها على اوسع مـــدى وكانت السيدة

بريتون بغياب الطفلة تتعاطف مع نقاط ضعفه هذه وظهرت سلواه الثانية على المسرح في احدى الامسيات وكنت اعـــرف ان تلك الامسية خصصت لعودته وكنت عـــلى علم من ان السيدة بريتون كانت تنتظره طوال ذلك الوقـت ٠

وكنا جالسين حول النار بعد تناول الشاي عنـدما انضم غراهام الى مجلسنا بل اقول عندما قطعه علينا فقد كان لمجيئه وقع صاخب ففي الوقت الذي كان فيه المستر غراهام كثير الحركة قدمت وجبات الطعام والشراب الخفيفة وكان قد التقى بالمستر هوم منذ زمن واصبح الواحد منهما يعرف الاخر ولكنه لم يكن قد عرف الطفلة الصغيرة لذلك ظل لا يأبه بها لمدةما٠

وعندما انهى وجبة طعامه وبعد ان اجابت والدته على اسئلتهالكثيرة تحول من مقعده حول المنضدة الى الموقد وقبالته المستر هـوم والى مقربة من مرفقه الطفلة ٠

وعندما اقول ٠٠ طفلة ٠٠ اكون قد استعملت عبـارة غير مناسبة وغير واصفة ٠٠ عبارة توحي اية صورة ماخلا صـــورة الشخص الصغير الرزين المرتدي ثوب الصباحوصدريته البيضاء التي تناسب اية‌دمية ذات حجم حسن موضوعة الان على كرسي عال بجانب مسند عليه علبـة حفظ الدمى صنعت من الخشب الصقيل الابيض وفي يدها منديل تعالجحاشيته وتغرز فيه ابرة بصبر ومثابرة تبدو بيدها كما لو انها سيخ تغرز فيـه نفسها بين الفينة والفينة وتميز قماشه القطني الابيض بصف منتظم من النقط الحمراء الدقيقة وعندما يفلت زمام السيخ من سيطرة يدها تأخذ في طعنه بهدوء طعنة اعمق من المعتاد وتواصل الاهتمام والانشغال بشكل نسوي صائب ٠

وكان غراهام في ذلك الوقت شابا ظريفا وسيما لا يمكن الوثوق به في السادسة عشر من سنه وعندما اقول لا يمكن الوثوق به فليس معنىذلك انه كان في الحقيقة يتسم بالغدر والخيانة تماما وانما لان الوصف راق لي فوجدت ان من الصائب ان اصف بـه الحـالة السابقة (اللاسكوتية) لنظراته الرائقة ووضعية شعره المتموج اللماع الخفيف اللون باللونـين الاحمر والاسمر المتناسقين في تمازجهما ، والابتسامة المتكررة التي لاتدل على الفتون ولا على المكر وليس من باب التحسس السيء اذا قلنا انه كان في تلك الايام ولداً فاسداً غريب الاطوار والنزوات ٠

twitter @baghdad_library

وقال غراهام لوالدته ـ بعد ما شاهد الطفلة الصغيرة امامه وهي ملازمة الصمت مشوارا من الزمن بعد ان غاب المستر هوم مؤقتا عن الغرفة وحرره غيابه من الخجل نصف الضحوك وهو كل ما كان قد تعلمه من خوفه وعدم ثقته بنفسه ـ « ... اماه ... امامي سيدة صغيرة في مجمعنا العالي الذي لم اقدم اليه » .. واجابته امه « اتراك تعني ابنة المستر هوم ؟ » وقال لها ولدها « نعم ايتها السيدة ارى ان عباراتك خالية من اقل قدر من الرسميات فهي اذن الآنسة هوم هذه التي لمحت اليها » .

وقالت له والدته « الآن يا غراهام اوصيك بألا تزعج اوتكايد هذه الطفلة ولا تشبع بها كبرياء نفسك المغرورة بأن تجعلها اضحوكة امام الآخرين » .

ولم يهتم غراهام بما قالته والدته بل تقدم الى الطفلة قائلا لها .. « الآنسة هوم .. هل تسبغين علي شرف تقديم نفسي اليك ما دام احد لم يقدم لك ولا لي مثل هذه الخدمة ؟ انا عبدك جون غراهام بريتون » ونظرت الطفلة اليه وهو ينهض وينحني امامها بمهابة والقت بما كان لديها من مقصات صغيرة ونزلت باحتراس وحذر من مقعدها وبأدب جم لا مثيل له قالت له .. « كيف حالك ؟ » .

واجابها « لي الشرف بأن اكون في صحة جيدة ما خلا انني احس احيانا ياجهاد عندما اقوم بسفرة مستعجلة . آمل ايتها السيدة ان اراك بصحة جيدة » واجابته بكلمات متلعثمة « .. انني بصحة جيدة » . وحاولت الان ان تستعيد مقعدها ولكنها وجدت انها لا يمكنها ان تفعل ذلك دون صعود او بذل جهد ومعنى ذلك التفريط باللياقة والذوق ناهيك عن الترفع التام عن العون في حضرة شاب مهذب غريب ولذلك استعاضت عن الكرسي العالي بمقعد واطىء سحب غراهام كرسيه على مقربة منه وقال لها « آمل ان تعتبري اقامتك الحالية في بيت والدتي مكانا مريحا لسكناك » واجابته بكلمات يسري فيها التلعثم « ليس بالضبط فانا اروم الذهاب الى بيتي » وقال لها « انها رغبة طبيعية جديرة بالثناء ولكنني ساسعى جهدي للحيلولة دون ان تذهبي الى دارك وأرى انني قادر على ان استخرج من وجودك شيئا من تلك السلعة الثمينة التي يقال لها .. التسلية .. وهي مالم تقدر السيدة « سناو » ولا والدتي ان توفرها لي » واجابته الطفلة « سأذهب مع والدي بسرعة ولن ابقى مدة اطول في بيت امك » .

وقال لها غراهام « ستبقين معي ·· انا متاكـــد من ذلك ·· فلدي فرس صغيرة جدا تركبينها وما لا عد له من الكتب المصورة افرجك عليها» وقالت له « اتراك ستعيش هنا في الوقت الحاضر » فاجابها « نعم الايروق لك ذلك ·· هل تحبينني ؟ » فاجابته « كلا ·· » وسالها « لماذا ؟ » فاجابته « ارى انك شاذ غريب الاطوار » فقال لها « هل ان وجهي يدلك على ذلك؟»

وقالت له مجيبة « وجهك وكل مافيه ··لكشعر طويل احمر» وقال لها انه شعر مزيج من اللونين الاسمر والاحمر وهذا ما تصفه به والدتي او قولي ان لي شعرا ذهبيا كما تقول كل صديقاتها ولكـــن حتى بشعري الطويل الاسمر ــ وهنا حرك خصلة منه بنوع من الازدهاء وهـــو عارف تماما انه كذلك وفخور بخصله الشبيهة بشعر الاسد ــ حتى بشعري هـــذا لا يمكن ان اكون اقل غرابة من مقام السيدة » ·

وقالت له « اتسميني غريبة الاطوار ؟ » فاجابها « بالتاكيـــد ·· » وبعد برهة قالت له « اظن انني ينبغي ان اذهب لانام » وقال لهـــا « ان مخلوقة صغيرة مثلكان ينبغي انتكون في فراشها نائمة قبل الان بساعات عديدة ، بيد انك ربما بقيت حتى الان غير نائمة لكي تشاهديني » وقالت له « ليس الامر كما تتصور ابدا » فاجابها « انت تريدين ــ بالتاكيد ــ التمتع بلذة ملاقاتي وكنت تعرفين انني عائد الى البيت فانتظرتيني لـــكي تشاهديني » وقالت له « انا انتظرت والدي لا انت ·· » فاجابها « حسن جدا ايتها الانسة هوم ساكون المفضل لديك واتجراعلى القول بانك سرعان ما ستفضلينني على والدك فماذا تقولين ؟ « ·

وكان جوابها انها ودعت السيدة بريتون وودعتني انا ايضا وبـــدا عليها التردد فيما اذا كان ابتعاد غراهام عن الدار يحدو بها الى ان تودعه هو ايضا وما كان من غراهام سوى ان يمسك احدى يديها بيـــده الواحدة ويرفعها باليد الاخرى فوق رأسه ووجدت نفسها في مرأة الموقد وقدرفعت الى ذلك العلو · وكانت تلك الحركة الفجائية التي قام بها بتلك الحريـــة غير آبه باحترامها اكثر مما تقوى على تحمله فصاحت به متبرمة ومستاءة « عيب عليك يا غراهام ·· انزلني وعندما وثبتت مرة اخرى على قدميها قالت له « ماذا كنت ستقول عني لو انني عاملتك مثل معاملتك الحانية لي ورفعتك بيدي انت الشخص القوي كما يرفع «وارن » بيده قطته الصغيرة » وبعد الذي قالته مضت الى فراشها ·

twitter @baghdad_library

الفصـــل الثـــالث

ـ التربـــان ـ

لقد مكث المستر هوم يومين وخلال زيارته هذه لم يتسن له الخروج ، انما كان يجلس طيلة النهار بجانب الموقد صامتا احيانا واحيانا اخـــرى مجيبا على اسئلة السيدة بريتون ومحاورا اياها محاورات من النمط المناسب الخاص برجل ذي نفسية مريضة ولم يكن الحديث متجانسا جدا او ممعنافي التعاطف او فيالعقلانيةولكن كانت تتخللهلمسات الرقة الامومية التحنانية ولانها اكبر منه سنا فقد سمحت له بذلك ·

وبالنسبة لبولينا كانت تلك الطفلة سعيدة صامتة ، منشغلة ،يقظة وكان ابوها غالبا ما يرفعها ويجلسها على ركبته وتبقى هكذا حتى تحس او تتصور بانه اخذ يتضايق ويخفي ذلك عنها ، وحينذاك تقـــول لـــه « ·· بابا ·· انزلني فانا اتعبتك بثقلي وتكون النتيجة انزال الثقل على السجادة او البساط او وقوفها قريبة من قدم والدها ثم يجيء دور لعبها في علبة المواد البيضاء والعمل بتطريز المنديل بالنقط القرمزية بغيـــة اعطائها كما كان يبدو لابيها كتذكار منها له ولهذا سعت لانهائها قبل ان يحين ميعاد رحيله وراحت تعمل بسرعة بحيث انها انجزت حوالى عشرين غرزة بنصف ساعة ·

وبعودة غراهام الى بيت الامومة بعد امضائه الايام في المدرسة جاءت لنا احدى الامسياتبقدر كبيرمن الحيوية والنشاط والانتعاش وهي نوعية لم تقلل منها طبيعة المشاهد التي حدثت مابين غراهام والفتاة بولينا وساد سلوك متغطرس غير ودي فرضه غراهام على الطفلة عند اول امسية وصوله وكان جوابها الاعتيادي عندما يخاطبها « لا اريد اصطحابك فلـــدي اشياء اخرى اعني وافكر بها لا شأن لك بها انه الشغل والعمل » وكان غراهام يحاول اغراءها لتركيز اهتمامها بفتح خزانته وعرض محتوياتها المتعددة الانواع من اعواد شمعية لماعة واوراق ملونةوسكاكين الاقلام او المطوايات الجميلة ونقوش بعضها ملون تلوينا زاهيا جمعها شيئا بعد شيء ·

ولم تكن قد شاهدت من قبل هذه الاشياء المغريةكلها ولذلك كفتعن الاهتمام بعملها وراحت تسترق النظر اليها ثم القت بنظرات عديدةعلى

twitter @baghdad_library

موجودات منضدته او رحلته الكتابية الغنية بالصور المبعثرة هنا وهناك، وتركز بصرها على صورة طفلة تلعب مع كلب صغير قصير القوائم وقالت بفرح « ما اجمل هذا الكلب » وتظاهر غراهام بانه لم يسمع هذه العبارة.

وسرعان ما اختلست نظرة من زاويتها قامت على اثرهـــا وتقدمت لتفحص الكنز عن كثب .. لقد كانت مناظرعيني الكلب الواسعتين واذنيه الطويلتين وقبعة الطفلة وريشها مما لا يمكن مقاومة مغرياتها وعلقت على ذلك تعليقا مناسبا بقولها « ما ابدع هذه الصورة » واجابهـــا غراهام « حسنا اليك بها فخذيها » وبدا عليها التردد لان رغبة التملك كانت قوية اما قبول الصورة فكان من قبيل المساومة على الكرامةوالترفع لذلك اجابت « كـــلا » ووضعتها في محلها وتحولت عنها .

وقال لها « اذن لا تريدين الصـــورة يا بولي » واجابت « لا اريدها وشكرا » وقال لها « هل يحسن بي ان اعلمك بالذي سأفعله بالصورة ان لم تقبليها مني ؟ » واستدارتنصف استدارة لتصغي«انني ساقطعها اربا اربا لتنوير الشمعة» واستعطفته « كلا لا تفعل ذلك » وقال لها «لابد ان افعل ذلك » واجابته « رجاء ... لا تفعل » واستبد بغراهام الغضب عند سماعه لهجة الرجاء واخرج المقصات من سلة اعمال والدته وقال « اليـــك ذلك » بلهجة التهديد ومرر المقص ابتداء من رأس فيدو وقص انف هاريوهي تصيح « لا . لا . لا » .

وقال لها « اذن تعالي الي .. تعالي بسرعة والا فعلتها » وترددت ثم تلكأت ولكنها امتثلت اخيرا وقال لها وهي تقف أمامه « والان .. هـــل ستاخذينها ؟ » فاجابت « من فضلك ... » وقال لها ولكنني ساطالبك عنها بثمن واستفسرت منه « كم تريد عنها ؟ » فاجابها « اريد قبلة » واجابتـــه « سلم لي في اول الامر الصورة » ونظرت بولي اليه ـ عندما قالت ذلكله ـ نظرة المرتابة ولكن غراهام سلمها الصورة ، الا انها أبت أن تعتبر نفسها مدينة وبحركة سريعة فرتصوب ابيها واحتمت بركبتـــه ونهض غراهام بحنق يثير الضحك والسخرية وتبعها غير انها غطت وجهها تحت معطف ابيها قائلة له « بابا ... بابا ... ابعده عني » .

وقال غراهام « لن يبعدني احد عنك »واخرجت الطفلة يدها ووجهها لم يزل مخفيا لكي تبعده عنها وقال غراهام « اذن ساقبل يدك » ولكن يدها استحالت انذاك قبضة صغيرة دفعت له بها عملة نقدية من الفئة الرخيصة

...لا من القبلات غير ان غراهام الذي لم ينقصه ان يكون ماكرا كمكر تربه الصغيرة تراجع متظاهرا بالخيبة التامة ورمى بنفسه على الاريكة السريرية ، ووضع يده على المخدة واضطجع كمن مسه ألم . اما بولي التي وجدت ان لا صوت يصدر عنه فقد رنت الى عدوها باشتياق ورغبة بعد ان رفعت رأسها عن ركبة ابيها وكان غراهام لا يزال يئن .

وهمست بولي باذن ابيها .. « ما الخبر ؟ ماذا دهاه ؟ » فاجابها « يحسن بك انت ان تسأليه يا بولي » وتساءلت « هل يؤلمه شيء ؟ هذه المرة ثانية وقال لها المستر هوم « يند عنه صوت كصوت الانين » ونادى غراهام امه بصوت ضعيف قائلا « ماما ابعثي لي بطبيب آه يا عيني » (صمت آخر لم تقطعه الا تأوهات غراهام) وقال في المرة الاخيرة « ربما سيصيبني العمى » .

ولم تقو مؤدبته على تحمل اكثر من ذلك واتجهت اليه مباشرة واصبحت الى جانبه وقالت له « دعني ارى عينك ، لم اكن اريد اصابتها وانما اردت ان المس فمك فقط بيدي ولا اظن ان صدي لك كان قويا » وكان جواب كلامها صمت من غراهام واستدركت قائلة « انا آسفة » ثم اعقب ذلك صمتها انفعال فتداع فبكاء ، وقالت السيدة بريتون « هل غراهام ازعج تلك الطفلة ؟ » واجابها المستر هوم « لا شيء في الامر سوى الهراء ياعزيزتي » اما غراهام فقد خطفها مرة اخرى وعلاها بيديه وراحت هي تعاقبه وتجرجر بخصل شعره الشبيهة بما للاسد ونعتته بشر الناس وآسوأهم واكذبهم واكثرهم فظاظة وحماقة .

وفي صبيحة اليوم الذي ازمع فيه المستر هوم على الرحيل ، دار حديث بينه وبين ابنته في خلوة كائنة بقرب النافذة ، سمعت جزءا منه ، لقد سمعت بولي تقول لوالدها « الا استطيع اعداد ملابسي في صندوق لمرافقتك في سفرتك يا ابي ؟ » فهز رأسه بالرفض وقالت له « هل اكون مصدر ازعاج لك في ذلك ؟ » فاجابها « نعم ... يا بولي » وقالت له « هل ان ذلك بسبب كوني صغيرة السن ؟ » فاجابها والدها قائلا : « لانك صغيرة وضعيفة ، الذين يسافرون يجب ان يكونوا كبارا اقوياء ولكن لا يجوز لك ان تحزني لذلك يافتاتي الصغيرة ، فذلك يفتت قلبي وبابا سرعان ما سيعود الى بولي » واجابته « احقا ما تقول يا والدي » لست احزن لذلك قط وبولي لا تريد ايلام والدها لان ذلك

twitter @baghdad_library

يؤلمها هي اليس كذلك يا ابي ؟ اسفي البالغ لما قلته » ٠

وقال لها والدها « اذن ينبغي على بولي ان تبتهج للسفر ولا ينبغي ان تبكي على الفراق ما دمنا سنلتقي مرة اخرى وتطلعي الى هـــذا اللقاء وانعمي بالسعادة طيلة المدة فهل تعديننني بذلك ؟ واجابته بولي«ستحاول التوصل الى ذلك » وقال لها « املي في ان تفعلي ذلك »٠٠وداعا٠٠ حان وقت الرحيل وسألته « الان في هذه اللحظة ؟ » فاجابها « نعـم ٠٠٠ في هذه اللحظة » ٠

وحاولت اخفاء شفتين مرتجفتين كشفتي من يهـم بالبكاء وانتحب ابوها ولاحظت انها لم تفعل ذلك ٠ وبعدان انزلها من حضنه صافح من كان موجودا هناك ثم فارقهم وعند غلق الباب الخارجي المشرف على الشارع هوت بولي على ركبتيها وامالت برأسها عـــلى الكرسي وراحت تبكي ٠٠ ابي ٠٠ ابي ٠٠ وتقول بصوت خافت متواصل « لماذا خذلتني ؟ لمـــاذا تخليت عني ؟ » ٠

وخلال فترة فراغ دامت بضع دقائق احسست انها تتألم وتتعذب ، وراحت تكابد ما تكابده في تلك الفترة القصيرة من حياتها الطفولية ـ حيث ان بعض الذين هم في سنها لا يستشعرون العواطف ـ كانت عواطفها هي في جوهـر تكوينها ولو انها عاشت لاستبان لهـــا المزيد من مثـل تلك اللحظـات ، وسـاد سكون لم يتكلم فيه احد فالسيدة بريتون ـ لكونهـا اما ـ ذرفت دمعة او دمعتين وغراهام الذي كان يكتب رفع عينيه وعاينها طويلا وانا « لوسي سناو » كنت محتفظة بهدوئي » ٠

وتركت المخلوقة الصغيرة دون ان يزعجها احد تفعل لنفسها مالا يقوم احد غيرها على فعله ، تناضل لكبح مشاعر لا سبيل الى كبحهـــا ولا تحملها وسرعان ما استطاعت ـ الى درجة ما ـ كبتها وكانت في ذلك اليوم في حالة نفسية لا تستطيع تحمل التعزية او المواساة من احد وكذلك في اليوم الثاني وبعد ذلك اذعنت ٠

وفي الامسية الثالثة بينما كانت جالسة على ارضية الحجرة مرهقة صامتة دخل غراهام ورفعها بلطف دون ان ينبس ببنت شفة ولم تقاومه انما على العكس استكانت في حضنه كما لو انها حزينة ومرهقة وعندما جلس اسندت رأسها اليه وبعد بضع دقائق استسلمت للنوم فحملهـا الى فراشها في الطابق الاعلى ولم استغرب في صبيحة اليوم التالي ان يكـون اول سؤال لها هو « اين المستر غراهام ؟ »

وحدث ان غراهام لم يحضر مائدة الافطار لانهماكه في اعدادبعض التمارين الكتابية لدرس الصباح ذاته وكان قد طلب من والدته انتبعث له بكوب من الشاي الى مكتبه الذي يدرس فيه في الغرفة وقد تطوعت بولي لحمله اليه بعد ان ظهر ان والدته انشغلت بامر ما وهي تنتظر شخصا ما فعهدت بالكوب اليها وهي وان كانت في وضع قلق فقد كانت تتصف بالاهتمام والعناية ولان غرفة دراسة غراهام كانت مقابل غرفة الافطار والبابان يتواجهان في الممر ، فآن عيني لاحقتاها وهي تقوم بمهمتها تلك ٠

وتوقفت برهة عند عتبة الغرفة وسألته « ماذا تفعل ؟ » فاجابها اكتب واجباتي » وسألته « لماذا لا تاتي لتتناول فطورك مع امك » ؟ فاجابها « انا منشغل جدا » وسألته « هل تريد اي فطور ؟ » فاجابها « طبعا اريد » وقالت له « اذن اليك الفطور » ثم وضعت كوب الشاي على البساط كما يضع السجان طاسة ما لسجين في غرفته وقالت وهي تهم بالعودة «ماذا تريد علاوة على كوب الشاي وماذا تريد ان تآكله ؟؟ » فاجابها « اي شيء حسن اجلبي لي شيئا يكون بديعا بصورة خاصة كآن تكون امرأة صغيرة تتصف بالشفقة والرحمة » ٠

وعادت الى السيدة بريتون وقالت لها « ارسلي لولدك شيئا جيدا » فاجابتها السيدة « انت اختاري له ذلك يا بولي فماذا يريد ولدي ؟ » وآنتقت قسما من كل شيء مفضل على المائدة وسرعان ما عادت ببعض المربى التي لم تكن موجودة بعد ان اسرت للسيدة بريتون همسا انه يريد شيئامنها علما بان السيدة بريتون لم تكن ترفض اي من الاثنين ٠

وقد سمعت بعيد ذلك ان غراهام اوصل بولي الى السماء امتداحا ووعدها بانه عندما سيحصل على دار له في المستقبل فانه سيعينها طباخة فيه اذا اظهرت عبقرية طباخية ٠ وعندما وجدت انها لم تعد ذهبت لارى اين هي فوجدتهما يتناولان فطورهما وجها لوجه وكانت هي على مقربة منه تشاركه الطعام وتقبل منه المربى التي كانت ترفض في السابق لمسها كياسة لئلا يبدو انها تتناول منها اكثر مما يتناول هو منها وكانت تقدر حق التقدير وتفهم حق الفهم مثل هذه الاشياء الحسية الملزمة لقواعد الذوق السليم ومثل هذه الامور الغرائزية الكيسة ٠

ان صلة التعارف اللتي تاصلت بمثل هذهه الصورة لم يكن من السهولة بمكان فصم عراها او حلها انما على المعكوس من ذلك ظهر ان

twitter @baghdad_library

الزمن والظروف عززتها ومتنتها دون ان توهنها ولما كان الاثنان مختلفين عمرا وجنسا واتجاها وفي غير ذلك وجدا الكثير مما يمكن ان يقوله احدهما للاخر وبالنسبة لبولينا لاحظت ان شخصيتها الصغيرة لم تظهر ازدهارا بشكل صحيح مع بريتون الصغير الشاب . وباستقرارها في الدار وتألفها معه واعتيادها اياه برهنت على انها على انسجام ووئام كاف مع السيدة بريتون .

وكانت تجلس على المقعد المقابل للسيدة بريتون او على قدمها النهار بطوله تتعلم منها كل ما كانت تعمله من واجبات بيتية كالخياطة او رسم الصور بريشة الرسم على اللوح الاردوازي ولم تحاول بعد اضرام نار أصالتها او اظهار اية ومضة من ومضات خصائصها السابقة من طبيعة او سجية . وقد كففت عن مراقبتها لانها بمثل تلك الظروف المستجدة لم تكن تثير الاهتمام ولكن كلما كان غراهام يطرق الباب عند حلول المساء كان يحدث تبدل .. كانت في الحال تصل الى بيت السلم ويكون ترحيبها به عادة تأنيبا او تهديدا كان تقول له « انك لم تنظف حذائيك تنظيفا جيدا على الممسحة وساخبر والدتك بذلك » . ويقول لها « هل انت هناك ايتها الفضولية الصغيرة ؟ » .

وتقول له « نعم ... وانت عاجز عن الوصول الي فانا اعلى منك» ثم حاولت اختلاس النظر اليه من بين قضبان عمود الدرابزين فعجزت عن ذلك وسمعت صوته يصيح بها .. « بولي .. » واجابته « ماذا يا ولدي العزيز » (مقلدة تعابير والدته عند التحدث معه) وقال لها « انني على وشك الاغماء من الاجهاد والتعب المفرط » وقال وهو يميل باتجاه حائط الممر وهو في حالة اعياء « الدكتور ديغبي مدير المدرسة اثقلني بكثرة الواجبات فانزلي وساعديني في حمل الكتب » .

وقالت له « آه .. ما اخبثك واكثرك مكرا » واجابها « ابدا يابولي انها مجرد حقيقة لا اكثر ولا اقل فانا ضعيف وواهن كعود نبات السمار الاجوف فانزلي الي » وقالت له « ان عينيك كعيني القطة تماما وانك على وشك الوثوب » واجابها « الوثوب ؟ لا شيء من هذا القبيل وليس بمقدوري ذلك فانزلي » واجابته « ربما سانزل ان وعدت بعدم لمسي او خطفي او الدوران بي في الهواء » واجابها وهو غاطس وسط الكرسي « لا اقوى على ذلك » وقالت له « اذن ضع الكتب على اولى درجات السلم وابتعد مسافة ثلاث ياردات » .

وبعد ان فعل ذلك نزلت بحذر واحتراس دون ان ترفع ناظريها عن غراهام المتعب الواهن وبطبيعة الحال كان دنوها منه كالتيار الكهربائي الذي يوصله بحياة جديدة وافرة النشاط والحيوية ومن المؤكد ان لعبة المرح الصاخب كانت تنجز بينهما ، كانت احيانا تغضب واحيانا اخرى تسمح له بذلك دون شكوى او تذمر وكنت اسمعها تقول له اثناء صعودها معه الى الطابق الاعلى ٠٠ » والان يا ولدي العزيز تعال لاحتساء كوبك من الشاي وانا موقنة بانك لابد ان تكون بحاجة الى شيء ما ٠

لقد كان منظرا يثير الضحك تماما ان يشاهدها المرء وهي جالسة بجانب غراهام ففي غيابه تبقى على ما هي عليه من شخصية ، اما معه فتصبح من اكثر الناس فضولا ومن اكثر الناس اسرافا في تقديم الخدمة وارضاء المقابل ، وكنت غالبا ما اتمنى ان تهتم بشؤونها لتصل الى هدوء النفس ولكن الامر لم يجر كذلك لانها كانت تنسى نفسها فيه وما كان احد مثلها ينتظره بفارغ الصبر وما كان احد مثلها يبدي جانب الاهتمام والعناية العظيمة به ٠

كان في نظرها كالامبراطور التركي وكانت بحضوره تجمع امامه مختلف انواع الاطعمة والمآكل وعندما كان المرء يتصور ان كل شيء امامه جاهز لارضائه وفي متناول يديه كانت تهتدي الى شيء اخر هو بحاجة اليه وتسر في اذني السيدة بريتون قائلة « ايتها السيدة ربما كان وليدك بحاجة الى قطعة من الكيك ٠٠ الكيك الحلو ٠٠ فهناك تجدين هذا الكيك (وتشير الى خزانة حفظ المآكولات) ومع ان السيدة بريتون لا يكون صوابا برأيها تناول الكيك الحلو مع الشاي الا انها كانت تلح عليها بطلبه له « قطعة صغيرة واحدة له فقط » وعند ذهابه الى المدرسة لا تكون فتيات مثلها او كمثل الآنسة سناو بحاجة الى رعاية الا انه كان يريد ذلك دائما ٠

نعم كان غراهام يريد ذلك تماما وكان دائما يحصل على ما يريده وعندما كانت تقوم بخدمة له ويحظى بما يريد كان يشاركها الغنيمة التي حصل عليها بسببها ولكنها لم تكن تسمح له بان يقدم لها شيئا مما يحصل عليه واذا الح عليها لاخذه كان ذلك معناه ازعاجها واشمارها بالكدر طيلة المساء وكل كما كانت تروم هو الوقوف بجانب ركبته واستثمار حديثه وملاحظاته تلك كانت المكافأة التي تهتم وتعنى بأمرها وليس مشاركته قطعة الكيك ٠

twitter @baghdad_library

وباستعداد غريب استطاعت ان تكيف نفسها مع كل الاشياء التي تثير اهتمامه وربما ظن ان ليس للطفلة ذهنية خاصة بها او حياة خاصة بها وانما من الضروري ان تحيا وتتحرك وان يكون كيانها في كيان اخر والان بعد ان اخذ والدها منها اخذت تستكين لغراهام وبدا كما لو انها تشعر بنفس مشاعره وتتواجد بنفس تواجده وكيانه ٠

لقد تعلمت اسماء كل التلاميذ المتواجدين معه في المدرسة بلمح البصر وبالسرعة الممكنة وحفظت عن ظهر قلب خصائصهم وسلوكياتهم استقاء من فيه وكان يكفي وصف واحد لاي فرد منهم ولم تكن قط تنسى الهويات او تخلط فيما بينها وكانت تتحدث معه طيلة الامسية عن اشخاص لم ترهم عيناها ويبدو بالتمام انها تلم كليا بهيئاتهم وسيماواتهم واخلاقهم وتصرفاتهم وكانت تعرف ان البعض منهم يسخرون من معاون مدير المدرسة الذي كان يكره الشاب بريتون وكانت له بعض الخصوصيات والمميزات التي تلقفتها بلحظة واحدة من المواقف التمثيلية لغراهام التي كان يكررها لتسلية نفسه وهو امر لم يكن يروق للسيدة بريتون والدته فتنهاه عن ذلك ٠

وقلما تشاجر الاثنان ولكن في ذات مرة حصلت بينهما قطيعة تلقت احاسيسها من جرائها صدمة عنيفة ذلك ان غراهام كان يرافقه في عيد ميلاده البعض من زملائه واترابه بنفس العمر لكي يتناولوا طعامهم معه واهتمت بولينا كثيرا بمقدمهم بعد ان سمعت الكثير عنهم من غراهام وبعد العشاء بقي الشباب الصغار وحدهم في غرفة الطعام وكانوا فرحين جدا يصدر عنهم ضجيج صاخب ٠

وبالصدفة مرت بالقرب من مكان تجمعهم فوجدت بولينا جالسة وحيدة في ادنى درج للسلم وعيناها مثبتتان على الواح النوافذ الزجاجية الصقيلة لغرفة الطعام ، حيث كان يشع الضوء المنعكس من مصباح الردهة ووجدت جبينها مقطبا ينبيء بتأمل قلق وفكر مضطرب وسألتها « مابك يابولي وبم تفكرين » فاجابتني « بلا شيء خاص وكل ما اتمناه ان يكون هذا الباب من الزجاج الشفاف الصقيل لارى ما الذي يجري وراءه فالاولاد فرحون ومبتهجون على ما يبدو واريد الذهاب اليهم وان اكون الى جانب غراهام اوانشاركه على ما يفعله اصدقاؤه » وقلتلها « وما المانع من ذهابك اليهم ؟ » فاجابتني « اشعر بخوف وما قولك لو انني جربت ؟ هل اطرق الباب واطلب السماح لي بالدخول » ربما فكرت وفي حينه لم يمنعوها عن ان تكون رفيقة لهم في جلستهم ولذلك شجعتها على القيام بهذه المحاولة ،

وتوجهت بولي الى الباب وطرقته طرقا خفيفا بحيث لا يكاد يسمع وفي الطرقة الثانية فتح الباب وظهر رأس غراهام مخاطبا اياها بروحية عالية، وتبرم « ما الذي تريدينه ايتها القردة الصغيرة ؟ » فاجابته « اريد المجيء اليك » واجابها « احقا تريدين ذلك» هل جئت لازعاجي ؟! اليك عني واذهبي (الى ماما او الى السيدة سناو) واطلبي منهما ان يضعاك في فراشك لتنامي » ثم توارى ذو الشعر الاسمر المحمر والوجه المتورد المتوهج بعدان اوصد الباب بشكل قاطع . اما هي فقد اسقط في يدها وصدمت ·

وقالت لي وهي شبه مذعورة « لماذا كلمني بهذه اللهجة ؟ انه لم يكلمني كذلك سابقا ، فما الذي بدر مني تجاهه يا ترى ؟ » واجبتها « لا شيء يا بولي لكن غراهام مشغول مع اصدقائه » واجابتني « وهو يحبهم اكثر مني واشاح بوجهه عني في حضورهم » وخطرت لي فكرة الهائها وتسليتها وتحسين المناسبة عن طريق ايراد بعض القواعد الفلسفية التي احتفظ ببعض مجموعاتها الجيدة القابلة للتطبيق ·

وقد اوقفتني بوضع اصابعها في اذنيها لدى اولى الكلمات التي صدرت عني ثم تمددت على نسيج من القماش مقابل الالواح الحجرية ولم يستطع وارن او الطباخ رفعها او زحزحتها عن مكانها وتركت تنام هناك ـ والحالة تلك ـ الى ان نهضت من تلقاء ذاتها وبرغبتها هي ، ونسي غراهام ما صنعه معها في تلك الامسية فدنا منها وبادرها الكلام عندما ذهب زملاؤه ولكنها افلتت منه وكان في عينيها لمعان الانفعال والتأثر وذهبت دون ان تودعه ودون ان تنظر الى وجهه وفي اليوم التالي عاملها بلا اكتراث وبعدم المبالاة فاستحالت كقطعة من المرمر ·

وفي اليوم التالي اخذ يكايدها ويغيظها ليعرف السبب ولكن شفتيها ظلتا منغلقتين فلم تكلمه قط ، وبالطبع لم يشعر بغضب حقيقي من جانبه لعدم وجود تكافؤ من جميع الوجوه وحاول استرضاءها وملاطفتها والتملق اليها· لماذا كانت غاضبة منه ؟ وما الذي فعله ضدها ؟ وسرعان ما اجابته دموعها وراح يلاطفها حتى استعاد صداقته معها ، وظهر انها كانت الواحدة التي لا تنسى ولا تضيع عندها مثل هذه الاحداث ، ولاحظت انها بعد تلك الخيبة لم تكن تنشده او تتبعه او تلمسه او تستعطفه بشيء وقلت لها ذات مرة ان احملي كتابا او اي شيء لغراهام عندما يكون منكفئا على نفسه في غرفة الدراسة واجابتني باعتزاز « الاحرى لي ان انتظر ، حتى يخرج من غرفته لانني لا اريده ان يتجشم عناء فتح الباب لي » ·

twitter @baghdad_library

وكان للشاب بريتون فرس قزم اصغر من الحجم المعتاد يمتطيها في اغلب الاحيان وكانت دائما تلحظ من النافذة ذهابه وايابه عليها وتتوق وتطمح الى السماح لها بركوبها حول ساحة الدار وكان من العسير عليها ان تطلب ذلك . وفي ذات يوم نزلت الى ساحة الدار لتراه يترجل عنها وعندما كانت متكئة على البوابة ومضت امام عينيها الفكرة التي طالماتاقت الى تحقيقها وهي السماح لها بامتطاء ظهرها .

ولما لاحظها غراهام قال لها بقلة اكتراث « تعالي يا بولي نخب العصان خبة واحدة وظننت انها احتسبته عديم الاكتراث بها تماما ولذلك قالت له .. « كلا شكرا » ثم تحولت واشاحت بوجهها عنه بمنتهى البرود واجابها « الافضل لك ان تقبلي مني هذا العرض فلابد انك ستحبين ذلك وكان جوابها « لا تظن انني القى بالا لامر تافه كهذا » فاجابها « ليس هذا صحيحا الم تقولي انت للوسي سناو انك تهوين امتطاء ظهر الفرس ؟ » واجابته « ان لوسي سناو ثرثارة » ونطقت هذه الكلمات لثغا ثم اتجهت نحو الدار .

وسرعان ما لحق بها غراهام فدخل الدار واتجه صوب امه وقال لها: امي اظن ان هذه المخلوقة تبدلت تماما فاضحت كمجموعة من الأطوار الغريبة وانا بدونهالا حوللي ولاقوةفقد كانت تسر فؤادي باكثرمماتسريه انت او لوسي سناو» .. كان لبولي عادة التحدث معي ومحاورتي عندما نكون وحيدين في الغرفة ليلا وفي تلك الليلة قالت لي « ايتها الانسةسناو هل تستطيعين معرفة اي يوم من أيام الاسبوع احب فيه غراهام أكثر من سائر ايام الاسبوع ؟ » .

وقلت لها « وكيف لي ان اعرف مثل هذا الامر الغريب ؟ فهل هنالك يوم من بين ايام الاسبوع السبعة يكون فيها غراهام على شاكلة تخالف شاكلات ايام السنة الاخرى ؟ » واجابتني « الا تلاحظي انه امر مؤكد كوني الاحظه على اروع ما يكون في يوم الاحد ، حيث يكون معنا اليوم بطوله وحيث يكون هادئا وفي مسائه يكون عطوفا !؟ » .

ولم تكن هذه الملاحظة منها عديمة السبب او الاساس ذلك ان ذهاب غراهام يوم الاحد الى الكنيسة يجعله وديعا وهادئا وفي المساء يتصفعموما بهدوء كهدوء السماء الصافية ، فيبدو رائعا مستمتعا دفء الموقد وهو في حالة التمدد ثم ينادي بولي لتجالسه ولم يكن غراهام بالولد الهادىءالشبيه

بالاولاد الآخرين ويكمن كل ابتهاجه في العمل فقط فهناك فترات للتأمل والتفكير وكان يشعر بلذة القراءة ايضا ولم يكن انتقاؤه الكتب التي يريد قراءتها انتقاء اعتباطيا او على غير هدى او تمييز فهناك ومضات التفضيل الخاصة المميزة وحتى التذوق الغريزي عند الاختيار وفي الحقيقة انه كان نادرا ما يعلق على ما يقرأه ، بيد انني وجدته يجلس ويمعن التفكير في أي من الكتب التي كان يطالعها ٠

وكانت بولي بجانبه جاثية على وثارصغير يدور بينهما حديث مهموس يمكن سماعه رغم محاولة كبته واستطعت اختطاف فحواه وخلاصته بين حين وآخر وفي الحقيقة ان تاثيرا افضل من تاثير الايام الاخرى وارق جدا حدا بغراهام الى ان يتصرف تصرفا غير فظ في مثل تلك الاوقات، وقد سمعته يسألها « هل تعلمت آية من تراتيل هذا الاسبوع يابولي ؟» فاجابته «تعلمت ترتيلة جديدة بديعة مكونة من اربعة مقاطع شعرية فهل تريدني ان اردده » وقال لها « رتلي ترتيلا حسنا دون ان تسرعي في الاداء » ٠

وادت بولي الترتيلة ورددتها نصف ترديدة بصوت غنائي طفولي خافت وكان غراهام يقاطعها معترضا على طريقة الاداء ويعطيها درسا في التلاوة وتلتقط بولي الدرس بسرعة وتظهر ذكاء في التقليد والمحاكاة ثم انها كانت تستشعر اللذة عندما كانت تسر غراهام وترضيه وبرهنت على إنها تلميذة بارعة وكانت تتلو بعد الترتيل بعض الجمل من فصل من الانجيل وتقرأها دون حاجة الى التصحيح هنا لان الطفلة بولي كانت تقرأ اي فصل سهل التلاوة قراءة جيدة جد ا٠

وعندما يكون الموضوع سهل الفهم لديها وتبدي اهتمامها به يكون تعبيرها وتشديدها على الكلمات امرا يثير الاهتمام كرمي يوسف في البئر ومناداة الباري صموئيل ليكون نبيا على قومه واستاط دانيال في عرين الاسد فمثل هذه الجمل كانت جملا مفضلة لديها تستثير مشاعرها وشفتيها، فمثلا كانت تعلق التعليق التالي بشفاه مرتجفة٠٠ « مسكين هو يعقوب كم كان يحب ولده يوسف وزادت مرة على ذلك مخاطبة غراهام « كحبي لك ياغراهام فاذا مت (وفتحت صفحات الكلتاب وتحرت عن العبارة وقرأتها) ٠٠ « فانني سأرفض كل تسلية وتعزية وسأذهب الى قبري حزنا عليك » ٠

بهذه العبارات كانت تحتضن غراهام بذراعيها الصغيرتين ساحبة

twitter @baghdad_library

شعر رأسه ذا الخصل العديدة اليها واتذكر ان مثل هذا العمـــل صدمني واعتبرته طيشا غريبا منها يستثير شعورا قد يتحسس به المرء عند رؤيته حيوانا خطرا بطبيعته اضحى نصف اليف بالطريقة المبدئية الفنية وهـذا الحيوان يلاطف ويدلل بشكل جد طائش وفي ظني انها جازفت التعرض لخيبة يصعب تحملها قد تكون وطأتها عليها اشد من اللطمة ومثل هـــذه التظاهرات امكن تحملها وتقبلها سلبـــا ، وفي بعض الاحيان كان يظهر نوعا من الاعجاب المرضي البادي على تولعها الجدي يستثير ابتسامة رقيقة في ناظريها وفي احدى المرات قال لها ... انت تحبينني كمـــا لو كنت شقيقتي الصغرى يا بولي اليس كذلك ؟ . واجابته « انا اهواك .. اهواك كثـيرا » .

ولم يسمح لي منذ مدة طويلة بلذة دراسة مثل هـــذه الوضعيات او الحالات ، ولم يمر على مكوثها في بريتون شهرين حتى جاءت رسالة مـن المستر هوم بين فيها انه الان مستقر بين اقرباء والدته في البر الاصلي لان انكلترا ذاتها اضحت كلها مكروهة لديه ولم تكن له اية رغبة او فكرة في العودة اليها وربما لمدة اعوام وانه يريد من ابنته ان تنضم اليه في الحال.

وقالت السيدة بريتون عند قراءة الرسالة « ترى ... كيف ستتلقى بولي هذا النبأ واخذت على عاتقي ان اوصل اليها هذا النبأ ، وكانت بولي قد عادت الى قاعة الاستقبال حيث الهدوء والزخرفة وكانت تميـل الى ان تكون وحيدة فوجدتها جالسة كجارية من جواري السلطان ، نصف مختفية بين الاغطية الفضفاضة للنافذة المجاورة ، وكنت تبدو فرحة وسعيدة بكل ما كانت تحتاج اليه من اللوازم المتواجدة هناك من علبـة مـــواد الشغل المصنوعة من الخشب الابيض وقطعة او قطعتين مـن القماش وشريط او شريطين لاستخدامها كقبعات للدمية التي كـــانت ممددة بلباسها الليلي ولقبعتها في مهدها ، وكانت بولي تهز المهـد لتنام دميتها وكانت عيناهـا في الوقت ذاته منشغلتين بكتاب مصور مفتوح على صدرها .

وقالت لي بصوت خافت كما لو انه هامس « انه كتاب ايتها الآنسة سناو ـ بعنوان « كانداس » ملكة الحبشة فكانداس الان نائمة وسأحدثك عنها ولكن علينا ان نتحدث بصوت خافت كي لا نوقظها وهذا الكتاب قدمه لي غراهام يتحدث عن البلدان القصية التي تبعد عـن انكلترا بمسافات

شاسعة ولا يمكن لاي مسافر ان يبلغها مالم يركب البحار ويقطع الوف الاميال منها » ٠

واستطردت تقول لي « ان اناسا متوحشين يقطنون تلك البلدانوفي الحقيقة انه يندر لاي منهم ان يرتدي البسة الا نادرا لبنوهم الحار جدا، ومضت تقول « واليك صورا اغرب من ذلك فهناك سور الصين العظيم وهنا سيدة صينية وقدمها اصغر من قدمي وهنا حصان تتري وحشي حرون والاغرب من كل هذه ٠٠٠ ارض الثلج والجليد التي لا توجد بينها الحقول الخضر ولا الغابات ولا الحدائق » ٠

وواصلت حديثها قائلة لي « في هذه المناطق الثلجية وجدوا عظام الفيلة المنقرضة المسماة « بالماموث » ولا توجد الان مثل هذه الحيوانات ولا تعرفين عنها اي شيء بيد انني اقول لك ــ وهو ما قاله لي غراهام ــ ان أنواحد من هذه المخلوقات هو حيوان جبار من جنس الجن بعلو هذه الغرفة وبطول ردهة هذا البيت ، ويرى غراهام انه لم يكن حيوانا شرسا اكلا للحوم ، فلو انني التقيت بواحد منها لما قتلني او افترسني مالم اقف معترضة طريقه وفي هذه الحالة يدوس علي بين الشجيرات كما لو انني دست على جرادة في حقل من القش والتبن دون ان ادري بذلك » وقالت ذلك ثم بدا على وجهها شرود الذهن ٠

وقاطعتها بسؤال هو « هل يعجبك السفر يا بولي ؟ » فاجابتني بتصبر وحذر « ليس الان ، ربما قمت بسفرة بعد عشرين عاما حتى اصبح امرأة بطول السيدة بريتون وقد اسافر مع غراهام ، حيث ينوي الذهاب الى سويسرة لتسلق جبل « مونت بلانك » وفي مرة اخرى قد نسافر الى جنوب اميركا لنبلغ قمة جبل كيمبورا وهو اعلى جبال الاندس الكائنة في جنوب اميركا » ٠

وسألتها « وما قولك في السفر مع والدك لو كان هنا ؟ » ولم تعط جوابها الا بعد برهة من التوقف وهو ما كان يظهر احدى تقلبات الامزجة المعهودة فيها ٠٠ وقالت لي مجيبة « ما جدوى التحدث بهذه الطريقة السخيفة ؟ وما الذي يخصك من والدي ؟ كنت على وشك ان اصبح سعيدة دون ان افكر فيه كثيرا فتعود المياه الى مجاريها » وقد لاحظت شفتيها ترتجفان واظهرت استعدادي السريع لابين لها امر رسالة والدها العزيز

twitter @baghdad_library

وما طلبه من بولي وهربت من وجوب الالتحاق به في الحال وبعد ان بحت لها بذلك سألتها « بولي ...؟ الست سعيدة بهذا النبأ ؟ » الا انهـــا لم تجبني بل رمت بكتابها من يدها وكفت عن هز مهـــــد دميتها ثم حدقت وتفرست في وجهي وبانت في عينيها أمارات الرزانة والاهتمام والجدية.

وسألتها «الا تريدين الذهاب لملاقاة والدك ؟ » وقالت لي اخـــيرا بتلك الطريقة المحددة الواضعة التي كانت تستخدمها عادة في حديثهـا معي والتي كانت تختلف تماما عن الطريقة التي كانت تكلم بهـا السيدة بريتون وتختلف تماما ايضا عن الطريقة التي كانت تخص بها غراهام .. « طبعا اريد ذلك .. » ووددت التحقق والتأكد اكثر مما كان في خاطرها ولكن بلا جدوى اذ لم تحر جوابا بل اسرعت الى السيدة بريتون تسائلها فأكدت لها ما قلته لها .

ان وطأة ما سمعته وخطورته وثقله جعلها في حالة جدية جدا طيلة ذلك اليوم وعند حلول المساء ولحظة وصول غراهام الى البيت من المدرسة وجدتها الى جانبي تهيىء شريط الشعر حول عنقي فقـد اخطأت ووضعت المشط بين ثنايا شعري وعندما كانت منشغلة معي هكذا دخـــل غراهام وهمست في اذني قائلة .. « قولي له ... الوداع ... قولي له انني ذاهبـــة » .

وفي اثناء احتساء الشـــاي تحدثت عـــن الخبر وصادف ان غراهام كان انذاك منهمكا كل الانهماك في موضـــوع الشهادة المدرسية والجائزة المدرسية التي كان قد اسهم في المباراة الخاصة بها وكررت خبر رسالـة المستر هوم مرتين وقبل ان يركز اهتمامه بالخبر تركيزا صحيحا ظل يمعن التفكير به ثم قال لوالدته « بولي تسافر ؟ واسفاه ايتها الفارة الهادئـة الصغيرة العزيزة ساتألم لفراقها وينبغي يا امي ان تعود الينا مرة اخرى » ثم اسرع في احتساء كوبه من الشاي وتناول شمعة وهيأ منضدة صغـيرة واعد كتبه وانكب على الدراسة .

اما فارته الصغيرة فقد انسلت لتكون الى جانبـــه واضطجعت على السجادة عند قدميه ووجهها مقابل قاع الغرفة وهي صامته بلا حـــراك وبقيت على حالتها تلك ومكانها ذاك حتى حان موعد النوم في فراشها ، وفي احدى المرات شاهدت غراهام يدفعها بقدمه القلقة وهو سادر لايشعر

بقربها منه فارتدت عنه قاب انج او انجين وبعد دقيقة واحدة جرت احدى يديها من تحت وجهها بعد ان استشعرت ضغطه عليها واخذت تداعب بها مداعبة ناعمة القدم الغافلة ، وعندما نادتها المرضة نهضت طيعة وقالت انا جميعا « ليلتكم سعيدة » وهي تكبت ما تكبت ٠

ولا اقول انني خشيت الذهاب للنوم ولكن بعد مرور ساعة توقعت توقعا قلقا انني ان ذهبت الى فراشي لانام فساجد نوم الطفلة نوما قلقا وسرعان ما وجدت ان الذي توقعته كان صحيحا حيث وجدتها باردة يقظة كالطير **الابيض المخفض** جناحاه خارج فراشها وصعب علي وهي في تلك الحالة ان ابادرها الحديث اذ لم يتسن معالجتها كما يعالج الاطفال الا انها مع ذلك هي التي بادرتني الكلام اذ بعد ان اوصدت باب الغرفة ووضعت الشمعة على المزينة (منضدة التزيين) التفتت الي قائلة « لا اقوى على النوم ٠٠ لا اقوى ٠٠ وعلى هذا لست قادرة على آن احيا » ٠

وسألتها ما بها وما الذي يؤلمها فاجابت بلغة تستثير الشفقة وتثير الشجن « بؤس مروع » وقلت لها « هل استدعي لك السيدة بريتون ؟ » فاجابني بقلة صبر « هذا سخف محض » ، وفي الحقيقة انني كنت ادري انها لو سمعت خطوات السيدة بريتون دانية منها لاستكانت في فراشها ولازمت فيه الهدوء كما يلازم الجرذي السكون تحت الشرشف او البطانية في حين انها تجود امامي بكل ما في سريرتها من خواطر وافكار دون ان تبوح امام عرابتي باية خاطرة او فكرة عن دخيلة نفسها او سريرتها لانها لم تحتسب نفسها امامي سوى فتاة صغيرة غريبة طيعة سهلة الانقياد نوعاما لقد تفحصتها فوجدت خدها احمر قرمزيا وعينها الموسعة بدا عليها اثر القلق والاحمرار والالم الدفين وفي مثل هذه الحالة كان جليا لدي ان تركها كذلك حتى الصباح امر لا يصح بتاتا اذ انني كنت دارية بحالتها كل الدراية ٠

وسألتها « هل تريدين ان تقولي لغراهام « ليلتك سعيدة » انه لم يدخل الى غرفته بعد ، وفي الحال مدت الي ذراعيها لارفعها وبعد ان لففتها بشال حملتها الى غرفة الاستقبال حيث شاهدنا غراهام يخرج منها وقلت له « لا تستطيع النوم دون رؤويتك والتحدث اليك مرة اخرى ، انها لا تستسيغ فكرة مغادرتك والتخلي عنك » وقال بعد ان اخذها مني بلطف

twitter @baghdad_library

وقبل خدها الساخن وشفتيها الملتهبتين « لقد افسدتها بتدليلي اياها » ٠

« يا بولي ٠٠٠ هل تهتمين بي الان اكثر من اهتمامك بوالدك ؟ » واجابته همسا « انا اهتم بك دون ان تهتم انت بي » ٠

وبعد ان طمنها على انه ليس كما تتصور وقبلها ثانية اعادها لي فحملتها وابعدتها عن المكان ولكن مع كل الاسف لم تهدأ سورة حزنها وقلت لها ـ لكي تصغي الي ـ « يا بولينا لا ينبغي عليك ان تحزني لان غراهام لا يهتم بك قدر اهتمامك به فان الامر ينبغي ان يكون كذلك » وتساءلت عيناها المرفوعتان للنظر الي « ولماذا ؟ » فاجبتها « لانه ولد وانت فتاة وهو في السادسة عشرة من عمره وانت في السادسة فقط ومن طبيعته القوة والمرح اما طبيعتك فمغايرة وقالت لي « ولكنني احبه كثيرا فلماذا لا يحبني ولو قليلا » وقلت لها « انه يحبك بل انه هائم بك فانت المفضلة لديه » وقالت « احقا انه يفضلني على الآخرين؟ » فأجبتها « بلى ٠٠ يحبك اكثر من اية طفلة صغيرة اعرفها » ٠

وهدهدها وطيب خاطرها هذا التطمين وابتسمت وسط لجة آلامها واستطردت كلامي معها قائلة « لا عليك ان تغتاظي وتحزني ولا تنتظري منه الكثير جدا والا ظنك مزعجة فينتهي أمره معك الى الابد » ورددت صدى هذه الكلمات بنعومة ولطف « الى الابد ؟ اذن سأكون معه على ما يرام وساحاول ان احسن وضعي معه ياوسي سناو » وهنا مددتها على فراشها وسألتني وانا انزع ثيابي « هل سيغفر لي ويسامحني في هذه المرة ، فطمنتها بانه سيغفر لها ويسامحها وانه لم ينفر منها قط وان عليها ان تكون حذرة في المستقبل ٠

وقالت لي ٠٠٠ « لا يوجد مستقبل ٠٠٠ فانا مسافرة فهل يقدر لي يا ترى ان اشاهده مرة اخرى بعد ان اغادر انكلترا ؟ » وتحدثت اليها بما يطمئنها ويشجعها ٠ واخذ ضوء الشمعة يخفت ومضت نصف ساعة اخرى ظننت بعدها انها نائمة ولكن الشبح الصغير او الصورة الصغيرة اخذت تتململ في فراشها وصدر عنها صوت ضئيل يسألني « هل تحبين غراهام ايتها الآنسة سناو » فقلت له ٠٠ « نعم ٠٠ احبه نوعا ما » وقالت لي متسائلة « قليلا فقط الست تحبينه بالقدر الذي احبه انا ؟ » ٠

واجبتها « لا اظن ذلك ٠٠ كلا ٠٠ لا احبه بالقدر الذي تحبينه انت»

وقالت لي مرة اخرى « الا تحبينه كثيرا ؟ » فاجبتها « قلت لك لا احبه الا قليلا فما فائدة الاهتمام به الى هـذا القـدر الذي تتصورينه فاغلاطه واخطاؤه لا تعد ولا تحصى » وقالت لي « اصحيح ما تقولينه ؟ » فقلت لها « كل الاولاد هم على هذه الشاكلة » وقالت لي « هل ان اخطاء الاولاداكثر من اخطاء البنات ؟ » فقلت لها « محتمل جدا ٠٠ يقـول حكماء الناس وعقلاؤهم ان من الحماقة بمكان ان نتصور ان هناك شخصا متكاملا وفيبا يخص الحب او البغض ينبغي ان نكون اصدقاء للجميع ولا نتعبد شخصاما تعبـدا » ٠

وسألتني « هل انت حكيمة وعاقلة ؟ » فاجبتها نني اسعىلان اكون كذلك ورجوتها ان تنام واجابتني « لا اقوى على النـوم ، الست تشعرين بالالم في هذا المكان ؟ » (واومأت بأصبعها على صدرها الصغير)وقلت لها يتوجب عليكان تفارقي غراهام فانبيتك ليس هنا»وقلت لها « حقايابولي ينبغي عليك الا تستشعري المزيد من الالم ما دمت ذاهبـة لملاقاة والدك والانضمام اليه فهل نسيتيه ؟ الا تريدين ان تكوني مرافقته الصغرى ؟ »

واعقب سؤالي هذا صمتكصمتالاموات وقلت لهابلهجة الاستحثاث « أيتها الطفلة تمددي ونامي » واجابتني « فراشي بارد ولا اطيق تسخينه» ولاحظتها وهي ترتجف فقلت لها « تعالي الي ايتها الصغيرة» وانالااصدق كثيرا بانها ستفعل ذلك لانهاكانت مخلوقة صغيرة ذات نزوات متقلبةغريبة الاطوار ولا سيما معي واخيرا جاءت في الحـال كشبح ضئيـل منزلقة على البساط فاخذتها واذا بها مبتردة ومصابة بقشعريرة ٠٠٠

وقمت بتسخينها وهي بين ذراعي ترتعد بعصبية فلاطفتها واسترضيتها بحيث اطمأنت وهدأت الى ان اغمض النوم جفونها وقلت لنفسي « ما اغرب هذه الطفلة » وانا احدق بمحياها النائم على ضوء القمر واخذت امسـح بحذر ولعلف جفونها المتلألئة وخديها المبتلين بمنديل ، وظللت افكر كيف ستدبر امورها في هذاالعالم وكيف ستكافحفي هذه الحياة ، وكيفستصمد امام الصدمات ومظاهر القنوط والاذلال والمآسي التي تقولالكتبويقول عقلي معها ـ انها متهيئة لافتراس اية فريسة ؟ » ثم سافرت في اليـوم التالي وهي ترتجف كورقة من اوراق الشجر حين آذن الرحيل غير انهـا كانت تمارس سيطرتها على نفسها ٠

twitter @baghdad_library

الفصـــل الرابـــع

ـ الآنسة مارشمونت ـ

عند تركي بلدة بريتون وهو ما حققته بعد رحيل بولينا ببضعة اسابيع دار في خلدي انني لن اعود مرة اخرى لزيارتها قط ، ولن اطرق شوارعها القديمة الهادئة ولجات الى داري بنفسي بعد ان تغيبت عنه ستة اشهر ، وكان المفروض ان اكون مبتهجة ومسرورة بعودتي الى احضان افراد عائلتي، ان الحدس اللطيف لا يضير ولذلك يبقى صدوقا وفي احيان لا يناقضه مناقض وبدلا من ان اقول لا سأسمح للقارىء بان يصفني وصفا دقيقا ، ويتتبع اثري طيلة الاعوام الثمانية المتتالية ·

حيث كان هنالك المركب البرك ذو الصواري الثلاثة هاجعا في سباته وسط جو هادىء في ميناء عاكس كزجاجة وكان مدير الدفة يبذل جهدا قويا من على ظهر ذلك المركب وعيناه شاخصتان الى السماء تضرعا ثم مغمضتان في تلاوة طويلة وهناك العديد من النسوة والبنات قد من ارواحهن بما يشبه هذه الطريقة فلم لا اكون كالبقايا من امثالهن ·

تصوروني اذن ساكنة متشمسة سعيدة وممدة على ظهر المركب ورأسي مسند الى وسادة تدفئني اشعة الشمس المشرقة وتهزهزني النسائم الهابة بلطف ومع ذلك لا يمكن ان أخفي حقيقة انني سقطت في ذلك اليوم على جانب المركب بعد ان كنت واقفة على قدمي وان ذلك اليوم شهد في آخر الامر تحطمه واشرافه على الغرق واتذكر جيدا البرد والخطر والكفاح في سبيل البقاء ·

والى هذه لساعة بعد ان عانيت من ذلك الكابوس لا ازال اتذكر لجة الامواج وملوحتها في حلقي وبلعومي وضغطها الجليدي على رئتي حتى انني تذكرت وجود زوبعة لا لمدة ساعة واحدة او لمدة يوم واحد ذلك ان لا الشمس ولا النجوم طلعت خلال العديد من الايام بنهاراتها ولياليها وكنا قد استخدمنا ايادينا لمعالجة خطورة وضعية المركب فقد خيم علينا خطر العاصفة الهابة ولم يبق لنا أي أمل في ان ينقذنا احد ، وخلاصة القول ان

twitter @baghdad_library

المركب غرق والملاحين ابيدوا غرقا ٠

وبقدر ما تحضرني الذاكرة لم اشك لاحد من تلك القلاقل والمزعجات المخيفة والى من الشكوى ؟ للسيدة بريتون التي لم تقع عيناي عليها منذ مدة طويلة ؟٠٠ ان المعوقات التي سببها الآخرون وقفت في طريق لقائنا وقطعته زد على ذلك ان الزمن جاء بتبدلات ايضا فالثروة الكبيرة والممتلكات العظيمة التي جعلتها وصية عليها لصالح ولدها والتي استثمرت بالدرجة الكبرى في بعض مشاريع رأس المال المشترك قد ذابت ذوبانا ما خـــلا قسما من المبلغ الاصلي الذي استخدمه غراهام ــ كما تناولت الاشاعات ــ في ايجاد مهنة له وتخلى هو ووالدته عن بلدة بريتون ورحلا عنها الى لندن ٠

وعلى هذا لم تبق لدي امكانية حصول فرصة للاعتماد على الآخرين ولم يبق سوى الاعتماد على النفس ولم اكن ادري انني اقوى على الاعتماد على النفس او انني ذات طبيعة فاعلة انما فرضت علي فرضا هاتان الظاهرتان من قبل مستجدات الظروف كما تفرض عادة على الوف من الناس ٠ وعندما بعثت في طلبي الآنسة مارشمونت جارتنا لبيت الطلب على امـــل ان تنيط بي بعض المهمات التي استطيع انجازها ٠

لقد كانت الآنسة مارشمونت ثرية تعيش في بيت انيق الا انها كانت كسيحة بفعل مرض الروماتيزم الذي تأصل في قدميها ويديها منذ عشرين عاما وكانت تسكن الطابق الاعلى من البيت الفخم وكانت غرفة استقبالها قريبة من غرفة نومها وغالبا ما كنت اسمع عنها وعن خصائصها ومميزاتها ومنها غرابة الاطوار والى ذلك الوقت لم يسبق لي ان رأيتها قط ٠

وقد وجدتها بعد الاتصال بها امرأة متغضنة الوجه ذات شعر اشيب وقرتها الوحدة وجهم وجهها طول امـــد المرض ومعاناته وكانت سريعة الغضب والانفعال ايضا وربما قاسية ايضا بكثرة مطالبها وكان يظهر ان السيدة التي سترافقها تريد تزويجها وعندما سمعت بأنني يتيمة ارسلت في طلبي على أمل المشاركة في اعداد مكان الشخص الذي يريد ان يتزوجها وقدمت لي هذا الاقتراح بعد تناولنا الشاي سوية وحيدتين بجانب الموقد٠

وقالت لي بصراحة « لن تكون حياة سهلة لانني بحاجة الى مزيد من اهتمامك وتكونين جد مقيدة وربما يكون هذا مغايرا وعلى النقيض مـــن التواجد الذي الفتيه مؤخرا ويتراءى لي انك تقوين على تحمل ذلك رغم

كل شيء » ورحت افكر وقلت في نفسي ·· طبعا ينبغي ان يكون الامر على شاكلة يمكن تحملها وجادلت نفسي بنفسي وقلت ربما بقدر مجهول لن يكون ذلك ممكنا ·

واذا عشت هنا في هذه الغرفة المجاورة لغرفة المريضة كساهرة على معاناتها وفي بعض الاحيان تتلاعب بي اهواؤها ونزعاتها فما الذي سيبقى من شبابي بعد ان ولى قسط غير قليل منه دونما رجعة خاصة وانه لن يعرف السعادة في مثل هذا الوضع واحسست ان قلبي ينور في لحظة ثم يعود الى ما كان عليه ومع انني اجبرت نفسي على تفهم الشرور وادراكها بدا لي ـ مع ذلك ـ انني اكثر واقعية من ان اكون مثالية وبالتالي من ان ابالغ فيها · وكنت على شك مما اذا كان لدي القوة الكافية لانجاز مهمة العناية بهذه المريضة ·

وقالت لي « اراني متحيرة الان لانك مخلوقة متعبة ومرهقة كما يبدو لي » وهكذا كنت عندما شاهدت نفسي في المرآة الموجودة داخل ملابس الحزن التي ارتديها ·· محيا باهت اللون يتضاءل تدريجيا وعينان مجوفتان من الضنى ولم افكر بحقيقة اللون الشاحب لانه عامل خارجي كما اعتقد ذلك لانني كنت لا ازال اشعر بدفق الحياة في عروقي وسألتني المريضة « ماذا يدور في فكرك اكبر من هذا ؟ هل هناك شيء في خاطرك ؟ » وقلت لها « لا شيء واضح حتى الآن ولكنني قد اجد شيئاما » وقالت لي « اذن انت تتصورين وتتخيلين ·· ربما انت على حق وعليك ان تجربي طريقتك واسلوبك وحينئذ ان وجدنا ان ذلك أمر غير مجد فعليك ان تجربي طريقتي واسلوبي انا · وان عرضي الذي وضعته مفتوحا امامك ينبغي ان يبقى مفتوحا لمدة ثلاثة اشهر لكي تتخيري خلالها » ·

وقلت لها « هذا لطف منك » وعبرت لها عن امتناني عند مداونتي الحديث معها واذا بأعراض مرضها وبرحائه يداهمها واخذت اسعفها وامد يد العون لها وقمت بكل ما هو ضروري لمعالجتها وفق توصياتها لي وما ان مر بعض الوقت الا وزال منها ما كانت تشكو منه وبذلك تعزز نوع من اواصر الود بيننا وادركت من تلقاء نفسي كيفية تحملها هجمة المرض ذلك انها كانت امرأة قوية وحازمة وصبورة ··· (صبورة على الالم الجسماني وربما سريعة الهياج من اثر الآكلة او ما يسمونه بالقرحة الدماغية) ·

twitter @baghdad_library

واكتشفت المريضة من مشاعري الودية المسعفة لها ان بوسعها التاثير على مشاعري واثارة عطفي عليها فارسلت في اليوم التالي في طلبي وطالبتني بمرافقتها الى غرفتها لمدة خمسة او ستة ايام متتالية وان تعارفنا شخصيا ولد الاخطاء والشذوذ وفتح في الوقت عينه امامي كوة سيرتها واخلاقها التي تعودت على احترامها ٠

ومع انها كانت صارمة وقاسية وحتى نكدة المزاج في بعض الاحيان الا انني كنت اطيل معها التصبر وانتظرها لاجلس الى جانبها فيما بعد بذلك الهدوء الذي كان يباركنا لاسيما بعد ان ادركنا كلانا ان اخلاقنا ووجودنا وصلتنا تسر من نخدمهم ونسترضيهم وحتى عندما كانت توبخني بشدة بين حين واخر فان توبيخها هذا كان من النوع الذي يتعاشى اذلال المقابل ومن النوع الذي لا يستشعر المرء لسعته او وخزته ٠ كان توبيخها اشبه بتوبيخ الام الغضوب لابنتها وليس كالسيدة الفظة القاسية التي توبخ توبيخا قاسيا رسميا من هي ادنى منها مرتبة وفي الحقيقة انه لا يوجد في طبيعتها ما يحدو بها الى ان تندفع وتهاجم بحقد وغيظ وان كانت في بعض الاحيان تفعل ذلك ٠

يزاد على ذلك ان عرق التعقل يسري دمه في عواطفها ومشاعرها ولا يفوتها منطقها وتعقلها حتى في حالة الانفعال الشديد ٠

ومرعان ما شرع حسن الارتباط الودي المتنامي يجسم فكرة وجوب البقاء معها كمرافقة في ضوء جديد تمام الجدة ووافقت على البقاء معها في غرفتها اسبوعا ثانيا واضحى عالمي غرفتين مجاورتين واضحت العجوز الكسيحة سيدتي وصديقتي وكل شيء لدي ٠ واجبي خدمتها ٠٠ وآلامها الامي ٠٠ ومعاناتها معاناتي ٠٠ وارتياحها ارتياحي واملي ٠٠ وغضبها عتابي ٠٠ وتحيتها المفعمة بالارتياح مني مكفاتي ٠٠

ونسيت ان هنالك حقولا وخمائل وغابات وانهارا وبحارا وجوا دائم التبدل خارج النوافذ المشبكة الملأى بالابخرة المعتمة لغرفة المرض٠ وكانت انا ذاتي قانعة بنسيانها وكل ما هو في قرارة نفسي ودخيلتها انما هي محددا بمصيري وقدري وبالتطبع والتعود والانضباط بقسمتي ونصيبي ولم اعد اطالب بالخروج في نزهات ماشية وسط الهواء العليل وشهيتي لم تعد بحاجة الى اكثر من موائد الوان الاطعمة الصغيرة المهيئة المريضة ٠

وعلاوة على ذلك قدمت لي اصالة اخلاقها لدراستها ورسوخية

فضائلها واضيف على ذلك ٠٠ قوة عواطفها واحاسيسها لكي تثير عجبي واندهاشي ٠ وكان لديها كل هذه الاشياء وانا نفسي تشبثت بكل هذه الاشياء التي كنت على استعداد لان ازحف بها لمدة عشرين عاما لو ان عمرها وحياة تحملها امتدت بها الى حوالى هذه المدة ٠

ولكن قرارا آخر قد دون ويبدو أن علي ان اتحرك للعمل وأنغمس بمهماز واساق سوقا والسع لسعا واجبر على بذل المجهود والطاقة وان القدر اليسير المتبقي لي من شعوري الانساني الذي كنت اعتبره لؤلؤة ثمينة ينبغي ان يذوب بين انامليّ وان اتلاشى كما تنحل حبة البرد ثم تنفقيء وتتلاشى،وان واجبي الصغير الذي تبنيته واخترته ينبغي ان يختطف من ضميري القانع بسهولة واردت ان اتوصل الى تفاهم مع قدري ومصيري للتخلص من بعض المكابدات والعذابات والاستكانة لكل حياة الفاقة والحرمان وشتات الالام ولا يمكن هدهدة القدر بهذه السهولة ولا يمكن للعناية الالهية او الحيطة الآدمية ان توافق على مظاهر الكسل والتواني الزائلة المتسمة بسمات الجبن ٠

وفي ليلة من ليالي شهر شباط الذي اتذكره جيدا وصل صوت الى مقربة من دار الآنسة مارشمونت سمعه كل نزيل في البيت ولكن ربما لم يترجمه او يفسره الا واحد منهم بعد شتاء هادىء ثارت بعده الزوابع في الربيع ووضعت الآنسة مارشمونت في الفراش وجلست بجانب الموقد امارس الخياطة وكانت الرياح تتناوح على التوافذ وطال نواحها يوما كاملا ولكن في تضاعيف ساعات الليل تغيرت نبراتها واشتد هبوبها المخترق وراحت تشق اجواز الفضاء شقا متساوقا فتصم الآذان ثم راحت كما لو انها تتوجع في الشكوى فتؤلم الاعصاب لترتعش لدى كل عصفة

وقلت في نفسي ٠٠ صه ايتها النفس وايها الفكر المضطرب والقيت ما بيدي من اعمال الخياطة وبذلت جهدا عقيما وانا اصيخ السمع لبكاء ينشد التقصي والاستكشاف ، لقد سبق لي ان سمعت مثل هذا البكاء او الصراخ وفرضت علي الملاحظة الاجبارية الاضطرارية فكرة ماهيته وكنهه ولقد علمتني الاحداث ثلاث مرات في حياتي هذه العلامات والنبرات الغريبة في العاصفة وسبب هذا الرجاء القلق والبكاء الآخذ في الخفوت مما يدل على حالة آتية لجو لا يبشر بخير للحياة ٠

ان الامراض المعدية ــ في اعتقادي ــ كانت غالبا ما يعلن عنها بلهاث الريح الشرقية ونواحها ومتلقاتها وعويلها وخطر لي موضوع

twitter @baghdad_library

«ا لبانشي » (البانشي) شبح في الاساطير الاسكتلندية والارلندية ينذر عويله بوجود ميت في الدار) وتخيلت ايضا ملاحظتي ولـــكن تخيلاتي وملاحظاتي لم يكن فيها القدر الكافي من الفلسفة ليتبين ما اذا هنالك اية صلة بين الظروف التي غالبا ما تنذر بوجود فعالية بركانيـــة في بعض نواحي العالم القصية أو انهارتثور امواجها بغتة فتغمر ضفافها اوتيارات عالية غريبة تسير بعنف وغضب على سواحل البحار الواطئـة • وخلت في نفسي ان عالمنا يبدو في مثل هـــذه الحالات ممزقا تسوده الفوضى وان الضعيفة الواهنة فينا تذيل وتذوى بلهاثها وتنفسها المختل النظام اوتهرب من حرارة البراكين التي تقذف ابخرتها على الآخرين •

وكنت اصغي وانا ارتعد وارهب سمعي لاجـــد الآنسة مارشمونت نائمة • وفي حوالي منتصف الليل همدت العاصفة همود المـوت واخـذت النار الهامدة تتوهج توهجا زاهيا وشعرت بتغير في حركة الهواء فقداشتد هبوبه ونظرت الى الخارج ووجدت مابين النجوم دلائل قوية عن قرب حلول حالة تجمد وحولت نظري عن الجو واول ماشاهدته عيناي من الاشياء هو وجود الآنسة مارشمونت في فراشها وهي مستيقظة ورفعت رأسهـا عـــن الوسادة وهـــي ترنو الي باهتمام بالـغ وبادرتني السؤال « هـــل الليلة جميلة ؟ » وقلت لها « نعم » وقالت « ظننت ذلك •• ففي مثل جو كهـذا اشعر بقوة وبصحة جيدة ••• ارفعيني •• انني اشعر الآن كما لو انني شابة •• متفتحة القلب جذابة خالية من الهموم •• وماذا لـو ان تذمري وشكاتي قريبة التحـول ووشيكة التبـدل فانا الآن في طريقي الى التمتـع بصحة جيدة وان تحققت ستكون معجزة » •

واسريت لنفسي ••• هذه الايام ليست ايام العجائب واستغربت من كونها تتحدث على هذه الشاكلة • ومضت مستطردة في حديثها معي عـن ماضيها وبدا لي انهاتستعرض احداثهومشاهده وشخوصه بازدهاء فريدلا مثيل له وقالت لي « احب الذكريات في هذه الليلة واعتبرها افضل صديقة لي لانها تمدني الآن ببهجة نفسية في اعماقي وتعيد لقلبي حياة جميـــلة دافئة الحقائق وليس مجرد الافكار الجوفاء واذا كان الـذي اعتبرته في وقت ما حقائق طالما تصورت انها اضمحلت وتلاشت وامتزجت بقالبالموت فان لدي الآن الساعات والافكار والآمال الخاصة بشبابي وانني الآن ايضا اجدد حبي لحياتي ، حبي الاوحد وعواطفي ومشاعري الوحيدة » •

« واذا كنت لا اعتبر نفسي امرأة صالحـــة بشكل خاص او انيسة

رقيقة فلي مع ذلك مشاعري القوية المكثفة ولهـــذه المشاعر والعواطف اهدافها التي هي بحدذاتها عزيزة على فؤادي مثلما هي عزيزة على قلوب الكثير من النساء والرجال الذين قد يفسدون ذكراها وانا في الوقت الذي احببت من احببني شعرت بسريان اللذة في كياني وياله من عام لا ازال اذكره ولا ازال اتذكر مباهجه على قلبي وياله من فصل ربيع حي وياله من فصل صيف وفيء بهيج وياله من نور قمر رائق يفضض امسيات الخريف وياله من قوة الامل والرجاء تحت المياه التي يكتنفها الجليد والحقول الشتاء بالصقيع في فصل الشتاء من العام ذاته » ٠

« نعم في ذلك العام عاش قلبي مع قلب فرانك ٠٠ اواه ـــ يا نبيلي فرانك ٠٠ ايها الامين يا فرانكي الصالح الجميل الذي كان اعز على فؤادي من نفسي بكثير ٠ لقد كان مستواه القياسي اعلى مني بكثير ومن كل الوجود وهذا ما اراه الآن في مخيلتي واقول ٠٠ اذا كانت هنالك بعض النسوة قاسين مثلما قاسيت بعد ان خسرته فان القليلات منهن تمتعن بمثل مامتعني حبه ٠ لقد كان حبا من نوع افضل بكثير من الحب الاعتيادي » ٠

« وليس لي من ريب به فقد كان حبا مثرفا ساميا محفوظا في السريرة يسر فؤادمن وهب اليه ودعوني اسائل الآن في هـــذه اللحظة بالـذات ـ وخاطري صاف بشكل غريب ـ دعوني اسائل ٠٠ لماذا اخذ مني ؟ ولاية جريمة ارتكبتها بعد ١٢ شهرا من السعادة العظمى لكيما اعاني بعدهـــا احزان ثلاثين عاما ؟؟ » استطردت تقول بعد لحظة توقـف « لا ارى ٠٠٠ لا ارى سببا لذلك ٠ ومع ذلك استطيع ان اقول في هذه الساعة بصدق مالم استطع قوله في السابق ٠٠ الهي ٠٠ ارادتك ستتحقق ٠ وفي هذه اللحظة اراني موقنة ومؤمنة بان الموت سيعيدني الى فرانك وهو مالم اؤمن به قط قبل هذا الوقت » ٠

وسألتها بصوت خافت « هل هو ميت الآن ؟ » واجابتني ٠٠« يافتاتي العزيزة في عيد من اعياد الميلاد السعيدة كنت اتوقع قبـل ان ابدل ثيابي واتزوق ان يأتي الي حبيبي لكي نتزوج في الحال في تلك الليلة ٠ وجلست انتظر مرة اخرى في تلك اللحظة وانا اعاين الشفق الثلجي من النافـذة التي لم اكن قد اسدلت ستارتها لانني كنت اريد معاينة قدومه ممتطيـا صهوة جواده في الارض الثلجية ٠

وكنت ارى واستشعر ضوء النـار اللطيف يدفئني ويداعب ملابسي الحريرية ويريني بشكل متقطع محيا حبيبي الشـاب في انعكاسة الزجاج

twitter @baghdad_library

وكنت اشاهد قمر ليلة الشتاء الساكن يتهادى بتمامه وصفائه وبرودته على مجموعة الشجيرات السوداء بلون الحبر وعلى تربة ارضنا الفضية وكنت انتظر بفارغ الصبر في نبضي وفي قلبي بـــلا ريب ثم ماتت الشرارات وانطفأت في النار ومع ذلك كانت كتلة نيرة ولماعة فالقمر في الاعالي كان من الممكن رؤيته من خلال شبكية النافذة وكانت الساعة تقـــارب العاشرة ونادرا ما كان يظهر في السماء قبل هذه الساعة ما عدا مرة او مرتين تأخر طلوعه مدة طويلة نوعا ما .

واستطردت تقول « وقلت في نفسي .. هل سيغيب ظني فيه ولومرة واحدة ؟.. كلا .. لن يفعل ذلك ولو لمرة واحدة والآن انتظر قدومه.. وبسرعة .. ليعوض عن الوقت المضـــاع .. فرانك .. ايهـــا الفارس الجسور .. ورحت اصغي بابتهاج واشتياق لخبب حصانه الداني ..انني سالومك على ذلك يافرانك وساقول لك انك وضعت عنقي في وضع حـــرج وخذلن واي شيء لك هو لي ايضا بكل معنى الكلمة وبكل معنى الاحساس».

« لقد وقعت عيني عليه .. ذلك هو .. وانهمرت الدموع من عيني عندما اخطأت عيناي فيما شاهدته واكتنفني الارتباك والحيرة فقد وجدت الحصان وسمعت وقع حوافره وشاهدت كتلة كبيرة وسمعت جلبة وصراخا فهل كان هذا فرسا ؟ ام كان شيئا كجرافة ثقيلة تمر مرا غريبا في الظلماء؟ هل هي مرجة ياترى ؟ وكيف لي ان اعـين ذلك الشيء على ضـوء القمر ؟ وكيف لي ان اتحدث عن الشعور الذي احسست به في قرارة روحي ؟.

ولم آر بدا من الخروج والركض لمعرفة الحقيقة واذا بي اشاهـــد حيوانا كبيرا الحجم . انه حقا حصان فرانك الاسود وهـــو واقف يرتعش وينفث البخار من فمه ويصهل امـام الباب وهنـاك شخص يمسك به وفي ظني انه كان فرانك وسألت ما الخبر فأجابني خادمي بصوت محذر « ادخلي الدار ايتها السيدة » واستدعى خادما آخر سرعان ماجاء على عجل من المطبخ كما لو ان غريزته دفعته الى ذلك وصاح به « ياروث خذ السيدة الى داخل الدار في الحال » بيد انني كنت راكعة على الثلج الى جانب شيء ممددهناك شاهدت انه يسحب على طول الطريق ويسمع انينه ثم تسمع تأوهاته عـــلى صدري بعد ان رفعته وسحبته صوبي » .

« ولم يكن ميتا ولا فاقد الوعي تماما وقلت احملوه ورفضت اوامر ابعادي عنه وكنت رابطة الجأش لا اكتفي بأن اكون سيدة نفسي وانما سيدة الآخرين ايضا وبدأوا يعاملونني كمعاملة الطفل كما يفعلون دائما مع كل شخص يصاب بصدمة كهذه ولم اسمح لاحد ان يدنو مني عدا الطبيب الجراح وعندما قام بما يجب ان يقوم به توليت بنفسي امر فرانك المشرف على الموت وكانت قد بقيت له بقية قوة يعانقني بها ويلف ذراعيه حول عنقي ويلفظ اسمي وسمعني وانا اصلي بسكوت تام حوله وتحسس بوجودي وانا اواسيه بحنو وتلهف وقال لي « ماريا .. انا امـــوت في الفردوس .. » وأنهى انفاسه الاخيرة بكلمات مخلصة وجههـا لي وعندما طـر فجـر اول صبيحة ايام عيد الميلاد كان حبيبي فرانك في حضرة الخالق » .

واستطردت تقول « هذا ما حدث قبل ثلاثين عاما ومنـذ ذلك الوقت وانا اعاني ما اعاني واشك في انني استفدت من مصائبي كلهـا . وان الطبائع اللطيفة الانيسة تطهر نفسها وترتقي الى مصاف الاتقياء الورعين والطبائع الشريرة المتسمة بالعنف والشدة تتدنى الى درك الشياطين . اما انا فقد ظللت على بليتي وانانيتي » .

ولما كنت اعرف ان الآنسة مارشمونت تقدم الصدقات كثيرا الى مـن هم بحاجة اليها قلت لها « لقد احسنت صنعـا » وقالت « انـا لم امسـك احساني لمن هو مبتلى او مريض وماذا بذلك ؟» لم يكلفني الامر جهدا او ندما عند مساعدتي من هو بحاجة الى مساعدتي ولكنني اظن اعتبارا مـن هذا اليوم انني سأدخل في مجال ذهني افضل وهو ان اهيىء نفسي للاتصال بفرانك وانت ترين انني منهمكة بالتفكير به اكثر مما افكر باقدس الاقداس وعلي ان اقول لك انني رغم كل ما داهمني من المصائب والويلات من جراء ذلك لم اجدف ولن اجدف على الخالق وارى ان فرصة خلاصي ضعيفة فماقولك، يالوسي بصدد كل هذا ؟.. كوني بمثابة كاهني واعلميني بما ترينه .

وظنت انني قد اجبتها عندما قلت لها «هذه القضية لا اقوى على الاجادة عليها وليس عندي كلمات عنها .. » وقالت لي « حسنا يا ابنتي .. ء ا ان نعترف برحمة الله ولكن لليس كل شيء مفهوما لدينا دائما . ان علينـا ان نقبل بقدرنا وقسمتنا مهما كانت وعلينا ان نحاول اسعاد الآخرين كلما استوجب علينا ذلك . حسنا .. اذن سأبدأ منذ يوم غد ان اسعدك وساحاول ان افعل معك شيئا يسرك ويرضيك يا لوسي .. شيئا ينفعك عند موتي » .

واستطردت تقول لي « ان رأسي الآن يؤلمني بعـد ان تكلمت كثـيرا

twitter @baghdad_library

ولا ازال سعيدة حتى الآن • اذهبي الى الفراش فالساعة دقت الاثنتين فكم قد جلست معي ؟ والاحرى كم قد جلست انا معك ؟ ان انانيني تقتضي ان ابقيك اكثر معي ولكن اذهبي الآن ولا تقلقي علي اكثر مما قلقت وارى ان علي ان آخذ قسطي الجيد من الراحة » •

وبدا من حركتها انها تتهيأ للنوم فرجعت انا ايضـــا الى السرير في حجرة صغيرة داخل غرفتها وانقضى الليل بهدوء وبدا لي ان يوم دينونتها قد دنا وبلا ألم• وفي الصباح شوهدت ميتةلا حراك فيها وكان الجو باردا والهدوء يسود كلمكان في الدار والكل صامتونكما لو انهلا مقلقيقلقتهم• اقد كانت طبيعتها المهتاجة السابقة وتبدل مزاجها تمهيدا لنـــوبة مرض ولنهاية مهيئة • وكانت ضربة واحدة كافية لتقطع خيط حياة طالما تاكلها القلق وابتلتها البلوى •

الفصل الخامس

ـ تقليب صفحة جديدة ـ

بعد ان توفيت سيدتي اصبحت وحيدة مرة اخرى وكان علي ان اتحرى عن مأوى جديد لي آوي اليه وفي ذلك الوقت ربما اصبت بصدمة عصبية بسيطة وتراءى لي ان صحتي لم تكن على ما يرام فقد كنت نحيفة من السهاد والارق مجونة العينين كحاضنة اطفال اثناء غياب ذويهم ، جد مجهدة من اثر الانفعالات او كشريدة اثقلتها الديون .

وفي الحقيقة انني لم اكن بمثل هذا الفقر ومع ان المرحومة مارشمونت لم يكن لديها متسع من الوقت لاعانتي كما وعدتني في الليلة الاخيرة قبل وفاتها الا ان اجوري دفعها لي بعد جنازتها ابن عمها من الدرجة الثالثة توارثها وهو رجل جشع بخيل ذو انف معقوف وصدغين ضيقين وكان في السابق في حالة بؤس تام على النقيض تماما من قريبته السخية مما اثر تأثيرا سيئا على ذكراها التي يحمدها ويذكرها بالخير كل فقير ومحتاج حتى بعد وفاتها .

وبالنسبة للمالك القميء الرديء الصحة ونفسيته المضارعة لصحته السيئة كنت بالقياس الى الآخرين احتل مركزا محسودا ولهذا اعلمني في الاسبوع المقبل ان علي ان اغادر محلي الحالي . وبعد ورطتي هذه ذهبت كاخر فرصة وحيدة متاحة لي لمشاهدة خادمة عجوز من عائلتنا لاخذ مشورتها حول قضيتي وكانت في السابق مرضعة لي اما الآن ففي وظيفة مدبرة شؤون بناية ضخمة لا تبتعد كثيرا عن دار المرحومة مارشمونت .

وقد قصدتها لامضي بضع ساعات معها وظهر عليها الارتياح من لقائي ولكن لم تدر كيف تسدي النصح الي وكيف ترشدني الى التصرف الصحيح وظل كل ما حولي كظلام دامس وتركتها عند الفجر تقريبا وامامي مشية ميلين وكانت ليلة صامتة وباردة جدا ورغم عزلتي وفقري وحيرتي فان قلبي الذي كانت تغذيه قوة الشباب الذي لم يتم عد ٢٣ صيفا حتى ذلك

twitter @baghdad_library

الوقت كان يواصل نبضه ناشطا وليس واهنا · نعم كنت واثقة ان قلبي لم يكن واهنا والا كنت ارتعشت وتعثرت من الاعياء خـــلال تلك المشيـــة الوحيدة عبر الحقول الهادئة ·

ولم يكن في طريقي قرى او دور خاصة بالمزارعين او اكواخ وكان من المفروض ان اخاف في ليلة غير مقمرة ولم اهتد الى الطريق الا بواسطـــة النجوم الهادية فبواسطتها عرفت طريقي وسط الظلماء وكان المفروض ان اخاف اكثر بوجود اللا مألوف الـــــذي يضيء في الشمال المسمى بالسر العجيب المثير للمشاعر وهو الشفق القطبي الشمالي او ما يسمى بالاضواء الشمالية التي تظهر على شاكلة الاضواء الملونة ويشاهدها من يمشي مـــن الناس ليلا في المناطق المرتفعة ·

ويظهر ان هناك قوة جديدة جاء بها هـــذا السر العجيب ومضيت في طريقي بشجاعة والنسيم العليل يهب في وجهي وخطرت لي فكرة جريئـــة تقبلها خاطري القـــوي ··· اتركي هـــذه البرية المقفرة واسلكي المـــكان البعيد عنه وسألت نفسي ·· « اين يقع هذا المكان ؟ » ··

وما كان علي ان انتظر بعيدا جدا لارى الابرشية الكائنة في وسط انكلترا الثري وشاهدت بالقرب مني مالم اشاهده بأم عيني من قبـــل ·· شاهدت لندن ذاتها ·

وفي اليوم التالي عدت الى القصر او البنايـــة الفخمة وطلبت ملاقاة مديرته او المعنية بشؤونه وبسطت لها خطتي · وكانت السيـــدة بارين امرأة حكيمة ورزينة ومع انها ملمة بالعالم وعارفة عنه اكثر مني بقليـــل فانها لم تنتقدني ولم تستخف بمشاعري · وفي الحقيقة انني كنت املك طبيعة رصينة خاصة بي كانت قبل الآن مفيدة لي وبمثابة قناع او قلنسوة تغطي رأسي وعنقي وقد نلت عن طريق رعايتها لي حصانة بل حتى رضى واستحسان اوصلتني الى حقائق لو انني توصلت اليها في ظرف او جـــو انفعالي غير مستقر او ان سواي توصل اليها في مثل هذا الجو لقيل له انه حالم او خيالي بعيد عن الواقع ·

وكانت مديرة القصر تعاني بعض الصعوبات من جراء اعدادها قشور البرتقال لصنع مربى « المرملاد » منها حين نزل طفل من الشباك قفزا الى داخل غرفتنا وكان طفلا جميلا اخذ يرقص امامي ويضاحكني ذلك اننـــا لم نكن غرباء عن بعضنا بعضا فأمه الامرأة الشابة المتزوجة ابنـــة صاحب

الدار لم تكن غريبة عني ايضا ووضعت الطفل على ركبتي . ان وضعي الاجتماعي ووضع والدة الطفل الاجتماعي كانا يختلفان فاننا كنا تلميذتين زميلتين في مدرسة واحدة كنت انا في العاشرة من عمري وكانت هي شابة في السادسة عشر من عمرها وتذكرتها ذات الوجه الوسيم ولكنها كانت كسولة وفي صف ادنى من صفي .

وحين كنت اظهر اعجابي بعيني الطفل الجميلتين الداكنتين دخلت والدته الشابة السيدة «لي» وما كان اجملها واوسمها وماكان ارق سريرتها وطويتها واوسم محياها رغم قلة ذكائها ، ان حياة الزوجية والامومة قد بدلت الكثير مما كان فيها مثلما بدلت الأخريات ممن شاهدت في حياتي وان كن اقل منها وعدا وفضلا .

وقد نسيتني السيدة اذ انني كنت قد تبدلت انا ايضا عن ذي قبل وفي رأيي أنني لم اتبدل نحو الاحسن ولم احاول ان اذكرها بي ولماذا افعل ذلك ؟ انها جاءت من اجل اخذ طفلها ليرافقها ووراءها المربية وهي تحمل طفلا صغيرا آخر ولم اذكر الحادث الا لان السيدة « لي » كانت تتكلم اللغة الفرنسية الرطينة من النوع الردىء وبنبرة ضعيفة لا سبيل الى تقويمها مما ذكرني مرة اخرى ـ وانا مكرهة ـ باوقات تلمذتنا وقد ظهر ان المرضة اجنبية من اصل فرنسي وكان الطفل ايضا يهذر في الفرنسية كما لو انه يزقزق كالعصفور .

قالت السيدة « باريت » ان هذه السيدة الشابة جاءت بالمربية تلك من دار التربية الاجنبية قبل عامين الى الوطن بتذكرة سياحية ذهابا وايابا وعوملت كمربية اطفال منذ ذلك الوقت واقتصر عملها على المشي مع الطفل والتكلم باللغة الفرنسية مع المستر شارس .. واستطردت السيدة باريت في كلامها قائلة « انه توجد كثيرات من النسوة الانكليزيات لدى العوائل الاجنبية ووضعهن كوضع هذه المربية الفرنسية » .

لقد اختزنت هذه القطعة من المعلومات العريضة غير المقصودة في ذهني لان ربات البيوت الحريصات كثيرا يخزن على ما يظهر مثل هذه القطع التذكارية التافهة لان اذهانهن العالمة بالغيب تتوقع انها ستستفيد منها يوما ما . وقبل ان اغادر صديقتي القديمة سلمت لي عنوان خان او نزل صغير قديم محترم كائن في المدينة قالت ان اعمامي كانوا يرتادونه عادة في الايام الخوالي .

twitter @baghdad_library

وعند ذهابي الى لندن لاقيت مخاطر اقل ومجهودا اقل ممـــا يتصور القارىء وفي الحقيقة ان المسافة لم تزد عن خمسين ميلا وكان لدي مايكفيني لتوصيلي الى هدفي والى البقاء فيه بضعـة ايام واعادتي الى مكاني ان لم اجد ضالتي فيه او ما يغريني على المكوث هناك واعتبرت ذلك بمثابة عطلة قصيرة تستخدم للقيام باعمال شاقة وليس للقيام بمغامرة حياة او موت . ولا يرجد ما يشبه اتخاذ كل ما نقوم به من افعال من اجل التوصل الى تقدير معتدل يبقي الفكر والجسم في حالة اطمئنان وهدوء في حـين ان النزوات الطائشة المفخخة تـــؤدي بكليهما (اي بالجسم والفكر) الى حـالة حمى مرضيـة .

وكانت الخمسون ميلا آنذاك سفرة يوم واحد لانني اتكلم عن زمن ولى ومضى . ان شعري الذي استطاع ان يصمد حتى اللحظة الاخـيرة امـام مجمدات الزمن يكمن اخيرا الان تحت غطاء رأسي بلون ابيض كطبقة الثلج الكامنة تحت طبقة ثلجية اخرى وعندما قاربت الساعة التاسعة من ليلة شهر شباط الندية وصلت لندن ولعل القارىء لا يظن بأنني نسخة موسعة مـن الانطباعات الشعرية اذ ليس لي لا من الوقت ولا من المزاج ما يحدو بي الى اعتبر نفسي كذلك .

لقد وصلت متاخرة في مساء داكن ممطر رطب الى حد الازعاج بعد ان قطعت الفيافي والقفار التي امتحنت ابعادها الشاسعة الغريبة امتحانا عسيرا كل ماكان لدي من الفكر الصافي ورباطة الجأش ومن قوة وسلطان وهبتني اياها الطبيعة بعد ان حرمتني منها المؤسسات التعليمية المتآلقـة المظاهر . وعند نزولي من عربة النقل الكبيرة بدا لي ان كلام اصحاب المركبات التي يجرها حصان واحد وغيرهم من الذين ينتظرون حوالينا غريب كما لو انه لغة اجنبية فما سبق لي ان سمعت ان اللغة الانكليزية تحرف بتلك الطريقة والشاكلة .. وعلى كل سعيت لفهمها وفهم الآخرين لكيما يتم وصولي بسلام الى الخان او النزل مع مالدي من صندوق الثياب بنفس عنوانه الذي احمله معي وياما اصعبها من سفرة مغمة ومحيرة ففي لندن ولاول مرة وفي خـان ولاول مرة حاولت ان اعمل مضطرة وانا تعبة من السفرة التي شوشتها علي ظلمة الليل المدلهمة ورجفة برودتها التي كانت تسري في اعضائي وانا محرومة من كل من قد يرشدني الى ذلك .. ومع ذلك قمت بما يجب علي القيام به على الرغم مني .

وبحكم الفطرة السليمة وثقت بالآخرين علما بأن الفطرة السليمة

والحس البديهي العام كان متحجرا وفي حالة ذهول وارتباك ككل قواي الاخرى ولولا الضرورات القصوى لما استطعت ان احقق ثقتي بالآخرين ولم الم الحمالة لانها كانت نفسها مخدوعة تماما وقد طلبت من النادلة غرفة لي وهذه اتصلت ـ بكل خوف ـ بالمهجمية اي بالمرآة المسؤولة عن غرف النوم والانكى من ذلك انها كانت تخشى كل الخشية السيدة الشابة عندما ظهرت امامها وفي ذهني ان تلك المهجمية اي المرآة المسؤولة ذاتها كانت نموذجا لجمال بنات المدينة ورشاقتهن فقد كان خصرها النحيل وقبعتها وملابسها مما تستدعي الاثارة بالعجب من كيفية صنعها وفي كلامها نبرة اظهرت سلاسة بلسانها واناقتها ورقتها الطبيعية الخالية من التكلف والتصنع.. انها تفوقني فملابسها المهندمة الانيقة كانت تزدهي بها علي وتسخر بكل سهولة من زيي الريفي الواضح الخالي من الزخرفة وقلت لنفسي « لا جدوى من ذلك » ثم تغير المشهد وتغيرت ظروفه وقلت « اذن سيكون وضعي جيدا » .

وحافظت على سلوكي الهادىء جدا مع تلك الفتاة المتعجرفة المتعالية ثم مع النادل ذي المعطف الاسود وربطة العنق البيضاء الذي كان اشبه بالقسيس وسرعان ما اصبحن لطيفات معي وفي اعتقادي انهن ظنن انني كنت نادلة ولكن اعتقادهن زال بسرعة ورحن يتصرفن معي على حالة شك متارجحات بين الرعاية وبين التأدب .

واصبحت في وضع جيد اشاركهن تناول المرطبات ورحت ادفيء نفسي بنار الموقد ثم اعتكفت في غرفتي تمام الاعتكاف وحدث انني كنت جالسة بجانب الفراش ثم مددت نفسي وذراعي على الوسادة واذا بضيق صدر رهيب يداهمني ومثل امامي في الحال وضعي كما لو انه شبح شاذ موحش ومكئب وخال من اي امل لي . وساءلت نفسي .. ما الذي افعله ههنا وحيدة في مدينة عظيمة كلندن ؟ وما عساي ان افعله غدا ؟.. وما هي توقعاتي وطموحاتي في الحياة ؟ واية صديقات لي على الارض ؟ ومن اين اتيت والى اين سأذهب ؟ وما عساي ان افعله ؟ .

وبللت بدموعي المنهمرة وسادتي وذراعي وشعري واعقبتها فترة فاصلة مظلمة من اسوأ الافكار الموجعة ، بيد انني لم آسف من الخطوة المتخذة من قبلي ولم ارغب في التراجع عنها واقنعتني الفكرة الغامضة القوية وهي ان التقدم الى الامام هو افضل من التقهقر وان بوسعي التقدم،

twitter @baghdad_library

وانه اذا كان الطريق ضيقا وصعبا فانه لابد ان ينفسح وينفتح ولابد ان هذا الشعور سيتغلب على المشاعر الاخرى ٠

وقلت في نفسي انني في آخر الامر لابد ان استقر واطمئن واقوى على الصلاة واعود الى الخياطة والتطريز وكنت قبل برهة قد اطفأت شمعتي واشرفت على الاستسلام لسنة النوم لولا ان صوتا عميقا جبارا دوى باستمرار في الليل البهيم وفي اول الامر لم استطع ان اتبين كنهه ولكنه بعد ان دوى عشرين مرة ، قلت في نفسي بعد الدوي الثاني عشر للناقوس المهتز « لابد انني بالقرب من كاتدرائية القديس بولس في لندن » ٠

الفصـــل السادس

ـ لنـــدن ـ

صادف اليوم التالي الاول من شهر اذار وعنـــدما استيقظت نهضت وفتحت ستارتي لارى الشمس مشرقة تجاهد وسط الضباب ومن فوق رأسي اعالي الدور التي تكتنفها الغيوم. وقدعاينت قبةكاتدرائية القديس بولس الداكنة الازرقاق يجللها الوقار ويعلوها الصليب المثبت وبينما كنت اعاين تحركت نفسي من داخلهـا وهزت روحي جناحيها المقيدين دائما فاضحيا كنصف طليقين ..

وداهمني شعور مفاجيء احسست بموجبـه بأنني تلك التي لم تعش عيشة صحيحة اخذت تتذوقطعم الحياة وفي الصباح تنامت روحي وتعاظمت بمثل ما تعاظمت به النبتة المتسلقة ذاتالاثمار اللحمية التي وهبها الطبيعي يونس لكي يحتمي بها من حرارة الشمس وقلت في نفسي « حسنا فعلت بمجيئي وشرعت ارتدي ملابسي بسرعة واهتمام حقـــا .. انني احب حيوية هذه المدينة العظيمة ونشاطها وهو ما اشعر به من حولي وانهلبان ذلك الذي يعيش طوال حياته فيالقرى الصغيرة يتخلى عما لديه منمواهب من اجل صدأ الغموض والظلمة الآكل القاتل .

وبعد ان ارتديت ثيـــابي نزلت وانا بمنجاة من وعثاء السفـــر وانهاكاتها وكنت مرتبة ونشيطة ومنتعشة وعندما جـاء النادل بأطوري حاولتأن ابادره الكلام برزانة وبمرح وتبادلنا اطراف الحديث مدة عشر دقائق تقريبا بحيث اصبح الواحد منا يعرف الآخر بشكل متبادل الفائدة فقد كان كهلا ذا شعر رمادي اللون وعلى ما عرفت عنه انه امضى عشرين عاما من عمره في هذه المهنة .

وتأكدت بعد ان قالَ ذلك انه لابد ان يعـــرف عمي شارلس وعمي ويلموت اللذين كانا يزوران هذا الخان قبل خمسة عشر عاما لماما وذكرت اسميهما امامه فتذكرهما جيدا وتحدث عنهما باحترام وبعـد ان تعززت صلتي به اضحى وضعي واضحا امام ناظريه وعلى قدم المساواة وقال لي

twitter @baghdad_library

انك كعمك شارلس وفي رأيي انه كان صادقا فيما قاله عنـــه لان المستر باريت اعتاد على ان يتحدث صدقا وحل محل سلوكيته السابقة المتشككة لطف وكياسة واحترام وعليه لم اتردد بعد ذلك عن ان اجيب عـلى سؤاله الحساس بجواب مهذب ٠

كان الشارع الذي تشرف عليه نافذة غرفة الجلوس الصغيرة التي نزلت فيها ضيقا وهادئا للغاية ولم ار فيه وساخة والقليلون الذين كانوا يرتادونه او يمرون به يشبهون سكان المدن الصغيرة من القرويين فلا شيء هناك مما يستلفت النظر من غرابة وشعرت شعورا اكيدا بأن علي ان اقوم بمغامرة اخرى بمفردي ٠

وبعد ان تناولت فطوري خرجت يساكن قلبي الفـــرح والابتهاج ومجرد المشي في شارع من شوارع لندن هـــو المغامرة بعينها ووجدتني امشي في شـــارع « باترنوستر راو » اي الصـــلاة الربانية القريب مـــن الكاتدرائية المارة الذكر وهو شارع مشهور كلاسيكيا بمكتباته وكتبـــه ودخلت احدى مكتباته لصاحبها جونس واشتريت كتيبا نفيسا ما كـــان بوسعي ان اجده في مكان آخر وفكرت في ان ابعث به يوما مـــا للسيدة باريت وكان السيد جونس صاحب المكتبة الذي يبسته جديته في مهنتـــه جالسا وراء منضدته وبدا لي كما لو انه احد الرجال العظام وكنت انذاك اسعد مخلوقة ٠

وكانت العيشة التي عشتها في ذلك الصباح عيشة استثنائية فقـــد وجدتني امام كاتدرائية القديس بولص فدخلت ثم اعتليت قبتها واشرفت على لندن التي تكشفت امامي من ذلك العلو بنهرها وجسورها وكنائسهـــا وشاهدت ويستمنستر الاثرية وهي المنطقة التي يقع فيها قصر ويستمنستر ودور البرلمان وهي اثرية لانها اقدم اقسام لندن كما شاهدت حدائق المعبد الاخضر المتصلة بالهيكل والشمس ترميها بأشعتها ومن فوقها السماء الزرقاء البهيجة لباكورة فصل الربيع وبينها وبينه تجمعات غير كثيفة من الضباب٠

وبعد ان نزلت رحت آتيه تحملني قدماي الى أي شيء تتيحه لي الفرصة وانا في حالة انتشاء دائمة من التحرر والبهجة ووصلت ــ ولا ادري كيف؟ ــ الى قلب حياة المدينة ووجدت لندن وشعرت بها في آخر الأمر ثم وصلت الى شارع « ستراند » ثم طريق كورنهيل العام المشهور بكونه السوق الـــذي

يباع فيه القمح والذرة وامتزجت بالحياة الزاخرة هناك وتجرأت لخوض اخطار العبور مما منحني الشعور بالبهجة الحقيقية التي ربما اتسمت باللاعقلانية ٠

ومنذ تلك الايام شاهدت منطقة « الويست ايند » الجزء الغربي من لندن ومتنزهاتها والساحات الجميلة ولكنني احببت « الستي » اكثر من غيرها بكثير لما فيها من مصالح وفورات النشاط الانتاجي وضجيج وصخب واه وات ممتزجة بعضها مع البعض من هنا وهناك فالستي تكسب عيشها والويست ايند لا هم لها الا التمتع بمسراتها ففي الويست ايند قد يدخل قلبك السرور اما في الستي فانت في حالة تيقظ واستثارة ٠

واخيرا اصابني الضعف ودوار الرأس وداهمني الجوع فعدت ادراجي في الساعة الثانية الى النزل القديم المعتم الهادىء وتناولت طعامي من صحنين احدهما يحمل اللحم والآخر يحمل الخضروات بشهية وهي اشهى من مائدة الطعام المختلط الذي كانت تعده طباخة المرحومة العطوفة مارثا مونت وتبعث به عادة الينا وناكله بنصف الشهية المعتادة ونحن نتداول الاحاديث بيننا ولما كنت تعبة تمددت على ثلاثة من الكراسي لمدة ساعة ولم يكن في الغرفة اريكة او مقعد ذو ذراعين للنوم واستيقظت من نومي واستسلمت للافكار والتاملات مدى ساعتين ٠

وكانت حالتي الذهنية وكل ما يرافقها من ظروف تستدعيني لاختيار خط عمل جديد يتصف بالعزيمة والجرأة وربما بالاستماتة وما كنت اخشى من شيء آخر ٠ فالتقزز من الماضي الموحش منعني من ان اعود اليه ثانية وما الذي ساعانيه اكثر من معاناة الماضي لو انني فشلت فيما اعتزمت ان اقوم به فاذا قدر لي ان اموت بعيدا عن داري ـ وان كنت لا املك دارا في الواقع في انكلترا آنذاك ـ فمن ذا سيبكيني ويسكب علي الدموع ؟٠

وقد اتعذب واعاني الذي اعانيه وامارس المعاناة فعلا اما في الموت فلا عذاب ولا معاناة فتلك المظاهر المخيفة التي كابدتها قبل هذا كانت تنظر الى فكرة الموت نظرة الهدوء ورباطة الجأش وبتهيئي ـ والحالة تلك ـ لكل النتائج تكونت لي فكرة ٠٠ ففي تلك الامسية تلقيت من صديقي النادل معلومات عن سير الهواخر صوب ميناء « بومارتن » الخيالي الساحر

twitter @baghdad_library

ووجدت ان ليس لي ان اضيع الوقت بعد الآن وعلي ان استأجر مضجعا في الباخرة وانتظر مجيء صبيحة اليوم التالي قبل الصعود الى ظهر الباخرة على ان لا اتاخر عن الموعد كثيرا ٠

ونصحني النادل بأن اسرع في الذهاب الى الباخرة دون ابطاء فوافقت وبعد ان دفعت قائمة المكوث لتلك الايام في الخان وشكرت صديقي على ما اسداه لي من خدمات عرفت الآن كم كانت دفعتي سخية بنسبها علما بانها في نظره دون المستوى المطلوب بكثير ولذلك عندما وضع ثمن القائمة في جيبه ابتسم ابتسامة باهتة نمت عن رأيه في العطاء ثم انطلق ليأتي لي بعربة اجرة وقدمني للسائق ايضا مع توصياته لي للاهتمام بي وايصالي الى رصيف المرفأ الا ان هذا لم يف بوعده للنادل بل على العكس والضد من ذلك لم يوصلني الى المجذفين بل قدمني لهم كما لو انني قطعة لحم مشوية وانزلني من العربة وسط حشد من المجذفين ٠

وتلك كانت ازمة مقلقة فالليلة كانت شديدة الظلام وساق الدهوذي هربته حالما قبض اجرته وشرع المجذفون في مساعدتي وسمعتهم يتسمون من اجلي واثاروا مشاعري الفلسفية اكثر مما اثارهـــا الليل البهيم او العزلة او غرابة المشهد ومد احدهم يده على صندوق ملابسي وحاجياتي فنظرت اليه بهدوء ولكن عندما مد احدهم يده علي رفعت صوتي محتجة ودفعت يده عني ودخلت الزورق حالاوطلبت بشكل صارم وضع صندوقي بجانبي وقلت لهم ٠٠ ضعوه هنـــا ٠٠ ففعلوا في الحال علما منهـم ان صاحب الزورق الذي اخترته اصبح حليفي ثم جذفوا بي الزورق صوب المكان المطلوب ٠

وكان النهر اسود اللون كالحبر السائل والاضواء تومض على صفحاته من اكوام مدورات البناية والبواخر تتهادى على صـدره وراح الجاذفون يجذفون بي بمحاذاة عدد من البواخر واستطعت على ضـوء الفانوس ان اقرأ اسماءها المدونة بالاصباغ الكبيرة الاحجام والاحرف الكبيرة المدونة على الارض المظلمة وقرأت اسماءها التالية ٠٠ المحيط ٠٠ العنقـــاء ٠٠ الدولفين واحدا بعد الآخر ولكن باخرتي كانت ازهى واجمل ٠

وراحت تمخر بنا عباب الميـــاه السوداء السريعة الجريان وفكرت بالاسطقس « والفارون » الذي ياخذ بعض الارواح الانعزالية الى ارض

الاموات (الاسطقس والغارون من الاساطير اليونانية القديمة فالاسطقس نهر يحيط بارض الاموات والغارون هم المعبرون عبر النهر الذين يأخذون ارواح الموتى عبر نهري الاسطقس والاشيرون الى ارض الاموات)وسالت نفسي وانا وسط المشهد الغريب والريح القارصة تهب في وجهي وغيوم منتصف الليل تسقط قطرات مطرها على رأسي الجذافان الغظـان اللذان كانا يرافقاني يتلفظان باقسامهما المخبـــولة التي تصم اذني ٠٠ ما اذا كنت تعيسة أو خائفة وكان الجواب لا هذا ولا ذاك ٠

وغالبا ما صادفت في حياتي ظروفا سالمة نسبيا وقلت ٠٠ « يبدو لي انني مفعمة بالحيوية وحذرة بدلا من ان اكون مفعمة بالكآبة والخوف ولا اقوى على ان اقول كيف حدث هذا »٠ وقال الجذاف الاشيب المفعـم بالحيوية بغضب ٠٠ « ها اننا قد وصلنا» وعلى التو طالبني بستة شلنات وقلت له « لقد طلبت الكثير » ونزل من السفينة وحلف بأنه لن ينزلني الى البر مالم ادفع له هذا المبلغ ٠

وكـــان احـد خدم السفينة الذي ينظـر الى جـانب الباخرة يبتسم منتظرا نتيجة الاخذ والرد بيني وبين الجذاف ولكي اخيب ظنـــه دفعت المبلغ ولمدة ثلاث مرات كنت ادفع كرونات بدلا من شلنات وكنت اعـزي نفسي قائلة « انه ثمن التجربة » ٠ وعنـــد صعودي الى الباخرة قال لي الخادم بابتهاج « لقد خدعوك » فأجبته ببرود « انني عـــلى علم بذلك » ونزلت الى اسفل الباخرة ٠

ووجدت في كابينة السيدات امرأة بدينة وجميلة ومبهرجة وسألتها عن المكان المخصص لنومي ونظرت الي شزرا وتمتمت بعبارة مفادها ان من الغريب ان يصل مسافر في مثل هذا الوقت ويبدو ان مظهرها كان يدل على انها غير مهذبة ووجهها ٠٠ يأله من وجه وسيم ينم عن غطرسة صاحبته وانانيتها ٠ وكان جوابي لها « اما الآن وقد صعدت على متن الباخرة فلا بد لي ان امكث فيها وارجو الا اكون قد ازعجتك اذا طلبت منك تعيين مكان منـامي ٠

وامتثلت ولكن عن مضض وبتقطيب الجبين ٠ وما كان مني سوى ان ارفع قلنسوتي النسائية وانظم اموري وما يخصني من الاشياء ثم تمددت في فراشي ومررت ببعض الصعوبات ولكنني احرزت نوعـا من الانتصار ومرة اخرى كان يلجأ ذهني الشديد العاجز غير المستقر الى التمتع براحـة

twitter @baghdad_library

قصيرة الامد ولما لم يبق لدي عمل منذ وصول الجذاف القوي الى المرفا ولم يبق لدي ما اتطلع اليه ولانني كنت برمة منهوكة القوى استلمت لما يشبه نصف الفوة ٠

وكانت القهرمانة او المضيفة تتحدث طيلة ساعات الليل ٠٠ ولم يكن كلامها موجها الي وانما الى المضيف او الخادم الشاب او الى ولدها او تتحدث مع صورتها ذاتها وكان المضيف يدخل الى الكابينة ويخرج منهـــا بصورة مستمرة وراحوا يتنافسون ويتخاصمون عشرين مرة في الليلة تقريبـــا واعترفت لابيها بانها كتبت رسالة الى ذويها وقرات فقرات منها امامـــه بصوت عال ولم تعر اهتماما لوجودي وربمـــا ظننتني نائمـــة لان بعض الفقرات من الرسالة انطوت على اسرار عائلية واشارت الى الفتاة الصغيرة المسماة شارلوت التي كانت على وشك ارتكاب عمل رومانتيكي رديء ٠

وكان استنتاج هذه السيدة الكبيرة السن صاخبا على هـــذه العمليـــة الجنسية البغيضة وضحك الولد المولع بانجاز واجباته الوظيفية الخدمية من رسائه امه واخذ يسخر منها في حين انها اخذت تدافع عنهـــا وتهاجـــم ولدها بعنف وكان الاثنان غريبين في تصرفاتهما فهي في التاسعة والثلاثين او الاربعين من عمرها وهو ممتلىء الجسم وبصحة جيدة ويترعرع كفتاة في العشرين من عمرها ٠ وبدت المـــرأة بعنفهـــا وصياحها الصاخب وهزتها رابتدائها كما لو ان ذهنيتها تنم عن الصفاقة والحماقة وكما لو ان جسمها باق لن يموت وفي رأيي انها في طفولتها ربما عاشت في مراكز عامة وانها في شبابها ربما عملت بوظيفة نادلة في حانة ٠

واثناء الصباح تحول حديثها الى موضوع جديد يخص عائلة راتسن وهي افراد عائلة من المسافرين معروفين لديها وقالت في معرض تقديرها للمزح الكبير الذي يردها منهم ان الذي ياتي لها منهم يعتبر كما لو انه كنز صغير كلما عبر افراد العائلة بواسطة الباخرة ٠ وعند الفجر حصل هـــرج ومرج وصخب وعند شروق الشمس دخل المسافرون الباخرة بالمرح الصاخب وكانت هذه المضيفة تستقبل افراد عائلة راتسن بالنشاط الصاخب ايضـــا وكانت تغدق عليهم الاماديح والتشريفات وهم افراد اثنان منهـــم ذكور واثنان من الاناث ٠

وعلاوة على افراد العائلة هؤلاء كانت هناك مسافرة وهي سيدة شابة يحرسها سيد محترم واحن الهمة على ما يظهر من سيمائه وهاتان المجموعتان

كانتا متضادتين ومتباينتين ، فعائلة واتسن تتكون من اناس اغنيـاء دون ريب يملكون ثروة موثوقا بها والمرآتان شابتان واحداهما جميلة ومليحة القوام وكلتاهما ترتديان ملابس انيقة غالية الثمن وتبدوان مبتهجتين الا انهما مضحكتان بسيرتيهما المنافيتين للظروف ٠

وفي قلنسوتي تينك الامرأتين زهور بديعة الالوان وبـدا معطفاهما الفضفاضان وملابسهما المخملية الحريرية مناسبـــة للنزهـات والحفلات الراقصة اكثر مما هي مناسبة للنزهات النهرية امـــا الرجلان فمن منزلة ادنى بسيطان وبدينان وسوقيان وسرعان مـا عرفت ان الاكبر والابسط والاسمن والاعرض هو الزوج وربما العريس وكانت الاصغر كثيرا عروسه وهي فتاة جميلة ٠

وكان هجبي كبيرا لهذا الاكتشاف والاعمق من ذلك ادراكي وتحسسي بانه بدلا من ان تكون العروس تعيسة جدا كانت تبدو جد مبتهجة بشكـل طائش ومستهتر وتصورت ان ضحكتها ينبغي ان تكون مجرد نوبة من نوبات اليأس والقنوط ، وحتى عندما كانت هذه الفكرة تمر مرورا في خاطري وانا واقفة ومكتئبة بكل هدوء ووحدانية على جانب الباخرة جاءت تتهادى بخطاها صوبي وبكل غرابة وبيدها كرسي صغير مخصص للجلوس وهـي تبتسم ابتسامة محيرة ومجفلة رغم انها تبدي طقما كامـــلا من الاسنان ، وقدمت لي الكرسي فأبيت اخذه ــ طبعا ــ بكل ما املك من كياسة وتادب وكانت ترقص بعيدا عني دون اكتراث بأحد وبرشاقة ومرح الامر الـذي نم على انها ذات طبع طيب بسيط وسريرة جيدة ولكن السؤال الذي كـان يحيرني هو ٠٠٠ ترى ؟؟٠ ما الذي جعلها تتزوج ذلك الشخص الذي كـان اشبه ما يكون ببرميل نفط منه الى رجل ؟

وكانت المسافرة الاخرى برفقة الرجل فتاة وسيمة رائعـــة الجمال وملابسها البسيطة المطبوعة بالرسوم وقلنسوتها القشية غـــير المزركشة وشالها الكبير الذي ترتديه برشاقة كلها شكلت لباسا نسويا مبسطا غـير مزركش ومع ذلك بدا عليها كما لو انها البسة كافية لا ينقصها شيء وقبل ان يغادرها السيد لاحظت انه يرمق المسافرين كلهم بنظرات فاحصة كمـا لو انه يريد التأكد ممن ستكون وديعته وموضوع رعايتـه وتحولت عيناه المستاءة جدا من السيدات المزوقات بأوراد زاهية ووقعت علي وبعد ذلك تكلم مع من لا ادري ما اذا كانت ابنته او ابنة اخيه او ابنة اخته او ماالى ذلك

twitter @baghdad_library

وهذه ايضا نظرت صوبي وباتجاهي واذا بها تمط بشفتها الصغيرة الحلوة معلة خفيفة وربما كنت انا المقصودة بذلك او كان ردائي الصباحي البيتي الحدادي هو الذي استثار اشارتها او حركتها الاستخفافية او كان كلاهما في معظم الاحتمال • وهنا رن الجرس وقبلها والدها (وهنا عرفت فقط انه والدها) ثم عاد الى البر وتحرك الزورق بالمسافرين •

ويقول الاجانب ان الفتيات الانكليزيات فقط يمكن الوثوق بهن عندما يسافرن وحدهن وهم مندهشون اندهاشا كبيرا من الثقة التي يستشعرها الآباء والامهات الانكليز ببناتهن ويسميهن البعض مثلا بالانسة « الشاب » ويعتبرهن الآخرون بالضحيات المذعنات لنظام تعليمي او لاهوتي فيتمردن بشكل خليع على مراقبة الوالدين الصحيحة •

ولست ادري ما اذا كانت هذه السيدة الشابة بالذات من النوع الذي كان يمكن تركها آمنة بلا مراقبة وبالاحرى ما كنت ادري آنذاك ولكن سرعان ما ظهر ان جلال الانفراد او الانعزال لا يتوافق وذوقها وكانت تخطو جيئة وذهوبا مرة او مرتين على ظهر المركب وراحت ترنو بمقلتيها وسط جو كريه من الازدراء الى الملابس الحريرية والمخملية والصور المرسومة على الملابس واذا بها تتقدم نحوي في آخر الامر وتبادرني الحديث بالسؤال التالي :

« هل انت مولعة بالسفرات البحرية ؟ » واوضحت لها ان ولعي بالسفرة البحرية بالنسبة للاوانس الشابات يعتبر غير ملائم وغير صحيح وغير لائق ويخضع لامتحان تجريبي اذ انني لم اقم قبل هذا بسفرة بحرية كهذه وصاحت « الله ••• الله ••• ما ابلغ ما تقولين انني احسدك على ابداعك وآن أولى انطباعاتي عنك هي ـ كما علمت الآن ـ مريحة للغاية اما انا فقد قمت بسفرات كثيرة بحيث انني نسيت امر السفرة الاولى •• انا في الحقيقة متعبة من السفرات ومن كل ما يتصل بالسفرات » •

ولم املك نفسي من الابتسام لما قالته وسألتني على اساس اختباري صريح سرني اكثر مما سرني حديثها الآخر « لماذا تضحكين مني » ؟ فأجبتها « لانك اكثر حيوية وشبابية من ان تتبرمي بأي شيء ؟ » وقالت لي بشيء من الكبرياء الغاضب « انني في السابعة عشر من عمري » وقلت لها « انت تبدين في السادسة عشر من عمرك لا اكثر وهل تحبين السفر وحدك ؟ »

وقالت لي بعدم اكتراث « لا اهتم بأي شيء كهذا ·· فقـــد عبرت القنال عشر مرات وحيدة ، بيد انني اسعى لكي لا تطول سفرتي وانا وحيدة واسعى ايضا للتحري دائما عن صديقات » ·

وقلت لها وانا اومىء الى مجموعة عائلة واتسن الذين كانوا يضحكون انذاك ويحدثون ضجيجا كبيرا على سطح المركب « أيصعب عليك ان تجدي صديقات كثيرات في هذه السفرة ؟» وقالت لي « ليس مثل هؤلاء البغيضين من الرجال والنساء الذين يتحرون المناطق الارخص في الباخرة ·· واسألك هل انت ذاهبة لدخول مدرسة ؟ ··· قلت لها ·· كلا ··» وسألتني « اذن اين وجهتك ؟ آين آنت ذاهبة ؟ » قلت لها « ليست لي اية فكرة عن الموضوع وكل ما اعلمه انني لن اتعـــدى مينـــاء بومارين » ورنت الى بمقلتيها واستطردت في حديثها السريع التالي بلا اكتراث :

« انا ذاهبة الى المدرسة ··· ولكم دخلت مدارس اجنبية في حياتي ولكنني لا ازال في جهل مطبق فانا لا اعرف شيئا ·· صدقيني لا اعـرف شيئا في العالم عدا اللعب والرقص اللذين اجيدهما بشكل رائع · طبعـا انا اعرف اللغتـين الفرنسية والالمانية ولـكنني لا اقرأهما جيـــدا ·· اتعلمين ؟·· أرادوا مني ان اترجم لهم صفحة من كتاب المانى سهل الى اللغة الانكليزية ولم أقو على ذلك واسقط في يـــد ابي وانجرح شـعوره وقال « يبدو ان عرابي المسير دي باسومبيير الذي يدفع كل قوائم المدارس التي ارتادها قد بدد نقوده كلها تبديدا فذهبت هباء » ·

واستطردت تقول « وفي قضايا الاعلام والتاريخ والجغرافيا والحساب وغيرها لا زلت كطفلة وكتابتي باللغة الانكليزية رديئة جداوكذلك أنا في نفظي وقواعد اللغة ·· وقد كنت ذات مرة في بون (·· ايتهـا العزيزة بون ·· ايتها الساحرة بون ··) لقد كان فيها الـــكثير من التلميذات الجميلات المهندمات وكل فتاة جميلة كان لها في المدرسة من يعجب بها من التلاميذ الذين يعزفون ساعات خروجنا للتنزهات وغالبـــا ما يلاحقوننا ويمرون من امامنا في المتنزه ويقولون لنا عادة « سكونسر ماشين » ومعناها بالالمانية « الفتيات الجميلات » ·· آه ·· ما كان اسعدني في بون ·· »·

وسألتها « واين تذهبين الآن ؟ » فأجابت « انا ذاهبة الى (جوسي)·» والان قد استبدلت الآنسة جنيفرا فانشاوي ـ وهذا هو اسم هذه الشابـة الشخصي ـ استبدلت هذه الكلمة (جوسي) بنسيان مؤقت للاسم الحقيقي

twitter @baghdad_library

وتلك كانت عادتها . ان كلمة جوسي .. توردها لدى كل مطلع في حديثها وهي البديل الملائم عن كل كلمة مفقودة في اية لغة .. يجري التكلم بها وغالبا ما تفعل الفتيات الفرنسيات ذلك ومنها جاءت العادة وعلمت ان كلمة جوسي .. في هذا الصدد تعني .. فيليت .. العاصمة الكبرى لمملكة .. لاباسيكور .. العظمى (كلمتا فيليت .. لاباسيكور هي كلمتان خياليتان استخدمتهما شارلوت برونتي عن كلمتي .. بروكسل وبلجيكا من شرح المؤلفة في آخر مؤلفها) .

وسألتها « هل تحبين فيليت ؟ » فأجابتني « اجل .. اعرفها معرفة تامة .. ان اهاليها من الحمقى والمبتذلين تماما غير ان بعضهم من العوائل الانكليزية الطيبة » وسألتها « هل انت تلميذة في احدى المدارس ؟ » فاجابتني « بلى .. » وسألتها « هل هي جيدة ؟ » واجابتني « كلا انها مدرسة بغيضة ... ولكنني لا اكون فيها ايام الاحاد وانا لا اهتم بالمعلمات او البروفيسورات ولا بالتلاميذ والى الشيطان بالدروس » وتوقفت قائلة « لماذا تضحكين علي مرة اخرى ؟ » واجبتها « لست اضحك عليك وانما اضحك على افكاري وآرائي الخاصة فقط » .

ودون الانتظار الى استماع بقية كلماتي الجوابية سألتني « وما هي افكارك .. قولي لي اين انت ذاهبة ؟ » واجبتها « اذهب الى حيث يقودني قدري ومصيري وضالتي هي نشدان الربح حيثما يتسنى ايجاده » وقالت بانبهار عجيب « الربح ..؟ هل انت فقيرة اذن ؟ » واجبتها « انا فقيرة كفقر الاشغال نفسها .. »

(وبعد برهة سكون) قالت بعجب « ما اسوأ ذلك .. انا اعرف ماذا يعني الفقر لصاحبه .. ان اهل بيتنا فقراء بما فيه الكفاية . بابا وماما والجميع .. بابا يسمى بالكابتن فانشاوي وهو ضابط يتقاضى نصف راتبه لانه ليس محسوبا على الخدمة الفعلية ولكنه عرضة لاستدعائه في حالة نشوب الحرب وهو منحدر من اسرة رفيعة والبعض من اقاربنا اناس عظام وعمنا وراعينا دي باسومبيير القاطن في فرنسا هو الاوحد الذي يساعدنا وهو الذي ثقفنا نحن البنات الخمسة والاخوة الثلاثة وعما قريب سنتزوج ولو ازواجا اكبر منا سنا وندفع النقود لذلك .. بابا وماما هما اللذان يدبران ذلك ، اختي اوغستا متزوجة الآن من رجل يبدو انه اكبر سنا من ابي وهي جميلة جدا وليست على شاكلتي انما هي سمراء وزوجها

المستر دينفيس اصابته الحمى الصفراء في الهند فهو اصفر بلون الجنيه الانكليزي ثم اصبح غنيا وتركب شقيقتي اوغستا الآن مركبتها الفخمة ولها مؤسستها التجارية ونعتقد بأنها احسنت صنعا بزواجها منه وهذا طبعا افضل من السعي « لكسب العيش » كما تقولين ·· والشيء بالشيء يذكر ·· هل انت ذكية ؟ »

وقلت لها « كلا ·· لست كذلك اطلاقا ·· » وسألتني « هل تمثلين على المسرح ؟ هل تغنين ؟ هل تتكلمين من اللغات ثلاث او رباع ؟ » واجبتها « كلا ·· ابدا ·· » وقالت لي « لا ازال على ظني بانك ذكية » (واعقب ذلك توقف قصير وتثاؤب) ثم سألتني « هل اصابك دوار البحر ؟ »واجبتها « وهل اصابك انت » وقالت لي مجيبة « نعم كثيرا وكثيرا جدا فحالما يقع نظري على البحر يبدأ تحسسي بالدوار وانزل الى تحت ولا اكترث بماتقوله المضيفة البدينة القبيحة ولحسن الحظ اعرف كيف اجعل الناس يعملون ما اشاء » ثم نزلت بعد انتهاء حديثها هذا الى داخل الباخرة ·

وسرعان ما لحق بها بقية المسافرين والمسافرات · وعندما حل وقت الظهيرة ظللت انا على ظهر السفينة وعندما اتذكر الحالة المطمئنة وحتى اقول الحالة السعيدة التي امضيت بها تلك الساعات وعندما اتذكر أيضا المصادفة التي كنت فيها وخصائصها المتعبة ـ وربما قال البعض الميئوس منها ـ اشعر بمثل ما شعر به الشاعر ريشارد ـ لوفليس (١٦١٨ـ١٦٥٨) في هذين البيتين الشعريين :

« الحيطان الحجرية لا تصنع سجنا

ولا القضبان الحديدية تصنع قفصا »

وعلى هذا لا نعتبر المخاطر والمستقبل غير المضمون والعزلة شرورا جائرة ما دام الجسم صحيا وما دامت المواهب والقدرات الشخصية قيد الاستخدام وما دامت الحرية تعير لنا جناحيها والامل يقودنا بنجومه · ولم اقع طريحة الفراش من المرض الا بعد مرور مدة طويلة من مرورنا بـ « ماركيت » وما اعمق اللذة التي احسست بها من نسائم البحر وما اروع واقدس البهجة التي استشعرتها من امواج القنال الجياشة ومن طيور البحر الحالة فوق لججه ومن اشرعة السفن البيضاء المومضة فوق بعده

twitter @baghdad_library

المنبسط الداكن ومن جوه الهادىء الذي تكتنفه الغيوم المتدلية على كل شيء .

وخلت كحالمة في اليقظة انني شاهدت قارة اوربا كما لو انها ارض الاحلام المتراصية بعيدا بعيدا .. تتمدد عليها اشعة الشمس جاعلة من الساحل الطويل صفا واحدا من الذهب ، ان اصغر زخرف لجاميع المدن العنقودية وابراج الثلوج المتألقة المومضة والايك العميق المتكاثف والمرتفعات المسننة والمراعي الممهدة ومياه الجداول المنسابة التي تزخرف مناظر الخلفية الملتمعة التماعة المعدن . ان كل ذلك ينشر امتداده جو مهيب ملون باللون الازرق الداكن المتشامخ بالامنية الفخمة المنعم بسحة السحر والفتنة الذي مد من الشمال الى الجنوب قوسا الهي الحنية ، قوسا مليئا بالامل .

واهتد بي المرض فترنحت وتداعيت ساقطة على ارض الكابينة ، وصادف اثناء ذلك وجود الآنسة فانشاوي على مقربة مني ويؤسفني ان اقول انها عذبتني بأنانيتها المطلقة طوال وقت همومنا المتبادلة فلا شيء يزيد على تسرعها ونفاذ صبرها واضطرابها وان افراد عائلة واتسن الذين كانوا هم ايضا مرضى جدا وتخصهم المضيفة بخدمتها بتحنين مخجل ومعيب كانوا من الرواقيين بالنسبة لها .

لقد لاحظت مرارا في اشخاص شبيهين بجنيفرا فانشاوي مظاهر الطبع العديم الاكتراث ونوعية الوسامة الجميلة وقلة الصبر على التحمل او المعاناة فيغضبون لمحنتهم ويصبحون مشاكسين كما يشاكس الدب الصغير في جو عاصف . والرجل الذي يتخذ مثل هذه الفتاة زوجة له ينبغي ان يكون مستعدا لان يؤمن لوجودها ضوء الشمس الساطع دائما ثم سرعان ما يستاء من شكاستها المزعجة وقد طلبت منها بنوع من التأنيب ان تمسك لسانها ولا تتهور او تتسرع في الفاظها وهذا التأنيب افادها ولاحظت انها اخذت تحبني الى ابعد حد بعد ذلك .

وعندما جن الليل وادلهم اهتاج البحر واخذت امواجه القوية السائبة تضرب جانب الباخرة وكان من الغريب التأمل بتلك الامواج وبذلك الالهمام الذي لفنا ومع ذلك تشق الباخرة طريقها شقا سويا في ذلك الطريق المائي غير السوي الذي يبدو وكأنه ليس بطريق رغم الضجيج وتلاطم اللجج والرياح الهوجاء .

وبدأت تتساقط قطع الاثاث حولنا وتوجب علينا ان نعيدها الى اماكنها وزاد مرض المسافرين عن ذي قبل وكانت الآنسة فانشاوي تئن وتعسيح .. انني سأموت .. وقالت لها الخادمة المضيفة .. « لن تموتي يا عزيزتي عما قريب سنصل الى الميناء » وعندما انتصف الليل تقريبا انتهت السفرة وشعرت بالاسى والاسف ، نعم شعرت بذلك فوقت الراحة الذي كان مخصصا لي قد ولى عني وبدأت مصاعبي .. مصاعبي الشديدة .. وعندما صعدت على ظهر المركب بدا لي كما لو ان الرياح الباردة وتقطيبة الليل البهيم تعنفني لوقاحتي في ان اكون حيث كنت .

والتقتني اضواء البلدة الميناثية المومضة حول المرفأ الاجنبي كما لو انها عيون لاعداد لها تحدق بي وجاء الاصدقاء للترحيب بافراد عائلة واتسن واحاطت عائلة برمتها بهم الامر الذي ازعج الآنسة فانشاوي اما انا .. وحدي انا .. التي لم تجرأ ولو للحظة واحدة على الركون الى المقارنة بين المراكز الاجتماعية فقد ساءلت نفسي اين ينبغي ان اتجه ؟ واين اذهب ؟ ينبغي علي ان اذهب الى مكان ما فالضرورة لن تكون منمقة ولا مفاضلة ولا مزخرفة .

وعندما سلمت للخادمة المضيفة اجرتها وهي عملة نقدية ربما لم تكن تحلم ان تستلمها من امثالي بحيث قلب ميزان تقديراتها قلت لها « تلطفي معي وارشديني الى نزل هادىء ومحترم امضي به ليلتي هذه .» ولم تكتف بارشادي الى نزل فقط انما استدعت احد الخدم وحثته على الاهتمام بأمري وليس بصندوق حاجياتي الذي كان قد ارسل الى دائرة الكمرك .

ومشيت وراء الرجل في زقاق فقير التمهيد لا يضيئه سوى ضوء القمر المتقطع واوصلني الى النزل واعطيته ستة بنسات رفض اخذها لقلتها على ما اظن واستبدلتها بشلن ورفض ايضا استلامه وتفوه بكلمات فظة على ما اتصور وبلغة غير معروفة او مفهومة لدي واذا بنادل يقدم الينا في ذلك الممر الذي اضاءته ادارة النزل بمصباح وقال لي بلغة انكليزية ضعيفة ان العملة النقدية عملة اجنبية وهي غير مقبولة هنا .

وسوينا هذه القضية الصغيرة بأن اعطيته جنيها انكليزيا ذهباليحوله الى عملات نقدية واخذ مني ما ارضاه وطلبت غرفة منام ولم استطع تناول العشاء لان مفعول تأثير دوار البحر كان لا يزال في احشائي وكنت ثائرة

twitter @baghdad_library

الاعصاب من المرض والرجفة مستحوذة على جميع اجزاء كياني · وكم كان سروري عظيما عندما اغلق باب حجرة النوم الصغيرة جدا علي وعلى تعبي وانهاكي وكان علي مرة اخرى ان ارتاح وان كانت غيوم الشك على وشك ان تتكاثف من حولي غدا كالايام الاخرى · وكانت قضية الاجهاد اكثر آنية وخطر الفقر المدقع اقرب الي من حبل الوريد والنزاع من اجل الوجود آنكى واقسى وامر ·

الفصـــل الســـابع

ـ فيليـــــت ـ

نهضت في صبيحة اليوم التالي مفعمة بالحيوية والنشاط ومعنوياتي متجددة وضعفي الجسماني لم توهنه كثيرا المحاكمة العقلية ولذلك كانت ذهنيتي صافية ويقظة .وما ان انهيت ارتداء ملابسي حتى طرق علي الباب واجبت الطارقة ان ٠٠ ادخلي ٠٠ وكنت اظن انها المهجعية اي الخادمـة المسؤولة عن غرف النوم ولكني فوجئت بدخول رجل تبدو عليـه الفظاظة قال لي ما يلي :ـ

« اعطني مفاتيحك ايتها الآنسة » وسالته « لماذا ؟ » فاجابني بفارغ الصبر « اعطني اياها » وبعد ان اخذها مني على شاكلة نصف انتزاعة او نصف اختطاف قال لي مضيفا « هلم معي وتناولي فطورك سريعا » ولحسن الحظ ظهر ان النتيجة كانت حسنة وانني كنت محظوظة وكان الرجل على ما يظهر من دائرة الكمرك ٠ اما اين اتناول فطوري فما كنت ادري انما ظللت امشي معه بنوع من التردد ثم شرعت بنزول الدرج ولاحظت الآن با لم الحظه طوال ســـاعات تضجري وتعبي الشديدين في الليلة الماضية لاحظت ان ذلك النزل لم يكن نزلا وانما كان ـ في الحقيقة ـ فندقا ضخما وفخما وبينما كنت اهبط ببطء سلم الدرجات الطويل واقف عند كـــل درجة من ذلك السلم (اذ لم تكن بي رغبة في النزول بسرعـة) شخصت ببصري الى السقف العالي للفندق الذي تحيط به حيطـان مصبوغة والى النوافذ الواسعة التي تملأ البناية بالانوار والاضواء والى المرمر المعرق الذي ادوس عليه (لان درجات السلم كانت كلها من المرمر وان كانت غير منظفة تنظيفا صحيحا وغير مفروشة بالسجاد وعـــلى النقيض من ابعـاد الغرفة الصغيرة التي خصصت لي) وبعد ان لاحظت منتهى تواضع مافيها من لوازم استرسلت في التفكير بحالتي النفسية من الوجهة الفلسفية ٠

twitter @baghdad_library

ولكم دهشت من ذكاء النوادل القائمين على خدمة الزبائن في الفندق ومن ذكاء المهجميات في توفير ما يؤمن راحتهم من ماكل ومشرب ومبيت وكيف يمكن لخدم الخانات والفنادق الصغيرة وخدم البواخر في كل مكان ان يقرروا بنظرة واحدة بانني ـ على سبيل المثال ـ اتسانة لا اهمية اجتماعية لها ولا تملك من المال شيئا ؟ ويظهر انهم عرفوا ذلك فقد لاحظت مع ذلك جيدا انهم سرعان ما رمقوني باعين الاعتبار والاحترام وبانت لي اهمية وقيمة مثلهم سواء بسواء وبدت الحقيقة غريبة وذات اهمية لها وزنها ولم احاول ان اخفي ما تشف عنه نفسي وما يشير الى حقيقتها ولكنني سميت لكي ابقي روحيتي عالية بفعل وطاتها وضغطها.

وبعد ان نزلت اخيرا الى البهو الكبير المليء بالكوى المنورة تنويرا كاملااخذت طريقي الى ما ظهرنوعاما بأنها غرفة البن اوالقهوة ولا يمكن ان انكر انني ارتجفت عنددخولها بعض الشيء اذ شعرت بالشك والازدراء والتعاسة وتمنيت لو ان السماء اخبرتني ما اذا كنت قد قمت بعمل صائب او خاطيء وايقنت انها النهاية ولكن ما كان بوسعي ان افعل شيئا وبعد ان تصرفت بهدوء تصرف الجبري المؤمن بالقضاء والقدر جلست على مائدة صغيرة وجاء لي احد النوادل بفطوري وتناولت الوجبة بذهنية غير مؤهلة ابدا لهضم الطعام .

وكان هناك الكثيرون ممن يتناولون فطورهم على موائد اخرى متواجدة في الغرفة والذي اسعدني انني لم اجد بين هؤلاء المتناولين فطورهم اية امرأة لان الجميع كانوا رجالا ولم يبد على اي منهم انه لاحظني اقوم باي عمل غريب وكان بينهم اثنان يختلسان النظر الي بين الفينة والفينة ولكن أيا منهما لم يكن ينظر نظرة تطفلية او فضولية ولكن ربما لمح احدهما بانني امرأة انكليزية .

لقد انتهى امد تناولي فطوري وعلي ان اتحرك مرة اخرى فالى اين اذهب او اتجه ؟ وهتف بي صوت داخلي « اذهبي الى فيليت » وليس من ريب في انني تذكرت تلك الجملة القصيرة التالية التي تفوهت بها امامي الآنسة فانشاوي عشوائيا ودون اكتراث عندما ودعتني :

« اتمنى لو انك جئت معي لتعريفك بالسيدة (بيك) فلها بعض الاطفال وهي تتحرى عن مربية انكليزية تعنى بهم وقد تحرت عن ذلك قبل شهرين . » وسألت نفسي من هي المدام (بيك) او السيدة (بيك) ؟

واين تقيم يا ترى ؟ لست ادري ·· ومر السؤال الذي كنت قد وجهته لها دون ان يسمع لان الآنسة فانشاوي هرعت مع صديقاتها وتركت السؤال بلا جواب ·

وافترضت ان (فيليت) هو محل اقامتها ·· والى (فيليت) ينبغي ان اذهب والمسافة بيني وبينها اربعون ميـلا وعرفت ان املي ضعيف في مسعاي وانا في خضم الفوضى النفسانية واهيـة كخيط العنكبوت تماما ولكنني سألت عن الوسائل التي يمكن ان توصلني الى (فيليت) وفي اخر الامر حصلت على مقعد في المركبة العامة المسماة (بالديليجنس) وسافرت في ظل فكرة اختمرت في نفسي · ويا قارئي العزيز قبل ان تحكم علـى حماقة هذه الفكرة ارجع القهقرى الى النقطة التي باشرت بها وتمعن في الصحراء التي خلفتها ورائي ولاحظ انني لم يداخلني الخوف الا بمقدار ضئيل · لقد كانت لعبتي هي اللعبة التي لا يمكن ان يخسرها اللاعب ، اللعبة التي يحتمل ان يربحها ·

ولا اعرف بان لي مزاجا فنيا بيد ان لي ـ مع ذلك ـ شيئا من مقدرة الفنان في الاستفادة كل الاستفادة من المتعة ولكن علـى شرط ان تناسب ذوقي · كنت في ذلك اليوم مستمتعة رغم سفرنا البطيء ورغـم البرد وسقوط المطر · وكان الطريق الـذي نسلكه في سفرنا ـ وبنوع ما ـ مقفرا ومنبسطا لا اشجار فيه ولكن على جانب هذا الطريق كانت القنوات الموحلة تزحف كزحف الافاعي الخضر نصف الخدرانة واشجار الصفصاف المقطوعة الارؤس كانت تحاذي الحقول المنبسطة المحروثة المرتبـة كسرير حديقة المطبخ ·

وكانت السماء ايضا رمادية بشكل رتيب والجو راكدا ورطبا ورغم كل هذه المؤثرات المضعفة المخمدة ظل خيالي يتبرعم بنشاط وظل قلبـي يستدفيء وينعم بأشعة الشمس ·

وهذه المشاعر ـ مع كل ذلك ـ ظل يخزنها على احسن مايكون الخزن الوعي المتواصل بالقلق، الكامن انتظارا للمتعة كمون النمر وجثومه في الغابة وان تنفس هذا الحيوان المفترس هو في سمعي دائما وقلبـه الشرس اللاهث قريب من قلبي ولم يشره احد في عرينه انما اشعر به واعلم انه ينتظـر شروق الشمس ليقفز من كمينه على فريسته بنهم ·

وكان املي ان نصل الى فيليت قبل حلول الظلام لاكون بمنجى مـن

twitter @baghdad_library

الارتباك الاعمق الذي يبدو بشكل غامض على انه يرمي بظلاله فوق اول وصول الى بلدة مجهولة • ولكن بعد تقدمنا البطيء وطول توقفاتنا في الطريق وبعد ما شاهدناه من تجمع الضباب بكثافة ومن انهمار الغيث ومن حلول الظلام الذي خيم على الجميع وصلنا الى المدينة بعد ان اضحت ضواحيها في متناول ابصارنا •

واعلم اننا مررنا ببوابة خارجية يرابط فيها الجنود وهذا مالاحظته على ضوء المصباح وبعد ان خلفنا وراءنا (جوسي) الموحلة اخذت دواليب مركبتنا تقعقع على رصيف ارض صوانية غير مستوية وغريبة ووقفت عند مكتب ترجل عنده المسافرون• وان اول واجب لي كان التفتيش عن صندوق امتعتي وهو صندوق وان كان صغيرا الاانه كان مهما عندي وبعدان ادركت ان من الافضل لي الا ازعج نفسي بحثا عن امتعتي وان انتظر بهدوء تسليم الصناديق الى ان تقع عيناي على صندوقي وبعد ان طالبت وحظيت به وقفت على حدة •

وتركز ناظري على ذلك القسم من المركبة التي وجدت بها حقيبة سفري الصغيرة سالمة في مكانها والآن تراكمت فوقها اكوام من الحقائب والصناديق الاضافية وشاهدت رفعها الواحدة بعد الاخرى وانزالها من المركبة واستلامها من قبل اصحابها وكنت متأكدة من ان حقيبتي ينبغي ان تظهر الآن ولكنها لم تظهر وكنت قد ربطت بها بطاقة اعلام وقطعة من الشريط الاخضر حتى يتسنى لي معرفتها حال وقوع نظري عليها ولكن لم تظهر اية قطعة من الشريط الاخضر رغم تحريك كل صندوق وكل صفيحة قصدير وكل رزمة من رزم الورق الاسمر ورفعت كل اغلفة الاقمشة الزيتية ورأيت رؤيا اليقين ان لا وجود لاية مظلة او عباءة او علبة القبعات والياقات •

واين يا ترى ذهبت حقيبة سفري وبداخلها بعض قطع الملابس التي ارتديها وبعض من كتب الجيب وما بقي لي من فضلة نقود قدرها ١٥ يا ونا ؟•• انني اطرح هذا السؤال الآن ولكنني ما كنت اقوى على طرحه في ذلك الوقت او ان انبس ببنت شفة حول الموضوع بأي حال من الاحوال ذلك انني لم اكن اتكلم اللغة الفرنسية ، واللغة الفرنسية وحدها كانت سائدة هناك دون سواها فالعالم كله من حولي كان يهدر وينطق بكلام غير مفهوم من قبلي •

وماذا كان بوسعي ان افعله ؟ لقد دنوت من قاطع التذاكر ووضعت يدي على كتفه وأومأت الى صندوق ملابسي ثم الى سقف المركبة وحاولت ان اكون سؤالا بالتعبير والايماء مستخدمة كلتا عيني ولكن دون جدوى اذ لم يفهمني انما امسك بصندوق الملابس الذي اشرت اليه وكان على وشك ان يرفعه الى المركبة · وجاءني صوت باللغة الانكليزية الجيدة ثم كرره باللغة الفرنسية ومفاده « دعي هذا ولا تلمسيه ·· ماذا انت فاعلة ؟ هذا الصندوق صندوقي ·· »

وما ان سمعت لغة الآباء والاجداد لغة الوطن حتى دخل السرور الى قلبي والتفت الى الغريب وناشدته دون ان الاحظ وانا في خضم كآبتي اي شخص هو وقلت له « سيدي اتوسل اليك ان تسأل هذا الرجل عما فعل بصندوقي » ودون ان اعرف في تلك اللحظة حقيقة الوجه الذي رفعت عيني اليه وثبتها عليه شعرت من اساريره انه كان نصف مستغرب من مناشدتي اياه ونصف مرتاب من حكمة التدخل في هذا الموضوع وقلت له « اسأله وانا سأفعل جهدي من اجل فائدتك » ولا أدري ما اذا كان قد ابتسم الا انه قال لي بنبرة الرجل النبيل « الجنتلمان » ما اعتبرته لا فظا ولا مخيفا « اي نوع من الصناديق كان صندوقك الذي تتكلمين عنه ؟ » ·

لقد وصفته له واوردت في وصفي الشريط الاخضر واتصل بقاطع التذاكر وعلمت من زوبعة اللغة الفرنسية التي دار حديثهما فيها انه كان ينتقد قاطع التذاكر بعنف وهما يسيران على طول المركبة ثم عاد الي وقال لي « ان هذا الشخص يؤكد ان المركبة كانت محملة اكثر من طاقتها بلوازم المسافرين واعترف بأنه رفع الصندوق العائد اليك وخلفه وراءه في (بومارين) مع الرزم الاخرى ووعد بشحنه الى صاحبته غدا او بعد غد وستجدينه سالما في هذا المكتب » ·

وقلت له وقلبي في انخفاض « اشكرك على ما فعلته من اجلي » وسألت نفسي والآن ماذا سأفعل ؟ ربما لاحظ هذا الجنتلمان الانكليزي في وجهي ان شجاعتي تخونني وسألني بشيء من العطف « هل لديك اصدقاء في هذه المدينة ؟ » فقلت له « كلا ·· ولا ادري اين اذهب » وسادت برهة من الصمت وعندما تحول وجهه بان بشكل واضح تحت ضوء المصباح المعلق فوق رأسه ·· لقد كان شابا متميزا وجميل الصورة وربما كان واحدا من اللوردات على ما ظننت ·

twitter @baghdad_library

وربما ان الطبيعة هيأته لكي يكون اقرب الى الامراء وكان وجهه مريحا جدا وظهر انه عالي الشان ولكن بدون عجرفة او كبرياء • وكنت على وشك الرحيل وانا اتحاشى بكل ما في شعوري من عمق ان اطالبه باسداء العون لي ولاسيما من رجل مثيله ولكنه اوقفني متسائلا « هل كانت كل نقودك في الصندوق الذي بحثت عنه ؟ » ولكم كنت ممتنة لان اجيبه بكل صدق وصراحة « كلا •• فادي في جزداني ما يكفيني وقدره عشرون فرنكا تبقيني ساكنة في نزل هادىء الى يوم بعد غد غير انني غريبة في (فيليت) ولا اعرف شوارعها ونزلها » وقال لي « استطيع ان اعطيك عنوان مثل هذا النزل الذي تنشدينه وليس بعيدا عن المكان وبتوجيهي تستطيعين الوصول اليه بسهولة » •

ومزق ورقة من دفتر ملاحظاته وكتب بضع كلمات سلمها لي وتحققت من عطفه وقلت في نفسي ان موضوع التشكيك به او بنصيحته هو كموضوع التشكك بالانجيل فالطيبة كانت تنضح من محياه والشرف من عينيه البراقتين وواصل كلامه معي قائلا •• « ان اقصر طريق يوصلك هو متابعة الشارع العريض المشجر وقطع المتنزه وعبوره ولان الوقت متاخر والظلام مدلهم بالنسبة لامرأة تمر من المتنزه وهي وحيدة فانني سارافقك واوصلك الى النزل » •

وتحرك ومشى وانا اتابعه في الظلماء وسط رذاذ المطر وكان الشارع آنذاك مهجورا من السابلة وقطرات المطر تتساقط من الاشجار والمتنزه اسود كمنتصف الليل في ثنائي الظلام •• الاشجار والضباب •• وما كان يوسعني وسط هذه الحلوكة ان اشاهد وجه دليلي وانما كنت اتابع خطواته فقط وما داخلني او خامرني اي خوف اذ كنت مؤمنة بانني استطيع تتبع خطوات هذا الشخص السليم السريرة وسط الليل المتواصل الى آخر الدنيا •

وقال لي « عند اجتيازك هذا المتنزه اقصدي هذا الشارع العريض واجتازيه حتى تصلي الى درجات السلم حيث يوجد مصباحان يبينان لك الطريق والمكان الذي انت فيه وعليك ان تهبطي من درجات السلم حيث يقع تحتها شارع ضيق وهناك يتكلمون الانكليزية وتنجلي مصاعبك وتكونين بأمان •• استودعك الله » • وقلت له « الوداع يا سيدي • تقبل اخلص شكري » ثم افترقنا •

ان تذكر محياه التي تحمـــل في اعتقادي نـورا عطوفا على من لا اصدقاء لهم ورنين صوته في اذني ·· صوته الـــذي ينطـق بالشهامه والفروسية بطبيعته امـام المحتاجين والضعفاء وشبابه وصفاء سريرته . ان كل هذه سببت نوعا من الانعاش لفؤادي لمدة طويلة · حقا لقد كـان واحدا من الجنتلمانية الانكليز الاقحاح ·

ومضيت مسرعة في طريقي عبر الشارع البديع والساحة البديعـه ومن حولها اضخم الدور وبينهاشكل ضخم مكون من اكثر من ركيزة ضخمه قد تكون قصرا او كنيسة · وحالما مررت بمدخل المبنى او الرواق اقبـل رجلان بشاربيهما الضخمين على حين غرة من وراء الاعمدة وهما يدخنان السيجار ومظهرهما يدل على انهما من الجنتلمانية ولـــكن يا للمسكينين انهما كانا من عامة الناس روحيا يتكلمان باستخفاف ووقاحة ·

وعند مروري من امامهما بسرعة اخذا يلاحقاني طول الطريق واخيرا التقيت بحارس وشكوتهماليه فمنعهما من ملاحقتي ولكنني بوضعي المحرج تهت وضللت طريقي فالسلم الذي كان ينبغي علي ان امر به قبل هذا الوقت بكثير حيرني وبهر انفاسي وراحت نبضات قلبي تـــدق دقا عنيفا وانا في هياج نفساني محتوم ومـا كنت ادري اين اولي وجهـي واين ادير طرفي وكان من المنيف لي ان اقاوم ذينك الملتحيين المغفلـــين المزدريين بالناس والمتحرشين بامثالي ومع ذلك كان علي ان اعـــود من حيث اتيت تفتيشا عن السلم ·

واخيرا وصلت الى مسلسلة من درجات السلالم القديمة المتصلة ببعضها وقلت لابد ان تكون هذه هي الدرجات المنصودة ونزلت منها ووجدت فعلا ان الشارع الذي يؤدي اليها كان ضيقا ولكن لم يكن فيـه اي نزل ورحب اهيم على وجهي في شارع هادىء جدا ونظيف نوعا ما وممهد تمهيدا جيدا ووجدت ضوءا فوق باب بناية كبيرة هي اعلى من البنايات الاخرى المجاورة لها بمقدار طابق وقلت ربما كان هذا هو النزل اخيرا وسارعت خطاي واحسست بقدمي ترتجفان الآن مـن تحتي وبأنني كنت منهوكة القوى جدا · وظهر ان ذلك لم يكن بالنزل وان لوحة نحاسيـــة كانت تزخرف رواق العربات الكبيرة بما كتب عليها من العبارات التالية : ـ المدرسـة الداخلية للسيدات الشابات وتحتها اسم (المدام بيك) ·

twitter @baghdad_library

وانطلقت افكر وبلحظة واحدة تواضت مئات الافكار بذهني ومع ذلك لم اقرر شيئا اذ لم يكن لدي الوقت الكافي لذلك وقالت لي العناية الالهية « هو ذا نزلك قفي هنا » ومسكني القدر بيده القوية وسيطر على ارادتي واشرف على اعمالي وادارها فقرعت جرس البـاب وعندما كنت انتظر لم افكر بشيء معين انما انحصر بصري على حجارة لشارع حيـث يضيء مصباح الباب ولاحظت اشكالها وتالق الندى على جوانبها ثم قرعت الجرس مرة ثانية ففتح لي الباب اخيرا ووقفت خادمة وعلى رأسها قبعـة انيقة قبالتي .

وسألت الخادمة « هل لي في مقابلة المدام (بيك) ؟ وفي اعتقادي انني لو كنت اتكلم اللغة الفرنسية لما سمحت لي بالدخول ولكنني تكلمت معها باللغة الانكليزية فاستنتجت من ذلك انني معلمة اجنبية جاءت بمهمة لها علاقة بالمدرسة ومع ان الساعة كانت متأخرة فانها سمحت لي بالدخول دون ان تنبس بكلمة معارضة ودون ان تتردد لحظة واحدة .

وفي اللحظة اللاحقة جلست في صالون بارد ومضاء وفيه موقدمطفأ وزهارف مطلية وممومة بالذهب وارض الصالون مصقولة وقـد دقت الساعة الرقاصية الموضوعة في طية من الجدار . وانقضت نصف ساعـة وانا دقات نبضي في ازدياد وكنت اتنـاوب الشعور بالبرد والشعـور بالحرارة تارة اخرىوجلست وعيناي شاخصتانعلىالباب الذي كانموصدا وكبيرا وابيض اللون مموها قالبه بالذهب ومطليا بـه وراقبت انفتاح مصراع الباب او تحركهولكن كلشيء كان هادئاوساكنا والابوابالبيضاء مغلقة لا صوت يسمع منها قط.وعلى حين غرة سمعت صوتا علىمقربةمني لم اتوقعه لانني كنت متأكدة من انني وحيدة ولم يكن بالقرب مني شبحولا ما يشبه الطيف وانما وجدت امرأة قميئة وبدينة ذات منظر امومي ترتدي شالا كبير الحجم وثوبا يحجب جسمها كله وغطاء للرأس نظيفا ومزركشا.

وقلت لها «انني انكليزية» وفي الحال وبدون سابق انذار او تمهيد اخذنا نتجاذب اطراف الحديث الاستثنائي الملفت للنظـر . وكانت هي المدام (بيك) التي كانت قد دخلت من الباب الصغير الواقـع خلفي ولم اسمع صوت دخولها او دنوها مني لانها كانت تلبس حذائين لا صوت فيهما اثناء المشي وكانت قد نسيت لغة الجزيرة الانكليزية وراحت تتكلم بسرعة بلهجتها الجديدة وكنت اجيبها بلغة الجزيرة البريطانية .

ولم تقو على فهم لهجتي الا جزئيا اما انا فلم افهمها قط وكنا نرفع من صوتينا لاسماع الواحدة الاخرى ولكن دون جدوى لانني لم اسمع طريقة لهجتها الانكليزيةولم اتخيل وجودشيلتها ولذلك لمتتقدمالا تقدما ضئيلا في محاورتنا وكانت قد دقت الجرس لتطلب العون وجاءت كبيرة الخدم التي كانت قد تخرجت في مدرسة الراهبات في ارلندة واعتبرت مؤهلة وكفوءة باللغة الانكليزية ٠

وتكلمت معها لكي تترجم للمدام (بيك) كيف انني خرجت من بلدي وتغربت من اجل زيادة خبرتي وكسب عيشي وكيف انني على استعداد للقيام بأي عمل مفيد شريطة الا يكون فيه اي خطأ او ما يعيب وكيف انني استطيع ان اقوم بوظيفة مربية اطفال او خادمة عند سيدةولا ارفض حتى القيام بالاعمال المنزلية التي تتناسب وقوتي الجسمانية وسمعت المدام (بيك) ذلك ، وبعد ان تفحصت محياها ادركت ان ما قلته قد اهتمت به اهتماما جيدا ٠ وكان جوابها عن طريق الترجمة « ان النسوة الانكليزيات فقط هن اللواتي يقمن بهذه النوعية من الاشياء فما اشجعهن حقا ٠٠ » ٠

وشرعت تسأل عن اسمي وعمري ثم جلست ترنو الي لا عطفا ولا اهتماما جيدا ٠وكان جوابها عن طريق الترجمة «ان النسوة الانكليزيات اثناء المقابلة وعرفت انها ليست بالمرأة التي يقودها ولو قاب انج من مشاعرها فقد كانت تطيل النظر الي بشكل رزين ومحترس وتتشاور بنفسها مع رأيها في الاشياء وحكمها عليها وتتفحص ما جاء في اقوالي واستعداداتي ثم رن صوت الجرس ٠

وقالت وهي تنهض من مقعدها عن طريق المترجمة انها تريدني ان اذهب واعود غدا الا ان ذلك لم يكن يروق لي اذ لم يكن بوسعي مواجهة اخطار ظلمة الليل والشارع وخاطبتهاشخصيا دون المترجمة بقوة وسيطرة على الذات « تأكدي واطمئني ايتها السيدة انك اذا ضمنت خدماتي لكفي الحال فأن مصالحك ستكون مضمونة ومأمونة لا ينالها اي ضير وستجدينني تلك التي تريد العطاء بجهدها وعملها مقابل الاجرة التي ستدفعينها لي ومن الافضل ان امكث هنا هذه الليلة اذ ليس لدي معارف في (فيليت) وليس عندي لغة البلد ولا استطيع ايجاد مسكن او ملجأ لي » ٠

وقالت لي « هذا صحيح ٠٠ ولكن تستطيعين ان تعيني مرجعا لك

twitter @baghdad_library

للاتصال بك » وقلت لها « ليس هذا بوسعي » وتساءلت عن امتعتي فقلت لها انها في الطريق الي واستغرقت في التفكير · وفي تلك اللحظة سمعت خطوات رجل قادم من الردهة وهو مسرع صوب الباب الخارجي وصاحت المدام (بيك) بعد ان سمعت صوت الخطوات ·· « من الخارج من البيت الآن ؟ » واجاب المعلم « الخارج هو المسيو بول فقد جاء عصرا لتدريس قراءة الصف الاول » وقالت « نادوه ليعود فانا بحاجة ماسة اليه » ·

وركض المدرس الى باب الصالون واستدعى المسيو بول ودخل رجل بعويناته وهو قصير مقطب وغريب الوجه وبادأته المدام (بيك) قائلة « يا ابن عمي اريد ان استشيرك بأمر وانا اعرف خبرتك في علم الفراسة ·· استخدمها الآن · اقرأ ملامح هذه الفتاة ·· » وركز الرجل القصير عينى وجهي عويناته · ودلت مطة شفتيه العازمة وتجميعة حاجبيه على انه فهمني جيدا وانه اذا كان هنالك حجاب يحجب حقيقة وجهي فانه لا يعيقه عن الاستشفاف بنظرة واحدة ·

واخذ المتنبيء القميء قائلا « لقد قرأته » وسئل « هل هو مرضي ام لا ؟ » فقال « بين بين ·· » وسئل « هل يمكن للمرء ان يثق بها » وقال لابنة عمه المدام (بيك) « هل انت تبحثين معها امرا هاما؟ » فاجابته « تريد مني تشغيلها لدي كمربية اطفال او خادمة وتتحدث عن امر هو صحيح تماما ولكن لا تعطي عنوان مرجعها » وسألها « اذن هي غريبة ؟ » فاجابت « هي انكليزية على ما يبدو عليها » ·

وسألها « هل تتكلم اللغة الفرنسية ؟ » فاجابته « كلا ·· » وقال « اذن يستطيع المرء ان يتحدث بصراحة وهي موجودة » فقالت له « دون شك ·· » ونظر الى ابنة عمه نظرة هادئة وسألها « هل انت بحاجة الى خدماتها ؟ » فقالت « نعم ·· وانت تعلم انني برمة بالمدام (سفيني) ومستاءة منها » واستمر في التفحص والدراسة وعندما جاء قرار الحكم في آخر الامر كان غامضا كسابقه « شغليها اذا ما ظلت الطيبة متسيدة في طبيعتها وان اعمالها هي التي ستكون بمثابة الجزاء لها واذا كان شرا يا ابنة عمي فان حقيقة ذلك ستكون مجزية ايضا ·· » ·

وعندما انتهى ذلك الرجل الغامض من تنبئه فيما يخص مصيري غادر قائلا « مساؤكم خير » وشغلتني المدام في تلك الليلة ذاتها وببركة الله تخلصت من وجوب التسكع مرة اخرى في الشارع الموحش المزعج المعادي» ·

الفصـــل الثـامن

ـ المـــدام (بيـــك) ـ

بعد ان توليت وظيفة رئيسة الخدم قادوني الى ممر طويل ضيـــق يؤدي الى مطبخ اجنبي جدنظيف وجد غريب• ويبدو انه لم يحتو على وسائل الطبخ ولم يكن فيه موقد او وجاق ولم اكن ادري ان الفرن الاسود الكبير الذي كان يشغل زاوية واحدة كان البديل الكافي عن كل هذه الاشياء وفي الحقيقة ان الاعتزاز بالنفس لم تهدأ همساته في فؤادي بعد ولكن مـــع ذلك كنت اشعر بالراحة النفسية اذ بدلا من ان اترك في المطبخ كما كنت اظن دلوني الى غرفة داخلية صغيرة اسميت (بالكابينة) حيث كانت تحضر لي عشائي هناك طباخة ترتدي سترة (جاكيتة) وتنورة قصـــيرة وفي رجليها حذاءان عديما الصوت •

ومما كان يؤتى لي به لحوم لا ادري من اين هي وعليهـا صلصـة وتوابل وحوامض غريبة طيبة المذاق وقطع البطاطس المعطرة المخلوطـة بالخل والسكر على ما اظن وقطع من الخبز المغشى بالزبد ومربى الكمثرى ولما كنت جائعة اكلت منها شاعرة بالامتنان • بعـــد صلاة المساء جاءت المدام بنفسها لتلقي نظرة اخـرى وطلبت مني الصعود معهـا الى الطابق الاعلى من الدار عبر اغرب مسلسل من حجرات النوم الصغيرة التي سمعت بعدئذ انها كانت في وقت ما صومعات للراهبات وان البناية قديمة جدا وكانت كنيسة صغيرة وغرفة طويلة واطئة مظلمة حيث تمثال المسيح على الصليب شاحب اللون حيال الحائط وحيث شمعتان كبيرتان تزيلان الظلا امام المصلين في الامسيات •

وارشدتني السيدة (بيك) الى غرفة سكن في البناية حيث ثلاثـــة اطفال ينامون في ثلاثة افرشة صغيرة للنوم وان الوجاق الحار صير جـو الغرفة مقبضا للصدر من شدة الحرارة ، ولاصلاح الوضع طيبت برائحـة قوية اكثر من كونها زكية وهو عطر غريب متوقع في مثل تلك الظروف

twitter @baghdad_library

كانه دخان مخلوط بعطر كحولي كرائحة الويسكي ٠

وعلاوة على وجود منضدة تضيء عليها بقايا شمعة آيلة للذوبان من شق في احد جوانبها المشتعلة داخل قاعدتها شاهدت امرأة فظة مخشوشنة ترتدي ثوبا حريريا مخططا فضفاضا ومبهرجا وعليها مئزر يلتف بقوة حول جسمها وكانت جالسة على كرسي ومستغرقة بنوم عميق ٠ ولاكمال الصورة وعدم التشكيك بالامور كانت هنالك قنينة وقدح زجاجي فارغ على مقربة منها ٠

وامعنت المدام التفكير في تلك الصورة المثيرة للانتباه بهدوء تام ولم تبتسم ولم تقطب وجهها ولم يظهر عليها اثر الغيظ او التقزز ولم يبدل الاستغراب سحنة وجهها الجدية حتى انها لم توقظ الامرأة من نومها وبكل هدوء اومأت الى فراش رابع قالت لي انه لي ثم أطفأت الشمعة واستبدلت ضوءها بالمصباح الليلي وانسلت الى باب داخلي تركته مفتوحا جزئيا وكان المدخل الى غرفتها الخاصة وهي شقة سكنية مؤثثة خير تأثيث يسكن القاء نظرة عليها من الفتحة ٠

وكانت صلواتي في تلك الليلة تقديم الشكر لله وكان من الصعب علي ان اعتقد بأن ٤٨ ساعة فقط مضت على تركي لندن لكي احظى بعدها بما كنت لا اتصور ان احظى به دون اية رعاية عدا الرعاية التي كانت تحمي الطير المسافر المتمثلة بآثار الغيوم المشكوك فيها (الطير المسافر ربما قصدت به حمامة من شمال امريكا كانت ذات مقدرة على الطيران السريع الى مسافات بعيدة قد اصطيدت منها الكميات الكبيرة بحيث آل الامر بها الى الابادة) ٠

وكان نومي ضعيفا وفي الليل الهامد استيقظت على حين غرة وكان كل ما في البيت ساكنا ولاحظت شبحا ابيض يتحرك في الغرفة ٠٠ المدام في لباسها الليلي وهي تتحرك ولا نأمة في حركتها تلك وقد زارت الطفلات الثلاثة في افرشتهن الثلاثة ودنت مني فتظاهرت بالنوم اما هي فقد ظلت ترمقني متفحصة اياي مدة لا باس بطولها وجرت تمثيلية ايمائية غريبة واستطيع القول انها ظلت طوال خمسة عشر دقيقة جالسة على حافة سريري تتفرس في وجهي ثم تقربت مني اكثر وقربت وجهها من وجهي ورفعت قلنسوتي رفعا خفيفا (في وقت شارلوت برونتي اعتاد النساء والرجال على ابقاء قلنسواتهم وقلنسواتهن على رؤوسهم ورؤوسهن اثناء النوم) ٠

وبدرت منها حركة قامت بها لكيما تدقق النظر في شعري وتفحصت يدي الممتدة على اغطية الفراش وبعد ذلك عادت الى الكرسي الذي وضعت عليه ملابسي القريب من الفراش وبعد ان سمعت حركة لمستها ورفعهاعني فتحت عيني بحذر واحتراس لانني كنت اروم معرفة الى اي مدى تسوقها رغبتها تلك وكانت نهاية البحث جيدة فقد اكتشفت بالحدس سبب كل ما ارادت التوصل اليه وهو الرغبة في ان تكون مما ارتديه من لباس وكساء حكما فيما يتصل باللابسة ومركزها الاجتماعي والمورد والنظافة والاناقة وما الى ذلك ٠

ولم تكن النهاية سيئة غير ان الوسائل والموارد لم تكن جيـــدة ولم يكن لها مبررات ففي ثوبي جيب قلبته واحصت النقود الموجودة في جزداني وفتحت دفتر مذكراتي الصغير الحجم واخذت تقرأ ما دونت فيـه ببرود واستخرجت من بين اوراقه خصلة صغيرة مطوية من شعرات المرحومـــة مارشمونت الرمادية وعشرت على ثلاثة مفاتيح احدهـا لصندوق ملابسي والآخر لدرج منضدتي والثالث لعلبة ادوات الشغل ٠

وقد اهتمت اهتماما خاصا بهذه فانسحبت الى غرفتها الخاصة لمـدة وجيزة ونهضت بهدوء من فراشي وتابعتها بناظري ٠ ولم تعـد الي تلك المفاتيح والمفكرة الا بعد ان اخذت نسخا منها بالشمع في غرفـة التزيين الخاصة بها وكل ذلك اعادته بنظام تام وباحتشام الى مكانه الخاص واعيد وضع ملابسي الى ما كان عليه بمنتهى الاهتمام والعناية ويا ترى الى أي مدى أوصلتها استنتاجاتها عن ذلك التفحص وهل كانت النتيجة مرضية ام لا ؟ انه سؤال عابث لان وجه المدام وان بدا جامـدا متحجـرا فانه كان انسانيا وكما قلت في السابق اموميا في الصالون ولذلك لم يكن لسؤالي مردود ٠

وبعد ان انجزت المدام مهمتها شعرت من وضـــع عينيها ان الذي قامت به انما كان واجبا يقتضيها القيام به فقد نهضت من نومها بهدوء وكالظل ولم يصدر عنها صوت ومضت نحـو غرفتها وعنـد الباب التفتت ونظراتها مصوبة على بطلة القنينة التي كانت تغط في نومها وشخيرها العالي واعتقد ان السيدة سفيني مشتقة من كلمة (سويني) ويبدو انها كانت قد قدمت نفسها للمدام (بيك) عندما ارادت ان تتوظف لديها لظروف قاهرة قالت لها انها سيدة انكليزية ومواطنة من قسم ميدلسيكس في لندن

twitter @baghdad_library

وانها تتكلم اللغة الانكليزية بلهجة ابناء العاصمة الانكليزية الخالصة · ان المدام (بيك) التي كانت تعتمد على وسائلها المعصومة عن الخطـــا للتوصل الى الحقيقة كانت لها الشجاعة الاستثنائية الفريدة في الاستخدام الارتجالي كما ظهر حاليا من قضية استخدامي الخاصة ·

ولذلك كانت قد عينت السيدة سويني كمربية اطفال لثلاثة مـــن اطفالها ـ واريد ولو بصعوبة ـ ان اوضح للقارىء ان هذه السيدة كانت في الحقيقة مواطنة ارلندية ولا اقوى على تثبيت مركزهـــا الاجتماعي فالسيدة تدعى ـ وتريد ان تؤكد ـ بادعائها انها ربت ابنا وبنتا لماركيز وفي ظني انها كانت مربية طفيلية عالة او مرضعة لاطفال سواها او غسالة لدى احدى العوائل الارلندية ·

وكانت تتكلم لغة خليطة ملآى بالملونات اللغوية المتصنعة التي يتكلم بها احقر احياء لندن وبهذه الوسيلة او تلك استطاعت ان تقتني لهـــا ـ ولا تزال بحوزتها حتى الآن ـ خزانة ملابس مشكوك في فخامتها نوعاما كالبدلات الحريرية الضيقة الغالية الثمن دون ان يكون مهما لديها انها على قدها ام لا او بحجوم هي غير الحجوم المأخوذ بها حاليـا في الارتداء · قلنسوات بتحزيمات شريطيـــة حقيقية ، الشيء الرئيسي في الاختراع والسحر الذي اكسبها هيبة لـــدى الاسرة وفي المنزل وتحكما في المدرسين والخادمات وما دامت اكتافها العريضة ترتدي مثل تلك الالبسة الانيقـة الفخمة فان المدام المتنفذة كالمدام (بيك) ذاتها قالت ذات مرة « لولا هذا الشال الصوفي الهندي الكشميري لما ظلت باقية في هذه الدار يومين وبفضل ما ترتديه وليس بسواه استطاعت ان تبقى الشهر بطوله ·

ولكن عندما علمت السيدة سويني انني جئت لاحل محلها استشاطت غيظا وثارت ثورة عارمة على المدام (بيك) ثم جاءت الي وحملت علي بكل مالديها من قوة ودون انفعال تحملت المدام (بيك) وطأة كل ذلك حتى انني استحييت وقلت ليس هناك من مبرر لسكوتها سوى مبرر رباطـة الجاش وكظم الغيظ وتغيبت المدام بيك عن الغرفة برهة من الزمن وبعـد مرور عشر دقائق جاء وكيل الشرطة وتوسطنا واخرج السيدة سويني ولم تتأثر المدام بيك بذلك ولم يتغضن لها حاجب من ذلك المنظر ولم تنبس شفتاها باية كلمة تنم عن الانفعال ·

وقضية الطرد الصغـيرة السريعة هذه سويت قبـــل تناول الفطور

باستدعاء الشرطة وطرد المتمردة ونظفت افرشة الاطفال وطهرت وفتحت النوافذ وازيل كل اثر من آثار السيدة سويني من شارع فوسيت وحدث كل هذا بين لحظة خروجها كآلهة الفجر من غرفتها واللحظة التي جلست خلالها بكل هدوء ليصب لها اول كوب من القهوة ٠

وعند حلول وقت الظهر استدعيت لتبديل ملابس المدام (بيك)حيث ظهر ان وظيفتي تتراوح بين مربية الاطفال وبين خادمة السيدة بيكولفت الدار بشال ثوبها اللفاف وبخفيها اللذين لا يصدران الصوت لطرد السحر عنه وساءلت نفسي كيف تؤمن سيدة البيت الكريمة خريجة المدرسة الانكليزية بمثل هذه العادة ان طريقة تسوية شعرها حيرتني فالكثير من شعر راسها ذو لون اسمر محمر يشوبه اللون الرمادي ٠

وعندما لاحظت حيرتي قالت لي « الم تكوني بنت البيت في بلدك ؟ » واخذت المشط من يدي وابعدتني لا بسرعة ولا بعدم احترام واخذت تسوي شعرها بنفسها ٠ وعند قيامي بتنظيف اماكن التزيين الاخرى اصدرت لي نصف الارشاد واعانتني نصف المعونة بدون انفعال وبدون تبرم او قلة صبر علما بان تلك المرة كانت الاولى والاخيرة لتسوية شعرها وتمشيطه وكانت تستدعي لذلك فيما بعد امراة البواب ٠

وعندما كانت المدام (بيك) تقوم بارتداء افخم البستها كانت تبدو قصيرة القامة وقوية البدن ومع ذلك لم تزل جميلة بطريقتها المتميزة بفضل تناسب اجزاء جسمها فمظهرها العام جميل وبشرتها ناعمة والدم يكاد يطفر من محياها ، وعيناها زرقاوان صافيتان وثوبها الحريري الداكن على قدها ، ومنظرها حلو يبدو عليها نوع من البرجوازية لانها في الاصل برجوازية ولا ادري نوعية التناسق الذي يلقي بظله العام على مجمل شخصيتها بيد ان قسمات وجهها العام كانت متباينة ايضا ولم تكن ملامحها وسماتها كالتي تشاهد عادة بالتوافق مع الهيكل العام لمثل هذه النعومة والتناسق المتمازجتين ٠ لقد كان شكلها ينم عن الصرامة وجبينها عاليا وضيقا يعبر عن القدرة وعن بعض من السجية الانسانية ٠ وان عينها المتفحصة المسالمة تجهل النار المضطرمة في القلب او الرقة السارية فيه ٠ وكان فمها ينم عن قوة تحمل واذا كان كالحا نوعا ما فالشفتان رقيقتان عن الحساسية والعبقرية بكل ما فيهما من شفقة وطيش وشعرت بعض الشيء بان المدام تشبه تمام الشبه (مينوس) (مينوس : ملك اسطوري

twitter @baghdad_library

لجزيرة كريت القديمة شهر بكونه واضعا للقوانين وحاكما عادلا وانكان يصور في بعض اجزاء قصته بانه كان مستبدا وقاسيا) ٠

وفي آخر الامر وجدت انها كانت كشخص آخـــر في التنورة ايضا وكان اسمها (موديستا ماريا بيك) وكانت امرأة محسنة الى كثيرين من الناس في حياتها ولم تكن هنالك سيدة ادمث خلقا منها ٠ وقيل لي انهـا لم تحتج على السيدة سويني ولم تعارضها رغم شكاسة خلاقها واهمالهـــا العام ومع ذلك اضطرت السيدة سويني ان تغادر حين اصبح الوضع يتطلب ذلك وقيل لي ان المدرسين والمعلمين رغم انهـــم لم يرتكبوا خطا كانوا يذهبون ويحل الآخرون محلهم ولا من احد يعرف السبب ٠

لقد كانت المؤسسة مدرسة داخلية ومدرسة خارجية وعدد تلاميـذ المدرسة الخارجية او النهارية مائة والمدرسة الداخلية ضعف هذا العدد، ويبدو ان كانت للمدام (بيك) سلطات ادارية عليا تتحكم بالجميع وهم اربعة معلمين وثمانية اساتذة وستة خدم وثلاثة من التلاميذ ومن المؤكد ان المدام كانت تمتلك نظامها الخاص لادارة هذا الجهاز وتنظيمه وكان جهازا رائعا جدا وجد القارىء نموذجا منه في تلك القضية الصغيرة قضية تقليب جيبي وقراءة مفكرتي الخاصة للاطلاع على كلمتي السر الخاصتين بها المثرتين لانتباهها وهما المراقبة ٠٠٠ والتجسس ٠

ولم تزل المدام ملمة بماهية الاخلاص والامانة وتهواها شريطـة الا تثير شكوكها الخرقاء او تقف حجر عثرة في سبيـــل رغبتها او مصلحتها وكانت تكن احتراما لانكلترا وللانكليز ولا تريد مربية لاطفالها الا من الانكليز لو كان ذلك في مقدورها ٠ وغالبا ما كانت تأتي الى غرفتي بعد ان تدبر المكائد والمكائد المقابلة وبعـد اعمال التجسس واستلام تقارير المتجسسين كل يوم والاحظ على محياهـا آثار الاجهـــاد والارهاق والملل وتجلس وتصغي لصلوات الاطفال المتلوة امامي باللغة الانكليزية ٠

وكلما كنت اضعهم في فراشهـــم كانت تتحدث معي واستطعت ان اتلقف بعض الكلمات الفرنسية اجيبها بها عن انكلترا وحـــول النسوة الانكليزيات واسباب ذكائهن المفرط وعن امانتهن الحقة واخلاصهن موضع الثقة وحسن احساسهن وادراكهن وآرائهن الصائبة وكانت على علم مـــن ان ابقاء الفتيات تحت الكبت والتقييد الناجم عن ســـوء التشكيك بهن وابقائهن في جهل مطبق وتحت رقابة لا تتيح لها لحظة ولاتترك لها زاوية

للتصرف الحسن ليس بالطريقة المثلى التي تخلق منهن في المستقبل نسوة مخلصات ومحتشمات واكدت بان نتائج مدرسة ستنجم اذا ما اتبعت طريقة اخرى مع الاطفال القاطنين بعيدا عن الجزيرة • لقد اعتاد هؤلاء الاطفال على نظام المراقبة والتقييد بحيث ان ترك حبلهم على غاربهم يساء فهمه ويؤدي الى نتائج وخيمة وقالت انها برمة ومتضجرة بالوسائل التي تستخدمها معهم والتي يتوجب عليها استخدامها • وبعد الانتهاء من حديثها حول هذا الموضوع بخيلاء وسمو جنحت الى الصمت وراحت تتحرى ارجاء المدرسة كالشبح تراقب وتتجسس في كل مكان وتنظر من خلال ثقوب مفاتيح الابواب كلها مصغية الى كل حركة او نأمة •

وخلاصة القول ان الذي ارتأيته هو ان ما قالته المدام عن نظامها لم يكن بالكلام المستهجن وان عدالتها كانت افضل من كل ترتيباتها المتخذة للتكوين الجسماني للتلاميذ فاذهانهم لم تكن مرهقة والدروس موزعة بشكل يسهل مهمة الدارسين فهنالك حرية التمتع والاستئناس واستعدادات مسبقة للتمارين الرياضية التي تخلق للتلميذات ابدانا صحية • الاكل كان وافرا وجيدا ولم يكن بين التلميذات من هن شاحبات الوجوه او ذوات اجسام سقيمة في كل المدرسة ولم تنكر عليهن اية عطلة من عطلهن وخصصت لهن مزيدا من الاوقات للنوم واللبس والغسل والاكل وكان اسلوبها في كل هذه الامور سهلا وليبراليا ومحمودا وعقلانيا وحذت حذوها الكثيرات من مديرات المدارس الانكليزيات الصارمات وغير من سلوكهن في مدارسهن وفي رأيي ان الكثيرات من سواها سيفعلن نفس ما فعلته لو سمح الآباء والامهات الانكليز لهن بذلك •

ولان المدام (بيك) حكمت بالاسلوب التجسسي كانت لها مجموعة من الجاسوسات وكانت تدرك كل الادراك نوعية الاجهزة التي تستخدمها لذلك وفي الوقت الذي كانت فيه لا تتردد عن معالجة امر اقذرهن عن مناسبة قذرة كانت تطرح وتنبذ هذه النوعية عنها نبذ قشرة البرتقالة بعد اعتصارها فقد علمت عن شدة حساسيتها عند التحري عن معدن نقي لاستعمالات نقية • وعندما تعثر على اداة لا يمكن ان تصدأ فانها تهيء لها جائزة ثمينة تحفظها لها كملابس حريرية او قطنية ــ صوفية والويل كل الويل لذلك الشخص ــ رجلا كان او امرأة ــ يعتمد عليها قاب انج واحد بعيدا عن نقطة الاهتمام للتأثير عليها وكل ما كان يهمها هو ان تكون

twitter @baghdad_library

جديرة بالثقة ٠

ان الاهتمام عند المدام (بيك) كان بمثابة المفتاح العمومي لطبيعتها وسريرتها والنابض الرئيسي لكل دوافعها وحوافزها وبمثابة بداية حياتها ونهايتها لقد وجدت كيف ان البعض كان يسترحمها ويطلب الغوث منهـا وابتسمت بنصف عطف ونصف سخرية لاولئك المسترحمين والمستغيثين فلا احد استطاع ان يحصل منها على ما يريد بمثل هذه الطريقة او يحملهاعلى تغيير رأيها بمثل هذه الوسيلة ٠

انما الامر على العكوس تماما فكل محاولة من اي احد للتاثير علىقلبها او عاطفتها معناها اثارة كراهيتها له واعتباره عدوا لها في قرارة نفسها فقد اتضح ان لا قلب لها لهذه الوسيلة فذلك يذكرها بعهد ضعفها وعجزها ومحروميتها ولم يكن الفرق بين الحسنة وبين الرحمة مثالا ينطبق على اية امراة مثلما كان ينطبق عليها هي ٠ ومع انها كانت مجردة عن العطففقد كان لديها ما يكفي من النزعة لفعل الخير على ان يكون عقلانيا ٠

وقد تبدي استعدادها المطلق لتعطي لاناس لم ترهم قط وتعطي لمؤسسة اكثر مما تعطي لفرد وتعطي لمؤسسات فقيرة من جزدانها ولكنها تغلقهبوجه الفقير المستعصي وتساهم مساهمة متفتحـــة من تقـديم العون للمشاريع الانسانية النزعة اما الاسىالفردي فلا شان لها بهولكن لها شانفيمساعدة المجتمع ككل وليس هنالك من معاناة خاصة مركزة على قلب بائستستطيع اختراق قلبها واثارة عطفها ٠

واقول مرة اخرى ان المدام امراة عظيمة جدا وقديرة جدا ٠ ان تلك المدرسة لم تعطها من الصلاحياتالا مجالا ضيقا وكان ينبغي انتحرك الامة كلها وكان ينبغي ان تكون زعيمة المجلس التشريعي الصاخب حيث ما كان بوسع احد ان يثنيها بأي حال من الاحوال عما تروم تحقيقه من اصلاحات ولا ان يكدر اعصابها ويرهقها نفسيا او يفقدها صبرها او يحتال عليهـا او يبلغ شاو ذكائها ومهارتها ففي شخصها الوحيد كـان من الممكن القيام بواجبات ومهمات الوزير الاول او مفتش الشرطـة العـام ٠٠ حكمة ٠٠ انعـدام الامـــانة ٠٠ سـرية ٠٠ مكـر وخداع ٠٠ رصـــد حركـات وغرض ٠٠ انعدام الحس٠٠ حدة الذهن ٠٠ لياقة تامة ٠٠ وماذا يراد اكثر من ذلك لمفتش شرطة عام ؟

ولا يظنني القاريء اللبيب انني جمعت كل هذه المعلومات المكثفـة

لفائـدته في غضون شهر او حتى في غضون ستة اشهر ٠٠ كلا ٠٠ فالذي شاهدته في اول الامر هو حركة ناشطة في مؤسسة تعليمية مزدهرة فهنا بناية كبيرة ملأى بالفتيات المفعمات صحة وحيوية،الكثيراتمنهن ظريفات يرتدين الثياب الانيقة ويحصلن علىالتعليم بطريقة جد سهلة دونماجهد او مشقة زائدة عن الحد ودون تبديد اوجه النشاط ودون احراز تقدم سريع جدا باي شيء ، انما كان كل شيء يؤخذ بتوئـدة وعلى مهـل دون ملاقاة مصاعب ٠

وفي هذه المدرسة هيئة مدرسين واساتذة يجهدون في مهماتهم لانلبة العمل الحقيقية كانت في ايديهم بغيـة الاخـذ بايدي التلميذات وكانت مهماتهم منظمة على شاكلة تحدو بهم الى ان يتساوقوا الواحد بعد الآخر في العمل المتلاحق تلاحقا سريعا ٠ وخلاصة القول انها كانت مدرسة اجنبيـة تتناقض في حياتها وحركتها ونوعيتها تناقضا تاما مـع كـل المؤسسات التعليمية الانكليزية المضارعة لها في النوعية ٠

وراء بناية المدرسة حديقة كبيرة تعيش الطالبات في عرائهـا بـين شجيرات الاوراد واشجار الفاكهة وتحت عناقيد الكرمة المدلاة يقـع سرير المدام المتنقل تجلس عليه في اوقات الظهيرة في فصل الصيف وتستدعي تلميذات الصفوف واحدا بعد الآخـر بالتناوب ليجلسن حولها وليقتمن باعمال الخياطة او ليقرأن ٠ ويتناوب المدرسون والاساتذة في الذهـاب والاياب لالقاء المحاضرات القصيرة المفيدة عـلاوة على الدروس وتدون التلميذات ملاحظاتهن او لا يدونها على امـل ان يستنسخنا من رفيقاتهن فيما بعد اذا كن غير راغبات او مستعجلات ٠

وعلاوة على العطلة الشهرية النظامية (يوم النزهة) وايام الاعياد الكاثوليكية توجد عطل تتعاقب على طول السنة وفي بعض الاحيان يخرجن في بعض اصباح الصيف الرائعة او في امسياته في نزهات ماشية طويلة المسافة في الضواحي يستمتعن فيها باكل قطع الكيـك اللذيذة واحتساء الخمر الابيض والحليب الطازج وتناول الخبز الاسمر او ارغفـة الخبز المغشاة بالزبدة او شرب القهوة ٠ وكل هذا كان يبدو بهيجا جدا والمدام نفسها كانت تظهر طيبتها وكان المدرسون يظهرون كما لو انهم على مايرام وفي الحقيقة هم أسـوا من الظاهر ، وكانت الطالبات تمـلأن الاجـواء ضجيجا مفعمات بالبهجة والانشراح ٠

twitter @baghdad_library

هكذا بدأ الوضع عبر سحر المسافة ولكن جاء ظرف ذابت فيه المسافة بالنسبة لي حين استدعيت من برج المراقبة الخاص بي انا المربية حيث اقوم فيه باعمال المراقبة وانا مضطرة الى الاتصال بهذا العالم الصغير عالم «شارع فوسيت » وكنت ذات يوم جالسة في الطابق الاعلى اتسمع لدروس الاطفال باللغة الانكليزية وفي الوقت ذاته اقلب ثوبا من الحرير امام المدام (بيك) حين تمشي الهوينا صوب الغرفة بجبينها المقطب بالتأملات المجهدة التي تطفح على وجهها في بعض الاحيان وتظهر عليها حالة نفسية رائعة نوعا ما وقد القت بنفسها على المقعد قبالتي لا تنبس ببنت شفة لمدة بضع دقائق ·

وكانت ديزيري اكبر طفلاتها الثلاثة تقرأ لي مقالا قصيرا عن السيدة باربو (ناظمة اشعار وكاتبة قطع نثرية بضمنها دراسات عن الطبيعة وان اسلوبها الاخلاقي القوي اوجد لها شعبية واسعة النطاق خلال معظم القرن التاسع عشر بين معلمي صغار الاطفال) وكنت اوجهها للترجمة الفورية من الانكليزية الى الفرنسية عن طريق التأكد من انها تفهم ما قرأته ·

وكانت المدام تصغي الى تدريسي وفي الحال ودون سابق تقدمة او تمهيد قالت لي بلهجة الشخص الذي يتهم سواه « ايتها الآنسة ·· كنت مربية اطفال في انكلترا ؟ اليس كذلك ؟ » فاجبتها بابتسامة « كلا يا مدام اخطأك الظن ·· » وقالت لي « هل هذه اذن اول محاولة تدريسية مع اطفالي ؟·· » وطمأنتها بأن هذه هي المحاولة الاولى ·

وصمتت مرة اخرى وبعد ان رفعت وجهي الى اعلى بعد ان اخذت دبوسا من الوسادة شلهدت نفسي هدفا لدراسة المدام التفريسية فقد سلطت عينيها علي وركزت تنكيرها في كما لو انها تقلبني تقليبا فاحصا وتدرس موضوع كفاءتي لشيء ما وكانت قبل هذا قد تفحصت كل ما لدي واعتقد انها المت بمعظم احوالي · ولكن منذ ذلك اليوم حاولت مدى اسبوعين ان تجرب معي اساليب اختبارية جديدة ·

فمثلا كانت تصغي الي من وراء باب تربية الاطفال عندما اكون مجتمعة معهن وتتابعني سرا عندما اخرج معهن من مسافة لا اراها كأن تكون مختبئة ـ ضمن مدى السماع ـ وراء شجرة او متنزه او وراء شارع عريض تكتنفه الاشجار وقد لاحظت مثل هذه العمليات التمهيدية الدقيقة ثم قامت بحركة اخرى ففي صبيحة احد الايام قدمت الي على حين غرة وبخطى سريعة وقالت لي « انني في ورطة نوعا ما فالمستر ولسن مدرس

للغة الانكليزية لم يات حتى هذه الساعة واخشى ان يكون مريضا والتلميذات ينتظرن في الصف ولا يوجد من يدرسهن فهل لديك مانع في تدريسهن في هذه المرة فقط كان تعطيهن تمرينا قصيرا في الاملاء حتى لا يستشعرن بانهن فقدن درسا لهن بالانكليزية ؟ » ٠

وسالتها « هل اقوم بذلك في داخل الصف يا مدام ؟ » فاجابت «نعم في الصف الفرع الثاني منه» وقلت لها « في الصف حيث يوجد ستون طالبة كما اعلم ٠٠ انني في طبيعتي الخجولة الهيابة لابد لي ان انكمش انكماشة البزاقة في قوقعتها وبينت لها عجزي وعدم وجود سابق تمرين لي في مثل ذلك كي اتهرب ٠ ولو كان الامر متروكا لي فقط لكنت جعلت هذه الفرصة تفلت على وجه التاكيد وقلت لنفسي :

« لو لم يكن في الامر مغامرة او عدم استثارة لعواطف الطموح العملي لكنت قادرة على تدريس الاطفال كتب القراءة والصلوات عشرين عاما وصنع الالبسة الحريرية وبدلات الاطفال وليست هذه القناعة الحسنة بالتي تشرف هذا الهروب فعملي لا يتسم بأي سحر او فتنة بالنسبة لذوقي ولا يثير اهتماماتي انما يبدو لي عملا عظيما اذا خلا من اية مقلقات للبال واذا خلا من اية محنة صميمية وان عدم وجود معاناة قاسية هو الذي يقرب الوصول الى السعادة ويبدو ان لي حياتين اثنتين حياة الفكر وحياة الواقع واذا غذيت حياة الفكر بما يكفيها من رومانتيكية متعة الخيالات الذوقية والفنية فان فوائد حياة الواقع وامتيازاتها تصبح مقصورة على الخبز اليومي وساعات العمل وسقف المأوى والمسكن » ٠

وقالت لي المدام وانا منهمكة اكثر من الاول في اقتطاع مئزر الطفلة « تعالي واتركي ذلك العمل ٠٠ » فاجبتها « ولكن فيفين بحاجة لي » فقالت لي « دعي فيفين تحتاج اليك فيما بعد لانني بحاجة اليك الآن »وبما ان المدام كانت بحاجة الي حقيقة ومصممة على ذلك بسبب استيائها من مدرس اللغة الانكليزية لمثالبه في الترقيم وفي وضع النقط وفي عدم المحافظة على الدوام وعدم اهتمامه بنظام التعليم علما بانها لا ينقصها الحزم والنشاط العملي فانها بدون مزيد من الضجيج جعلتني اترك الابرة والكشتبان فاخذتني من يدي ونزلت بي الى الطابق الاسفل ٠

وعندما وصلنا البهو المربع الكبير الكائن بين دار السكنى وبين المدرسة الداخلية توقفت بي برهة وحررت يدي من يدها وتفرست في

twitter @baghdad_library

وجهي فشعرت بخجل شديد والرعـــدة تتمشى في جسمي من الراس الى اخمس القدمين واعتقد انني بكيت · وفي الحقيقـة ان الصعوبات التي جابهتها لم تكن صعوبات خيالية كلهـــا فبعضها كانت صعوبات حقيقية لا ريب فيها نظرا لافتقاري الى البراعة والى وجوب السيطرة على الوسط الذي يطلب مني تدريسه · وفي الحقيقة انني كنت قـــد درست اللغة الفرنسية دراسة وافية منذ وصولي الى (فيليت) متعلمة تمارينها نهارا ونظرياتها وفنونها في اوقات فراغي حتى الساعات المتاخرة مـــن الليل مادام نظام الدار كان يسمح بابلاع الشمعة ومع ذلك ما كنت متاكـــدة وواثقة من طاقتي على التعبير الشفهي الصحيح ·

وسالتني المدام بيك وهي عابسة مقطبة الجبين « قولي لي ·· هـل تشعرين حقا بانك لست اهلا لهذه المهمة ؟ » وكان ينبغي ان اقول « نعم » واعود فاتعفن طيلة حياتي ولكنني عندما صوبت نظري الى وجه المـدام وجدته اتخذ شكلا جعلني افكر مرتين قبل ان اقرر واعطي الجواب ·وفي ذلك الوقت لم تكن سحنتها سحنة امراة انما سحنة رجل وهناك قـوة ذات نوع خاص طفت وشاعت على كل أثاره ومسحاته وتلك القوة لم تكن من نوعية قوتي والعواطف التي اثرتها ما كانت عطفا ولا تجانسا ولا خضوعا ووقفت فلا انا راضية ولا مقهورة وبدا لي كما لو ان هنالك تحديا مابين قوتين متعارضتين وسرعان ما شعرت بكل عـار استحيائي وعـــدم ثقتي بنفسي وبكل جبن تلكئني وتواني عن ان اطمح واحلق عاليا ·

وسالتني وهي تومىء بيدها اولا الى البـــاب الصغير المؤدي الى دار السكنى ثم الى المدخل الثنائي للصفوف او غرف الدراسة « هـل تريدين الذهاب الى الخلف أم الى الامام ؟ » فاجبتها « الى الامام » وتابعت كلامها قائلة لي ــ وانا في حالة الفوران اواصل النظرة الحادة التي استقيتهامن مبغوضيتها القوة والعزم ــ « هل تستطيعين ان تواجهي الصفوف ام انك لا تزالين في الانفعال الشديد ؟ » وقالت ذلك وهي تتحدث من خياشيمها بهيئة الساخرة لان الهياج العصبي لم يكن بالشيء الكثير على المدام واجبتها وانا اشير الى اللوح الحجري « لست اكثر هياجا من هذه الصخرة او اكثر هياجا منك » قلت ذلك وقارعتها النظرة بالنظرة ·

وقالت لي « هذا صحيح ولكن هـــؤلاء التلميذات الفتيات اللواتي تريدين مواجهتهن لسن كالفتيات الانكليزيات الهادئات المحتشمات انمـا

من قليلات الحس خشنات الطبع ومتمردات نوعا ما » واجبتها « اعلم ايضا انني وان كنت قد درست اللغة الفرنسية منذ ان جئت هنـا فانا لا ازال اتكلمها بكثير من التردد ولا املكمن دقتها ما يمكنني من ان املك ناصيتها وساقع في اخطاء وتخبطات مفضوحة تعرضني الى سخرية اجهلهن ومع ذلك لا ازال ارغب في تقديم الدرس » وقالت « انهـن دائما يرفضن المدرسين الخائفين » وقلت لها « واعرف ذلك ايضا يا مدام وسمعت كيف انهن ثرن على الآنسة تيريز واضطهدنها وهي المعلمة الانكليزية الفقـــيرة التي ليس لديها صديقة كانت المدام قد استخدمتها ثم نبذتها باستهتار واستخفاف علما بان تاريخها المثير للشفقة ليس غريبا عني » ٠

وقالت المدام ببرود « هـذا صحيح ٠٠ فالآنسة تيريز لم تستطـع السيطرة عليهن او اسلاس قيادهن اكثر من خادمة في مطبخ كانت ضعيفة ومترددة ولم يكن لها براعة او لياقة او ذكـــاء او حسن تصرف حتى ولا كرامة ولهذا لم تكن تصلح معلمة لاولئك الفتيات بتاتا » ولم اجر جوابا انما دلفت صوب غرفة الصف المغلقة ٠ وقالت المدام « لن تتوقعي العون مني او من اي شخص آخر لان هذا يعطي الدليل على ضعفك وعدم تاهلك لهذه الوظيفة امام التلميذات » ٠

وفتحت الباب وخليتها تمر بأدب ومشيت في اثرهـا وكانت هنالك ثلاثة صفوف كبيرة الحجم وان الصفوف المخصصة للفرع الثاني الذي كان علي ان اظهر فيه كان اعظمها عددا ومساحة وعناصره اكثر شغبا واصعب ادارة من الفرعين الآخرين ٠ وبعد ايام عرفت الارضية او الخلفية بشكل احسن وكنت افكر احيانا ماذا كانت هذه المقارنة تصح وهي ان الفرع الاول الهادىء الانيس المهـذب بالنسبة للفـــرع الثاني المتمـــرد الجامـح المستعرض لقواه هو كمجلس اللوردات بالنسبة لمجلس النواب ٠ (مجلس النواب يظهر فيه الصخب لان الاجراءات تتم فيـه في حـــين ان مجلس اللوردات يكون اهدأ) ٠

واعلمتني اول نظرة ان اكثرية التلميذات كن اكثر من فتيات ٠٠ كن كنسوة شابات وعلمت ان بعضهن ينتمين الى الاسر العريقة ومن المؤكد ان لا واحدة منهن كانت تجهل وضعي في منزل المدام وحالما علوت المنصة الواطئة وخطوت الخطوة الاولى على ارضيتها حيث كرسي المعلم ومنضدته وقع نظري على صف من العيون والحواجب المهددة بمجيء جو عاصف ٠٠

twitter @baghdad_library

هيون محملقة ملأى بنور الوقاحـــة والغطرسة وحواجب متصلبة تصلب المرمر تدل على انعدام الحياء ·

ان انثى الفارة التي لا تعيش في الجزيرة البريطانية ذاتها مخلوق يختلف اختلافا تاما عن انثى الجزيرة وان كانت بنفس الســـن ونفس النظرة ولم يسبق لي ان شاهدت مثـل تلكم العيون وتلكم الحواجب في انكلترا وقدمتني المدام بيك بعبارة واحدة باردة ثم توارت عن الغرفـة تاركة اياي وحيدة في ابهتي وبهائي · ولن انسى ابد الدهر الدرس الاول ذياك ولن انسى ايضا تيار الحياة الخفي وخصوصيته اللتين تفتحتا امامي من جرائه وبدأت في الحقيقة اعاني الفرق الشاسع ما بين الفتاة الشابة المتية الشاعرة وما بين فتاة كمثل تلك الفتيات ·

ويبدو لي ان الفتيات الثـلاثة المسنيات بالحسناوات الجالسات في الخط الاول من رحلات الصف كن قد صممن على وجوب عدم قيام الخادمة الصغيرة باعطائهن الدرس باللغة الانكليزية · وانهن كن على علم من انهن اطلعن في طرد المعلمين البغيضين غير المرغوب فيهم ومن ان المدام بيـــك ستقذف جانبا بأي مدرس او مدرسة تنعدم فيها شخصيته او شعبيته داخل المدرسة وانها لن تسعى لارجاع موظف مهيض الجنـاح الى وظيفتـه لان الذي لا يكافح او يبدي من البراعة ما يشق بها طريقه يسقط ويزول، وعندما نظرن الى الآنسة سناو بشرن انفسهن بالنجاح السهل مقدما ·

وبادرت المعركة الآنسة بلانش فرجيني بمسلسل من الهمسات ومن الضحكات نصف المكبوتة واستحالت هذه توا لغطا وهمهمة ترافقها ضحكات قصيرة تناولتها رحلات الصف البعيدة ورددت صداها باصوات اعلى · وهذه الثورة المسمية لستين ضدواحدة اصبحت ثقيلة الوطأة تماما علما بان لغتي الفرنسية محدودة امارسها بأكراه قاس ·

ولو اتيح لي التكلم بلغتي الخاصة لكنت اجد من يصغي الي واحسست انني وان كنت ابدو مخلوقة فقيرة ــ وكنت بالفعل مثل هذه المخلوقة من وجوه عديدة ــ الا ان الطبيعة وهبتني صـــوتا مسموعا ان رفع عقـيرته الانفعال او عمقتـه العواطف · هـذا من جهة اما من الجهـة الاخـرى ففي الوقت الذي لا امتلك طلاقة لغوية في الفرنسية انما الجزء اليسـير منها للظروف الاعتيادية فقط ولكن مع ذلك في حالة حافزة كالتي نشأت الآن من الجمهور المتمرد كنت استطيع في انكلترا ان اقذف ببعض الالفاظ

الجاهزة يصم اعمالهن بوصمة العار لان مثل هذه الاعمال تستحق الوصم مع بعض السخرية والازدراء المشوبة بالاحتقار المدير بزعيمات الفتنة المثيرة للاضطرابات والتساهل واللين مع الاضعف والاقل خداعا من الاخريات ..

ويبدو لي ان على المرء ان يمتلك نواصي ذلك القطيع المتوحش ويوصله الى حضيرة الترييض في الاقل وكل ما كنت اقوى على صنعه هو ان اتقدم صوب الانسة بلانش (المادموزيل دي ميلكي) البارونة الشابة وهي اكبر الطالبات سنا واطولهن واجملهن واسوأهن ووقفت امام رحلتها وانتزعت من يدها دفتر التمرين ثم اعتليت مرة اخرى المنصة وقرأت عمدا انشاءها الذي كان سخيفا جدا .وامام المدرسة كلها مزقت الصفحة المشطوبة من قبلي مزقتين .

واثار هذا العمل الاهتمام واوقف الضجيج ولكن احدى الفتيات الجالسة في مؤخرة الرحلات واصلت اثارة الاضطراب بقوة متواصلة ونظرت اليها باهتمام فقد كانت ذات وجه شاحب وشعر اسود كظلمة الليل وحاجبين عريضين وسمات محددة واضحة وعينين سوداوين متمردتين وشريرتين . ولاحظت أنها كانت تجلس على مقربة من الباب الصغير الذي يؤدي الى حجرة صغيرة تحفظ فيها الكتب .

وكانت واقفة لمواصلة الصخب والصياح بقوى طليقة اكثر وقست قوامها وقدرت قوتها وبدت امامي طويلة القامة نحيلة وقوية ولكن اذا كان النزاع قصيرا والهجوم مناجئا ففي فكري انني اقوى على تدبير الامر . وتقدمت على ارض الغرفة ورنوت ببرود وعدم اكتراث ورباطة جاش ودفعت الباب دفعا خفيفا فوجدته مفتوحا جزئيا وانعطفت صوبها بسرعة وصرامة وفي المرة الاخرى احتلت التلميذة الحجرة الصغيرة واغلق عليها الباب ووضعت مفتاحه في جيبي .

وكانت واقفة لمواصلة الصخب والصياح بقوى طليقة اكثر وقست الاصل ذات اخلاق تغشاها وتكرهها كل رفيقاتها ولذلك ارتحن لما حل بها وساد الصمت والسكون بين جميع التلميذات ثم تحولت الابتسامة ـ لا الضحكة ـ من رحلة الى رحلة وكنت في ذلك الوقت عائدة الى المنصة مظفرة وطلبت منهن بلهجة تأدب ان يلازمن السكون وشرعت املي عليهن كما لو ان أي شيء لم يحدث .

twitter @baghdad_library

وراحت اقلام التلميذات تمشي على صفحات الورق بسلام ومر ماتبقى من الدرس بنظام ومثابرة • وعند خروجي من الصف قالت لي المدام (بيك) وانا في حـالة اعيـاء وتهيـج نوعا ما « مرحى •• مرحى •• ما احسن ما صنعت •• » ذلك انها كانت تصغي وتختلس النظر من ثقب الباب طيلة الوقت • ومنذ ذلك اليوم لم اعد مربية اطفال وتحولت الى معلمة اللغـة الانكليزية وزادت المدام راتبي ولكنها مقابل ذلك حصلت مني على ثلاثـة اضعاف العمل الذي كان يقـوم به المستر ولسن مقابل ما يوازي نصف راتبـه •

الفصـــل التاســـع

ـ ايـزيـــدور ـ

اصبح وقتي الآن رحيبا مليئا بما هو مريح واصبح لي من الفراغ ما يكفي فقط لتدريس الآخرين ولدراستي الشخصية دون زيادة وكنـت انعم بوقتي هذا وشعرت بأنني اكتسب معرفة وفهما ولم اعد بعد فريسة جامدة للتقولب والصدوء انما رحت اصقل مواهبي ومقدراتي واشحذها الى الحد اللازم بالعمل وترامت امامي التجاريب على نطاق غـير ضيـق « ففيليت » مدينة عالمية وفي هذه المدرسة فتيات من مختلف الدول الاوربية ومن مختلف الاوساط الاجتماعية للحياة · والمساواة معمول بها اكثر من (لاباسيكور) واذا كانت على غير نطاق جمهوري فانها فعليـا وجوهريا تكاد تكون بهذا النطاق ·

وعلى رحلات مؤسسة المدام بيك التعليمية تجلس الكونتيسة والتلميذة البورجوازية جنبا الى جنب وليس بمقدور المرء ان يقرر دائما بالمؤشرات الخارجية من منهن هي من اروعة النبلاء ومن منهن من اروعة عامة الناس عدا كون تلميذات عامة الناس اوضح سريرة واكثر صراحة ـ في الاغلب ـ واجرأ واشجع ، وأنلواتي هن من اروعة النبـلاء يحملن المركب المتوازن للوقاحة والخداع وفي عروقهن يجري ـ في الاغلب ـ الدم الفرنسي المزوج « بالغلط الرباعي في الجسم الانسيابي » الذي كان يقول رجـال الطب الاقدمون انه يسبب الكسل المتوارث ويؤسفني ان اقول ان تأثير هذا السائل يظهر في زلقات اللسان عند التملق والمداهنة بطريقة اخف ولكنها مشوبة بعدم الاخلاص ·

واذا اردنا انصاف كل الاطراف فينبغي ان اقـول ان اخلص وانزه (اللاباسيكوريين) لهم نفاقاتهم واكاذيبهم ايضا واذا كانت من النوع الذي لا يريد خداع احد وحيثما كان الكذب ضروريا للمناسبات التي يمرون بها فانهم يلجأون اليه وسهولة معدومة من الاكتراث ومعدومة من تبكيت الضمير

twitter @baghdad_library

وتعنيفه وليس هنالك من روح في مؤسسة المدام بيك اعتباراً من مساعدة الطاهية او غسالة الاطباق والصحون الى المديرة ذاتها تستحي من ان تكذب فهن على ظن بان ذلك يعني شيئا٠ان التفنيق قد لا يكون فضيلة ولكنه مما يمكن الصفح عنه واغتفاره وهو ما يشكل موضوعا لـــكل اعتراف شهري تعترف به الفتاة او المراة امام الكاهن ٠

وفي الوقت الذي كنت نصف عليمة بمثل هذه الاشياء فقط وغـــير دارية بنتائجها فانني مضيت في دربي الجديد بنجاح باهـــر وبعـــد تقديم بضعة دروس صعبة في اول الامر وسط شعور من التخوف وانا على حافة بركان معنوي يقمقع من تحت قدمي ويبعث بشرارات دخان وابخرة تلفح عيني اذا بالروح البركانية الثائرة تخمد وتهمد على ما كان يبدو وعـــلى ما كان يتعلق امره بي، ذلك ان ذهنيتي عولت على ان تحرز النجاح تعويلا عظيما وما عدت أطيق تحمل الوقوع في الارتباك لمجرد وجود حالة عصيان متعمد وجائر متسم بالنفور وبانعدام النظام فقطفي اول محاولة ليبذلتها من اجل التقدم في الحياة ٠

وكنت اتمدد ساعات طوالا من الليل في فراش مسهدة لااقوىعلىالنوم مفكرة بافضل ماعساني ان افعله من اجل السيطرة على اولئـــك المتمردات المتعجرفات العنيدات سيطرة دائمة وفي المقام الاول وجدت ان من الممكن توقع مساعدة ما من المدام بيك لان خطتها القويمة كانت ترمي الى تكوين شعبية او تألف لا ينفصم عـــراه مـــع التلميذات باية كلفة من العدالة او الارتياح تصيب المعلمات غير انه ظهر بان نشدان المعلمة عونها في اية ازمة من ازمات العصيان وعدم الاطاعة يساوي لديها طردها من الوظيفة ٠

ان المدام في محاولاتها الاتصال مع التلميذات تنتقي لنفسها ما هو اروح لها ٠٠ الود والتشاور اما استخدام الحزم المناسب فكان عندها امرا غير مناسب وغير مألوف ولذلك ينبغي من الآن فصاعدا ان انظر الى نفسي فقط ولا اطلب العون منها ٠

اولا : كان من الواضح ان ذاك الحشد البهيمي الغنزيري ينبغي الا يؤخذ بالقوة وانما بالملاحظة والمسايرة والمداراة والاعتماد على الصبر في ذلك فمزاج التعامل باللطف كان يؤثر فيهن تاثيرا ايجابيا وان ومضة من ومضات التمازج معهن وان كانت نادرة يكون لها وقعها الطيب في نفوسهن ولكن ما كان في الامكان ان يتحملن المعاملة الروحية القاسيـــة المتواصلة

وارهاقهن بالمطاليب وبوطأتها الثقيلة على عقولهن وذاكراتهن فقدكان ذلك مرفوضا رفضاً باتا عندهن ·

وفي الوقت الذي تتقبل فيه الفتاة الانكليزية الراغبة في التعليم من نفس معدل الاقتدار ، تتقبل الموضوع او البحث وتلتزم بمهمة التفهم والرغبة في التفوق تقابلها الاوربية من (لاباسيكورين) بالضحك في وجهها وتعيد الواجب الدراسي رميا مع عبارة « سيدي ·· او سيدتي ··» هذا صعب ولا اريد ان انجزه وانه يثير تضجري وتبرمي » ·

ان المعلمة التي تفهم شغلها تتولاه ، في الحال دون تردد او نقاش او اعتراض وتتقدم حتى باهتمام مبالغ فيه لتخفيف حدة اية صعوبة وتنزيلها الى مستوى فهم التلميذات واعادتها لهن معدلة ليستشعرن اللسعة وربما الجفول من جرائها نوعا ما ولن يحملن الحقد من هذا الهجوم شريطة الا تكون السخرية مزعجة من جرائها نوعاً ما بل ودية وانهن يتقبلنها بنوعيتها الخفيفة الواضحة بحيث ان الواحدة التي تخطىء او تريد الفرار ستفهم عجزها وجهلها وكسلها · انهن قد يتمردن على اضافة ثلاثة اسطر على درس ما ولكن لم الاحظ ان احداهن تمردت على جرح يصيب كبرياءها واحترامها لنفسها فمثل هذا تعودن وتدربن على سحقه ·

وشيئا فشيئا حصلت على طلاقة لغوية وعلى حرية التعبير عن نفسي بلغتهن وعلى استخدام مصطلحاتهن بالشكل الذي يناسب قضيتهن بحيث ان اكبر الفتيات التلميذات سنا واذكاهن اخذن يملن الي بطريقتهن الخاصة ولاحظت ان الامور تحسنت نسبيا وبالتدريج ورحن يضعن على رحلتي في كل صباح باقات من الورد واخذت اختار البعض منهن واتمشى معهن في نزهات اثناء ساعات الاستجمام ·

واسأل الآن هل نسي القاريء الآنسة جنفيفرا فانشاوي؟ ارجو السماح لي بتقديم هذه السيدة الشابة كتلميذة ذات شأن في مدرسة المدام بيك لانها كانت كذلك فعلا فمنذ وصولها الى منطقة « اوسيت » بعد استقراري الفجائي فيها بيومين او ثلاثة ايام واجهتني باستغراب ضئيل وربما جرت الدماء التركية في عروقها اذ لم تتواجد اية دوقة تبذها كمالا وصدقا في عدم اكتراثها وفي رباطة جاشها · لقد كان الاندهال السريع الزوال هو كل ما تعرفه عن الاحساس بالعجب · ومعظم قواها الطبيعية الاخرى كانت على غرار احوالها المهملة الاخرى ·· ما تريده ومالاتريده ·· ما تحبه وما

twitter @baghdad_library

تكرهه لم تكن سوى نسيج عنكبوتي او ما يسمى بمخاط الشيطان الا انها كانت تمتلك شيئا عنها له قوته ومتانته الكافيتان وذلك هو ·· انانيتها·

لم تكن بالمغرورة او المتكبرة وكانت مثلي سرعان ما اتخذتني لهـا صديقة ومؤتمنة على اسرارها وازعجتني بالوف من الشكاوي التافهة عـن مشاجراتها في المدرسة وشؤونها الاقتصادية المنزلية وما كانت لا تستطيبه من المآكل وتحدثت عن الناس الذين كانوا حواليها وعن المعلمين والطالبات وقالت انهن حقيرون وجديرون بالازدراء لانهم اجانب · وبرمت بكراهيتها لاسماك الجمعة المملحة · والبيض الملون · كما برمت بطعمها في الصابون والخبز والقهوة وتحملتها ببعض الصبر فـي اول الامر ولكـن الغضب استبد بي في آخر الامر بعد طول التكرارات المملة من قبلها واعدت اليها صوابها وكان ينبغي ان افعل ذلك منذ الاول بدلا من ان اظل على مجاملتي اياهـا ·

ولطالما تحملت مطاليبها في العمـل · وكانت خزانة ملابسها تحـوي ملابس خرجية جيدةولكن كان لديها انواع من الملابس الاخرى لا تتصف بالجودة وكانت من النوع الواجب تصليحه بين مدة واخرى وكانت تكره تشغيل الابرة ولذلك كانت تاتي الي بها كالجوارب والبنطلوناتوغير ذلك تاتي الي بهـا بالاكوام لتصليحها ومـن شـان ذلـك ان يتعبني ويحملني مالاطاقة لي به وفي آخر الامر قلت لها ان عليها ان تصلح ثيابها بنفسها واخذت تبكي واتهمتني بانني لا اريد ان اواصل صداقتها ولكنني تشبثت بقراري وجعلت هستيريتها تمر كما تريد ·

وبصرف النظر عن كل هذه النقاط الضعيفة المتواجدة فيها وغيرها وغيرها مما لا مجال لذكره اقول بلا مبالغة انها كانت جميلة وساحرةالمنظر وما كان اجملها حقا حين جاءتني في صبيحة يوم الاحد المشمس وهـي ترتدي البسة انيقة وظريفة المحيا ترتدي ثـوبا من الحـرير الليلكي الارجواني الفاتح وما اجمل شعرها المعقوص الجميل المسـدل على كتفيها البيضاويين · وكانت في كل عطلة يـوم الاحـد تذهب الى صديقاتها القاطنات في المدينة · ومن بين اصدقائها واحد جعلتني افهم انه اكثـر من صديق وبلمحاتها وايماءاتها ونظراتها الخاطفة اعلمتني بحقيقة امره وظهر من نظراتها المرحة المستبشرة في الحال انه حبيبها والمعجب بهـا اعجابا شديدا · كان تحت امرتها وسيطرتها واسمت خطيبها (ايزيدور)

ولمحت على ان هذا الاسم لم يكن اسمه الحقيقي وانها اختارته له مسرورة (لتعميده) وانه نفسه لم يكن (جميلا جدا) ٠

وفي ذات مرة عندما كانت تتباهى بمحبة ايزيدور العنيفة سألتها ما اذا كانت تحبه لقاء حبه هذا لها فقالت لي « انه وسيم ويعبني الى حد الذهول وهذا ما يهيج قلبي ويكفيني »وبعد ان وجدت انها لم تذهب بالامر الى ابعد من اذواقها المتقلبة جدا توقعت بانني يوما ما سأتولى طرح الاسئلة الجدية عليها لارى ما اذا كان هذا الجنتلمان كاولياء امرهـا ولا سيما كمهما الذي يبدو انها تعتمد عليه في امورها وقد ظهـر من جوابها ا الشاب « ايزيدور » ليس له مال كثير ٠

وسألتها « هل تشجعينه ؟ » فاجابت « احيانا اشجعه كل التشجيع » وقلت لها « وبدون ان تتاكدي من ان يسمح لك بالتزوج منه ؟ » فاجابتني « آه ٠٠ ما أرداك انا لا اريد الزواج منه فانا اصغر من ان اكون جاهزة للزواج » وقلت لها « ولكن اذا كان يحبك الى هذا الحد البعيد كما تقولين ثم تأتي النتيجة حرمانه من التزوج بك افلا يستحيل بائساشقيا ؟ » واجابت « طبعا فان ذلك يسحق قلبه غما وحزنا وستكون صدمة وخيبة امل لي ان لم يصل الامر به الى هذا الحد » ٠

وقلت لها « الا تتصورين ان هذا (الايزيدور) مجنون ؟ »واجابتني « بلى ٠٠ انه مجنون ومفتون بي ٠٠ ولكنه عاقل وحكيم في الامورالاخرى ويقال ان السيدة (كولوندلي) تعتبره ذكيا جدا وانه سيشق طريقه في الحياة بمواهبه وكل ما اعرفه هو انه يتحسر شوقا في حضوري وانبوسعي ان اديره باصبعي الصغير هذا » ٠ ولرغبتي في التوصل الى فكرة محدودة اكثر عن هذا العاشق الولهان المسيو (ايزيدور) الذي يبدو وضعه امامي غير مضمون طلبت منها ان تبين اوصافه الشخصية ٠

ولم تقو على وصفه اذ لم تكن لديها الكلمات ولا مقدرة وضعها جنبا الى جنب تنضيدا لجمل العبارات منقوشة ونابضة بالحياة اكثر ويظهـر انها لم تتعمق في استجلاء نظراته او التبدلات التي تظهر على محياه ولا تعرف عنه سوى انه اثار اهتماما واستقر في مخيلتها بحيث لا تعرف عنه سوى انه ظريف وجميل المنظر ٠

وضقت بالامر ذراعا وفتر اهتمامي في الاصغاء اليها باستثناء امر واحد ذلك هو ان كل التلميحات التي لمحت بها وكـل التفاصيل التي

twitter @baghdad_library

اعطيتها برهنت لتفكيري غير الواعي ان ولاء ايزيدور لها قوبل من لدنها بما يلزمه من التقدير والاحترام والكياسة ولذلك قلت لها بكل وضوح ان ذلك يعني انه مناسب لها تماما ولمحت لهابوضوح مماثل بأن انطباعي عنفها هو انها مغناجة تختال عليه زهوا وغرورا لا غير وضحكت لما قلتـه واخذت ترقص فرحا كما لو انني كلت لها بذلك الاماديح ٠

لقد كان سعي الآنسة جنيفرا الدراسي افضل من كونه اسميا بقليل وهناك ثلاثة اشياء مارستهاممارسة جدية هي الموسيقى والغناء والرقص مضـافا اليهـا تطريزهـا بالمنـاديل الكمبريكية ذات الاقمشة القطنية او الكتانية البيضاء الناعمة ومثل هـذه المناديل كانت تشتريها وتقتنيها اذا اذا ما كانت جاهزة الصنع اما الاشياء التافهة في نظرها كدروس التاريخ والجغرافيا وقواعد اللغة والحساب فلم تكن تنجزها او تحمـل الآخريات على ان ينجزنها لها ومعظم اوقاتها كـانت تمضيهـا بالزيارات في دور صويحباتها ومعارفها ٠

وكان يروق لجنيفرا هذا النوع من الحياة وتستحبه ومن وسائلهـا التي ترتاح لها ارتداء متنوعات الالبسة الفاخرة ولكن لم يكن لها دائما المال الذي يكفي لشرائها وتركزت كل افكارها على هذه القضية الصعبـة وانهكت روحيتها كل الانهماك بوسائل التوصل الى ايجاد الحل لها وكان امرا عجيبا ان يلحظها المرء وهي تعمل ذهنيتها الكسولة في هذا الصـدد ويلحظ جرأتها الجمة وشعورها المحفز بما تراه ضروريا لها ورغبتهـا العارمة في الظهور والتألق ٠

وكانت تطلب من السيدة كولوندلي بجرأة وليس بطريقة الخجـل المشوب بالتردد ، اقول كانت تطلب بجرأة على الشاكلة التالية٠٠« عزيزتي السيدة (ك) ليس لي ما يليق بان البسه في حفلتك التي ستقيمينها فـي الاسبوع القادم ٠ ولذلك عليـك ان تعطيني الملابس القطنية الرقيقـة والنطاق الازرق زرقة السماء ٠ وكانت السيدة (ك) العزيزة تقبـل في اول الامر ولكن عندمازادتالطلبات غير المرفوضة اضطرت ـ ككلصديقات الآنسة جنيفرا الآخريات ـ الى ان ترفض ٠

وبعد مدة لم اعداسمع المزيد عن هدايا السيدة (كولوندلي) بيد أن الزيارات كانت تترى والملابس الضرورية تنهال عليها علاوة عـلى الاشياء الاخرى كالقفازات وباقات الورود وحتى الحلى الصغيرة التي ليست غالية

وهذه لم تكن على ذوقها وكانت على طرفي النقيض مع عاداتها وحتى مع طبيعتها . وجرت العادة على حفظها في اماكن غير منظورة مدة من الزمن ولكن في احدى الامسيات عندما كانت تنوي الذهاب الى حفلة كبرى مطلوب فيها بذل الاهتمام الخاص والظهور بالاناقة جاءت الي ودخلت غرفتي لتظهر امامي بكل ما فيها من روعة وسناء .

وتجلى جمالها امامي وكذلك شبابها ونعومة بشرتها ولدانة هيكلها الانكليزي غير الموجود سحره في قائمة الانثيات الساحرات خارج الجزيرة. لقد كانت ملابسها جديدة وكاملة وبنظرة واحدة علمت انها لا تفتقر قط الى التفصيلات والتصميمات التي تكلف الكثير وتعطي للجوهر العام جو الاكتمال الذوقي . ورنوت اليها من الرأس الى اخمص القدمين وادارت الي ظهرها لكي استعرضها من كل جوانبها واطرافها وكانت على افضل ما هي عليه من الظرف وعيناها الزرقاوان تومضان ومضات البهجة والانشراح وكانت على وشك ان تمنحني قبلة بملابسها المدرسية تعبيرا عن عمق محبتها وفرحها وقلتلها فلنستقر لنعرف ماالذي نريده ونكتشف معنى جمالنا واريد منك ان تعرضي نفسك امامي لتقص يتسم بمزيد من الثقة والاهتمام » .

وقالت لي بتساؤل « هل افعل ذلك ؟ » وقلت لها « افعلي وهناك مختلف الطرق لذلك .. حقا انني لا افهمك » وسالتني « ولكن كيف ابدو ؟ » واجبتها « تبدين جميلة الملبس » وتراءى لها ان المديح ليس ساخنا كما يجب وشرعت تثير اهتمامي بمختلف نقاط الزخرف الموجود في ملابسها وقالت لي .. « انظري الى طقم مجوهراتي هذا .. انظري الى الدبوس الزيني (البروش) .. انظري الى اقراطي .. انظري الى سواري .. ليس في المدرسة من تلميذة تمتلك مثل هذه الطقوم .. حتى المدام نفسها .

واجبتها « .. انني اراها كلها » (وبعد برهة من التوقف) سألتها « هل المسيو دي باسومبيير هو الذي اعطاك هذه الجواهر ؟ » واجابتني « عمي لا يعرف شيئا عن مثل هذه الامور » وسالتها « هل هي هدايا من السيدة كولونديلي ؟ » واجابتني « حقا ليست كذلك فالسيدة كولونديلي مخلوقة وضيعة وشحيحة وهي لا تعطيني اي شيء الآن » .

ولم اشا ان اطرح عليها اسئلة اخرى واشحت بوجهي عنها على نحو

twitter @baghdad_library

مفاجيء وقالت لي هذه الكلمات التي كثيرا ما كانت توجهها لي عندما نختلف فيما بيننا والآن ايتها العكازة القديمة يا (ديوجينوس) القديم ما بك الآن ؟ » واجبتها « اليك عني ·· لا اجد مسرة في النظر اليك او الى طقم مجوهراتك » ·

وبدا عليها هنيهة انها اخذت على حين غرة وسرعان ما قالت لي « وماذا الآن ايتها الام الحكيمة لم أشتر هذه الملابس بالدين ولا الجواهر ولا القفازات ولا باقات الورود · صحيح ان ملابسي لم ادفع عنها بعدلان عمي باسومبيير هو الذي سيدفع القائمة وهولايلاحظ مفردات المواد وانما ينظر الى مجموع المبلغ ويدفعه · انه غني بالدرجة التي لا يهمه ان ينظر الى بعض الجنيهات زادت ام نقصت » ·

واجبتها « آلا تغربين عن وجهي ؟ انني اريد ايصاد الباب ؟·· يا جنيفرا ·· قد يقول لك الناس انك مليحة ووسيمة في ملابسك الفاخرة ولكن في نظري لا تبدين جميلة ابدا كما بدوت امامي وانت ترتدين بدلة الجنهام من النسيج القطني المخطط وقلنسوتك القشية البسيطة اللامزخرفة في اول لقاء بيننا ·· اتذكرين ؟ » · وكان جوابها الغضوب « ليس للناس الآخرين مالديك من اذواق متزمتة ثم اقول لك ان ليس لك حق في توبيخي ؟ » ·

وقلت لها « بالتاكيد لدي بعض الحق وانت اي حق لك اذن في المجيء الى غرفتي للتبختر والتبجح في ريشك المستعار لست اكن اي احترام لريشك ايتها الآنسة فانشاوي ولا لهذه العين الطاووسية التي تسمينها طقم مجوهرات · ما احلى انك لو اشتريتها باموالك الخاصة التي حتى لو صح انها لك لكان الواجب عليك أن تدخريها في الظروف الحالية ·

وجاءت البوابة وقالت ان هناك من يريد الآنسة فانشاوي وخرجت من غرفتي وقضية طقم المجوهرات التي هي شبه سر لم تحل الا بعد مرور يومين او ثلاثة عندما جاءت لتعترف امامي طواعية وقالت لي « لا ينبغي عليك ان تعيسي بوجهي · في وضعي الذي أنافس فيه من انافس وفي وضع تتجمع فيه الديون على والديوعمي باسومبيير اؤكد لك بأن لم يبق شيء لم يسدد لقاء ما اشتريته باستثناء بعض الملابس التي بقيت لدي اما سواها فقد سويت وسددت تماما » ·

وقلت لها « ههنا يكمن السر اذ انا على معرفة يقينية من ان السيدة

كولوندلي لم تعطيك اياها وان مـــا تملكين مقصور على بضعة شـلنات بلهجة خصوصية تنم عن الملاطفة والتملق ولان عبوسي لم يكـن يريحها بلهجة خصوصية تنم عن الملاطفـة والتملق ولان عبوسي لم يكن يريحهـا كانت تريد مني ان اظل في حالة اصغاء وحديث حتى وان كنت أحـدث مشجب تعليق الملابس او اي شيء لا وجود له وقالت لي « اصغ الي أيتها الخبيرة المتذمرة سأخبرك عن كل شيء وستجدين كيف ان الامور سـارت سيرا صحيحا وكيف عولجت معالجة صحيحة » .

واستطردت قائلة « في المقام الاول ينبغي علي ان اسـافر ووالدي قال انه يريدني ان اشاهد العالم الخارجي وقال لعمي انني وان كنـت مخلوقة جميلة الصورة فانني قد تربيت في جو مدرسي واعتمدت اكـل الخبز والزبدة منها وان رغبته الشخصية هي ان اتخلص من وضعي الحالي بالتعرف على المجتمع الحالي قبل ان ابدأ ظهوري في المحـلات العامة في انكلترا .. حسنا اذا كان علي ان اسافر الى الخارج فعلي اذن ان البس البسة فاخرة ..

ومضت في كلامهـا قائلة « السـيدة كولوندلي زايلهـــا الانصاف واستحالت خسيسة ولا تعطيني بعد الآن اي شيء ومن الصعب جـدا ان نتحمل قيام عمي بدفع اقيام كل الاشياء التي احتاجها وهذا ما لا تستطيعين تكرانه وهو ما يتوافق ويتناسب مع مواعظك . واذا كان هنالك شخص سمعني (بالصدفة .. اؤكد لك .. بالصدفة) سمعني اشـــكو للسيدة كولوندلي ظروفي السيئة الموجعة وحراجة وضعي من جراء حلية اوحليتين هناك شخص بدلا من ان يبخل في منح هدية لشخص آخـــر شعر بمنتهى البهجة حين اتيحت له فرصة تقديم ما يعتبره تافها وقليل القيمة ولوشاهدت ذلك الشاب الغر كيف استحال وجهه عندما تطرق الى الموضوع وكيف تردد واحمر خداه خجلا وارتعش خوف ان ترد رغبته من قبلي في ان يقدم العون اللازم .

وقلت لها « هذا ما يفي بالغرض ايتها الآنسة فانشاوي اتصوراتني عرفت بان المحسن هو ايزيدور وانك منه حصلت على طقـم المجوهرات الثمين وانه هو الذي يدفع عن باقات الاوراد وعـن القنازات » وقالت « انت تتحدثين وتعبرين عن نفسك بشكل لا اوافق عليه ولا يدري المرء كيف يجيب والذي اريد أن اقوله انني آتيـح لايزيدور في بعض الاحيان

twitter @baghdad_library

فرصة التمتع بشرف التعبير عن ولائه بما يقدمه لي ٠

وقلت لها ٠٠ ههنا نتوصل الى اتفاق وغاية واحدة والآن يا جنيفرا دعينا نقل الحقيقة الواضحة الصرفة فانا لا افهم فهما جيدا هذه الامور بيد انني على يقين من انك ترتكبين الاخطاء ٠٠ الاخطاء الخطيرة وربما تشعرين الآن شعورا مؤكدا بانك قادرة على التزوج من المسيو ايزيدور فوالدك وعمك عبرا عن موافقتهما وانت نفسك تحبينه حبا جما اليس كذلك ؟٠

وقالت لي « ابدا ٠٠ انا ماكنته ولكنه ليس ملكي »وقلت لها «اعذريني على ان اعتقد بان هذه اللغة ليست سوى سخف وعبث في الحب وليس فيك اية سيماء من العظمة انما انت لا تقومين بشيء سوى استثمار طبيعة الرجل الطيبة وماله اما موقفك منه شخصيا فهو موقف عدم الاكتراث المطلق ٠ اقول لك هل انك حقا تحبين المسيو ايزيدور فوق ما تفكرين ام عليك ان تعترفي بالحقيقة ؟٠

فاجابتني ٠٠ كلا ٠٠ لقد رقصت معضابط شاب فيليلة ما واحببته الف مرة اكثر مما احببت ايزيدور وغالبا ما اعجب من نفسي ان اكون بهذا البرود تجاهه علما بان كل شخص يقول انه ظريف ووسيم وتعجب بجماله السيدات واراه بطريقة او اخرى متبرما بي فهل لك ان تحللي هذا الموضوع وتبدين رأيك به ؟ » قالت ذلك وبدا عليها انها تجهد نفسها في التامل والتذكر ٠

في هذا شجعتها قائلة لها « نعم ٠٠ عليك ان تحاولي الوقوف على فكرة واضحة عن حالتك الذهنية التي تبدو لي انها في محنة كبرى وانها مشوشة ومختلطة ككيس الفضلات » وسرعان ما قالت لي « انها لكذلك يوميا فالرجل رومانتيكي ومخلص للغاية ويتوقع مني كل شيء اكثر من انني اجده ملائما ، وفي رأيه انني كاملة ومثالية ومزودة بكل انواع الصفات الخالصة الاصيلة والفضائل الجمة المتواصلة كالتي ليست موجودة لدي ولا اريد ان تكون موجودة » ٠

وليس في وسع المرء سوى ان يحاول ـ بحضوره ـ ان يبرر رايه الصالح وينهكه لكي يكون جذابا ويتكلم بما هو معقول ذلك انه يرى رايا حقيقيا بانني ذات حس وادراك ٠ انني صريحة معك اكثر من اللازم ايتها السيدة المتمرسة الخبيرة ٠ انتايتها العزيزة الكثيرة الانفعال والتذمر التي

لا تركز الا على اوطأ ما بي من نقائص وتعرف عني بانني المتفنجة الجاهلة العابثة في التغزل المتقابة في الحب الحمقاء الانانية وكل الاشياء (الحلوة) الاخرى التي اعرف انا وتعرفين انت انها جزء من اخلاقي وخصائصي » ٠

وقلت لها « ان ذلك كله شيء حسن » وبذلت جهدا مستميتا لاحافظ على هذه الرزانة والصرامة التي يحيق بها خطر الاهتزاز بهذه الصراحة الغريبة الاطوار البادية منها الا ان ذلك لا يبدل او يغير من القضية التعيسة قضية قبول الهدايا وقلت لها « اجمعيها يا جنيفرا ككل فتاة مخلصة صالحة واعيديها له » واجابتني بجرأة وعنف «كلا ٠٠لن افعل ذلك حقا » وقلت لها « اذن انت تخادعين السيد ايزيدور ومن المعقول انك بقبولك هداياه تكونين قد ادخلت في روعه انه سيأخذ منك في يوم ما الذي يوازي ويضارع هداياه » ٠

وقالت مقاطعة اياي « لن افعل ذلك فقد اخذ ما يوازيها ويساويها الآن بتلذذه في مشاهدتي وانا مرتدية ومستخدمة اياها وهذا حسبه مني ٠ انه ليس سوى بورجوازي » وهذه العبارة بتعاليها او خيلائها الطائش اشفتني من ضعفي الوقتي الذي حدا بي الى ان اخفف معها لهجتي ومظهري ومضت في كلامها الصاخب المثرثر قائلة لي :

« ان همي الحالي هو تمتيع شبابي وليس تقييد نفسي بالوعود او العهود لهذا الرجل او ذاك وعندما وجدت ايزيدور لاول مرة اعتقدت بانه سيكون عونا لي بتمتيع شبابي وفي يقيني انه راض بكوني فتاة لطيفة وجميلة وباننا نتلاقى ونفترق وترفرف بجناحينا كفراشتين بذلك ٠٠ انظري وتأملي ٠٠ لقد وجدته احيانا رزينا كالقاضي وعميق المشاعر ومفكرا ٠٠ ياللسخرية ٠٠ انا لا يروق لذوقي المفكرون وعميقو الانوار والعاطفيون من الرجال ٠

الكولونيل الفريد دي هاماك يروق لي اكثر منه بكثير ٠٠اعطني رجالا انيقين ومتشردين وسيمين ٠ لتعش اللذة والمسرات وليسقط الحب الجدي وليسقط التملك الصارم المتزمت احب الضابط « عقيدي » الجميل ولن اهتم بمنافسه ولن اكون زوجة لاحد افراد الطبقة الوسطى ٠٠ قط »ورنت الي بنظراتها بعد ذلك الحديث منتظرة جوابا مني على هذه الخطبة المسهبة بيد انني لم اجبها ٠ وعبرت عن مرادي بايماءة مفادها ان من الضرورة بمكان ان تكون شقتي بمنجى من وجود مثل هذه الفتاة وما كان منهاسوى ان تتوارى بعيدة عني وهي تضحك ٠

twitter @baghdad_library

الفصـــل العاشـــر

ـ الدكتـور جـــون ـ

كانت المدام بيك من اكثر الشخصيات الثابتـة عـلى مبدئها تتذرع بالصبر مع كل الناس ولا تبدي الرقة مع اي قسم من اقسامه . وطفلاتها حملنها على الانحراف حتى عن نزعتها الرواقية المتسمة بالهدوء وعـــدم الانفعال وكانت قلقة بصدد عائلتها مهتمة بمصالحها وسعادتها الجسمانية ولم يكن لها قط اية رغبة في اخذ طفلاتها في حضنها او في طبع قبلاتها على خدودهن او ملامستهن بفيها حنانا او لجممهن في عنـــاق مذواق او ابداء الملاحظات المعطوفة والكلمات المحببة اليهن .

لقد لاحظتها في بعض الاحيان وهي جالســـة في الحديقة تحـدج بنظراتها صغارها على مبعدة في ساحة الحديقة مع مربيتهن (ترينيت) وعلى سحنتها امارات الاهتمام والاحتراس وغالبا ما كانت تبوح لي همـا يقلقها من امور مستقبلهن واحيانا عندما كانت اصغر طفلاتها التي كانت تلعب كثيرا رغم ضعفها وتمومتها تلحظ امها من بعيد وشاهدتها تفلت عن مراقبة مربيتها وتدرج بخطى قصيرة قلقة وتتجه ـ وكلها شوق وضحك ـ صوب امها راكضة للامساك بركبتها وفي هذه الحالة اخرجت المدام احدى يديها بهدوء للحيلولة دون اصطدامها بشكل مثير من جـراء اندفاعهـا المفاجيء قائلة لها « حذار يا طفلتي » .

وتقول ذلك وهي غير مكترثة كثيرا وتسمح لها بالوقوف الى جانبها بضع لحظات ثم دون ان تبتسم لها او تقبلها او تحببها بالفاظ او مقاطع تنهض وتعيدها الى المربية اما سلوكها وتصرفها مع طفلتها الكبرى فقـــد تميز بطريقة اخرى تماما وكانت هذه الطفـــلة شريرة وتقول عنها .. «ما ابغض وازعج ديزيريه هذه الافعى الصغيرة » . هذه كانت تعابير هاعنها سواء في المدرسة او في المطبخ وتتحدث المـــدام بافتخار عن قابليتهـا ومميزاتها التي من بينها فن الاستفزاز الذي يجن منه جنون الخدم والمربية

twitter @baghdad_library

فهي تتسلل الى محلاتهم الواقعة تحت سطح المنزل مباشرة وتفتح دروجهم وجاروراتهم وصناديقهم وتمزق ـ بتعمد المدللة واستهتارها ـ قلنسواتهم وتتلف افضل شالات الخادمات .

وتنتهز هذه الطفلة اللعوب فرصتها للوصول الى الخزانة او (البوفيه) التي تحفظ فيها الاقداح وغير ذلك وتحطم ما هو محفوظ فيها من الاقداح او مواد الخزف الصيني وتنهب ما فيها من معلبات وتشرب الخمر الحلو وتكسر الجرار والقناني وتحاول بعد ذلك ـ لدفع اللوم والقصاص عنها ـ ان تتهم الطباخة او خادمة المطبخ وعندما تشاهد المدام ذلك او يقدم لها التقرير بذلك لا تتفوه الا بالجملة التالية وبكل برودة دم « تحتاج ديزيريه الى مراقبة تامة » .

وفي اعتقادي انها لم تلفت نظرها ولو مرة واحدة ـ باخلاص ـ الى اخطائها او توضح لها شرور مثل تلك العادات وما ينجم عنها من نتائج وفي نظرها ان الدراء الثاني لمثل هذه الاخطاء هو مراقبتها وقد ابعدت في بعض المرات عن اماكن الخادمات وبدلا من ان تكف تقوم بازعاج اسها ونهب ما لديها من محتويات او العبث بها وبكل ما يعود لها في طاولة عمل بدراجها او بصرفة حفظ الكتب او غيرها وكانت هذه الطفلة تسطو عليها وتسرقها وتختبيء .

وكانت المدام ترى ذلك وتتظاهر بانها لم تره ، ولم تكن لها روحية مجابهة المشكلة بشرورها وعندما تختفي مادة ما وتتطلب قيمتها ضرورة التعويض عنها تقول المدام لها بالترجي « انت اخذتيها لتلعبي بها والان اعيديها » غير ان ديزيريه لا تنطلي عليها هذه الخدعة وتنكر كونها مست البروش (الدبوس الزيني) او الحلقة او المقص وراحت الوالدة تراقبها وتلازمها باستمرار او تتعقبها الى الاماكن التي تخفي فيها مسروقاتها كثقب في حائط الحديقة او في اي مكان آخر او ثقب في زاوية مظلمة او في حجرة تحت السقف او في مرحاض خارجي .

وعندما يحدث هذا اي عندما تخفي الطفلة ما تأخذه خلسة من المواد او الاشياء تقوم المدام التي تكتشف مكان الاخفاء بارسال طفلتها مسبع مربيتها الى الخارج لتسرق السارقة وبرهنت ديزيريه انها الطفلة البارة لوالدتها الذكية الماكرة فهي لا تغير شكل سحنتها او اسلوبها وعادتها من

اجل ان تفشي سر اية علاقة او دلالة ـ مهما صغرت ـ لاكتشاف اماكن ما يضيع من المواد ٠

وقيل ان طفلتها الثانية (فيفين) كانت تشبه والدها المتوفي ٠ ان الوالدة وان كانت قد وهبتها هيكلها وشكلها الصحي الا ان عينيها الزرقاوين وخديها الاسيلين ردت لها كيانها المعنوي لقد كانت روحا بسيطة جذلة مرحة مشبوبة العاطفة دافئة المزاج وكانت مخلوقة ناشطة ايضا تتخبط في مشيتها على شاكلة يوقعها احيانا بالمخاطر والمصاعب ففي احد الايام سمعت المدام صوت سقوطها من اعلى الى اسفل مجموعة متواصلة من درجات سلم حجري عال واسرعت فالتقطتها وقالت بهدوء «لقد انكسر عظم من عظامها»٠

وظننا لاول وهلة ان الامر لم يكن كذلك ولكن ظهر انه صحيح فيما بعد لان احد ذراعيها الصغيرين بقي معلقا بلا حراك وصاحت علي ان ارسلي احدا ليجلب لنا عربة نقل في الحال وانطلقت هي بسرعة في عربه نقل صغيرة وبيرود وضبط نفس يستديران العجب لتأتي بالطبيب الجراح٠ وبدا انها لم تجد عائلة الطبيب في البيت ولم يهمها الامر بل جاءت بمن اعتبرته في رايها بديلا عن الطبيب الجراح فجاءت به معها بينما كنت في ذلك الوقت قد قصصت ردن الطفلة عن ذراعها ونزعت ثيابها واودعتها الفراش ٠

ونحن المجتمعات في الغرفة الصغيرة الدافئة ـ واقصد بنحن انا والمربية والطباخة والبواب ـ لم ننتظر بامعان الى الطبيب الجديد عند دخوله الى الغرفة فقد كنت انا شخصيا منشغلة بتهدئة فيفين وهدهدتها لان صراخها المخيف ـ برنتيها القويتين ـ كان يشق الافاق ٠ وتضاعفت الصراخات بعد ان دنا القادم الجديد من فراشها وعندما رفعها اختلط بكاؤها المؤثر بالكلمات الانكليزية الركيكة اسوة بشقيقتيها « لا اريدك انت ٠٠ اريد الدكتور بيلول » ٠

واجابها البديل بلغة انكليزية لا شائبة فيها « الدكتور بيلول صديقي الحميم وهو مشغول في مكان يبعد عنا ثلاثة فراسخ وجئت انا عوضا عنه ولهذا اذا سكت قليلا فسنقوم بما يشفيك من آلامك وسرعان ما سنضمد ذراعك الصغير التعيس هذا ليعود كما كان قبل سقوطك ٠ وبعد هذا مباشرة طلب منا ان تأتي له بالماء المحلى بالسكر وسقاها منه قدر ملعقة شاي ٠

وكانت هذه الطفلة الصغيرة اكولة وتستطيب الاشياء العلوة والكل يستطيع ان يأسر فؤادها بما يقدمه لها من طعام او شراب ووعدها باعطائها

twitter @baghdad_library

المزيد بعد انتهاء العملية ثم شرع في العمل وساعدناه بما كان يطلبه من الطباخة القوية الجسم والذراعين ان تاتي غير انها فرت هي والبوابة والمربية في الحال اما انا فكان بودي الا امسك بذلك الجزء من ذراعها الذي يؤلمها كثيرا ولكن لم يكن لي من بد وامتدت يدي لتعمل ما قاله الطبيب وساعدتني المدام بيك وامسكت بذراعها بقوة وبدون اكتراث اما انا فقد ارتعشت يدي واشاح الدكتور بوجهه عني واتجه الى المدام بيك قائلا لها « هذا افضل » وابدى حكمة في اختياره لان رواقيتي مصطنعة وغير صحيحة اما رواقية المدام فكانت لا اضطرارية ولا تصنعا وقال الطبيب لها « شكرا جزيلا يا مدام .. ان هدوءنا ورباطة جأشنا تجيء في وقتها المناسب وتسرى الف عملية هروب للمشاعر غير الموضوعة في محلها » .

وسره ما وجده منها من حزم راسخ وسرت هي من مديحه ويبدو ان مظهره العام وصوته وطلعته واسلوب حديثه وسلوكه احدثت في المدام انطباعات انفعالية لصالحه . وفي الحقيقة ان المرء لو نظر اليه جيدا لاسيما على ضوء المصباح المقرب من وجهه ـ لان الوقت كان غسقا اي في اول ظلمة الليل ـ لتراءت له صحة كل ذلك مالم تكن المدام اقل من امرأة .

وهذا الطبيب الشاب لم يكن له مظهر عام فقوامه مهيب وطويل في تلك الغرفة الصغيرة وبين تلك المجموعة من النسوة اللواتي كانهن من أرومة هولندية . كانت صورته الجانبية او مظهره الجانبي رائقا ورائعا ومعبرا وربما كانت عيناه ترنوان ويتحول رنوهما من وجه الى وجه بسرعة متناهية وبتكرار مفعم بالحيوية وبهيئة تثير المسرة وكذلك كان فمه . اما ذقنه فكان كاملا مشقوقا من الوسط .

اما ابتسامته فليس بوسع المرء ان يقرر سراعا ان يعطيها الوصف الذي يناسبها ويستحقها ففيها شيء يثير البهجة في الفؤاد ويبعث القوى الصاخبة في كل نقطة من نقاط الذهنية الضعيفة ويخلف كل ما من شانه ان يبعث الضحكة السارة واحبت (فيفين) نفسها ابتسامته ـ المشكوك فيها ـ معها واستحلت لطافته واعتبرته مريحا معها وان كان قد آذاها في عمليته حتى انها مدت يدها لتودعه وربت على يدها الصغيرة بلطف ثم نزل هو والمدام الى الطابق الارضي وكانت المدام تحادثه بروحية مفعمة

بالحيوية والنشاط وبفصاحة ولسان ذرب وهو يصغي اليها بلطف كيس يمازجه مكر لا شعوري يصعب علي وصفه ·

ولاحظت انه وان كان يتكلم الفرنسية بشكل جيـــد فان انكليزيته كانت افضل في التكلم وكان له ايضا مظهره الانكليزي العام وعينه وشكله ولاحظت ايضا انه بينما كان يمر من امامي للخروج من الغرفة محولا وجهه باتجاهي لحظة واحدة لا للتحدث معي وانما للتحدث مع المدام وعند وقوفه تاملت في وجهه بالضرورة وحضرتني ذكرى كانت قد اعتملت في مخيلتي ومنذ لحظة سماعي صوته اكتملت هذه الذكرى فعرفت بعدهـا انه نفس السيد (الجنتلمان) الذي حادثتـه وحادثني عنـــد المكتب وساعدني في موضوع صندوقي الضائع واصبـــح دليلي في الليلة الظلماء النديه في المتنزه الذي كنا نمر فيه كلانا واصغيت الى خطواته عند مروره في المجاز للخروج الى الشارع واذا بهـــا نفس الخطوات التي كنت اتابعها تحـت الاشجار التي كانت تقطر اغصانها بقطرات المطر المنهمر ·

ويستنتج من ذلك ان زيارة ذياك الطبيب الجـــراح الشاب لشارع (فوسيت) ستكون الاخيرة لان الدكتور بيلول سيصل في اليوم التالي ولم يكن من سبب لان يمثله مؤقتا هذا البديل ولـــكن الاقدار كتبت حكمهـا بالنقيض · لقد استدعى الدكتور بيلول لمعاينة شخص مريض كبير السن مصاب بمرض الوسواس في بلدة بوكين ـ مويسي الجامعية الاثرية فوصف له علاج تبديل الجو والسفر وطلب من الدكتور بيلول مرافقـــة المريض الخواف في سفره بضعة اسابيع ولذلك ترتب عـــلى الطبيب الجـديد ان يواصل حضوره الى شارع (فوسيت) ·

وغالبا ما كنت اشاهده عندما ياتي وكانت المدام لا ترتضي ابقـــاء الطفلة المريضة عند (ترينيت) لانها لا تطمئن اليها كذلك ولذلك طلبت مني امضاء معظم وقتي في العناية بالطفلة مربية لها واظن ان الطبيب كان ماهرا لان فيفين شفيت بسرعة بعنايته وحتى نقاهة الطفلة وتماثلها للشفاء لم تفض الى استبعاد الطبيب فقد ظهر ان القدر والمدام بيك حليفان قرر كلاهما وجوب ابقاء صلة التعارف المقصودة المتعمدة ما بين الطبيب وبين ردهة الدار ومدخله والسلم الخاص وغـــرف الطابق الاعلى قائمة دون ان تنفصم ·

وما ان شفيت فيفين على يديه حتى وقعت ديزيريه مريضة طريحة

twitter @baghdad_library

الفراش وهذه الطفلة المسوسة كانت تمتلك عبقرية التظاهر وبما انها كانت مفتونة باهتمامات الغرفة المريضة وتدليلاتها فقد ادركت بان التظاهر بمرضها سيكون امرا ملائما لذوقها وسرعان ما قصدت فراشها وقامت بدورها التظاهري بشكل جيد وقامت والدتها بالتظاهر بشكل افضل وقد اعتبرت المدام القضية كلها كما انها اليوم المطلوب وراحت تتعامل فيه في جو مدهش من الجدية والايمان الصالح الباعث ع ل الطمأنينة .

والذي فاجأني واثار استغرابي هو ان الدكتور جون الذي افهمت فيفين انه اسمه واخذنا منها عادة مخاطبته باسمه الى ان اضحت عادة لدينا علما بانه لم يعرف باسم آخر في منطقة (فوسيت) ورضي ضمنا بالسير وراء اساليب المدام والوقوع في مصيدة مناوراتها وظهرت عليه لبرهة ما دلائل الشك المضحك والقى نظرة او نظرتين سريعتين على الطفلة ووالدتها ثم انغمس في فترة التشاور الذاتي وقرر في آخر الامر ان يلعب دوره في المسرحية الهزلية عن طيبة خاطر .

كانت ديزيريه تأكل بشراهة وتطفر مرحا طول النهار وتلعب في فراشها ليلا فتقذف خيم الجراحة بالملاءات والبطانيات وتتكيء بين المساند والوسادات تسلي نفسها برمي احذيتها على المربية وتكثر تكشيرات ازدرائية امام اختيها وتكاد تطير (بالشورت) القصير الذي ترتديه بصحة ليست جديرة بها وبروحيتها التجاوزية الشريرة ولا تئن وتتوجع في فراشها الا عندما تزورها والدتها او طبيبها في النهار وكانت المدام منشرحة النفس من ان تكون طفلتها في الفراش بعيدة عن الاذى والتوجع غير انني استغربت من ان الدكتور لم يكل ولم يمل من انجاز مهمته كطبيب رغم علمه بحقيقة الامر .

وفي كل يوم وبحجة اعطاء التوصيات فقط كان يقوم بزيارات شكلية فتلقاه المدام دائما بنفس الحماسة والود وبنفس الاشراقة امامه وبنفس جو الاهتمام الزائف بالطفلة من قبل لدكتور جون الذي كان يكتب لها وصفات طبية لا ضير من تناولها ويرنو الى والدتها بعين الغزل العميقة الغور والمدام تتلقف نظراته الشاملة دون ان تستعض منها بل قل بروحية جد مرتاحة منها .

ولما كان الدكتور الشاب دمثا مطواعا فما من احد كان يكن له الاحتقار وهذا الجزء الدمث المطواع لم يكن بيديه ـ على ما كان يبدو ـ من اجل ان يتملق لمن يستخدمه . وفي الوقت الذي كان يحب فنه ووظيفته في المدرسة الداخلية ويتردد بشكل غريب في مساكن شارع (فوسيت) كان مستقلا وعديم الاهتمام بمركبته ومع ذلك كان في الاغلب مشغول البال لمراعاة حقوق الآخرين ومشاعرهم وكثير التفكير في الاهتمام بهم .

وربما لم يكن من شأني مراقبته لمعرفة سرية طريقته في المشي والوقوف والجلوس او التقصي عن اصله او اورمته او هدفه ولكنني بوضعي ذاك ما كان بوسعي ان اعمل غير ذلك وقد كشف نفسه امام ملاحظاتي وبينما كان في اغلب الاحيان ينتظر مجيء المدام كان يستغرق في التفكير او يبتسم او يراقب او يصغي كالرجل الذي يعتبر نفسه وحيدا وفي مثل هذه الحالة اكون حرة وطليقة في استجلاء محياه وحركاته واعجب من ماهية معنى ذلك الاهتمام الخاص والاتصال الخاص المزيجين بالشك والاستغراب تتحكم بها ـ بشكل لا يمكن توضيحه ـ رقية موجهة تشده الى هذه البناية نصف الدينية وفي اعتقادي انه لم يعرف ان لدي عينين في رأسي ووراءهما دماغ مفكر .

ولم ينتبه الى هذا قط ولكن في يوم ما عندما كان جالسا تحت اشعة الشمس المحرقة لاحظت لون شعره وشاربيه وبشرته ولا ادري الى هذا اليوم كيف رنوت اليه فقوة المفاجأة وقوة الايمان جعلتاني انسى نفسي ولم يعد الي رشدي الا بعد ان شاهدت ان هذه الملاحظة قد اكتشف امرها وكبحت وان المدام اعتقلت حركتي بمرآة بيضوية شفافة مثبتة الى جانب فراغ النافذة تتجسس بها سرا على الاشخاص الذين يمشون في الحديقة .

انه وان كان ذا طبيعة تتسم بالتفاؤل والمرح فانه لم يكن عديم الحساسية او خاليا من النزعة العصبية او مضطربا من نظرة متقصية مباشرة وعندما فاجأني على تلك الحالة التفت الي وقال بلهجة وان كانت مؤدبة الا انها تضمنت ما يكفي من اليبوسة التي آبدت ظلا من الانزعاج والتبرم وسمة من سمات الملامة والتوبيخ الضمني ..« ان الآنسة لاتدعني وشأني فلست بالتافه الذي يتصور ان حسناتي هي التي تلفت انتباهها ولهذا لابد ان هنالك خللا او عيبا في فهل لي ان اتجرأ واسألك ماهو؟».

twitter @baghdad_library

وشعرت بالغزي كما يتصور القارىء ولكن ليس الى حد الارتباك الذي لا يمكن ان يصلح شأنه وكنت على علم من ان الذي بدر مني لم يكن بسبب عاطفة الاعجاب الغافل او بسبب روحية الفضول الذي لا مبرر له مما أدى الى توجيه الملامة والتأنيب لي وكان بوسعي ان ازكي نفسي بنفس اللحظة ولكنني لم افعل ذلك ولم أحر جوابا ·

ولم اكن في وضع يساعدني على التكلم معه وايذائه لـــكي يضرب اخماسا باسداس ويتهمني بشتى الاتهامات ولذلك استأنفت انشغالي بشيء أسقطه من يدي وابقيت رأسي منحنيا عليه اثناء هنيهات وقوفه الباقيـة وهناك مزاج مستبقى في الذهن يهدأ ويستكين ولا ينزعج من جراء سوء الفهم أو سوء التفسير · ونستأنس في بعض الاماكن التي لا نعرف بهـا حق المعرفة بمجرد ان يتجاهلنا الآخرون تمام التجاهل · واي رجل نزيه ويعتبر مصادفة لص المنازل ولا يستشعر الوخز الخفيف بـدلا من النيظ والحيرة عند ارتكاب الخطأ ؟ ·

الفصـــل العـادي عشـــر

ـ حجـرة البـوابة الخصوصية الصغـيرة

كان الفصل صيفا والمناخ حارا جدا حين اصابت جورجيت اصغـر طفلات المدام (بيك) حمى وكانت (ديزيريه) التي ابلت من امراضها فجأة قد ارسلت (فيفين) الى الريف برفقة المربية (مامان) وقاية مـــن العدوى وكانت الحاجة تمس الآن وبشكل حقيقي الى العون الطبي وكانت المدام التي تجاهلت عودة الدكتور بيلول الى داره قبل اسبوع قـد ناشدت منافسه الانكليزي لمواصلة زياراته لان واحدا او اثنين من متقاعديها كانا يشعران باوجاع الرأس فضلا عن الحاجة الماسة اليـه للعناية بجورجيت المريضة .

ومرت في خاطري فكرة وجوب استدعاء الدكتور بيلول ثم ان المديرة الحذرة المحترسة ذاتها لا تستطيع المجازفة بأحضار شـــاب وسيم امـــام التلميذات ومع انها شديدة الحذر فانها تتسم ايضا بروح المغامرة الجريئة فهي فعلا قدمت الدكتور جون الى فرع ادارة مبنى المدرسة وعينته بحضور التلميذة الجميلة المتعجرفـة (بلانش دي ميلكي) وصديقتهـا التلميذة المتغنجة المزهوة بنفسها (انجليك) ·

وعبر الدكتور جون عن امتنانه من هذه المبادرة الدالة على الثقـــة من قبل المديرة واذا كانت حرية الاختيار تبرر هذه الخطوة وان الدكتور نفسه برهنا تبريرا حسنا فان وجـــودا كوجوده في منطقة دير ورهبنة وكرسي الاعتراف ما كان ليمكن المرور بـــه مر الكرام او الافـلات من عواقبه في مدرسة الفتيات المعروفة بالقيل والقال وبنشر الاشاعات ولهذا سرت الاشاعات وحدث همس في المطبخ وتلقفت المدينة الاشاعة وشـرع آباء وامهات التلميذات يكتبون الرسائل ويقومون بزيارات احتجاجية ·

twitter @baghdad_library

ولو كانت المدام ضميمه لانتهى امرها بالضياع وحاولت دزينة من البيوتات التربوية المثقفة العمل على القضاء عليها ولانها لم تكن ضميمة عجزت عن ذلك والتقت هي باولياء التلميذات الجزعين وهي جذلة طلقة المحيا كيسة في محادثتهم فما من امرأة ضاهتها في صراحتهـا وبساطتها التي كانت تحصل بها في مختلف المناسبات على ما تريد وبمنتهى النجاح وعلى عكس الفشل الذي يصيب من يستخدم اسلوب الخشونة في التعامـل او اسلوب الاستنتاجات والحجج والبراهين الجدية وكانت تقول وهي تفرك راحتي يديها الصغيرتين البيضاوتين السمينتين بعضهما ببعض « هـــذا المسكين الدكتور جون ·· هذا الشاب العزيز الـــذي يعتبر افضـل مخلوق في العالم » · وراحت تتحدث لهـم عـــن سبب استخدامه للعناية بطفلاتها اللواتي تعلقن به بحيث يملأن الغرفة صياحـــا واحتجاجا اذا ما اردنا استدعاء طبيب آخر وقالت « ما دمنا نثق بانفسنا فعلينـا ايضا ان نثق بالآخرين وآومأت الى ان التلميذتين بلانش وانجليك كانتا تتشكيان من مرض الشقيقة فكتب لهما الدكتور جون وصفة طبية ناجحة ·

واغلقت افواه الآباء والامهات واستطاعت التلميذتان بلانش وانجليك ان ينهيا قلقهما واضطرابهما بامتداحهما الدكتور جون وايصاله الى عنا السماء بتلك الاحاديث واقتدت بقية التلميذات بهما وقلن جميعا انهن عندما يمرضن لا يستدعين سوى هذا الدكتور دون غيره وضحكت المدام وضحك اوليـاء امورهن ايضـا والمعروف ان اوليـــاء الامـور عنـا (اللاباسيكوريين) يحبون اولادهم حبا جما ويدللونهم كل التدليل وقانون معظم العوائل هو رغبة الاطفال ولذلك فالمدام الآن كانت موضوع اعجاب لانها عملت في هذا الصدد بروحية الانحياز الى رغبـة الاطفال وخرجت بنجاح باهر واحبها الناس جميعا واعتبروها افضل مديرة ·

والى هذا اليوم لم افهم كل الفهم سبب مجازفتها بمصلحتها من اجل الدكتور جون ولكنني كنت اعرف طبعا ماذا كان يقوله الناس فالمؤسسة كلها والطالبات والمدرسون والخدم كانوا يؤكدون على انها تروم الزواج منه قريبا ولهذا سوي الموضوع بينهما ويبدو ان فارق العمر لم يشكـل عقبة في طريقهما وفي نظرهما وتوصلا الى ان يكون الامر كذلك ·

وينبغي الاعتراف بان المظاهر كانت دائما تشجع هذه الفكرة وتوافق

عليها فالمدام جنحت الى استعادة خدماته ناسية امر الشخص الذي كـــان تحت رعايتها وهو الدكتور بيلول ورتبت له زيارات شخصية لها كانـت تستبشر بها وتحس بالراحة والبهجة وتبدي له جانب العطـف والميل في سلوكها تجاهه ثم انها اخذت تهتم اهتماما بالغا بأمر ما ترتديه من ملابس فثوب الفضال الذي ترتديه النسوة عند النوم او في الصباح او عنـــد العمل داخل البيت والقلنسوة والشال الليليان لم تعد تستعملهما وكـان الدكتور جون يجدها في اول زياراته دائما في ضفائرها السمراءالمحمرة وفي ثوب حريري بالحجم الفعلي والجزمة النصفية بدلا من الخفين ايان الزينـة كاملة تماما ونموذجية ومونقـة كالوردة النضرة وقلما ظننتان القصد من ذلك كان ابعد من ان تظهر امام رجل ظريف وجميل كما لـو انها امرأة غير بسيطة والحقيقة انها لم تكن بالبسيطة قط ٠

كانت المدام تبهج القلب حتى بدون تزويق وبدون اناقة المظهـــر وكانت تشرح القلب حتى بدون عمر الشباب ونعمه البهية ولم يكن المرء يشبع من النظر اليها ، لم تكن بالرتيبة المملة ولا بالخالية من النكهة ولا بالشاحبة الوجه ولا بالمطفأة اللمعان فشعرها الذي لم يبهت لونه وعيناها بلمعانهما الازرق المعتدل وخدها بازدهاره وتفتحه الشبيه بازدهار الثمرة وتفتحها ، وكل هذا الذيوصف فيها كان يسر القلب باعتدالوباستمرار٠

ترى ؟ هل ان المدام الذي كانت تراودها رؤى انتقاء الدكتور جون زوجا لها قد اخذته الى دارها المجهز باحسن الاثاث وعرضت عليه مدخراتها وتوفيراتها التي تشكل ثروة لا بأس بها تجعله مرتاح البال طيلة حياته ؟ وهل ان الدكتور جون خامرته الشكوك بمثل هذه الرؤى ٠ لقد التقيتـه خارجا من عندها وعلى شفتيه نصف ابتسامة انزعاج وفي عينيه نظـرات الغرور الرجولية مشوبة بدغدغة التيه المبهجة .

ان الدكتور جون رغم كل مظاهره الحلوة الجميلة وطبيعته الدمثـة الطيبة لم يكن بالرجل الكامل وربما كان عاجزا جدا في تشجيعه الخبيث لاهداف لا يريد تحقيقها وانجاحها ٠٠ ترى ؟؟ هل انه لا يريد لها النجاح فعلا ؟ الناس يقولون انه ليس له مال وانه بمعيشته يعتمد على مهنتهفقط ورغم ان المدام تفوقه سنا باربعة عشر عاما فانها كانت من فرع النسوة اللواتي لا يشخن ولا يذوين ولذلك كانا في ميزان متكافيء وربما كـان

twitter @baghdad_library

هو غير عاشق ولكن كم من الناس يعشقون ؟ وكم منهم يتزوجون في هذا العالم لانهم يعشقون ؟ ورحنا ننتظر النتيجة ٠

اما لماذا انتظرنا فلست ادري كما لم ادر ما الذي كان ينتظر ويترقب ؟ والذي ادريه ان خصوصية سلوكه وتوقعه واحتراسه واهتمامه ونظرته وتلهفه لم تزل ولم تتناقص بل في الواقع زادت ولم يكن يرتاح ضمن دائرة قدرتي على التمييز والاستنباط وفي ظني انه اخذ يطوف ويتجول وراءها اكثر فاكثر ٠

وفي صبيحة احد الايام هاجم جورجيت المرض واشتد عليها شيئا فشيئا واخذت تبكي دون ان تكف عن البكاء وربما ان احدى جرعات الدواء الموصوفة لها لم تلائمها وخشيت ان يتكرر تناولها هذه الجرعة ولذلك انتظرت بفارغ الصبر قدوم الدكتور جون لاخذ رأيه في الموضوع، ورن جرس الباب ودخل هو نفسه وتاكدت من ذلك لدى سماعي صوته مخاطبا البوابة وكان من عادته التوجه مباشرة الى غرفة المربية قافزا كل ثلاث درجات سوية ويطلع بصورة مفاجئة امامنا ٠

ومرت خمس دقائق ثم عشر ولم اسمع عنه شيئا او اراه ترى ٠٠ ؟ ما الذي كان يفعله طيلة هذه الدقائق العشرة ؟ ربما انه ينتظر في الممشى التحتاني وكانت جورجيت الصغيرة تواصل بكاءها المشجي وتناشدني بعباراتها المالوفة اللاثغة المتكررة ٠٠ « انا مريضة جدا » الى ان لم يقو قلبي على تحمل الالم فاسرعت في النزول للتاكد من سبب عدم مجيئه الينا كما كان يفعل كل مرة عند صعوده ٠

ووجدت ان الممر خال لا احد فيه وقلت في نفسي « عجبا هل توارى ؟ هل هو في غرفة المدام الخاصة ؟ ذلك مستحيل لانني غادرتها وهي ترتدي ثيابها قبل وقت قصير » وارهفت اذني لاسمع ٠٠ لم يكن هناك سوى ثلاث طالبات يقمن بمهماتهن في ثلاث غرف متقاربة وهي غرفة الطعام وغرفة الرسم الكبرى وغرفة الرسم الصغرى ولم يكن بينهما وبين الممر سوى كابينة البوابة اي حجرتها الصغيرة المتصلة بالصالونات المتخذة مخدعا للسيدة لجلوسها وارتداء ملابسها (بودوار) وعلى مبعدة منها محل ادوات موسيقية في شبه كنيسة صغيرة وهناك صف كامل يحوي دزينة او اكثر من الطالبات اللواتي يفخذن درسا في الغناء وسمعت

اصواتهن وهن يغنين غناء مستقى من اغـــاني البندقية والقطعة باسم (باركارول) وما الذي سمعته عدا ذلك الغناء ؟ سمعت اشياء كثيرة على وجه التاكيد ٠

نعم ٠٠ سمعت ثلاث ضحكات استهتارية في الكابينة الصغيرة المارة الذكر القريبة من الباب الذي كنت اقف وراءه وهو نصف مفتوح وسمعت صوت رجل يتكلم ـ بلهجة ناعمة عميقة ومناشدة ـ بضع كلمات لم اسمع منها بوضوح سوى كلمات القسم والمناشدة التالية « ٠٠ بالله عليك ٠٠ اتوسل اليك ٠٠ » وبعد برهة من السكوت خرج الدكتور جون بغتة وعيناه تلتمعان كما الالتماع لا بالزهو ولا بالانشراح وخداه الانكليزيان الجميلان ممتقعان وهو بحالة ارتباك وعذاب وقلق وعلى جبينه كـل معاني الرقة والحساسية ٠

وكان الباب المفتوح بمثابة حجاب يحجبني عن الانظار اما انا فقد كنت في طريقه تماما دون ان يدري وفي اعتقادي انه مر دون ان يراني ٠ ان شعوره بالخزي والغيظ العنيف جعل نفسه تنقبض او بالاحرى ينبغي ان اقول ان شعوره ببعض الاسى او ببعض الظلم جعـــله كذلك ولا اظن تماما ان كبرياءه قد اوذي بمثل ما اوذيت عواطفـــه بقوة وقسوة عـلى ما كان يبدو لي ٠

ويا ترى من ذا الذي عذبه ؟ ومن كانت في البيت آنذاك واستطاعت بسلطانها ان تستحوذ عليه ذلك الاستحواذ وتغيبه تلك الغيبة ؟؟ المدام؟؟ ان المدام كانت في غرفتها عـلى ما اعتقـد وان الغرفة التي خرج منهـا الدكتور جون كانت مخصصة لاستخدامات البوابة دون غيرها واسمهـا (روزين ماتو) عاملة فرنسية شابة مرحة ورشيقة متقلبة الاهواء انيقة في ملبسها ومزهوة بنفسها ومرتزقة بجشع ٠ ولم يكن من المؤكد انهـــا هي المسؤولة عما اصابه من اذى وعذاب وهو ما طفح على وجهه حين مر من امامي ٠

وبينما كنت اتأمل سمعت صوتها الصافي الحاد نوعا ما يجلجل في اغنية فرنسية مرحة ترتعش داخل الباب الذي لم يزل مفتوحا فتحا جزئيا وتشككت بمشاعري فنظرت الى الداخل واذا بها هي نفسها جالسة عـلى المنضدة بلباس انيق من التماش القطني الوردي الرقيق وقلنسوة صغيرة

twitter @baghdad_library

باللون الاشقر ولم يكن في الغرفة من الاحياء سواها باستثناء سمكة بلون الذهب موضوعة في كرة من زجاج وبعض الازهار داخل القدور واشعة الشمس التي كانت تحتل بعض ارجاء الغرفة . ولـــدي الآن مشكلة .. ينبغي ان اصعد الى الطابق الاعلى لاسأل عن الدواء .

وجدت الدكتور جون جالسا عـــلى كرسي بجانب فراش الطفلة جورجيت وقد وقفت المدام قباله . وفحصت المريضة الصغيرة وهديء المها ووجدتها ممددة في سريرها عند دخولي وكانت المدام بيك تعلق على صحة الطبيب الخاصة وقالت انها لاحظت تبدلا في نظراته لا تدري انه حقيقي ام خيالي وعزت التبدل الى اعماله الشاقة المجهدة ونصحته بالراحة وتبديل الجـــو .

واصغى الدكتور اليها بطلاقة المحيا ممزوجة بضحكة عدم الاكتراث قائلا لها « انك اكثر من مربية » وان صحته على ما يرام وناشدتني المدام كالمستغيثة بي وتابع الدكتور جون حركتها بنظرة عجلى متوانية ومضجرة كما لو انه يريد ان يعبر لها بها عن استغرابه من ان تؤميء الى جهة تافهة جدا . وسألتني المدام « ما رايك يا آنسة لوسي اليس الدكتور جون اكثر نحافة واصفرارا عن ذي قبل ؟ » .

ونادرا ما كنت اتكلم بحضرة الدكتور جون بسوى الكلمات الاحادية المقطع لانه كان الشخص الذي كنت أروم دوما ان ابقى امامه محايدةلانه كان يعتبرني من سقط المتاع اما الآن فقد اصبحت لي اجازة للجواب في عبارات كاملة تعمدت ان اجعلها ذات اثر ولذلك اجبت على السؤال قائلة « يبدو مريضا في هذه اللحظة ولكن ربما كان سبب مرضه امرا وقتيا » .

وربما اصاب الدكتور جون ارتباك او حيرة اذ لا ادري كيف كـــان وقع كلماتي هذه عليه ولم اعاين وجهه على اثرها لاعرف الوقع وبدات جورجيت تسألني بلغتها الانكليزية الضعيفة ما اذا كان بوسعي ان اعطيها قدحا من الماء الممزوج بالسكر واجبتها باللغة الانكليزية وتصورت انـــه لاول مرة يلاحظ انني اتكلم لغته وقبل الآن كـــان يتصورني اجنبيـــة وينادينى بكلمـــة (مودموزيل) ويعطيني باللغـــة الفرنسية التوجيهات الضرورية الخاصة بمعالجة الطفلة وظهر عليـــه انه كـــان على وشك ان يبدي ملاحظة ولكنه فضل السكوت دون ان ادري لماذا .

وشرعت المدام تسدي له النصح اما هو فقد هز رأسه ضاحكا ونهض ودعا لها بصباح سعيد بكل ادب في جو يحيط بشخص يعرفان مزيدا من الاصغاء من قبله هو مضيعة للوقت وافساد للحال · وعند ذهابه تهالكت المدام على المقعد الذي كان جالسا عليه واسندت حنكها على يدها وكل ماكان قد طفح على وجهها من امارات النشاط والحيوية والمسودة توارى تماما وحلت محلها امارات التحجر والصرامة والعذاب الذاتي والكآبة ·

وتحسرت مرة واحدة تحسرا عميقا ورن جرس قوي لدوام المدرسة الصباحي فنهضت المدام وعند مرورها بالمزينة التي عليها مرآة نظرت الى صورتها ووجدت شعرة بيضاء طويلة مترامية على طول خصلات شعرها البندقية اللون وقطعتها بيد مرتعشة · وفي ضوء النهار الصيفي وان كان يبدو وجهها محافظا على لونه الا انه مع ذلك فقد حيوية الشباب تقريبا ثم اين الخط الكنافي المحيطي ؟··

آه ايتها المدام رغم حكمتك عرفت معنى الضعف · لم يسبق لي قط قبل الآن ان اشفقت على المدام ولكم رق قلبي لها عندما عادت من المرآة ووجهها مكفهر وكأنما عصفت بها مصيبة او داهية دهياء وذلك القنوط الشيطاني حياها تحية رهيبة ولكنها رفضت الالفة · ولكن (روزين)·· ماذا اقول عن روزين ؟·· ان حيرتي بأمرها كانت تفوق الوصف وقد انتهزت خمس فرص للمرور من امام كابينتها او غرفتها الصغيرة في ذلك اليوم بغية التأمل في سحرها وفي حقيقة تأثيرها ·

لقد كانت رائعة الجمال وشابة ترتدي البسة من صنع جيد · وان كل النقاط الفائقة الجودة كانت ادلة كافية تعتمد وتركن اليها الذهنية الفلسفية لمعرفة مدى ما تحدثه من عذاب وذهول في شاب كالدكتور جون وكنت اتمنى لو ان لديه اختا او اما تسدي له النصح وترشده الى الطريق القويم ثم رجعت عن هذا التمني قبل ان اكشف سخفه وحماقته في الوقت المناسب وقلت في نفسي اليس هناك من ينصح المدام بصدد طبيبها الشاب وما جدوى ذلك ؟

واعتقد بان المدام ربما اسدت النصح الى نفسها بأية طريقة سخيفة او مضحكة ··صحيح اذا قلنا ان ليس لديها مشاعر قوية للتغلب عليها ولا

twitter @baghdad_library

مشاعر رقيقة وواهنة تتألم من جرائها وصحيح ايضا ان لديها مهنة مهمة جدا او مصلحة حقيقية تملأفراغ وقتها وتستطيع ان تحول مجرى تفكيرها وتجزي اهتمامها وصحيح بشكل خاص انها تمتلك عقلية جيدة وحسا مرهفا جيدا لم تمتلك مثلهما اية امرأة وأي رجل وبفضل هذه الفوائد والمنافع المجتمعة لديها كانت تتصرف بحكمة .. مرحى أيتها المدام .. مرحى مرة اخرى .. لانك كالبطل (ابوليون) ناضلت وخضت حربا ضروسا وانتصرت .

الفصـــل الثـــاني عشـــر

ـ الرســالة الغرامية ـ

وراء الدار الواقعة في شارع (فوسيت) حديقة كبيرة تقع في قلب المدينة وكل ما اذكره عنها الى يومنا هذا انها حديقة بهيجة غير ان الوقت كالمسافة يضفي على بعض المشاهد تأثيرا مريحا حيث تحيط تلك الحديقة حجارة وحائط اجرد وحجارة رصيف ساخنة وما انفس ما كانت تبـــدو فيها احدى الشجيرات وما احلى قطعة مزروعة ومسيجة من الارض في تلك الحديقـــة ·

وهناك تقليد متوارث عن ان دار الدام بيك كان في الايام الخوالي ديرا او رهبنة ولا ادري مدى الاعوام التي انصرمت عليه ولكن المفهوم انها بلغت بعض القرون قبل ان تتسع المدينـــة وتنتشر في ذلك المكان الفسيح وعندما كان هذا المكان ارضـــا محروثة وطريقا طويلا مشجرا منعزلا يحتضن بناية دينية سرت اشاعات مفادها ان شيئا ما قد حدث في ذلك الموقع اثار رعبا وان هنالك قصة شبح متوارثة غامضة عن وجـــود راهبة بيضاء وسوداء تظهر في بعض ليالي السنة وانها شوهدت بجـوار الموقـــع ·

وقصة الشبح يعود تاريخها الى بعض اجيال انصرمت اذ توجد هنالك بيوت تحيق بكل ارجاء المنطقة وآثار قديمة من بقـــايا الدير على شاكلة اشجار قديمة هائلة الحجم للفاكهة موقوفة للكنيسة ومن بينها شجرة الشيخ الجليل متو صالح (الذي عاش ٩٦٩ عاما كما جـاء في الكتاب المقدس العهدين القديم والجديد) وهذه عاشت لتثمر الاجاص علما بأن هـــذه الشجرة قد تيبست وذوت عدا بعض اغصانهـا التي لم تزل في الربيـــع تثمر الحلوى الثلجية وهي الحلوى التي تعد من بيـاض البيض والسكر ولب الفاكهة وفي الخريف تنتج العسل ·

وانت اذا حفرت الارض المطحلبة بـين الجـذور الظاهـرة نصفيا

twitter @baghdad_library

ستلاحظها دبقة ملساء صلبة وسوداء اللون . وتقول الاسطورة غير المؤكدة وغير المعتمدة رغم انتشارها في كل مكان ان ذلك كان مدخلا نقبو او سرداب متوغل عميقا تحت تلك الارض التي ينمو الحشيش على سفحها وتتفتح الازهار وتحفظ عظام فتاة في جدث لارض رهبنة تعود لمؤسسات العصور الوسطى وكانت هذه الفتاة قد قبرت فيهـا وهي حية لخطيئة ارتكبتها عندما نكثت بقسمها او وعدها وكان الناس يرتعدون خوفا من ظلها . وعبر عصور طويلة تحول هيكلها فيها الى غبـار وتحول ثوبها الاسود وحجابها الابيض وعيناها الجزعتان الخائفتان الى سخرية الظلال وضوء القمر كلما تموج داخل الريح الليلية عبر أيك الحديقة واجامها .

كان لتلك الحديقة القديمة العهد ـ بمعزل عن نفاياتها الرومانتيكية ـ حقائقها السحرية ففي كل صباح من اصباح فصل الصيف كنت انهض مبكرة للتمتع بسحرها انا وحدي وفي كل امسية من امسياته كنت اتهادى واشي بطيئا على موعد لقاء مع القمر الطالع واتذوق لذة قبلة مع نسيم المساء او اتغيل ـ دون ان استشعر ـ بلة الندى النازل المنحدر على العشب المخضوضر وكانت المجازات ملأى بالحصباء البيضاوية اللـون وروائح النباتات وعبيرها العذب تملأ ارجاء اشجار الفواكه المتعنقدة وتتجمع حول جذورها التي تمج بنباتات الكثوث والحامول الضارة المرتعشة من وهن الشيخوخة وهناك سرير كبير يعلوه ويغطيه ظل شجرة الاقاقيا وهناك كوخ صغير تلتمس فيه الراحة بين اشجار الكروم الممتدة على طول حائط عال وعادي اللون تجمع محاليقها في عقدة او انشوطة جمالية تعلق عناقيدها بغزارة رائعة حول موضع مفضل تتلاقى معها نباتات الياسمين واللبلاب وتجمعها في اتحاد وثيق العرى .

ومن الطبيعي ـ ان تصبح الحديقة في رابعـة النهار حيث يسود مدرسة المدام بيك الكبيرة آنذاك هـرج ومرج من جـراء تجمع طالبـات المدرستين الداخلية والخارجية وانتشارهن وتنافسهن مع طلاب الكليـة المجاورة في الحركات الرياضية كالشهيق والزفير مكانا لا يمكن انتجاعه قط ولكن عند غروب الشمس واخذ التحية في المدرسة وذهاب الطالبات الخارجيات الى بيوتهن والطالبات الداخليات الى ملاذهن في داخل المدرسة يستطاب الذهاب الى الحديقـة وارتيـاد مماشيها الهادئة التي تكتنفها

الاشجار وسماع جلجلة اجراس كنيسة القديس يوحنا المعمدان ورنينها العلو الماجد ·

كنت امشي هكذا في احدى الامسيات وشعرت بانني اسيرة الشفق عند ميلان الشمس الى الغروب واسيرة الهدوء المتعمق باستمرار والبرودة اللطيفة البهيجة وانفاس عبير اريج الاوراد لتيلا تقوى الآن اشعةالشمس على اختراقها · ووجدت على ضوء شباك كنيسة صغيرة ان جمهور المصلين تجمعوا هناك لتقديم فروض صلوات القداس ·

وبعد لحظة من الزمن بقيت انا وعزلتي الهامسة وقمر الصيف · اظل هادىء الآن تمام الهدوء وبعد حوالي ربع ساعة اخرى لن تشعر بان وجودك غائب فحرارة النهار وضوضاؤه قد اتعبتك فتمتع الآن بهـــذه الدقائق الثمينة · لقد كانت ظهور البيوت المبنية في الحديقة الخالية من النوافذ ولاسيما احد الجوانب بتمامه مطوقا بمؤخره خط طويل من المباني المعاندة للمدرسة الداخلية التابعة للكلية المجاورة ·

وكانت هذه المؤخرة مكونة كلها من الحجارة العديمة المتعة العديمة التنوع باستثناء بعض الكـــوى البسيطة العالية المفتوحة من غرف نـــوم الخادمات ونافذة بابية من الطابق الاسفل قيل انها بنيت لتبين انها غرفة الاستاذ ومكتبه الدراسي ومع انهذا كان ممشىمتوازيا مع الحائطالعالي لذلك الجانب من الحديقة الا انه كان محرما على التلميذات دخوله بحيث سمي (بالطريق المحرم دخوله) وكل تلميذة تحدثها نفسها في ان تخرق هذا النظام كانت تعرض نفسها لعقوبة صارمة بموجب اوامر المدام بيك وكان بوسع المدرسين ان يرتادوا المكان بلا عقوبة ولان الممشى كان ضيقا والشجيرات المهملة تنمو هناك بحيث تكاثفت اغصانها كل التكاثف مـــن جميع الجوانب فان كل تقدم متمعج من فوق سقف الاغصان والاوراقالتي لا تقوى اشعة الشمس على اختراقها كان محالا الا في حالة عـــدم وجود شجرة الفبيراءباثمارها المربعة الاشكالبحيث ان هذا الممشى لم يكنبالوسع دخوله الا فيما تدر حتى في ضوء النهار اما بعد ظلمة الليل فقد كـــان بمنأى عن الجميع ·

ومنذ الاول راودتني رغبة مغرية لان اجعل من نفسي مستثناة عن تلك القاعدة ، قاعدة تجنب ذلك المكان واستمالتني عتمة الممشى·لفوكنت

twitter @baghdad_library

في السابق اخشى ان ابقى وحيدة في اي مكان ولكن شيئا فشيئا الفني الناس والفوا عاداتي والوان خصوصياتي المتأصلة في سجيتي وان كانت ـ بالتاكيد ـ لا تثير اهتمامات الآخرين بغرابتها ولا تؤذي الاخرين وانما كانت جزءا من اعماق نفسي التي ولدت فيها لا يمكن ان تنفصم عراها عن شخصيتي ·· بعد ذلك اصبحت بالتدريج من سالكات هذا المسى الضيق وجعلت من نفسي بستانية بعض الازهار التي لا لون بديع لها تنمو بين شجيرات متلاصقة ومتكاثفة ·

وطهرت الارض من بقايا اوراق فصول الخريف السابقة ومن المقاعد الخشبية الريفية البسيطة الموجودة في النهاية القصوى وطلبت من الطباخة (فوتون) سطلة مياه وفرشة الاشجار الخفيفة ونظفت ذلك المقعد وعاينتني المدام وانا اشتغل وابتسمت ابتسامة الاستحسان ولا ادري ما اذا كانت ابتسامتها خالصة ام لا الا انها بدت لي خالصة على ما كان يظهر من قولها هذا « انظروا ما احسنها ترتيبا وذوقا هذه الآنسة لوسي · انك مولعة بهذا الطريق ايتها الآنسة ·· اليس كذلك ؟ ·· » وقلت لها « نعم لانه هادىء وظليل » وصاحت قائلة « ما اطيبك واطيب سريرتك وطبيعتك ؟ » ·

وراحت توصيني برفق ان اواصل مثل هذا العمل قدر امكاني قائلة لي انني ما دمت غير مكلفة بمراقبة الطالبات والاشراف عليهن فلا لزوم لي للسير معهن وملازمتهن وان علي استدعاء طفلاتها ليتكلمن اللغة الانكليزية معي ههنا · وفي تلك الليلة كنت جالسة على المقعد الخفي المصنوع من الفطريات والمواد العضوية اتسمع الى الاصوات القادمة من جوانب المدينة القصية · وثبت ان الضوضاء لم تات من الاماكن القصية وانما من المدرسة الكائنة في وسط المدينة التي لا تبعد عن هذه الحديقة سوى مسافة خمس دقائق قامت عليها ابنية فخمة لا تزيد على العشرة قصور والى مقربة منها شوارع واسعة مضاءة اضاءة نيرة وتعج في مثل ذلك الوقت بالحياة فالعربات تسير فيها متجهة صوب اماكن الحفلات الراقصة او الى دار الاوبرا ·

ان نفس الساعة التي دق فيها ناقوس الغروب لرهبنتنا واطفأ كل قنديل واسدل كل ستارة حيال السرير دق للمدينة المبتهجة داعيا الناس

للتمتع بمسرات الاحتفالات ولم افكر بمثل هذا التناقض ذلك ان ليس في طبيعتي من غرائز المرح والابتهاج سوى القليل فحفلات الرقص والاوبرا لم اشاهدها في حياتي قط وان كنت في الاغلب قد سمعت بها وصفا حتى انني هويت مشاهدتها ولم تكن هذه الهواية هواية واحدة تريد المشاطرة في البهجة بمجرد انها تصل اليها او هواية واحدة تشعر بانها تستطيع ان تتالق في بعض مجالات التالق البعيدة بمجرد وصولها شاقة طريقها الى هناك ولم تكن بي رغبة او شوق للوصول ولا جوع للتذوق انما مجرد رغبة هادئة للتفرج على شيء جديد ٠

كان القمر طالعا في السماء ولم يكن بدرا كاملا وانما هلالا حديث الهل وجدته من بين فراغات الغصون المتعالية فوق راسي ولم يكن لا هو ولا النجوم المرتبة وراءه بالغرباء عني اسوة بالكل الذي كان غريبا عني بتفاصيله ذلك ان لطفولتي عهدا به وبالنجوم ولطالما عاينت تلك العلامه الذهبية داخل الكرة المظلمة في قوسها المنحني المائل الى الخلف حيث اللازوردي وازرقاق السماء الصافية ٠

ايه ٠٠٠ يا طفولتي ٠٠ ان لدي مشاعر كامنة ٠٠٠ هامدة ٠٠٠ ماحييت٠٠ضئيلة وقليلة لو تكلمت ، باردة لو نظرت ٠ وعندما افكر في ايامي الماضية استطيع ان اشعر بالحاضر انه افضل من ان يكون رواقيا واستطيع ان افكر ٠٠ بمستقبل كمستقبلي ٠٠ انه ميت واستطيع ان اشعر بالجمدة او الاغماء التخشبي والنشوة الميتة واراني اقيد نزوة طبيعتي بالجهد الجهيد في ذلك الوقت اتذكر تمام التذكر ما يستجد من بعض ظواهر الجو فمثلا كنت اخاف مثل هذه الظواهر لانها كانت توقظ الكائن الذي كنت اهدهده دائما وتستثير صراخ المتوسل وهو ما كنت عاجزة عن تلبيته ٠

وفي احدى الليالي هبت عاصفة رعدية وكان اعصار برق ورعد ومطر حركنا ونحن في افرشتنا ونهض المصلون من نومهم مذعورين وصلوا لقديسهم اما انا فقد استحوذت علي العاصفة استحواذا وطغى علي طغيانها فنهضت بصعوبة انشد الحياة ورتديت ملابسي وزحفت خارج النافذة البابية القريبة من فراشي وجلست على افريزها واسندت قدمي على سقف اوطا بناية مجاورة ٠

twitter @baghdad_library

كان الجو رطبا وموحشا ومخيفا وكان الظلام دامسا وتجمعت الطالبات داخل المبنى المهجعي واحتقن بالقنديل الليلي ، آحتقن به مذعورات ومرعوبات يصلين باصوات عالية ولم استطع الدخول اذ كانت عندي بهجة البقاء مع الساعة الجامحة الهائجة السوداء الملأى بهدير الرعود المجلجلة القاصفة مما لا يمكن مقاومتها ولا يمكن ان تفي وصفها أية لغة وهبت للانسان ٠٠ لقد كان بهاء مخيفا للغاية ٠٠ مشاهدة الغيوم وهي تنشق وتتفتت أربا أربا بصواعق بيضاء عمياء ، وظللت مدة طويلة هكذا اشعر بالالم وبعد ٢٤ ساعة لم ادر من الذي اخرجني من موضعي ذاك وقادني مرة الى فوق ومرة الى امام لاجد نفسي فيما بعد في فراشي ولتملاني حلاوة الليد الندية بالامل ٠

لقد سمعت في اليوم التالي صوتا يخرج من بين السكون المطبق لركام حجارة الحديقة التي كانت تشرف على الممشى والاشجار والحائط العالي ومن ناحية نافذة بابية ـ علما بان الشبابيك هناك كانت نوافذ بابية تنفتح على المفاصل ٠٠ لقد سمعت صرير الباب ٠ وقبل ان يتاح لي الوقت للمعاينة لمعرفة من اي مكان صدر الصرير اهتزت شجرة من فوق رأسي كما لو ان قذيفة اصابتها ووقع شيء ما بالقرب من قدمي ٠

وكانت ساعة كنيسة القديس يوحنا المعمدان تدق التاسعة بعد ان انجلى النهار ولكن لم يكن الجو مظلما بفضل نور الهلال الضعيف ، بيد ان الحمرة العميقة لتلك النقطة الكائنة في السماء حيث آخر نور الشمس الغاربة وحيث الفسحة البلورية للفراغ الوسيع ادامت شفق الصيف وحتى عندما كنت امشي في الظلام كنت اقوى ـ عند دنوي من فتحة ما ـ ان اقرأ طباعة من نمط صغير ٠

وكان من السهولة بمكان انذاك ان اعاين ان القذيفة كانت صندوقا ٠٠ صندوقا صغيرا من العاج الابيض الملون وقد انفتح غطاؤه الراخي بيدي ووجدت في داخله الوانا بنفسجية تغطيها تغطية كثيفة قطعة مطوية طيا جيدا من الورق القرنفلي اللون ومذكرة وعنوان الفستان الرمادي وكنت انا بالفعل ارتدي فستانا فرنسيا رمادي اللون ٠

حسنا ٠٠٠ هل هذه رسالة غرامية ؟ هل هو شيء سمعت به والى الآن لم انل شرف رؤيته واستعماله ؟ هل هو هذا النوع من البضاعة التي

امسك بها الآن ما بين اصبعي وابهامي ؟ تلما حلمت به ولو للحظة واحدة؟ هل هي ملتمسة شاكية ام معجبة ؟· انافكاري وظنوني لم تصل الى حقيقة الامر · كل المعلمات يحلمن بعاشق او محب ولكنها كانت طبعا من نوع الساذجات اللواتي سرعان ما يصدقن ويؤمن بازواج لهن في المستقبل · المستقبل ·

وكل من الطالبات بسن تزيد على الاربعة عشر عاما يعرفن ان للواحدة منهن عريسا مستقبليا مأمولا به وهناك ثلاث طالبات كان والدا كل منهن قد اعتبرها مخطوبة منذ صغرها لعروسها الصغير ولكن فيما يخص عالم المشاعر والامال التي تفتحها مثل هذه الاحتمالات والنظرات العامة فليس لظنوني وتأملاتي وافتراضاتي ما يبرر لها التطفل ·

واذا حدث لبعض المعلمات الآخريات ان ذهبن الى المدينة او تنزهن في الجادة التي تكتنفها الاشجار من الجهتين او حضرن قداسا فمن المؤكد انهن يلتقين ببعض افراد الجنس الآخر ويطمئن ذكاؤهن ونظراتهن بان لديهن قوة الضرب وبان لديهن جاذبياتهن ولا اقول ان تجاربي انطبقت مع تجاربهن في هذا الصدد او ضارعتهافقد سبق لي ان ذهبت الى الكنيسة وتنزهت كثيرا في مناطق النزهة وانا جد موقنة ان لا احد اهتم بي او مال الي ·

ولا توجد فتاة او امرأة في كل شارع (فوسيت) لم تدع يوما انها حدجت بنظرة اعجاب شعاعية من عيني طبيبنا الشاب في هذه المرة او تلك وبكل تواضع اراني مضطرة لان استثني نفسي من بينهن · وبقدر ما يتعلق الامر بي كانت عينا الدكتور جون بريئتين وساكنتين سكون السماء الزرقاء ·

وحدث انني سمعت الآخرين يتكلمون واندهشت من بهائهن واطمئنانهن ورضاهن الذاتي ولم احتمل مؤونة النظر الى الطريق الذي يسلكنه دون غيره ·· اذن لم تكن هذه هي الرسالة الغرامية بل كانت على العكس مما كنت اظن حين فتحتها بهدوء واليكم ترجمتي لها من الفرنسية الى الانكليزية : وهذا عنوانها :

ملكة احلامي ··

اهدي اليك الوف والوف التشكرات لعهدنا الذي حفظتيه ووعدنا

twitter @baghdad_library

الذي وفيت به حيث بالكاد صدقت بأنه يتحقق · اعتقد انك ـ في الحقيقة ـ في موضع التندر ثم يبدو انك تظنين ان هذا العمل تحف به الاخطار وان الظرف غير مناسب والمشى منعزل تماما ، وغالبا ما قلتان ذلك التنين الطبيب الانكليزي يلازمك ويتردد عليك (وليعذرني القارىء في اعتدالي في ترجمة هذه الرسالة وحجبي لبعض ما جاء فيها من لغتها الاصلية) ·

وجاء في هذه الرسالة الثمينة المتدفقة بالعواطف « انت تدرين ان الصغير غوستاف نقل الى غرفة المدرس بسبب مرضه ،تلكالغرفة المنضلة التي تشرف نافذتها الشبكية على مكانكم الشبيه بالسجن وانا عمه افضل الاعمام في العالم سمح لي بزيارته · لقد كنت ارتعش ايما ارتعاش وانا ادنو من الشباك وانظر منه الى جنة عدنك ·· جنة عدن لي وصحراء قاحلة بالنسبة لك ولكم خشيت ان الاحظ مكان التنين الفارغة او الاحظه هو بالذات ·

لقد كان قلبي ينبض بالفرح عندما لمحتك من خلال فتحات الغصون التي كنت احسدها لانها اقرب اليك مني · لقد لمحتك في الحال ولمحت ومضات قبعتك القشية الجميلة وتموجات ورفرفة فستانك الرمادي وهو الفستان الذي اميزه من بين الوف الفساتين · بالله عليك يا ملاكي لماذا لم تنظري فوقك وقسوت في انكارك على شعاعة من اشعة تينك العينين الفاتنتين الجديرتين بالعبادة · ان نظرة واحدة كانت كافية لتنعش روحي انني اكتب اليك هذا في عجالة محمومة في وقت يفحص الطبيب غوستاف الصغير وانتهزت الفرصة فاودعت هذه الرسالة في علبة الجواهر الصغيرة مع باقة من احلى الاوراد المتفتحة وان كانت دونك حلاوة يا حوريتي يا ·· كل سحري ·· »

المخلص لك الذي تعرفينه معرفة جيدة

وكان تعليقي على هذه الرسالة « وددت لو انني عرفته » وهذه الرغبة في معرفته تشير اشارة الى الشخص المخاطب في هذه الوثيقة المختارة اكثر من الشخص الكاتب ذاته وربما كانت من خطيب احدى المطالبات المخطوبات وفي هذه الحالة لا يوجد اي ضير أو أي اذى مرتكب

او مقصود اذا استثنينا بعض ما جاء فيها من شذوذيات • ان لعدة فتيات اخوة واولاد اعمام في الكلية المجاورة ولكن ذكر القبعة القشية والنسستان الرمادي هو دليل محير جدا ذلك ان القبعة القشية متداولة بين التلميذات تقي رؤوس الفتيات وتشمل العشرات منهن ومن بينهن انا نفسي امـــا الفستان الرمادي فمن الصعب ان يقدم دليلا اكبر من دليل القبعة والمدام بيك ذاتها ترتدي فستانا رماديا في هذه الساعة بالذات وهناك مدرسة اخرى وثلاث من الطالبات في المدرسة الداخلية يرتدين الفساتين الرمادية بنفس درجة اللون ومن نفس النسيج القماشي الذي ارتديه انا نفسي فهو من نوع اللبس اليومي الرائج كموضة ذلك الوقت •

وعندما اخذت اتامل ادركت ان علي ان ادخل لان الاضواء المتحركة داخل المهجع بينت بأن الصلوات انتهت وان التلميذات آوين الى فراشهن وبعد ان انصرمت نصف ساعة اخرى اغلقت جميع الابواب وانطفأت كل الاضواء وبقي باب الغرفة الامامي مفتوحا لكي تدخل الى البيت الساخن برودة ليلة الصيف•ومن كابينة البوابة القريبة شع ضوء المصباح مظهرا المجاز الطويل الذي فيه بابان لغرفـــة الاستقبال بمصراعيهما في احدى جانبيه وباب الشارع الكبير الذي يغلق المجاز الضيق المقابل للطريق •

ورن الجرس توا رنينا سريعا ولكن لا عاليـــا ، رن رنينا حـذرا وسمع نوع من همس المعدن المنذر فوثبت (روزين) وثبة سريعة مفاجئة وخرجت من كابينتها سراعا لتفتح الباب وقد وقف معهـــا الرجل الذي سمحت له بالدخول مدى دقيقتين ليحدثها وبدا ان هنالكمعارضة وتأخيرا وكانت (روزين) قد ذهبت وبيدها المصباح الى باب الحديقة ووقفت على الدرج رافعة مصباحها لتتأكد مما هـو حولهـا وصاحت بضحكة مغناجة « ما هذا ؟ لا يوجد احد ؟ يالها من فضيحة ! » وسمعت صوتا متوســلا اعرفه حق المعرفة قائلا لها « دعيني امر مدى خمس دقائق فقط •• »•

وبان في الدار بعد ذلك شبح مألوف طـويل القامـة ممتلىء الجسم نعرفه نحن قاطني شارع (فوسيت) واخذ يمشي بخطوات سريعـــة بين الافرشة والممرات ومن الطبيعي ان الذي فعله انتهاك لحرمـة البيوت • رجل يتسلل الى ذلك المكان في تلك الساعة غير أنه كـان يعرف ان لـديه امتيازا وان الليل الصدوق يأتمنه واخذ يتلوى ويتمعج بـــين المجازات

twitter @baghdad_library

والمماشي موزعا نظراته الى هذا الجانب وذاك بحيث تاه بين الشجيرات واخذ يدوس على الاوراد ويكسر الاغصان بحثا عما يريده ودخل في آخر الامر « الممشى المحرم » ٠

وهناك التقيته كشبح من الاشباح وقلت له « لقد عثرنا عليه يا دكتور » ولم يسأل عن الذي عثر عليه لانه ادرك بعينه الفاحصة بسرعة انه كان في يدي وقال لي وهو ينظر الي كما لو انني في الحقيقة وحش مخيف « لا تفشي سرها وتخونيها » وقلت له « هل في سيمائي شكل خيانة ؟ » ٠٠ ثم انني لا استطيع ان اخون من لا علم لي به ٠ اقرأ الملاحظة وسترى ان الذي تريد الكشف عنه غامض » ٠

وقال لي « ربما قرأتيها » وقلت لنفسي وأنا لا ازال غير مصدقة بانه هو الذي كتبها اذ ليس هذا اسلوبه ثم انني كنت حمقاء حين تصورت ان هنالك نوعا من الصعوبة في تسميتي بتلك الاسماء ٠ لقد لاحظت ان نظراته كانت تبرئه وزاد انفعاله كلما كان يقرأ وندت عن شفتيه الكلمات التالية « هذا اكثر مما يمكن احتماله ٠ انه ينم عن القسوة والاذلال » وفي رأيي ــ بعد ان نظرت الى محياه والانفعال الذي يسري عليه ــ ان ذلك كان قسوة عليه فعلا سواء كان هو الملوم ام لا ويبدو ان هنالك شخصا اخر هو الذي ينبغي ان تقع اللائمة عليه ٠

وسألني « ما الذي ستفعلينه بهذا ؟ هل ستعلمين المدام بيك بما وجدتيه وتسببين فتنة وفضيحة وتعكرين صفو الجو ؟٠٠ » وفي رأيي ان علي ان اخبر عن ذلك مضيفة بأن في اعتقادي ان لا فتنة او فضيحة ستنجم عن ذلك لاسيما وان المدام اكثر حكمة وفطنة من ان تثير ضجة حول قضية كهذه تتعلق بمؤسستها التعليمية ذاتها ٠

وظل يخفض بصره وينظر الى الارض مفكرا ٠٠ لقد كان اكثر خيلاء واكثر جدارة بالاحترام من ان يستعطفني في موضوع يتطلب واجبي ان اخبر عنه واردت ان اقوم بالعمل الصحيح دون ان اغمه او اؤذيه وفي ذلك الوقت تماما اخذت (روزين) تنظر من الباب المفتوح دون ان ترانا اما انا فكنت اراها بوضوح من بين الاشجار ٠٠ ارى ماكانت ترتديه من فستان رمادي كفستاني ٠

وهذا الظرف لو اخذته مع مجموع الاعمال والاحداث الاخرى السابقة لتراءى لي انه مهما كانت القضية مدعاة للاسف ومثيرة للشجن فانها قضية ليس لي اي التزام مهما كان لاشغل نفسي بها ولهذا قلت للدكتور جون ٠٠ « اذا استطعت تطميني بأن لا تلميذة من تلميذات المدام بيك متورطة في هذه القضية اكون سعيدة جدا في ان ابقى بعيدة عن كل تدخل فيها فخذ علبة الجواهر هذه مع باقة الورد والرسالة الغرامية ، اما انا فقد نسيت القضية كلها تماما » ٠

وقال همسا ويده ممسكة بالذي سلمته له ويوميء باصبعه من بين الاشجار ٠٠ « انظري الى تلك الجهة » ونظرت ووجدت المدام في شالها وفي ملابسها الملتفة على جسمها وفي خفيها وهي تنزل الدرجات بهوادة وتتسلل وتختلس النظر كالقطة حول الحديقة وفي دقيقتين كادت تصل الى المكان الذي كان فيه الدكتور جون واقفا الى جانبي ٠ واذا كانت المدام كالقطة فانه كان كالفهد في خفة الحركة متى شاء ٠

وكان يراقبها وعند تحولها الى زاوية قطع الحديقة بقفزتين لاصوت فيهما وبعد ظهورها مرة اخرى كان قد غاب عن البصر واعانته روزين في جعل الباب حاجزا في الحال بينه وبين من تهم باصطياده وكان بوسعي ان اختفي ولكنني فضلت ملاقاة المدام ملاقاة صريحة ٠ومع انني غالبا ماكنت معتادة على تمضية وقت غروب الشمس في الحديقة الا انني حتى ذلك الوقت لم اتأخر كثيرا ٠

وبعد ان تأكدت ان المدام قد اخطأته جاءت تفتش عني عازمة على الانقضاض على المهمل لواجبه على حين غرة وتوقعت منها ان تلومني ولكن لا ٠٠ لم تفعل ذلك لانها كانت ملآى بالطيبة ولم يبد منها اي اعتراض او اي استغراب وببراعتها تلك التي لا اعتقد بأن هنالك من يبذها فيها ظهر منها ان لديها ذوقا شعريا فقد هتفت وهي تنظر الى النجوم بعد ان اختفى القمر وراء البرج العريض لكنيسة يوحنا المعمدان ٠٠ ما اجمل هذه الليلة ٠٠ وما اروعها وما ارق نسيمها ٠٠ » ٠

وبدلا من ان تطلب مني الانصراف الى غرفتي اخذتني معها في بعض دورات وانعطافات داخل الممشى الرئيس الذي تحيط به الاشجار من الجانبين وعند دخولنا اتكأت بدماثة وبعذوبة المعاشرة على كتفي لتقوى

twitter @baghdad_library

بذلك على صعود الدرجات وعند دنو لحظة الافتراق قربت خدها من شفتي وقالت لي بعطف « ليلتك سعيدة وارجو لك نوما هـــادئا » ووجدتني ابتسم وانا في فراشي مستيقظة ابتسم لحماستها واستمتاعها ودماثة خلقها بالنسبة للشخص الذي تعرفه وهي علامة اكيدة بأن ريبة ما او شكا مـــا يختمر بنشاط في دماغها فمن فتحة الملاحظات او ذروتها ومن فجوة غصن شجرة او نافذة مفتوحة كانت تلاحظ دون ريب من نظرة بعيدة او قريبة مضللة او مرشدة كل ما يدور من اعمال في اعماق الليل ٠

ولما كانت خبيرة في فن المراقبة كـــان امرا شبه مستحيل ان ترمي عليبة جواهر في حديقتها او ان يقوم متطفل بالسير في ممشاها ليجدهـا دون ان تدرك ـ من جراء غصن متحرك او ظل سار او وقع اقدام غـير اعتيادي وغير مألوف او هفيـف الريح الهادىء علما بأن الدكتور جـون وان تكلم معي بصوت واطيء فان همهمـة صـــوته عمت ارض المؤسسة الرهبانية كلها فقد ادركت المدام أو انها شكت باحـــداث جنسية جرت بشكل استثنائي في ارض مؤسستها اما كيف جرت تلك الاشياء فانها لم تشاهدها بأم عينيها ولم تقو في ذلك الوقت على اكتشافها ولكنها كانت تعتقد بوجود خيوط مؤامرة ملتاثة كانت تتوق الى حل عقدتها ٠

الفصل الثالث عشر

ـ عطسة مشؤومة في غير مكانها ـ

بعد مرور ٢٤ ساعة على المشهد الصغير الذي مر ذكره في الفصل الماضي كنت احيانا ابتسم ـ ولا اضحك ـ عند ذكراي للمدام ، ان بلدة (فيليت) يسودها مناخ متبدل غير رطب ككل بلدة انكليزية وقد اعقب غروب الشمس الرائق ريح ليلية عالية الهبوب واضحى اليوم التالي كله وسط زوبعة جافة مظلمة غامت بها السماء دون ان تمطر وامتلأت الشوارع بالرمل والتراب واندفعت دوامتها سريعـــا من الشوارع العريضة التي تكتنفها الاشجار ٠

ولا ادري كيف ان الجو المحبب لدي اغراني نفســـه بامضاء تلك الامسية المخصصة للدراسة والاستجمام بنفس الاماكن التي امضيت بهـا وقتي يوم امس وهي المشى والمجاز الضيق الشجر وايك الحديقة التـي استثارت في اهتماما جديدا سارا وبهيجا ٠ ان عزلتها اضحت لدي الآن قيمة وثمينة وهدوئها غير مستقر وغير آمن ٠ ان تلك النافذة البابية التي امطرت رسائل غرامية وحلى افسدت المكان المنعزل الـذي كان ذات مرة عزيزا على القلب ٠

وفي مكان آخر اخذت عيـــون الاوراد ترى ما ترى واخذت عجـر النباتات وعقدها وسيقان الاشجار تصغي وتنصت بآذان التجسس وهناك بعض النباتات التي كان الدكتور جون قد داسها بقدميـه دون ان يدري حين كان يقوم بحملة تفتيش وبتقدم سريع يتسم بقلة الاكتراث وهـذا ما اردت تقويمها وسقيها وانعاشها بعد الذي اصابها من دوس قدميه الذي وجد له اثرا ايضا في مسكبة المزهر وهذه رغم الريح الهابة بقوة كنـت اجد لحظة فراغ لازيل عنها آثار الاقدام في الصباح المبكر جدا قبل ان تكتشف امري عيون الرقيبات ٠ وبنوع حزين من القناعة جلست على مرحلتي في حين جلست التلميذات لمراجعة دروسهن المسائية اما المدرسات الأخريات فقد تناولن اعمالهن الخياطية التطريزية (شغل الابرة) ٠

twitter @baghdad_library

لقد كان مشهد الدراسة المسائية استذكاريا او مراجعة في شقة بنائية اصغر من اي صف من صفوف الدراسة الثلاثة بكثير حيث لا يسمح قط بدخول هذا المكان الا للتلميذات الداخليات وعددهن عشرون فقط وهناك مصباحان مدليان من السقف الذي وضعت تحته منضدتان وهذان المصباحان لا ينيران الا عند الغسق وانارتهما اشارة تعني وجوب وضع الكتب المدرسية جانبا وابداء التعرف المهيب واحلال الصمت العام محل كل شيء وبعدها المباشرة بالقراءات ذات المسحة الدينية المستهدفة تهذيب الجسد والفكر تهذيبا كليا واذلال الرشد اذلالا مفيدا ومثل هذه الجرعة مخصصة للفطرة السليمة والبديهة التي تقوى كل تلميذة على هضمها في وقت فراغها ثم الازدهار والتنامي بالقوة التي تقتدرعليها بشكل افضل.

والكتاب المقرر في هذا الخصوص لا يتبدل وعند الانتهاءمنه يراجع مرة اخرى . لقد كان كتابا جليلا مهيبا قديما كالتلال ورماديا كبهو البلدة ورواقها . كان يحوي اقاصيص القديسين الاسطورية واقاصيص اضطهادات روما لهم . وعند انتهاء الدراسة جاءت روزين لانارةالمصابيح فانطلقت خارج الغرفة بسرعة ثم تباطأت في مشيتي منتهزة تلك الفرصة المؤاتية بعد انقطاع الضجة وسيادة السكون وخروج الطالبات من الصف بعدان حفظن كتبهن تلك .

وعندما تواريت ، دخلت وسط الظلماء اذ لم يكن من الجائز آنذاك اشعال الشموع اما المدرسة التي انهت التدريس الاستذكاري فلم يرق لها الا التاعة المظلمة والصف والفراش كملجأ لها . وفي الشتاء كنت اقصد الصفوف الطويلة وامشي بسرعة فيها ذهابا وايابا لادفيء نفسي وكنت محظوظة في حالة سطوع القمر وظهور النجوم فقط علما بأنها ما ان تظهر حتى تعود الى ايماضاتها الخافتة او تغبو اضواؤها كليا . وفي فصل الصيف لم يكن الجو مظلما تماما وكنت اصعد الى الطابق الاعلىالى مكان مهجعي الطويل وافتح النافذة البابية وكانت تلك الغرفة تضيئها خمس نوافذ بابية كل منها بحجم الباب الكبير وأملت رأسي شاخصة ببصري صوب المدينة الكائنة وراء الحديقة واصغيت الى موسيقى الفرقة من المتنزه او ساحة القصر متأملة تأملاتي الخاصة وعائشة عيشتي الخاصة في عالمي الظلي الخاص الهادىء .

وفي تلك الامسية صعدت السلم ودنوت من المهجع وفتحت بهدوء الباب المبقى موصدا دائما وهو ككل الابواب الاخرى في الدار يدور بلا ضجيج او صوت على مفاصله المدهونة دهنا جيدا وقبل ان انظر شعرت بأن الحياة كانت في الغرفة الكبرى الفارغة على الاكثر المجردة من اية حركة او نفس او نأمة • ولم تكن العزلة في الدار وانما كانت هنالك مجموعة من افرشة (الملائكة) البيضاء بلفة الشعر تبدو للعيان جمعاء لدى اول نظرة • وكل الافرشة كانت فارغة فما من نائمة من النزوات على اية منها •

وسمعت صوت ساحبة او جارورة تفتح بحذر ويصل الى اذني صوت انفتاحها الضعيف قليلا صوب احد الجانبين ووقع ناظري على مجال فارغ لا تعيقه الستائر المسدلة والآن كنت قد توليت فراشي الخاص والى جانبه مزينتي الخاصة وعليها علبة مواد الشغل المغلقة وتحتها الجاورات المسدودة • وعاينت حيال هذه المزينة جسما نسويا بدينا وقصيرا وأموميا بشالها المحتشم وقلنسوتها الليلية النظيفة للغاية وهي منهمكة في العمل ويبدو عليها أنها تقوم لي بخدمة لطيفة هي ترتيب قطعة الاثاث وراحت تفتح غطاء علبة الشغل والجاورة الفوقانية ثم اعقبها فتح الجارورات الآخريات الواحدة بعد الاخرى ولم تترك شيئا من محتوياتها الا ورفعته وحلته لترى كل ما في داخله فما من ورقة الا وجدت ما فيها من كتابة وما من صندوق صغير الا وفتحته •

وما اجمل مابدا منها من دهاء وبراعة وعناية عند قيامها بالتفتيشات تلك وكان عملها فيها كالنجمة الحقيقية التي « لا تسرع ولا ترتاح » ولا انكر انني راقبتها ببهجة خفية ولو كنت رجلا لعاينت المدام نور العطف والاستحسان في عيني فقد كانت نظيفة ومرتبة وبارعة في كل الذي قامت به فبعض الناس دأبوا في حركاتهم على استثارة الروح في سماجاتهم وحماقاتهم الطليقة من القيود اما حركاتها هي فقد كانت مريحة في تواليفها وتركيباتها الحسنة •

ووقفت في سروالي النومي التحتاني القصير مفتونة وكان من الضروري واللزام علي ان اسعى وابذل مجهودا لازالة هذا السحر وكان ينبغي تحاشي التقهقر اذ يمكن للمفتشة ان تلتفت الى الخلف وتمسك بي

twitter @baghdad_library

ونصطدم انا وهي توا وتنقشع الاقنعة عن الاوجـــه وتنظر العينان في العينين وتكف عن التعاون سوية كما هوشاننا الآن ونفترق في هذه الحياة الى الابد وما جدوى ركوب المخاطر ؟؟ انا ما كنت غضبى عليها ولم تكن بي اي رغبة في تركها اذ آن من الصعب جدا ايجاد صاحبة عمل اخرى يكون نيرها اخف حملا في رقبتي من نيرها هي ٠

وفي الحقيقة انني كنت اهوى المدام لرشدهـــا وعقلانيتها وانما احول نظري الى مركزها الاداري او نظامها المدرسي اجد ان لا ضرر منها وربما شغلتني معها الى الحد الذي ارضاها بالاكتفاء ولا شيء في ذلـك ما دمت سالما من التجسس سلامة الشحاذ من اللصوص وعـــدت وفررت نازلة من السلالم بسرعة لا صوت فيها كسرعة العنكبوت في بيته ثم اتجهت عن طريق عمود الدرابزين ٠

وكم ضحكت عندما وصلت غرفة المدرسة وادركت الآن بالتأكيد انها التقت بالدكتور جون في الحديقة وادركت ما كان يدور في خلدها وداعبت مشاعري ودغدغتها بوخزة خفيفة معرفتي بالطبيعة المريبة التي ضللتها مبادراتها الخاصة وعندما انقطع ضحكي باغتني هجوم من مشاعر الحنق اعقبته مرارة في حلقي ولم يسبق لي ان انتابني اضطراب نفسي بمثـل تلك الغرابة وذلك التناقض واحسست برغبـة شـديدة في البكاء طوال ساعة تلك الامسية كما انتابت قلبي نوبات متباينـــة ومتناقضة من الم وضحك وحسرة وانهمرت من عيني الدموع الساخنة لا لان المدام اساءت الثقة بي بل لاسباب اخـــرى اذ انني لا ابالي قلامة ظفر بسوء ثقتها بي وفلت رباطة جاشي وسكينة سريرتي افكار مقلقـة ومتناقضـة وبعد أن زايلتني الاضطرابات في اليوم التالي عدت كما كنت ٠٠ لوسي سناو ٠

وعند زيارتي لجارورتي وجدتها موصدة كلهـــا أتم الايصاد وأدق تفتيش ما كان ليفضي الى اكتشاف تبدل او اي تشويش في اماكن الاشياء فملابسي اعادت طيها كما تركتها ووجدت رزمة الهدايا البنفسجية التي اهداها لي برفق احد الغرباء الذي لم ابادله حتى كلمة واحدة كما كانت مكوية ومعطرة ومحفوظة بين افنـــل ملابسي دون ان تجعـــد او تغضن كوشاحي الحريري وقميصي المخرم واطواقي ولو انها غضنت او جعدت اي شيء منها لوجدت منتهى الصعوبة في ان اسامحها ولكنني لما وجدت ان كل

شيء محفوظ بشكل جيد ، قلت لنفسي « عفا الله عما سلف » فانا لم اصب بأذى فعلام احمل لها الحقد والضغينة ؟

ولكن هناك شيء حيرني تماما رحت افتش في ذهني عن مفتاح لحل هذا اللغز بشكل مثابر كمثابرة المدام حين راحت تنشد دليلا يهديها الى ما تريد التوصل اليه عندما فتشت جوارير مائدة تبرجي او تزييني ولو لم يكن الدكتور جون عنصرا مساعدالرمي عليبة الجواهر تلك فيالحديقة فكيف تسنى له ان يعرف انها ملقية في الحديقة وظهر بتلك السرعة في المكان التي رميت فيه ليفتش عنها ؟ وكانت رغبة الاهتداء الى حقيقة هذه النقطة من القوة في ذهني بحيث رحت افكر في امر الفكر الجريء التالي ٠٠ « لماذا اراني لا انتهز الفرصة التي قد تسنح لي لاسال الدكتور جون عن توضيح هذه المصادفة ؟ »

وما دام الدكتور غائبا لازمني الاعتقاد حقا بان لدي من الجراة ما استطيع ان اختبره في هذا الموضوع ٠ وكانت الطفلة جورجيت في دور النقاهة تتماثل آنذاك للشفاء ولذلك ندرت زيارات طبيبها وفي الحقيقة كان يريد الكف عن زياراته تماما لولا ان المدام اصرت على ان تستبقيه تحت الاستدعاء الى ان تبل الطفلة من مرضها ٠

لقد جاءت الى غرفة نوم الطفلة في احدى الامسيات بعد ان كنت اصغي الى كلمات صلاتها المشوبة باللثغة والتكسر الطفولي ووضعتها في فراشها وعندما امسكت بأحدى يديها الصغيرتين قالت لي « ان الطفلة لا تزال عليلة نوعا ما » وبعد ذلك استطردت قائلة لي وهي ترمقنيبنظرة هي اسرع من نظرات عينيها الاعتياديتين « الم يعاينها الدكتور جون مؤخرا ؟ لم يعاينها اليس كذلك ؟ » ٠

وبالطبع كانت هي ادرى بما في الدار من اي شخص آخر واضافت تقول « انا خارجة لاركب عربة الاجرة لقضاء مهمة قصيرة ازور فيها الدكتور جون لاعلمه عن الطفلة وبودي لو عاينها في هذه الامسية لان خديها حمراوان من الحمى ونبضها سريع فاستقبليه انت لانني سأكون خارج الدار » وظهر ان الطفلة قد تحسنت صحتها وان سخونة خديها ناجمة عن سخونة شهر تموز ومثلما انها لم تكن قط بحاجة الى استدعاء

twitter @baghdad_library

تسيس لمسحها بالزيت فانها لم تكن بحاجة الى استدعاء طبيب قط ثم ان المدام لا تعطيها وصفة دواء في المساء الا فيما ندر وتلك كانت اول مرة فضلت فيها ان تبتعد عن الدار بعد مجيء الدكتور جون للمعالجة ٠

وفي رأيي ان الامر كله كان يشير الى وجود خطة وهذا ما اكتشفته دون ابداء ادنى قلق وضحكت ضحكة جذلى قائلة لها « يا مدام ان مواهبك البارعة على سريق خاطيء » وابتعدت عني بعد ان ارتدت افخر ملابسها والتفت بشالها الغالي الثمن وقبعتها الربيعية الخضراء وعجبت لما قد ترى فعله ٠٠ هل هي ذاهبة حقا لترى الدكتور جون ام لا وهل تراه سيأتي ؟ ربما يكون مشغولا ٠

واوصتني المدام الا اترك جورجيت تنام حتى يأتي الطبيب ولذلك كان لدي الوقت الكافي لارعى لها تقمص دور الحضانة للعناية بالاطفال واقوم لفتها البسيطة من اجل فائدتها والحقيقة انني اخذت اميل الى جورجيت فقد كانت طفلة حساسة وكان احتضاني اياها او وضعها في حضني او حملها بين ذراعي من الامور المتعة لي وطلبت مني في ذلك اليوم ان اضع رأسي على مخدة سرير نومها حتى انها لفت عنقي بذراعيها الصغيرتين ٠ ان معانقتها لي وحركتها الطفولية عندما وضعت خدها بقوة على خدي جعلاني اصرخ بألم عذب ولانني كنت لا اشعر بشفقة من اية جهة حوالي في تلك الدار فقد وجدت في تلك القطرة الصغيرة النقية من ذلك اليتبوع الصغير النقي احساسا لذيذا جدا يخترق اعمق اعماق قلبي ويبعث بلمعان دفقه الى عيني ٠

ومرت نصف ساعة او ساعة وتمتمت جورجيت بكلمات فيها لثغة فهمت منها أنها وسنى تريد ان تنام وكنت انا ايضا ناعسة علي ان انام خلال عشر دقائق رغم وصية الام ورغم وجود الدواء للطفلة خلال عشر دقائق فقط ان لم تأت الوالدة او لم يأت الطبيب ٠ واصغت بسمعي الى قرعة جرس الباب ثم صوت الخطوات التي خلفت وراءها درجات السلم بشكل يدعو الى العجب ٠

واذا بروزين تقدم الطبيب جون بشاكلة حرة لنا ولم يكن هذا من مهماتها او ميزاتها الشخصية وانما هي خاصية امتازت بها (فيليت) عموما وبقيت لتصغي الى ما يقوله الطبيب ولو كانت المدام موجودة لعادت

توا الى حجرتها في الدهليز اما بالنسبة لوجودي انا وغيري من المعلمات او التلميذات فانهـــا لم تكترث قيد انملة وظلت واقفة برشاقة واناقة وحيوية وقد وضعت احدى يديها في جيب مئزرها الـــذي ترتديه عادة العاملات الفرنسيات والاخرى في الجيب الآخر منه وهي ترمق الدكتـــور بعين غير هيابة ولا خجلة كما لو انه لم يكن رجـــلا حيا بل مجرد صورة من الصور ٠

وقالت وهي تومىء الى جورجيت وتدغدغ ذقنها الصغير دغدغة قوية « هل بقي اثر من مرض هذه القردة ؟ » واجابها الطبيب وهو يكتب بقلمه الرصاص وبسرعة وصفة طبية لا ضير من تناولها « لم يبق الكثير » وقالت روزين وهي تقترب منه اكثر « هذا حسن » ٠٠ والصندوق هـــل عثرت عليه ؟ » فاجابها « نعم وجـــدته ٠٠ » وواصلت روزين سؤالهـا بحرية وبكلمات كنت انا التي اروم توجيهها اليه لولا قلة حيلتي وقلة شجاعتي وما اقدر بعض الناس على اختصار الطريق للوصول الى ما يريدونه بينما الآخرون يرون ان دون الوصول اليه خرط القتاد ٠

واجابها الدكتور جون قائلا باختصار وبلا اية غطرسة وقد بدا عليه انه يفهم روزين ويفهم سلوك العاملة الفرنسية « ربما كـان سرا خاصا بي » وقالت له دون ان تظهر عليها امارة الخجل « لا يهم ان السيدالطبيب يعرف ان الصندوق قد القي به منذ ان جاء يتحرى عليه فكيف عرف ذلك؟ فابها « كنت اريد الذهاب لفحص مريض صغير في المعهد المجاور ووجدته مرميا في مكان قريب من نافذة غرفته ولذلك رحت والتقطته » ٠

ما ابسط ذلك التوضيح ٠٠ فقد اشارت الملاحظـة الى طبيب كـان يفحص غوستاف وتابعت روزين الاجابة تائلة له « اذن لا يوجد شيءوراء هذا الامر أقلا سر ولا شأن من شؤون الحب مثـــلا ؟ » واجابها الدكتور « لا اكثر مما هو موجود في يدي » ثم ابرز لها راحة يده وقالت له روزين « يا للاسف ٠٠ كلهذا ويقدم الآراء والاستنتاجات »وكانجواب الدكتور المقتضب « في الحقيقة انك تحملت كل هذا للاشيء وللا سبب » ٠

ومطت روزين شفتيها استياء وضحك الطبيب من تلك الهيئة التي طافت على وجهها وفمها وعندما ضحك بدت في عينيه امارات المحيا الطلق

twitter @baghdad_library

ثم دس يده في جيبه وسألها« كم مرة فتحت الباب لي خلال الشهر الماضي؟» واجابته روزين بسرعة « يبدو ان الدكتور قد عدها » وقال لها « ما كان بوسعي ان افعل افضل مما فعلت انذاك » ٠

ولكنني وجدته وقد أعطى لها قطعة من الذهب اخذتها منه وهي تتفحصها وتدقق النظر فيها ثم راحت تثب بسرعة عندما اخذ جرس الباب يقرع مرة كل خمس دقائق وهرعت الخادمات لتفتيش الغرف ٠ ان على القارىء او القارئة او يظن الظنون القاسية بروزين فعلى وجه التعميم لم تكن بالسذاجة الرديئة ولم تكن تعتقد ان هنالك امرا اذا او متسما بالعار في تناول ما تصل اليه يداها او اية وقاحة في ان تزقزق كالعصفور امام افضل رجل (جنتلمان) في العالم المسيحي ٠

لقد تعلمت شيئا من المشهد الذي وصفناه آنفا علاوة على ماهو ذو صلة بالصندوق العاجي فاللوم لانسحاق فؤاد الدكتور لا يقع على ذات الرداء الارجواني او الرمادي ولا على المئزر المهدب الجيبين فمن هي الجانية اذن ؟٠٠ ولماذا ولاي سبب ؟ وماهو التوضيح الصحيح لذلك كله ؟ ان بعض النقاط قد اتضحت ولكن كم من النقاط الاخرى بقيت غامضة ومعتمة عتمة الليل ؟٠٠

وقلت لنفسي « على كل حال ليس هذا الامر مما يخصك ؟ وعندما اشحت بوجهي عن الوجه الذي كنت ارنو اليه ـ دون وعي مني ـ رنوا استفهاميا ووجهته الى جانب الشباك رحت اتفرج على ما يشرف على الحديقة وكان الدكتور جون في ذلك الوقت ينزع ببطء قفازيه وينظر الى الطفلة المريضة وهي تغمض عينيها وقد انفتحت شفتاها الورديتان استقبالا للموسم القادم ٠

وانتظرت حتى يغادر الطبيب وينحني برأسه انحناءة سريعة ويتلفظ بعبارة « ليلة سعيدة » وبينما كان يتناول قبعته كانت عيناي مثبتتين على المنازل الطويلة الابنية المحيطة بالحديقة ثم استقرت على النافذة المشبكة الوحيدة وهي مفتوحة فتحا احتراسيا وبانت من فتحتها يد تلوح بمنديل ابيض ، ولا ادري ما اذا كانت الاشارة قد تلقت الجواب من ناحية اخرى

غير مرئية من بنايتنا · وفي الحال سقط من النافـــذة الشبكية شيء ما ابيض اللون وخفيف الوزن يحمل شيئا ما بطبيعة الحال ·

وناديت الدكتور جون لا راديا وقلت له ·· « انظر الى هناك ؟ » وسالني بلهجة قوية وهو يسرع الى الشباك « اين ؟ وما هو هذا الشيء ؟» وكان جوابي له «عملوها مرة اخرى ·· فهناك منديل ملوح وشيء يسقط » واومات الى النافذة الشبكية التي اغلقت الآن وبدت كما لو انها خالية لا احد من ورائها وقال لي بلهجة سريعة « اذهبي في الحـــال والتقطيه وات لي به فلا احد سيراك اما انا فقد يشاهدونني » ·

ويممت نحو الذي سقط وبعد بحث قصير الامد وجدت ورقة مطوية ساقطة على اوطا غصن الشجيرة واخذته مباشرة للدكتور جـون وفي هـذه المرة لا اظن ان روزين ذاتها قد شاهدتني وما ان سلمتها لـه حتى مزق الورقة اربا اربا دون قراءتها وقال لي الدكتور جون وهـــو ينظر الي « اعلمي انها ليست غلطتها قط ·· وسالته اي خطأ ؟ ومن هو هـذا ؟؟ » وقال لي « الا تعرفين حتى الآن اذن ؟ » ·· فقلت له « كلا ·· ابدا·· » وقال لي « الا تستطيعين التكهن ؟ »فقلت له « لا استطيع ·· » ·

وقال لي « لو كنت اعرفك بشكل احسن لكنت جازفت بايلائك ثقتي بنوع ما وبذلك ائتمنك حارسة على اكثر الناس فضيلة وبراءة وان كانت قليلة التجربة نوعا ما » وقلت له « تريد مني ان اكون كالقهرمانة » وقال لي بذهنية شاردة في التفكير « نعم ·· لو كنت تعرفين ايـــة احابيل او اشراك ينصبون لها » وراح لاول مرة يتفرس في وجهي متلمسا ـ بلاريب ـ اي تعبير ينم عن اللطف والعطف لكي يتسنى له ان يأتمنني على مخلوقـة سماوية تتآمر عليها قوى الظلام · ولم اشعر بأي نداء باطني يدفعني الى التعهد للقيام بمراقبة المخلوقات السماوية ولكنني عندما تذكرت موقفه معي في المكتب شعرت بأن له دينا في عنقي يتوجب علي ايفاؤه ولو انني ساعدته فليس من واجبي او مهمتي ان اعرف بأي طريقة سيتم ذلك وبشيء من التردد والاحجام لمحت له بأنني راغبة في ان ابذل مافي وسعي للاهتمام بشخص يهتم به هو شخصيا ·

twitter @baghdad_library

وقال لي « لست مهتما باكثر من كوني متفرجا مع شاهد متواضع يكون مثار الاعجاب · حدث انني تعرفت مع شخص لا يسوى شيئا أغار من البيت المقابل لهذا البيت مرتين على حرمة هذا المكان والتقيت ايضافي المجتمع بالشخص الذي تستهدفه هذه المحاولات الدنيئة ، ففي الحقيقة انها مخلوقة بريئة لا وقاحة لها بعيدة عن كل ما يريب وكان بودي أن احافظ عليها واحرسها من كل اذى لو كان ذلك بمقدوري فانا شخصيا لا استطيع ان افعل شيئا ولا استطيع الدنو منها » ثم توقف عن الحديث ·

وقلت له « حسنا ·· انا راغبة في مساعدتك ولكن قل لي كيف اقوى على ذلك » ولما كنت منشغلة هرعت لاخراج قائمة الموجودين في المؤسسة بحثا عن ماسته ، عن جوهرته الغالية الثمن ·· ربما كانت المدام فهي الوحيدة من بيننا تمتلك فن التفوق والسيطرة ولكنه ذكر في ملاحظته انها قليلة التجربة بعيدة عن الشبهات وما الى ذلك وليس الدكتور جون بالذي يريد ان يشغل نفسه بها وان كانت مصدر هواه وموضع اهتمامه وما انا بالتي اروم معارضته أو الوقوف بوجهه فيما يريده · وقد يكون ذلك منه نزوة او قد يكون ملاكه ملاكا ·

وقلت لنفسي وانا اضحك ضحكة خافتة « ما عليك سوى ان تراقبي المنطقة التي يتجه اهتمامك بها »وركزت تفكيري على وصيفة المدام بيك او احدى تلميذاتها وللدكتور جون نمط رائع من الاعصاب فقد شعر غريزيا في الحال انه لم يكتشف اكثر من هذه الذهنية مناعة وانني انما كنت اضحك على ذقنه واتسلى به وبنصف ابتسامة تحول عني واخذ قبعته وهم بالانصراف فخفق قلبي ذعرا لذلك وقلت له باهتمام زائد :

« سأفعل ذلك ·· ساساعدك وسأفعل ما تريده مني وسأراقب ملاكك الطاهر وساهتم بها ان انت قلت لي من هي هذه الطاهرة » وقال لي باهتمام وبصوت منخفض جدا « ستعرفين من هي هذه الطاهرة الصالحة الرائعة الجمال بلا مثيل فما من منزل فيه اثنتان مثلها ·· ذلك مستحيل» واومأت له قائلة ··· « طبعا ··» ·

وهنا صدرت عن مزلاج غرفة المدام المؤدية الى دار التمريض قرقعة مفاجئة كما لو ان اليد التي أمسكت به قد تشنجت نوعا ما وسمع صوت

انفجار عطسة لم تقاوم الكبت ومثل هذه الامور الفها كل منا من المدام٠٠ المرأة الرائعة وكانت المدام آنذاك تقوم بواجبها المدرسي ثم عادت الى المنزل بهدوء تسرق درجات السلم تلصصا على اطراف اصابعها وتختلسها اختلاسا وكانت آنذاك في غرفتها ٠

ولو لم تأتها العطسة القهرية لسمعت كل ما كـــان يدور بيننا من حديث ولكن العطسة المشؤومة اجفلت الدكتور جـون فوقف مشدوها وفي هذه اللحظة دخلت المدام على حذر رابطة الجأش في افضـــل مـــا بداخلهـــا من روحية الهدوء والسكينة وحاولت ان تدخل في روعنا انها وصلت الآن فقط محاولة التستر على كونها كانت تتجسس من ثقب المفتاح مدى عشر دقائق تقريبا واصطنعت عطسة اخرى وزعمت انها ابتردت بعد انعصف الهواء البارد برأسها ثم تقدمت متظاهرة بانهـــا تريد اعادة النظـــر في الاوراق المدرسية وهنـــا رن جرس آوان الصلاة فتركتها مـــع الدكتور وغادرت الغرفة ٠

twitter @baghdad_library

الفصل الرابع عشر

ـ مهرجان في الهواء الطلق ـ

حالما تحسنت صحة جورجيت ارسلتها المدام الى الريف وانتابني الحزن عليها فقد احببتها وان فقدانها ـ ولو بشكل مؤقت ـ جعلني في حالة أسوأ من ذي قبل وشعرت بأن علي الا اشكو فانا اعيش في دار ملأى بمظاهر الاجهاد والمشقة وعلي أن اجمع لي صديقات وصاحبات في حين انني اهوى حياة العزلة وكانت كل صديقة من صديقاتي تبدي لي بشكل خاص جانب الود ٠

وجربت كل اولئك الصديقات فوجدت احداهن امرأة مخلصة ولكن افق تفكيرها ضيق ومشاعرها متبلدة وتتسم بالانانيةووجدت الثالثة وهي باريسية مصفاة ظاهريا ولكن قلبها مسخم لا مبدأ لها ولا عقيدة ولا ود وقد احتلت القمة الخارجية من الكياسة في خصالها تلك انها رديئة من الداخل ولها رغبة عارمة بالهدايا وهناك معلمة ثالثة تضارعها في هذه السريرة وتتضارعان ايضا في خلة اخرى هي البخل والجشع وحب المال وتجميعه اي حب المال لمجرد كونه مالا وليس لسبب آخر فمنظر قطعة من الذهب يخرج من عينيها تلألئا ٠

وقد صعدت بي ذات مرة ـ تعبيرا عن احترامها الزائد ومحض ودها لي ـ الى الطابق الاعلى من دارها وفتحت بابا سريا وارتني كومة من العملات النقدية الكبيرة الحجم تقدر بخمسة عشر جنيها انكليزيا وهي تحب تلك الكومة كما تحب الطيور بيوضها وتلك كانت مدخراتها ثم تروح تحدثني عنها بخرف متواصل ينم عن التوله بها ومن الغريب ان يوقف المرء مثل هذه المرأة البالغة من عمرها ٢٥ عاما عند حدها في تصرفها هذا ٠

ومن الجهة الاخرى كانت الباريسية مبذرة ومسرفة ومتهتكة وهذه النوعية الاخيرة لم تظهر لي رأسها الافموي الا مرة واحدة حين كانت

twitter @baghdad_library

تتلصص علي باحتراس وحذر تامين فقد بدت لي كاحدى الزواحف ولـــو جاءت الي وصارحتني بشجاعة لكان من السهل علي ان اصارحها بمواقفي من الناحية الفلسفية وعذرتها عما كانت تسعى اليه ضدي بلسانها الشائك ولكنها جفت وتيبست داخل اوراق شجر روايتها الطويلة الرديئة وعندما قارعت ما بدا لي جليا من حماقتها واحقادها المرتدة عليها اخذت تجتويني وتكرهني منذ ذلك اليوم ·

وهذه الباريسية كانت دائما مدينة للناس الآخرين فراتبها مقسم بين ديون الملابس والعطور والمجملات والحلويات والتوابل ومالها من ابيقورية تتميز بالبرودة والقسوة في كل الاشياء وانني اراهـــا الآن نحيفة الجسم شاحبة الوجه نظامية السمات باسنان كاملة وشفتين كانهما خيطان وذقـن كبير بارز وعينين مفتوحتين فتحا تاما ولكنهما جامدتان وناكرتان للجميل تشيع بهما الرغبة الجنسية · لقد كانت تكره العمل وتحبما تسميه باللذ وهي موسومة بالتفاهة والقسوة والغباء ·

وكانت المدام بيك تفهم حقيقة هذه المرأة تمام الفهـــم فقد حدثتني ذات يوم عنها بمزيج غريب من عدم الاكتراث والاستهجان ولما استفهمت منها عن سبب ابقائها في المؤسسة اجابت بوضوح « لان ذلك يناسب مصلحتي» واشارت الى حقيقة سبق ان لاحظتها وهي ان الآنسة بيير تمتلك شهادة وميزة فريدة تقريبا هي قدرتها على المحافظة على النظام بـــين التلميذات غـير المنضبطات وتتميز ايضا بسلطة صارمة هي من تصميم نفسيتها وكيانهـا وتبقى تلميذاتها في وضع لا ضوضاء فيـه ولا عنـف ولا انفعال كالهواء الجليدي الذي يعلو الجدول الهادر ·

ولم تكن ذات نفع فيما يخص اغناء الآخرين بالمعرفة اما فيما يخص الرقابة الصارمة والمحافظة على الانظمة والقواعد المدرسية فانها كانت لا تثمن واعترفت المدام بيك بوضوح بانها كانت تدري كل الدراية بان لم تكن لديها اية مباديء وربما لم يكن لديهـا اخـلاق واضافت على ذلك من الناحية الفلسفية ان سلوكها في المدرسة كان على ما يرام دائما حتى انهـا كانت تحتفظ بكرامتها نوعا ما وهذا ما كانت تعتبره المدام امرا ضروريا فلا التلميذات ولا اولياء امورهن كانوا ينشدون منها اكثر من هذا وبالتالي

انا ايضا ما اردت شيئا منها اكثر من هذا ٠

ان تلك المدرسة كانت بمثابة عالم صغـــير غريب تسوده الفوضى والمرح العابث وتبذل فيه المساعي المضنية لاخفـــاء العبودية والسلاسل بالزهـــور ٠

وفي حوالى وقت فصل الصيف البهي كان منزل المدام بيك يتحول الى مكان يشيع به المرح واشعة الشمس المستقرة كانت من المظاهر السائدة في الجو وكانت الغيوم ترحل من مسافة بعيدة الى ما وراء البحـر ثم تتوقف ـ بلا ريب ـ حول اجواء جزر كانكلترا ارض الغيوم الحبيبة ثم تنسحب كليا من القارة الجافة وكنا نقضي اوقاتنا اليومية في الحديقة بدلا من ان نقضيها تحت السقف وقد صفت المقاعد الدراسية للتلمذات تحت الغصون الملتفة « للشجر الكبير » ويجري تناول وجبات الطعام في الحديقة وكانت العطلة الدراسية شهرين في فصل الخريف فقط وقبل ذلك كان يجري احتفال كبير هام باسم « مهرجان المدام » ٠

وهذا المهرجان يجري أصلا تحت اشراف الآنسة بيير والمفروض ان تقف المدام بعيدا عن الاشراف دون ان تهتم بما يسير فيه على شرفها ولـم تكن تدري او تتوقع ان اكتتابها يجري يجمع فيه المال سنويا من المدرسة كلها لشراء هدية جميلة وثمينة لها ولباقة القاريء تتوصل الىّ مشاورة سرية قصيرة الامد تجري لهذا الغرض في غرفة المدام الخاصة ٠

وسالتها ملازمتها الباريسية « ماذا ستريدين مني هـــدية في هـذه السنة ؟ » وتجيب المـديرة بلطـــف وعذوبة « آه ٠٠ لا اريد شيئا رعي الطفلات الفقيرات يحتفظـــن بفرانكاتهن لانفسهن » ٠ وهنا تمط بيـير بشفتيها دلالة على عدم الرضى فهي تعلم مافي سريرة المدام ولم تكن لهـــا الاحترام قط بيد انها اعادت السؤال اليها ببرود مرة اخرى قائلة « قولي بسرعة ٠٠ ما الذي تريدينه مني هدية نقدمها اليك ؟ هل تريدينها مـن الجواهر او الخـزف الصيني او الخردوات او السـلع الصغـيرة او من الفضة ؟ » وجاء جوابها ٠٠ « حسنا ٠٠ لتكن الهدية ملعقتين او ثلاثا من الفضة ايضا » وكانت النتيجة علبة رائعة تحتوي على هـدية بقيمة ٣٠٠ فرنك ٠

twitter @baghdad_library

ان منهاج اجراءات يوم المهرجان يتضمن تقديم الهدية وتناول وجبة الطعام الخفيفة في الحديقة وفعاليات دراماتيكية تقوم بها المدرسات والطالبات تمثيليا ثم رقص ثم طعام العشاء وكما اتذكر بدا لي المهرجان بهيا ورائعا وكانت بيير تفهم وتجيد هذه الاشياء وتقوم بتنفيذها باقتدار وكانت الفعالية المسرحية اهم ما في مواد البرامج بعد ان يجري التدريب عليها قبل ذلك بشهرين كما ان اختيار الممثلات ايضا كان يتطلب الفهم والدراية والعناية .

ثم جاء دور الدروس في القاء الخطابات ومجهودات عدد لا يحصى من التحضيرات (والبروفات) . ولم تكن بيير بالقادرة على تسيير كل هذه الامور بمفردها فقد استدعيت الآخريات مديرات ومنجزات الفعاليات باشراف الاستاذ بول عمانوئيل البروفسور في الآداب ، ولم يكن من واجبي الحضور لاعطاء الدروس التاريخية لهذا البروفسور ولكنني غالبا ماكنت اشاهده في القاعة المربعة الشكل الكائنة بين المنطقة السكنية من المؤسسة وبين دار الدراسة ، وسمعته ايضا يلقي محاضراته عند حلول الامسيات الدافئة بالقرب من الابواب المفتوحة وكان اسمه يتردد في كل مكان وتسمعه كل الآذان .

وكانت الآنسة جنيفرا فانشاوي التي اختيرت لتلعب دورا بارزا في المسرحية قد عهدت الي بجزء كبير من اوقات فراغها لتنميق محاوراتها المسرحية بتلميحات متكررة لاقواله وافعاله وكانت تحترمه احترام خائفة منه وتتظاهر بانها فزعة ومذعورة بشكل هستيري لوقع خطواته او لسماع صوته فهو بقصر قامته وتعبيسه لابد ان يكون مخيفا وصارما وحتى انا كدت اخشى هيئته وكان مزعجا برأسه الاسود وجبينه العريض الشاحب وخده النحيف وثقب منخره المرتعش ونظرته العامة الشاملة ومشيته السريعة .

وقيل عنه انه كان يعامل المقصرين بحفظ ما يلقنهم به معاملة صارمة او للذين يقدمون اللهجة الباردة بدلا من اللهجة الحامية او عندما يكون القاؤهم ضعيفا ويصرخ بوجوههم بصوت مدو كصوت البرق . وعندما كان يتضح له اخيرا ان الامر فاشل ومن العبث المواصلة فيه كان يلغي البرامج في الحال .. وكان الى ذلك الوقت قد علمهن المأساة الكبرى فما

كان منه سوى ان مزق اوراقها اربا اربا وجاء في اليوم التالي بتطعة تافهة مضحكة من مؤلفاته ٠

وكانت الآنسة بيير تتصدر دائما دروس البروفيسور عما نوئيل وقيل لي ان شفافية سلوكها واهتمامها البائن ومهارتها وجمالها اثر على ذلك الجنتلمان تأثيرا حسنا لقد كان لديها ـ في الحقيقة ـ فن الابهاج ابهاج اي شخص تريد ابهاجه لوقت ما ولكن ذلك الشعور لا يدوم عندها ففي ساعة من الزمن يتلاشى كل شيء ويجف كقطرة الندى عند بزوغ الشمس ويتبدد ويتوارى كمخاط الشيطان ٠

ان اليوم الذي سبق مهرجان المدام كان كعيد اكثر مما كان كمهرجان فقد كرس وخصص لتنظيف غرف الدراسة الثلاثة وتنظيمها وتزيينها وزخرفتها وفي داخل الابواب ساد مرح صاخب للغاية فلا الطوابق العليا ولا التحتانية اتاحت لاي فرد ان يستمتع بالهدوء او يضع موضعا لقدميه وبالنسبة لي لجأت الى الحديقة وظللت طيلة ذلك اليوم اغدو واروح او اجلس وحيدة متمتعة بدفء الشمس ومتخذة ملجئا بين الاشجار برفقة افكاري وتأملاتي الخاصة ٠

واتذكر بيدا انني لم اتبادل الحديث عن ذلك سوى بجملتين مع شخص لا لكوني اهوى العزلة فقد كنت مسرورة بهدوئي وسكينتي وبالنسبة للمشاهد كان يكفيه ان يمر بين الغرف مرة او مرتين ويلاحظ مدى ما حصل فيها من تغييرات والذي حل بالبيوت الزراعية الزجاجية وبحجرة المسرح الذي تستبدل وترتدى فيها الثياب وفق ما هو مطلوب وبكيفية اقامة منصة المسرح الصغير وكيف يدير عما نوئيل والآنسة بيير العمل وكيف كانت التلميذات وبينهن جنيفرا فانشاوي يعملن مسرورات بقيادته ٠

وحل اليوم العظيم وبزغت الشمس والقت باشعتها الدافئة على الملأ وظهرت السماء صافية الاديم بلا غيوم مستبقية حرارتها حتى المساء وكانت كل النوافذ والابواب مفتوحة مما اعطى شعورا بالمرح والسرور بحرية الصيف وانطلاقته ونزلت المعلمات والتلميذات لتناول الفطور في لباس الروب ديشامبر يحملن الاوراق الخاصة بهن وينشدن المرح والسرور ويسمعين اليه ٠

twitter @baghdad_library

واصبحت المهاجع مشهدا للغسل واستبدال الثياب الذوقية وبالنسبة لي تراءى الامر كما لو انه لغز فكيف يجوز لانفسهن ان يمضين كثيرا من الوقت وينتجن الاقل فالعملية تبدو معقدة ومطولة ومغلقة والنتيجة بسيطة ، اقمشة موصلين البتولية القطنية الشفافة الرقيقة الزرقاوات الالوان وازواج من القفازات النفيسة البيضاوات الالوان من جلد الجدي القشي اللون للذي يرتدى في المهرجانات والاعياد ، ولهذا كله تمضي المعلمات والتلميذات ثلاث ساعات من اوقاتهن ٠

ان تلك الملابس وان كانت بسيطة الا انها كانت مرتبة وكاملة من حيث الزي ومناسبة القد والجدة ، ترتديها الفتيات باناقة وذوق وتوليف وان كانت ضيقة بالنسبة للاجسام الميادة التي تتميز بجمال خاص اما الوضع العام فقد كان جديرا بالثناء حقا ٠ وعند امعاني النظر بذلك الجمهور المرتدي البسة شفافة ثلجية البياض وجدتني مجرد نقطة ظلية في حقل الانوار ٠٠

ولم اجد في نفسي الشجاعة لكي ارتدي رداءا شفافا ابيض اللون علما بأن كان علي ان ارتديشيئا خفيفافالجو والغرف سادها الحرالشديد ولا يمكن ارتداء الالبسة الثخينة ولهذا كنت قد تحريت في ١٢ حانوتا الى ان عثرت في احدهاعلى قماشيشبه الكريب الرقيق بلون ارجوازيقان٠

وابدعت الخياطة قدر امكانها رغم انه كان عريضا وناتئا ولم تفد معه الا العناية في الشكل والزي واحسنت صنعا في ذلك اذ لم آكن املك زهرة او حجارة كريمة او جوهرة لتجسيمه وتلطيفه ٠ واصبحنا غافلات عن هذه النواقص من جراء الروتين النمطي للعمل اليومي الشاق الا انهن كن يفرضن علينا فرضا تنويعاتهن البغيضة في تلك المناسبات الحلوة التي تتطلب ابراز الجمال البراق وعلى كل حال شعرت حتى بتلك الملابسانني في منزلي اتمتع بقسطي من الراحة وهي ميزة ما كنت لاتمتع بها لولا انني في غير حضرة المدام بيك التي كانت تشجعني لان ملابسها هي ايضا كانت بسيطة بساطة ثيابي والفرق بين كلينا انها كانت تمتلك سوارا ودبوسا زينيا مرصعا بالذهب المتوهج والحجارة الكريمة ، وحدث اننا ـ بالصدفة ـ الثقينا على درجات السلم وعبرت ـ بايمائة منها ـ عن استحسانها وابتسمت ابتسامة الثناء علي لا لكونها ظنت بانني جميلة

المحيا وهو امر لا يحتمل ان يلفت انتباهها او اهتمامها انما اعتبرتني واحدة ترتدي الالبسة المحتشمة وهو الشيء الذي كان يثير اهتمامها ·

والجدير بالملاحظة انها توقفت لحظة ووضعت يدها المقنزة على كتفي وفي يدها الاخرى منديل مطرز ومعطر وأسرت في اذني بتهكمات على بعض المدرسات اللواتي كانت قبل مدة وجيزة توجه لهن الاماديح وقالت لا اسخف من نساء ناضجات يحلمن كما لو انهن فتيات في السن الخامسة عشرة من اعمارهن كالامرأة بيير فهي تشبه الامرأة الكبيرة السن ومع ذلك تتغنج كتغنج الفتيات الشابات ·

وبعد ان ارتديت ثيابي قبل سواي بما يقارب الساعتين شعرت بارتياح في توجهي ــ لا صوب الحديقة التي كانت الخادمات فيها منهمكات ومنشغلات في تهيئة الموائد الطويلة وتنضيد المقاعد ونشر الاغطية استعدادا لمقارنة النصوص ــ انما صوب غرفة الدراسة التي كانت انذاك فارغة وهادئة وباردة ونظيفة ، وحيطانها مصبوغة مؤخرا وارضيتها منظفة من جديد وشبه يابسة حيث الزهور المجموعة تزين وتحلي داخليات المزهريات وحيث الاقمشة والاستار الجوخية الجميلة الجديدة التي تغطي النوافذ الكبرى ·

ومن هناك قصدت الصف الاول الواقع في غرفة اصغر وانظف من الآخريات واخذت من خزانة الكتب الزجاجية التي كان مفتاحها عندي مجلدا اثار في عنوانه رغبة لقراءته وجلست اقرأ وكان الباب الزجاجي لذلك الصف او غرفة الدراسة المفتوح على مصراعيه يؤدي بك الى تعريشة اغصان متعانقة ومتشابكة كبيرة الفسحة حيث تداعب اغصان اشجار الاقاقيا سيقانها في امتداداتها لملاقاة شجيرة الاوراد المزدهية عند عتبة الباب ·

وفي هذه الشجيرة تمهل اسراب النحل وتطنطن في مهماتها طنطنة البهجة والسعادة وشعرت في القراءة ان استمرارية الطنطنة وبقاء ظل العريشة والدفء والهدوء الوحداني الذي آلت اليه اخذت تسرق مني الصفحات لتي اقرأها وتسرق النور من عيني وتغريني بالتوجه الى عالم اليقظة الكائن في عمق وادي ارض الاحلام · انذاك ايقظني اقوى صوت لجرس باب الشارع فاعادني الى وعيي بعد شرود ذهني ·

twitter @baghdad_library

والآن دق الجرس وجرت العادة ان يدق طيلة الصباح منبها العمال والخدم والحلاقين والخياطين الى وجوب الذهاب الى اعمالهم وهناك توقعات فإن يظل يرن حتى الى ما بعد الظهر اذ ان هنالك ما يقرب من مائة شخص يفدون من خارج المدينة بالعربات الكبيرة او بعربات الاجرة الصغيرة او حتى الى المساء حيث الآباء والامهات والاصدقاء يتجمعون في ساحة المسرحية او التمثيلية فصوت الجرس المتواصل بقوة معناه وجود شيء هام وهذا الجرس المتواصل كان له معناه الخاص عندي فقد طارد حلمي واجفل كتابي الموضوع على ركبتي فسقط على الارض ٠

وكنت على وشك ان انحني لالتقاطه واذا بي اسمع عبر الردهة وعلى الممر الكائن بين القسم الاول والثاني الاكبر من غرفة الدراسة صوت خطوات سريعة ونظامية ومقصودة ولم يكن الباب الموصد للصف الاول الذي كنت جالسة فيه يكون عقبة فقد انفتح واذا بمعطف فضفاض وقبعة يونانية تملآن الفراغ وبعينين جائلتين جولاكا تصوبان الي تصويبا متالقا واذا بصوت يخرج من فيه قائلا ٠٠٠ آه ٠٠٠ انني اعرفها انها المراة الانكليزية وا أسفاه ومهما يبدو عليها من الاحترام فانها ستخرجني من ورطتي هذه والا فانني سأعرف السبب ٠

ثم قال بلهجة مؤدبة جدا ــ واظن انه لم يلحظ سماعي كلماته السابقة غير المؤدبة ــ قال برطانة انكليزية لم اعهدها من احد من قبل « ينبغي ان تمثلي على المسرح وانا جالس هناك » وقلت له « ماذا تعني ؟٠ ماذا تريدني ان افعل ايها السيد بول عمانوئيل ؟ واجابني وهو في حالة من الانفعال الشديد « ينبغي ان تمثلي ولا اريد منك ان ترفضي او تقطبي جبينك استياءا او تظهري جانب التزمت فقد قرات ما في جمجمتك منذ اول يوم مجيئك الى هنا وانا متحمس بمقدرتك التمثيلية ويجب ان تفعلي ذلك ٠

وقلت له « يا مسيو بول كيف افعل ذلك وماذا تعني ؟ » واستطرد قائلا ولكن الآن باللغة الفرنسية ــ ٠٠ لا يوجد وقت لتضيعه وينبغي ان نضرب عرض الحائط بكل ترددانتا واعذارنا وانتحالاتنا فيجب عليك ان تساهمي » قلت له « في المسرحية الفودفيلية ؟٠؟؟ » فقال « وفي المسرحية الفودفيلية ٠ انت قلتيها ٠٠ » واخذت الهث من الرعب الذي اصابني من

جراء ذلك قلت له ، ماذا يعني الرجل القميء ؟ وقال لي ٠٠« اصغي الي، القرار بذلك سيصدر وبوسعك حينئذ ان تجيبي بلا او بنعم وتقديري لك ابدا سيكون على ضوء هذا الجواب » ٠

وتوهج خداه باشارة نادرا ما يمكـن قمعها في طبيعـة دائمة التبرم يمازجها بصيص حاد من نظراته ٠وان هذه الطبيعة الحمقاء المثيرة للغثيان المترددة المتجهمة وغير المستسلمة قد ترد سريعاً بعنف وحقد وعناه ولهـذا كان السكوت والانتباه خير بلسم لي وخير ما يمكن ان الوذ بهما فلم افعل شيئا اكثر من ان اصغي اليه وهو يقول :

« ان كل شيء على وشك ان يفشل فلويزا فاندركيلكوف قد تمرضت هذا ما تقوله والدتها السخيفة اما انا فاشعر شعورا مؤكدا انها تستطيع ان تمثل لو شاءت فالذي ينقصها هو حسن النية والشعور الودي فقد عهد اليها بدور ملائم ــ عرفت ام لم تعرفي ــ وبدون هذا الدور تتوقف المسرحية ولا يقتضي لاجادته سوى بضع ساعات من التعلم والحفظ ولا توجد في هذه المدرسة فتـاة تصيغ السمع لصـوت المنطـق والعقل وتقبل باناطة هذا الدور بها ٠

وفي الواقع ليس الدور مثيرا ولا لطيفا ولا محبوبا ولكن يسميه بعزة النفس الذميمة وتلك النوعية الدينية التي تستثمر النساء كثيرا هي التي تمنعهن من القيام به وفي رأيي ان النسوة البريطانيات هن امـا افضل مما له صلة بالجنس واما اسوأ ثم قال وهو يحرق الارم غيظا وحنقا « الله يعلم انني اكرههن كما اكره الطاعـون ٠ واراني الوذ الآن بامرأة انكليزية لتنقذني منهن وتزيل حراجتي فما هو جوابك ؟؟ نعم ؟ ام لا؟»٠

وهاجمت خاطري الوف الاعتراضات اللغة لاجنبية والوقت المحدود والمرض امام الجمهور٠ والنزعة المرتدة والقابلية المضطربة وعزة النفس (تلك النوعية الذميمة) وشعرت بالرعشة وهممت ان اقول « ٠٠ لا ٠٠ لا ٠٠ » لكل ما جاء في كلماته ولكني عندما نظرت الى المسيو بول ووقعت عيني على نظرته العبرى المرتبكة المتفحصة وما احسست فيها من المناشـدة والتوسل وراء كل تهديداته لم اجد الا كلمة « نعم » تخرج من بين شفتي ولاحظت خلال وهلات ان محياه المتجهم قد بدا عليه الارتياح وزايله التجهم

twitter @baghdad_library

وشاعت عليه ارتعاشة الرضى وسرعان ما مـال وانحنى مرة اخرى ومضى في حديثه التالي :

« اليك المخطوطة المسرحية وهوذا دورك ·· اقرئي وانا اقرا » ولم يبد ملاحظات وفي بعض المقاطع كان يعبس ويقطب جبينه ويـدق الارض برجله ثم اعطاني درسا وقلدته تقليدا تاما لقد كانت قطعة لا يرتضي بها احد · دور رجل متأنق في ملبسه ولكنه غبي ومن غير الممكن ان يضع المرء فيه من قلبه او روحه فكرهته فالمسرحية شيء تافه وعابث تدور اساسا على مجهود متنافسين اثنين تحاول البنت اعلاء كفتها على الرجل باساليب التفنج فالعاشق كان اسمه (اورس) وهو رجل شهم وبسيط يعمل على سجيتـه وجوهره خام والعاشقـة اسمهـا (بترفلاي) ثرثارة وخائنـة وكنت في التمثيلية انا الثرثارة والخائنة ·

وبذلت جهد امكاني وكانت المحصلة رديئة كما اعلم مما اثار ثائرة المسيو بول فاخذ يرغي ويزبد وحاولت ان اعمل اكثر مما في وسعي واظن انه اثنى علي نوعا ما واقتنع بما بدر مني من فاعليات وكان يصرخ ·· صحيح ·· صحيح وعندما تعالت الاصوات من الحديقة ورفرفت الاردية البيضاء من بين الاشجار قال لي « تعالي ينبغي ان نتراجع ونكون وحدنا لنتدارسها ·· تعالي معي » وبدون ان يترك لي مجال التشاور في هذا الامر الى اعلى ثم الى سلمين اعلى او ثلاثة ويبدو ان ذلك الرجل القمي كان يعرف الى اعلى ثم الى سلمين اعلى او ثلاثة ويبدوان ذلك الرجل القمي كان يعرف غريزيا كل مكان في المؤسسة ولم اجد نفسي في آخر المطاف الا داخل مكان تحت سطح المنزل ولا يوجد فيه احد سواي اغلق علي بابه والمفتاح الذي كان فيه اخذه معه وتوارى ·

ولم يكن ذلك المكان مريحا وفي ظني انه لم يكن يدري بانه كذلك والا لما كان اغلق علي بابه في ذلك الجـو الصيفي الذي تعادل حرارته حرارة القـارة الافريقية اما في الشتاء فقـد كان باردا دائما برودة جـزيرة غريلاند وكانت تملؤه الصناديق والاكوام المبعثرة هنـا وهنـاك وتتدلى الملابس العتيقة من حيطانه ويشكل نسيـج العنكبوت سقفه غـير المكنوس اطلاقا والمعروف عنه جيدا ان الفئران كانت تقطنه مع الخنافس السوداء والصراصير وهناك شائعات تدور منذ زمن عنه تفيد بان راهبة الحديقـة

الشبح شوهدت فيه ذات مرة وهناك ظلمة جزئية تحجب احد اطرافه ولزيادة لغزها وتعميقها ركبت على طرفيها ستارة قديمة خمرية اللون تؤدي بالذي يريد الدخول اليها الى طوق قاتم اللون من المعاطف الشتوية يتدلى كل منها من دبوسه او وتده كما يتدلى المجرم المشنوق من مشنقته . وقيل ان من بين تلك المعاطف ومن وراء الستارة تلك كانت الراهبة تخرج .

وما كنت أومن بالشائعات هذه ولم اقلق فهمي بها ولكنني وجدت جرذيا ضخما قاتم اللون له ذنب طويل يخرج من فجوة قذرة من ذلك الجدار ثم ان نظري وقع على عدد كبير من الخنافس السوداء تملأ الارض وهذه الاشياء اقلقتني واثارتني بشكل مقزز أكثر مما اضجرني الغبار والملابس القذرة وحرارة المكان الخانقة وهذه المزعجات جعلت وضعي لا يطاق لولا انني وجدت الوسيلة اللازمة لادخال الهواء النقي من الجو الخارجي عن طريق فتحة في ذلك المكان .

ذلك انني ازحت صندوقا كبيرا فارغا ووضعت عليه صندوقا اصغر بعد ان انزلت الاتربة والاغبرة عنهما وجمعت ملابسي وهي افضلها كما يتذكر القاريء وبعد اتخاذ الحيطة مما كان حولي بكل عناية واهتمام علوت اصناف ذلك العرش المرتجل وبعد ان جلست عليها شرعت في اكمال مهمتي وتعلمت كيف اراقب مراقبة دقيقة تلك الخنافس السوداء والصراصير اكثر مما كنت اراقب الفئران وجلست في حالة من الفزع القاتل .

وكان انطباعي باديء ذي بدء ان اقوم بما يعتبر مستحيلا القيام به وعولت على ان ابذل جهدي وان اتجنب الفشل وسرعان ما وجدت ان قسما من ذلك المكان الضيق لم يكن سوى مكان معد للاستذكار بضع ساعات وشرعت ادرس وادرس همسا في اول الامر ثم بصوت عال بعد ذلك بعيدا عن الآدميين وقمت بتمثيل دوري امام حجرة الهوام والحشرات بعد ان دخلت فراغها طيشا وخطا بروحية الازدراء وانعدام الصبر وقد انتقمت من ذلك الرجل (السمين) بجعله (أسمن) قدر استطاعتي » .

twitter @baghdad_library

ومرت الظهيرة في ذلك التمرين وبدأ النهار يدب صوب المساء وانا التي لم اتذوق الاكل منذ الفطور اشتد بي الجوع واخذت افكر بالجمع الذي يتناول انذاك وجبات الطعام الخفيفة في الحديقة الكائنة تحتي بمسافة بعيدة ووجدت في مدخل الردهة سلة ملآى بالفطائر والكيك التي تعلوها القشدة ولا الذ منها بين كل ما هو موجود في المطبخ من المآكل وان فطيرة او قطعة مربعة من الكيك كافية لي تماما ٠

وبازدياد شهيتي لتلك اللذائذ وجدت ان من الصعب علي نوعا ما ان اصل الى المكان لان الموقع الذي صمت وسجنت فيه كان بعيدا عن الباب الخارجي المقابل للشارع وبعيدا عن الردهة وكان الجرس الملح في رنينه يسمع من هنا خافتا وضعيفا وكذلك اصوات الدواليب المتمرجحة دون انقطاع الآن على ارضية الشارع المرصوفة وعرفت بان الدار والحديقة مزدحمتان وتعجان بالناس وان كل ما هو بهي وسار هو تحتي وسرعان ما حلت ظلمة الغسق واخذت الخنافس تتوارى عن الانظار ٠

وكنت اخشى ان تأتي خلسة وتصل الى عرشي غير المنظور وبدون ان تثير شكركي تغزو القسم المتدلي من ثيابي وبالخوف وفراغ الصبر اخذت استذكر كلمات دروسي في التمثيلية ، لا لشيء الا لقتل الوقت وقبيل انتهائي طرق سمعي صوت المفتاح يدور داخل القفل بعد طول الغياب وهو صوت لا يمكن سوى ن ارحب به ووقع نظري على المسيو بول من خلال ظلام الغسق لان النور المتبقي من النهار التمع ليظهر اسوداد شعر رأسه المقصوص وعاجية جبينه الاصفر وما ان فتح الباب ووقف على عتبة المكان والباب مفتوح حتى صاح « مرحى ٠٠٠ مرحى لقد سمعته كله وهو جيد جدا ٠٠ اعيديه على مسمعي رجاء » ٠

وترددت لحظة واذا به يقول بلهجة صارمة « اعيديه ولا داعي للهياج والهرج والمرج ودعي الخجل جانبا » واعدت التسم فقرأته من جديد ولكن لا كما قرأته وانا وحيدة وقال وهو نصف مستاء « جيد انها تجيده لايجوز ان يكون المرء ذا حساسية في مثل هذه الاحوال » واضاف يقول « لديك الآن عشرون دقيقة لكي تستحضري وتهيئي نفسك ٠٠ طاب مساؤك » وهم بالذهاب فصحت به بشجاعة « يا مسيو » فقال لي ما بك ايتها الآنسة ؟

فقلت له انني جائعة جدا فقال ٠٠ « ماذا ؟ انت جائعة ؟ وماذا عن وجبة الطعام ؟ » فقلت له « كفاك الى هذا الحد فانا لم اجد الطعام ايدا » واجاب « هذا صحيح ولك الحق » ٠

وبلحظة واحدة تنازلت عن عرشي واخليت ذلك المكان الكائن تحت سطح المنزل ونزلت الى المطبخ ذاته وكان الطباخ قد امر باعداد الطعام ودعيت الى تناول الطعام وكم كان فرحي عظيما عندما اقتصر طعامي على القهوة والكيك وكنت لا احب الخمر والحلويات ولم ادر كيف عرف انني مولعة بالفطيرة المقشدة والكيك المقشد لانه ذهب وجاء لي بقطعة من مكان ما واكلت وشربت بشهية تامة ولم ابق من الكيك والفطيرة شيئا ، ولاحظ المسيو بول اكلي واخذ يضطرني الى تناول اكثر من طاقتي ٠

واستحسن رفضي اكل المزيد بعد ان عرف انني تناولت ما يكفيني وكان قد اعد لي رغيفا من الخبز رشه بالزبدة وابدى اسفه لانني لااقوى على تناوله ثم قال لي ٠٠٠ « والآن يا آنسة هل لديك الشجاعة والقوة للظهور امام المشاهدات والمشاهدين ؟ » وقلت له اظن انني قادرة مع العلم بانني في قرارة نفسي كنت في حيرة وارتباك من امري لا اقوى على تصوير مشاعري ولكن هذا الرجل كان من النوع الذي لايمكن ان يعارضه أحد مالم يكن لديه القوة المهيمنة الكافية لسحقه في الحال ٠

ومد لي يده وقال «تعالي٠٠اذن» وناولته يدي وسار معي بخطى سريعة اضطررت الى الركض للحاق به والسير بجانبه وتوقف لحظة في الساحة المضاءة بمصابيح كبيرة وكانت ابوابها مفتوحة على مصاريعها وكذلك أبواب الحديقة والذي زخرف وجمل تلك المداخل اشجار البرتقال في احواضها المعدنية المائية والازهار الطويلة السيقان في مقدورها البائنة بوضوح في كل جوانب ذلك المكان الفسيح وكانت جموع السيدات والسادة واقفة أو متمشية بين الاوراد والازاهير ٠

وكان المشهد من خلال المجاز الضيق الوسيع لغرف الدراسة يمج باعداد كبيرة من الناس المتموجين بكثرتهم يتمتعون بوقتهم وكل المنظر يمج ايضا بأوراد ملونة وشفافة وهناك اجهزة تنوير تحترق من فوق الرؤوس وعلى مبعدة ما مسرح وستارة خضراء مهيبة الشكل وصف من اضواء

twitter @baghdad_library

مقدمة خشبة المسرح وقال لي المرافق ٠٠ « اليس هذا يوما بديعا ؟ » وكان علي ان اقول له « انه كذلك » ولكن الكلمات علقت في بلعومي لان قلبي كان متصاعد الوجيب واكتشف المسيو بول امري وحدجني بتقطيبة غاضبة من وجهه دغدغ فيها آلامي وقلت له « سابذل جهدي واتمنى ان ينتهي الموضوع » ثم سألته « هل سنمشي وسط هذا الجمهور ؟ » واجاب « طبعا ولكنني سأعالج الموضوع بشكل افضل سنمر من وسط هذه الحديقة » ٠

وبلحظة كنا في العراء خارج الابواب وانعشني نوعا ما الليل البارد الهادىء وفي تلك الليلة لم يطلع القمر ، ولكن انعكاسات الاضواءمن عدد كبير من الشبابيك النيرة اضاءت المساحة اضاءة رائعة حتى انها كانت تضيء الازقة فالسماء كانت بلا غيوم وكانت جليلة ومهيبة بارتعاشات نيرانها الحية فما احلى ليالي الجزيرة الرئيسة وما آمنها ارقها وانعشها عندما تخلو من ضباب البحر ومن رطوبته القارصة البرودة وتلك الليلة كانت عديمة الضباب كالظهيرة ومنعشة كالصباح ٠

وبعد ان عبرنا الساحة والحديقة وصلنا الباب الزجاجي للصف الاول وكان مفتوحا ككل الابواب الاخرى في تلك الليلة ومررنا ثم دخلنا غرفة صغيرة تقسم الصف الاول عن المسرح الكبير وهذه الغرفة حيرتني اذ كانت زاخرة بالاضواء وأصمت اذني من شدة ضجيجها وامضتني فقد كانت شديدة الحرارة خانقة ومزدحمة وصاح المسيو بول ٠٠ « سكوت هل هنا فوضى ؟! » وخيم السكوت وبكلمات قليلة وايماءات عديدة اخرج نصف الموجودات واجبر الباقيات على الاصطفاف بانتظام ٠

واللواتي غادرن كن يرتدين الملابس النسوية التي ترتدى بمناسبات خاصة من ستر وتنورات وملابس اخرى (كوستم) لانهن كن الممثلات وكانت الفرقة تسمى بالفرقة الخضراء المخصصة للممثلين والممثلات ٠ وقدمني المسيو بول لهن ورمقني كلهن بتحديق مربك وكبتت بعضهن ضحكاتهن فقد كان ذلك بالنسبة لهن امرا مفاجئا اذ لم يتوقعن ان امرأة انكليزية ستظهر في مسرحية وحدجتني جنيفرا فانشاوي التي كانت ترتدي ملابس جميلة وفاخرة بنظرات عينيها المفتحتين المدورتين تدوير الخرزة ٠ لقد كانت تشعر بالجرأة التامة دونما خوف أو خجل وفرحة بانها ستظهر

وتشتهر امام المئات ولذلك فان دخولي كان يبدو بمثابة طعنة لها فادهشها وسط خضم فرحتها وكانت تهم بالصياح ولكن المسيو بول اوقفها وردعها كما عمل على وقف الباقيات عن الحركة وردعهن ٠

وبعد ان استعرض المسيو بول جمع الممثلات وانتقدهن التفت الي وقال لي « انت ايضا ينبغي ان ترتدي ملابس التمثيل وعلقت زيلي بيير على ذلك وهي تندفع الى امام قائلة« ترتدين كرجل»واضافت على ذلك بشكل رسمي « انا التي سألبسها لك بنفسي » ٠ ان ارتداء ثياب الرجل امر لا يروق لي ولا يناسبني فقد رضيت ان آخذ اسم الرجل ودوره اما بالنسبة لابسه فلا ٠٠ سأحتفظ بملابسي مهما كلف الامر وقد يهاجمني المسيو بول وقد تثور ثائرته ولكنني سأحتفظ بملابسي وصارحتهن بصوت عازم من حيث النية والقصد وان كان واطئا وربما متقلب النبرة ٠

ولم يهاجمني او تثور ثائرته في الحال كما كان ظني انما وقف صامتا ولم يحر جوابا ولكن زيلي تطفلت وعارضت مرة اخرى قائلة « انها سترتكب غلطة كبيرة تنم عن الغرور ٠٠ اليك بالثياب ٠٠ هذه هي كاملة وان كانت بنوع ما كبيرة عليك ولكنني سأعالج هذا الامر » تعالي يا حبيبتي المسترجلة ويا صديقتي الانكليزية الجميلة ٠ واذ قالت ذلك بلهجة السخرية ــ لانني لم اكن جميلة ــ اخذت يدي لكي تسحبني الى الخارج وعاينت المسيو بول واقفا على الحياد دون ان يبتدر شيئا حيال هذا كله ٠

وتابعت بيير تصرفاتها وكلماتها قائلة لي «عليك الا تعارضي (وكنت اعارض فعلا) لان معارضتك ستفسد كل شيء وتقضي على مرح الجميع ومتعتهم وتضحي بكل شيء ارضاء لما ترتدينه انت وهذا امر سيء لن يرتضيه او يوافق عليه المسيو بول » ٠

قالت ذلك ورنت اليه وراقبت نظراتها ورنوت انا اليه ايضا منتظرة ما سيكون جوابه فلاحظت انه رنا اليها ثم الي وقال بلهجة واطئة « لحظة واحدة من فضلكن » وتقدم فاوقف بيير التي كانت لا تزال تبذل مجهوداتها لكي تجرني خلفها وانتظر الجميع قرار المسيو بول الذي لم تظهر امارات الغضب على وجهه ولا امارات التبرم كما تراءى لي ولذلك تشجعت ٠

twitter @baghdad_library

وسألني المسيو بول وهو يومىء الى الالبسة الرجالية « انت لاتريدين هذه الثياب ؟ » وقلت له « لا اعارض على قسم منها ولكنني لا اريدها كلها» وقال لي « كيف اذن ؟ كيف تقبلين قسما منهـــا وتذهبين الى المسرح وانت مرتدية ثياب النسوة ؟ انه شأن الهواة صحيـــح ان المسرحية مضحكة وانا استطيع ان اقدم شيئا ايضاحيا واظهرك بانك من الجنس الانيل » ٠

وقلت له « انا راضية ايها السيد ولكنني انا التي ارتب هذه الملابس بطريقتي الخاصة ولا اريد من احد ان يكون وسيطا وهذه الاشياء لايمكن فرضها علي فرضا دعوني ارتديها انا بنفسي » وبدون ان يتكلم المسيـو بول بشيء اخذ الملابس من بيير واعطاها لي وسمح لي بالذهاب الى غرفة تبديل الملابس ٠ وفي وحدتي هذه عاد الي الهدوء ورحت اتعمل رابطـــة الجاش وقد استعدت كسوتي النسوية دون تراجع واقتنيت ثوبا رجاليـــا وربطة العنق وسترة ذات ابعاد صغيرة وهذه كلها كانت ملابس اخذناها من شقيق احدى التلميذات ٠

وقمت بترتيب شعري وارخائه وحله بعيدا عن جدائله وقربت مـــن طول شعري الخلفي ومشطت القسم الامامي منه واملته الى الجانب الواحد واخذت قبعتي وقفازي بيدي وخرجت وكـــان المسيو بـــول في انتظاري والفتيات الممثلات ايضا ونظـــر الي بارتياح ولـــكن بيير اخذت تستهزىء ايضا بطريقتها الافعوانية ولما كنت متبرمة من اثر الانفعال لم ار بدا من ان التفت اليها واقول لها « لو لم تكوني سيدة وانا نبيلة الاخلاق لدعوتك للحساب في الخارج » ٠

وقال المسيو بول « بعد المسرحية ٠٠ بعد المسرحية ٠٠ لي مسدسان ساعطي لكل منكما واحـــدا ونسوي النزاع بينكما بموجب العادة وسيكون هذا اول حرب افتتاح قديمة بين فرنسا وبين انكلترا ٠ وفي ذلك الوقت حان موعد المسرحية فرتبنا المسيو بول امامه والقى محاضرة مختصرة علينا كما يحاضر الجنرال امام جنوده قبل قيامهم بالهجوم ٠ ولا ادري ماذا قال لنا المسيو بول سوى انه طلب من كل منا ان تؤدي واجبها خـــارج حدود تفاهتها الشخصية والله يعلم انني ادركت ماذا عناه من عبارته هذه ولـــن كانـــت موجهـــة ٠ ورن الجرس ودخلت انا واثنتان معـــي الى المسرح ورن الجرس مرة اخرى وترتب علي ان اتفوه ببعض الكلمات الاولى ٠

وهمس المسيو في اذني قائلا : لا تنظري الى الجمهور ولا تفكري بوجوده وتصوري نفسك في العلية الحجرة التي تقع تحت السطح تمثلين للجرذان ، وانصرف عني ورفعت الستارة واخذت بالتقلص والتغضن والانكماش امام السقف وبهرتنا الاضواء البراقة اللماعة والغرفةالطويلة والجمهور المبتهج وكأنها اندفعت وانفجرت امامنا على حين غرة . واتجه ذهني الى الخنافس السوداء والصناديق القديمة والمناضد التي اكلتها العثرات .

وقلت كلماتي بشكل رديء ولكنني قلتها على اي حال فالخطاب الاول كان الاصعب وظهرت لي الحقيقة التالية وهي انني لم يكن ما اخشاه هو الجمهور بقدر ما كنت اخشى صوتي ذاته فالاجانب او الغرباء لم اعبأ بهم ولم افكر فيهم وعندما استعاد لساني حريته في النطق وعاد صوتي الى سابق طبقته ووجد نبرته الحقيقية لم افكر بأي شيء سوى الشخصية التي امثلها وبسوى المسيو بول الذي كان يصغي ويراقب ويلقن من الموقع الجانبي للمسرح .

وشيئا فشيئا استشعرت بالقوة تجيئني فالجدول يتطلب التدفق الداخلي المفاجيء واصبحت رابطة الجاش اراقب والاحظحركات زميلاتي الممثلات التي ادى البعض منهن ادوارهن بشكل جيد جدا ولاسيما جنيفرا فانشاوي التي لعبت دور المفناج بين خطيبين كل منهما يريدها لنفسه وابدعت فيه . ولاحظت انها لمرة او مرتين اشارت الي بولع شديد ـ انا الشاب المتألق ـ وفضلتني بهما على الآخر تفضيلا واضحا .

ومثل تلك النظرات المفناجهوجهتها صوب المستمعين وصوب الجمهور الذي كان يهتف لها اما بالنسبة لي انا التي اعرفها حق المعرفة فان نظراتها في الواقع كانت تدل على انها ليست موجهةالي وانمالى شخص آخر وتابعت اتجاهات عينيها وابتسامتها وايماءاتها وقبل مدة اكتشفت انها تريد ان تلفت اهتمام شخص آخر بها اقردته من بين المشاهدين .. هدف جميل ومميز اطول من القاعدين المتفرجين الآخرين واكثرهم تأكيدا بانه سيقابل الممثلات . لقد جلس هادئا وان كان قاصدا واذا به الشكل المعروف لدى الجميع شكل الدكتور جون .

twitter @baghdad_library

لقد كان المشهد مثيراً نوعا ما وكان في نظرة الدكتور جون لغة مدروسة ومع انني لم استطع الاهتداء الى ما كان يقوله فانه شجعني واستنبطت منه تاريخا وزججت برأيي في القسم الذي مثلته وادخلته في موضوع تودي لجنيفرا وتوسلي اليها وفي (اورس) او العاشق المخلص وجدت الدكتور جون ٠٠ اتراني اشفق عليه كما كان شأني في السابق ؟ كلا ٠٠ لن افعل ذلك فانني سأقسي قلبي واحجره وسأنافسه وأبذه في المنافسة لقد عرفت عن نفسي انني كثيرة التألق واذا اصبح هو منبوذا فذلك سيسرني والآن انا عارفة بانني مثلت لكي اصمم على الفوز والتغلب وجاءت جنيفرا بالدرجة الثانية من بعدي وبدلنا بيننا نصف تبديل طبيعة الادوار وموهناها من الرأس الى اخمص القدم ٠

وقال لنا المسيو بول في فترات الراحة بين الادوار ما الذي يدور بينكما وراح يلومنا لوما خفيفا ، ربما كان اداؤكما افضل من النسخة الاصلية ولكنه على كل حال غير صحيح اي خارج عن النص الاصلي امانا فلست ادري ما كان يدور في نفسي والذي كنت ادريه انني كنت اروم التفوق على (اورس) اي على الدكتور جون وكانت جنيفرا محبة ودودة فكيف يمكن الا اكون فارسا شهما كفرسان القرون الوسطى ولذلك غيرت روحية الدور بطيش وتهور اذ لم يكن بوسعي ان اقوم باداء دوري بدون قلب وبدون اهتمام اطلاقا وكان ينبغي اداء الدور فاديته برغبة تامة ٠

والذي شعرت به تلك الليلة والذي عملته ايضا فيها لا يمكن ان اشعر به واعمله مرة اخرى الا اذا رفع بانتشاء الى السموات السبعة ، لقد قبلت تمثيل الدور ببرود وتردد وخوف من اجل ان ادخل البهجة الى قلبي وفي اليوم التالي عندما ظننت ان الامر انتهى اظهرت عدم رضاي من هذه الانجازات التمثيلية ٠ ومع انني اجبرت المسيو بول ـ وانا مسرورة ـ جربت قوتي الخاصة مرة واحدة واتخذت قرارا حاسما بعدم الانجرار الى شيء مماثل ٠

لقد اظهر ميلي الشديد للتعبير الدراماتيكي جزءا من طبيعتي وهي ان الاعتزاين بمقدرتي المكتشفة حديثا وممارستها وقد تفتح أمامي عالم بهيج ولكن لن يجدي ذلك أمام من يلقي بنظرته الى الحياة ٠ ان علي ان

ادخر هذه القوة وأبقي على هذا الشوق وفعلت ذلك وربطتها بمشبك قرار لا يقوى الزمن او اية من المغريات على ان تطال اليها ٠

وما ان انتهت المسرحية حتى طرأ تغيير على المسيو بول المستبد السريع الغضب بعد ان ولت ساعة مسؤوليته الادارية فتخلى عن تزمته وسلطته حتى انه جلس بيننا مرحا لطيفا واجتماعيا وصافحنا جميعا وشكرنا واحدة فواحدة على انفراد وابدى عزمه على ان يأخذنا واحدة فواحدة الى حفلات الرقص وعندما جاء دوري قلت له انني لا ارقص ولو لم اتسلل وابتعد عن طريقه لاضطرني الى القيام بدوره الثاني ولكنني مثلت ما يكفي لامسية واحدة وآن اوان الرجوع الى نفسي والى حياتي الاعتيادية ٠ ان ملابسي الكميتية اللون كان لها منظرها البهي تحت السترة على المسرح ولكنها لا تصلح لرقصة الفالز او لرقصة (الكادريل) التي كان لها شعبية في ذلك الوقت حين يرقصها اربعة ازواج ٠

وقد انسحبت الى خلوة في مكان منعزل هادىء ارى الجميع ولا يراني احد وكنت اشاهد المرقص واتحسس ببهائه ومسراته وكانه يمر من امامي كمشهد من المشاهد وكانت جنيفرا فانشاوي ايضا هي الفاتنة ذات الجمال الساحر في المرقص فقد كانت اجملهن وابهاهن اختيرت لافتتاح المرقص وكان منظرها جيدا ورقصت رقصا فاتنا وكانت تبتسم ابتساماتها الحلوة ومثل تلك المشاهد والمناظر تثير لديها البهجة والسعادة فهي اصلا بنت المسرات قالعمل والمعاناة يجدانها كسولة فاترة الهمة ومكتئبة واهنة ومتذمرة في حين ان المسرات تنشر جناحيها كالفراشة وتظهرها كالذهب الخالي من الشوائب وكالنقاط اللماعة وتجعلها كالجوهرة المتوهجة والوردة المتفتحة انها تقطب لكل اوقات تناول الطعام وشرب المشروبات ولا تتناول سوى القشدات والمثلجات والبوظات وتحوم حول الحلويات حومان الطائر المدندن على معجون العسل ٠ وكأن الخمر الحلو المذاق همها الاوحد والكيك الحلو خبزها اليومي فجنيفرا عاشت عيشتها الكاملة في غرفة الرقص اما في اماكن اخرى غير مثل هذه الاماكن فان حالتها تكون فاترة وكئيبة ٠

ولا تظن ايها القارىء انها تتالق وتزدهر هكذا من اجل زميلها المسيو بول او انها ابدت كل مالديها من فتنة وجمال في تلك الليلة لتبهر بها

twitter @baghdad_library

زملاءها فقط او العائلات المتواجدة التي ملأت ارجاء الساحة وقاعةالرقص في ظروف تافهة ومحددة وحوافز باردة ومضجرة. وما كانت جنيفرالتتنازل بالرقص مستطيلا واحدا في رقصة الكادريل (التي فيها مستطيلات) والا فالسام والشكاسة يحلان محل الحيوية والمرح وطلاقة المحيا ذلك انها كانت تدري بوجود خميرة منشطة بين الجمهور المبتهـــج في المهرجان ولولا ذلك ما تناولت تابلا منحهاالنشاط والحيوية فهناك اسباب وحوافز لابرازاحسن ما فيها من مفاتن .

في قاعة الرقص لم يكن موجودا اي متفرج ذكر دون ان يكون متزوجا او ابا ـ باستثناء المسيو بول ـ الذي كان (الجنتلمان) والمخلوق الوحيد الذي يقود طالبة الى المرقص وهـــذه المهمة انفرد بها واوليت له بشكـل استثنائي اولا لوجود عادة قديمة بصفته احد اقرباء المدام بيك الـــذي توليه ثقتها المطلقة وثانيا لانه استأثر بكل شيء بطريقتـه الخاصة دائمـا وكان يفعل ما يروق له فعله وثالثا ولانه كان عنيـــدا ومتصلبا ومتحيزا وسريع الغضب ومهما كان من امره فقـد أولي روح الشرف ومنح الثقـة لايجاد نظام اعدل وانقى متسم بالامن التام وبان مثل هذا النظام بقيادته لن يناله الضر او الاذى .

هناك الكثير من الفتيات لم يكن نقيات السرائر ابدا الا انهن مع ذلك لم يجرأن على خيانـة ردائتهـن وفظاظتهن الطبيعية بحضور المسيو بول او يضحكن بوجهه اثناء القائه خطابا عنيفا او يعلن ويرفعن اصواتهن ولـو قليلا في وقت يكون هو منشغلا بازمة وقد يحلو له ان يرقص مع احداهن والويل لمن يريد التدخل او اخراجه من جادته حينذاك .

هناك من يسمح لهم بالدخول كمتفرجين بعـــد مزيد من التوسلات وبالتاثيرات والتقيدات وبممارسة خاصة وصعبة من طبيعة المدام بيـــك الطيبة التي تمضي طيلة اوقات كـل مساء بمراقبة شخصية لـكل ارجـاء الساحة القصية الباردة الموحشة المظلمـة وهنـــاك مجموعة من الشبان البائسين المحرومين اولاد امهـــات الطالبات اللواتي شقيقاتهم طالبات في المدرسة . ان المدام كانت تمضي طيـلة المساء معهم تحـن اليهم حنو الام ولكنها نظامية معهم وكالتنين قوة وحولهم نطاق من الحراسة ويتوسلون بها ان تسمح لهم بالمرور لمراقصة احدى الطالباتاومراقصة تلك الشقراء

او ذات الشعر الفاحم المتطاير تلك ويكون جوابها ٠٠ سه٠٠ لازم السكوت لن تمر الا على جثتي ولن ترقص الا بمراقبة من راهبة الحديقة ٠ وتمشي هنا وهناك بابهة وجلال بين صفهم كبونابرت صغير ببدلتها الحريرية ذات الالوان ٠

كانت المدام على علم ببعض ما هو موجود في العالم وعلى المام بالقدر الكثير من الطبائع والسرائر البشرية ولا اظن ان هنالك مديرة اخرى في (فيليت) تقبل بوجود شبان داخل حيطان مؤسستها ولكن المدام بيك ادركت انها بسماحها بذلك بمناسبة كمثل هذه المناسبة تكون قد قاومت الضربة بضربة اشد ونالت بذلك نصرا كبيرا وفي المقام الاول اشركت اولياء الطالبات بهذه الحقيقة التي لم تحصل الا بوساطتهم وثانيا ان سماحها بدخول الافاعي ذات الاجراس بما تتصف به من سحر وخطورة يفضي الى ابراز المدام بيك في الوضع الاقوى وهو كونها مراقبة من الصنف الاول وثالثا يكون لوجودهم مقومات المتعة على اوسع نطاقها وابهاها ٠

وكانت الطالبات تدرك ذلك وتشاهده وان وجود مثل تلك التفاحات الذهبية ذات البهاء اللامع من الشباب على مبعدة منهن ينعش روحياتهن ويلهبنها على شاكلة لا يتسنى لاي ظرف آخر الهابها ويسري مرح الاطفال الى الوالدين وتموج الحياة بمرحها حول قاعة الرقص تموجا مريعا زدهى ذلك انهم يتمتعون ــ وان كانوا تحت الرقابة والتقييدات ــ فالمدام لاتريد ان يشعر هؤلاء بالكآبة وبذلك يلاقي مهرجان المدام بيك نجاحا منقطع النظير في كل سنة لا عهد لاي مهرجان آخر به في البلاد ٠

لقد لاحظت ان الدكتور جون كان يسمح له في اول الامر بان يتمشى بحرية بين الصفوف ولكن كانت تحيط به رقابة شريفة وقوية تحترم شبابه وجماله ولكن ماان يدق الجرس حتى تقبل المدام اليه مهرولة ضاحكة قائلة له « تعالى ٠٠ ايها الذئب ٠٠ تعالى ٠٠ انت ترتدي لباس الخروف وعليك الخروج من الحظيرة مع ذلك ٠٠ تعالى ٠٠ لدي عشرون من معرض الوحوش في اساحة فانضم اليهم » ويقول لها الدكتور جون « ولكن ليس قبل ان تسمحي لي برقصة واحدة مع طالبة اختارها بنفسي » وتحدجه المدام بنظرة غضوبة قائلة « او لديك الجرأة والوقاحة لتطلب مني ذلك ؟

twitter @baghdad_library

انه جنون محض وامر لا اخلاقي فاخرج من هنـا ·· اخـرج ·· وتسوقه امامها حتى توصله الى مكان الآخرين وتلحقه بهم ·

وعلى ما ظننت تبرمت جنيفرا بالرقص وتضجرت منه وعند رجوعي قصدتني والقت بنفسها على المقعد الطويل وقعدت بجانبي وبتظاهرة عرفت كيف اتخلص منها منذ السابق لفت ذراعها حول عنقي وبكت بكاء هستيريا وتمالى نشيجها وهي تقول « لوسي سناو ·· لوسي سناو ·· » وقلت بلهجة جافة « وما الذي ألم بك في عالمك هذا ؟ » وقالت لي « كيـف ابدو الان ؟ كيف ابدو في هذا الليل ؟ » وقلت لها ببرود وجفاء « منظرك اعتيادي » ·

وقالت لي « أيتها المخلوقة الساخرة ·· لم يصدف ان كلمتيني ابـدا باية كلمة لطيفة ولكنني بالرغم منك وبالرغم من كل الحاسدين الآخرين اعـرف انني جميلة واشعر بجمالي واراه بعيني في مرايا كبـيرة الحجم في غرفة تغيير الملابس حيث ارى فيها قوامي وشكلي من راسي الى اخمص قدمي فهل لك ان تأتي معي الآن ونقف كلتينا امامها ؟ » وقلت لها انا موافقـة ايتها الآنسة فانشاوي فانت مغرورة الى الحد الاكبر من الغرور » ·

وكانت غرفة تبديل الملابس قريبة جدا فدخلناها وقد وضعت ذراعها على ذراعي واخذتني الى المرآة وبدون ان اقاوم او اصيح او ابدي ملاحظة وقفت وسمحت لها بان تتمتع بحبها لذاتها وبغلبتها وانا راغبة في معرفة الى اي حد تستطيع ان تبتلع من كبريائهـا واعجابها بنفسهـا ولـو كان بمقدورها لاتخمت نفسها بها وكنت ايضا اريد ان اعرف ما اذا كان يغزو قلبها اي احترام او اعتبار للآخريات وما اذا كانت على استعداد للحد من عبث اعجابها الشديد بنفسها ·

ثم حولتني عن المرآة بعد ان نظرت الى نفسها والى نفسي من كـل الجوانب وابتسمت وحركت عقائصها واعادت لمس نطاقها ونشرت فستانها واخيرا سحبت ذراعها من عـلى ذراعي وانحنت باحترام ساخـر وقالت : « لا اريد ان اكون انت وان اعطوني مملكة » وكانت ملاحظتها اكثر سذاجة وبساطة من ان تثير غضبي واكتفيت بان قلت لها « حسنا جدا » وسالتني وماذا تعطين لقاء ان تكوني مثلي؟» فاجبتها « ستة بنسات على غرابتها ليست بالقليلة ·· انك لست سوى مخلوقة مسكينة مثيرة للشفقة » ·

وقالت لي « انت لا ترين هذا الرأي فيقرارة نفسك » وقلت لها « في قلبي ليس لك شكل يحل في مكان انما احيانا اقلبك في ذهني تقليبا فقط » وقالت بلهجة معنفة « ولكن عاينني فقط الاختلاف الكائن بين وضعينا ثم شاهدني مدى سعادتي ومدى بؤسك انت » وقلت لها « استطردي في كلامك فانا اصغي اليك » وقالت لي ما يلي:

« بالدرجة الاولى انا ابنة عائلة نبيلة ومع ان ابي ليس غنيا فلدي امل في الفوز بارث عمي ثم انني في السادسة عشرة من عمري وهو ابدع عمر ممكن · ولي ثقافة مكتسبة من الجزيرة الاصلية ومع انني لا اتهجى اللفظات فلدي مآثر واعمال بارعة كثيرة جدا فانا جميلة ولا يمكنك ان تنكري ذلك ولدي الكثير من المعجبين بجمالي اختارهم كما يحلو لي ففي هذه الليلة بالذات سبيت قلبي اثنين من السادة الجنتلمانية وفي فكري وخيالي ان نظرة الموشك على الموت من جراء اعجابه وتعلقه بي هي التي تعزز معنويتي واهوى ايصالهما الى حالة من اصفرار الوجه وهما يتبادلان النظرات الحادة من أجلي ويرنوان الي بنظرات الشغف الموهنة ·· هذا انا ·· انا السعيدة ·· أما انت فلست سوى فتاة تعيسة »واستطردت تقول:

« في افتراضي وظني انك لست ابنة احد فقد كان لديك اطفال صغار عندما جئت لاول مرة الى « فيليت » وليس لك اقارب ولا يمكن ان تسمي نفسك شابة وانت في الثالثة والعشرين من عمرك · وليست لك كياسة او اشكال جمالية وليس لكجمال اما بالنسبة لما تزعمينهمن وجود المعجبين بك وانت جاهلة حقيقة امرهم وليس لك حتى حق التكلم في الموضوع ·· انك تجلسين صماء بكماء عندما تقدم المدرسات ارقاما ومعلومات وفي اعتقادي انك لم تحبي احدا ولن تحبي احدا أو تعشقي احدا بمعنى العشق الصحيح لانك لا تتحسسين به وهذا حسن لانك وان كنت على وشك ان يتحطم فؤادك فانت لم تحطمي قلب احد اليس هذا كله صحيحا ؟ »

ورحت اجيبها قائلة لها « ان القسم الاكبر مما قلته عنك صحيح ·· ربما يكون بك نوع من الطيبة يا جنيفرا ـ اذا اردنا التكلم بامانة ـ ان تلك الحية الرقطاء زيلي بيير لا يمكن ان تتكلم على الشاكلة التي تكلمت فيها · ومهما كان حظي سيئا ايتها الآنسة فانشاوي كما جاء في أقوالك فانني اربأ بنفسي ان اشتريك بستة بنسات روحا وجسدا » ·

twitter @baghdad_library

وقالت لي « هذا كله تقولينه عني لانني لست ذكية او هـذا كل ما تظنينه بي ؟؟ لا احد في العالم يهتم بالذكاء سواك » وقلت لها « ارى الامر على عكس ما تقولين .. انك في رأيي ذكية .. بطريقتك ورشيقة حقا ولكنك تكلمت عن سحق القلوب تلك المتعة العظيمة التي لم يتسن لي ان اجربها بجدارة .. صلي على ارواح اولئك الذين حدا بك غرورك وخيلاؤك الى ان تظني بانهم انتحروا من اجلك هذه الليلة » .

وقربت شفتيها من اذني وهمست « ايزيدور والفريد دي هامال كلاهما هنا » وقلت لها « احقا ما تقولين هل لي بان اراهما ؟ » وقالت لي « هنا مخلوق عزيز على قلبي .. يظهر ان فضولك قد ثار اخيرا .. اتبعيني وساريهما لك » ومضت بفخر واعتزاز امامي ثم قالت لي « لا تتصوري انك ستشاهدينهما جيدا من بين المتاعد » وحولت نظرها الى الجهة الاخرى وقالت لي ان المدام تبقيهما بعيدا جدا عن هذا المكان فلنعبر الحديقة وندخل من جانب الممر ونقاربهما من الخلف . سيعنفوننا ان وجدونا ولكن لا تهتمي بذلك » .

وفي اول الامر لم اهتم فمشينا في الحديقة . ووصلنا الى الممر عن طريق مدخل خاص هادىء حتى وصلنا الساحة وبعد ان خلفنا كليتنا ظلينا في الممر وصلنا الى مكان قريب نستطيع منه ان نشاهد فريق الشباب واظن انني شخصت دي هامال حتى دون ان تشير اليه من وصفها السابق فقد كان ذا انف مستقيم وسيما جميلة فهو غندور حسن التالق وكانت قسمات وجهه صغيرة جدا وبيداء ورجلاه قصيرة وكان جميلا وغضا وانيقا كالدمية ولباسه جميل وشعر رأسه ممشط على أحسن ما يكون التمشيط وكذلك كان حذاؤه وقفازاه وربطته جميلة وكان شابا ساحرا بحق وحقيق وقلت لجنيفرا بصوت عال انه شخص محبوب وهنأتها على ذوقها .

وسألتها ما هو رأيها فيما صنعه دي هامال باجزاء فؤاده المسحوق هل حفظها في قنينة عطر فواح ام احتفظ بها في عطر الزهور ؟ ولاحظت ايضا باستحسان ممزوج بالطرب العميق ان يدي الكولونيل لم تكن اكبر من يدي الآنسة فانشاوي تقريبا وقلت لها ان هذا قد يكون امرا مناسبا لانه يستطيع ان يستخدم قفازيها فيلبس يديه بهما اذا اقتضت الضرورة ومن مقصات شعره قلت لها انني مغرمة بها وكذلك بحاجبيه اليونانيين وتكوينة راسه

الكلاسيكية الفاتنة واعترفت بانني لاامتلك اللغة التي تفي حق هذا الجمال المكتمل ٠

وقالت لي جنيفرا المتغطرسة القاسية « وماذا لو كان عشيقك ؟ » فاجبتها « انها سعادة متناهية بحق السماء لو ان الامر كان كذلك » « وقلت لها » لاتكوني قاسية وعديمة الانسانية ايتها الانسة فانشاوي ٠ ان زوجك بمثل هذه الافكار في رأسي هو كمن يرى لقايين الطريد المسكين منظر الفردوس « وقالت لي » اتحبينه اذن ؟ ٠٠ فقلت لها « حبي للحلوى وفخذ لحم الخنزير والفاكهة المسكرة المجففة والمربيات وزهور المستنبتات الزجاجية » ٠

وامتدحت جنيفرا ذوقي لأنها تحب حبا جما كل هذه الأمور وقلت لها « الان ماذا عن ايزيدور ؟» اعترف انني اردت ان اعرف المزيد عن منافس دي هامال ولكن جنيفرا كانت مشغولة البال بهامال وقالت لي « الفريد سمح له بالمجيء الى هنا هذه الليلة عن طريق نفوذ عمته المدام لابارون دي دورلود والآن بعد ان شاهدته الا تعرفين لماذا انا بمثل هذه الحيوية والنشاط طيلة هذا المساء ومثلت بصورة جيدة ورقصت رقصاتي الحلوة تلك ولماذا الآن انا سعيدة سعادةالملكة ؟ الهي ٠٠ الهي ٠٠ ماأروع مشاهدته وما اسعدني اذ أصوب نظراتي اليه ثم الى الآخر تلك النظرات التي جننتهما بها » ٠

وسألتها ٠٠ « وماذا عن الآخر ؟٠٠ اريني الآخر ٠٠ ايزيدور ؟ » فقالت لي « لا اريد ٠ » وسألتها « لماذا ؟ » فاجابت « انا خجلى منه » وسألتها ٠٠ لماذا ؟٠٠ فاجابت همسا « لانه٠٠ لانه ٠٠يمتلك لحية باللون البرتقالي الاحمر » قلتلها « كل مرما بين اثنين شائع لا تهتمي اريني اياه وانا اتعهد امامك بان لن يغمى علي ٠ ونظرت الى ما حولها وفي ذلك الوقت تماما سمعنا صوتا انكليزيا يتكلم وراءها وورائي قائلا « انكما واقفتان في مكان خطر من لعبة الداما وعليكماان تخرجا من هذا الممر »٠

وقلت له وانا ملتفتة اليه « لا يوجد هنا لعبة الداما ايها الدكتور جون » وتابع الدكتور كلامه وهو يلاحق جنيفرا بمنتهى الود والحنان قائلا « انها تبترد بسهولة فهي رقيقة وينبغي الاهتمام بها افلا تفتشين

twitter @baghdad_library

لها عن شال ترتديه ؟ ٠٠وقالت الآنسة جنيفرا بعجرفة وكبرياء ٠٠«اسمح لي ان اقدر ذلك بنفسي ٠ انا لا اريد شالا » وقال لهـــا الدكتور « ان ملابسك شفافة وكنت ترقصين وجسمك ساخن » وردت عليه بسرعة قائلة « انت دائما تلقي المواعظ ودائما تنصح وتدلل الناس » ٠

ولم يجب الدكتور جون على ما كان المتوقع وبدا عليـه بوضوح ان اذى اسأب قلبه بدا ذلك في عينيه اللتين شاع فيهما الحزن والالم وتحول عنا قليلا وصبر نفسه ولما كنت اعلم اين يوجد الكثير من الشالات اسرعت وجلبت واحدا منها ٠ ولو كان لدي القوة على تلبيسه اياها للبسته ولكنني مع ذلك نشرته نشرا جيدا حول فستانها القطني الرقيق مغطية به عنقها وذراعيها تغطية جيدة وباهتمام زائـــد وسألتها بهمس عنيف نوعا مـا « هل ذلك ايزيدور ؟ » ٠

ودفعت شفتيها الى اعلى وابتسمت واومأت برأسها دلالة الموافقـة وكررت عليها السؤال ذاته « هل ذلك ايزيدور ؟ » واجابت انه هـو ٠٠ فما اخشنه بالنسبة للكولونيل الكونت ثم اردفت قائلة « يا الهي كيـف بلحيته ؟ » وذهب عنا الدكتور جون ورددت صدى كلماتها ٠٠ الكولونيل ٠٠ الكونت ٠٠ اللعبة ٠٠ القراقوز ٠٠ القـــزم ٠٠ المخلوق المسكين المركب النقص » ٠

وقلت لها « امن الممكن ان رجلا نبيلا (جنتلمان) رائعا كالصورة وكالخيف يقدم لك يده الكريمة وقلبه الشهم ويعـدك بان يحافظ عـلى شخصك الرديء النـوع وذهنيتـك البائسـة في اوقات الشدة والزعازع ومتاعب الحياة وانت تتعالين عليه وتستخفين به وتلسعينه وتعذبينه ٠٠؟ الديك السلطة لتفعلي به ذلك ؟ ومن ذا الذي اعطاك هذه السلطة ؟واين هي ؟ هل هي كامنة كلها في جمالك وفي ردائـــك القرنفلي الابيض وفي هيكلك وبشرتك وشعرك الاصفر ؟ وهل هـــذا الذي تفعلينه به يجعله يرمي بروحه على قدميك او يحني عنقه تحت نيرك ؟ وهل تظنين بانك في ذلك تشترين وده وعطفه وحنانه وافكاره وآماله واهتمامه ونبله وحبـه الصميمي ؟ الم يكن لك كل ذلك ؟ هل تزدرينـــه وتستخفين به ؟ انك بذلك تتظاهرين وتنافقين فقط فلست بالجادة ٠ انـــك تحبينه ٠ انك

تشتاقين اليه بيد انك تعبثين بقلبه لكي تبقي صلته بك اوثق ومؤكدة اكثر ؟ وكيف تستمرين على هذه الحالة ؟ انالا افهم نصف ما قلتيه لي » ٠

واخرجتها الى الحديقة بسرعة واجلستها على المقعد الطويل وطلبت منها الا تبر موضوعا حتى تعترف بانها تعني فيالنهايةاما ان تقبل الرجل او القرد ٠ وقالت لي ٠٠ انت قلت انه برجوازي ذو شعر رجراج كالرمل وان اسمه ينطبق على جون وهـذا يكفي فانا لا اريـــده امـا الكولونيل دي هامال فهو جنتلمان ذو صلات جيدة واخلاق رفيعة ومحيا جميل ووجه شاحبة فيه كل عناصر التشويق وشعر وعينان كشعر ايطالي وعينيـه ثم ان عشرته مريحة لي فهو على هواي ومرادي وليس حساسا وجديا كالآخر انما هو شخص استطيع ان اتحدث معه حديث الند للند وعـــلى اساس متعادل وهو غير مزعج ولا ثقيل الظـل ولا يزعجني بمـا هـب ودب من المزعجات وبمواهب لا استذوقها ولا هم لي بها ٠ والآن ارخي مسكتـك عني ولا تشدديها ثم ارخيت قبضتي بالفعلاما هي فقد اسرعت فيالذهاب واثبة ، ولم يرق لي اللحاق والامساك بها ٠

ومهما كان من امر فانا لم احجم عن العودة مرة اخرى باتجاه الممر لكي القي بنظرة أخرى الى الدكتور جون فلاقيته عند درجات السلم الكائن في الحديقة حيث ينسكب ضوء احد الشبابيك عـلى مسافة واسعة ٠ ولم اخطيء صورته المناسبة تناسباجيدا فقد كان يحمل قبعته في يده ولا مثال لجمال رأسه المرفوعة ولحاجبيه البديعين ووجهه الرجولي ٠ ان محياه لم يكن رقيقا ناعما او ناحلا كوجه المرأة ولا منحوتا نحتـا ولا مجزءا لكي يخسر من القوة المحركة ون اهمية ما غنمه من التناسق ٠

هناك المزيد من المشاعر والاحاسيس تنطق في ارجـاء محياه احيانا وفي عينيه مشاعر واحاسيس صاتةوهذهكانت آرائي به فهوكل ذلك عندي وقد راودني شعور غامض من العجب واستحوذ علي استحواذا حين نظرت اليه ٠ ولم يكن قصدي الدنو منه ومحادثته في الحديقة فحدود تعارفنا لا يسمح بمثل هذه الخطوة وانما كان قصدي ان ارمقه من بين الجميع دون ان يعرف او يراني احد وعندما تقدمت اليه وحيدة ترددت الا انه كـان يفتش عني او بالاحرى عمن كانت معي ولذلك نزل من الدرجات ولحـق بي في المشى الذي تكتنفه الاشجار ٠

twitter @baghdad_library

وسألني بعد ان ادركني « هل تعرفين الآنسة فانشاوي ؟ كثيرا ما اردت ان اسألك ما اذا كنت تعرفينها ام لا » وقلت له « بلى ٠٠اعرفها٠ » وسألني «معرفة صميمية ؟؟ »فاجبته « صميمية بقدر ما اعرف » وسألني « ما الذي فعلتيه معها الآن ؟ » فاجبته « هل انا الحافظة او القيمةعليها؟» وكان يودي ان اسأل ولكنني اكتفيت بهذا الجواب ثم واصلت قائلة له « لقد زهزعتها زعزعة جيدة وكنت اريد مضاعفة هذه الزعزعة ولكنها تخلصت مني وولت هاربة » ٠

وسألني قائلا « هل انت مستعدة لتسجيل فضل علي بان تراقبيها في هذه الامسية وتلاحظين ماذا كان لا يبدر سوء منها ٠٠ كأن تهرب بعد الرقص مباشرة وقلت له « ربما اراقبها فترة من الوقت طالما انت راغب في ذلك بيد انها تؤثر طريقتها الخاصة وتفضلها اكثر مما يمكن السيطرة عليها ومراقبتها » وقال لي « انها في ريعان الشباب وساذجة الى حد البراءة » وقلت له « وأنا احسبها لغزا غامضا » وسألني باهتمام زائد « هل هذا صحيح وكيف ؟ » فاجبته « من الصعب علي ان اوضح كيف ؟ من الصعب ــ في الاقل ــ ان اتحدث لك انت عن الكيفية ؟ » وسأل « لماذا ٠٠ انا ؟ » وقلت له « ليست مسرورة ــ كما ينبغي ــ لان تكون صديقها » وقال لي « ولكن ليس لديها اقل فكرة عن مدى صداقتي لها وهذه هي ــ بالضبط ــ النقطة التي لا استطيع اعلامها بها فهل لي ان اسألك ما اذا كانت قد تكلمت عني بحضوري ؟ ٠٠٠ وقلت له « عندما تتحدث عن ايزيدور غالبا ما يرد ذكرك على لسانها وعلي ان اضيف على ذلك انني لم اكتشف الا قبل الدقائق العشرة الاخيرة انك وايزيدور متعادلان ٠ ومن خلال هذا الوقت الوجيز فقد عرفت ــ يا دكتور ــ ان جنيفرا فانشاوي هي المخلوقة التي اهتممت بها انت تحت هذا السقف منذ مدة طويلة وانها هي القوة الجذابة التي استهوتك وخلبت لبك (في شارع فوسيت) وانك من اجلها غامرت في الحديقة وتحريت عن عليبة الجواهر التي رماها منافسوها » ٠

وقال لي « انت تعرفين كل شيء » فاجبته بلى ٠٠ اعرف الكثير » وقال لي « اعتدت منذ ما يزيد على السنة ان التقي بها في مجتمع الناس وان السيدة كولونديلي صديقتها هي احدى معارفي ولهذا اشاهدها كل يوم احد ولاحظت بانها غالبا ما تتكلم عني تحت اسم (ايزيدور) فهل لي

ان اسألك ـ بدون نقض العهد او خرق الثقة ـ عن لهجتها في التحدث عني وعن تحسسك الخاص بملاحظاتها عني ؟ انني قلق ـ بنوع ما ـ واروم معرفة ما تلزم معرفته لانني معذب بشكوكي وعدم استقراري بكيفية تعاملي معها » ٠

وقلت له « انها تخالفك تماما فهي تتبدل وتتغير كالهواء ٠٠ وقال لي « تستطيعين ان تجمعي عنها فكرة عامة فما قولك ؟ » وقلت له « لا استطيع ان افعل ذلك ولكن لا فائدة من ايصال هذا الراي العام اليك ثم انني اذا قلت لك انها لا تهواك فانا عليمة بأنك لن تصدقني » فقال لي « انك متكتمة وفي رأيي ان ليس لديك اخبار جيدة توصلينها لي وعلى كل حال اذا كانت تشعر ببرود ومقت نحوي فهي علامة على انني لا استحقها وقلت له « هل لديك شك بنفسك ؟ وهل تعتبر نفسك ادنى منزلة اوقيمة من الكورلونيل دي هامال ؟ » ٠

وقال لي « احب الآنسة فانشاوي اكثر ممـا يحب دي هامال اية مخلوقة واستطيع ان اعنى بها واحميها بأفضل من دي هامال ومع احترامي لهذا الرجل اخشى ان تكون قد وقعت ضحية توهم به فاخلاق هذا الرجل معروفة لدي وكذلك ماضي اسلافه جميعا ٠ انه ليس جديرا بصديقتك الشابة الجميلة » وقلت له « ينبغي على صديقتي الشابة الجميلة ان تعرف ذلك وان تدرك من هو الجدير بها وتشعر به واذا كان جمالها او دماغها لا يصلحان للاهتداء الى هذه الحقيقة فانها تستحق دخول تجربة الدرس القاسي » وقال لي « الست انت قاسية عليها نوعا ما » وقلت له « انا قاسية جدا ٠٠ اقسى من ان اريد اظهار الحقيقة لك » ويتبغي عليك ان تصيخ السمع للنقد القاسي الذي به اعطف على صديقتي الشابة الجميلة فقط من اجل ان تصطدم بافتقاري الى اعتبارات العطف على طبيعتها الكيسة بالذات » ٠

وقال الدكتور جون ٠٠ « انها جد محبوبة وليس بمكنة المرء سوى ان يوليها الود والحب وانت او اية امرأة اكبر منها سنا ينبغي ان تشعر ازاء مثل هذه الفتاة الحورية البسيطة البريئة شعور الام او شعور الاخت الكبرى وتعطف عليها ٠٠ ايتها الملاك الجميل اللبق الا يحن فؤادك اليها عندما

twitter @baghdad_library

تسرك وتسكب في اذنك ثقتها الطفولية النقية فما اشد تسلطك عليها » قال هذا ثم تنهد امامي ·

وقلت له « بدأت اقطع حبل هذه الثقة بين حين واخر ولكن هل لك ان تعذرني ايها الدكتور وتسمح لي بان اغير الموضوع هنيهة ؟ اقول اي شخص شبيه بالاله هو هذا الشخص المسمى دي هامال ؟ وما هو هذا الانف الذي يتراءى على وجهه هل هو انف كامل ؟ هل هو كالنموذج الاول المصنوع من المعجون او الطين · الا تستطيع ان تصنع مثيلا له من مثل هذه المواد ؟ الا تستطيع ان تصنع افضل وأقوم وانظف منه ؟ ثم انظر الى شفتيه الكلاسيكيتين وذقنه والى مشيته وجلسته (المهيبتين) ·· » ان دي هامال دمية لا تستحق الذكر رغم ان البعض يعتبرونه بطلا وانت ايها الدكتور جون وكل من يقل عنه قولبة » تكنون له حبا واعجابا كالله الحرب والالهة الأخرى التي يقال انها ولدت ابولو الجميل الرشيق اله الشعر والموسيقى والجمال عند الاغريق » ·

واجابني الدكتور جون بغظاظة وخشونة « انها مقامرة غير مبدئية ايتها القردة الصغيرة التي استطيع ان ارفعها من نطاقها في اي يوم وارميها في جار الكلب اذا شئت » وقلت له « ايها الساروفيم الجميل ·· ما هذه الفكرة القاسية ؟ الست قاسيا بنوع ما ايها الدكتور ؟ وهنا توقفت للمرة الثانية في تلك الليلة فقد اشتط بي الغضب وذهبت مذهبا بعيدا يفوق طاقتي وجازفت بالاشتطاط عن جادة سلوكي وطبعي وتكلمت بتوتر عصبي لا روية فيه وبتهور دون ان اتعمد ذلك وهو امر روعني في الحال وبشكل غريب عندما استعرضت ما بدر مني ·

وعند نهوضي من فراشي في صبيحة ذلك اليوم كنت متوقعة انني قبل الليل ينبغي ان امثل دور العاشق المرح في مسرحية وبعد ساعة اتباحث مع الدكتور جون بصراحة حول موضوع بدلته المشؤومة وحول اوهامه وكنت انا والدكتور نروح ونغدو في الممشى واذا به يعود · والضوء المنعكس من الشباك اضاء وجهه ولاحظته وهو يبتسم ولكن الحزن السوداوي يطفح على محياه وكم تمنيت ان يشعر بالارتياح وباطمئنان القلب وكم احزنني ان يطيل التفكير في اله الناجم عن مثل قضيته وان يحب ـ وهو في مثل خصائصه وفوائده العظمى ـ حبا لا طائل من تحته ·

ولم اكن اعرف حينذاك ان التفكير العكسي الطويل الامد هو افضل المراحل عند بعض اصحاب الذهنيات ولم اعرف ان بعض الاعشاب العطرية الزائل عطرها عندما تمس وتفرك يعود شذاها وعطرها اليها من جديد وقلت له بتفجر عاطفي « لا تحزن ايها الدكتور ولا تغتم فلو وجد في جنيفرا شرارة واحدة من استحقاقها لودادك وحبك فانها ستشعر بان عليها ان تخلص لك فكن حريصا وتمسك بالامل ومن الذي يتشبث بالامل ـ ايها الدكتور ـ ان لم يكن واحدا كمثلك ؟ » ٠

ولقاء كلامي هذا حصلت على ما اتصور على استحقاق بدا في نظرته نظرة الدهشة المباغتة وربما الاستهجان ٠ وافترقنا وذهبت الى الدار وانا اشعر بقشعريرة برد ودقت ساعات المدرسة ورنت اجراسها في منتصف الليل ٠ وكان الناس يغادرون بسرعة فالمهرجان انتهى وخفقت انوار المصابيح وبعد ساعة واحدة سيعم الظلام على دور السكن ويلف الظلام كل ارجاء المؤسسة ويشملها السكون ايضا وآويت الى فراشي ولكن جفوني لم تعرف الغمض بعد الذي انتابني من هياج كهياج ذلك اليوم ٠

twitter @baghdad_library

الفصـــــل الخـامس عشـــر

ـ العطـلة الطـويلة الامـــد ـ

بعد مهرجان المدام بيك الذي جرى في العراء والهواء الطلق باسابيع استجماماته الثلاثة التي سبقته وبعد اثنتي عشرة ساعة من مرحه الصاخب ولذائذ طعامه وشرابه وبعد ما اعقبه من يوم كامل من التواني والكسـل جاءت فترة الرجعة والارتكاس ثم شهران من التطبيقات الحقيقية والدراسة الشاقة الجدية ٠

وكان ذانك الشهران اخر السنة الدراسية ، شـــهرا العمل الخالص الوحيد في السنة تحمل فيهما الاساتذة والمعلمات والطالبات ، العبء الاكبر عبء التحضير للامتحان الذي يسبق توزيع الجوائز وكـــان على المرشحات لنيل الجوائز ان يعملن آنذاك بجدية ملحوظة وعلى الاساتذة والمعلمات ان يبدو جانب الاهتمام ويساعدوا عـــلى تدريب التلميذات الاذكى وينبغي القيام بتظاهرة رائعة وعرض مؤثر امام الجمهور وكانت كـــل الوسائل مهيئة تهيئة جيدة لهذا الغرض ٠

وقلما كنت اشاهد كيف كانت المعلمات الآخريات يذهبن الى العمـل اذ ما كنت اريد ان اكون فضولية كما ان مهمتي لم تكن شاقة او مرهقـة ابدا انما كانت منصبة على ان احشو اذهان تسعين فتاة بطابع مميز عـن معرفة صعبة ومعقدة هي اللغة الانكليزية كما كانوا يتصورونها وان ادرب تسعين لسانا فيما كانوا يعتبرونه صعب التدريب هو اللفظ والنطق اللاثغ المميز لابناء الجزيرة ٠

twitter @baghdad_library

ودنا يوم الامتحان وياله من يوم مرعب مخيف ٠٠ دنا بعد ان حضر له بكل اهتمام وقد وقع علي العبء الاكبر ، انـــا الوحيدة من بين كـــل المعلمات لان الاخريات لم يتوقع اجراء الامتحان لهن في المواضيع الدراسية التي كانوا يعلمون الطالبات بها فبروفيسور الآداب المسيو بول تولىبنفسه هذه المهمة وهذا الاوتوقراطي جمع كـــل شيء يخص المدرسة في يديه ولم يقبل ان يكون الى جانبه اي زميل حتى المدام بيك نفسها التي كانتتهوى ـ على ما كان يبدو ـ ان تولى امر الامتحان في درس الجغرافيا دراستهـا المحببة التي كانت تدرس بها الطالبات تدريبا جيدا خضعت للمسيو بول وتوجيهاته الاستبدادية ونحى عنه كل هيئة التدريس ذكورا واناثا ووقف على منصة الممتحن وحيدا وازعجه ان يضطر الى الخضوع لاستثناء واحدفي هذه القاعدة ذلك انه لم يكن يجيد اللغة الانكليزية فاضطر الى ترك هـذا الفرع التعليمي لمدرسة اللغة الانكليزية عـلى مضض وعلى وجهـــه علائم الحسـد ٠

لقد كانت الحرب المتواصلة التي يشنها على الاحترام الذاتي لكـل آدمي ديدن ذلك القزم المقتدر الفاهم العنيف الشديد الغضب فقد كانتله رغبة عنيفة في التمثيل العام والنيابة العامة مقرونة في شخصـــه وفي مقت واحتقار كل شخص يضارعه في خصائصه هذه ولذلك كان يستخدم القمع وان لم يتسن له ذلك يرغي ويزبد كالزوبعة المحصورة المكبوتة ٠

وفي امسية ما قبل يوم الامتحان كنت اتمشى في الحديقة أسوة بغيري من المعلمات والمعلمـين وكـــل التلميذات الداخليـات وانضم الي المسيو عمانوئيل وسيكاره بين شفتيه ومعطفه المتميز الذي لا شكل خاص لهيتدلى بلونه الاسود على هيكله وشرابة قلنسوته تظلل صدغـــه الايسر وشارباه الاسودان مفتولان كشاربي القط الهائج ولعينيه الزرقاوتين بريق الغيمة وبدأ في حديثه معي قائلاً « اذن ستتوجين كملكة الى جانبي غدا وليس من ريب في انك ستتوقعين مسرات السلطة فعلى محياك تالق ابتها المرأة الطموحة الصغيرة السن ٠

والآن ظهر ان في الامر خطأ تاما فانا لا أقـدر ـ ولا استطيع ـ ان أقرر اعجابات من سيظهر غدا وحسن تقديراتهـــم بنفس الدرجة الـذي يستطيعها هو قياسا مع عدد من سيحضر من اصدقائه ومعارفه الشخصيين

الكثيرين ومن معارفي وصديقاتي واعرف الآن ما الذي سيكون عليه الامر الامر غدا فانا اتحدث عن القضية كما هي فبالنسبة لي لم يعمل نجاحي في المدرسة سوى انه القى ظلا من الشهرة الباردة علي فقد عجبت واعجب الآن أيضا كيف انه تصور الامر شهرة كبيرة لي وانني تألقت بحرارة كحرارة الموقد وبوهج كوهجه يبدو انه ابدى اهتماما بعيدا بها في حين انني لم اهتم بها الا اهتماما بسيطا ومع ذلك كنت املك تخيلا كتخيله فانا مثلا يروق لي ان اجد السيد عمانوئيل غيورا مني فالغيرة تنير وتضيء طبيعته وسريرته وتوقظ روحيته وتسلط كل انواع الاضواء والظلال الغريبة على محياه القاتم وعلى عينيه اللازورديتين البنفسجيتين فقد كان يقول دائما ان شعره الاسود وعينيه الزرقاوين هي من عناصر جماله ٠

ولوحظ تلذذ واستمتاع جدي وبسيط في غضبه ومع انه لم يكن له من موجب فانه لم يكن مصطنعا أيضا ولم انطق بما يستدل بانه تنصل عما قاله بحقي وما عزاه لي عن ارتضائي بنفسي بل اكتفيت بالسؤال منه عن موعد الامتحان باللغة الانكليزية هل انه في باكورة اليوم ام في نهايته ؟ وقال لي « لا اتصور انه سيكون في باكورة اليوم قبل ان يأتي اناس كثيرون ليشعروا بالامتنان من طبيعتك او عند نهاية اليوم حين يكون الجميع تعبانين ومنهوكي القوى ولا يتنبه الى خدماتك سوى النزر اليسير من الناس » ٠

وقلت له باكتئاب عاطفي ما اقساك يا سيدي ٠٠ ينبغي ان يكون المرء (فظا) معك انك من اولئك الناس الذين ينبغي ان يوقفوا عند حدهم ويقمعوا انني اعرفك جيدا٠٠ اعرفك جيدا ٠٠ ان الناس الاخرين في هذه الدار يشاهدونك وانت تمر ويظنون ان الظل العديم اللون قد مر بهم اما انا فقد تفحصت وجهك مرة وكفاني ذلك التفحص » وقال لي « انك مقتنعة بانك تفهمينني اليس كذلك ؟ » ٠

وبدون ان اجيبه بشكل مباشر استطرد يقول (الم تشعري بالرضى عندما افلحت في مسرحيتك الهزلية تلك ؟ لقد شاهدتك وشعرت بالحماسة المتقدة لاحرازك النصر في فراستك ٠ يالها من رمية تارية في نظراتك ٠ انها ليست مجرد نور او ضوء ٠ انما هو شعاع واعتبرته انا نذيرا »

twitter @baghdad_library

وقلت له « ان الشعور الذي داخلني في تلك المناسبة ايها السيد ـ واعذرني ان انا بالغت كل المبالغة في نوعيته وكميته ـ كان شعورا اجوف فما انا اهتممت بالمسرحية وكرهت الدور الذي انطته بي ولم أعر أي اهتمام او أي تعاطف مع المشاهدين الموجودين تحت خشبة المسرح · انهم كانوا اناسا طيبين بلا ريب ولكن هل اعرفهم انا ؟ هل هم شيء في حسباني؟وهل سيهمني اذا ما احضروني امامهم مرة اخرى غدا ؟ وهل الامتحان في نظري شيء خلا كونه واجبا من واجباتي ؟ وهو واجب اريده ان ينتهي بسرعة فعلا ؟ » ·

وقال لي « هل اتناول هذا الواجب من يدك لاتولاه انا ؟ » واجبته « بكل سرور ومن كل قلبي اذا كنت لا تخشى ان تفشل فيه » وقال لي « سأفشل فيه اذ لا علم لي سوى ببعض العبارات باللغة الانكليزية وبعض الكلمات وفي رأيي ان من الافضل ان نشطب على الموضوع كليا ونتخلى عن اجراء الامتحان الانكليزي » وقلت له « اذا رضيت المدام بذلك فانا راغبة» وقال لي « من صميم فؤادك ؟ » واجبته نعم من صميم فؤادي تماما » ثم اخذ يدخن سيجاره بهدوء وصمت ثم التفت الي على حين غرة وقال لي « اعطني يدك ؟ » وبدا الاحتقار والحسد يتوارى عن سيماء وجهه وشاع عليها بدلا من ذلك العطف والرقة والسماحة وقال لي :

« تعالي ··· لن نكون متنافسين بل صديقين والامتحان سيجري وساختار اللحظة المناسبة فبدلا من الحيرة والاعاقة التي استشعرتها قبل عشر دقائق ـ اذ لدي احقادي التي تدرجت معي منذ طفولتي ـ فانني سأساعدك باخلاص ثم انك وحيدة ومنزوية عن الناس واجنبية وعليك ان تشقي طريقك وتحصلي على عيشك فمن المستحسن ان تشتهري واريد ان نبقى صديقين فهل توافقين ؟ » ·

وقلت له « نعم اريد ايها السيد ان نكون اصدقاء من صميم قلبي وهذا ما افضله على الشهرة والابتهاج بالنصر » وقال لي « ايتها المسكينة» ثم تحول عني وذهب في سبيله · وقد تم اجراء الامتحان وانتهى بشكل جيد والسيو بول صدق فيما وعد به من اجل ان يخفف العبء عني ويسهل مهمتي وفي اليوم التالي كان يوم توزيع الشهادات وذلك اليوم ولى وانقضى

ايضا وانتهى الدوام المدرسي وعادت التلميذات الى دورهن وحلت العطلة المدرسية الطويلة ٠

وتلك العطلة ٠٠ هل اقوى على نسيانها ؟ لا اظن ذلك ٠٠ ذهبت المدام بيك خلال ايام العطلة الاولى لتنضم الى اطفالها في منطقة تقع على ساحل البحر ٠ وكان لكل المدرسين الثلاثة اباء وامهات واصدقاء أووا اليهم وكل بروفيسور خرج من المدينة ، البعض منهم ذهب الى باريس والبعض الى ساحل البحر للاصطياف وقصد المسيو بول روما وظلت الدار الدراسية فارغة تماما ولم يبق فيها سواي والخادمة وتلميذة فقيرة الحال متخلفة عقليا ومشوهة الخلقة وقميئة لا تريد زوجة ابيها الساكنة في اتليم بعيد ان تعيدها الى الدار ٠

وشعرت بان قلبي يموت في داخلي فالاشواق البائسة وترت اوتاره وما اطول ما كانت ايام شهر ايلول وما كان اهداها وافرغها من الحياة وكم ظهر على مباني المؤسسة التعليمية الموحشة الفراغ والسعة وما أكاب ارجاء الحديقة المهجورة التي اضحى رماديا من فعل اتربة المدينة واغبرتها الصيفية ٠

وعندما كنت اتطلع في بداية تلك الاسابيع الثمانية كان يصعب علي تصور كيف سأعيش الى نهايتها فمعنوياتي اخذت تهبط شيئا فشيئا وحتى التطلع الى امام لم يبد لي كامل فالمستقبل الاخرس لم يتحدث عن اية راحة ولم يبد لي ما يبشرني بخير ولم يحمل لي اي دافع او حافز لتحمل الشر المخيم اعتمادا على المستقبل الافضل ٠

وغالبا ما كان يستبد بي عدم الاكتراث بالوجود المشوب بالحزن والاستسلام والقنوط للتوصل عاجلا وباكرا الى نهاية كل شيء فواحسرتاه ٠٠٠ عندما كان المجال يتسع امامي للنظر في الحياة ــ كما يتوجب ان ينظر اليها شخص مثلي ــ لم أجد فيها سوى صحراء لا أمل فيها ٠٠ رمال ذات سمرة مصفرة خالية من الحقول الخضر ٠٠ لا نخيل ٠٠ ولا آبار تحت مرمى البصر اما الآمال التي كانت عزيزة على الشباب الذي كان يحملها ويمضي بها قائدا فقد جهلتها تماما ولم اعد أجرأ على معرفتها ٠

twitter @baghdad_library

واذا كانت احيانا تدق على باب قلبي فان حاجزا رافضا القبول كان يسد الطريق امامها سرا وعندما كانت ترقص وتلفظ بتلك الطريقة كانت دموع الحزن تنهمر من عيني مدرارا في بعض الاحيان وان لم يسعفها الحال كنت لا اجرأ على قبول ضيافتها وهكذا اخذت اخشى بشكل قاتل الخطيئة والاثم وضعف الحدس ٠

ويا ايها القارىء المتدين ربما القيت علي محاضرة طويلة عما كتبته الآن وبذلك تكون انت فاضلا متمسكا بالمبادىء الاخلاقية وحكيما عاقلا رواقيا وربما ستتهكم علي وتسخر مني وتضحك علي ٠٠ حسنا ٠٠ ليكن كل ذلك منك ومن الآخرين كلهم ٠ خذوا الامر بطريقتكم ٠ انا اقبل الموعظة واقبل بالسخرية والتهكم والضحك ٠ ربما تكونون محقين جميعا في ذلك ولكنني اقول لكم ان الشهر الاول من العطلة كن شهرا طويلا اسود ٠٠ شهرا ثقيلا علي ٠

ان القميئة المعتلة لم يبد عليها انها تعيسة وكنت ابذل ما في وسعي وطاقتي لاطعامها بشكل جيد وابقائها دافئة في فراشها وما كانت تطلب مني سوى الطعام واشعة الشمس وعندما لا تكون الشمس موجودة كانت تطلب نار التدفئة ٠ ان قواها المستضعفة كانت تدل على وجود قصور ذاتي وعطل اما دماغها وعيناها واذناها وقلبها فقد كانت هادئة وراضية ٠ انها لم تكن تقوى على العمل ولذلك كان سنة النوم والسبات سعادتها الحقيقية وفردوسها الحقيقي ٠

كانت الاسابيع الثلاثة الاولى من العطلة حارة ورائقة وجافة ولكن الاسبوعين الرابع والخامس كانا عاصفين ورطبين ولا ادري لماذا احدث ذلك التبدل الجوي تاثيرا قاسيا علي ولا ادري لماذا اوقعتني الزوبعة والامطار الهاطلة مدرارا بعجز فظيع لم الفه في حياتي قط في حين ان الجو بقي صافيا ورائقا هكذا كان الحال ولم يعد لجهازي العصبي مايقدر على القيام بما كان يقوم به اياما وليالي في ذلك المبنى الهائل الذي عانيت منه الامرين ٠

لشد ما كنت اصلي للسماء من اجل السلوى والدعم وافضى بي الاعتقاد الى ان اتصور بان عدوي الالد هو مصيري وقدري وانه لن يصالحني قط ٠ وفي صميم فؤادي ما كنت استجدي الرحمة والعدالة

وتوصلت الى قرار بانني اصبحت جزءا مما قدره الله لي وبعض الناس يعانون كل المعاناة في حياتهم من جـــراء ذلك وارتعشت للفكرة المؤكدة بانني واحدة من مجموع يعاني كما اعاني وشعرت ببعض الراحة عندما جاءت ذات يوم عمة المختلة العقـــل وهي امرأة مسنة عطوفة واخذت مني مرافقتي الشوهاء الغريبة فقد كانت تلك المخلوقة السيئة الطالع عبئـا ثقيلا علي ولم اعد اقدر في الآونة الاخيرة على اخذها الى ما وراء الحديقة ولم اكن ابقيها وحيدة لحظة واحدة لان ذهنهـــا الفقير كان ــ كجسمها الهزيل ــ معوجا وملتويا ينزع بطبيعته الى الشر ولهذا كان لا مناص من مراقبتها وعدم تركها وحيدة ٠

ولانها كانت قليلة الكـــلام فقـــد كانت تجلس الساعات الطوال مستغرقة في تفكير كئيب وتكشر استنكارا وازدراء وتشـوه ملامحهـا بلي قسماتها ليا ازدرائيا دون ان تقوى على التمحيص بين ما يضيرها وبـين ما ينفعها فقد كانت كما لو انها سجينة حيوانات متوحشة غريبة لا كآدمية مـع المجموعة الآدميـة ٠ ثم انهـا كانت بحاجة الى عنايات واهتمامات شخصية كأن تكون تحت رقابة ممرضة في المستشفى ٠

لقد كنت مرهقة الى درجة انني مرضت وكأنني على شفا الموت فمثل تلك الواجبات ما كان ينبغي ان تكـــون من نصيبي ٠ ان الخادمة التي ذهبت الآن مع عمتها هي التي اوصلتني الى هـــذه الحـــالة وبالسرعة التي تمت بها العطلة لم تعين من تحتل مثل هـــذه الوظيفة ٠ وذلك الواجب المفروض علي وتلك المعاناة لم تكن بآخر ما شاهدته في حياتي ٠

ومهما كانت تلك الحالة مثيرة للنفور ومرة المـــذاق فان آلامي الذهنية كانت اسوأ بكثيرمن جميع الوجوه فخدمتي لتلك المسكينةالمتخلفة عقليا حرمتني حتى من قوة رغبتي فيابتلاع اللقمة وكنت اصاب بالدوار في العراء وتحت الهواء العليل ، بيد ان تلك المهمـــة لم تعتصر فؤادي قط ولم يرف لها جفني ولم تحرق خدي بأنهمار دموع الحارة المذابة ذوبان المعدن ٠ وبذهاب المتخلفة العقل تلك تحررت واخذتامشي وفيباديء الامر افتقرت الى الشجاعة للخروج بعيدا عن شارع فوسيت ولـــكن تدريجيا توصلت الى بوابات المدينة واجتزتها ٠

twitter @baghdad_library

ثم توجهت اهيم على وجهي عبر الطريق العام طريق العربات عبر الحقول ووراءالمقابر الكاثوليكية والبروتستانتية ووراء المزارع ومبانيها الى الازقة والمشجرات الصغيرة وما كنت ادري اين انا ذاهبة ووخزتني شوكة وحالت الحمى دون ان ارتاح وان رغبتي العارمة في ايجاد رفيقة لي اودعت في روحي بصمات عجز قاتل ، وغالبا ما كنت امشي طيلة النهار في حرارة الظهيرة الحارقة وما بعد الظهيرة الجافة وفي النسق المظلم وما كنت اعود الا بعد طلوع القمر وبزوغه في السماء .

وحين كنت امشي وحيدة كنت اتخيل احتمالات اوضاع الآخرين من معارفي فهناك المدام بيك في منطقة المصح المائية البهيجة ، مع طفلاتها ووالدتها ومجموعة صديقاتها اللواتي شاركنها في موضع المنتجع والاستجمام وكانت زيلي سنت بيير في باريس مع اقاربها والمدرسات والمدرسون الآخرون كانوا في دورهم وهناك جنيفرا فانشاوي التي اعرف باتصالاتها جيدا تقضي سفرة سعيدة في الجنوب وبدت لي اسعدهن فقد كانت في طريقها الى مشاهدة مناظر بديعة تشرق عليها شموس شهر ايلول وعلى الحقول الحو حيث موسم الحصاد والكروم والخمور المعتقة واشعة الشمس اللذيذة .

ولكن كل هذا لم يكن شيئا بالنسبة لي فانا نفسي شاعرة باشعة شمس الخريف واشاهد اقمار موسم الحصاد وكم كنت اتمنى ان تغطيني الارض بما عليها من اعشاب ومروج عميقا عميقا بعيدا عن مؤثراتها اذ كنت اقوى على العيش تحت ضوئها ولا ان اجعل منها صديقات او امنحها الحب والود .

بيد ان جنيفرا كانت تمتلك نوعا خاصا من الروحية يخولها منح القوة المتواصلة والراحة المتواصلة لابهاج ضوء النهار وتعطير الظلماء وتضميخها بالشذى وافضل الملائكة الصالحة الحارسة للانسانية كانت تحميها باجنحتها وتلف رأسها بلفافها لقد كانوا يلاحقون جنيفرا بمحبة حقيقية وما كان بوسعها ان تبقى وحيدة وما كنت لاستطيع ان اتصور لها مثل هذه الميتوتة واتصورها شاكرة نعمتها سرا تحب الآن باحتياط وحذر مصممة يوما ما على ابراز مدى حبها لهذا او ذاك واتصور بطلها الامين نصف واع على شغفها الخجول ومطمئنا من ذلك الوعي .

وتصورت صلة العطف المثيرة بينهن والرابطة الرائعة لتفاهمهن المتبادل والوحدة المساندة الدائمة عبر بعد مئات الفراسخ حاملة عبر الهضاب الصغيرة والوديان والاغوار ما يقرب بينهن بالصلات وبالرغبة وكانت جنيفرا قد اصبحت معي تدريجيا كما لو انها بطلة • ففي احد الايام حين شعرت بهذا الوهم المتزايد قلت « حقا انها جازمة بان اعصابي تبذل مجهودا شديدا وذهني معنى كثيرا ثم ان العلة تسري فيه فما العمل؟ وكيف ساتماثل الى الشفاء ؟ •

وفي الحقيقة لم تكن الظروف التي امر بها مناسبة لشفائي واخيرا وبعد نهار وليلة من الحزن والعذاب ألم بي مرض جسماني فاضطررت الى ملازمة الفراش • وفي ذلك الوقت اطبق علينا الصيف المسمى بالصيف الهندي وبدات الزوابع الاستوائية تهب علينا وخلال الايام التسعة المظلمة الرطبة ـ التي كانت ساعات ايامها ولياليها تهاجم باندفاع وقوة كل شيء وهي صماء لا تعرف النظام والترتيب مذهلة ومربكة باعصار صارخ ـ استلقيت في فراشي اثر حمى غريبة لازمتني واثرت على دمي واعصابي واستحوذ علي السهاد فلم يعرف جفناي طعم النوم فكنت انهض في الليل وانظر الى ما حولي مترقبة مجيئها باهتمام غير ان اصوات النوافذ المتخشخشة وتناوح العصف الليلي كانت لا تجيب بسوى •• نامي •• لن تاتي قط •

وكنت مغطئة فقد جاءت ذات مرة ولكن جيئة غضوبة وجاءت معها ـ وقد عيل صبرها من انزعاجي ـ بحلم ثاري ففي ساعة سنت جين بابتست بقي ذلك الحلم قرابة ربع ساعة وهي فترة زمنية ضئيلة ولكنها كافية لتعتصر كياني كله بعذاب مجهول وللتباحث في تجربة بلا اسم لها الشكل والسيماء ولها نفس تاثير زيارة من الابدية •

بين الساعة الثانية عشرة والساعة الواحدة بعد منتصف تلك الليلة زج بقدح بين شفتي زجا •• قدح اسود وقوي وغريب لم يسحب من أية بئر أنما انترع ومليء من وبحر لا قرار له ولا حدود •• قدح مغلي محتواه ممجوج المذاق وبعد ان شربته نهضت من نومي وظننت ان كل شيء قد انتهى • ان النهاية جاءت ثم مرت • وكنت ارتجف من الفزع بعد ان عاد الي رشدي وهممت ان اصرخ وابكي واصيح مستدعية بعض الناس لمساعدتي غير انني ادركت ان لا احد هناك يسدي الي المساعدة قط •

twitter @baghdad_library

ونهضت من الفراش ووقفت على قدمي بعد ان توارت الساعات المرعبة عني وابتعدت عن ذهني المتعب المكدود المعذب • ومن بين اهوال الحلم علمت ان الاسوأ يكمن هنا وفكرت بالميت الذي كنت اهواه وكان يهواني في حياته وخيل الي انه التقاني في مكان آخر نأى وبعيد وما اسوأ ما كانت حالتي الروحية في اعمق اعماقها •• يأس وقنوط فيما يخص المستقبل ولم يداخلني حافز لان احاول استرجاع صحتي او لان ارغب في المضي بحياتي ومع ذلك لم يكن في قدرتي الاصاخة لصوت الموت المتعجرف القاسي وحين حاولت ان اصلي لم استطع سوى التلفظ بالكلمات التالية: ••• « منذ شبابي وحتى زمن الاهوال التي لاقيتها كنت اعاني ما كنت اعانيه بذهنيتي المنسطرية » وما اصح ما جاء فيها •

وجاءت الي غرتون من غرفتها البعيدة عني جدا وحثتني على استدعاء طبيب فرفضت لانني كنت اتصور ان لا طبيب يستطيع شفائي • وفي احدى الامسيات انتي لم اكن اهذي بها من الحمى كما كان حالي سابقا وانما كنت في ذهنية سليمة نهضت من فراشي وارتديت ملابسي وانا شاعرة بالضعف مرتجفة من الوني ولم اعد اقوى على تحمل العزلة وسكون الفراش الطويل فقد استحالت الاسرة البيضاء المروعة اشباحا واستحال كل اكليل من اكاليلها رأسا ميتا هائل الحجم تلفحه الشمس باشعتها واستحالت احلامها ميتة لعالم اكبر من عالمنا ومجرى مائيا متجمدا في محاجر عينية واسعة الفراغات •

وفي تلك الامسية توثق الاعتقاد باقوى من الاول في روحي بان القدر او المصير مكون من الحجارة وبان الامل ليس سوى معبود مزور ، كاذب ، اعمى خال من الدماء ومن لبة الصخر الاصم ، وشعرت ايضا بان التجربة التي قدرها الله لي قد بلغت اقصى حدودها وهي الآن تعود الى كفي الحارين الهزيلين المرتجفين • وكانت السماء لا تزال تمطر وتبرق وترعد ولكن في رأيي باعتدال ورأفة اكثر مما كان عليه الحال طيلة النهار وكان الشفق يتكون دون ان يكون له تأثير يذكر • ومن الشبكية لاحظت مجيء غيوم الليل المتدلية سارية على علو منخفض • وبدا لي في تلك الساعة ان في السماء ودا أسى على كل ألم يعاني منه في الارض الدنيا وخفت وطأة حلمي المزعج وتوارت فكرتي السابقة التي لا تطاق ولا

تحتمل من انني غير محبوبة بعد الآن ولا مملوكة بعد الآن ونصف مستسلمة للامل ، انما على العكس من ذلك تأكدت من ان الامل سيضيء بشكل أنصع اذا خرجت من تحت سقف هذا البيت الذي كان يتهدم كبلاطة القبر ثم اذهب الى خارج مدينة صوب تلة هادئة على مبعدة مسافة طويلة من الحقول ٠

ودلف الشفق صوب جنح الظلام وانيرت القناديل في الشوارع قبل ان اخرج من تلك الكنيسة المعتمة ٠ ان العودة من حيث اتيت كان ممكنا الآن غير ان توقاني الشديد لتنسم هواء شهر تشرين الاول على التلة الصغيرة الواقعة خارج بنايات المدينة لم يعد حافزا ضروريا بل تناقصت حدته الى رغبة يستطيع العقل ان يعالج امرها وكان منه ان اخضعها وكبحها وكما اتذكر عدت ادراجي الى شارع فوسيت غير ان الامر التاث علي في قسم من المدينة لم يكن لي به عهد من قبل فقد كان القسم القديم منها مليئا بالازقة التي تقوم عليها دور جميلة واخرى قديمة وخربة ٠

وكنت اضعف من ان اكون رابطة الجأش بكثير وكنت لاازال عديمة الاكتراث بسعادتي وسلامتي لكيما التزم جانب الحذر والاحتراس فازدادت حيرتي وحراجتي فوقعت في الشرك وفي شبكة من المنعطفات المجهولة لدي وغبت عن الصواب واستعصى علي ان اسأل المارين اين انا ٠ وكانت الزوبعة قد هدأت نوعا ما عند الغروب وعوضت عن الوقت الضائع وحولت تيار الهواء الافقي العنيف من الشمال الغربي الى الجنوب الشرقي وجاءت برذاذ المطر الذي اخذ احيانا في الاشتداد وفي الانهمار بغزارة ٠

وكان الجو باردا ينفذ الى الجسم بقوة تمزيقية واملت براسي لصده ولكنه اعاد الي ضرباته ولم ينخذل قلبي ابدا لكل ما كان يصيبني غير انني كنت اريد ان يكون لي جناحان لاعلو بهما على الريح الهوجاء العاصفة وانشر ريشهما على قوتها واخدو معها حيث تعدو واندفع حيثما تندفع ٠ وفي الوقت الذي كنت فيه أتمنى ذلك شعرت في الحال باشتداد البرد حين انني كنت مستبردة فقط وشعرت باطراد استنزاف قوتي في

twitter @baghdad_library

حين انني كنت استشعر الضعف فقط وحاولت الوصول الى المدخل المسقوف لاحدى البنايات الكبرى القريبة ولكن الواجهة وبرج البيت لفهما الظلام المدلهم فتواريا عن نظري وبدلا من ان اترامى على آثار اقدامي وانكفيء عليها كما كنت انوي بدا كما لو انني كنت انحدر الى هاوية ولم اعد اتذكر شيئا بعد ذلك قط .

الفصل السادس عشر

صديقتي ـ أولد ـ لانغ ـ سين

لا اعرف أين ذهبت روحي اثناء ماأغمي علي فمهما شاهدت وحيثما سافرت في غفوتها وغيبوبتها في تلك الليلة الغريبة ابقته سرا خاصا بها دون ان تهمس بكلمة في اذن الذاكرة وقد وقفت حائلا في طريق التغيل بصمت ابدى وربما صعدت الى اعلى ترقب بيتها الابدي أملة في الراحة الآن وحاسبة بان اتحادها المؤلم بالمادة قد تفكك وانحل وربما جاء ملاك وحذرها من التقرب من عتبة الجنة وقادها وهي تبكي مرة اخرى وترتعد ولا تريد الذهاب الى ذلك الشكل الهيكلي البائس وهي مبتردة ومهملة وشاعرة من جراء ما داهمها من قلق ، اكثر من قلق -

وكنت على علم بانها عادت الى سجنها مرة اخرى متألمة وكارهة تئن وترتعد فرائصها طويلا فذهاب من كان يرافقها روحا ومادة كان من الصعب الاتحاد واياه وكان الواحد يحيي الآخر دون ان يقوى على عناقه وقد عاد الي رشدي وشعوري بالضوء ولكنه كان احمر كما لو انه سابح بالدماء والسمع المعلق عاد الي بقوة صاخبة كقوة هزيم الرعد وانتعش الوعي بشعور من الخوف -

وجلست مرعوبة هائمة في منطقة اجهلها بين كائنات غريبة كنت اماشيها وفي باديء الامر لم أع ما كنت انظر اليه فالحائط لم يكن حائطا عندي والقنديل لم يكن قنديلا وكان علي ان افهم ان ذلك هو ما درجنا على تسميته بالشبح ولكن قدراتي استقرت بعد ذلك كل في موقعها وعاودت

twitter @baghdad_library

ماكنة الحياة الحركة واستأنفت اعمالها النظامية ومع ذلك ما كنت ادري اين انا سوى انني علمت بالوقت المناسب انني نقلت من المكان الذي ستطت فيه فأنا الآن لست ممددة على درج من درجات مدخل المبنى وتوارى الليل وتوارت الزوبعة بين الحيطان والشبابيك والسقوف وحملت الى منزل من المنازل ولكن اي منزل يا ترى ؟٠

وما كان بوسعي سوى ان افكر بالمدرسة الداخلية في شارع فوسيت وانا شبه حالمة وبذلت منتهى جهدي لاعرف في اية غرفة وضعوني هل في غرفة المهجع الكبرى أم في احدى غرف النوم الصغرى ؟ كنت متحيرة لانني لم اقو على القاء نظرات خاطفة على الاثاث الذي شاهدته بموجب المامي باية من هذه الشقق وكانت الافرشة البيضاء الفارغة ناقصة ومن المؤكد ان الخط الطويل من النوافذ الكبرى لم يكن يعود لغرفة المدام بيك الخاصة التي حملوني اليها وهنا وقعت عيناي على كرسي مريح مغطى بالدمقس والمقاعد الاخرى منضدة الواحد بجنب الآخر وبدت لي على درجات ٠

وفي آخر الامر تناهت الى نظري قاعة الاستقبال المريحة حيث نار من الخشب على موقد مشع وهي مفروشة بسجادة ذات زخرف عربي لامع الزرقة وهناك مرآة مطلية بالذهب تملأ الفراغ الكائن بين النافذتين المستورتين بستارتين يميل لونهما الى الاحمر الضارب الى الرمادي ٠ وفي تلك المرآة وجدت نفسي ممددة لا على الفراش ولكن على أريكة ذات ذراعين ٠

وكنت كالشبح عيناي اكبر واكثر اجوفافا وشعري اكثر اسوادا مما كان عليه قياسا مع وجهي النحيف الشاحب شحوب الميت وكان ظاهرا لا من الاثاث ولكن من مواضع النوافذ والابواب والمواقد ان تلك الغرفة كانت غرفة مجهولة في دار مجهولة ٠ والذي كان واضحا هو ان دماغي لم يكن قد استقر بعد اذ انني عندما رنوت الى الكرسي ذي الذراع الازرق بدا لي كما لو انه مألوف معروف لدي وكذلك البردى المنقش والمنضدة الوسطية المدورة بغطائها الازرق والزخرف الخريفي المؤلف من نقوش على صورة اوراق وازهار وهناك كرسيا القدمين الصغيرتين وغطاؤهما

المطرزان بالابرة وكرسي من خشب الابنوس الـذي طرز مقعده وخلفيته ايضا بالابرة وبمجموعة اوراد زاهية على الارضية الدكناء ٠

وبعد ان فوجئت بهذه الاشياء اكتشفت امرا أخر ومن الغرابة ان اقول ان قدامى معارفي كانوا جميعا حولي وكانت صديقتي اولد ـ لانغـ سين تبتسم لي من كل زاوية ومن كل ركن من اركان البيت ٠ وكان هناك رسمان منمنمان بيضويان على غطاء مخرم من مادة غـير قابلة للاحتراق عرفت انهما لؤلؤتان ومخملات تلف المجازات البيضاء ووشائج من النسيج القطني الرقيق ومخرمات اقمشة باردانها ٠

ووجدت على الرف زهريتان صينيتان لحفظ الزينة والزهور واثار قديمة وطقم من طقوم حفظ الشاي الدقيقة مصقولة ومطلية ونحيفـه نحـافة قشرة البيضة وحلى بيضاوات الالـوان ومجموعة كلاسيكية من المرمر المحفوظ تحت الزجاج ورسوم قلمية منهية وخطوط من النقوش ٠ وهـذه المنظورات اتعبت عيني وتذكرت الساعات التي اعقبتهـا قطعـة فقطعة ولمسة فلمسة ومنهـا قلم رصاص ناعم لفتاة المدرسـة يصعب ارضاؤها كانت تمسك به بين اصابعها والآن يبدو كهيكل من الهياكل العظمية ٠

فاين كنت انا ؟ لا فقط في اية بقعة من بقاع العالم بل في اي عام من اعوام ربنا ؟ ان كل هذه الاشياء تعود الى الايام الخوالي الماضية والى بلد بعيد فقبل عشرة اعوام ودعتهم ومنذ ان كان عمري ١٤ عاما لم التق بهم وسألت بصوت مسمـوع ٠٠ « اين انا » ؟ واذا بشبح غـير منظـور يستثيره سؤالي وينهض ويتقدم نحوي ٠٠ شبح غير متجانس مع البيئـة عقد اللغز اكثر ولم يكن هذا الشبح باكثر من خادمـة مواطنـة بتبعة الخادمات وبفستان ملون ولم تتكلم الفرنسية ولا الانكليزية ولم افهـم منها شيئا ولا من الوسادة التي كنت قد وضعت رأسي عليها واومات الي بالتزام الهدوء وعدم التكلم واستانفت اعمالها عنـد الجزء الادنى من الاريكـة ٠

ثم انشغلت بالحياكة وصرفت انظارها عني امـا انا فكنت ارنو اليها باستمرار وعجبت من امرها كيف جاءت الى هنا ؟ وما الذي كانت

twitter @baghdad_library

تفعله بين المشاهد او خلال ايام فتوتي والذي اثار عجبي اكثر هو مادخل تلك المشاهد وتلك الايام بي آنا ؟ ولما كنت جـــد نحيلة وضعيفة للقيام بالتامل في اللغز او في السبب حاولت ان اسويه بان قلت ان ذلك من قبيل الخطا وانني لم اكن نائمة وانما صاحية تماما ٠

وكنت اود ان تكون الغرفة مضاءة اضاءة جيدة وفضلت لـو انني لم اشاهد بوضوح تلك الصور الصغيرة كالحلي والستائر والكرسي المطرز بالابرة فكل تلك الاشياء والأثاث الدمقسي الاحمـر اللون الضارب الى الرمادي كانت في الواقع وفي الدقـة نفس الاشياء التي تذكرتها جيـدا والفتها جيدا بكل دقائقها في قاعة الاستقبال العائدة لـدار عرابتي ،دار السيدة بريتون وخيل الي ان الشقة قد طرأ عيها تبدل فقـد كانت ذات نسب وابعاد مغايرة لهذه ٠

وذكرت في بدرالدين حسن سن قصص الف ليلة وليلة الذي نقله البني وهو في القـاهرة الى بوابات دمشق وخفض جناحيـه السوداوين وسط العاصفة واستسلمت لما بذله من جهد بعد ان التقطني من درجات الكنيسة وتعالى بي في الجو كما تقول القصة العربية وحملني فوق الاراضي وفوق مياه المحيطات وانزلني بهدوء ووضعني بجانب موقد (انكلترا القديم) وعلمت ان نيران الموقد لم تعد تحترق امام آلهة البيت الحارسة لها فقـد انطفأت منذ مدة طويلة وقصدت الهة البيت مكانا اخر ٠

وعادت الخادمة مرة اخرى لتتفحصني وتلقي نظرة عامة علي لتعرف كيف آل الامر بي وما ان شاهدت عيني المفتحتين كثيرا حتى لاحظت انها ارتبكت واعتبرت ذلك دليلا عـلى وجـــوب الاهتمام السريع بي فرمت بحياكتها جانبا وشاهدتها وقد انهمكت في موقف صعب وصبت الماء وقاست القطرات من زجاجة ٠ ودنت مني وبيدها كاس من الماء وبالها من جرعة دواء اسود مشوب ستقدمه الي الآن وياله من اكسير الجن وياله من تقطير السحرة واستحضارهم ٠

وفات اوان التساؤل عنه فقد جرعته عـــلى مضض وبمرة واحدة وداخلني تفكير هادىء اخذ يداعب دماغي مداعبة لطيفـة وسرى السائل هنيئا مريئا بتموج فاتر هوارق من البلسان والبلسم وزايلني المضعف الفاصل وهجعت عضلاتي وفقدت القوة على الحركة واذا كنت قد فقدت الرغبـة

فانني لا احسب ذلك حرمانا · ان تلك الخادمة وضعت حجابا بيني وبين القنديل وشاهدتها تنهض وتفعل ذلك ولم اشاهدها تعود الى مكانها وفي الفترة الواقعة بين ذينك العملين غرقت بسبات عميق ·

ويا للعجب ·· حين نهضت من نومي وجدت ان كل شيء قد تغير فضوء نار العطلة احاق بي ولم يكن بالضوء الصيفي الدافيء انما كانت الكربة الثقيلة الوطأة للخريف العاصف الرياح واحسست احساسا اكيدا الان بانني في بناية المدرسة الداخلة وتاكدت من ذلك من وقع قطرات المطر على نافذة الباب ومن عصف الرياح بين الاشجار وهي تشير الى وجود حديقة ومن قشعريرة البرد ومن النقاء والصفاء ومن العزلة والاقفرار التي اجد نفسي بينها واقول النقاء والصفاء لان الستائر المعتمة المسدلة امام فراش عصبت عيني وأعشتهما ·

ونهضت من افراشي ورفعت الستائر والقيت بنظرة عامة الى الخارج وأستمدت نور ناظري ليقعا على غرفة طويلة كبيرة الحجم مبيضة بالكلس وبنصف اغماضة منهما وبحيرة لازمتني لكيما تتعرفا على المنطقة المحدودة للغرفة الصغيرة ذات الحيطان الملونة بخضرة كخضرة البحار اتضح لدي انه بدلا من النافذة الشبكية الواحدة العالية المظللة بحبل الزهور المتدلية للزينة وبدلا من دزينتين من مجموعة الاشجار والنباتات النامية كل منها يحوي على حوض ماء وابريق لم يكن هناك سوى منضدة عليها ادوات التبرج ونظمت لسيدة ترتدي ثوبا ابيض على تنورة حمراء قرنفلية وهناك مرآة كبيرة مكللة ووتد جميل لتعليق الثياب وعليه شريط زيني يزخرفه ومنضدة الزينة تلك مع كرسي الاتكاء الواطيء الصغير المزين بقماش ابيض اللون والمفسلة التي تعلوها بلاطة من المرمر مجهزة باوعية من الخزف الاخضر · وهذه كانت تزين وتجهز الغرفة الصغيرة بما فيه الكفاية ·

لقد شعرت ـ ايها القاريء ـ بخطر وربما سألت لماذا ؟ وماذا كان في تلك الحجرة الصغيرة البسيطة البديعة بنوع ما لسكي يخيف صاحبة الذهنية المخلوعة الفؤاد ؟ انها هذه الاشياء فقط وان مواد الاثاث لايمكن ان تكون حقيقة ككراسي الاتكاء والمرايا والمفاسل ، ينبغي ان تكون اشباح هذه المواد · اما اذا انكر ذلك بشكل افتراضي ودحض كما انكرته

twitter @baghdad_library

انا فلا يتبقى من استنتاج سوى انني نفسي وصلت الى حالة ذهنية شاذة وباختصار انني كنت جد مريضة ومصابة بهذيان المرض وحتى في ذلك الوقت كانت حالتي اغرب حالة يزعج فيها الهذيان ضحيته وينهكها ·

وتمرفت ، بل كنت مضطرة الى ان اتعرف على الشيت الاخضر لذلك الكرسي الصغير المريح نفيه والاطار الاسود المطلي لتلك المرآة والآنية الصينية الصقيلة ذات اللون الاخضر المخفف وهي مصنوعة على القاعدة المخصصة لهاالمصنوعة من المرمرالرمادي اللون المكسور منإحدى زواياه·

ان كل هذه اضطررت الى التعرف عليها والترحيب بها وفي الليلة الماضية رحبت بالخشب الوردي بعد التعرف عليـــه وبالالبسة الجوفية والخزف الصيني وغرفة الاستقبال ·

وهتفت قائلة ··· بريتون ·· بريتون ·· فقبـل عشـر سنوات انعكست اضواؤها في تلك المرآة · ولماذا تلازمني بريتون بعد مرور ١٤ عاما من عمري بهذه الطريقة ؟ واذا كانت قد جاءت مرة واحدة مجتمعة فلماذا لا تعود كاملة ؟ ولماذا يبدو امـام خيالي النكـد المضطرب منظر الآثاث فقط في حين ان الغرف والاشياء والمواضع قد ذهبت ؟ وفيما يخص وسادة الدبابيس المصنوعة مـــن الساتان النسيـــج الحريري الصقيل المزخرف بالخرز الذهبية والمهدب بالمخرمات فلي ملء الحق في ان اعرفها مثلما اعرف الستائر طالما انا التي صنعتها في الماضي ·

ونهضت من فراشي واخذت الوسادة في يـــدي وتفحصتها فوجدت ثلاثة احرف رمزية مصنوعة بالخرز الذهبية ومحاطة باكليـــل اهليلجي مزخرف بالحرير الابيض وهذه الاحرف الثلاثة ل·ل·ب رمزت الى اسم عرابتي لويزا لوسي بريتون وتمتمت قائلة ·· « هل انا في بريطانيا ؟ هل انا في بريتـون ؟ وسارعت في جـر الستارة التي كانت مسدولة عـلى النافذة ونظرت الى الخارج لاستطيع الاهتداء الى حقيقة مكاني وانانصف مستعدة لمواجهة الابنية القديمة الهادئة ولمشاهـــدة ابراج الوزارة والا فتوقع مشاهدة منظر بلدة في مكان ما او شارع في فيليت ان لم يكنشارع في مدينة انكليزية قديمة وبهيجة ·

وعلى العكوس نظرت عبرمجموعة اوراق النبات الملتفة حول النافذة الشبكية العالية ثم الى ما يشبه المرجة والى سطيحة مرجية اشجارها تعلو من جانب الارض الواطئة الكائنة في الجهة الخلفية والى اشجار غابية عالية من التي لم اشاهد مثلها اياما عديدة وكانت الان كما لو انها تئن وتتناوح من عصف رياح شهر تشرين الاول · ومن بين جذوع الاشجار لاحظت صفا مشجرا حيث الاوراق الصفر تقع باكوام ذرتها الرياح سابقا او كانت بدوامة قبل ان تسوقها الريح الغربية وبدا المكان موحشا وغريبا لدي اذ لم يسبق لي ان شاهدته قط ·

ومرة اخرى تمددت على فراشي الذي كان في فجوة مظللة من جدار في الحديقة وعندما ادرت وجهي الى الحائط اصبحت الغرفة بما فيها من المحتويات خارج نطاق النظر لانني عندما رتبت وضعي على هذا الاساس نظرت صوب الفراغ الاخضر الكائن بين الستائر المقسمة المثبتات بعرى فشاهدت صورة واسعة الارجاء مطلياطارها بالذهب كانت مرسومة بشكل جيد بالالوان المائية · صورة رأس ولد رسمها حديث وحي كما لو انه جيد بالالوان المائية · صورة واسعة الارجاء مطليا اطارها بالذهب كانت مرسومة بشكل جيد بالالوان المائية · صورة رأس ولد رسمها حديث وحي يتحدث وهو مفعم بالحيوية ·

ويبدو ان الولد المرسوم في السادسة عشرة من عمره مركب تركيبا جيدا وعلى خديه امارات الصحة والدماء الدافقة ·· الشعر اسود غير فاحم ·· والعينان سوداوان نفاذتان والفم مقوس بابتسامة بهية ووجه يرتاح الى مشاهدته كل ناظر ولاسيما بالنسبة لمن يحملون له الود كالاب والام والاخوات · وكل فتاة مدرسية صغيرة رومانتيكية النزعة لابد ان تهوى النظر اليه وهو في اطاره وبدت تلكما العينان كما لو انهما اذا ما مضى بهما زمن اطول بنوع ما فانهما سيومضان بالحب ويتجاوبان معه بسرعة البرق وفي محاولتي اخذ كل اكتشاف جديد في الرسم بكل هدوء ممكن همست في اذن نفسي قائلة ·

عجبا ·· تلك الصورة كانت معلقة في غرفة الفطور على رف المستوقد وكانت عالية بنوع ما واتذكر جيدا كيف صعدت على حاملة اداة موسيقية بغية فكها من كلابهما وعندما امسكت بهما رحت اتفحص تلكم العينين بعمقهما الجميل فكانما نظراتهما من بين اهدابهما تبدوان كضحكة

twitter @baghdad_library

مزججة وامعنت النظر بلون الخد وسمير الفم وصعب علي ان افهم ان بوسع الخيال والتصور ان يبدع في تدويرة ذلك الفم او ذلك الحنك وحتى بجهلي عرفت ان كليهما كان جميلا وامعنت النظر ـ بحيرة ـ في هذا الشك • كيف يصح ان يكون الشيء الذي يسحرك ويأسر فؤادك بهذا القدر الكبير مؤلما لك في الوقت عينه ؟ وفي احدى المرات وبطريق الصدفة اخذت الطفلة الصغيرة (هوم) بين ذراعي ثم رفعتها الى اعالي الصورة وقلت لها انظري اليها وسألتها « هل تحبين هذا الرسم يا بولي ؟» ولم تحر جوابا قط بل اطالت النظر اليه وفي آخر الامر اسود ما هو امام ناظريها الحساسين وقالت لي « انزليني » فانزلتها وقلت لنفسي « ان هذه الطفلة شعرت ايضا بما شعرت به » •

واخذت الآن افكر بكل هذه الاشياء مضيفة ما يلي : « كانت له اخطاؤه ولكن ما ابدع طبيعته وما اندر ما يماثلها • ما اكرمه والطفه وما اشد حساسيته وانصبت ذكرياتي على كلمة ملفوظة بشكل عال مسموع •• غراهام •• وجاء صدى صوت مفاجيء من جانب الفراش قائلا •• « غراهام •• هل تريدين غراهام ؟ » ونظرت اليه •• فالحيرة لم يكن لها بد من التضخم والعجب لم يكن له بد من التأوج • فاذا كان امرا غريبا مشاهدة شكل مصور على الحائط سهل تذكره فان الاغرب منه ان احول وجهي لاشاهده حيالي شخصا آخر سهلا تذكره •• هي امرأة وسيدة حقيقية وواقعية •• طويلة القامة •• ترتدي ملابس فاخرة من الحرير الذي ترتديه الارامل وقلنسوة تغطي رأس تلك الكهلة وجدائل امومية •

لقد كان وجهها هي ايضا جميلا ذا مميزات خاصة جمالية دون ان تكون حسية او خصالية• لقد تبدلت قليلا من حيث بعض مظاهر الصرامة والنشاط تلك كانت عرابتي الصورة المميزة الواضحة المعالم للسيدة بريتون ولازمت السكوت مع انني كنت جد منفعلة مرا واشتد نبضي وتصاعد الدم الى خدي رغم ابترادهما وسألتها « يا مدام •• اين انا ؟ واجابتني وفي مكان امين للغاية مصان صيانة جيدة في الوقت الحاضر فقرري ما تريدين بهدوء بال الى ان تتحسن صحتك فانت تبدين مريضة في هذا الصباح » •

وقلت لها « انني في حيرة من امري كليا ولا ادري ما اذا كنت اقوى

على الاعتماد على مشاعري تماماً ثم أن مشاعري تضللني بكل شيء . انت تتكلمين اللغة الانكليزية اليس الامر كذلك يا مدام ؟ » واجابتني « في رأيي ان عليك ان تسمعي ما اقوله .. ليس في وسعي التكلم باللغة الفرنسية بمحاورة طويلة فان ذلك يحرجني . الم تأتي من انكلترا ؟ » واجابتني « وصلت في الآونة الاخيرة من هناك فهل بقيت طويلا في هذا البلد ؟ يبدو انك تعرفين ولدي ؟ » وقلت لها « هل اعرفه يا مدام ؟ ربما اعرفه . ابنك في تلك الصورة » وقالت لي « هذا رسمه يوم كان شابا فانت تلفظت باسمه وانت تنظرين اليه » ثم اومأت برأسها قائلة انه غراهام بريتون وقلت لها اذن انا اتكلم الآن مع السيدة بريتون سابقا من مدينة برينونشاير » .

واجابتني قائلة « صحيح تماما .. وانت ؟ قيل لي انك مدرسة اللغة الانكليزية فيمدرسة اجنبية هنا وهذا ما عرفه ابني عنك » وقلت لها « كيف وجدتيني يامدام ومن ذا وجدي ؟ » وقالت لي « ان ولدي سيخبرك بذلك رويدا رويدا ولكنك في الوقت الحاضر مرتبكة ومشوشة واضعف من ان تواصلي الحديث حاولي ان تتناولي فطورك ثم الجأي الى النوم » .

وبالرغم من كل ماعانيته من الانهاك الجسدي والقلق النفسي والتعرض للجو البارد شعرت بأن صحتي افضل وانقطعت عني الحمى التي كانت قد هدت كياني وبعد تسعة أيام من عدم تناول طعام صلب عدا السوائل وبعد معاناتي من العطش الدائم شعرت في الصباح بشهية لتناول الطعام ورغم ضعفي الناجم عن اغمائي كان علي ان اتذوق الشاي الذي قدمته لي السيدة واتناول لقمة من الخبز المحمص مع الاخرين . لقد كانت لقمة واحدة فقط وكانت كافية لي لتبقيني على ما يرام لمدة ساعتين او ثلاث ساعات ثم جاءت الخادمة وقدمت لي كوبا صغيرا من الحساء مع بسكويتة واحدة .

وبعد ان حل الظلام على المساء كانت الرياح لا تزال تهب وتعصف والبرد والمطر المدرار الشبيه بالطوفان سائد فشعرت بالتعب والوهن في فراشي وكانت الغرفة ـ رغم جمالها ـ صغيرة الحجم كما لو انها سجن لي واشتقت لبعض التبدل . وانتبضت روحي من القشعريرة الناجمة عن البرد الشديد ومن الاكتئاب المستحوذ علي واردت ان اشاهد الموقد واشعر بحرارته وضللت افكر بابن تلك الكهلة متى ساشاهده ؟ من الموكد انني لن اشاهده الا بعد ان اغادر الغرفة .

twitter @baghdad_library

واخيرا جاءت الخادمة لتهيء فراشي لنـــوم الليل وتهيات لتغطيني بالحرام فوضعتني على الكرسي المزين بالقماش القطني ولرفضي هـــذه الاهتمامات بي باشرت بارتداء ملابسي ثم جلست لاتنفس واذا بالسيدة بريتون تظهر مرة اخرى وقالت وهي تبتسم ابتسامتها المعهودة الحلوة « اراك مرتدية ثيابك انت اذن افضل صحة وقوة »·

وراحت تحادثني كثيرا كما كانت في السابق وخيـل لي انها بدأت تعرفني وكان في صوتها وسلوكها معي نفس دليل الاهتمام بي ورعايتي وهذا ما الفته منها دائما حين كنت فتاة واذعنت لـــه واحببته ولـــم تقم هذه على ارضيات تقليدية من الثراء المتفوق او المركز المتفوق ولم يكن بيني وبينها اي مفارقة او اي تفاوت لان شهادتها مضاهية لشهادتي وانما قام على اسباب طبيعية من المنفعة المادية انه الملجأ الذي تقدمه الشجرة للعشب وقد طلبت من السيدة العلب التالي دون مقدمة رسمية ·

« ايتها المدام ·· هل تسمحين لي بالنزول الى الجزء التحتاني فانا هنا اشعر بالبرد وبالهمة الفاترة » واجابتني « ليس عـلى قلبي احلى من هذا ان انت تستشعرين القوة لتحمل هـذا التبـدل · اذن تعالي واليك ذراعي اتكئي عليه » وتناولت ذراعها ونزلنا من مجموعة متواصلة مـن درجات السلم المكسوة بالسجاد الى منبسط الدرج حيث يوجد باب طويل مفتوح يؤدي الى غرفة مفروشة بغطاء من الكتان ·

وما احلى ما كانت عليه الغرفة من جو مريح وما ادق ما كانت عليه من جراء وجود ضوء المصباح الكهربائي الملون ولهب النـار القرمزية اللون ولاعطاء صورة حقيقية عن الوضع كاي الشـاي حاضرا وموضوعا عـلى منضدة وهو شاي انكليزي وكانما كانت الاشياء الموجودة في الغرفة تنظر الي وديا ابتداء من الوعاء الفضي المعـــدني للشاي من النمط القديم والقدر المعدني الضخم واقداح الخزف الصيني الدقيقة السوداء الممزوجة باللونين الاحمر والقرنفلي المطلية بالذهب ·

ومن الاشياء المألوفة لدي في الغرفة الكمكة البيزرية المميزة المحلاة بالبذور المعطرة المخبوزة بقالب خاص وهذه الكمكة كانت دائما تشاهـد على منضدة الشاي الخلصة ببريتون بجانب صحنـه مـع السكين الفضية والشوكة الفضية وكان الوقت يؤذن بمجيء بريتون لتناول الشاي وربما

كان انذاك في الدار ولن تمضي عدة دقائق الا واشاهده بعدها ٠

وقالت مرشدتي لي بعد ان تعثرت بخطواتي وانا مارة بجانب الموقد « اجلسي ٠٠ اجلسي » واجلستني على الاريكة ولكنني سرعان ما قصدت المنطقة التي وراءها قائلة ان حرارة النار هنا شديدة لاتطاق وعلى مقربة منها وجدت مقعدا اخر يلائمني اكثر ٠ ولم تكن السيدة بريتون معتادة ابدا على احداث ضجيج في وجه اي شخص او اي شيء ٠ وبدون معارضة سممحت لي بأن اتصرف وفق طريقتي الخاصة ثم هيأت الشاي وتناولت صحيفة لتقرأ ما فيها مما يهمها ٠

وكنت اود ان اراقب كل ما يصدر عن عرابتي وكل حركة من حركاتها التي كانت تتميز بمن عمره عمر الشباب وربما كانت قد اجتازت الخمسين من عمرها ولكن مع ذلك لا قواها ولا روحيتها تأثرت بتقادم الزمن بها ومع انها كانت بدينة كانت في الوقت عينه نشطة وانها وان كانت هادئة ورائقة الطبع فانها في بعض الاحيان كانت تبدو عنيفة ٠ ان الصحة الجيدة والسريرة الرائقة ابقتاها نضرة كما لو انها لا تزال في ربيع عمرها ٠

وعندما كانت تقرأ احسست انها كانت تفكر بولدها كما لو انها تصغي اليه ولم تكن من النوعية التي تعترف بانها قلقة ٠ لقد كان الجو لا يزال على اضطرابه دون ان تهدأ ثائرته واذا كان غراهام خارج المنزل وسط هذه الريح الهوجاء التي لا ينقطع عويلها فانني كنت عالمة علم اليقين ان قلب والدته خارج معه يرافقه حيثما يذهب ٠

وقالت وهي تنظر الى ساعتها اليدوية « لقد تأخر عشر دقائق عن وقته المعتاد » وبعد دقيقة اخرى رفعت عينيها عن الصحيفة وامالت رأسها ميلانا خفيفا صوب الباب مما دل على انها تسمع صوتا ما ثم صفا حاجباها واشرقا وبعد ذلك حتى اذني سمعت قعقعة حديد الباب المتقلب ووقع الخطوات على العصباء واخيرا رنين جرس الباب ٠ لقد جاء غراهام٠

وسارعت امه فملأت ابريق الشاي من الوعاء المعدني الضخم للشاي ودنت من الموقد ومن الكرسي الازرق اللين الوسادة الذي يقع الكرسي الذي تجلس عليه الى يساره وادركت ان هنالك شخصا له حصانة السيطرة عليه والافادة منه وعندما جاء ذلك الشخص صعد درجات السلم بسرعة

twitter @baghdad_library

واتجه الى المغسلة وهو آمر لابد منه بعد تلك الليلة الموحشة الرطبة ثم اتجه باستقامة الى حيث نحن وقالت امـــه وهي تخفي ابتسامة السرور وتتحدث باقتضاب « انت غراهام ؟ » .

وقال الشاب غير الدقيق في مواعيده ذو العرش الذي لا يضاهيه او ينافسه فيه احد « ومن سيكون غيري يا امي ؟ » وقالت له « الا تستحق الشاي البارد لتأخرك في المجيء الى الدار ؟ » وقال لها « لن انال العقاب منك فالشاي الحار يغني الآن بمرح » وقالت له امه « اتجه نحو المنضدة ايها الولد الكسول . لن يفيدك مقعد سوى مقعدي ولو كـان لديك ذرة من الشعور والادب واللياقة لكنت تركت هذا المقعد دوما لامك المسنة؟ »

وقال لها « هذا ما كنت مستعدا لان افعله دومـــا لولا ان السيدة المسنة تصر على تركه لي .. وكيف حال مريضتـك يا امي ؟ » وحولت السيدة بريتون وجهها صوب الزاوية التي اجلس فيها قائلة لي « هـــل تتقدم المريضة لتتحدث هي بنفسها عـن حالتها ؟ » وعنـد هذه الدعـوة تقدمت الى أمام فنهض غراهام من مقعده ليلاقيني بطوله الفـارع أمـام الموقد وانه لشخصية من حق امه آلا تخفي اعتزازها به .

وقال لي غراهام « اذن استطعت النزول وهذا يدل على انك احسن حالا بكثير مما كنت عليه بالامس وما كنت اقوى على ان اتصور انالاقيك هنا او في مكان اخر لقد كانت حالتك في الليلةالماضية على غيرما يرامولولا انني اسرعت مضطرا الى مشاهدة مريض موشك على الموت لما تركتك ابدا ثم ان امي نفسها لها خصائص طبيب ومارتا ممرضة ماهرة وكنت اعلم ان قضيتك هي قضية اغماء وفقدان الوعي وليس حالة خطرة واريد ان اعرف سبب ذلك وكلما يتصل به علما بانني مؤمن بانك تحسنت .

وقلت بصوت خافت هادىء « تحسنت كثيرا .. تحسنت كثيرا .. شكرا لك يا دكتور واقول للقارىء الآن..ان هذا الرجل الشاب الطويل القامة .. هذا الولد الحبيب مضيفي انا غراهام بريتون هذا لم يكـــن سوى الدكتور جون .. هو وليس سواه واكثر من ذلك انني عندماسمعت خطوات غراهام على درجات السلم علمت اي شخص سيدخل واي محيـــا سيتكحل به ناظري .

ولم يكن الاكتشاف عائدا لهذا اليوم ففجره احتل احاسيسي ومداركي منذ زمن طويل • انني تذكرت الشاب بريتون جيدا ولو ان العشرة اعوام التي انصرفت منذ السادسة عشر من عمري وحتى السادسة والعشرين لابد ان تغير الولد تغييرا كبيرا بعد ان نضجت رجولته ومع ذلك لن تقوى تلك الاعوام العشرة على ان تفعل شيئا ولن تكفي تماما لتغشي عيني او تشوه او تربك ذاكرتي •

ان الدكتور جون غراهام بريتون لا يزال يحمل صفات شبابه وهو في السادسة عشرة من عمره فالعينان هما تلكما العينان ويحمل شيئا واضحا من محياه القديم يشهد على كل النصف الاوطأ من الوجه المقولب على شكل بديع ورائع وعرفته في الحال في باديء الامر على تلك المناسبة وعادت صفحات الذكرى العديدة الى الخلف حين كان انتباهي غير المثبت بحراسة جيدة قد طبع في ذاكرتي عار التعنيف والتوبيخ الضمني منه الي•

واكدت لي ملاحظتي الاخرى اللاحقة صدق حدسي السابق بكل جلاء ومن كل النواحي وتعقبت اثره في ايماءته وفي منفذ وعادات رجولته وكل ما كان يبشر ببشائر صباه وسمعت في نبرات صوته العميقة الحالية نبرات ايامه الاول فبعض الصفات المميزة في تعابيره السابقة ظلت على ما كانت عليه حتى الآن وكذلك الكثير من خدع عينيه وشفتيه والكثير من ابتساماته والكثير من الاشعاعات المفاجئة النابعة من تحت قوس قزح جبينه المصبوب صبا بديعا •

ان اقول شيئا عن الموضوع او ان أومي الى ما اكتشفته ليس من سمات فكري وعاداته ولا يتماشى واحاسيسي فالامر معكوس فقد فضلت ان أبقي الموضوع سرا من اسراري واهوى الدخول الى وجوده وهو مغطى بغيمة لا يستطيع ان ينظر من خلالها وواقف حيالي تحت شعاع انارته الخاصة التي تضيء كل قسمة من قسمات وجهه وترتعد امام قدميه ثم تكف عن القاء الضوء على آي شيء •

وعرفت انه لن يهتم اذا ما تقدمت اليه قائلة « انا لوسي سناو » واخفيت عنه مكانتي في التدريس وعندما لم يسأل عن اسمي لم احاول ان اتفوه به امامه فهو يسمع انهم يصيحون علي باسم (الآنسة) او (الآنسة

twitter @baghdad_library

لوسي) ولم يسمع بلقبي او باسم اسرتي (سناو) امـا بالنسبة لمعرفتي اياه حالا فان الفكرة لم تخامره رغم انني ربما تبدلت باقل مما تبدل هو واذا كان الامر كذلك فلماذا أوحي له او ابتدره بها ؟ ٠

واثناء تناول الشاي كان يبدي لي جانب اللطف وتلك كانت طبيعته وبعد الفراغ من تناول العشاء ورفع الصينية اخذ يرتب مكانا دافئـا في زاوية من زوايا الاريكة ورجاني ان استقر هنـــاك وتقرب هو ووالدته صوب النار وبعد مرور عشر دقائق على جلوسنا احسست بعـــين السيدة بريتون ترمقني رمقا ذا مغزى ولا تكاد ترفع عينيها عـن وجهي فالنسوة يكن ــ بالتأكيد ــ اسرع من الرجال في معرفة بعض الاشياء ٠

وفي الحال هتفت للسيدة بريتون موجهة كلامها الى ولدها « لم اجد ــ الا نادرا ــ شبيها اقوى يا غراهام فهل لاحظت انت ذلك ؟ » وقال لها « الاحظ ماذا ؟ ما الذي في ذهـــن السيدة المسنـة الآن ؟ كيف تنظـرين وتتفرسين الان يا امي ؟ قد يظن المرء ان لديك حاسة نظر ثانية ؟ »واشارت السيدة الي قائلة ٠٠ « قل لي ياغراهام بمن تذكرك هذه السيدة الشابة؟» وقال غراهام لامه « انت تريدين هذه السيدة وغالبا ما قلت لك انك مخطئة بلهجة قاطعة ٠ تذكري ايضا انها غريبة بالنسبة اليك ولا تعرف شيئا عن اساليبك » ٠

وقالت له امه « الآن ٠٠ عندما تنظر الى اسفل او الى الجانبين قل لي من تشبه يا غراهام ؟ » واجابها غراهام « في الحقيقة يا امي انك بعد ان طرحت امامي هذا اللغز عليك انت نفسك ان تحليه » وقالت له « قلت لي انك تعرفها منذ ان بدأت ترتاد المدرسة في شارع فوسيت ومـــع ذلك لم تتحدث بشيء عن هذا الشبه الغريب » واجابها غراهام « لا استطيـع ان اتذكر شيئا لم افكر فيه ولا اعترف به الآن فماذا تعنين بكلامك هذا ؟٠٠ وقالت له « ايها الولد الاحمق ٠ انظر اليها ٠ »

ونظر الي غراهام اما انا فما عدت احتمل الآن وعرفت ان القضية يجب ان تكون لها نهاية ولذلك فضلت ان اكون السباقة في الاعتراف فقلت « على الدكتور جون ان يعمل ذهنه جيدا ويفكر على ما يرام ليرجع بذاكرته الى كيفية تصافحنا في آخر لقاء لنا في شارع القديسة آن وحـــين شاهدت

المستر غراهام بريتون قبل شهور لم يرد في خاطري ان من الممكن ان يعرف لوسي سناو » ٠

وصاحت السيدة بريتون قائلة ٠٠٠ « لوسي سناو » ٠٠فكرت بذلك ثم نهضت في الحال واجتازت الموقد وجاءت فقبلتني ٠ ان بعض السيدات يحدثن ضجة كبرى في مثل هذه الاكتشافات دون ان تظهر اسارير الفرح على وجوههن الا ان عرابتي لم يكن من عادتها احداث مثل هذه الضجة وانما كانت تفضل كبت كل التظاهرات العاطفية والشعورية ولهذا انهينا انا وهي هذه المفاجأة ببضع كلمات وبالتحية المتبادلة واجرأ على القول انها كانت مسرورة بذلك وانا ايضا بادلتها السرور بالسرور ٠

وفي الوقت الذي جلسنا فيه الواحدة قبالة الاخرى نتبادل ذكريات تعارفنا القديمة كان غراهام يجلس امامنا ساكنا متخلصا من اعراض دهشته واخيرا قال « امي سمتني بالولد الاحمق واظن انني كذلك ولكن مع ذلك اقسم بشرفي انني كلما رأيتك لم اشك بهذه الحقيقة وانا اتذكر تذكرا جيدا وهناك كنت تجلسين مافي ذلك من شك » واضاف قائلا « انت بالتاكيد لم تعرفيني ، لم تعرفي انني واحد من معارفك البارزين طيلة ذلك الوقت ولم تنوهي او تعلمي احدا بذلك » ولكنني قلت له « بلى ٠٠ عرفتك تماما » ٠

ولم يعلق الدكتور جون على ذلك وخيل الي انه اعتبر سكوتي طورا غريبا وبالغ في الاحجام عن لومي واجرأ على القول ايضا انه وجد ان من الحماقة ان يستجوبني استجوابا دقيقا وان يطلب مني معرفة لماذا ذلك التكتم ومع انه كان يشعر بفضولية حب الاستطلاع بنوع ما فان اهمية القضية لم تكن على الشاكلة التي ينبغي ان يدفعه فيهافضوله الى ان يركب متن الشطط في معرفة السبب ٠

وبالنسبة لي جازفت في ان اساله اذا كان يتذكر الظرف الذي كان يحيط بي عندما نظرت اليه ذات مرة نظرة متفحصة ومركزة جدا فبدر منه شيء من الانزعاج مني بصددها ولا ازال استشعر الالم منها حتى الآن وقال « هذا صحيح ٠٠ وحتى انني تصرفت ازاءك على نحو غير لائق وقلت له « اظن انك تصورتني وقحة نوعا ما انذاك » فاجابني « ابدا لم اتصور

twitter @baghdad_library

كذلك وانما كان مهدي بك دائما انك خجولة وهادئة ومنكفئة على ذاتك وتلك كانت سرائرك العامة ولا ادري اية قباحة شخصية بدرت مني فبدت فاتنة او ساحرة امام عينيك المتفاديتين المغضوضتين من الخجل ، وقلتله « الآن عرفت حقيقة الامر » فقال « تمام المعرفة » .

راخذت السيدة بريتون توجه لي العديد من الاسئلة عن ماضي الايام ولكي ارضيها عدت الى سرد التفاصيل الماضية وتوضيح اسباب الابتعاد وتبيان كفاحي ـ دون معين ـ مع الحياة ومع الموت ومع الحزن ومع القضاء والقدر وكان الدكتور جون يصغي دون ان يتحدث او يعلق على ذلك الا نادرا ثم حدثني كلاهما عن التبدلات التي حصلت وعن الامور التي عاكستهما وعن ثروتها التي تقلصت بعد ان منحت لهما نعما جمة.

ولكن الام تلك الام الشجاعة وبطولة ولدها كانا بالمرصاد للاقدار وكانا قادرين على خوض كفاح مرير مع العالم ليفوزا فوزا مبينا وكان الدكتور جون واحدا من اللذين ابتسمت النجوم لولادتهم وهشت وبشت لها على وجه التأكيد وقد يصادف اقبال هؤلاء حظ عاثر او محنة من المحن الا انه كان يصمد لها ويبددها بابتساماته وعدم اكتراثه فقد كان قويا ومرحا وحازما ولطيفا ودمثا بعيدا عن الحمق او التسرع وطموحا لكي يتودد الى القدر ذاته ويفوز من مقلته الحجرية بما يريد ان يفوز به .

وفيما اعترف به من حقائق تبين ان نجاحه اصبح مستقرا ومضمونا فخلال الاشهر الثلاثة الاخيرة استطاع ان يشتري هذا البيت وهو بيت ريفي على النمط الفرنسي تبلغ مساحته نصف فرسخ يدون بواية دخول العربة ، وهذا البيت اشتراه من اجل مداراة صحة والدته لان هواء المدن لا يلائمها وكانت عند تركها لندن قد جلبت معها اثاثها الذي كانت قد اشترته من قصر صاحب العزبة الكائن في شارع (آن) ولم تبعه ابدا ولكن عجبي كان من جمال الكراسي المثالية والمرايا وابارين الشاي واكوابها.

وعندما دقت الساعة الحادية عشر اتصل الدكتور جون بوالدته قائلا لها .. « اماه ينبغي ان تلازم الانسة سناو الفراش الان فقد زاد اصفرار وجهها وغدا ساجازف بتوجيه بعض الاسئلة عن سبب تدهور صحتها فقد تبدلت كثيرا عما كانت عليه في السابق وبالنسبة لمحنتها في الليلة الماضية

انا مؤمن بان هنالك قصة عن مسبباتها امـا في المساء فلن نوجه اليهـا الاسئلة ليلتك سعيدة ايتها الآنسة لوسي » ٠

وقادني بكل لطف الى الباب ماسكا بيده شمعة منارة ليريني بها طريق احـدى مجموعات السـلم ٠ وعندما تلوت صـلواتي ونزعت ثيـابي واضطجعت على الفراش شعرت بان لدي اصـدقاء واصدقاء لا يمارسون الارتباطات العنيفة ولا يقدمون العزاء الودي الملائم لطبيعة المرء انمـا يكتفون بود معتدل ويهفو لهم قلبي غريزيا ويتوق ويشتاق ويشعر بعرفان الجميل تجاههم ٠

وتضرعت في صلواتي اقول « اللهم لا تجعلني افكر بهـم مرارا وتكرارا بتوقان وشوق بالغ ودعني قانعة بجرعة معتدلة من معين هذا الجدول الحي ولا تجعلني اركض وانا ظامئـة لنشدان مياهه العذبة ولا تجعلني اتصور ان فيها مذاقا اعذب من جدول الارض الاخرى ٠ ابتهل الى الله لكي يبقيني على قيد الحياة بهذا الرباط الـودي بمناسباته وندرته وطمأنيته ٠٠ طمأنينته التامة » وبعد ان كررت هذه الكلمة تحولت الى وسادتي وظللت اكررها وانا اغرق تلك الوسادة بالدموع الغزار ٠

twitter @baghdad_library

الفصـــل الســـابع عشـــر

ـ الشـــرفة ـ

ان هذه النضالات مع الخصائص الطبيعية للقلب ومع قدرة تحمله القوية قد تبدو عقيمة وغير مثمرة ولكنهـــا في النهاية تسفر عن اشياء نافعة فهي تنزع ـ ولو بشكل مخفـف ـ الى ان تعطي للاعمال وللسلوك منعطفا يقره العقل علما بان الشاعر غالبا ما تعارضه وتحدث اختـلافا في النزعة للعامة لحياة ما وتتيح لها ان تكون افضل تنظيما واكثر رصانة واستواء وأهدأ على السطح لان للنظرات العامة لا تقع الا على السطـح اما ماذا يكمن في الموضع التحتاني فمهدي به عند الله ٠

اما الرجل الذي هو ند لك، وضعيف مثلك والـذي ليس لائقا لان يحكم عليك فقد توصد بوجهه الابواب فخذه الى خالقك وافش له اسرار الروح التي اعطيت له واسأله كيف ستتحمل الآلام التي الحقت بك واركع بحضوره وصل بايمان ليحل النور محل الظلام والقوة محل الضعف الذي يرثى له والصبر على الحاجة الملحة ٠ وفي ساعة من الساعات ـ وان كانت ليس من الشكل الذي تحلم به ويهواه قلبك وينزف دما له ٠

وسينزل البشير المعالج الشافي فالمقعد والاعمى والاخرس والممسوس يرسل للاغتسال بالماء فيا ايها البشير تعالى بسرعة فالالوف ممددون حول البركة يبكون بيأس لمشاهدتها عبر مدى سنتين بطيبة من الركود فطويلة هي ازمنه السماء ومداراة رسل الملائكة أوســـع من النظرة القائلة ان دورة السفرة الواحدة والرجوع قد تحتضن اجيالا لا عداد لهـا وتمحي الغبار من الذاكرة وان الـــذي يسميه الشرقيون بعزرائيل كم بليونا سيزور من الحزانى والمشوهين ٠

twitter @baghdad_library

وحاولت النهوض في صبيحة اليوم التالي وبينما كنت ارتدي ثيابي وفي بعض اللحظات اشرب الماء البارد من الابريق الزجاجي الموضوع على المغسلة الجدارية لازالة الضعف المرتعش الذي جعل ارتـــدائي لثيابي صعبا جدا دخلت السيدة بريتون وبادرت كلام الصباح قائلة ٠٠ما اسخف ما ارى لا يجوز ذلك ٠٠ وعاملتني في الحال بنفس الشدة التي تتعامـل بها مع ولدها وهو ما كنت اتمتع بسماعه وهي توجهه اليه وفي خـــلال دقيقتين اعتبرتني اسيرة الفراش الفرنسي وقالت لي « ههنا تنامين حتى ساعات بعد الظهر فولدي ترك توصياته عندي قبل ان يذهب واقول لك ان ابني هو سيد البيت وان اوامره واجبـة الاطاعـــة والآن ينبغي ان تتناولي فطورك » ٠

وفي الحال جاءت بالفطور بيديها بدلا من الخدم وجلست الى جانبي وانا اتناول الطعام ولم يكن اي شخص بيننا حتى بين اصدقائنا المحترمين ومعارفنا المقدرين ممن نريدهم ان يكونوا الى جانبنا وينتظرونا ويدنوا منا دنو الممرضة من المريضة ذلك انه ليست كـل صديقة بمثابة ضوء في غرفة المرضى انما تلك كانت السيدة بريتون التي كان وجودها الى جانبي سلوى وتعزية ٠ ان الطعام والشراب لم يكن يرضيني ويسرني الا عندما كانت تأتي به لي هذه السيدة بيديها ٠

ولا اتذكر المناسبة التي لم يكن دخولها فيها الغرفة اكثر فرحا لي ان طبائعنا تمتلك ولوعا او كراهيـة كالغرباء فهنـــاك اناس ننكمش وننقبض من وجودهم في سرنا ونتحاشى اللقـــاء معهـم شخصيا حتى ان العقل او المنطق يعترف بانهم اناس طيبون وهناك اناس سيئـو الطباع وما الى ذلك نرتاح الى مجالستهم ونشعر بان الذي يحيط بهم هو خير لنا وكانت عينا عرابتي السوداوان المرحتان وخداهـا السمراوان الصافيان ويداها الدافئتان الخدومتان وطبعها المعتمد على ذاته وقوة تحملها ذات نفع لي كالهواء النقي ٠

وكان ولدها يعتاد على تسميتها بالسيدة المسنة وهذا ماكان يغمرني بالفرح والسرور اذ كنت الاحظ رشاقتها وخفتها وحيويتهـا التي كانت مقاربة لخفـة واحـدة في السن الخامسـة والعشرين ٠

وقالت لي « وساجلب حوائج شغلي الى هنـــا » ثم تناولت قـدح الشاي الفارغ وقالت لي « كنت اود الجلوس معك النهار طولـه لو لم يعارض هذا الطاغية المستبد جون غراهام رغبتي هذه · وقال غراهام وهو يهم بالخروج « اهتمي بها وما عليك ان تعشي ذهنية ابنتك بالمعمودية بالقال والقيل » ثم التفت الي وقال « عليك ان تبقي ملازمـة فراشك » وقالت امه لي « يرى الدكتور ان مرضك عصبي واستنتج ذلك من نظراتك فهل هذا صحيح ؟ »

واجبت « انني لا اعلم ماهو مرضي والذي اعرفه انني عانيت من الكثير ولاسيما ذهنياً ولا ارى ان من الصحيـح ان اسـهب بتفاصيل مـا عانيت ومن انها تخص جزءا من كياني وهو مالم اتوقع ان تشارك عرابتي في امره وفي أية منطقة جديدة قادت مثل هذه الثقة تلك الطبيعة الصافيـة الاديم · ان الفرق بينها وبيني يكمن كما بـين الباخرة العظيمة التي تمخر بامان على البحار الهادئة الامواج بكامل ملاحيهـا مع القبطان المرح الشجاع المغامر البعيد النظر وبين زورق النجاة الذي يستقر في معظم ايام العام وحيدا في دار الزوارق القديمة المظلمة والذي لا يدخـل البحـر الا عندما تتلاطم الامواج في جو اهوج والا عندما يقارع الغيم صفحـة المياه حيث الخطر والموت يقسم بينهما حكم العمق الاعظم · كـلا ·· لم تكن لويزا بريتون خارج الميناء في تلك الليلة ·· وفي مثل ذلك المشهد ان ملاحيها لم يشاهدوها وهكذا واصل قائد زورق الحياة الغريق مشاوراته ولم يلفق القصة · وتركتني المدام ممـددة في فراشي راضية مطمئنـة وكان جميلا من الدكتور غراهام ان يذكرني بما ينبغي ان افعله قبل ان يغادر الدار ·

كان نهاري وحيدا ولكن انتظاري لقدوم المساء قلصه وجعله بهيجا في ناظري ثم عاودني الشعور بالضعف ورحبت بالراحة وبعـد انقضاء ساعات الصبـاح ومجيء تلك الساعات التي تاتي دائما ـ حتى لاولئك المطمئني البال ـ بشعور انجاز الاعمال والواجبات والمهمات التي تنتظر التحقيق وبانطباع غامض يحفزه على تحقيق التزاماته · وعندما انصرم هـذا الوقت المثير اوقفت حلول ما بعـد الظهيرة حلولا هـادئا اصـوات

twitter @baghdad_library

وقع اقدام خادمة المنزل على السلالم وفي الغرف تحولت الى حالة حالة ، لا تخلو من لذة ٠

لقد بدت غرفتي الصغيرة الهادئة ـ بنوع ما ـ ككهف في البحر فلا لون يحيط بها عدا الابيض والاخضر الفاتح المذكرين بالزبد والمياه العميقة وقد زين الافريز بزخارف صدفية الشكل وهناك قوالب بيضاء كالدولفينات في زوايا السقف وحتى لمسة واحدة من اللون المرئي في وسادة الدبابيس المكونة من الساتان الاحمر كانت تشبه المرجان وحتى ذلك الزجاج الاسود اللامع كان يعكس صورة حورية البحر ٠

وعندما اغمضت عيني سمعت صوت ريح هوجاء سرعان ما همدت وتوارت بعد ان شقت طريقها عبر واجهة البيت كما تشق موجة البحر طريقها من على القاعدة الصخرية ٠ سمعتها تأتي وتنسحب بعيدا ٠٠٠ بعيدا كتيار ينحسر من شاطيء العالم الاعلى ، عالم من العلو بحيث ان اندفاع امواجه الكبرى المتكسرة على الصخور كان يسمع صداه في هذا المنزل البادي كما لو انه تحت البحر كالهمهمة والتهويدة وبين هذه الاحلام جاء المساء وشاهدت مرتا تأتي بالقنديل الذي استطعت على ضوئه ان ارتدي ثيابي بسرعة واستشعرت قوة اكثر من قوة الصباح بحيث شققت طريقي الى الصالون الازرق دون مساعدة من احد ٠

ويظهر ان الدكتور جون قد اكمل دورة الدعوات الموجهة اليه لمعاينة المرضى باسرع مما كان ينجزها عادة وكان شكل محياه هو اول ما التقته عيناي عند دخولي الردهة ٠ وكان واقفا بجانب مختلى النافذة المقابل للباب يقرأ صحيفة تحت نور خافت كالنور الذي يبقى عندانتهاء النهار وكانت النار تبدو بوضوح والقنديل موضوعا على المنضدة دون ان يضاء ولم تكن اقداح الشاي قد نضدت عليه بعد ٠

وكانت السيدة بريتون عرابتي الفعلية ـ كما علمت بعدئذ ـ قد خرجت الى العراء طيلة النهار ،وكانت ممددة على الكرسي الموسد مستغرقة في سنة من النوم وبعد ان شاهدني ولدها اتجه الي ولاحظت انه كان يخطو بحذر خشية ايقاظ امه من نومها واخذ يكلمني بصوت واطيء وصوته الرخيم كان يخلو من كل حدة او خشونة لهدهدة النائمة بدلا من ايقاظها بفزع ٠

وقال لي بعد ان دعاني للجلوس بالقرب من النافذة البابيـة « ان هذا الدار ريفي هادىء ولا ادري ما اذا كنتقد لاحظت ذلك وانت تمشين فيه علما بانه لا يرى كذلك من طريق العربات ، فمن مسافة ميل وراء مدخل العربة تنعطفين بطريق زقاقي وسرعان ما ينتهي الامر بك بشارع يقودك عبر المرجة الى باب هذا الدار بالذات انـه ليس بالمكان المعاصر الحديث ولكنه مبني بشكل ما وبنوع مـا على الطـراز القـديم بجنوبي المدينة انه كقصر مالك العزبة اكثرمن كونه بيتا ريفيا فرنسيا : يسمون هذا البيت « بالشرفة » لان مقدمته تظهر من مكان اعشاب المرجة حينان درجات سلالمه تمر من منحدر حشيشي يصل الى الشارع · انظري بعيدا تري القمر بازغا وهو منظر رائع من خلال اغصان الشجرة ·

اين يا ترى لا يبدو القمر جميلا ؟ وما هو المشهد الضيق او المتسع لا يبجل مداره فيه وسواء اكان اللون ورديا او متقدا فالقمر يعلوالآنعلى ركام غير بعيد وحتى عندما نرقب مرتقاه المتورد فانه يتحول الـى لـون الذهب وفي بعض الفترات القصيرة جدا تراه طافيا ـ غير مشوب بلون اخر ـ فيجوز الفضاء الهادي ·

وهل ياترى يبهجضوء القمر الدكتور جون أم يحزنه؟ وهل يدغدغه دغدغة رومانسية ؟! اتصدق انه يفعل ذلك واذا كان في غير الوضع الذي يلزمه بالتنهد والتحسر فقد لاحظته يتحسر عند مشاهدته بشكـل هادىء ولا حاجة لمعرفة سبب تنهده · انا اعلم انه كان قد ايقظه جمال وادريانه لاحق جنيفرا ولعلمي ذلك حاصرتني فكرة استبدت بي لكي اتلفظ بالاسم الذي يفكر به دوما عالمة ان ذلك هو من واجبي ·

وبالطبع كان مستعدا لذلك فقد لاحظت على محياه ما يضج بمظاهر التمليق والتساؤل والاهتمام وضغط اللغة والمشاعر ولكنها مكبوتة جميعا وفكرت في كيفية البدء بذلك · ان انقاذه من حيرته وارتباكه كان جـل اهتمامي وما ان نطقتباسم المعبود حتى تفجرت فيه ينابيع الحنانوالحب بعد ان وجدت هذه العبارة المناسبة وانت تعـرف ان فانشاوي ذهبت في سفرة مع عائلة كولموندیلي ·· وما ان فتحـت فمي للتحدث حتى بدد خططي بابتداء موضوع آخر غير هذا الموضوع قائلا لي · بعد ان وضع

twitter @baghdad_library

مشاعره في جيبه وقطع حديثه عن القمر :

اول ما فعلته هذا الصباح هو انني اتجهت الى شارع فوسيت وقلت للطباخة انك سالمة وبأيد امينة اتدرين انها لا تعرف بانك غبت عن الدار وقالت بانك سالمة في المدرسة الداخلية الكبرى ،وقلت له « ان ذلك لايمكن تصوره ابدا · ان (غوتون) لم يكن يعطيني سوى المرق المعطر وكسرة الخبز وفي الاسبوع الماضي رفضتها بحيث ان تلك الطباخة الطيبة كفت عن التنقل المضجر من المطبخ الى المدرسة الداخليـــة وجاءت مرة لتسوي فراشي وترتبه · انها امرأة طيبةالسريرة ويبهجها انتطبخ لي مااشتهي·

وسألني « ماذا كانت تقصد المدام بيك من ابقائك وحيـدة ؟ » فقلت له « المدام بيك لم تتصور انني سأمرض » وقال لي « ان جهـازك العصبي تحمل قسطا كبـــيرا من معاناتك · اليس الامر كذلك ؟ » فاجبته « لســت متاكدة من وضعية جهازي العصبي الا انني مكتئبة ومنقبضة الصدر بشكل مروع » وقال لي « ولذلك احجمت عن اعطائك الحبوب او جرعات الدواء فالادوية لا تعطى لاي مريض يستشعر انشراحا نفسيا · ان فني توقف عند مرض الوسواس فالمريضة كهذه تنظر فلا ترى سوى غرفة التعذيب ولاتقوى على ان تفعل او تعمل شيئا ولهذه فان المجتمع المرح يفيد المريض ولا ينبغي ان تكوني وحيدة قدر الامكان وينبغي ان تزاولي الرياضة كثيرا » ·

ومال الى الاذعان والتوقف عن الحديث برهة بعد هذه الملاحظاتالتي كان لها وقع جيد على نفسي وعاود الدكتور جون كلامه قائلا « يا انســة سناو ·· ان صحتك وجهازك العصبي تحسنا الآن بعض الشيء بعـــد ان تصرفت التصرف الصحيح فهلتسمحين لي بأن اسالك عن مذهبك الديني؟ هل انت كاثوليكية؟ »ونظرت اليه باستغراب قائلة « كاثوليكية ؟·· كلا·· من جاء اليك بهذه الخاطرة ؟ » وقال لي :

« الوضعية التي شاهدتك بها في الليلة الماضية بعـــد ان سلمت لي آثارت شكي » وقلت له « سلمت لك ؟ حقا انني لا ادري فقـد نسيت وبقي علي ان اعلم الآن كيف وقعت بين يديك ؟ » فقال لي « في ظروف اربكتني وحيرتني فقد كنت اعود مريضا آنـذاك طيلة النهـار وكان مرضـه نادرا ومعالجته مشكوكا فيها ففكرتفياخذه الى مستشفى بباريسواخيرا أراحني

بعد ان خفت آلمه . وعند رجوعي الى البيت كان اقصر الطريق المؤدي اليه يمر عبر جنوب المدينة ولان الليل كان حالك الظلام موحشا ورطبا عاودت سفري عن طريق الكنيسة القديمة للراهبات الفلمنكيات » واستطرد الدكتور جون يقول :

« وقد ابصرت على ضوء القنديل المشتعل فوق مدخل المبنى كاهنا وبين ذراعيه شيء ما وكان النور من الوضوح بحيث بانت على ضوئه ملامح وجهه فعرفته اذ غالبا ما كنت اشاهده بجانب اسرة المرضى اغنياء كانوا ام فقراء واكثرهم من الفقراء وفي رأيي انه شخص مسن صالح افضل من كثير من اقرانه في هذا البلد ومتفوق عليهم بكل طريقة من الطرق ومثقف ثقافة جيدة ومكرس خدماته لواجبه والتقت عيناينا وطلب مني التوقف والذي كان بين يديه ظهر انها امرأة مغمي عليها او مشرفة على الموت وبعد ان ترجلت عن فرسي قال لي ذلك الكاهن «هذه المرأة واحدة من ابناء بلدكم فانقذها ان لم تكن قد ماتت » .

وظهر بعد التحري ان المرأة التي هي من بلادي هي مدرسة اللغة الانكليزية في المدرسة الداخلية العائدة للمدام بيك وكانت فاقدة الوعي تماما ولا اثر من دماء عليها انما كانت مغميا عليها من شدة البرد وسألته « ماذا يعني لديك كل هذا ؟ » وتحدث عن شيء غريب وهو انك كنت في كرسي الاعتراف في ذلك المساء وان شكلك المجهد التعب ومظهرك المعذب تمازج مع بعض الاشياء التي اعترفت بها » وقلت له « اشياء قلتها ؟ لا ادري ماهي تلك الاشياء » .

وقال لي « ليس من ريب في انها جرائم مروعة ولكنه احجم عن الافصاح عنها لانك كما تعرفين ان ذلك يمت بصلة الى مبدأ الاعتراف الذي كبح ثرثرته وكبح فضولي . ان سرك الذي اعترفت به لم يزعج الكاهن الصالح انما فوجيء به وشعر بالالم لانك كنت خارجة في تلك الليلة وان من واجبه الديني ان يراقبك عندما تخرجين من الكنيسة الى ان يرتاح لوصولك الى بيتك الذي كان يريد ان يعرف موقعه فهل افشيت له ذلك بالاعتراف ؟ » .

وقلت له « كلا .. لم اعترف . بل على العكس من ذلك تجنبت

twitter @baghdad_library

الاشارة الى اي شيء ما بصدد اعترافي ـ ايها الدكتور جون ـ فانا اقول لك ان من الجنون ان اقوم بمثل هذه الغطوة ولكن يظهر انه ما كان بيدي شيء فقد كان الخطأ خطأ ما تسميه انت « بالجهاز العصبي » ولااستطيع ان اصور القضية بالكلمات غير ان اقول لك ان ايامي وليالي لم يكن بالوسع تحملها فالشعور القاسي بالعزلة آلم ذهنيتي وشعرت بان هنالك من يندفع نحوي لقتلي لقد كان الامر كالتيار الذي يمر عبر القلب واذا كان تمدد الاوعية الدموية او اي سبب مرضي آخر يحجز مجراها الطبيعي فانه ينشد الخروج خروجا شاذا . كنت اريد الصداقة .. كنت اريد مشورة احد ولم اجد شيئا من هذا القبيل لا في حجرتي الصغيرة ولا في الغرف الكبرى ولذلك ذهبت افتش عنها في الكنيسة وفي الاعتراف الذي اقول انه لم يكن اعترافا ولا سردا . انني لم افعل شيئا سيئا وحياتي لم تكن ناشطة لاية حقيقة مظلمة سواء كانت رومانتيكية او واقعية وكل ما ند عن شفتي كانت شكوى مزعجة قانطة لا اكثر ولا أقل .

وقلت « سبق ان قالت لي المدام بيك .. يا لوسي عليك ان تسافري لمدة ستة اشهر لان طبيعتك الهادئة تحولت الى طبيعة ثائرة تماما ؟ وقال الدكتور جون « الم يكن لتلك المرأة البدينة بد من أن تدين افضل مدرسة لديها وتودعها الاعتقال الانفرادي » وقلت له « لم يكن الذنب ذنب المدام بيك ولا ذنب اي مخلوق آخر ولا اريد ان اسمع لوما على احد من جراء ذلك » .

وقال لي الدكتور جون « اذن خطأ من هو يالوسي ؟ » واجبته « انه خطأ صادر مني وليس من سواي مني انا ايها الدكتور جون .. انا والقدر مسؤولان عن ذلك » وقال لي الدكتور جون مبتسما « عليك ان تهتمي بالغ الاهتمام بنفسك وفي رأيي ان ذلك يتحقق بتبديل الجو وتبديل المشاهد وهذه توصياتي ووصفاتي الطبية لك » وقال لي ايضا « ان تجوالك في تلك الليلة اتخذ اتجاها معاكسا صوب المدرسة الداخلية بالقرب من محل الراهبات ووسط قوة الفيضان وعصف الرياح وتنبعث الظلماء سقطت مغميا عليك وجاء القس لاسعافك وتبعه الطبيب وهو انا كما تعرف وجئنا بعربة واتينا بك الى هنا وحملك الاب سيلاس رغم كبر سنه الى فوق ومددك على هذه الاريكة بنفسه وكان المفروض ان يبقى هو وابقى

انا ايضا معك الى ان تعودي الى رشدك ولكن في ذلك الوقت جاءنا نباعاجل من المريض المشرف على الموت الـذي تركته على مضض مني وارادوا مني الزيارة الاخيرة له ومن الكاهن الزيارة الاخيرة لاجراء المراسيم الدينيـة وخرجنا كلينا وكانت والدتي آنذاك فيالخارج فسلمناك الى مارتا الخادمة بعد تزويدها بالتوصيات كما ينبغي ان تفعله معك وهو ما حققته بنجـاح والآن اسالك هل انت كاثوليكية ؟ »

فاجبته بابتسامة « لم اصبح كاثوليكية حتى الآن ولن اسـمح للاب سيلاس ان يعرف اين اسكن واذاشاهدته اقرأه عني السلام وبلغهتشكراتي وامتناناتي الحقيقية منه واذا ما اصبحت غنية في المستقبل فسارسل لـه المال لما اسدى الي من احسان وعون ٠ وبالمناسبة يا دكتور ان والدتكعلى وشك النهوض من نومها وعليك ان تـدق الجرس لتـاتي الخادمة باقداح الشـاي » ٠

وفعل الدكتور ذلك وعندما نهضت السيدةبريتون من نومها مندهشة ومستاءة من نفسها لاستسلامها واطلاق العنان لاهوائهـا ومستعدة تمام الاستعداد لكي تنكر بانها نامت انكارا مطلقا جاء ولدها مبتهجا ومبتدرا اياها بقوله « صه ٠٠ يا امي ونامي مرة اخرى فانت في نومك ذات وجه بريء ٠٠٠ وقالت له « ماذا تقول ياجون غراهام ؟٠٠ انت تعرف انني لا انام في النهار ابدا ربما كان نعاسا او نوما خفيفا للغاية » ٠

وقال لها ولدها ؟ تماما كـغفوة مـلاك الساروفيم البديعة او حلم الجنية وفي مثل هذه الحالة تذكرينني ياماما بنيتانيا (نيتانيـا ملكـة الجنيات في مسرحية شكسبير المعنونة « حلم منتصف الليل ٠٠٠المترجم) وقالت له امه « هذا لانك انت نفسك شبيهببوتوم » (بوتوم هوالشخصية الهزلية الرئيسة ، المسرحية حيث تحول راسه الى رأس حمار) ٠٠

وقال الدكتور جون مخاطبا اياي « ايتها الآنسة سناو هـل سمعت بذكاء كذكاء امي ثم انها صاحبة اجمل جسم قياسا مع حجمها وسنها » وقلت له « احفظ اماديحك لنفسك ياسيدي ولا تغض النظر عن حجمـك أنت هذا الحجم الذي يتراءى لي بانه ي ازدياد مطـرد » وقالت والدته مخاطبة اياي (يا لوسي ٠٠ اليس به شبه بجون بول ؟ لقـد كان نحيفـا

twitter @baghdad_library

كسمكة الانقليس الشبيهة بالافعى والآن ارى فيه شكلا من اشكال التنين الثقيل الوزن فياغراهام انتبـه جيـــدا فاذا زاد وزنك وسمنت اكثر فساتبرأ منك » ..

وقال لها « مثلما انك لا تستطيعين التبرؤ من شخصيتك بسرعةفانا لا غنى لي عن سعادة لوسي السيدة القديمة في هذا البيت فانها ستهزلفي مرض الملنخوليا ان ازدرت قامتي وسخرت منها . ان هذا الطول يبقيها حية ويديم مناعة روحيتها وحيويتها » .. وكان الطرفان الآن واقفـين الواحد قبالة الأخر في كلا جانبي الموقـد . كانت كلماتهما خاليـــة من التعاطف الا ان نظراتهما كانت تكشر عن عيوب الفاظهما . وفي اقـــل تقدير كان افضل كنز لحياة السيدة بريتون محفوظا داخل صدر ولدها واعز نبضات قلبها تخفق في قلبه .

اما بالنسبة للدكتور جون . فبالطبـع هنالك حب آخـر يشـارك مشاعره البنوية وما من ريب في ان العاطفة الجديدة ولدت في آخر الامر ولهذا اودعها محلها الخاص .. جنيفرا .. جنيفرا.. هل تعرفالسيدة بريتون على قدم من يتهاوى ولدها ومعبودها اويرتمي ؟. وهل سترتضي خياره هذا ؟. لا ادريفيالحقيقة ولكنني اقوى على ان اتكهن بانها اندرت بتصرفات الآنسة فانشاوي نحو غراهام فان تناوبهـا بـين الفتور وبين الملاطفة وبين الرفض والافتتان سيطرأ عليه تغير آساسي .

وان درت او تحسست بالالمالذي سببته له واذا ما رأت ـ كمارايت انا ـ كيف اخضعت شخصيته واذلتهـــا وكيف ارتضى ان تهبط قيمتـه ازاءها وكيف استفادت من هي اقل قيمة منه من اذلاله واخضاعه ... ان عرفت السيدة بريتون بكل ذلك لاعتبرت جنيفرا من النوع المخبـول او الساقط والشرير . او كلها مجتمعة وانا ايضا من رأيها طبعا . لقد مضت الامسية الثانية بحلاوة كحلاوة الامسيةالاولى بل احلى حقا وتمتعنا بتبادل الآراء على كيفيةرائعة الجو فالتلاقل الاولى لم تعد اليها والتعارف تعزز بشكل افضل واحسست بتحسن وباننى اسعد من ذي قبـل في الدار وفي تلك الليلة وبـدلا من أن ابكي في فراشي كالسابق وصلت الى ارض الاحلام عبر طريق تقع على حدوده الافكار البهيجة ..

الفصـــل الثـــامن عشـــر

ـ الخصـــــام ـ

خلال اولى ايام مكوثي في الدارالمسماة (بالشرفة) لم يضع فراهام مقعده بالقرب مني ولا دنا من المكان الذي كنت اجلس عليه عندما كان يتخطى ارجاء الغرفة جيئة وذهوبا ولا نظر الي نظـرة اهتمام او نظرة جدية تزيد عـلى النظـرة الاعتيادية ولكنني فكـرت في الآنسة فانشاوي وتوقعت تلفظ لسانه باسمها او اندفاعه خارجا عن شفتيه ٠

وارهفت اذني وشحذت ذهني باستعداد دائـم للموضوع الحساس وأمرت صبري بان يتزود دومـا بالسلاح وكـان تعاطفي يروم ان يبقي وعاءه كامل الامتلاء مستعدا للانبجاس والتدفق وفي آخر الامر وبعـد نضال خفي قصير الامد فتح الدكتور جون الموضوع في احد الايام فتحـه بلطف وهدوء وبنوع من الغموض فمثلا قال لي بلهجة التساؤل « هـل سمعت ان صديقتك تمضي عطلتها في السفر ؟٠

وقلت في نفسي ٠ صديقتي في الواقع فقط ووجدت ان ليس مـن المناسب النكران ولابد ان له طريقته الخاصة فعلي ان الجأ الى التشكيك غير الجارح وقلت ٠٠ صديقة ؟٠٠ لتكـن صديقة ٠٠ وبطريقة التجربة وجدت ان علي ان اسأله من هي التي يعنيها ؟٠٠ وكان قـد جلس على منضد عملي أما الآن بعد ان وجهت اليه هذا السؤال فقد بادر الى وضـع يديه على بكرة خيوط واخذ يحلها بطيش وكـان جوابه « جنيفرا ٠٠٠ الآنسة جنيفرا رافقت عائلة كولونديلي في سـفرة الى جنـوب فرنسا » « نعم ٠٠٠ سافرت » ٠

وقال لي « هل تتراسلان ؟ » ٠ واجبته « ربما استغربت اذا سمعت مني انني لم افكر بهذا الامتيـاز » وقال لي « انت قرأت رسـائل بخط

twitter @baghdad_library

يدها » واجبته « نعم عدة رسائل ارسلتها الى عمهـا » وقال لي « ليست رسائلها مميبة من حيث الذكاء والفطنة والسذاجة ففيها كـل معـاني البراعة وفي روحيتها اقل ما يمكن من التحايل » وقلت له « تكتب بشمول وادراك عندما تكون رسائلها موجهة الى المسيو دي باسومبير وبوسع من يريد قراءتها ان يقرأها » وفي الحقيقة ان رسائلها الانيقة لقريبها الثري ليست سوى وثائق مصلحية عامة ·وقال لي « ان كتاباتها اليدوية جميلة مشرقة ومهذبة ومصقولة الحواشي على ما ارى » فاجبتـه « كانت كذلك وقلت في السابق انها كذلك » ·؟·

وقال لي « اعتقد ان كل ما تفعله هو حسن جدا » ولما كنت شاعرة بان لا لزوم لمقاطعته فيملاحظته هذه اضاف قائلا « انت ·· انتتعرفينها جيدا فهل بوسعك ان توردي لي مثالا واحدا عنها وجـدت فيـه عيبا او نقصا ؟· » وقلت له تقوم ببعض الاعمال بشكل جيد (وكان في فكري ان اقول ·· مغازلاتها امام الجميع) وسالني على التو « متى ستعود الىالمدينة في تصورك ؟ » ·

وكان جوابي له « اعذرني ايها الدكتور جون ·· علي ان اوضحلك انك تشرفني كثيرا جدا في تصورك ان لي علاقـة صميمة بها يشرفني التمتع بهـا فما انا كذلك ولم اكـن في يـوم من الايام خازنة خططهـا واسرارها · تستطيع ان تجد لها صديقات خاصات بين عائلة كولوندييني مثلا ··· »

وظن فعلا انني وخزت بنوع من الم الغيرة المشابه لالله فقـال لي « اعذريها واحكمي عليها بالتساهل والتسامح فان بهرجة الازياء تضللها ولابد ان تكتشف عما قريب ان هؤلاء الناس فارغون اجوفون فتعودالليك بصلة معززة وثقة راسخة انني اعرف بعض الاشياء عن عائلة كولوندييلي فهم اناس سطحيون مبهرجون بـلا ذوق وانانيـون واعتمدي عـلى ذلك فجنيفرا بحرارة فؤادها تقيمـك اكثر مما تقيم العشرات من امثـال هؤلاء » ··

وقلت بايجاز « انك لطيف جدا » ان رغبة التنصل عـن المشاعر المعزوة لي احترقت علي شفتي ولكنني اطفأت لهيبها واستسلمت لـكي

اكون ذليلة ومنبوذة وكاتمة اسرار الانسة فانشاوي المميزة وصديقتها الحميمة ولكن كان ـ ايها القارىء ـ استسلاما صعبا علي للغاية ·

وواصل غراهام قوله ـ وعلى كل ترين انني في الوقت الذي اريحك واعزيك لا استطيع ان اعزي نفسي بنفس العزاء فانا لا امل لي في ان تنظر الي نظرة عادلة فدي هامال الذي لا يسوى شروى نقير يسر فؤادها اكثر ·· ياله من وهم تعيس وانخداع اتعس ـ وهنا عيل صبري فقد احضره ـ دون اشعار ـ المرض والضعف وهاجماه بعنف بحيث انقصف انقصافا ·

وانبجست من فمي هذه الكلمات التي قلتها بغضب وانفعال ·· « يا دكتور بريتون لا يوجد وهم كوهمك ولا انخداع كانخداعك انك في كل القضايا ـ باستثناء واحدة فقط ـ رجل نزيه واضح السريرة متعافي الجسم صادق التفكير وصادق الرؤية اما في هذه القضية المستثناة فلست سوى عبد ففيما يخص الانسة فانشاوي اخون لك انك لا تستاهل الاحترام ـ حتى احترامي انا ـ » قلت ذلك ثم نهضت وغادرت الغرفة وانا في حالة انفعال شديد ·

هذا المشهد الصغير حدث في الصباح وكان علي ان اقابله في المساء وكيف لي بذلك وانا اسأت اليه كل تلك الاساءة فهو لم يكن مكونا من هيكل طيني ولا من عناصر ومواد مبتذلة ومسع ان الصور الظاهرية لطبيعته قد كونت تكوينا واسعا وقويا الا ان تفاصيلها احتوت على صناعة متسمة برقة لا تشابهها الا رقة كرقة الجنس اللطيف تقريبا فهو اروع مما تكون مستعدا للقائه اروع بكثير مما تعتقد انه متاصل به حتى بعد اعوام التعرف عليه ان القدرة على الشعور بشيء والتحسس السريع بمشاعر الآخرين امران مختلفان وخاصيتان مختلفتان فهناك بعض الناس يملكون كلتا هاتين الخاصيتين والبعض الآخر لا يملكهما وللدكتور جون احداهما بشكل كامل متقن ·

ولانني اعترفت بان الدكتور جون لم يوهب الخاصية الاخرى بدرجة متعادلة ربما اعتبره القارىء غير عاطفي وغير متحسس · ان الامر على العكوس تماما فالدكتور جون رجل سخي لطيف فما ان تبين له انك

twitter @baghdad_library

بحاجة الى شيء حتى تمرى راحة يده ممدودة لاعطائك اياها وما ان تمزج بلواك او احزانك بكلمات حتى ترى ان لديه اذنين تصيخان الى ما تقوله وتتوقع منه الدماثة وتنقية الجو الكدر وعجائب البديهة ٠

وفي تلك الليلةالتي دخلفيها الدكتور جون الى الغرفة حيالالقنديل المنار في المساء استشففت على ضوئه بشكل جيد وبنظرة واحدة حقيقة كامل هيكله ٠٠ لابد ان تكون لديه مشاعر خاصة الآن بالنسبة لمن نعتته بالعبد مرة وبالحرمان من الاحترام مرة اخرى ٠ اما ان يكون النعت صحيحا تماما والحرمان من الاحترام ممكنا فلا نكران في ان فكره اخذ يحمن التفكير بصراحة في هذا الاحتمال واخذ يفتش في هذا الاتهامالموجه اليه عن سبب قلة نجاحه في موضوع حبه وهو ما نغص عليه اطمئنانه المقلي ٠

وبين مقلقات مناجاة نفسهوتقريعها بدا سلوكه خطيرا وربما باردا سواء حيالي او حيال امه ٠ ولكن لم تظهر على محياه امارات المشاعر السيئة او الحقد او الضغينة او الاحتقار كان جميلا وحتى في حزنه والمه كان له جمال رجولي ٠ وعندما وضعت كرسيه على المنضدة وهو ما قمت به بسرعة بدلا من الخادمة وعندما كنت اقدم له الشاي باهتمام تشويه رجفة كان يقول لي بلهجة كاملة اللطافة وبصوت حلو جميل هو احلى ما تسمعه لاذناي « شكرا يا لوسي » ٠

وبالنسبة لي ما كان امامي سوى ان أقوم بعمل واحد ٠٠ هو أن اكفر عن العنف الجدير بأن آلام عنه والا لن يكون بمقدوري ان انام في تلك الليلة ٠ ان الذي بدر مني لايمكن تحمله قط فانا لم اكن ذاتقدرة لان أشن الحرب على ذلك الاستعداد او على ذلك المنوال فوحدانيتي المدرسية وصمتي وجمودي لا مثيل لها الا في الاديرة ٠ ان كل شيء بدا لي افضل من ان اعيش مع الدكتور جون عيشة منغصة ومشوشة ٠

وبالنسبة لجنيفرا ٠ تستطيع ان تستعيد الاجنحة الفضية لحمامةاو لاية بومة اخرى تطير وان تصعد الى اعلى مكانة بين اعلى النجوم حيث خيال حبيبها المجنح الصاعد الى العلالي يرتثي تثبيت برج نجوم سحرها فما علي انا أن احتج على ذلك ومنذ مدة طويلة تمنيت وحاولت احداث

لقاء بين عينيه وعيني وما ان يحدث هذا حتى تغض النظرات لعدم وجود شيء نتكلم به وتحيرت ايما حيرة ٠

وبعد شرب الشاي جلس صامتا وحزينا واخذ يقرأ في كتاب ووددت انه لو كان بوسعي ان اجالسه ولم أقو على المغامرة وبدا لي انني ان غامرت في تحقيق ذلك فمن المؤكد انه سيجابهني بالعداء والاحتقار واشتقت الى الكلام جهارا ولكنني لم اجرأ حتى على الهمس ٠ وغادرت والدته الغرفة أما أنا فقد توجهت اليه بأسى لا يطاق ولا يحتمل واستطعت ان اتمتم بهاتين الكلمتين (دكتور بريتون !) ونظر الي من خلال الكتاب المفتوح فلم اجد برودا في عينيه ولا غلا ولم يكن فمه منطويا على سخرية ووجدته مستعدا لسماع ما اريد ان اقوله وكانت روحيته ابعد من ان يصدر عنها ما يسيء فبادرته قائلة له « ايها الدكتور جون سامح كلماتي المتسرعة٠٠ ارجوك ان تسامحني ٠٠ »

وابتسم عندما تفوهت بهـــذه الكلمات وقال لي « انني استحقهـا يا لوسي واذا كنت لاتحترميني فانا موقـــن بانني لا استحق الاحترام واخشى ان اكون احمق واخرق٠٠ يبدو انني اتصرف تصرفا سيئا بطريقة ما اذ حيث انوي ادخال البهجة الى قلب احد اجـــد انني لا افلح في ذلك » وقلت له « لا يمكن ان تتأكد مما قلته وحتى اذا وجدت ان هذه التضيةهي كذلك فهل ذلك ناجم عن خطأ بدر منك ام عن سوء عدم فهم او ادراك من الآخرين ؟ وعني اسحب كلامي عما قلته في حالة غضب ٠ انني في هـــذا الشيء وفي كل شيء أكن لك احتراما عميقا اذا فكرت قليلا في امر نفسك وفكرت كثيرا جدا في امور الآخرين وهذه ميزة فاضلة ليس الا ٠٠

وقال لي « هل استطيع التفكير كثيرا بجنيفرا ؟ » فقلت له انا اعتقد بان باستطاعتك ذلك وان كنت تعتقد بانك غير قادر على ذلك فدعنا نتفق على هذا الخلاف ٠ ولتغفر لي وهذا ما جئت لارجوه منك » وقال لي «هل « هل تظنين انني احمل ضغينة من اجل كلمة واحدة غاضبة ؟ ٠ » وقلت له « في رأيي انك لا تحمل ذلك ولا تقوى عليه ولكن قل لي فقط انا اغفر لك يا لوسي لتخف آلام قلبي » ٠

وقال لي « تخلصي من الم القلب كما سأتخلص انا ايضا منه لقـــاء

twitter @baghdad_library

ما المتني بنوع ما يا لوسي وعندما يتوارى الالم اكون انا في حالة غافرلك واكثر من غافر · انني في الحقيقة ممتن وشاكر لمن تتمنى الخير لي باخلاص » وقلت له « صح قولك انني اتمنى الخير لك باخلاص » وبذلك انتهى ما حدث بيننا من خصام ·

ايها القاريء اذا وجدت في مجرى هذا الكتاب ان رأيي بالدكتور جون طرأ عليه تعديل فاعذر لي هذا التناقض البادي ذلك انني اعبر عن شعوري في وقته اي في وقت التحسس بالحدث واعرض رأيي الشخصي ـ كما يبدو حين الاكتشاف ـ لقد ابدى وداعة طبيعته بأن بدا حيالي عطوفا وشفوقا اكثر مما ابداه بعد سوء التفاهم معه ·

وليس هذا فحسب بل ان الحادثة التي أبعدتنا الواحد عن الآخر نوعا ما بدلت في الحقيقة ـ وبشكل ما ـ علاقاتنا ولكن لا من الناحية التي توقعتها بالم فتلك الكلمات القليلة الدافئة الممزوجة ببعض الغضب بددت تلك الزخرفة الصقيعية الهشة من التحفظ وفي ذلك الوقت اعطت مقدمة واشعارا للتذويب · وفي رأيي انه منذ ذلك اليوم وطيلة مدة صداقتنا المتواصلة لم يبد جانب السلوك (الايتيكيتي) معي ·

ويبدو انه كان على علم من انه اذا اقتصر على التحدث عن نفسه وعن تلك التي تثير اهتمامه كليا فان توقعي سيستجاب دائما ورغبتي تطمن دائما ونجم عن ذلك انني ظللت استمع الكثير عن جنيفرا واعتبرها جميلة وصالحة وتكلم عن سحرها بافتتان وعن حلاوتها وبراءتها بعيث رغم علمي الواضح بحقيقتها فان نوعا من التوهج والتوقد استقر على فكرتها حتى بالنسبة لي ويا ايها القاريء لا ازال حرة في ان اعترف بانه غالبا ما كان يتحدث سخفا وعبثا الا انني كنت اجاهد في ان اكون صبورة معه فقد كان لي درس في هذا وعلمت بمدى قسوتي لو انني اسبب له الاذى عند معارضتي اياه او ايلامه او تغييب امله ·

وبشعور غريب جديد تزايدت انانيتي واحسست بالعجز اذا ماحرمت نفسي من لذة التساهل معه ومن لذة ان اكون مطواعة له وظل يبدي جانب السخف المتزايد عندما اخذ يتشكك بعناد ويشعر بالهم والقنوط حيال عجزه عن نيل حظوة الآنسة فانشاوي او تفضيلها اياه · وظل هذا التصور

عالقا برسوخ في ذهنيتي الخاصة وبعناد يزيد على عنادي الاول من انها كانت لا تروم لعب دور التفنيج معه الا لـــكي تلعب وتعبث به على مـــا تشـــاء وانها في قرارة نفسها تريد ان تستشعر كل كلمة من كلماته وكل نظرة من نظراته لصالحها فقط ٠

وفي بعض الاحيان كان يزعجني رغـم اتخاذي قـرارا بوجوب تحمله وبوجوب الاصغاء اليه والسماع منه ورغم شـعوره الذي لا يوصـف بلذة تحمله الاصغاء اليه اخذ يضرب بشدة ويقدح زناد ما ملكته من قوة وثبات حتى انه كان يخرج نار القدح مرة بعـــد اخرى وصادف انني عولت على الدفاع عما هو حق بغية تسكين حدة تلهفه واقنع نفسي بان على الآنسة فانشاوي ان تقبل به في آخر الامر ٠٠

ولما بينت ذلك له قال « هل تقبل بي بشكل ايجابي ؟ » ولكن لارضية لي لمثل هذا الاطمئنان » وقلت له « لك افضل الارضيات » وقال لي «والآن يا لوسي قولي لي ماهي ؟ » ٠ وقلت له « انت تعرفها مثلما اعرفهـا أنا وما دمت تعرفها ايها الدكتور جون فمن المدهش حقـا الا تضع ثقتـــك الخالصة للغاية باخلاصها ان شكك في هذا الصدد وفي مثـل هذه الظروف هو في الحقيقة اهانة » واجابني قائلا :

« انت بدأت تتحدثين سريعا وتتنفسين بطيئا ولكن عليك ان تتكلمي بسرعة اقل وتتنفسين ببطء اقـــل الى ان تتوصلي الى تقديم ايضاح او تفسير اكمل اذ انني بحاجة اليه » وقلت له « ستتوصل اليه ايها الدكتور ففي بعض القضايا انت رجل كريم مسرف في كرمـه وانت متعبد فانت مستعد دائما لتقديم النذور واذا طلب منك القس سيلاس مساعدة فانت مستعد لتقديم المزيد من الصدقات للفقراء ولتجهيز مذبحه بالشموع وانت مستعد لاغنـــاء ضريح قديسك المفضل ٠٠ جنيفرا ٠٠٠ ايها الدكتور جون » ٠٠ وهنا قاطعني قائلا « اسكتي لا تواصلي الحديث »٠ وقلت له « لن اسكت وسأواصل الحديث ان جنيفرا قد ملأت يديها مرارا وتكرارا بما لا اقوى على احصائه وفتشت عن اجمل واثمن الزهور وشغلت ذهنك بأفضل الهدايا التي لا تستطيع ان تحلم بها امرأة وعلاوة على ذلك تملك فانشاوي مجموعة من الحلي اوصلتك انت بسخائك الى حالة من التهور

twitter @baghdad_library

والتطرف » وقال لي « ان المتواضعة جنيفرا لا دخل لها اطلاقا في هذه القضية » واحمر خدا المعجب بها احمرارا ظاهرا ثم قال بعصبية وهو يقص قطعة من الحرير بمقصي « هذه سخافة ... انني وهبت لها كل ذلك لارضي واسر نفسي واشعر بانها ذات فضل لقبولها مني ذلك » .

وقلت له « انها قدمت لك اكثر من فضل ايها الدكتور جون فمن دواعي الشرف ان تعيد اليك من فضلك اليها شيئا وان لم تستطع الاعادة بالود والمحبة فعليها ان تقدم ما يعادلها مصلحيا على شكل قطع ذهبية » فاجابني « انك لا تفهمينها فهي لا يهمها بشيء ابدا امر الهدايا التي اقدمها لها وهي من البساطة الذهنية بحيث لا تعرف قيمتها » .

وضحكت مما قاله اذ انني سمعتها بنفسي تقيم تمام التقييم كل قطعة من الجواهر الموجودة لديها وانا اعلم تمام العلم ان الارتباطات والمشاريع المالية والنقدية واقيام النقود ومساعيها لاقتنائها كانت تشغل بالها منذ ان كانت صغيرة السن وتسيطر على تفكيرها طيلة اعوام ... وعقب على كلامي قائلا « لو كنت تشاهدينها حينما كنت ارمي الى حضنها بهدية ماهي تافهة بنظري كيف كانت تتلقاها ببرود وبلا حراك وبلا رغبة لاخذها وللتحاشي عن معاتبتها لي كانت تسمح لباقة الورد المهداة لها ان تستقر الى جانبها او ربما كانت راضية بحملها أو في بعض الاحيان عندما كنت البسها السوار واودعه ذراعها العاجي ومهما كانت الحلية بديعة ـ كنت دائما اتوخى ان اختار لها ما هو بديع وغالي الثمن ـ فان التألق ما كان يغادر عينيها اللماعتين اللتين ما كانتا تنبهران من الهدايا وما كانت لتلقي اية نظرة عليها الا في النوادر ... »

وقلت له « اذا كانت لا تعرف قيمتها وليست لها اهمية لديها فانها ستنزعها وتعيدها اليك طبعا » فاجابني « كلا انها اطيب قلبا واطيب سريرة من ان تخيب املي انما سترضى بنسيان ما فعلته وستبقى الهدايا بنسيان بسيط وهاديء يليق بالسيدة . وقبل مثل هذه الظروف كيف يستطيع الانسان انيتصور ان قبول هداياه هو دليل فال حسن او علامة مريحة ؟ وبالنسبة لي عندما اهدي اليها كل ما لدي وتقبله هي فان هذا دليل على عدم رغبتها في ان تتلاعب بها الاعتبارات الدنيئة ، ولا داعي لي

لاعتقد بان هذه العملية عملية تقديم الهدايا لها قـــد جعلتني اتقدم الى امام خطوة واحدة » ...

وقلت له « يا دكتور .. ان الحب اعمى ».. وهنا لمحت شعاعا ازرق ينم عن البراءة ينبعث من جوانب عيني الدكتور جـون فذكرني باوائل الايام ... ذكرني بصورته وحدا بي الى ان افكر تفكيرا نصفيا بان جزءا ـ في اقل تقدير ـ من اقتناعه الظاهري بسذاجة الأنسة فانشاوي كان زائفا وقادني هذا التفكير قيادة ملتبسة الى ان اخمن حدسـا أن نظرته الى نقاط ضعفها بالرغم من اعجابه بجمالها وتحمسه لها ربما كانت اقل خطئا واكثر تبصرا وحصانة من حديثه العام عنها ثم ان نظرته تلك ربما كانت نظـرة مصادفة او ـ في الاقل ـ رمزا لانطبـاع وقتي فقط وسـواء كانت نظرة صدفة او نظرة مقصودة ذات فحوى وسواء كانت نظرة حقيقية ام خيالية فانها انهت المحادثات بيننا في ذلك اليوم .

twitter @baghdad_library

الفصـــل التاســـع عشـــر

ـ كليوباطـــرة ـ

مدد مكوثي في « الشرفة » اربعة عشر يوما اخرى وراء مـدة انتهاء العطلة وكان ذلك من تدبير السيدة بريتون العطوف التي وفرت لي هـذه الراحة وكان الدكتور جون قد صرح موصيا بي بأنني لم اتوصل بعد الى القوة اللازمة للعودة الى حجـرة بنـاية المدرسة الداخلية للمدام بيك وفي الحال ركبت المدام بريتون عربة اقلتها الى شارع فوسيت وقابلت المديرة واستحصلت منها الاجازة لي قائلة أنني بحاجة الى راحـة طويلة وتبديل الجو من أجل استكمال شفائي واعقب ذلك زيارة فورية وكيسة من المدام بيك لي في بيت السيدة بريتون ٠

وفي يوم بديع جاءت تلك السيدة بعربة صغيرة الى البيت الريفي وفي فكري ان سبب مجيئها هو معرفة نوعية المكان الذي يسكن فيـه الدكتور جون ويبدو أن المـــكان المريح وداخلية البيت النظيفة فاقـــا تصورها وتوقعاتها وراحت تمتدح كل ما رأته وقالت عن الصالون الازرق انه مكان مريح وبديع وبالغت في تهنئتي بحصولي على مثل هؤلاء الاصدقاء المريحين المحترمـين ٠

وعندما دخل الدكتور جون هرعت اليـــه بمنتهى البشر والابتهاج وخرج من بـين شفتيها سـيل دافيء من الكلمات السريعة الملآى بالتهاني وبامتداح والدته التي اسمتهـا بالسيدة المستحقة لقصر مالك العزبة ٠ وكانت نظرات الدكتور جون الزاهية جدا تنم عن السريرة الطيبة لصاحبها حين كان يصغي دائما الى لغة المدام بيك الفرنسية اللبقة المنمقة وباجتزاء كانت المدام في ابهى مظاهرها في ذلك اليوم وكانت تخرج من هنا وتدخل من هناك وامارات البهجة والانشراح والحيوية وحلاوة العشرة بادية عليها٠

twitter @baghdad_library

ومشيت وراءها وهي ماشية وخارجة لاودعها دون ان اسالها عن القضايا المدرسية ولاحظتها وهي تعد جلوسها في العربة وبعد ايصاد الباب حصل تبدل في ذلك الوقت القصير فقبل برهة شوهدت تماما بعيون براقة ونكات وضحك متواصل وانشراح دائم اما الآن بعد ان دخلت العربة فقد بدت اكثر تجهما منوجه القاضي واكثر رزانة من الحكماءفيا لها منامرأة غريبة !!!

وعدت الى البيت وكايدت الدكتور جون حول حب المدام الشديد له فاستغرق في الضحك والتمعت عيناه بنور الدعابة والهزل عندما تذكر البعض في خطاباتها وقلد لفظها وطريقة القائها وكان هو نفسه ذا روح تمج بالنكات والمداعبات بحيث لا مثيل له في العالم في ذلك اذا كانت الآنسة فانشاوي في غير خاطره ·

يقال ان الجلوس تحت أشعة الشمس بهدوء ولطافة امر حسنلضعاف الناس لانها تمنحهم القوة والحيوية وعندما كانت الطفلة جورجيت ابنة المدام بيك تتماثل للشفاء من مرضها كنت عادة احملها بين ذراعي وأتمشى بها في الحديقة ساعة تقريبا تحت حائط من حيطانها تتدلى من فوقناعناقيد العنب التي كانت تنضجها أشعة الشمس وبقدر ما كانت هذه الاشعة تقوي الاغصان كانت تكبر وتنضج الفاكهة المعنقدة ·

وهناك أمزجة بشرية لطيفة ورقيقة ومتوهجة مفيدة لحياة الفقراء في الروح مثلما هي مفيدة لضعاف الاجسام تجعلها تنعم بأشعة شمس الظهيرة المتوهجة ومن بين امثال هؤلاء الناس المختارين الدكتور جون ووالدته السيدة بريتونفهما يحبان تحقيقالسعادة فيقلوب البؤساءويفعلان ذلك طبيعيا وغريزيا دونما احداث ضجيج · ان وسائل تصدير السعادة للآخرين موجودة بشكل عفوي في ذهنيهما،وفي كل يوم عندما كنت عندهما ماكثة في دارهما كانا يوجدان وسيلة تنجم عنها المتعة ولان الدكتور جون كان منشغلا كان يتحين بعض فرص فراغه ليرافقنا في كل نزهة قصيرة ·

ولا ادري كيف كانينظم وعوده معنا فقد كانت عديدة وبحكم النظام والعادة كان ينتقي اوقات يكون فيها قد تحرر من كل التزام يومي وغالبا ما كنت أشاهده يعمل اعمالا شاقة دون الامعان في التسريح ولم يكنيتبرم

او يرتبك أو يشعر بالاسى والذي كان يعمله كان ينجزه بسهولة ورحابة صدر وبفضل قوته المقتدرة الكافية والرحية العالية لما كان يملكه من طاقات عالية لا تنضب ٠

وبموجب توجيهاته وجدت في ذينك الاسبوعين من (فيليت) وضواحيها وسكانها ما يزيد على ما شاهدته خلال كل الاشهر الثمانية من اقامتي السابقة فيها واخذني الى مكان التسلية الموجودة في المدينة ولم اكن قد سمعت بها سابقا وبرغبة وشجاعة مفعمة بالحيوية قدم لي معلومات جديرة بالسرد ولم يشعر باي حرج من التحدث معي وكنت متأكدة من ان اصغائي اليه لم يكن من قبيل الواجب ولم يكن من عوائده آن يتحدث عن المواضيع بفتور او بغموض وقلما كان يتكلم بلهجة تعميم او ابتذال ٠

ويبدو انه كان يهوى التفاصيل البديعة مثلما كنت اهواها انا وكان حريصا على التقيد بالاخلاق دون ان يتقيد بالمظاهر ابدا وهذه السجايا حببت لي معاشرته والاتصال به وحقيقة كونه اعتاد على ان يتكلم من معين مصادره مباشرة دون ان يستعير او يسرق من الكتب ـ هنا حقيقة جافة وهناك عبارة مبتذلة وفي مكان آخر رأي مبتذل ضمن وجود الجدة والطراوة في حديثه وهو أمر كنت استمتع به لندرته ٠ وأمام عيني أيضا كان مزاجه يبدي طورا آخر يتمثل في امضائه يوما جديدا وألنهوض في وقت فجر احدث وأبرز وارفع ٠

واذا كانت أمه تحمل في طيات قلبها الخير والكرم فان ولدها كان يحمل ما هو افضل واعظم فقد وجدت عندما رافقته الى المنطقة « بيسفيل » ـ وهي اكثر ارجاء المدينة فقرا وازدحاما بالناس ـ آن مهماته هناك كانت كمهمات الانوسانيين وادركت في الحال انه كان يخلق ـ بروحية مرحة وعلى الشكل المألوف وبعدم درايته بأية فضيلة خاصة تميز حقيقته ـ عالما من اعمال الخير والصلاح التي تميز حقيقته للتعساء من السكان ، واوطا طبقة من طبقات الناس أحبته حبا جما وكان مرضاه التعساء في المستشفيات يرحبون به ترحيبا حماسيا دائما ٠

ولكن يا قارئي توقف قليلا ٠٠ فعلي من حيث السرد الامين الا أنحط الى درك المادحة المتحيزة ٠٠ صحيح وصحيح جدا انني على علم من ان

twitter @baghdad_library

الدكتور جون لم يكن بالشخص الكامل بقـدر ما أنا لست بالكاملة · ان عدم المعصومية مزجته بشيء ملدلف فما من ساعة او لحظـة في الوقت أمضيها معه لم يتخل فيه عن أي شيء ليست به من حيث العمل او الكلام أو النظرة علاقة بالله وحاشا أن يكون بالله سبحانه ما في الدكتور جـون من تفاهات او غرور او مثالب او طيش أو تقلب في بعض الاحيان ·

وليس من خلود يشبهه في نسيانه المؤقت لكل شيء عدا الحاضر وفي تشبثه السريع الزوال في هذا الحاضر البارز بشكل غير رديء وبتكريس للملذات والانغماسات الذاتية ولكن من حيث الاثرة والانانية كانينتزع منها ما له علاقة بالغذاء اللازم لحبـــه الرجولي الذاتي ويكمن فرحه في تغذية هذه المشاعر النهمة الشبقة دونالتفكير بثمن العلفودون الاهتمام بكلفة الاحتفاظ به طريا على ان يبقي وطره منالا على أعلى ما يكون ·

والمطلوب منك أيها القارىء ملاحظة التناقض البادي في النظرتـين البادئتين في غراهام بريتون احداهما عامة والثانية خاصـــة أي نظرته داخل المنزل ونظرته خارج المنزل ففي نظرته الاولى العامة يظهر نسيانا ذاتيا واعتدالا في عرض وتبيان قراه وجدية ممارستها أمـــا في النظرة الثانية فتعبر ــ كما في الصورة المعلقة بجانب الموقد ــ عن ماهيته وعمـا ينتويه ·· اللذة في الوفاء والطيش في الاثارة والخيلاء في تلقي ما يماثله وكلتا الصورتين صحيحة ·

وكان من الصعب تطويق عنق الدكتور جون بمنة لا في السر ولا في العلن ما دام ما كان يقوم به من بعض الخدمات للآخرين لمجردالاستخدام ولا يريد أن يعرف قط من أين جـــاءت ويدهشك بملاحظة يبديهـا او بملاحظتين يبديهما وهو مبتسم ويبرهن لك أن عينه ساهرة على العمـل من البداية الى النهاية وانه لاحظ المقصد او الغاية وتعقب سيرها ولاحظ عملية اكمالها ويرتاح لذلك وبيان نور الابتهاج في عينيه وفي فتحة فمه·

هذا كله يعتبر جيدا جدا ولكنه يضيف الى مثل هذه الشهادةالعطوفة السمحاء عملا مقصودا ومتعمدا في غض النظر عما يسميها ديونا فعندما تقوم والدته بخدمة له فانه يقابلها الخدمة بالخدمة بأن ينثر عليها فيضا من روحيته المرحة هو اكثر وفرة وغنى مـــن خصائصه اللطيفة البهية

المتسمة بالملاطفة واذا رأى أن لوسي سناو هي التي قامت بذلك العمل الذي راق له فانه يكافؤها بما يجدد نشاطها وحيويتها وبما يبهج فؤادها.

وغالبا ما كان يدهشني منه انه يعرف كل شيء عن « فيليت » وهي معرفة لا تتصل فقط بشوارعها المفتوحة وانما بالتعمق في معرفة اروقتها وصالاتها ومسارحها ومتاحفها وكل باب مغلق على شيء تسوى مشاهدته وكل متحف في اية قاعة مخصص للفن او العلم ويظهر انه كان يملك سر « أفتح يا سمسم » ولم أكن أعنى بالعلوم ولكن غريزة الشغف الاعمى بالفن كانت موجودة لدي .

وأردت ان أزور صالات الصور التي يسمح لي بالبقاء فيها لوحدي اما برفقة الآخرين فان خصوصيتي التعسة كانت تمنعني من أن أشاهد الكثير منها او التحسس اباية صورة منها بحيث انني لا ابقى اكثر من نصف ساعة برفقة جماعة غير مألوفة ولا معروفة لدي لان الضرورة تتطلب مني أن اتكلم كثيرا معهم حول مواضيعها فيأخذ التعب الجسماني مني مأخذه ويضعف كامل قواي العقلية .

ولكن الدكتور جون كان دليلا سياحيا لقلبي فكان يأخذني باكرا وقبل فوات الاوان وقبل ان تمتلىء الصالات بالزوار فيتركني هناك ساعتين او ثلاث ساعات ويأتي لاخذي عندما ينتهي من اشغاله ومواعيده وكنت سعيدة وسعيدة جدا لا في ابداء عجبي دائما وانما في استنباط النتائج او السؤال عنها او تشكيلها وفي بداية تلك الزيارات ظهر نوع من سوء التفاهم ، نزاع ينشب بين الارادة وبين القوة فقدرة الارادة تنتزع استحسان ماكان يعتبر مألوفا لاثارة العجب او القسوة فتتشكى من عجزها المطلق عن دفع الضريبة .

وبدا لي ان الصورة الاصلية الجيدة نادرة ندرة الكتاب الاصيل الجديد ولم اتحرج في النهاية من ان أقول لنفسي وأنا واقفة أمام بعض التحف الفنية التي تحمل اسماء عظيمة هل تعتبر هذه الا مثقال ذرة بالنسبة للطبيعة فضوء النهار الطبيعي ليس له هذا اللون ولا يمكن تكديره لا بالزوابع الهابة ولا بالضباب المتجمع كما هو مرسوم ههنا تحت جو من اللون النيلي الازرق فهذا اللون النيلي الازرق لا يمكن ان يضاهي

twitter @baghdad_library

الجسو الاصلي الازرق وتلك النباتات والاعشاب الدكناء المصنوعة من القوالب الجصية ليست اشجارا قط ٠

لقد اثار دهشتي عـــدد من النسوة البدينات ذوات الهندام الحسن والنظرات اللطيفة وهن يحسبن انفسهن بمثابة آلهات كن يظهرن اهتماما بن بصور فلمنكية رائعة صغيرة الحجم وبرسوم تخطيطية تناسب الكتب النموذجية مظهرة مختلف الازياء بأروع المواد وصناعة معمولة بشكل غريب متجاهلات اجـــزاء حقيقية ترضي الاحاسيس وتريحها وومضات من الانوار تسر الانظار ٠ ان قوة الطبيعة تتجلى في الزوبة الثلجية وابهتها وبهائها في اليوم المشمس في الجنوب وان كل تعبير في مثل هذه الصورة الطبيعيـــة يبرهن على البصيرة النقية وان التعبير الوجهي في تلك الصور الزيتيـــة التاريخية بشبهها الرائـــع تعلمك بشكـــل مدهش بأن المبقرية هي التي ولدتها ومثل هذه الشواذ المستثنيات كنت اهواها وتزايدت محبتها وعزتها في قلبي ٠

وفي يوم ما وفي ساعة مبكرة منـــه وجدت نفسي وحيـــدة تقريبا في صالة لعرض الآثار الفنية أمام صورة خاصة ذات حجم رائع وقـــد سلطت عليها اجمل الاضواء واحيطت بنطاق واق ومنصة موسدة يجلس عليهـــا عشاق القطع الفنية ونقادها وفي رأيي ان تلك الصورة تعتبر نفسها ملكة المجموعة الفنية فهي تمثل امرأة هي في نظري أكبر واعظم من الحياة بكثير ولو وضعت في ميزان ضخم مناسب لاستقبال سلع في صناديق لبلغ وزنها ما يتراوح بين ١٤ و١٦ ستون (ستون وحدة وزن انكليزية تعـــادل ١٤ رطلا انكليزيا ــ المترجم) ٠

وتلك الامرأة كانت تتغذى بشكل جيد فأمامها كميات كبيرة من لحم القصاب ناهيك عن كميات الخبز والخضر والسوائل وهي كانت تستهلكها لتكوين مثل ذلك الطول ومثل ذلك العرض الجسماني ومثـــل تلك الوفرة العضلية والوفرة اللحمية ٠ وكانت تلك الامرأة متكئة نصف اتكاءة عـــلى الاريكة فلماذا ؟٠٠ من الصعب ان يقول المرء شيئا ٠٠ كان ضوء النهـــار الوسيع يتوهج من حولها وبدت بصحة متعافية وبقوة قادرة على ان تنفـــذ شغل طباخين اثنين ٠

ولم يكن لديها عمود فقري ضعيف وكان ينبغي ان تكون واقفة او

في الاقل جالسة بشكل عمودي كالسهم المستقيم وما كان عليها أن تنام في الظهيرة على تلك الاريكة وان ترتدي الازياء المحتشمة وان يكون عليها ثوب يغطي جسمها بشكل جيد وهو ما لم يكن ومثل ذلك الجسم كان ينبغي ان تكون عليه أردية تبلغ زنتها ٢٧ يارده حين ان الذي ارتدته كان ناقصا لا يكفي لتغطية الجسم تغطية صحيحة ٠

ولا عذر لهذه الاخطاء اذا ما وجدنا فوضى ما كان يحيط بها من قدور ومقلايات ومزهريات وكؤوس واقداح ملقاة هنا وهناك على الارضية الامامية وبينها نفايات كاملة من الزهور وعدد من الستائر مسبلة بشكل لا ترتيب فيه على الاريكة وعلى الارضية وعندما نظرت في الكتالوغ عن عنوان تلك القطعة وجدت ان ذلك الانتاج الشهير يحمل اسم كليوباترة (الصورة للفنان البلجيكي ديفين وكانت معروضة مع الرسوم الاخرى المنوه عنها في هذا الفصل في صالون بيروكسل عندما كانت شارلوت برونتي هناك) ٠

ورحت أتفرج باندهاش على الرسم ولما كان هناك مقعد طويل للجلوس فقد جلست واخذني التفكير في أنه اذا كانت بعض التفاصيل امثال الزهور والاقداح الذهبية والمجوهرات وما الى ذلك مرسومة رسما بديعا جدا فقد كان الرسم بمجموعه قطعة ضخمة من التعبير الفارغ والغرفة التي كانت فارغة تقريبا عند دخولي اياها بدأت تمتلىء بالزوار٠

ودون أن الاحظ هذا الظرف كما ينبغي ــ اذ لم يكن لي من موجب لذلك ــ احتفظت بمقعدي لاريح نفسي وليس لدراسة وضعية تلك الملكة السمراء الملامح العبلة الجسم الشبيهة بملكة الفجر اذ اتعبني النظر اليها بسرعة وهيأت نفسي للراحة ثم استئناف التأمل ببعض الصور الصغيرة المنتقاة من قبلي باهتمام وتصور الحياة الصامتة كالزهور البرية والثمار البرية وأعشاب الايكة الطحلبية ٠

وعلى حين غرة احسست بربتة خفيفة على كتفي وحولت نظري لارى من هو الرابت واذا بناظري يلتقيان وجها انحنى ليلتقي بناظري وكان وجها عابسا صارما يادرني بصوته قائلا « ماذا تفعلين هنا ؟ »فأجبته«أمتع نفسي » وقال لي « تمتعين نفسك وبماذا ٠٠ رجاء ؟٠٠ اسمحي لي في

twitter @baghdad_library

البداية لاساعدك على الوقوف على قدميك . استندي على ذراعي ودعينا نخـرج » .

وامتثلت لما قاله وطلبه مني . لقد كـان المسيو بول عمانوئيل ذاته وقد عاد من روما وبوصفه مسافرا الآن ليس من الممكن أن يكون الآن أقل تحملا لمنزلة أدنى بالنسبة لما كانت عليـــه منزلته التي أضفت عليـه في السابق أكاليل الفخار وقال لي « أسمحي لي بأن آخذك الى جماعتك التي معك » قال ذلك وهو يعبر أرضية الغرفة . قلت له « ليس لي جماعةمعي» وقال لي « هل أنت اذن وحيدة ؟ » فأجبته « نعم ايهـــا السيد » وقال لي « الدكتور بريتون وأمه طبعا » فقلت له « الدكتور بريتون وحده » وقال لي هل هو الذي أراك هذه الصورة ؟ » فقلت له على الاطلاق . أنا التي وجدتها » .

لقد كان شعر المسيو بول مقصوصا وواقفا على رأسه ولما كنت أعرف انه شديد الاندفاع في كلامه سرني ان اثير مشاعره والتزم أناجانب الهدوء فانفجر غاضبا وقال بوقاحة « هؤلاء النسوة الانكليزيات يحيرن المرء فهن مستثنيات وشاذات » وقلت له « ما بك ايها السيد » فقـال لي « ماذا بي ؟ كيف تجرئين وأنت الشابة أن تجلسي ببرود كما لو كنت ولدا وتتفرجي على هذه الصورة ؟ » .

وقلت له «انها صورة سخيفة جدا ولكن لا ادري لماذا لا يجوزأن انظر اليها » وقال لي « لا يجوز أن تتكلمي عنها وينبغي ألا تكوني وحيـــدة » وقلت له « اذا لم يكن معي جماعة كما تقـــول فما عسى يعني لك كوني وحيدة ؟ أو كوني مع آخرين ؟ فلا يحق لاحد أن يتدخل في شؤوني » وقال لي « اهدئي واجلسي هناك ... هناك » بعد ان هيـــأ كرسيا بعصبية في زاوية معتمة بشكل خاص حيث الاطر والصور .. وقلت له « لماذا أيهـا السيد ؟.. » وقال لي « لمـــاذا ؟.. ليس عليك سوى أن تجلسي دون حراك الى ان يتقدم اليك أحد او اعطيك الاذن بذلك » .

وصحت به « ما هذه الزاوية المظلمة ؟ وما هذه الرسوم القبيحة ؟ » وكانت في الحقيقـة اربـع اوراق مدموغة . معرفة في الفهرس المصـور (الكتالوغ) بعنوان (حياة امرأة) وقد رسمت بطريقة رائعـة جديرة بالاهتمام مسطحة وميتة وباهتة وشكلية .

الاولى منها تمثل فتاة شابة تخرج من باب الكنيسة وبيدها كتاب القداس وثوبها انيق جدا وعيناها منخفضتان وفمها مغلق ومظهرها مظهر الانثى المتظاهرة تظاهرا بالدين وقد نضجت انوثتها قبل الاوان • والثانية تمثل عروسا وعلى راسها حجاب ابيض مسدل وهي راكعة على كرسي الصلوات وقد تشابكت اصابع يدها اصبعا على اصبع واحوزاز عينيها بارز بروزا حادا ، والثالثة تمثل والدة صغيرة السن وهي تمسك بفتاة سوداء صغيرة والاثنتان تعاينان بدقة تصبا فرنسيا ممتازا في روعته مقاما على زاوية من زوايا بيير لاجيس (المقبرة الرئيسة في باريس آسميت باسم بيير لاجيس كاهن الاعتراف لدى الملك لويس الرابع عشر) • •

وكل تلك الرسوم الاربعة كانت كالحة ورمادية كاللصوص وباردة وتافهة كالاشباح وماهي الاشياء التي تعيش النسوة في اوساطها ؟•• خيانة بشكاسة ورداءة طبع شاحبة تموزها الحيوية والعبث والتفاهة • رداءة كرداءة الجبارات الغجريات وتدخل كليوباطرة ضمن هذه الاوصاف، وكان من المستحيل البقاء طويلا لتركيز الانتباه على مثل تلك التحف الفنية ولهذا اخذت شيئا فشيئا أغير اتجاهي لاستعرض ما في صالون القطع الفنية

كان الجمهور النفير من المتفرجين في ذلك الوقت قد تجمع حول اللبوءة اللبوءة التي منعت من التقرب اليها ونصف مجموع المتفرجين كان من النساء ولكن المسيو قال لي بعد ذلك أن تلك السيدات ينبغي عليهن أن يدركن أن لا موجب للاوانس أن يتفرجن عليها الا انني طمنته قائلة له بوضوح انني لا أوافقه على رأيه هذا وان ليس في مثل هذا الرأي أثر للرشاد او ارجحية العقل غير أنه باستبداديته المألوفة لم يجب بشيء غير مطالبتي بالسكوت وبعد برهة أخذ يهاجم طيشي وتهوري وجهلي •

ان شخصا قميئا يفوق المسيو بول باستبداديته لا ينبغي أن يجلس على كرسي البروفيسورية ولاحظت بطريق الصدفة أنه كان ينظر الى الصورة نفسها بهدوء ويملي نظره بها مدة طويلة جدا ولم يتحاش النظر من وقت الى آخر الي وربما للتأكد من انني اطيع الاوامر ولا أعصي التوصيات وشيئا فشيئا أخذ يدنو مني ليبادرني الكلام وسألني من أجل أن يعرف الحقيقة « الست مريضة » وفهم انني كذلك وكان جوابي له

twitter @baghdad_library

« نعم ولكني الآن بحالة حسنة » وسألني « اين امضيت العطلة ؟ »واجبته « في شارع فوسيت وفي بعض من وقت العطلة مع المدام بريتون » ٠

وكان قد سمع بانني تركت لوحدي في شارع فوسيت فسألني ما اذا كان ذلك صحيحا فقلت له لم اكن وحيدة تماما فقد كانت ماري بروك (المتخلفة العقل) معي وهز كتفيه بلا مبالاة وبلا اكتراث وظهرت على محياه أمارات التعابير المتباينة المتناقضة ، فماري بروك معروفة عند المسيو بول معرفة جيدة فهو لم يعط أي درس في الشعبة الثالثة التي كانت تحتوي على طالبات غير متقدمات أمثالها ٠ انها لم تسبب له نزاعا حادا بين الانطباعات المتناقضة فمظهرها الشخصي وخصائصها الرافضة وامزجتها ونزعاتها المتسببة في غالب الاحيان كانت تزعج مزاجه وتوحي اليه باولكراهة العنيفة وهو ما يصدرعنه كلماشعر ان ذوقه مساء اليه وان ارادته مبددة ومشتتة ٠

فمن الجهة الواحدة كانت لبلاواها ومحنتها وطأة ثقيلة على دمائته وصبره ومثل هذه الوطأة لم يكن ينكرها الامر الذي كان ينجم عنها معارك طويلة بين انعدام صبره وقرفه واشمئزازه من الجهة الواحدة وبين عطفه وشعوره بالعدالة من الجهة الاخرى بحيث ينبغي القول لصالحه ان من النادر جدا سيادة المشاعر القديمة لديه وعندما تسود كان المسيو بول يبدي طورا متميزا يتسم بالويل والثبور ٠

لقد كانت عواطفه وانفعالاته حادة جدا وحالات كرهه وروابطه مفعمة بالقوة والحيوية وان القوة التي كان يبديها او يفرضها لكبحها لم تكن باي حال من الاحوال تلطف من شعور الملاحظ بانها شديدة ٠ وبمثل هذه النزعات والميول يمكن القول بأنها غالبا ما كانت تهيج وتستثير في الذهنيات الخوف والكره ومع ذلك كان من الخطأ ان يغشاه المرء فما من شيء حدا به الى آن يتهيج هياج الروحية الخائفة المرتابة ٠ ان اظهار مثل هذه المشاعر يتطلب ادراكا صحيحا لطبيعته علما بان طبيعته كانت ذات نظام يندر فهمه وادراكه ٠

وسألني قائلا بعد دقائق صمت قليلة « كيف دبرت أمرك مع ماري بروك» فأجبته « بذلت كل جهدي ولكن الحالة كانت مرعبة معها تماما » وقال لي

« اذن انت ذات قلب واهن ضعيف وتفتقرين الى الشجاعة وربما الى الاحسان والمحبة فقلبك ليس فيه الخصائص التي تولد الرحمة والشفقة » فاجبته « لا ادري في الحقيقة انما الذي ادريه انني اهتممت بها قدر امكاني ولكن عندما جاءت عمتها تفتش عنها لاخذها واخذتها فعلا استشعرت الراحة الكبرى » .

وقال لي « آه .. انك انانية فهنالك نسوة اعتنين بنساء تعيسات امتلأت بهن المستشفى وانت عاجزة عن ذلك » وقلت له « هل السيد يستطيع ان يفعل ذلك ؟ » فاجابني « ان النسوة الجديرات بالتقدير والسمعة بافعال البر عليهن ان يتفوقن على فظاظتنا نحن الرجال غير المعصومين المطلقين العنان لاهوائنا في مجال تحقيق مثل هذه الواجبات » .

وقلت له « ايها السيد .. لقد كنت اغسلها في الحمام لابقيها نظيفة وكنت اطعمها بيدي واحاول ادخال السرور الى قلبها ولكنها كانت تظهر لي علائم الهزء والسخرية بدلا من التكلم معي » وقال لي « هل تظنين ان الذي فعلتيه يدخل في عداد الافعال العظيمة ؟ » واجبته « كلا لا ادعي ذلك ولكن الذي فعلته كان عظيما بالنسبة لقدرتي » وقال لي « اذن ان قدراتك محدودة ولانك رعيت احدى الغبيات واهتمت بها سقطت مريضة على الفراش » .

وقلت له « لم امرض بسبب ذلك أيها السيد انما اصابتني حمى عصبية وتمرضت ذهنيتي » وقال لي « حقا انك فتاة بائسة وانت لم تتقولبي بقالب بطولي وشجاعتك لا تكفي لابقائك حية على ما يرام في الحالة الانفرادية انما تعطيك فقط الطيش والتهور لتطيلي النظر بامعان الى تصاوير كليوباطرة » ! وكان سهلا علي جدا ان استاء من كلماته غير أنني لم افعل ذلك وانما بادرته بهدوء بسؤالي هذا .. « كليوباطرة ؟ . ان السيد أيضا كان يطيل النظر الى صورتها فما هو رأيه بها ؟ »

واجاب قائلا : ليست بذات قيمة . واذا كانت في الصورة امرأة رائعة ولها قوام امبراطورة وصورة جونو ملكة السماء في اساطير اليونان الا انها في نظري مخلوقة لا أريدها كزوجة ولا كابنة ولا كاخت وعليك الا تلقي بة نظرة في اتجاهها » وقلت له « لقد عاينت الصورة مرات عديدة والسيد

twitter @baghdad_library

ماض في كلامه وبوسعي ان اشاهدها مشاهدة جيدة من هذه الزاوية«وقال لي « استديري صوب الحائط وادرسي الصور الاربعة لحياة المرأة » وقلت له « اعذرني ايها السيد بول انها قبيحة للغاية ولكن اذا كنت معجبا بها فاسمح لي أن أخلي مكاني واتركك في تاملاتك بها » ٠

وقال لي مكشرا عن نصف ابتسامة أو ابتسامة وان كانت كتظاهرة شالحة «انتن الانكليزيات المتسيبات تمشين بهدوء بين شفرات المحاريث المتوهجة بالحرارة الشديدة وتتخلصن من الاحتراق » وقلت له « هل للسيد آن يتفضل وينزاح انجا واحدا الى احد الجانبين ؟ ٠٠ » « فقال لي» ولماذا ؟ على م أنت ناظرة الآن ؟ انك لا تشاهدين ايا من معارفك في تلك المجموعة ؟ « فقلت له » نعم انني أشاهد هناك شخصا أعرفه » ٠

وفي الحقيقة أن ناظري وقع على رأس لا ينطبق الا على رأس الكولونيل دي هامال الصغير الانيق ويا لها من قدمين ويدين كقدمي المراة ويديها ويالها من طريقة أنيقة وضع بسوجبها نظارته على عينه وباي عجب أو اندهاش كان ينظر فيه الى كليوباطرة وباي افتتان وجاذبية كان يكبت ضحكته وهو يهمس بأذن صديق له ممسك بمرفقه ٠٠ آه ٠٠ انه رجل العقل والرشاد « الجنتلمان المتصف بالذوق العالي والبراءة ؟؟ ورحت أرنو اليه مدى عشر دقائق وهو مأخوذ كليا بفينوس النيل السمراء البدينة !! المهيبة ٠٠

وكنت شديدة الاهتمام بوقفته ومشيته مستشفة بحدسي سرائره من خلال نظراته وحركاته ونسيت موقتا المسيو بول وخلال ذلك الوقت وقف جمهور بين ذلك الجنتلمان وبيني ثم انسحب طوعا وعندما اعدت النظر الى المكان الذي كان فيه قبل أن يحجب عن ناظري واجلته في الواقفين مرة أخرى كن قد توارى ٠

وظل نظري يتجول فوقع على شخص سواه لا يشبهه ويمكن ان يشاهد بوضوح بين الجمهور لطوله وقيافته المتميزتين فيه ٠ لقد كان الدكتور جون في سيمائه وطلعته وهيكله المختلفة عن شكل ذلك الذميم الفظ المكفهر الوجه البروفيسور القميء ٠ لقد كان يبحث عني ولم يكن قد اكتشف الزاوية التي وضعني فيها الناظر في المدرسة قبل قليل وظللت ساكنة وهادئة في مكاني وبعد دقيقة أخرى أخذت أجيل النظر ايضا ٠

وتقرب الدكتور جون من دي هامال ووقف فترة قصيرة الى جانبه وظننت ان النظر الى رأسه مسرة وأخذ الدكتور جون ايضا يطيل النظر برسم كليوباطرة وشككت في أن الرسم كان رائقا لذوقه اذ لم يتكلف أية ابتسامة كالتي تكلفها الكونت القزم · ولقد كان من منظر فمه يبدو صعب الارضاء أما عيناه فكانتا فاترتين وهادئتين وبدون تظاهرة تنحى جانبا وترك الفرقة للداخلين الآخرين وشاهدته الان منتظرا وناهضا على قدميه فتوجهت وانضممت اليه ·

وانعطفنا انعطافة واحدة حول الصالون وكانت الانعطافة ملذة ومبهجة جدا وكنت شديدة التوقان والشوق دائما لان اسمع منه ما يريد ان يقوله عن الصور والرسوم والكتب الاخرى لانه دون التظاهر بانه خبير كان دائما يعبر عن أفكاره وذلك أمر حسن وفي الغالب كان عادلا وبليغا ومليئا بالحيوية وكان من الامور البهيجة على قلبي أن أسر له ببعض الاشياء التي كان يجهلها ·

وراح يصغي لي بلطف راغبا في السماع والتعلم دون شكليات التردد والحيرة لكي لا يتوجه ذهنه اللامع الى جمع تفسيرات غامضة قد تسيء الى كرامة رجولته وعزتها وعندما قابلني بالحديث هو أيضا كان حديثه مشرقا صافي التفكير واودع كلماته الواضحة بشكل كما لو انها تحدث نحتا في الذاكرة او اثرا عميقا فيه دون أن أنسى التوضيحات التي صدرت عنه او دقائق سرها ·

ولدى مغادرتنا الصالون سألته رأيه عن كليوباطرة بعد ان جعلته يضحك عندما أطلعته على ما جرى بيني وبين البروفيسور عمانوئيل وكيف أنه أراد أن يصرف ذهني عما كنت اتأمل فيه من الصور وأدى تبرمه مما قاله البروفيسور عما نوئيل باسارير وجهه وقال لي « سمعت بعض الفرنسيين المتأنقين في ملابسهم يقولون عن والدتي انها أجمل منها ووصفوها بنموذج المرأة المتقدة الاحاسيس واذا كان الامر كذلك لا استطيع سوى ان اقول ان المرأة المتقدة الاحاسيس لا تروق لي ·· قارني هذه الخلاسية بجنيفرا مثلا » !!

twitter @baghdad_library

الفصـــل العشـــرون

ـ الحلقـة الموسـيقية ـ

في صبيحة أحد الايام جاءت السيدة بريتون بسرعة الى غرفتي وطلبت مني فتح جارورات وايراز ما لدي من الملابس أمامها وفعلت مـا طلبت مني دون أن أنبس بكلمة وقالت لي بعد أن قلبتها « هذا يكفي ولكن ينبغي أن يكون لك ثوب آخر جديد » وخرجت من الغرفة ثم عادت لتوهـا مـع خياطة أخذت مقاييسي قائلة لي « أردت بهذا أن تتابعي ذوقي وان يكون لك ثوب بموجبه » وبعد يومين جاءت لي بثوب أحمر قرنفلي ·

وقلت بسرعة وأنا شاعرة بأنني سرعان ما ارتدي زي سيدة صينيـة في مرتبتي « ليس هذا لي » واجابت عرابتي « سنرى ما اذا كان هذا لك أم لا » وأضافت على كلامها ما يشكل قرارا لا يقاوم « التزمي بكلماتي سترين هذا في هذه الامسية » وقلت لها « بودي أن أرفض فلا قوة بشرية تستطيع أن تلبسني اياه ·· ثوب أحمر قرنفلي ·· لا اعرفه ولا يعرفني ولم أجرب ارتداء مثيله في السابق » ·

وقالت لي عرابتي على شكل مرسوم قانوني « أن علي أن أذهب معها ومع غراهام الى حفلة راقصـــة بنفس الليلة وهي حفلة كبرى تقـــام في الصالون الكبير او في القاعـة العائـــدة للجمعية الموسيقية الكبرى التي ستعزف فيها خيرة طالبات المدرسة العامة للموسيقى وتلقى فيها خيرة الخطب في القارة يعقبها بانصيب لمنفعـــة الفقراء ويحضر الحفلة الملك والملكة وأمير لاباسكور ولخدماته المعروفة وامتيازه أهدي له ثوب وأوصى الدكتور جون أن تستعد لحضور الحفلة في الساعة السابعـة وفي حوالى الساعـة السادسة اخذت الى فوق وبدون مقاومـة وجدتني مقـــادة ومؤثرا علي بارادة شخص آخـر ودون أن استشار أو أن أقنع أمكـن السيطـرة علي بهـــدوء ·

twitter @baghdad_library

وارتديت الثوب الاحمر بعد ان خفف بقماش أسود مخرم وطلب مني ان اكون بكامل ملابسي المسائية وان أنظر الى نفسي في المرآةوفعلت ذلك وانا شاعرة ببعض الخوف والارتعاش وحولت نظري عن المرآة بعد ازدياد خوفي وارتعاشي · ودقت الساعة السابعة وجاء الدكتور جون ونزلت أنا وعرابتي التي ارتدت المخمل الناعم الاسمر اللون وعندما كنت أمشي خلفها حسدتها على ما كان على سيمائها من أمارات الهيبة والابهة وكان غراهام واقفا على باب قاعة الاستقبال ·

وكانطموحي المطلوبالا يتصور الدكتور جون أن الغرض منتزوقي هو لفت الانظار الي وقال لي « يا لوسي اليك بعض الورد » وسلم لي باقة ورد ولم يلاحظ ثوبي ولم يبد أي تعليق سوى ابتسامة وايماءة موافقة وارتياح من رأسه خففت من شعوري بالخجل والسخرية ، وفي الحقيقة أن الثوب صنع ببساطة فائقة وخلا من الاهداب والحواشي المزركشة وكان مصنوعا من قماش خفيف ولون خفيف أخافني ولان الدكتور جون لم يشاهد فيه ما يضير فان عيني رضيتا به وسرعان ما صالحته وارتحت اليه·

انني اتصور بأن الناس الذين يذهبون كل ليلة الى أماكن التسلية العامة يندر أن يدخلوا الى الاحتفال الطلق وهم شاعرون بأن من يندر ان يشاهدها ـ اوبرا كانت أم حفلة موسيقية ـ يتمتع بها كما يتمتع الآخرون ولم اكن متاكدة من انني ساجد لذة عظمى بتلك الحفلة الموسيقية اذ كنت أجهل جهلا تاما طبيعتها غير ان التوجه اليها كان جميلا ومفعما بالمتعة ·

ان صوت سير العربة المجاورة في تلك الليلة البديعة رغم برودتها ولذة الانطلاق مع مرافقين مرحين وصديقين حميمين ومنظر النجوم المومضة المتألقة من بين الاشجار كلما قطعنا الشارع العام ومنظر الجو الليلي الظاهر بانطلاقته الحرة ونحن نسير في طريق العربات المفتوح، المر المؤدي الى بوابات المدينة وتوهج الاضواء ووجود الحرس هناك ، ان كل تلك الامور الصغيرة كانت لي في بدعتها وجدتها بمثابة سحر بهيج بشكل متميز ولا ادري كم من امثاله يوجد في جو الصداقة الفواح من حولي ·

لقد كان الدكتور جون ووالدته في أبهى وابدع حالاتهما النفسية

وهما يتجادلان ويتحاوران مع بعضهما بعضا طيلة الطريق وفي أحسن حالات التعاطف والتوادد معي كما لو كنت واحدة من انسبائهما ·

وكان طريقنا يمر عبر أفضل شوارع « فيليت » التي كانت مضاءة اضاءة زاهية تموج بالحياة والحيوية اكثر من وقت الظهيرة وكم كانت رائعة تلك الحوانيت وما ابهج وأبهى واوفر تيارات الحياة المائجة على طول الرصيف الواسع ·

وعندما كنت أعاين خطرت في ذهني احدى خواطر شارع فوسيت ذي الحدائق المسورة بالحيطان وبمدرسته وبصفوفها الواسعة المظلمة حيث كنت في مثل هذه الساعة من الليل أنزع وأتوق الى الهيمان على وجهي والتجول وحيدة أتأمل النجوم من بين النوافذ العالية العمياء وأصغي الى الصوت الصادر عن بعد من القارئة المتذكرة في حجرة الطعام المتمرنة تمرينا رتيبا تلك المناظر التي لابد لي أن أعود الى الاصغاء اليها وتلك الاماكن التي لابد لي أن أهيم في سوحها مرة أخرى وظل المستقبل هذا تسلل الى نفسي وباغتني خلسة الى داخل حاضري المبتسم المشع ·

وفي ذلك الوقت وصلنا الى مزدحم عربات كلها متجهة اتجاها واحدا وسرعان ما وصلنا قبالة بناية عظيمة منارة انارة رائعة كما لو أنها تتوهج · ترى ؟ ما الذي سأشاهده داخل هذه البناية ؟ وكنت مضطربة نوعاما اذ لم يسبق لي أن دخلت أماكن تسلية كهذه · وترجلنا من العربة تحت مدخل المبنى حيث الجمهور الكبير وضوضاؤه الصاخبة ولم اتذكر بوضوح المزيد من التفاصيل حتى وجدتني اتخطى على درجات سلم واسع فخم سهل صعوده ومفروش بالسجاد القرمزي فرشا تاما مريحا وحتى جدرانه كانت مغطاة بأقمشة قرمزية اللون ايضا ·

وصعب علي عرفان كيفية دوران هذه الابواب الى الخلف أما الدكتور جون فكان يعرف ذلك ويعالج تلك النقاط ودخلنا قاعة كبيرة فسيحة وعالية بدت لي حيطانها الدائرية الشاملة وسقفها الاجوف المقبب كما لو أنها موشاة بالذهب ومزخرفة بفن رفيع ملطف بالافريز والتحزيز واكاليل الزهور الزاهية اللماعة المصقولة كأنصقال الذهب والبيضاء الثلجية

twitter @baghdad_library

كالمرمر الابيض المذهب الممزوج باكاليل كاكاليل الاوراق المذهبة أو أوراد السوسن الطاهرة الخالية من الشوائب والعيوب ٠

وحيثما تدلت الاقمشة أو انتشرت السجاد او وضعت المساند والوسائد كان اللون السائد هو اللون القرمزي الغامق وقد تدلت من القبة كتلة متألقة بهرت عيني ، كتلة ربما تكونت من البلور الصخري المتألق بالواجهات التي تعج بالاقراط والحلي وتتوهج بالنجوم المثبوبة بقطرات محلول الجواهر او اجزاء قوس قزح وشظاياه ولم تكن هذه الكتلة سوى المشمعة وبدا لي انها من صنع الجن الشرقي ٠خيل الى أناليد السوداء الضخمة الغيمية يد خادم المصباح السحري تحوم في جو سقف القبة الرائع المعطر لحراسة هذه الكنوز المدهشة ٠

وتقدمنا الى امام ولم اكن اعرف الى اين نحن متوجهون ولكن عند احدى المنعطفات تقابلنا على حين غرة مع جماعة اخرى تدنو الينا من الجهة المقابلة ولم اشاهد الجماعة الا الان بعد ان برزت حيالي خلال لحظة احداها وهي سيدة جميلة في منتصف العمر ترتدي مخملا ناعما داكنا ولاخر شاب ربما كان ولدها وله اجمل وجه شاهدته في حياتي وشخص ثالث في ثوب احمر قرنفلي ومعطف أسود مخرم ٠

وشاهدتهم كلهم وكان الشخص الثالث والشخصان الاخران قد ظننتهم لاول مرة من الاجانب ولذلك لم يكن في انطباعي عنهم اي تحيز بل لم يكن يحتسب انطباعا الا بصعوبة لعدم ثبوته واصبح كذلك عندما قابلت مرآة كبيرة تملأ فراغ حجيرة خاصة بها تقع بين دعامتين فقد كانت الجماعة جماعتنا ولهذا استمتعت لاول مرة وربما للمرة الوحيدة في حياتي بموهبة مشاهدة نفسي كما يشاهدني الآخرون وما كانت بي من حاجة للتفكير بالنتيجة فقد جاءت هذه بارتجاج مفاجيء ووخزة ألم ٠

وفي آخر الامر جلسنا في اماكن تشرف على منظر عام جميل لتلك القاعة الفسيحة المتألقة بالانوار ، تلك القاعة الدافئة البهيجة التي سبق ان غصت بالناس وامتلأت بالجمع العظيم العدد ولم أكن أعلم أن النسوة الاجنبيات كن جميلات وكانت البستهم مكملة لجميع الشروط ومع أن مثل

هذه الملابس غير مألوفة في الخصوصيات المحلية فانها كانت تملك فن الظهور بشكل لطيف في الاماكن العامة .

ووجدت في الحفلة ملامح جميلة هنا وهناك ونماذج من أنماط جمالية خاصة ومميزة لا يوجد مثيلها في انكلترا فلهن ملامح كالملامح التي يضفيها كبار الرسامين الهولنديين على سيداتهم ملامح البلدان المنخفضة والملامح الكلاسيكية كانت متناسقة ولكن مدورة ومستقيمة وعليهن دلائل النباء وانعدام الحس وبصدد الهدوء العميق الذي لا يعبر عن شيء والسلام المنعدم الشعور لا يمكن الا لحقل جليدي قطبي أن يقدم نموذجا كمثل تلك النماذج . ان نسوة من ذلك النمط لا يحتجن الى تزيين ونادرا ما يرتدين البسة ذات زينة فالشعر الناعم المضفر المقوص يضفي مايكفي من التناقض على الخد الانعم والحاجب الاجمل ولا يمكن أن تكون الالبسة جد بسيطة فالذراع المدورة والجيد المكتمل لا يتطلبان سوارا ولا قلادة .

وكان لي شرف التعرف التام ذات مرة بجمال من امثال هذه الجمالات وكان مدهشا أمر القوة الخفية لحبها المستقر عميقا ولا يمكن أن يبزه أو يتخطاه الا ضعفها المتعجرف وعجزها من أن تهتم بأي مخلوق حي آخر تتصور انها تهواه ومن حيث الدماء كانت أوردتها المبتردة لا تجري فيها ومن حيث اللنف الهادىء فانه كان يملأ شرايينها ويغلقها في الاغلب (اللنف سائل عديم اللون تقريبا تشتمل عليه الاوعية اللنفاوية ويتألف في بلازما الدم وكريات الدم البيضاء ـ القاموس) .

ومثل هذه الجونو (ملكة السماء في الاساطير الرومانية) كانت تجلس واحدة أمامنا تماما وهي من النوع الذي يجتذب الانظار وأنا واثقة أنها كانت كذلك وذات قوة قياسية حيال التأثير المغناطيسي للنظرة الخاطفة أو الفاحصة وكانت فاترة ومصقولة ومكورة وشقراء وجميلة كجمال العمود الابيض أو الدعامة البيضاء زخرف جسمها بكل أنواع الحلي والزينة وعندما لاحظت أن اهتمام الدكتورجون تركز عليها بشكل يلفت النظر توسلت اليه بصوت واطيء وبحق السماء أن يصون قلبه صيانة جيدة وقلت له « ليس بك من حاجة لان تتعشق هذه السيدة لانني قلت لك في السابق انك قد تموت على قدميها وانها لن تحمل لك الود والحب مرة أخرى » .

twitter @baghdad_library

وقال لي حسنا ·· وكيف علمت آن مظهر او مشهد غفلتها الكبرى لن تكون ـ فيما يخصني ـ اقوى حافز للولاء فيما بيننا ان لذعة القنوط ـ في نظري ـ تؤذي عواطفي ومشاعري أيما ايذاء ! وهز كتفيه واستانف الحديث قائلا « آنت تجهلين مثل هذه الامور كل الجهل وساخاطب امي في الموضوع » والتفت الى والدته قائلا « امي انا في مسلك خطير » واجابته امه « يخاطبني كما لو ان الامر يثير اهتمامي » واجابها « واحسرتاه ·· هل يجب آن تكون القسوة من نصيبي ؟ ليس لشخص آخر والدة تنقصها العواطف الرقيقة تجاهي كوالدتي وهي لا تفكر بان مثل هذه البلوى ستحل بكنتها ايضا » ·

وقالت آمه « ان رفضي لا يعني آنني اريد آن تحل نفس البلوى بي · آنت مازلت تهددني بذلك خلال الاعوام العشرة الماضية » وقال لها ولدها صائحا « يا امي ·· انا في سبيلي الى الزواج سريعا · وسيتحقق ذلك في احد هذه الايام او بين ليلة وضحاها وعندما تظنين آنك في امن تام ساذهب كما ذهب اسحق او عيسو او اي ورع آخر واتحرى عن زوجة لي وربما من هؤلاء الفتيات اللواتي هن من هذه الارض » ·

وقالت له آمه « على مسؤوليتك يا جون غراهام وهذا يكفي » وقال جون « امي هذه تريدني آن ابتى اعزب مسنا فما آشد غيرتك ورغبتك في الأحتفاظ بي دون زواج ايتها المرآة المسنة · انظري الآن فقط الى تلك المخلوقة الرائعة ذات الرداء الازرق الساتاني الفاتح والشعر الاسمر الافتح الذي له انعكاس ساتاني كثوبها · الا تستشعرين الفخر والاعتزاز يا امي اذا ما جلبت تلك المعبودة الفاتنة يوما ما الى البيت ؟·· » واقدمها لك قائلا هذه هي السيدة بريتون الصغيرة ؟ » ·

وقالت له آمه « لن تجلب معبودتك الفاتنة الى (الشرفة) فالبيت الريفي بيتنا لن يحوي سيدتين لاسيما اذا كانت الثانية صاحبة هذا الطول والحجم الذي يشبه الدمية الجبارة المصنوعة من خشب وشمع وجلد الجدي والساتان » وقال لها « والله يا امي ستملأ فراغ كرسيك الازرق على شاكلة تثير العجب ! » واجابته آمه «تملأ كرسيي !؟ انني آتحدى المغتصبة الاجنبية فالكرسي البائس لن يكون لها ولكن صه يا جون غراهام وامسك لسانك عن الكلام واستخدم ناظريك » ·

واثناء المناوشة التي جرت بين الام والولد استمرت القاعة التي ظننتها ملأى بالناس تستقبل الجماعات تلو الجماعات بحيث ان المكان شبه الدائري الواقع امام المسرح كون ما لايحصى من أرؤس الناس المتكاثفة بين الارضية والسقف . وحتى المسرح أو المنصة الواسعة الاحتياطية التي هي أوسع من أي مسرح والمهجور قبل نصف ساعة أخذ الآن يعج بالناس وبالحياة حول اثنين من البيانوات موضوعين في الوسط تقريبا وتقاطرت جماعات بيضاء من الفتيات الشابات وتلميذات المدرسة الداخلية بلا جلبة ولا ضوضاء .

ولاحظت تجمعهن عندما كان غراهام ووالدته منهمكين في النقاش حول الفاتنة الضناء ذات الساتان الازرق وراقبت باهتمام طريقة ارتدائهن وترتيبهن وتصفيفهن وكان يقود اولئك العذارى اثنان من معارفي احدهما رجل ذو شكل فني ملتح وذو شعر طويل مشهور بالعزف على البيانو ومشهور بكونه مدرس الموسيقى الاول في (فيليت) وكان يحضر مرتين في الاسبوع مدرسة المدام بيك ليقدم دروس الموسيقى الى عدد من التلميذات اللواتي كان اولياء امورهن وآبائهن وأمهاتهن من الغنى والثراء الكافي للسماح لبناتهن لتلقي تلك الدروس وكان اسمه جوزيف عما نوئيل آخ غير شقيق للمسيو بول عما نوئيل .

وآنسني عن بعد المسيو بول وضحكت في سري عند مراقبتي اياه فقد كان يقف بشكل يثير الضحك أمام جمع كبير جدا يرتب الامور ويضبط ويرهب ويخيف حوالي مائة فتاة شابة وكان يبدو جديا جدا وحيويا في حركاته ومنكبا على عمله على شاكلة تصميمية ومطلقا في استبداديته ثم اي عمل كان له هناك؟وماذا كان شأنه في الموسيقى أو في المدرسة الداخلية وهو الذي لا يفهم ولا يميز بين نغمة موسيقية واخرى ؟.

وكنت على علم من أن حبه للظهور وللسلطة هما اللتان جاءتا به الى هنا. وهو حب لا يتسم بالعنف وانما بسذاجته فقط . ومن يدري اخباره هناك المسيو جوزيف كان واقعا تحت نفوذه وسيطرته اكثر من الفتيات أنفسهن ولم يظهر بمظهر الصقر مثل المسيو بول ولم تمر مدة قليلة الا واعتلى بعض المغنين الموسيقيين الشهيرين المنصة وعندما ظهر هؤلاء النجوم غاب الشبيه بالمذنب .. المسيو بول .. الذي يعتبر كل المشهورين

twitter @baghdad_library

اناسا لا يمكن لاحد أن يقف بوجوههم والمسيو مول لا معدى له عن الهرب اذا احس بانه غير قادر على أن يتألق في اجتماع ما أو في حفلة ما ٠

والآن كل شيء تهيأ الا مقصورة واحدة من القاعة كانت تنتظر اشغالها وتلك المقصورة كانت مغطاة باللون القرمزي كما أن السلم الكبير والابواب جهزت بمقاعد وسدت وزوقت ووضبت على كل جانب من جوانب كرسيين ملكيين وضعا بكل مهابة واجلال تحت سقف مزخرف بزخرف ملكي خاص ٠

واعطيت الاشارة فعادت الابواب الى الخلف ووقف الجمهور وصدحت الاوركسترا مدوحا صاخبا وحينذاك دخل الملك والملكة واعضاء البلاط والامير لاباسكور وكنت الى ذلك الحين لم اشاهد ملكا او ملكة حيين وركزت قواي البصرية لاشهد مليا نموذجين من الملوكية الاوربية وعلى أي منها وقع ناظري لاول مرة كانت تلك بالنسبة لي مفاجأة غريبة وغامضة تحادد خيبة الامل ذلك أن ايا منهما لا يبدو انه جلس على عرش ملكي دائم بتاج وصولجان وعند النظر الى الملك والملكة لم أجد فيهما سوى جندي في منتصف العمر وسيدة شابة فشعرت بأنني نصف مخدوعة ونصف مسرورة في آن واحد ٠

انني اتذكر ذلك الملك ٠٠ رجل في الخمسين من عمره منحني القامة قليلا ورمادي اللون قليلا ولم يكن أحد من الموجودين في الحفلة يشابهه ولم يقل لي احد ــ ولم اقرأ ــ أي شيء عن طبيعة عاداته قط وكأنما نقش على جبينه غموض تام بميسم حديدي وكذلك حول عينيه والى جانب حلقه غريزة محيرة ومربكة ٠ وان لم أكن أعلم ففي الاقل شعرت بمعنى تلك الخصائص والمميزات المكتوبة بدون يد ٠

هناك يجلس رجل عصبي من المعاناة مصاب بمرض الانقباضية او السوداوية وعيناه تترقبان زيارات شبح وتنتظران ذهاب ومجيء طيف اسمه ظاهرة الوسواس وربما وجدها الآن على ذلك المسرح فلها عادة الظهور بين الالوف وهي سوداء كالقدر المشؤوم وشاحبة كالمرض وقوية كالموت ٠ ان رفيقها أو ضحيتها كان يظن أنه سعيد ولو لحظة ما تأتي وتقول له ليس الامر كذلك ٠ أنا قادمة ، ثم تجمد دماء قلبه وتحجب الضياء المنبعث عن عينيه ٠

وقد يقـول البعض أن الملك ليوبولد الاول البلجيكي (١٧٩٠ ـ ١٨٦٥) الذي انتخب لتولي العرش بعد ثورة استهدفت انتزاع استقلال بلجيكا من التاج الهولندي كان في السابق الامـير ليوبولد أمـير سيكس كوبورغ ولذلك اعتبر اجنبيا · وقد يستقى البعض مؤثرات موت الزوجة الاولى للملك ليوبولد الاول وهي شارلوت ابنة الملك جورج الرابع ملك انكلترا التي توفيت في عام ١٨١٧ علما بان زوجته الثانية التي تزوجها في عام ١٩٣٢ كانت لويزا ابنة لويس فيليب ملك فرنسا وقد يكون ما يبدو عليه نتيجة مؤثرات كلا هذين الحدثين اللذين نغصهما أسوأ عدو للانسانية الا وهو مرض السوداوية الدستورية ·

والملكة زوجته تعرف هذه الحقائق ويبـــدو لي أن انعكاسية حزن زوجها كانت تضفي ظلا ذا معنى على محياها الرقيق فهي ذات ذهنية دمثة ولبقة ولطيفة الشمائل وكثيرة التأملات ولم تكن جميلة ذات سحر كسحـر النسوة المتواصل وكمشاعرهن المرمرية الانصقال من اللواتي وصفناهـن قبل صفحة او صفحتين من هذا المؤلف بل كانت ذات شكل نحيل ·وسيماؤها وان كانت متميزة بمـا فيـه الكفاية فانهـا كانت توحي بسلالات ملكية حاكمة تمنح شعورا باللذة والاطمئنان اللذين لا يضاهيان ·

ان التعبير الذي كان يغلف تلك الصورة الجانبية كان تعبيرا مرضيا في ذلك الوقت ولكن لم يكن بوسعك أن تتحاشى توصيله بالصور التي يمكن تذكرها حيث تظهر خطوط مماثلة تحت مظهر حسي ضعيف او ماكر وفق الحالة السائدة· ان عيني الملكة كانتا عينين أصيلتين خاصتين بها تباركهما الرحمة والشفقة والطيبة وحلاوة التعاطف بأقدس نور ·

ولم تظهر عليها خاصية ملكة وانما خاصية سيدة شفوقة صحية وأنيقة يرافقها ولدها الصغير الامير لاباسكور والشاب الدوق دي دنيدولو وكان منكفئا على حضن أمه بين الفينة والفينة في تلك الامسية ورأيتها يقظـة وساهرة على الملك الجالس الى جانبها وهي شاعرة بما يبدو عليه من ذهول وراغبة في توعيته ووقايته منه عن طريق لفت اهتمامه بولدها وغالبـا ما كانت تميل برأسها لتصغي الى ملاحظات الامـير فتنقلها مبتسمة الى والده ·

twitter @baghdad_library

وكان الملك الكئيب المتقلب المزاج يستيقظ من ذهوله فجأة ليصغي وليبتسم وليغفو غفوة اخرى حالما يكف ملاكه عن الكلام · وعند دخول الملك والملكة أعقبتهما حاشيته المؤلفة من ثلاثة سفراء أجانب ثم نخبة من الاجانب المقيمين في (فيلبث) الذين أخذوا مقاعدهم القرمزية الالوان وجلست السيدات ولكن معظم الرجال ظلوا واقفين وبدت ملابسهم الرتيبة السوداء كزخرف أسود وسط ذلك السناء الظاهر في مقدمة الحفلة ·

ولم يكن ذلك السناء ملا أضواء او ظلال او تداخل الالوان المختلفة واملا البعد الوسطي بنسوة كهلات متزوجات من الطبقة الرفيعة يرتدين الثياب القرمزية والاطلس (الساتان) ورياش الزينة والجواهر · ويبدو ان المقاعد الطويلة في المقدمة الموضوعة الى يمين الملكة كانت مخصصة للفتيات اللواتي انحدرن من أرومة الطبقة الارستقراطية وبراعمها في (فيليب) فهنات لا توجد جواهر ولا أغطية الرأس ولا زئبر النسيج المخملي ولا لمعان الثياب الحريرية انما سادت فتيات الجوق الموسيقي النقاوة والبساطة والشمائل الاخلاقية السامية والضفائر والملامح الجميلة وكنت اروم ان اقول والهياكل الرشيقة لولا ان من بينهن عددا من البالغ اعمارهن ما يتراوح بين ١٦ سنة و ١٧ سنة من ذوات الهياكل الضخمة والاجسام البدينة المسلبة كبعض الانكليزيات من هن في السادسة والعشرين من اعمارهن ·

ومن أمثال هؤلاء كن يرتدين الثياب البيضاء أو الثياب الوردية الفاتحة أو الزرقاء الرائعة ممن يحلمن بأحلام السماء وملائكتها واعرف منهن اثنتين في الاقل هما تلميذتان من تلميذات المدام بيك المتأخرات في دروسهن هما الانسة ماتيلدة والانسة انجليك اللتان وان كانتا في صفهما الاخير الا انه كان ينبغي ان تكونا في الصف الاول كما ان دماغيهما لم يتجاوزا الشعبة الثانية ففي اللغة الانكليزية كانتا بامرتي واشرافي وتدريسي واستطيع أن اقول على وجه التأكيد أن اية منهما لا تستطيع أن تترجم ترجمة صحيحة ولو صفحة واحدة من كتاب « كاهن ويكفيلد » ·

وهذا الكتاب رواية شهيرة وضعها في فترة ١٧٦١ ـ ١٧٦٢ أوليفر فولدسيت (١٧٣٠ـ١٧٧٤) الذي اشتهر في وقته بكونه أفضل شاعر ومسرحي وكاتب مقالات · وخلال ثلاثة اشهر كانت احداهن تجلس على

المنضدة قبالتي تلتهم عادة كميات من خبز البيت والزبد ومن الفواكه في وجبة الغداء الثانية تعتبر من عجائب الدنيا والانكى من ذلك انها كانت تحفظ في داخل جيوبها شرائح تعجز عن التهامها وانهـا لحقائق وحقائق ثابتة ايضا ٠

واعرف واحدة أخرى من تلك الملائكة الساروفيم هي أجملهن ولكن أقلهن احتشاما وأقلهن من حيـــث نظرات الرياء والنفاق وكانت تجلس بجانب ابنة احد النبلاء الانكليز وكلتا الفتاتين ورغم أمانتهن ــ وان كانتا متمجرفتين ــ دخلتا في بطانة السفارة البريطانية وسلكها ولم تكن (تلك التي قلت انها من معارفي) ذات الشخصية المرنة عـلى غـــرار الاوانس الاجنبيات ٠

لقد كان شعرها غير معقوص ولا مجدول تماما كان طويلا يتطاير من على رأسها ويتحرك بطريقة لولبية ويتماوج ٠ وكانت تتكلم بلا تكلف ولكن ولكن هذرا وتبدو راضية عن نفسها وعن مكانتها ولم انظـر الى الدكتور جون بريتون ولكنني اعلم انه هو ايضا رأى جنيفرا فانشاوي كما رأيتها أنا فقد كان يبدو هادئا وساكنا وكان يجيب عـلى اسئلة أمـــه باقتضاب واجتزاء وغالبا ما كان يحبس تنهدة أو حسرة وعلام كان يتحسر ياترى ؟ لقد اعترف بانهماكه المتذوق بحب تحف به الصعوبات وعليه هو ارضاء واشباع هذا الحب اما حبيبته فكانت تنظر اليه من منزلة اعلى أو موقع اعلى من منزلته او موقعه فهو لا يستطيع التقرب منها ولم يكن متأكـدا من انه يحظى منها بنظرة وراقبت بصورة جيدة ماذا كانت تفضله عـلى سواه ولم يكن مقعدنا بعيدا عن المتاعد القرمزية الطويلة ولذلك لابـد أن يشاهدونا ولابد أن تبصرنا عينان كعيني جنيفرا السريعتي التجوال ولابد أن تتسلط عيناها علينا ولا سيما على الدكتور جـــون والسيدة بريتون أما أنا فقد بقيت في عزلة نسبية خارج نطاق الرؤية لا اريد أن تراني وكانت هي تنظر بشكل مطرد الى الدكتور ثم رفعت نظارتها لتمعن النظر في والدته وبعد دقيقة او دقيقتين اخذت تهمس في أذن صاحبتهـا وهي تضحك وعند ابتداء الفعاليات كانت نظراتها مصوبة على المنصة٠

ولا حاجة بي للتحدث عـن الحفـلة الموسيقية ولن تهـــم القاريء انطباعاتي عنها وفي الحقيقة ان لا جدوى ولا أهمية لتسجيلها ٠ وكانت

twitter @baghdad_library

شابات المدرسة الداخلية المضطربات كل الاضطراب يعزفن على البيانين الاثنين والى جانبهن المسيو جوزيف هما نوئيل حين العزف ولم يكن له اي تاثير على شقيقه النصفي الذي كان بوسعه في مثل هذه الظروف أن يجبر الطالبات ـ بالتاكيد ـ على التصرف ببطولة ورباطة جاش وكان المسيو بول يضع المبتدئات المصابات بهستيريا الخوف بين نارين نار الجمهور المنفرج وناره من ويوحي اليهن بشجاعة القانط عن طريق جعل الرعب الاخير اكبر نسبيا غير أن المسيو جوزيف لم يقو على أن يفعل ذلك ٠

وبعد العازفات على البيانو المرتديات أردية الموصلين النسيج القطني الرقيق تقدمت فتاة جميلة كاملة الجسم متجهمة الوجه ترتدي الساتان الابيض واخذت تغني فأثر غناؤها بي كما تؤثر حيل السحرة وعجيب كيف غنت ما غنت وكيف تتلاعب باللحن نزولا وصعودا وتجعل المشاهدين يرقصون بمرح ويتصرفون التصرفات الحمقاء ، ان لحنا اسكتلنديا بسيطا يؤديه مستزنج من الشارع كان بوسعه أن يؤثر في ويطربني بشكل أعمق٠

وبعدها تقدم أحد السادة وأمال جسمه كثيرا صوب الملك والملكة وقرب يده المقفزة بقفاز أبيض مرة بعد اخرى صوب قلبه وغنى بصوت عال موجع ومرير اغنية « ايزابيل الغادرة » وفي ظني أنه أراد استثارة عطف الملكة ولكن اذا لم أكن مخطئة خطئا كبيرا فان الملكة كانت تنتبه وتصغي بدافع التأدب وليس بدافع الاهتمام بالاغنية ٠ وأثارت اهتمامي مجموعة الكورسات فاعتبرتها أفضل ما في المسليات المسائية وكان حاضرا في الاحتفال مندوبون من افضل اقسام وشرائح المجتمعات الكورسية الاقليمية ومثل هؤلاء البارزين المشهورين قدموا الاصوات دون أن يتصنعوا أو يفسدوا الموضوع وكان لنشاطاتهم الصميمية هذه النتيجة الجيدة التي شربت فيها كل اذن من معين القوة البدنية المعركة المشبعة٠

وخلال كل تلك الحفلة التي أدى فعالياتها ثنائيو الاجهزة الموسيقية وفرادى المغنين المعجبين بأنفسهم ومن يعنيهم في الترديد الغنائي والكورسات الغنائية والنافخون في الادوات الموسيقية خلال تلك الحفلة اعطيت أذنا واحدة وعينا واحدة للمسرح والاذن الثانية والعين الثانية خصصتهما بصورة مستديمة لخدمة الدكتور جون بريتون اذ لم يكن

بوسعي ان اتناساه أو ان اكف عن التساؤل عن مصير مشاعره وبما كان يفكر يا ترى ؟ هل كان يتمتع بالحفلة أو لا يتمتع بها ؟ وأخيرا تكلم وقال لي بالذات بصوته الخاص العذب : « هل احببت هذه الحفلة كلها وهل راقت لديك اذ اراك ساكنة وهادئة تماما ؟ » فاجبته « انني ساكنة وهادئة لانني مستمتعة بها كل الاستمتاع لا بالموسيقى فحسب بل بكل شيء فيها » وشرع آنذاك في تقديم بعض الملاحظات الاخرى بمزيد من الاتزان ورباطة الجأش بحيث اخذت اظن انه في الحقيقة لم يشاهد ما شاهدته أنا وبادرته بكلمات هامسة « الآنسة فانشاوي هنا ·· هل شاهدتها ؟ » فأجابني « نعم شاهدتها ولاحظت انك شاهدتيها انت ايضا » ·

وقلت له متسائلة « هل جاءت يا ترى مع السيدة كولونديلي فماذا تظن ؟ » فأجابني « ان السيدة كولونديلي هي هناك مع جماعة كبيرة جدا وان جنيفرا كانت معها فعلا في القطار الذي جاء مع قطار الملكة » وسألته « هل تظن آن جنيفرا شاهدتك ؟ » فقال لي « هذا ما اظنه أنا ايضا في مرات عديدة كنت أركز نظراتي عليها منذ ان سحبت انت نظراتك عنها وكان لي شرف معاينة نظارتها الصغيرة التي لم تلحظيها انت » وقلت له « ما سالتك عن الاسباب انما انتظرت منك معلومات طوعية وهو ماقد.متم لي في الحال » ·

وقال « مع الآنسة فانشاوي مرافقة ذات منزلة اجتماعية هي السيدة سارا التي استدعتني أمها لغرض مهني ذات مرة انها فتاة متكبرة ولكنها ليست وقحة ابدا ولا ادري ماذا كانت فانشاوي قد كسبت شيئا من تخمينها ووجهة نظرها حين آخذت تسخر من جيرانها وتزدريهم ؟ » وقلت لـه أي جيران ؟ » فأجابتني « أنا وأمي فقط وفيما يخصني أنا أراه شيئا طبيعيا تماما فلا شيء عندها افضل من آن يكـــون الدكتور البورجوازي الشاب هدفا لها ·· ولكن أمي ؟! لم آر من يسخر منهـــا ويزدريها طيلة حياتي أتعلمين أن الشفة المنطوطة والنـاظرة المنزلة من عينيها لكيما تسخر من والدتي آثارتا في هياجا غريبا ؟ » ·

وقلت له « آنس ذلك يا دكتور ولا تفكر به ·· فالامر لا يسوي شيئا لقد كانت جنيفرا في حالة نفسية مـــن الطيش والاستهتار كما هي الليلة وبشكل سافر وما كان عليها ان تضحك على الملكـة اللطيفة المستغرقة في

twitter @baghdad_library

التفكير الحزين ولا عـــلى الملك المصـاب بمرض السوداوية والانقباضية خاصة وانها ليست مدفوعة بأي حقد او ضغينة في هذا الشان وانما هـــي مدفوعة فقط بالحماقة المحضة والاستهتار المحض فليس لفتـــاة مدرسة متسمة بخفة العقل ما يحرجها او ما ينهيها عما هو محرم » ٠

وقال لي « نسيت شيئا٠٠ آنا لم أتعود على النظر الى الآنسةفانشاوي على انها تلميذة خفيفة العقل ٠ آلم تكن معبودتي ومـلاك سيرتي ومجرى حياتي ؟ وأجبته بعد التنحنح « تلك كانت اساس غلطتك يا دكتور » وقال لي ٠ اذا عـدنا الى الحقيقة الخالصـــة دون صخب ودون تبجح ودون رومانتيكية منتحلة ٠٠ كنت قبل ستة أشهر أعتبرها رائعة جدا ٠ هـــل تتذكرين محادثتنا عنالهدايا ؟ لم أكن صريحا معك بما فيه الكفاية ، ذلك ان الحماسة المتقدة التي توليت بها معالجة القضية سرتني فبطريقة جنيك الفائدة الكلية من اضوائك وحقائقك سمحت لك بأن تريني في ظلمة هي أدكن مما آنا فيها » ومضى في كلامه ممي قائلا لي :

« لقد كانت تجربة الهدايا هي اول تجربة برهنت على انها رهيبـــة وعلى انها مميتة ولكن مع ذلك لم يزل جمالها محافظا عـــلى بهائه وفتنته فقبل ثلاثة أيام بل قبل ثلاثة ساعات كنت لا ازال عبدها تماما وعنـد مرورها بي الليلة بجمالها الغالب أثنت عليهـا عواطفي ولتهكمها السيء الحظ هذا أحسست أن علي آن اكون ذليلا خاضعا لها وعبدا منعبيدها٠ ربما سخرت مني وحتى لو انها جرحتني شخصيا لما قدر هذا الجرح الذي تلحقه بي على آن يبعدني عنها وما كان بوسعها آن تثير استيائي منها طيلة عشرة اعوام ولكنها في لحظة اثارت استيائي وامتعاضي لما فعلته معوالدتي من مظاهر الهزء والسخرية » ٠

ولزم الصمت لحظة ولم اشاهد في عينيـه حدة غضب متقدة كالتي شاهدتها في عينيه الزرقاوين وقـلة وجـود انعكاس نـور الشمس فيهما وناداني قائلا « يا لوسي ٠٠ انظري جيدا الى والـدتي وقولي لي دون محاباة أو خوف ما رآيك فيها وبآي ضوء تبدو امامك الآن ؟ » فأجبتـه تبدو كما كانت تبدو دائمـــا امراة انكليزية نبيلة من الطبقة الوسطى ترتدي آردية جميلةوتتحلى باستقلالية مظهرها ومرحها وجمال تركيبها»٠

وقال لي « وهكذا تبدو لي آنا ٠٠ ليباركها الله ٠٠ الرشيقة والمرحة

تضحك معها والضعيفة فقط هي التي تضحك عليها . هذه ليست مادة للضحك عليها والاستخفاف بها ثم تلفظ بكلمات غامضة وتوقف ثم اشتد به الضعف والهياج باكثر مما يتطلبه الامر ولم اكن في وقته قد عرفت أن الدكتور جون شاهد قضيتين مزدوجتين من الانسة فانشاوي أثارتا استياءه منها فترجيح واتقاد مظهره العام وتوسع منخري أنفه والتقوس الكبير الذي شوه التقاطيع الجميلة لما تحت شفتيه اظهرته في طور جديد مؤثر ثم ان الانفعال النادر للشخص المهذب الدمث ليس بالمنظر السار ولم يرق لي نوع الثوران الحقدي الانتقامي الذي سرى على محيا الشاب وهيكله .

وسألني « هل اخفتك يالوسي ؟ »فاجبته « لا اعرف لماذا أنت غاضب الى هذا الحد ؟ » وتمتم في أذني قائلا « للسبب التالي .. ان جنيفرا ليست ملاكا طاهرا ولا امرأة نقية الذهنية » واجبته « هذا كلام عابث لا طائل تحته وانت تبالغ فهي ليست مؤذية الى هذا الحد في قرارة نفسها» واجابني « كفى .. كفى .. هذا ما لا أقوى على تحمله . الآن اكتشفت عماوة بصرك والآن غضي النظر عن الموضوع ودعيني اطالب نفسي بملاطفة ماما . أتصور أنها الآن تعبة وصاح بأمه .. استيقظي ياماما رجاء !! » وقالت له أمه « جون ! الويل لك ان لم تعدل سلوكك .. هل تتكرم أنت ولوسي بالسكوت لكي يتسنى لي سماع الغناء ؟ » .

وقال لها جون « اتسمعين الغناء الآن ياماما . أراهن بكل خيولي النشيطة الاصيلة مقابل حلاك المزيفة » وقالت له أمه « حلاي الزائفة ؟ يا غراهام ! أيها الولد العاق المجدف !! انك تعرف أن حلاي أصيلة غالية الثمن » وقال لها « آه .. انها واحدة من معتقداتك الخرافية فقدخدعوك حين أشتريتها » وقالت له أمه « لقد خدعت في أشياء أقل مما تتصور .. كيف جرى وتعرفت بسيدات البلاط الشابات ياجون . لقد شاهدت اثنتين منهن وهما يعيران لك أهمية ليست بالقليلة خلال نصف الساعة الاخيرة» وقال لها جون « كان بودي ألا تشاهدينهما » فاجابته أمه « ولم لا ؟؟ فاحداهن كانت تنكت ضدي وتنظر الي بعين السخرية والاستهزاء من خلال نظارة عينها . انها فتاة حلوة ولكنها غبية وهل تدري أن ضحكاتها المكبوتة الساخرة بحقي ستربكني وتخزيني ؟ » وقال لها ولدها « أيتها

twitter @baghdad_library

السيدة المسنة العاقلة المثيرة الاعجاب ·· يا أمي·· آنت أحسن عندي من عشر زوجات » وقالت له « كفى ادعاءا وكذبا يا جـــون والا سببت لي اغماء يكون عليك ازاءه آن تحملني خارج الحفلة واذا كان هذا العبء قد وضع على كاهليك فعليك آن تنقض او تبدل كلامك الاخـــير وتقول ان عشر زيجات لا يمكن آن يكن آسوأ علي منك » ·

وانتهت الحفلة وجـاء أوان يانصيب « مساعدة الفقراء » بعـدها وكـانت الفترة الكائنة بينهما فترة استجمام عامـة وفترة آبهـج حركة نشيطة فقد انزاح القطيع الابيض من المنصة وحـل محله صخب السادة المنشغلين بتهيئة الترتيبات لاجراء اليانصيب وسحبه ومن بينهم ـ واكثرهم انشغالا ـ الرجل الكثير النشاط ·· المسيو بول ··

وكنت تلحظه وهو يصدر تعليماته وفي الوقت ذاته يضع ذراعه على دولاب اليانصيب وقد انشغل معه ستة مساعدين وراء ظهره يساعدونـه في نقل البيانوين وغير ذلـك من الادوات ، ان وفـرة نشاطـــه ويقظته تقاسمتها مثيرات الحيرة والسخرية وفي ذهني لم أوافق على معظم ضجيجه لا بل سخرت منه في سري · وفي وسـط الاذى والتبرم لم يسعني ـ وأنا أراقب تلك السذاجة ـ الا ان اتجنب التحسس بكل ما كان يقوله ويفعله وما كان بوسعي أن اتعامى عن بعض المميزات والخصائص النشيطة في أساريره البارزة الآن وفي بريق عينيه الحاد وقوة جبهته الواسعة الشاحبة وقابلية التحرك في فمه القابل للتكيف جدا · وبقـــدر ما كانت تعوزه القوة الهادئة المتزنة كان يمتلك قوة الحركة بشكل ملحوظ ·

وفي تلك الاثنـاء كانت القاعـة كلهـا تتماوج بالحركة والانفعال ومعظم من فيها نهضوا وظلوا واقفين استعدادا لاجـراء تبديلات وكـان البعض يمشي ويتكلم احدهم مـع الآخـر ويضحكون مـع بعضهم بعضا واضحت الحجيرة القرمزية مشهدا مفعما بالحيوية واختلطت غيوم السادة المنقسمين الى شراذم بخط قوس قزح السيدات ودنا اثنان او ثلاثة ممن يشبهون الضباط من الملك واخذوا يتحادثون معه وتركت الملكة مقعـدها ودلفت صوب صف الفتيات اللواتي وقفن جميعهن حتى مرت بهن وكانت تبتسم بدورها ابتسامات لطيفة وتحادثهن بكلمات رقيقة أو تنظر اليهن بتلك الابتسامات ·

وتكلمت الملكة مع فتاتين انكليزيتين جميلتين هما سارا وجنيفرا فانشاوي ببعض الجمل حينما كانت تهم بمغادرتهما وظهر على وجه جنيفرا توهج الشكر والامتنان وتجمعت بعض السيدات حولهما بعد ذلك ثم تجمعت دائرة صغيرة من السادة حولهن ومن بينهم وهو الاقرب الى جنيفرا كان الكونت دي هامال ، وانتفض الدكتور بريتون ونهض فجأة من مكانه قائلا « اصبحت هذه الغرفة حارة . يالوسي وياماما الا تخرجان معي قليلا الى الهواء الطلق ؟ » وقالت السيدة بريتون لي « اذهبي معه يا لوسي فانا افضل الاحتفاظ بمقعدي » .

وكان بودي انا ايضا ان احتفظ بمقعدي ولكن رغبة غراهام ينبغي ان تكون لها اولويتها عندي فرافقته . ووجدنا هواء الليل شديدا في برودته او ربما انا شعرت بذلك فقط دون ان يشعر به هو علما بأن الهواء كان راكدا رغم برودته والسماء المزروعة بالكواكب صافية الاديم خالية من الغيوم وكنت ملتفة بشالي المصنوع من الفرو ودرنا بعض الدورات حول ارضية الشارع المرصوفة ولدى مرورنا من تحت احد المصابيح التقت عينا غراهام بعيني وقال لي « اراك مستغرقة بتفكير كئيب يا لوسي فهل هذا من اجلي ؟ » فقلت له « كنت اخشى انك مكتئب » وقال لي « ابدا .. انا منشرح كما هو عهدك بي وسابقى هكذا حتى الممات .. يا لوسي .. انا مقتنع بان اساي ليس بالقلب ربما اشعر بوخزه وقد آهن وقد ابتئس حينا ما ولكن لا آلم في المشاعر والاحاسيس ولا علة في كياني كله آلم تشاهديني منشرح الصدر مبتهجا في الدار دائما ؟ » فقلت له « انت كذلك على وجه التعميم » .

وقال لي « انا مسرور لانها ضحكت على أمي وسخرت منها فقد وعيت على حقيقتها بذلك ولن اعادل أمي بعشرات من الجميلات وان تلك السخرية قدمت لي اعظم فائدة في العالم ، اشكرك يا آنسة فانشاوي » قال ذلك بشكل ساخر بعد ان رفع قبعته من على خصلات شعره المتموجة . »

واستطرد قائلا « نعم .. انا اشكرها اذ اشعرتني بان تسمة اعشار قلبي اخذت تدق كدقات الجرس وسال الدم من الجزء العاشر من جراء ثقب واحد كثقب المبضع الذي سرعان ما يشفى بلمحة بصر » .

twitter @baghdad_library

وقلت له « أنت غاضب وثائر ومستاء الآن ولكن غدا ستشعر بشعور آخر يختلف عن شعور اليوم » وقال لي « انا ثائر وغاضب ومستاء ؟ أنت لا تعرفينني فعلى العكوس أنا الآن أقول لك أن الغضب والاستياء والثوران قد زالت وأنا الآن بارد كهذه الليلة ولما كنت على وشك الاستبراد الشديد اقترح عليك ان نرجع » وقلت له « أيها الدكتور هـذا تحول مفاجيء » وقال لي « ليس الامر كذلك أما اذا كان الامر كذلك كما تقولين فهناك مسببان بينت لك احدهما فقط أما الآن فلنعد الى القاعة » ٠

ولم نحصل على مقعدينا بسهولة ذلك أن اليانصيب كان قـد بدأ والقاعة تموج بالضجيج والبلبلة وكانت الجماهير قد أغلقت المجاز الشبيه بالممر الذي كان عاقمنا أن نمر به شقـا للصفوف وكان من الضـروري التوقف قليلا وبعد ان اجلت نظري حولي بمحض الصدفة تخيل لي أنني قد سمعت احدا يردد اسمي ونظرت الى جهة صدور النـداء واذا بالمسيو بول القريب مني جدا المتعذر اجتنابه كما لو انه موجود في كل مكان ينظر الي نظرة فيها كل معاني الجدية والخطورة والتقصد او خيل الي أنـه كان ينظر الى ثوبي القرمزي بشكل ينم عن تعليق متهكم تألمت بموجبه عينـاه ٠

وكان من عاداته أن ينهمك في الحديث عن ضيق الثوب على الجسم سواء ارتدته مدرسة أو تلميذة في مدرسة المدام بيك وهي عادة كنـا نعتبرها تهجما وقحا علما بأنني لم يسبق لي ان تألمت منها ثم أن البستي اليومية الداكنة اللون لم تكن مفصلة بالشكل الذي يلفت الانظار ومـا كنت في الحالة النفسية التي تسمح لي بقبول انتهاك حرمة أي شيء مرة اخرى ولذلك رضيت بمزاحـه وتجاهلت وجـوده فحولت وجهي الى ردن معطف الدكتور جون شاعرة بذلك الردن الاسود توقعا او مأمولا عن عطر اكثر فوحانا لجلب الراحة والسرور لقلبي والطف وأصـدق ٠ واحنت أفكر ـ دون أن تحدوني لذلك سيماء البروفيسور الصغـير المكروهة ـ بأن الدكتور جون يبدو بأنه يؤكد بالعبارة التالية التي وجهها الي بصوته اللطيف على اختياره المفضل ٠٠ « ابقي دائما الى جانبي يالوسي فهؤلاء المواطنون المتزاحمون لا يحترمون الناس » ٠

ولا يمكن أن أكون صـادقة مع نفسي وأنا امتثل أو اخضع لتأثيرما

سواء كان فاتنا أو غير ذلك أو لتأثير غير مرغوب فيه ومزعج ولكن له تأثيره علي ولذلك عدت وأجلت النظر فيما حوالي لارى ماذا كان المسيو بول قد ولى أم لا واذا به واقفا في نفس المكان ولا يزال يحدجني بنظرات كنظراته السابقة فقد اخترق اعماق تفكيري وقرأ رغبتي في أن اتجنبه وابتعد عنه وتحولت نظرته الساخرة غير المسيئة الى تقطيبة عابسة ومكفهرة وعندما حنيت رأسي له لاصالحه لم يرد علي الا بايماءات ما كان أقساها واكثرها فظاعة ·

وسألني الدكتور بريتون هامساوباسماء من هو هذا الذي اغضبتيه يا لوسي ؟· من هو صديقك هذا ذو النظرات المتوحشة ؟! » فقلت له « واحد من البروفيسورية الاقزام في مدرسة المدام بيك » وقال لي « انه لا يزال ينظر اليك نظرات قاسية فما الذي فعلتيه به ؟ وما هي القضية بينكما آه يالوسي ·· يالوسي ·· قولي لي ما معنى كل ذلك ؟ » وقلت له « أطمئنك أن لا سر في ذلك فالمسيو بول هما نوئيل ملحاح جدا يتعذر ارضاؤه ولانني تقربت من ردن معطفه بدلا من ملاطفته والانحناء له احتراما يظن أنني قصرت في ابداء جانب الاحترام له » ·

وبادرني الدكتور جون قائلا « هو ذا القمىء » !! ولا ادري ماذا يريد أن يضيف على ما قام به تجاهي وكنت في ذلك الوقت كما لو انني اصبحت بين أقدام الجمهور ولاحظت المسيو بول وهو يندفع الى امام بوقاحة وفظاظة ويفسح المجال لتقدمه بمرفقيه دون أن يرعى جانب الكياسة قط ودون أن يرعى سلامة الجمهور المحتشد الامر الذي خلق وضعا غير مريح وضغطا وعنتا لا مبرر لها وقال لي الدكتور جون « حقا انه سيء الخلق » وأنا نفسي ايضا ارتايت ذلك ·

وببطء وصعوبة وصلنا الى مقعدينا وجلسنا كلينا واستغرق سحب القرعة اليانصيبية ساعة من الزمن تقريبا·وكان مشهدا مفعما بالنشاط والحيوية ولاننا كنا نحمل بطاقات شاركنا في المتابعة واحسسنا بالامل والخوف عند كل تدويرة من تدويرات الدولاب · وهناك طفلتان احداهما في الخامسة من عمرها والاخرى في السادسة تسحبان اوراق اليانصيب وينادى من المنصة بارقام البطاقات الفائزة ·

وكانت الجوائز عديدة وان كانت بمبالغ قليلة وحدث أن بطاقة

twitter @baghdad_library

الدكتور جون فازت كما فازت بطاقتي وكانت جائزتي علبة سجاير وبطاقته غطاء لراس السيدة من النوع الممتاز جدا ذو لون فضي أزرق وعليها ريش الطائر يخفق من أحد جوانبه كالغيمة الجليدية اللون · وراق له أن يبادلني جائزته بجائزتي ولا ازال حتى اليوم احتفظ بعلبة السجاير التي فزت بها لتذكرني بالايام الخوالي وبتلك الامسية السعيدة·

أما الدكتور جون فقد امسك بغطاء الراس الذي فاز به وأضفاه على طول كتفه واستبقاه بين اصبعه وابهامه وكان ينظر اليه بمزيج من الاعتزاز والارتباك يثير الضحك تماما ويبدو انه لم تكن لديه فكرة عن كيفية التصرف به أو أين يحفظه وهم بالقائه ارضا بين اقدامه لو لم تأت والدته وتأخذه منه لتضعه ضمن مخزونها من اللوازم ·

وكان غراهام مسرورا ومرحا جدا طيلة المساء وكان سروره طبيعيا خالصا لا تكلف او تصنع فيه ولا يمكن أن يصف المرء بسهولة سلوكه ونظراته فقد كان فيها نوع من الميزة والخصوصية الاصيلة ولم أقرا فيها سيطرته العامة على عواطفه وانما وفرة قواه الصحية وعمقها وجهوده التي لا تكل ولا تمل في البذل وذكرتني اخلاقه وتصرفاته عن خصائص ومميزات لاحظتها فيه حين كان يقوم بواجبه المهني بين الفقراء من الناس الذين كانوا يعانون من امراضهم في « باس ـ فيل » وكان يبدو في عمله ذا عزم وتحمل وطبع حلو واذا كان كذلك فلا غرو اذا ما احبه الجميع فالى جانبه دائما الراحة والامن ومن حوله دفؤ الشمس ·

ومع ذلك لم يغفر للانسة فانشاوي ولم ينسها ايضا فاذا غضب لايمكن استرضاؤه بسهولة : لقد نظر اليها اكثر من مرة لا خلسة ولا ذلة أو خضوعا وانما نظر اليها مليا وكان دي هامال جالسا كالصنم وراءها والى جانبها السيدة كولوندييلي وكانت منهمكة كل الانهماك في المحادثة والمرح والانفعال بحيث أن المقاعد سادها هرج ومرج كما ساد بعض مناطق قاعة الحفلة ·

وفي غمرة بعض المباحثات الجارية بينهم بحمية ونشاط كانت جنيفرا ترفع يدها وذراعها مرتين او ثلاث مرات وأومض سوار على ذراعها ووجدت أن وميضه كان له انعكاس في عين الدكتور جون اذ أثار فيها شرارة سخرية وحنق فضحك وقال « أظن أنني سأقدم جائزتي على مذبح عطاياي المعتادة فهناك ستجد اللذة والاستحسان · ولم اجد في حياتي عاملة فرنسية مثلها

تتقبل الهبات والعطايا بمثل هذه السهولة والاغرب من ذلك والانكى انها فتاة من عائلة مرموقة » ٠

وقلت له « ولكنك يا دكتور جون لا تعرف شيئا عن نشأتها التعليمية فهي تتنقل طريدة من مدرسة اجنبية الى اخرى فهي تبين أو تعرض موضوع جهلها للتخفيف عن معظم أخطائها ومما تقوله هي عرفت جازمة أن أمهـا وأباها مثقفان كثقافتها » وقال لي « كنت أعرف دائما أن لا ثروة لها وفي السابق كنت مبتهجا لذلك » وأجبته« انها كانت تقول لي أن عائلتها فقيرة وكانت تتكلم دائما وبصراحة عن ذلك ولم أجد قط أنها تكذب كما يكذب غالبا هؤلاء الفرباء ٠ ان لعائلتها افرادا كثيرين ٠ ان لهم مثل هذا المركز الاجتماعي ولهم مثل هذه الصلات التي تتطلب في نظرهم الكشف والابراز أمام الناس ولهذا فان متطلبات الظروف القاسيـة وطيش النزعة والمزاج ولدت فيهم انعدام الضمير والطيش في محاولتهم الحصول على وسائل الابقاء على المظهر الجيد من الآخرين ٠ هذه هي حقيقة الاشياء المحيطة بها وهـذه هي الحالة الوحيدة البارزة فيها منذ طفولتها وحتى الآن » ٠

وقال لي جون « أنا معتقد بذلك وكان في فكري أن أكونها في قالب آخر أفضل ولكن يا لوسي أصارحك بالحقيقة ٠٠ لقد شعرت بشيء جديد في هذه الليلة عندما نظرت اليها والى دي هامال شعرت به قبـل أن الاحظ وقاحتها في الازدراء بأمي ٠ لقد لاحظت نظرة متبادلة بينهما بعد دخولها مباشرة ألقت ضوءا كان له أسوأ الاثر في ذهني » وقلت له « مـاذا تعني ؟ هل كنت تعرف منذ زمن طويل انهما يتنازلان بينهما ؟ » ٠

وقال لي نعم « ٠٠ انهما كانا يتنازلان على طول وقد تكون خدعـة من الفتاة البريئة أن تغري المحب الصادق بيد أن الذي أشير اليه ليس الغزل وانما كانت نظرة يستدل منها على وجود تفاهم سري متبادل بينهما فالامر لم يكن فيه معشوقية أو براءة فما مـن امرأة حتى وان كـان لها جمال افروديت تتبادل مع واحد مثل هذه النظرة المريبة هل تظنين أنني أحاول من جانبي أن أتزوجها ؟؟ ٠٠ ذلك محال ٠٠ أفضل أن أتزوج ريفية ذات معطف قصير وقبعة عالية بمجرد اطمئناني بانها مخلصة وشريفة » ٠

وما كان لي بد من أن ابتسم فقد تأكدت من انه بالغ الآن في القضية لان جنيفرا شريفة حسب اعتقادي رغم كل رعوناتها وطيشها وقلت له ذلك

twitter @baghdad_library

فهز رأسه بالنفي وقال انه لم يعد يثق بها في موضوع الشرف وقلت لـه « ان الشيء الوحيد الذي يمكن أن تثق به بأمان هو أنهـا تضر بأموال الزوج وممتلكاته بشكل يدل على انعـدام الضمير فتضـع صبره وطبعه في مشرحة التجربة ولا أظن انها تسمح لاحد لان يتلاعب بشرف زوجها » ·

وقال لي « لقد اصبحت محاميـة لها فهـل تريدين أن استعيد معهـا فيودي القديمة ؟ » وقلت له « كلا ·· لا اريد ذلك ·· اريدك حرا واريد ان أكون واثقة من كونك ستبقى حرا الى الابد وان تكون عادلا في الوقت ذاته » وقال لي « أنا هكذا دائما ولكن عندما اعامل بالنفور وأبعد تماما فلا معدى لي من أن أكـون قاسيا ولـكن انظري ، فالملك والملكة نهضا من مقعديهما · أنا أحببت هذه الملكة ··· وجه جميل ·· انظري ان الوالدة مصابة بتعب شديد أيضا فاذا مكثنا مـدة طويلة فان السيـدة المسنة لن تقوى على الوصول الى الدار ·

وصاحت به السيدة بريتون قائلة له وهي في حيويتها التامة ويقظـة كولدها « هل أنا الذي تعبت يا جون ؟ سأظل جالسة وأبقنا كلينا هنا حتى الصباح وسنرى من الذي سيكون منهكا منا عند طلوع الشمس » وأجابها ولدها « لا اريد الدخول في هـذه التجربة والحقيقة يا ماما أنت أنشط الكهلات واكثرهن نضارة والآن من أجل اعصاب ولـدك المرهقة وتكوينـه الضعيف نقدم اليك طلب فض الجلسة وانهائها بسرعة » ·

وقالت له أمه « أيها الشاب الكسول لا ريب في انك كنت تريد أن تكون في الفراش منذ زمن وعلينا الآن أن نداري مزاجك وهنا لوسي ايضا تبدو مرهقة ايضا · عيب عليكما يا لوسي وأنتما في هـذا السن تشعران بالتعب · أما أنا فلو بقيت سبع امسيات في الاسبوع خارج البيت لماتأثرت أو ارهقت · تعالا كليكما وبوسعكما أن تضحكا على مسنة مثلي مـا يشاء لكما الضحك أما أنا فساعنى بعلبة القبعات والقبعة النسوية التي ربحناها» وهذا ما فعلته الكهلة بريتون وتقربت منها للاخذ بيدها ولحمل ما ارادت ان تحمله فبانت على وجهها مسحة التحدي او مـا يشبه الازدراء المشوب بالعطف وعبرت عرابتي عن رأيهـا في أن أهتم أنا بنفسي وفي وسط ذلك الصخب وبعد خروج الملك والملكة تقدمتنا السيدة بريتون وبسرعة وفرت لنا ممشى ضيقا بين الجمهور وتبعها غراهام ·

وكانت تلك الليلة باردة ومظلمة جدا ولكن سرعان ما وجدنا عربة تنقلنا الى الدار وجلسنا محشورين ودافئين فيها كما لو أننا جالسون أمام موقد النار وكانت العودة الى الدار في رأيي أبهج من ذهابنا الى الحفلةرغم أن الحوذي سار بنا عبر طريق العربات المظلم الموحش بعيدا عن الطريق المؤدي الى « الشرفة » ونحن الذين كنا منهمكين في الحديث والضحك لم نلاحظ الزوغان عن الطريق الى ان قالت السيدة بريتون انها وان كانت على الدوام تعتبر البيت الريفي بقعة منعزلة ولكنها لم تكن تتصور أنه يقع في نهاية العالم كما رأت الآن وكانت تعتقد اننا قطعنا ساعة ونصف الساعة في الطريق ولم نبلغ المنعطف المؤدي الى الشارع العام المفضي اليه .

ثم نظر غراهام ولم يلحظ الا حقولا مظلمة فسيحة انتشرت فيها صفوف من الاشجار المقطوعة الرؤوس واشجار الزيزفون والدبق فأوقف الحوذي بعد أن ادرك حقيقة الامر ونزلنا فصعد وقعد بمكانه وامسك بالاعنة وبفضل ما قام به وصلنا البيت متأخرين ساعة ونصف ساعة . ولم تنسنا « مرتا » فقد اشعلت النار التي تبهج النفس في تلك الليلة الباردة وصفت أواني العشاء في غرفة الطعام وسرنا الامران معا .

وكان فجر تلك الليلة الشتوية قد طر قبل أن نصل الى غرفنا ونزعت ثوبي القرنفلي ومعطفي المزركش وأنا اتحسس بمشاعر سعيدة لم يكن لي بها عهد من قبل ، بمشاعر أسعد من مشاعري حين ارتديتها . وما كان بوسع ملابسي الزاهية في تلك الحفلة أن تأتي لي بمثل هذه السعادة والفضل في ذلك يعود الى الصداقة والشعور بما يتعاورها من هدوء الراحة ومن الامل المتواضع .

twitter @baghdad_library

الفصل الواحد والعشرون

ـ الارتكاس او رد الفعل ـ

بقي لي ثلاثة ايام وعلي بعدها أن اعود الى المدرسة وكنت دائما أعد لحظات الايام الثلاثة على الساعة الحائطية وكنت آمل أن يمشي رقاصها وئيدا وئيدا غير انه كان يمشي اعتياديا وانا اراقبه وانتهيت وسط خوفي من انتهائها . وقالت السيدة بريتون بلهجة الملاطفة حين كنا نتناول الفطور « لوسي لن تغادرنا في هذا اليوم فلتعلم اننا قادرون على أن نستحصل لها فترة راحة أخرى وتأجيلا آخر » .

وقلت لها « لا اريد فترة راحة اخرى فبودي أن اودعكم لاستقر في شارع فوسيت مرة اخرى وعلي أن اذهب في هذا الصباح مباشرة لان جسمي قد استعاد قوته » . وظهر أن ذهابي يتوقف على غراهام لانه وعد بمرافقتي الى المدرسة . وصادف أنه انشغل طيلة النهار ولم يعد الى البيت الا عند الغسق وحصلت مشادة كلامية بسيطة بيننا فقد ضغطت السيدة بريتون وولدها علي لكي أبقى عندها ليلة اخرى وكنت أهم بالبكاء لانني كنت متبرمة وتواقة للذهاب مثل توقان المجرم لنزول الفأس على رقبته ووددت أن ينتهي عذابي وتزول غصتي اما الى متى تبقى حالتي هذه فلم يقل واحد منهما أي شيء عن ذلك فقد كانت حالتي الذهنية بعيدة كل البعد عن تجربتهم أو مفهومهم .

وكان قد اظلم الليل حين أوصلني الدكتور جون بالعربة الى باب المدام بيك وكان المصباح مضاءا من فوق رأسنا وقطرات المطر ترذ في شهر تشرين الثاني ثم تحول مدرارا طيلة النهار وأنار ضوء المصباح الدكة البليلة وفي مثل تلك الليلة قبل عام كنت قد وقفت على نفس هذه الدكة وكان المنظر نفس منظر اليوم ، وتذكرت نفس اشكال حصى الرصيف الذي كنت قد لاحظته بعين كليلة وكسولة عندما كنت انتظر

twitter @baghdad_library

فتح الباب بنبضات قلب متصاعدة بشدة وأنا واقفة على الباب وحيدة وعلى وجهي دلائل التوسل ·

في تلك الليلة ايضا كنت قد قابلت مقابلة قصيرة هذا الذي يقف الآن الى جانبي فهل تراني اذكره بها ؟ قررت ألا افعل ذلك وان كانت خاطرة سارة متركزة وراسخة في ذهني والافضل أن تبقى هكذا ·

ودق غراهام جرس الباب ففتح في الحال لان فترة الامسية تلك كانت موعد رحيل التلاميذ النهاريين وكانت « روزين » متيقظة وقلت لجون « لا تدصل » ولكنه توقف عند المدخل في المجاز المضاء اضاءة جيدة ،وكنت لا اريده أن يشاهد الدموع التي كانت تترقرق في عيني آنذاك لانه كان ذا طبيعة ارق من أن يتحمل أية علامة من علامات الاسى والحزن وهوالذي كان همه آن يشفي المرضى ويواسيهم ·

وقال لي « حافظي على شجاعتك يا لوسي ·· وفكري في أن والدتي وانا صديقان حميمان لك ولن ننساك » وقلت له « وأنا ايضا لن انساكم» وجيء الآن بصندوق ملابسي وحاجاتي وتصافحنا أنا وجون واستدار ليذهب غير آنه لم يقتنع ولم يرض بذلك فهو لم يشعر بأنه عمل شيئا أو قال شيئا يفي بمشاعره النبيلة فعاد ليقول لي متسائلا « هل ستستشعرين الوحدة ؟ » وقلت له « في أول الامر ·· نعم سأشعر بذلك » ·

وقال لي « آن أمي ستأتي لزيارتك في الحال وفي اثناء ذلك سأخبرك بما سأفعله ·· سأكتب اليك كلما يجول في ذهني من العبث المرح فهل تسمحين بذلك ؟ » وقلت لنفسي يا له من شهم ويا لعظمة قلبه ثم أجبته بهز الرأس والابتسامة قائلة « لا تزعج نفسك بذلك ولا تفرض ما يثقل عليك في مثل هذه المهمة ··· انت تريد الكتابة لي ؟ ومن أين لك الوقت ؟ ·· وقال لي مدهوشا « سأجد الوقت اللازم لذلك ·· وداعا » ·

وبعد آن ذهب شعرت بأن الباب الكبير يتحطم ويتهشم وبالفأس تهوي وتجرحت الفصة والعذاب دون آن أسمح لنفسي بالتفكير آو بالشعور بأي شيء وبعد ان ابتلعت دموعي كما لو انها الخمر دلفت صوب غرفة جلوس المدام بيك لازورها زيارة الاحترام والتكريم واستقبلتني بود خالص تماما ولاحظت في ترحيبها حتى مشاعر الود التعبيرية وان كان ترحيبها

بي مقتضبا وفي غضون عشر دقائق ارسلت الى غرفة المطالعة حيث كانت التلميذات والمدرسات مجتمعات للدرس المسائي وهناك أيضا رحبن بي ترحيبا ليس بالبارد على ما أظن وبعد ذلك تحررت للذهاب الى جناح المهجع حيث تنام التلميذات والمدرسات ٠

واذ تمددت على الفراش سألت نفسي « ترى ؟ هل سيكتب لي الدكتور جون رسائل ؟ » وتسلل الى ذهني خلسة المنطق عبر الشفق الباثن في تلك الغرفة المهجعية المظلمة الطويلة وقلت لنفسي همسا « ربما سيكتب لي مرة واحدة ٠ ما الطف شمائله وما ارق سريرته فهي التي ستحدو به به الى ان يقوم بذلك ولكن رسائله لا يمكن أن تستمر وقد لا تتكرر ٠انها لحماقة عظيمة الاعتماد على مثل هذا الوعد كليا ومجنونة تلك السذاجة التي أخطأت فاعتبرت بركة المطر ذات المياه الوقتية التي تحمل في تجويفها او غورها جرعة ماء واحدة ربيع السنة الذي يهب الغلال للفصول الاخرى٠

واحنيت راسي وانا جالسة أطيل التفكير في الموضوع ساعة اخرى وراح المنطق يهمس في أذني ويضع على كتفي يده الضاغطة ويلمس اذني بقشعريرة شفتي الايام الخوالي المزورقتين قائلا « اذا كتب اليك فماذا بعد ذلك ؟ هل تفكرين في متعة الاجابة على رسالته ؟ أنت ايتها الحمقاء ٠ أحذرك ٠٠ ينبغي أن يكون جوابك قصيرا مقتضبا ولا تأملي منه بهجة القلب ولا تضربي أخماسا بأسداس ولا توسعي مشاعرك ولا تعولي على المداعبة في مبادلة الصداقة بالصداقة والعلاقة بالعلاقة ٠ »

وقلت له متوسلة « ولكنني تكلمت مع غراهام ولم تعنفني » فأجابني « كلا ٠٠ ما اردت ذلك فالكلام من لدنك انضباط نفسي جيد وانت تتحدثين حديثا منقوصا غير مكتمل فحين تتحدثين لا ينبغي أن تتناسي التبعية والمرؤوسية ٠٠ولا آن تشجعي ظاهرة الوهم والالم والعوز ،فالنقر المدقع يكبح ويخمد كلامك ٠٠ » وقاطعته قائلة « ولكن اذا كان الوجود الجسماني ضعيفا والكلام جديرا بالازدراء فمن المؤكد ألا يكون هناك خطأ في جعل اللغة المكتوبة وسيلة لكلام افضل من كلام الشفتين المترددتين المتلعثمتين » واجابني المنطق بهذه العبارة فقط « ما علي بهذا وعلى مسؤوليتك التشبث بهذه الفكرة والا ستتحملين معاناة مؤثراتها اذا شجعت

twitter @baghdad_library

فكرة المكاتبة » · وسالته « ولكني اذا احسست فهلا اعبر عن احساسي ؟ » فاجابني المنطق « ابدا !! ابدا !! » ·

ورحت ائن واتاوه لصرامة تكرار هذه الكلمة « ابدا ··ابدا !! فما اقساها من كلمة·· ان هذا الشيطان هذا المنطق· هذا الفعل لن يدعني أرفع بصري الى فوق أو ابتسم أو آمل ولن يقر له قرار حتى يراني وقدتحطمت وروعني التهديد فانهاريت ففي رأيه لم اولد الا لكسب كسرة الخبز أو قطعة الزبد والا لانتظر آلام الموت واكتئب واقنط طيلة حياتي · قديكون المنطق محقا ولكن لا غرو اذا ما كانت أفراحنا في بعض الاوقات تتحداه وتفلت من سلطانه وتعين ساعة هروب لكيما تتخيل فيها ساعة هروبرائعة هي عدوته اللدودة وأملنا الحلو العذب الرائع القدسية » · « ان علينا ان نكسر الاغلال في بعض الفترات رغم الانتقام الرهيب الذي ينتظر عودتنا · ان المنطق انتقامي حاقد كالشيطان تماما · انه كالسم الزعاف لي دائما واذا كنت قد اطعته واسلست له القياد فقد كانت اطاعة من جراء الخوف ولن اطيعه في موضوع الحب ومنذ زمن طويل أشرفت على الموت من جراء اساءة استخدامه ومن جراء التقيد به ومن قشعريرته ومن مدرسته الجرداء وفراشه الثلجي البرودة وضرباته الوحشية المتتالية · ومن أجل تلك القوة الرحومة التي تحتفظ بسري وبولائي واخلاصي الاكيدين الراسخين غالبا ما حدا بي هذا المنطق الى الخروج ليلا في أواسط فصل الشتاء وعلى الجليد البارد مندفعة لكسب العيش الذي تعافه حتى الكلاب الجائعة وغالبا ما كان ينكر حقي بأن أطالب بأشياء افضل وبأوضاع افضل » ·

وعندما كنت أنظر الى السماء هل وجدت واحدا من بين النجوم الدرارة يعيرني شعاعة عطف أو عناية ؟ هل وجدت روحا ألطف وأفضل من العقل الانساني ينزل ويمنحني مجالا جويا وهواء مستعارا من الصيف الخالد ياتي لي بالزهور الفواحة التي لا تذبل وبعبير الاشجار التي تعتبر ثمارها الحياة بعينها وبالنسائم العليلة في عالم لا يحتاج نهاره الى شمس تنيره ، يمنح الراحة للمنهوكي القوى ويعطي الامل والمحفزات للقنوط الاشل » ·

وتذكرتني ابنة السماء هـــذه الليلة اذ رأتني أبكي وتقربت مني قائلة « نامي ! نامي يا حبيبتي فانا سأحقق احلامك » وحافظت على وعدها وراقبتني في راحتي الليلية ولكن ما ان طر الفجر حتى طرد العقل حارستي هذه فاستيقظت جافلة من نومي على صوت قطرات المطر المرتطمة بالالواح الزجاجية وبجوانب المواد المنزلية وعلى صوت الرياح النائحة بين الفينة والفينة نوآحا مرا وكان المصباح الليلي يموت على المسند الدائري الاسود الموجود في وسط غرفة النوم وكان ضوء الصبح قد انشق من بين عتمة الليل - لكم أرثي لهؤلاء الذين آلامهم العقلية تدوخهم بدلا من أن تنهضهم.

وفي ذلك الصباح جرتني وخزة حب النهوض من نومي يد كيد جبار وبسرعة رأيتني ارتدي ثيابي وسط برودة الفجر القارصة ورحت أشرب الماء المثلج من الابريق الزجاجي وهو المفضل الي دائمـــا كلما داهمتني الاكدار والمزعجاب وسرعان ما رن جرس الحضور الى المدرسة ولما كنت قد لبست ثيابي نزلت وحيدة الى غرفة الطعام حيث كان الوجاق مشعولا والجو دافئا على خلاف ما كان كل ما في الدار باردا وسط قسوة شتاء الجزيرة في بداية شهر تشرين الثاني المبكر لموسم الشتاء ولكن الريح الشمالية جاءت بشتاء مبكر نشرته على كل بلدان اوربا - لقد تذكرت كيـف ان الوجاقات السوداء راقت لي عند اول مجيئي اما الآن فقد بدأت اشاركها لذة الارتياح واحببتها مثلما كنا في انكلترا نحب المواقد .

لقد ذهب بي تفكيري وأنا جالسة أمام الموقـــد المريح الى مناقشة نفسي حول الحياة والفرص التي تتيحها وحـول القدر والمصير وقراراته وكونت ذهنيتي الاهدأ والاقوى من الليلة الماضية لنفسها بعض القواعد والانظمة الملحة التي تمنع بعقوبات صارمة ـ كـــل استعادة للماضي السعيد وتأمر المريض بالسفر عبر تيـه الحاضر وقفره وبالاعتماد عـلى العقيدة وبالقوانين والمراسيم حيث يلتف شعور مركب من القوة والالم حول قلبي لفا متينا مسيطرا على نبضاته لكي يتيح لي انجـاز عمـل اليوم ثم رفعت رأسي .

وكما قلت سابقا كنت جالسة بالقرب من الوجاق بين المائدة الطويلة وبين المربع المجاور للشباك بحيث يكفي لتسخين كـلا الشقتين متغلغلا في

twitter @baghdad_library

الحائط ذاته والى جانب الوجاق شباك يطل على الساحة وعندما كنت أنظر الى الشباك وقعت عيناي على غطاء راس وجبين وعينين ملآت قسما كبيرا من ذلك الشباك والتقت تلكما العينين المركزتين بعيني وكانتا تراقباني ولم أعرف حتى تلك اللحظة ان الدموع كانت مستقرة على خدي وفي ذلك الوقت شعرت بذلك ٠

وكانت تلك الدار دارا غريبة لا تخلو زاوية من زواياها من الرقابة والتطفل والاقتحام فلا دمعة تنهمر ولا فكرة تخطر على البال الا وجاسوسة تدون الملاحظات او تحزر ما يحدث ، أما هذا الجاسوس الذكر الجديدالذي جاء يتلصص من الخارج فما هي المهمة التي أنيطت به في تلك الساعة غير المألوفة وغير المحسوب لها حساب وأي حق له في أن يتطفل ويتجسس علي بتلك الشاكلة ؟

ما من بروفيسور آخر يجرأ على عبور المربع المجاور للشباك قبل أن يدق جرس الصف غير ان المسيو بول عما نوئيل لم يكن ليلتزم بالساعات او الصفوف فقد احتاج الى دليل محفوظ في مكتبة الصف الاول يريد ان يستعمله فجاء لاخذه وفي طريقه مر بحجرة الطعام وكان من عوائده أن يستخدم نظارات تريه ما امامه وما وراءه وما على جانبيه فراني عبر الشباك الصغير وفتح الآن باب حجرة الطعام حيث وقف وقال لي « اراك حزينة أيتها الآنسة » فأجبته « توجد لدي أسباب لان اكون كذلك » ٠

وقال لي « أنت مريضة بالقلب ومغتاظة وبعين الوقت حزينة وثائرة وأرى على وجنتيك دمعتين أعتقد انهما حارتان كشرارتي نار ومالحتان كبلورتي بحر وأنت تحدجينني بغرابة وانا احادثك حاليا فهل لي أن أقول لك بماذا اتذكر وأنا اراقبك ؟ » وقلت له « أيها السيد٠٠ علي أن أذهب للصلاة وشيكا ووقتي القصير جدا لا يسمح لي بالحديث في هذه الساعة فاعذرني » ٠

وقاطعني قائلا « أنا أسامح كل شخص واعذر كل شيء فمزاجي معتدل وحليم ولين بعنيف وربما لا تقوى حتى الاهانة على تكديره واثارته » وقلت له « مبادرة كلامية لا مبرر لها اعتبرها فظة وطائشة ان وجهت الى تلميذة وغير مقبول بها ان وجهت الى مدرسة » ٠

وبان عليه أنه يروم أن يجيب اجابة ودية وقد سبق أن اوصل مخاطبه

السريع الغضب الى حالة الانفجار قبل الآن ولن اسمح له أن يشبع خبثه وأذاه عندي ولذلك جلست صامتة بلا كلام ولكنه قال لي « انظري أنت كذلك الذي يختطف جرعة من السم الحلو ثم يلفظ المرارة كلها بقرف واشمئزاز فأجبته « في الحقيقة أن المرارة لا تعجبني أما اذا كان الشيء حلوا سواء كان سما أو طعاما فلست بقادرة على نكران نوعيته وحلاوته اللذيذة الخاصة فمن الافضل الموت موتا لذيذا سريعا ذلك أفضل من أن يبقى المرء يعيش حياة طويلة لا لذة ولا سحر فيها » وقال لي « ومع ذلك ينبغي أن تأخذي جرعتك المرة يوميا وفي وقتها المعين ولو كان لدي القوة اللازمة فيما يخص السم المحبوب لربما كسرت نفس القدح الذي يحويه »٠

وحولت وجهي واشحته عنه باستياء ، أولا لان وجوده أزعجني كل الازعاج وثانيا لانني أردت تجنب الاسئلة خشية أن أفشل في ضبط النفس عند محاولتي الاجابة ، وقالت لي « تعالي ويهدوء أكثر أخبريني الحقيقة ٠٠ الست حزينة لانك فارقت اصدقاء ؟ أليس الامر كذلك ؟ »

ان النعومة التي لمح اليها غير مقبولة لدي اكثر من عدم قبولي بفضوله في التحقيق معي ولذلك سكت ودخل الغرفة وجلس على رحلة لا تبعد عني اكثر من ياردتين وبقي جالسا مدة طويلة دون ان يمل أو يكل في محاولاته الرامية الى جري الى التحادث معه وهي محاولات لم تجد لانني لم أقو على الكلام أو ارغب فيه وأخيرا توسلت اليه أن يبقيني وحدي بكلمات ضعيفة الصوت وهبط رأسي على ذراعي وعلى المنضدة وأخذت أبكي بكاءا مرا وان كان بصوت خافت ثم جلس لمدة اخرى ولم أقو على النظر اليه أو التحدث معه الى ان علمت من غلق الباب ومن الخطوات المتراجعة أنه قد ذهب واراحتني تلك الدموع ٠

وانفسح أمامي مجال غسل عيني قبل الفطور وفي رأيي انني ظهرت في وجبة الطعام تلك هادئة ككل شخص آخر ولكن لم اكن مرحة مرح الشابة التي جلست على المقعد الموجود قبالتي وركزت على عينيها الصغيرتين ـ نوعا ما ـ اللتين كانتا تومضان ومضات الفرح والابتهاج ومدت الي عبر المائدة بيدها البيضاء لكي أصافحها ٠

انها الانسة فانشاوي بحركاتها ومظاهر مرحها وغزلها الاستهتارية وقد سمنت واكتنز جسمها وبدا خداها كتفاحتين مدروتين وكنت آخر مرة

twitter @baghdad_library

شاهدتها بملابسها المسائية الفاخرة الانيقة الرائعة ولا أدري أنهـا تبدو الآن اقل سحرا في ملابسها المدرسية وهو نوع من البنـوار الفضفاض ذو اللون الازرق الغامق المربع النقش باللون الاسود حتى انني ظننت أن ذلك القميص القاتم أضفى على سحرها تفوقا منتصرا معليا ـ بالمقارنة ـ جمال بشرتها وجدة ازدهارها والجمال الذهبي لغدائرها وخصلات شعرها ·

وقالت لي « انني مسرورة بعودتك يا تيمون (تيمون هي الشخصية الرئيسة في مأساة شكسبير استحال عدوا للبشرية بعد ان رفض صديقه أن يقدم له العون بعد ان اضاع أمواله ثم شنق نفسه ويعتبر هذا الاسم رمزا لمرض السوداوية الانقباضية ـ تفسير المؤلفة في آخر الكتاب) وتيمون هو واحد من عشرات الاسماء التي كانت تلتبني بها وقالت « أنت لا تدرين كم كان بودي أن تكوني معي في هذه الحفرة الموحشة » وقلت لها بلهجـة تعجب « اذن اذا كنت تريدينني هنا فبالطبع لديك حاجـة ما أقضيها لك كتصليح جورابك مثلا » وقالت لي « انت غاضبة ومتشكية ونظـة كمهدي بك دائما فقد توقعت منك هذا وانت لن تكوني انت أن لم تزجري المتابل او تنهريه ولكن الآن تعالي يا جدتي فامل أنك تحبين القهوة كثـيرا ولا تزالين لا تحبين البستوليت (خبز بحليب) فهل تريدينا أن نتساوم فيما بيننا ؟ » وقلت لها « اذهبي في سبيلك » ·

وتلك عادتها عندما تريد ان تسترضيني فهي لم تكـن تحب شرب فنجان القهوة صباحا وشراب المدرسة المخمر لم يكن من القوة أو من الحلاوة لكي يلائم مذاقها او يتكيف مع شهيتها المعروفة بها كأية فتاة مدرسة أخرى تتمتع بصحة جيدة كالخبز المحلب الصباحي أو أقراص الرغيـف المخبوزة حديثا وبشكل جيد جدا وكنت أعطي نصف حصتي المدرسية لجنيفرا لانه كان بكمية تزيد على حاجتي وكانت التلميذات يحسدنني على وفرتها أمـا هي فكانت تقدم لي فنجانا من القهوة في الصباح ·

وفي تلك الصبيحة كنت مسرورة من حصتي فلا جـوع ولا عطش ولا أدري لماذا كنت أعطي خبزي لجنيفرا وليس لسواها وأتذكر أنني في احدى سفراتي معها أعطيتها مشربتي لان طريق السفر كـان طويـلا وتوقفنا لتناول الطعام والشراب سوية في مزرعة وكنت أفضل ان اعطي لها حصـة الاسد سواء من حيث الجعة البيضاء او الخمر الحلو او الحليب الطازج ·

هكذا كان الحال معنا وهي تعرف ذلك ولهذا عندما كنا نتخاصم يوميا ما كنا لنتباعد الواحدة عن الاخرى ابدا ٠

وبعد الفطور كنت اتوجه لتدريس الصف الاول ثم اجلس او اقرأ او افكر وحيدة وكانت رغبتي في التفكير اكثر من رغبتي في الجلوس والقراءة وعند الساعة التاسعة كان الجرس يدق فتنفتح كل الابواب الموصدة ويسمح بدخول الخارجيين وشبه الداخليين الى حد الساعة الخامسة بدون توقف أو هدوء ٠ وكنت في ذلك الصباح أهم بالجلوس واذا بدقة على الباب ودخلت بعد الاستئذان احدى انصاف الداخليات واخذت من رحلتها بعض الكتب والدفاتر الضرورية ثم خرجت بهدوء على رؤوس اصابعها وتمتمت وهي تخرج « ما أشد انشغالك أيتها الآنسة » ٠

« قلت لها نعم آنا مشغولة ويبدو أن الجميع لاحظوا علي كثرة الانشغال بيد أنني لم أكن أعمل شيئا وما عملت في السابق شيئا ولا أنوي أن أعمل شيئا وبهذا يمنحنا العالم فضلا وسمعة حسنة لاعمال لم نحققها ، ونفس المدام بيك اعتبرتني كثيرة الانهماك ومثقفة وغالبا ما كانت تحذرني من عدم الانكباب على الدراسة كثيرا جدا لئلا يصعد الدم كله الى الرأس » ٠

وفي الحقيقة أن كل شخص في شارع فوسيت كان يعتقد بخرافة « أن الآنسة لوسي مثقفة ما عدا المسيو بول عما نوئيل الذي لم ينسب الي ما نسبوه لاسباب تتعلق به اعتبرها غامضة بالنسبة الي ولم يكن يعترف بالخصائص التي يعترف بها سواه وكان ينتهز كل فرصة ممكنة ليوحي لي وليدخل في روعي بضحكته الخافتة او المكبوتة ومرحه الخبيث انني لست شيئا مذكورا ٠

اما آنا فلم اكن أعير لذلك أية اهمية اذ كان همي أن أفكر تفكيري الخاص وكنت استشعر اللذة الكبرى في قراءة بعض الكتب ولكن ماكنت اقرأ الكثير منها بل كنت افضل دائما تلك الكتب التي تظهر فيها شخصية المؤلف وطريقته واسلوبه ومشاعره ظهورا بينا وليس الكتب التي لا شخصية بارزة فيها لاصحابها حتى وان كانوا من الاذكياء وذوي الخصائص الحميدة وكنت اتحسس ـ بقدر ما يتعلق الامر بذهنيتي ـ

twitter @baghdad_library

بان الله سبحانه وتعالى حـــدد القوى والاعمال وانا ممتنة للموهبة التي منحها لي دون أن يستحوذ على مشاعري الطموح لنيل مواهب اسمى واعلى علما بانني كنت اتوق الى زيادة نطاق تثقيفي ·

ومـا ان خرجت التلميذة المؤدبة حتى دخلت أخرى بدون استئذان وبدون نقر على الباب وباندفاع فهل كانت على عيني غشاوة لم اشخصها في أول الامر ؟ وبين السلوك المبدئي في ذلك الوقت مدى اخلاقية بريكتي في المدرسة · جنيفرا التي لم تهتـــم قط بأصول الآداب علما بانني كنت ادري أن كل اهتماماتي في هذا الموضوع قد توقفت قبل مدة دون أن أرى أن هنالك ضرورة أن أجزع أو اتحمل ما ينافي الاعراف والقواعد المدرسية الا من ناحية كونها انكليزية ولانها انكليزية تحملتها ·

ان جنيفرا فانشاوي لم تهتم قط بالرسميات في اي وقت كان فقـد كانت تمسك بي وأنا أتوجه الى مربع الارضية وتدور بي بقوة في حركة من حركات الفالس وهي في متعـــة فكرية وجسمية · ان فانشاوي هـي التي اقتحمت الآن باب غرفتي التي اعتبرته وقت فراغي الذي « اتثقف فيه » وكانت تحمل تحت ضبنها كتابا ضخما عن الموسيقى ·

وقلت لها في الحال حين دخلت « اذهبي الى غرفة التدريب والتطبيق او اذهبي الى الصالون الصغير » ·· واجابتني « لن اذهب قبل ان يكون لي حديث معك يا عزيزتي أنا اعرف أين قضيت عطلتك وكيـف شرعت تضحين لاصحاب الجمال والرشاقة تتمتعين بحياتك ككل فاتنة حسناء · لقد شاهدتك في تلك الحفلة وفي تلك الليلة وأنت مرتدية فعلا البسة ككل فتاة اخرى فمن هي الخياطة التي خاطت لك ذلك الثوب ؟ » ·

وقلت لها هذا لغو ومن قبيل القيل والقال · ما أجمل بدايتك ·· الخياطة !!·· خياطتي ··· اليك عني ياجنيفرا فلا أريد حقا أن تكوني برفقتي » وقالت لي « طالما انني اريد عشرتك أيها الملاك الضاري غـير الاجتماعي فما قيمة رفضك الواهن وما معناه ؟ شكرا لله لاننا ندري كيف نناور زميلتنا الموهوبة ونخادعها والآن ايتها الدبة البريطانية الصغـيرة المتعلمة ·· هل تعرفين ايزيدور ؟ » فقلت لها « اعرف جـون بريتون » وقالت لي بعد ان وضعت اصابيعها داخل أذنيها « اسكتي فانك تشقـين

طبلتي اذني وقولي لي كيف حال محبوبنا المفضل جون ؟ حدثيني عنه !! ربما كان المسكين في حالة حزن وكآبة وما الـــذي قاله عن تصرفاتي في الليلة الماضية ؟ الم اكن قاسية ؟! » وقلت لها « هل تظنين آنني لاحظتك؟»

وقالت لي « لقد كانت أمسية رائعة · آه ·· يا لروعة دي هامال وما أروع مراقبتي لذلك العابس المقطب الجبين الذي كان يموت امامي عن بعد ·· وتلك العجوز حماتي المستقبلية !! والحقيقة انني اخشى آن اكون انا والسيدة سارا قـد ابدينا جـانب القظاظة والسخرية ازاءها » وقلت لها « ان السيدة سارا لم تسخر منهـــا ابدا ·· وأنت ·· لـماذا استهزأت بها ؟ ولا تتظاهري بأنك قلقة وخائفـــة لان السيدة بريتون بقيت على قيد الحياة بعد كل سخرياتك » ·

وقالت لي « ربما لان السيدات كبـار السن يكـن فظات وخشنات ولكن ذلك الولد ولدها المسكين ماذا قال عني فقد لاحظته مقطع الفـؤاد بشكل فظيع » فأجبتها « قال انك كنت تبدين في سرك كما لو انك السيدة دي هامال منذ زمن » وصاحت بفرح « هل حقا آنك نفضت يدك من جون بريتون ؟ وهل تريدين منه آن يتخلى عنك ؟ » ·

وقالت لي « أنت تعرفين آنه لا يستطيع آن يفعـل ذلك ·· ولكنني اسألك ألم يجن بي ؟! » وقلت لها بهيئة موافقة « جنـون مطبق كجنون الارنب في شـهر آذار » وقالت لي « والآن قـولي لي كيـف توصلت الى اللحاق به في البيت ؟! » وقلت لها « كيف توصلت ؟؟! الا تأخذك الشفقة على آمه المسكينة وعلي ؟ لو رأيت ونحن نمسك به في العربة مسكا قويا وهو يهذي بيننا ومع ذلك كان قادرا على السياقة رغـم انفعاله الشديد فمثلا ضل الحوذي ولم يهتد الى البيت نوعا ما وضللنا نحن أيضا عـــن الطريق » وقالت لي « لا تقولي ذلك فانك تضحكين علي والآن يالوسي سناو ·· »

وقاطعتها قائلة « أوكد لك أنها حقيقة ··وحقيقة ·· ان الدكتور جون بعد ان عرف آننا ضللنا الطريق انفصل عنا وجلس محـل الحوذي ليهدينا الى طريق البيت الحقيقي » وقالت لي « وبعد ذلك ماذا جرى ؟ » وقلت لها « وبعد ذلك وصلنا الدار والمشهد يفـوق الوصف » وقالت لي

twitter @baghdad_library

« سفي لي ذلك فالامر يثير المزاح ! » وقلت لها بمهابة وجدية « هـــو مزاح بالنسبة لك ايتها الآنسة فانشاوي وانت تعرفين المثل القائل ·· ماهو لهو ولعب بالنسبة لك قد يكون موتا للآخر » ·

وقالت لي » واصلي الحديث يا حبيبتي تيمون » وقلت لها « مـن حيث الضمير الحي لا استطيع المواصلة ما لم تطمنيني بأن لك قلبا كيفما كان » وقالت « لي قلب واسع لو تدرين » وقلت لها « هذا جيد ·· ففي هذه الحالة يمكنك ان تتصوري كيف ان الدكتور جون بريتون لم يتناول طعام العشاء في اول الامر وترك الدجاجة والخبز الحلو المهيأ لانعاشـه على المنضدة دون أن يتناول أيشيء منها ولكنلا فائدة ترجى من الاعتماد على التفاصيل المزعجة ويكفي أنأقول ان والدته لم تكثر من تعديل غطائه ليبقى على جسمه وهو نائم مثلما أكثرت في تلك الليلة بحيث فاق الامـر كل ما كانت تقوم به في هذا الصدد حين كان طفلا صغيرا » ·

وقالت لي « ومع كل ذلك لم يأخذ جفنيه النوم ؟·· وقلت لهـــا « لم يأخذ جفنيه النوم » وتساءلت « وماذا قال ؟ » فأجبتها « ماذا قال ؟؟ تصوريه يهتف باسم جنيفرا الفاتنـة ويلعن ذلك الشيطـان دي هـامال ويهـــذي بالضفائر الذهبية والعينين الزرقاوين والذراعين البيضاوين والسوارين الملتمعين وقالت لي « هل هذا صحيح؟! هل رآى السوارين ؟!»

وقلت لها « نعم راهما كمثل رؤيتي انا لهما بوضوح وربما شاهـد ـ لاول مرة ـ أثر ضغط يده على ذراعك حين البسك السوارين » (وهنـا نهضت جنيفرا لتبدل نبرة صوتي) أما انا فقلت لها « تعالي ·· ننســه هذا الحديث ، اخرجي وراجعي دروسك وتمارينك » ثم فتحت لها البـاب لتخرج غير انها قالت لي « ولكنك لم تنه كل شيء ولم تخبريني بكلشيء» وقلت لها « من الافضل لك الا تنتظري مني ان اعلمك بكل شيء ومثـــل هذه المحادثات الاضافية لن تسرك وخـــير لك أن تخرجي » وقالـت لي « شيء محير » ولكنها أطاعتني أخيرا وفي الحقيقـة ان جرس الصف الاول رن وكان واجبي أن ادخله للتدريس ولم يكن لها بد من أن تطيعني وتكف عن مقاومة طلبي منها في أن تخرج لاذهب الى واجبي » ·

واذا توخيت الحقيقة أقول انني لم أكن أقل استياء منها مما كنت

سابقا وسرني التفكير بالفارق الموجود بين الواقع وبين التخيل وتذكري الدكتور جون متمتعا بسياقته للوصول الى داره وتناول عشائه بلذةولجوئه الى الراحة بهدوئه ولم اشعر بالحيرة الا بعد أن رأيته حزينا فعلا من جراء قضيته التي سببت له المعاناة .

ومر أسبوعان اعتدت بعدهما على روتين العمل المدرسي وتنقلت بين الم التبدل العاطفي وبين شلل التعود . وعند مروري بعد الظهيرة من مربع الارضية في طريقي الى صفي الاول حيث كان علي أن أشرح درسي « الاسلوب والادب » شاهدت روزين البوابة وهي واقفة بجانب احد الشبابيك الطويلة الكبيرة وكانت حالتها اعتيادية وهو الوقوف بهدوء وبلا اكتراث بأي شيء واحدى يديها مستقرة في جيب منزرها أما الاخرى فقد أمسكت برسالة الصقتها على عينها وراحت الآنسة البوابة تقرأ للعنوان ببرود وتتفحص ختمها عن قصد .

وقلت لنفسي هل هي رسالة من نوع الرسالة التي اخذت تنتابفكري بمحتواها منذ سبعة أيام ؟

لقد حلمت الليلة الماضية برسالةوهاأن قوة مغنطيسية تجتذبني الآن الى الرسالة التي تحملها فهل أستطيع أن أتجرأ واطلب من روزين القاء نظرة على غلافها الابيض هذا وعلى بقعة الشمع الاحمر في وسطه ؟ لا أدري .. وقلت لنفسي كلا .. لن افعل ذلك خشية أن ترفض طلبي واخذت دقات قلبي تتزايد الآن وقد اقتربت خطواتها مني . انه لخطأ جسيم فقد كنت الخطوات السريعة لبروفيسور الآداب وهو يتخطى الممر.

وأخذت أمر من أمامه مسائلة نفسي ما اذا كان بوسعي الجلوس على رحلتي قبل وصوله وكان الصف على استعداد منظم ليعمل بموجب اوامري وربما فشل في القاء النظرة علي ولكن لو انه وجدني اتسكع في المربع الارضي فلابد ان يأتي ويسمعني محاضرته عن ذلك . وكان لدي الوقت للجلوس وملازمة الصمت المطبق والقيام باعمال وسط سكون تام تدربنا عليه قبل دخول المسيو عما نوئيل الغضوب .

وكما هي عادته دخل الينا دخولا اقتحاميا كقصف الرعد وبدلا من أن يقطع المسافة الكائنة بين الباب وبين المنصة بسرعة مشيته على بعد

twitter @baghdad_library

نصف المسافة من رحلتي حملق في وجهي وظهره الى التلميذات والغرفة حملقة كان ينبغي أن تحدو بي الى النهوض والوقوف معتدلة الجسم وتوجيه السؤال اليه عما يريده مني بعد تلك النظرة النامة عن الارتياب العابس المقطب ٠

وقال لي وهو يخرج يده من صدريته ويضع رسالة على رحلتي هي نفس الرسالة التي وجدتها في يد روزين وهي مزخرفة بسطح ملون وعين سيكلوبية واحدة من اللون الاحمر القرمزي « هذه الرسالة لك ٠٠ خذيها » وقد عرفت الرسالة وعرفت أنها رسالة أملي ورغبتي المتعةالتي تنقذني من شكوكي وخوفي ٠ ان تلك الرسالة كان المسيو بول قد اخذها من روزين بما عرف عنه من التدخل الذي ليس له مسا يبرره في شؤون الاخرين وسلمها الي الآن ٠

وكان ينبغي علي أن أغضب غير أنني غضضت النظر ورنوت الى الغلاف الذي لابد ان يحوي ــ في الاقل ــ صحيفة من الورق ولم يظهر انها خفيفة الوزن انما ذات حجم كبير مرض وهذا عنوانها ٠٠ الآنسة لوسي سناو ٠٠٠ كتبته يد نظيفة رائعة وعازمة ومخترمة بختم مدور كامل وواسع وعليه بصمة واضحة للاحرف الاولى من اسم مراسلها ج٠غ٠ب وداخلني الشعور السعيد والعواطف البهجة بحيث وصل دفؤها الى قلبي وسرت في كل اوردتي ٠

لقد تحقق الامل وبيدي الآن عنوان مرحي الحقيقي المحسوس وليس حلما من الاحلام ولا صورة خيالية من الصور الذهنية ولا واحدة من تلك الصور الظلية وليدة الفرص التي تموت الانسانية فيها جوعا ولا تعيش ولم يكن طعاما سماويا كالمن والسلوى الذي امتدحته آنفا حين كنت في حالة نفسية من الكآبة والحزن والذي يذوب في اول الامر بين الشفتين بحلاوة لا مثيل لها اطلاقا ولكنها فيالنهاية تعافها النفس على وجهالتأكيد وتتوق بعد ذلك الى غذاء طبيعي ينبت من داخل الارض ذاتها ٠

وقلت للمسيو بول« شكرا ٠٠٠ شكرا أيها السيد » وحدجني بنظرة شريرة من عينه وعاد الى منصته وعلي أن أقول عنه أنه ليس بالآدمي الصالح وان كانت له بعض النواحي الحسنة ٠ وهل قرأت رسالتي مرة بعد اخرى ؟ وهل استهلكت تناول لحم ذلك الغزال بلذة وبسرعة يأترى؟

انا اعرف ان غـــلاف الرسالة بعنوانه والختم البريدي بحروفه الاولى الثلاثة كان ثرا وغنيا ووافرا بيد انه لا يمكن الاطلاع عليها وقراؤتها في ذلك الوقت .

ولهـذا خرجت متسللة من الغرفـة وتناولت مفتاح حجرة النـوم الكبرى التي توصد خـلال النهـــار وقصدت منضدتي الكائنة في مكتبي بسرعة وانا ارتجف خشية صعود المدام بيك الى فوق والتسلل للتجسس علي وفتحت الصندوق وتناولت علبة فيه وبعد ان مليت نظري مرةاخرى من الرسالة قربت الختم ـ بمزيجمن الخوف والشعور بالخجل والفرح ـ من شفتي لافتحها واطلع على ذلك الكنز غـــير المعروف ولكنني وضعتها داخل العلبة واغلقت الصندوق والجارورة وأعدت اغـلاق حجرة النوم باقفالها وعـدت مرة اخـرى الى الصف وانا شـاعرة بأن قصص الجـن الخرافية ليست خرافية وان هدايا الجن ليست أضغاث احـــلام . انه لخيال حلو غريب فان تلك الرسالة التي كانت مصدر سروري لم اقرأها ولم اعرف عدد سطورها حتى الآن .

وعند عودتي الى الصف شاهدت المسيو بول هائجا كالمصاب بالطاعون لمجرد أن بعض التلميذات لم يتكلمن بالصوت الذي يلائم أذنه وذوقهوأخذ بعضهن يبكي وهو في حالة غضب هادريهاجم بعنف ويهم بأن ينوه عن بعض الاسماء وما أن دخلت حتى أخذ يصب جام غضبـــه علي قائلا « هـــل انا مدرس هؤلاء البنات ؟ وهل أنا أشجعهم على خنق لغة آبائهن واجدادهن في حلوقهن ؟ أو فرمها بين اسنانهن كما لو أن بهن خجـلا من الكلمات التي يتلفظنها ؟ هل هذا احتشام أو تواضع ؟ انه لشعور رديء وزائف ـ كما يعرف هو بالضبط ـ ونذير بالشر وليس خضوعا وانصياعا لهذا الازدراء ولهذه الالفاظ الاستهزائية والاعتباطية والتكشيرية الصـــادر عن تلك اللغة النبيلة .

امـا انا فماذا كـــان المفروض في أن اصنعه ؟ لا شيء وظننت انه بسكوتي سيسمح لي ببقائي ساكتة ولكن الزوبعة سرعان ما بدأتتعصف وتهدر . لقد رفضنا أن نجيب على أي سؤال كـــان يطرحه علينا بغضب وعلى م كان استنكاره منصبا ؟ عن رأيه في مناديل الصف الاول وحجرات نومهـن وخزانات الـكتب ونسيج الرحلات الاخضر ومزهريات الاوراد وتوافه أطر الصور والخرائط وعن المشرفين الاجانب وما الى ذلك .

twitter @baghdad_library

ومن انتقاداته هذه ظهر انطباع فكري بان « بروفيسور الاداب » لا يستحق اي جواب لكل لغوه الغاضب المنفعل ذاك . وتلك كانت آراء مستوردة مستقاة من « بريطانيا العظمى » تعبر عن وقاحة بعض اهل الجزيرة وتعاليهم على سواهم . وبعد أن هدأت الفتيات لحظة من الزمن ـ ولم يسبق لاية واحدة منهن ان سكبت دمعة واحدة لاهانات اي من الاساتذة الآخرين ـ أخذن الآن يذبن ذوبان قوالب الجليد أمام الطبع الحار للمسيو عما نوئيل أما أنا التي لم تنفعل كل الانفعال فقد جلست وغامرت لاستانف عملي .

ويظهر ان شيئا كمواصلتي السكوت او حركة يدي جعلت المسيو عما نوئيل يحرق الارم ويخرج عن طوره وصبره ويثب من منصته وثبة حقيقية ويرفس الوجاق القريب من رحلتي بقدمه بحيث خرج الباب الحديدي الصغير عن مفصله وتطاير الوقود ، وقال لي بصوت واطيء عنيف مشوب بالغضب والاهتياج « هل تحاولين اهانتي ؟ » ثم شرع ينظم وضعية نار الموقد . واذ شعرت بان علي أن أهدئه قليلا اذا كان ذلك في الامكان اجبته « أيها السيد لن أهينك حتى من أجل العالم كله ولا ازال اتذكر جيدا انك قلت لي ذات مرة ان علينا أن نصبح صديقين » .

ولم ارد أن اخفض صوتي أو أن اتلعثم في ردي عليه الا انه مع ذلك شاب خفوض صوتي التلعثم عندما رددت عليه ولا ازال ارتئي أن في نوبة غضب المسيو بول شيئا من شبوب العاطفة وهذا كان سببا في أن تغرورق عيناي بالدموع . صحيح انني كنت في حالة انكساف ومع انني لم أكن جد خائفة فقد بكيت .

وقال لي في الحال بعد أن التفت على كل ما حواليه ليجد الدموع في كل عين « تعالي ... تعالي .. أقر بانني شخص متوحش وليس لي سوى منديل جيبي واحد ولو كان لي عشرون منديلا لوزعتها على كل منكن . ان مدرستكن المسؤولة هنا عنكن والتي تمثلكن هي الآنسة لوسي » . قال ذلك واخرج منديلا من جيبه من الحرير النقي وسلمه لي .

ان الشخص الذي لا يعرف المسيو بول او الذي لم يعتد عليه وعلى حوافزه ودوافعه يتردد طبعا في اخذ المنديل وقد يرفضه أو ما الى ذلك ولكنني شعرت بوضوح أن ذلك لن ينجح معه وان اقل تردد في اخذ المنديل سيكون

خطورة على مشروع الصلح الاولي معه ولذلك لم يكن مني سوى أن انهض والتقي بمنديله في وسط الطريق واستلمه بكياسة ولباقة وامسح به دموع عيني ثم استأنف جلوسي واستبقي علم الصلح بيـــدي واهتممت اهتماما خاصا خلال ما تبقى مـــن وقت الدراسة بأن لا أمس الابرة او الكشتبان أو المقص أو الموصلين ٠

ذلك أن أية نظرة غضوبة مـــن المسيو بـــول تجعله يرمي بهذه الاشياء خارجا فقد كان شديد الكراهية لهـــا ويعتبر الخياطة ضـــربا مـــن ضروب العزوف عن الانتباه واخبرا قدم درسا بليغا جـــدا بنفسية تتصف باللطف وبروح الصداقة في نهاية الدرس وقبل ان ينتهي كانت الغيوم قد انقشعت وظهرت أشعة الشمس وحلت الابتسامات محل الدموع وبعد ان هدأ الصف تقرب من رحلتي مرة اخرى وسألني بلهجة ليست عنيفة جدا « وماذا عـــن الرسالة التي جئت بها اليك ؟ فأجبته « لم أقرأها بعد أيهـــا السيد » وقال لي « عجبا ٠٠ الصحيح أن تعرفي ما بها في الحال فعندما كنت طفلا احتفظت بخوخة لم آكلها في نضوجها ثم نسيتها فتلفت » ٠

وجاء حدسه صحيحا ولم استطيع منـــع صعود الحرارة الى وجهي من جوابي له » وقال لي « انك تنصصين لها لحظـــة مريحة وسارة لقراءتها وستفتحينها عندما تكونين وحيدة أليس كذلك ؟ أن الابتسامة هي الجواب٠ حسنا ٠٠ حسنا ٠٠ لا ينبغي على المرء أن يكون فظا جـــدا أن شبابنا لن يعيش الا مرة واحدة » وما أن ادار ظهره ليذهب حتى صحت عليه وقلت له همسا « لا ينبغي أن تكون على خطأ في تقديرك ٠ انهـــا رسالة من صديق ولست على عجل في عدم قراءتها في الحال » واجابني « فهمت ٠٠ فهمت ٠٠ اننا نعرف ماذا تعني كلمة صديق ! » ٠

وقلت له « أيها السيد اليك منديلك ؟ » وقال لي « احتفظي به ٠٠٠ احتفظي به الى حين قراءة الرسالة ثم ايتي لي بها وساقرأ وقع قراءة الرسالة في عينيك » وبعد ذهابه خرجت التلميذات وتقاطرن على التعريشة المظللة بالاغصان المتشابكة في الحديقـــة حيث المقاعـــد الهزازة لاخذ راحتهـــن الاعتيادية قبل عشاء الساعة الخامسة وجلست لحظـــة افكر وأنا شاردة الذهن ألف المنديل حول ذراعي فرحة لموضوع كنز الرسالة المحفوظـــة في علبة في جاروة الشقة العليا من البيت ورحت اتلاعب بالمنديل كما لو انه

twitter @baghdad_library

كرة أرميها عاليا في الهواء حتى اذا سقطت التقيهـــا بيـــدي وأوقعت المنـــديل يد أخرى هي غـير يـدي ، يـد خـــرجت من ردن معطـف وامتدت فوق ذراعي وتلقفها قائلا « آرى أنك عديمة الاهتمام بي وبما أملك » . حقا ان ذلك الرجل القميء المسيو بول كان سخيفا بمجموعة ما فيه من نزوات ومن حضور في كل مكان فالمرء لا يستطيع أن يتوصل الى حقيقة ما يرمي اليه ولا الى أماكن تواجده .

الفصـــل الثـــاني والعشـــرون

ـ الرســـــالة ـ

ولما جن الليل وانتهى العشاء وانتهت ساعة ضجيج الاستجمام وأنير مصباح الدراسة في حجرة الطعام وذهب الخارجيون الى دورهـم وسكتت اصوات الدور والاجراس عند المساء واستقرت المدام في غرفة الطعام مع آمها وبعض صديقاتها تسللت الى المطبخ وطلبت شمعة لمدة نصف ساعـة لشغل خاص وجاء الجواب بواسطة صديقي فوتون وهو « طبعا يا عزيزتي يوسف أن تأخذي شمعتين بدلا من شمعة واحدة اذا أردت وصعـدت الى فوق بلا ضجيج نحو غرفة النوم » ٠

وكان المي شديدا عندما وجدت في تلك الشـــقة تلميذة ذهبت الى فراشها وهي متوعكة المزاج وازداد ألمي عنـــدما علمت أن المريضة هي جنيفرا فانشاوي التي كانت مستلقية على ظهرها وادركت جازمة أنهـا ستوقظني وتغمرني غمرا بثرثرتها والقيت نظرة عليها واندرني بريق جفنيها أن مظهر رقادها العالي ان هو الا خدعة وتحايل من أجل مراقبة حركات « تيمون » اذ ليست من النوع الذي يمكن الوثوق به بينما اريد أن اكون وحيدة لقراءة الرسالة الثمينة بأمان ٠

وخطر لي أن علي الذهاب الى الصفوف وبعد أن وجدت جائزتي في عليبة الجواهر نزلت ولاحقني ســـوء الحظ اذ كانت الخادمات يكنسنها وينظفنها على ضوء الشموع وتلك عادة اسبوعية وقد صفت المقاعد على الرحلات وعلت الاتربة والاغبرة اجواء الصفوف وســـودت ثقالات البن الرطبة التي استخدمتها الخادمات أرضية الغرف وكان كل شيء ينم عـن الهرج والمرج والارتباك وبعد ان استحوذت علي الحـيرة دون الشعـور بالهزيمة انسحبت على أمـل أن القى مكانا خلوا من أي واحد في جهـة أخـرى ٠

twitter @baghdad_library

ولما كنت اعرف مكان المذبح الجانبي للكنيسة أخذت المفتاح وصعدت ثلاثة سلالم متعاقبة فوصلت منبسط الدرج الضيق المظلم الصامت وفتحت بابا اكلته الديدان الطفولية وتوغلت في العلبـــة العميقة السوداء وهي حجرة تحت السقف الاعلى وهناك حيث لا احد يكتشف أمري او يتعرضني حتى المدام تفسها أوصدت الباب ووضعت الشمعة على ركام من الجارورات العتيقة والتففت بشالي لان الجوكان باردا كالثلج واخرجت الرسالة وأنا ارتعش من نفاذ صبري وشققت الختم ·

وسالت نفسي ·· « وهل ستكون هذه الرسالة طويلة ؟ أم هل ستكون قصيرة ؟ » ثم أمررت يدي على عيني لازيح قطـرات الدموع الفضية التي كانت الريح الجنوبية تداعبها ··· يالله ··· انهـــا طويلة هل ستكون رسالة باردة الروحية أم ستكون رقيقة ··؟!

·· يالله هي رقيقة ، ووفق توقعي ، رقيق المنضبط بدت رقيقة جدا ووفق اشتياقي الجائع ربما بدت لي أرق مما كانت ·

وبقدر ما كـــان أملي ضئيلا كـان خوفي شديدا وفي هـذا المـذاق الاستمتاعي تواجد قدر كامل من المسرة والبهجة وهكذا ربما مر الكثيرون من الآدميين في عالم الحياة دون أن يعرفوا مدرسة اللغة الانكليزية المسكينة في الحجرة السقفية الباردة تقرأ ــ على ضوء شمعة تـذوب وتذوى وسط الهواء الشتوي ــ رسالة ذات طبيعة حلـــوة ·· لا اكثر ·· علما بانني اعتبرت طبيعتها الحلوة سامية سمو الآلهة وأسعد من معظم الملوك العائشين في القصور ·

ومن الطبيعي أن تكون سعادة مثل هـــذا الشخص الضحل الاصالة قصيرة ومع ذلك حين طالت كانت خالصة من الشوائب ورائعة كمجرد فقاعة ولكنها حلوة كالقطرات المائية التي تتعقد عـــلى الشجرة عسلا ثم تجـف كالصمغ · لقد كتب الدكتور جون لي رسالة مطولة ·· كتبهـــا مسرورا وبتعاطف وأورد فيها طمأنينته وسروره بمشاهد مرت امام عينيه وعيني وعن زيارات لبعض المناطق ومحادثاتنا وعن كل القضايا الصغيرة وعـن الاسابيع القلائل الاخيرة السعيدة ·

وكان جوهر الود الصميمي ايمانه بأن التعابـير والكلمات اللطيفة

البهيجة التي انهالت علينا بوفرة وسخاء لم تنصب علينا من اجل أن ترضيني فقط بل من أجل أن يشبع نفسه بها أيضا وهي اشباعات لاشيء ارضاه وسره اكثر منها ولم ينشد سواها وهي فرضية تقارب المحتوم والمؤكد من جميع الوجوه تلك التي تتعلق بالمستقبل · ان اللحظة الحالية خالية من الالم أو الوصمة او الشائبة وخالية من العوز والحاجة فهي نقية وكاملة تنعم علي وتصونني بعمق ويبدو أن الساروفيم الملائكي استقر الى جانبي ومال الى قلبي واعطى لنبضاته جناحا مبجلا للتلطيف والتنعيم واشفاء العلة ·· أيها الدكتور لقد أملتني فيما بعد فاغفر لي لانني مريضة ·· اغفر لي من اجل الاشياء العزيزة على قلبينا التي تذكرتها بشكل رائع وهل هناك اشياء شريرة لا انسانية تحصد نعيم المرء وسعادته ؟ هل هنالك مؤثرات شريرة تلازم الجو الانساني وتسممه ؟ وما حقيقة الاشياء القريبة مني ؟

في هذه الحجرة العليا الواسعة حركة غريبة فقد تناهى الى سمعي بمنتهى التأكيد صوت خطوات متسللة الى أرض الحجرة ··· صوت انسلال من ناحية المخدع الاسود الذي دخلت اليه أقدام فاعلي السور المحجبين · وأدرت بصري الى الخلف وكان ضلء الشمعة خافتا والغرفة طويلة ولكن المؤكد لدي انني شاهدت في وسط تلك الحجرة ذات الاشباح شخصا أسود كله او ابيض كله والتنورات حسنة الترتيب وضيقة وسوداء والرأس ملفوف ومحجب بحجاب ابيض ·

ما الذي ستقوله أيها القارىء ؟ هل تقول انني كنت عصبية أو مجنونة ؟ أكد لي انني كنت في حالة غير مستقرة اثر قراءتي الرسالة وانفعالي بمضمونها وقل لي انني كنت أحلم ولكنني أؤكد وأجزم بأنني رأيت هناك في تلك الليلة بالذات صورة تشبه صورة ··· الراهبة وصرخت من الخوف وكما لو انني تمرضت وتراءى لي أن الشبح أخذ يدنو مني · ربما أغمى علي · وتراجعت الى خلف راكضة صوب الباب ولا ادري كيف نزلت من كل تلك السلالم ربما بغريزتي وابتعدت عن غرفة الطعام ويممت صوب غرفة الجلوس العائدة للمدام بيك واندفعت الى الداخل قائلة « يوجد شيء في الغرفة السفلية كنت هناك وشاهدت شيئا · اذهبوا كلكم وانظروا وشاهدوه » ·

twitter @baghdad_library

وقلت « كلكم » لان الغرفة بدت لي كما لو انها ملأى بالناس في حين انه لم يكن فيها في الحقيقة اكثر من اربعة اشخاص هم المدام بيك وأمها والمدام كينت التي كانت مريضة ومكثت عندها بعد الزيارة وآخوها فكتور كينت ورجل آخر وكانوا ـ عند دخولي عليهم خائفة ـ يتحادثون مع السيدة العجوز التي كان ظهرها مقابل الباب ٠

وربما احالني الخوف القاتل والدوار الى فتاة شاحبة الوجه بشكل فظيع وشعرت بالبرد والصدمة والارتعاش هاجمتني كلها هجوما مخيفا وآحاقت بي وحاصرتني وحثثت الجمع على الذهاب الى الغرفة الكائنة تحت السقف الاعلى وشجعني الرجل على الهدوء وعدم الخوف وبدا لي أن أمامي من سيقدم المساعدة والامل لي فالتفت الى الباب واومأت اليهم ان يلحقوا بي وارادوا ايقافي ولكنني قلت لهم ان عليهم ان يأتوا معي صوب هذا الطريق ليروا بأم أعينهم ما رأيته أنا من شبح غريب ظهر امامي في وسط الغرفة السقفية وتذكرت الآن رسالتي المتروكة على الجارورات القديمة حيال الشمعة وان علي أن استميدها واتحدى كل شيء من اجلها فرفضت الى فوق بأسرع مما كان في امكاني وتبعوني اضطرارا ٠

وعندما وصلت الى باب الغرفة الكائنة تحت السقف الاعلى كان كل شيء مظلما كظلام الحفرة والضوء منطفئا ومن دواعي الارتياح ان احدا ـ وربما كانت المدام بيك ـ جاءت معها بمصباح من الغرفة بمشاعرها الهادئة اعتياديا وبسرعة شق الضوء ـ عندما جاؤوا ـ الظلام الداكن ووجدوا الشمعة منطفئة على الجارورات ولكن أين الرسالة ؟ أخذت أفتش عنها ونسيت أمر الشبح ٠٠ الراهبة ٠

واخذت أشكو والهث واصيح « رسالتي !!٠٠ رسالتي ! » ورحت افتش قاعة الغرفة وأضرب كفا بكف متوجعة وأقول ٠٠٠ « ايها القساة !!٠ حكمتم علي بالقسوة !! كيف انتزعتم من بين يدي رسالتي قبل أن اتذوق حلاوة ما فيها تذوقا تاما ؟ » ولم اعرف ماذا كان الآخرون يفعلون فلم آقو آنذاك على مراقبتهم وأنا مشدوهة في التحري أما هم فقد شرعوا يوجهون الي الاسئلة ولا اجيب عليها واخذوا يفتشون كل زاوية من زوايا الغرفة وعم اللغط بينهم بشأنها وبشأن الحجب وسألوني ما اذا كنت قد سمعت خرقا او قرقعة في البنور فاكدت لهم أن شيئا ما او

شخصا ما لابد ان كان هنـــاك » وصرخت انا الاحادية المس المنبطحة على الارض للتحري « أواه ·· لقد أخذوا رسالتي » ·

وسألني صوت معروف لدي هامسا في أذني « أية رسـالة يا لوسي ؟ يا فتاتي العزيزة » وقلت هل يمكنني أن أصدق أذني التي سمعت صوتا مألوفا لدي ؟ ونظرت وقلت لنفسي ·· هل اصدق عيني وأثق بها ؟ هـل تعرفت على الصوت الذي سمعته وهل أنني شاهدت وجه هـذا الذي بعث الي بهذه الرسالة ؟! وهل هذا الذي رأيتـه الآن بجانبي في هـــذه الغرفة المعتمة هو الدكتور جون غراهام ؟؟ الدكتور بريتون نفسه ؟؟ » ·

نعم !·· لقد كان هو بعينـــه استدعى للكشف على مرض العجوز السيدة كينت وتشخيصه وكان ثاني السيدين من الحاضرين في غرفة جلوس المدام بيك حين دخولي · وسألني الآن قائلا « هل كانت رسالتي ياالوسي؟» فقلت له « نعم ·· كانت هي بعينها هي التي كتبتها وبعثتهـا لي جئت الى هنا لاقراها بهدوء ولم أجد مكانا آخر ملائما لاقرأها بنفسي دون رقيـب بعد أن كنت قد أخبأتها طيلة اليوم ولم افتحها حتى هـــذا المساء وبالكاد ألقيت نظرة عليها ولذلك صعب علي فقدانها ·· آه ·· يا رسالتي !!»·

وقال لي جون « اسكتي ولا تبكي وتحـزني نفسـك بكـل هـــذه الدرجة ·· فما هي قيمتها ؟! ··· اسكتي ودعينا نخرج من هذه الغرفة الباردة · انهم يرومون لا استدعاء الشرطة ان لمواصلة التفتيش ولا يجوز البقاء هنا · تعالي ننزل » وتناولت يد ساخنة أصابعي الباردة وانزلتني الى الغرفة التي كان فيها موقد وجلسنا آنا وهو نصطلي بنيران الموقد ·

وأخذ يحادثني ويلاطفني ويهدهدني بدماثة خلق وطيبة لا مثيل لها واعدا اياي بعشرين رسالة مقابل هذه الرسالة المفقودة واذا كانت هناك كلمات مؤذية كالسكاكين لا يمكـــن أن تشفي الجروح التي تحدثها واذا كانت هنالك أعمال حيف وظلم واهانات ذات أسـنة جارحـــة وحافات وحواش يقطر منها السم فهنالك أيضا كلمات عزاء وسلوى تسمعها الاذن وبها البلسم الشافي ورقة لطيفة الوقع يتذكرها المرء بتحنان لا يتلاشى ولا يضمحل ابدا ·

لقد قيل لي أن الدكتور بريتون لم يكن كاملا ومثاليا كمهدي به وان

twitter @baghdad_library

اخلاقه الفعلية كانت تفتقر الى العمل والتسامي والاحتمال ولا ادري ما في ذلك من الحقيقة أو الشطط بيد ان الذي اعرفه فيه هو انه كان صالحا معي ومفيدا لي كفائدة البئر للعابرين على السبيل وكفائدة الشمس لاليف السجون المرتعد من البرد وعهدي به بطولته حتى في هذه اللحظة ٠

وسألني متبسما لماذا اهتممت بالرسالة اهتماما كبيرا الى هذا الحد؟ وكان في فكري ان اقول ـ ولكني لم أقل ـ انني ثمنتها وقيمتها قيمة دمائي في عروقي ولذلك اكتفيت بان قلت له بان ليس لي من الرسائل للاحتفاظ بها الا عدد قليل جدا منها » وقال لي « انني متاكد من انك لم تقرئيها والا لما فكرت بها بأي تفكير » وقلت له « لم أقراها الا مرة واحدة وأروم قراءتها ثانية وما اشد أسفي لفقدانها ولا معدى لي عن أن أبكي مرة أخرى » ٠

وقال لي « لوسي ٠٠ لوسي يا أختي الصغيرة بالرضاعة (اذا وجدت مثل هذه العلاقة) اليك ٠٠ اليك ٠٠ رسالتك ٠٠ انها ليست أفضل من دموعك هذه ولا أفضل من مثل هذا الاخلاص العاطفي الزائد عن اللزوم انها لظاهرة غريبة متميزة ! وحقيقة الامر أن عينه السريعة شاهدت الرسالة على ارضية الغرفة حيث كنت أفتش أنا أيضا عليها فخطفها بسرعة واخفاها في جيب معطفه وانني أشك بانه كان يفكر بالاعتراف بها او باعادتها لان دموع الحالة النفسية التي تساقطت من عيني حتى لو كانت أقل برودة ـ بدرجة واحدة ـ مما أحس بها لابهج ذلك فؤاده ٠

ان لذة استعادة الرسالة جعلتني أنسى أن أعاتبه على العذاب الذي سببه لي فسروري كان عظيما بحيث لم يتسن لي كبته وتشبثت بالهدوء والطمأنينة اكثر مما تشبثت بالكلام وسألني الدكتور جون « هل أنت مرتاحة الآن ؟ » فأجبته « أنا مرتاحة وسعيدة » وقال لي « حسنا ٠٠ اذا كان الامر كذلك فكيف تجدين وضعك الصحي الآن ؟ هل أنت أهدأ بالا واكثر اطمئنانا ؟ ٠٠ لا أظن بهذه الدرجة لانك ترتجفين حتى الآن كورقة من اوراق الشجر » ٠

ويبدا لي انني هادئة بما يكفي وشعرت ـ في الاقل ـ بأنني خائفة

وعبرت عن نفسي برياطة جأش . وقال لي بعد ذلك « بمقدورك الآن أن تعلميني عما وجدت لان وضعيتك آنذاك اتسمت بالغموض هل تعلمين ؟. كنت شاحبة الوجه ولم تتكلمي الا عن « شيء » لم تفصحي عن ماهيته.. هل كان رجلا ؟.. هل كان حيوانا ؟ ماذا كان ؟ » وقلت اجيبه « لن اقول لك بالضبط عما كان في مكنوني ما لم يتحسس به شخص آخر ايضا وحينئذ ساقدم شهادة مؤكدة وبدون ذلك ساشعر بالخزي وساتهم بأنني احلم » وقال لي الدكتور بريتون « أخبريني ساسمعه بصفتي المهنية أو من وجهة نظري المهنية وربما أراني اقرأ كل ما تخفيه في عينيك البهيتين والقلقتين معا بشكل غريب وفي خديك اللذين هجرهما الدم وفي يديك اللتين لا تعرفان الثبات ولا الاستقرار .. تعالي يا لوسي تكلمي واخبريني » .

وقلت له « ان لم أعلمك ستقطع رسائلك عنيأليس كذلك ؟ » فقال لي «انك تضحكين الآن» وقلت له «اريد أخذ هذه الرسالة الوحيدة لانها لي وأرى أن لي حقا في استعادتها » وشعرت بالمزاح الممزوج بكلماته الامر الذي افاض علي الجدية والسكوت وطويت الرسالة التي أعطانيها ودسستها في جيبي وقال لي « انك اخفيتها وبوسعك أن تفعلي ذلك أما أنا فقادر على اخذها لحظة ما اريد وأنت لا تعرفين براعتي وخفة يدي وبوسعي أن أكون ساحرا بارعا اذا أردت ذلك . تقول لي والدتي احيانا أن لدي خاصية وميزة متناسقة ومتناغمة بين لساني وعيني أما أنت فلم تهتد الى ذلك في « أليس كذلك يا لوسي ؟ » .

وقلت له « بلى .. بلى .. عندما كنت صبيا لاحظت كلتا هاتين الميزتين وكانتا آنذاك أقوى مما هما عليه الآن ذلك أنك الآن قويوالقوة تستغني عن المكر ولا تزال يا جون تمتلك ما يسمى في هذا البلد بالمظهر الماكر ولا يخطيء أي شخص في ذلك وقد اكتشفتها المدام بيك ... » وقاطعني بضحكة قائلا « وأحبتها لانها هي ذاتها تمتلك نفس الميزة .. ولكن يا لوسي أعطني الرسالة فانت لا تهتمين بها » .

ولم أجبه على عبارته الاستفزازية تلك فغراهام في حالته المرحة لا ينبغي ممازحته اكثر من اللازم . وتلاعبت على شفتيه نوعية جديدة من الابتسامة رغم انها كانتحلوة فانها احزنتني بنوع ما لان نوعاجديدا

twitter @baghdad_library

من النور التمع في عينيه ورغم عدم اتصافه بالروح الهجومية الا أنها لم تكن مطمئنة لذلك نهضت لاذهب وودعته وأنا حزينة بعض الشيء · ان حساسيته تلك القوة الاستنباطية الكاشفة ظهرت في لحظة الشكوى وبانت على وجهه بجلاء صامت امارات الشكوى والمعاتبة وسألني بلهجة هادئة اذا ما كان قد اساء الي فهززت رأسي بما يعني النفي وعدم حصول ذلك ·

وقال لي « اذا كان الامر كذلك فدعيني أكلمك قليلا بجدية قبل أن تذهبي · أنك في حالة عصبية للغاية وأنا متأكد مما هو شائع على نظرتك وسلوكك ـ اللتين تسيطرين عليهما سيطرة تامة ـ انك عندما كنت وحيدة في ذلك المساء بتلك الغرفة الكائنة تحت السقف الاعلى ، تلك الغرفة المخيفة المهلكة الشبيهة بوحشة القبور ذلك الجب الذي تعلوه الرقائق والصفائح المعدنية الذي يفوح بروائح الرطوبة والعفونة والذي كان عليك الا تدخليه ، رأيت أو ظننت بأنك رأيت شيئا أثر على خيالك وتصورك وأنا على علم من أنك لم تكوني عرضة لمخاوف محسوسة أو لخوف من أن يسرقك أحد أو ما شاكل ذلك · ولست متأكدا من أن زائرة متجسدة بشخص طيفي تسبب لك صدمة في ذهنيتك · أقول لك اهدئي فالقضية قضية اضطراب عصبي على ما أرى وكل ما أريده منك الآن أن تعطي مواصفات الشبح أو الخيال الذي تراءى لك » ·

وقلت له « ألن تخبر أحدا بذلك ؟ » فقال « ابدا ·· ابدا ·· تأكدي من ذلك ! وينبغي أن تثقي بي كما وثقت بالاب سيلاس فالطبيب هو أفضل من الكاهن في حفظ السر وان لم يكن له شعر أبيض » ثم قال لي « لا تضحكي فربما كنت سببا في أن اخدمك بشكل جيد ولا تسخري فأنا أشعر بكوني صديقا لك وان كانت طبيعتك الهيابة بطيئة في الشعور بثقتك بالمقابل » ·

وبدا الآن كصديق فقد زايلته الابتسامة وبريق عينيه الفائقة لحد الوصف وانكسف تقوس شفتيه كما انكسف حال منخريه وحاجبيه وبدت السكينة على محياه وشاع الاهتمام الرزين على هيئته وسيمائه وبمنتهى الثقة به أخبرته بحقيقة ما شاهدت وقبل هذا رويت له الاسطورة الشائعة عن الدار واستغرق حديثي وشرحي الامور له قرابة ساعة من ظهيرة شهر تشرين الاول المعتدل ثم ركبنا العربة عبر الخميلة ذات البركة ·

وجلس يتأمل وبينما كان على هذه الحالة سمعناهم كلهم وينزلون الى اسفل البناية وقال وهو يرنو الى الباب وقد ارتسم الانزعاج على محياه « هل هم آتون لتعكير صفونا ؟ » فأجبته « لن يأتوا الى هذا المكان لاننا في الصالون الصغير الذي لا تجلس فيه المدام بيك عادة عند المساء ومن قبيل الصدفة أن تظل حرارة الوجاق باقية حتى ذلك الوقت » ومر الجمع من أمام الباب قاصدين غرفة العشاء وتابع الدكتور جون حديثه قائلا « الآن سيتحدثون عن اللصوص والسراق والسطو على البيوت وما الى ذلك أما أنت فكمن لم تقل شيئا ولا تصغي لاحد قصة الراهبة الشبح وقد تظهر امامك مرة اخرى فلا تجفلي ولا تخافي منها » ٠

وقلت له برعب مستتر هل ترى ذلك ؟ لقد توارى الحديث عن دماغي كما يتوارى الآن هنا ٠ وقال لي « أظن أن الامر مجرد وهم طيفي ناجم عن نزاع أو تناقض ذهني وعقلي مضت عليه مدة طويلة » وقلت له بلهجة التعجب « آه ٠٠ يا دكتور انني أرتعد لفكرة تعرضي لمثل هذا الوهم فهو يبدو عندي أمرا حقيقيا ٠٠ ثم أليس لهذه العلة دواء ؟ أليس له وقاء ؟ » وقال لي « دواء ذلك هو الشعور بالسعادة وذهنية مرحة واستثمار ورعاية كلتيهما » ٠

وفي رأيي أن ليس من سخرية في هذا العالم تبدو أمامي جوفاء كسخرية أن يقال لك ٠ « استثمر السعادة وارعها فما الذي تعنيه هذه النصيحة ؟! فالسعادة ليست كالبطاطس التي تزرع بقالبها وتجنى بالتسميد ٠ السعادة أبهة متألقة علينا من السماء وقطرة ندى مقدسة تشعر الروح في بعض أصباح أيام الصيف بأنها تنزل اليها من زهرة نبتة خالدة لا تعرف الذبول ومن ثمار الفردوس الذهبية ٠

وقلت للدكتور جون باقتضاب « استثمار السعادة !! هل تستثمر أنت السعادة وترعاها وكيف تقوى على ذلك ؟ » فقال لي « انني مرح بطبيعتي ولم يطاردني سوء الطالع وعندما طاردني أنا والوالدة ذات مرة وتناوش معنا في معركة عابسا مقطب الجبين تحديناه أو بالاحرى ضحكنا عليه وسخرنا منه » وقلت له « ليس في كل هذا استثمار او رعاية اطلاقا » وقال لي « لم افسح المجال لكي يتداخلني او يهاجمني مرض السوداوية الانقباضية » وقلت له « نعم رأيتك وقد خضعت لذلك الاحساس » وقال

twitter @baghdad_library

لي « تقصدين موضوع جنيفرا·· اليس كذلك ؟ » وقلت له « الم تحولك في بعض الاحيان الى بائس ؟ » ·

وقال لي بلهجة الاستخفاف والازدراء « اف ·· كان هراء وعبثا ·· الا ترين انني الآن أحسن حالا ؟ فاذا كانت هنالك عين ضاحكة ونور حي منعش ووجه يزخر ويزدهر بالاشراقة تشهد على ان فلانا بحالة أحسن فهو فعلا بحالة أحسن » وقلت له بلهجة الاقرار « أنت لا تبدو جد مستاء أو في وضع سيء او صحة سيئة ·· » وقال لي « لماذا يالوسي ؟ ألا تستطيعين أن تبـــدين مثلي وتشعرين مثلي بشعور المـــرح والابتهاج وتتدرعين بالشجاعة وأن تكوني لائقة لتحدي كـــل العابثين والعابثات في العالم ؟ سأدفع ثمنا وذهبا لمجرد أن أجدك تقابلينني بالازدراء وعدم الاكتراث في مثل هذه الامور · جربي هذه المناورة تجدي ما يروق لك ويرضيك » ·

وقلت له « وماذا لو جئت لك بالآنسة فانشـــاوي وأوقفتها أمامك الآن ؟ » فاجابني « أعاهدك يا لوسي انها لن تحرك في آية مشـــاعر ولـــن تقوى على تحريكي الا بشيء واحد فقط وهو أن تقول نعم » ان تقولهـــا لي صحيحة لا شائبة فيها وأن تكن لي الحب العاطفي العميق الغور · في مثل هذه الحالة أسامحها بما لا يقل عن هذا بثمن » وقلت له « في الحقيقة أن ابسامة منها ستسوى عندك كنزا » ·

وقال لي « تبدل هذا يا لوسي ·· تبدل ·· وتذكري أنك نعتيني ذات مرة بالعبد ولكنني أقول لك الآن أنني حر » ··

ووقف على قدميه وبانت الحرية التي يقول عنها في ملامح وجهـــه وبريق عينيه وتجلت نفسيته الجديدة الكارهة لقيـــود الماضي وقال لي « ان الآنسة فانشاوي قد سيرتني في درب طور وحالة وشعور انتهى أمرها معي نهائيـــا ودخلت حـــالة أخرى وأنا الآن مستعد لمقابلة الحـــب بالحب والعاطفة بالعاطفة وساقـــدر ذلك أحسن تقـــدير ايضـــا » وقلت له « آه منك ·· أيها الدكتور لقد سبق أن قلت لي أن طبيعتك تمشي وراء حب محفوف بالصعوبات ويسحرك انعدام الحس المتسم بالعجرفة والخيلاء »·

واجابني ضاحكا «ان طبيعتي تتغير وتتبدل وحالة ساعتنا ووضعيتها

تكون في بعض الاحيـان أضحوكة الساعـة التي تعقبها » وسحب قفازيه قائلا « حسنا يالوسي ·· هل ستعود الراهبة مرة اخـرى فما رأيك ؟ » وقلت له « لا أظن أنهـا ستعود » وقال لي « اذا عادت بلغيها تحيـاتي واستعطفيها لكي تتلطف وتقبـل زيارة مني · قولي لي يا لوسي هـل كانت راهبة جميلة ؟ وهل كان لها وجه بديع ؟ لم تقولي لي شيئا عن هذا الموضوع وهي نقطة هامة حقا » ·

وقلت له « كانت تلف وجهها بقماش ابيض وكانت عيناها تلتمعان وتتألقان » وقال لي بصوت عال « هذا لستر أغطيتها الجنية ولكن لابـد أن تكون ذات عينين جميلتين لأعتين وناعستين » وكان جوابي له «باردتان وجامدتان » وقال لي « كلا ·· كلا ·· نحـن لا نخشاها ولن تنتابك أو تتردد عليك يا لوسي واذا فعلت فكل ما تفعلين هو أن تصافحيها ·· وهل تتصورين أنها قادرة على تحمل ذلك ؟ » ثم ابتسم وودعني ·

وقلت في نفسي هل يوجد شيء ما يا ترى في تلك الغرفة الكائنـة تحت السقف ؟ وماذا اكتشفوا ؟ بعد التفكير الزائد اعتقدت ان اكتشافاتهم لم تكن الا شيئا ضئيلا فقد سبق أن تكلموا عن أقنعة مزعجة ولكن المدام بيك اكدت لي فيما بعـد أنه فيما يخص الالواح الزجاجية والنوافـذ المكسورة في كوة سقف البيت أن سبب انكسار أو تهشم بعضها هو هبوب عاصفة شديدة قبل بضعة أيام ·

واستفهمت مني المدام باهتمام زائد عما شاهدته ولكنني اكتفيت فقط بوصف شخص بشري غامض يرتدي أردية سوداء وحذرت نفسي من عدم ذكر كلمة راهبة » لان هذه الكلمة لابـد ان تـورد الى خاطرها في الحال فكرة رومانسية وخيالية وأوصتني بألا اتحدث بذلك لاية خادمـة أو تلميذة أو مدرسة وحذرتني من ذلك كثـيرا وأوصتني بأن اذهب الى ادارتها الخاصة بدلا من ترويج قصة الرعب في غرف المدرسة وبذلك يكون الموضوع قد أغلق أما أنا فقد ظللت وحدي تائهة في احزاني اسأل نفسي عما اذا كان هذا الشيء الغريب يعود لعالمنا أو لعالم ما وراء المقابر وعما اذا لم يكن سوى وليد المرض وأنا المريضة فريسته ؟ ·

twitter @baghdad_library

الفصل الثالث والعشرون

ـ فاشستي ـ

كنت قد قلت « أهيم على وجهي حزينة » أما الآن فلافقد أثر مؤثر جديد على حياتي واوقف تقدم الحزن في مكانه وتخيل معي أيها القاريء واديا صغيرا عميق الغور في الغموض الغابي يكمن في ظلام وضباب تربته الظاهرة شديدة الرطوبة ، واعشابه رطبة وشاحبة وقد احدثت زوبعة ما أو فأس ما فراغا واسعا بين اشجار البلوط والسنديان وقد هبت النسائم في ارجائه وحجب عنه نور الشمس واصبح الوادي البارد الحزين مصقولا كالكاس الصينية العقيلة العالية الصنع وقد أضفى أوج الصيف أبهته الزرقاء ونوره الذهبي على ذلك الجو الجميل الرائق وهو ما لم يشهده ذلك الوادي بغوره العميق . وداخلتني عثيدة جديدة وأمنت بالسعادة .

مرت ثلاثة أسابيع على مغامرة الغرفة الكائنة تحت السقف الاعلى من البناية ولدي الان في علبتي وصندوقي وجارورتي الفوقانية التي تضم أول رسالة واربع رسائل أخرى مماثلة بنفس القلم الحبر ومختومة بنفس الختم الواضح حاوية كل ما يبهج القلب والنفس ويريحها الى أقصى حد كما كنت أراها حينذاك وبعد اعوام كنت أقرأها وبدت لي رسائل رقيقة بما يكفي وسارة بما يكفي الا كتبها شخص هو أيضا مبرور ومبتهج القلب وانطوت الرسالتان الاخيرتان على ثلاثة أو اربعة اسطر نصفية الرقة ونصفية البهجة مستقاة من مشاعر متحسسة ومتأثرة بالعاطفة ولكنها لا تتسم بسمات الخضوع او التضرع .

أيها القاريء العزيز لقد حولها الزمن الى شراب مستساغ من هذه النوعية اللطيفة وعندما تذوقت اكسيرها من ذلك الينبوع الطاهر بدا لي كما لو أنه عصير غلة الكروم الفاخرة وهي جرعات كما لو أن « هيب » آلهة الشباب التي كانت تملأ كؤوس الالهة هي التي ملأتها بموافقة

twitter @baghdad_library

منهم - هل يتذكر القاريء ماذا قيل عن بعض الصفحات الماضية من هذا الكتاب ؟ وهل له أن يتساءل عن كيفية اجابتي على هذه الرسائل ؟ هل أجبت عليها وفق الرقابة العقلية المقيدة ضمن حدود معينة أم وفق الحوافز الليبرالية الكاملة للمشاعر والاحاسيس ؟٠

توخيا للصدق وفقت بين الامرين وخدمت سيدين وأحنيت رأسي اجلالا في بيت الوهية ريمون (ريمون اله من آلهة الآشوريين منوه عنه في « كتاب الموك » ـ شرح المؤلفة) وحركت أوتار قلبي عند مزار مقدس آخر ٠ لقد كتبت رسالتين جوابيتين احداهما ارحت بها نفسي وتنفست الصعداء والاخرى من أجل غرامام ولكي تبدأ الحديث عنهما اخذت أنا ومشاعري نخرج العقل من الابواب وحجبنا عنه الرؤية وفرشنا الورقة وغمسنا القلم في حبر الاشواق وبعميق المتعة نشرنا ما في القلب من خالص الحب ٠

وعندما فعلنا ذلك ملأنا الصفحتين بلغة الحب العنيف الخالص وهو عرفان بالجميل عميق الجذور وقويها وفي هذه اجملة المعترضة تنازلت ـ بكل تهكم واستهزاء ـ من كل ريبة متسللة مما يقال عنها « بالمشاعر الساخنة » أن النساء لا يتمتعن بهذه « المشاعر الساخنة » حين لن يكن واقعات منذ البداية طيلة معرفتهن بمعارفهن ـ في احبولة انخداعهن بالمفهوم الشرطي التالي وهو ان فعلت كذا يعتبر منك هذا سخفا اوحمقا يتصف بالخطورة ٠

وما من فتاة تنزع الى الحب وتندفع اليه مالم تكن قد شهدت صعود نجم الامل فوق مياه الحب المكرة او حلمت بذلك وعندما عبرت آنذاك عن الصلة العنيفة التثبث والعميقة الاحترام التي ابدت استعدادها لتقبل كل ما هو محزن ومؤلم من أجل الهدف الذي تصبو اليه فمعنى ذلك أنها امتصت او بددت كل الزوابع والصواعق عن كيان يهده القلق والهم وفي مثل هذه اللحظة فقط تهتز ابواب قلبي ويستسلم الرتاج ويزول الحاجز ويتقدم العقل بعنف انتقامي ويختطف أوراق الرسالة فيقرؤها ويأخذ في ابداء التهكم والهزء ويحذف ما يشاء ويمزق ما يشاء ويعيد الكتابة كيفما يشاء ويطوي ويختم الرسالة بعد أن يوصلها الى موجز مقتضب مهذب ونعم ما يفعل ٠

ولم أعش على الرسائل فقط فقد زاروني واعتنوا واهتموا بي وفي يوم من ايام الاسبوع اخذوني الى الدار المسماة «بالشرفة» وكنت موضوع العناية واللطف ولم يبح الدكتور بريتون لي بالاسباب التي تعدو به الى ان يكون لطيفا جدا ورقيقاً جدا معي وقال لي ذات مرة « لكي انقذك من الراهبة سأناقش الموضوع معها بشأنك فانا اكرهها بسبب القماش الوجهي الابيض الذي ترتديه وعينيها الرماديتين الجامدتين واكد لي بانه ما ان سمع مني باوصافها حتى شعر بالقرف والاشمئزاز التام منها وعول على مقاومتها وعلى تبيان ما اذا كانت هي او هو الاذكى وتمنى لو أنها في ذات مرة تحاول النظر اليك وأنا موجود وهذا مالم يحدث ثم اخذ يتحادث معي حول الموضوع علميا على ضوء أنني المريضة وأنه المهني الذي يريد المعالجة ببراعة وفعلا باشر بمعالجتي بما عرف في طبعه من حب الخير بعملية علاج ودية ولطيفة .

وفي احدى الامسيات التي صادفت اليوم الاول من شهر كانون الاول كنت اتمشى في المربع الارضي وكانت الساعة السادسة منها وقد أغلقت الصفوف وفي داخلهـا كانت التلميذات منشغلات في الاستجمامة المسائية تصدر منهن ضوضاء غير شديدة وكانت ارضيـة المربع ملفوفة بالظلام باستثناء لمعان ضوء أحمر تحت الوجاق وفيما حوله وتجمد الثلج على الابواب الزجاجية الرحبة وعلى النوافذ الطويلة .

وبرهن شعاع شفاف من بعض النجوم ملقى على ذلك الحاجب الشتوي الابيض ومبدد تبديدا رائعا لون تطريزه الشاحب ، برهن على انها كانت ليلة صافية الاديم وان كان القمر لم يطلع فيها وكوني تجرأت على البقاء وحيدة في الظلماء دلل على أن أعصابي استعادت صحتها وفكرت في الراهبة دون ان اخشاها هذه المرة رغم ان بيت السلم يقع خلفي عبر ليلة سوداء عمياء من منبسط درجي الى آخر الى الغرفة المسكونة الكائنة تحت السقف .

فاشتي = هي زوجة الملك اهازورس احد ملوك الميديين وكان قد طلب منها الملك ان تعرض جمالها امام عدد من الامراء زاروه فرفضت طلبه فعزلها عن ملوكيتهـا وتزوج اليهودية ايستر واحلها ملكة بمحلها (القاموس) .

twitter @baghdad_library

واذا بقلبي تزداد دقاته ونبضي كذلك وعلى حين غرة سمعت صوت تنفس وصوت حفيف وخشخشة والتفت صوب الصوت فوجدت في عمق ظلال الدرجات خيالا يتحرك ويهبط الدرجات ثم توقف برهة عند باب الصف ثم أنسل أمامي وبنفس الوقت رن جرس الباب البعيد ، ان الاصوات الشبيهة بالحياة تأتي بمشاعر شبيهة بالحياة وكان ذلك الخيال اكثر دائرية وخصرا من خيال الراهبة النحيف واتضح أنه لم يكن سوى المدام بيك التي كانت تقوم بواجبها المدرسي ·

وجاءت روزين من الممر بسرعة وهي تصيح بي لاهثة وبيدها المصباح « أيتها الآنسة لوسي ··· يوجد شخص ينتظرك في الصالون » لقد رأتني المدام وانا رأيتها أيضا وروزين رأتنا كلينا ولم تكن بيننا معرفة متبادلة ثم ذهبت الى الصالون في الحال فوجدت ما توقعت ان اجده ·· الدكتور بريتون ·· وكان يرتدي بدلة السهرة الرسمية وقال لي حين شاهدني « العربة عند الباب ارسلتها والدتي لاخذك الى المسرح وكانت نفسها تريد الذهاب الى هذا المسرح لولا ان زوارا داهموها فامتنعت عن الذهاب قائلة لي في الحال « خذ لوسي عوضا عني ··· واذهب واصحبها » ·

وقلت له وأنا أنظر بخيبة أمل الى ثوبي « المرينوس » الاسود ذي النسيج الصوفي « الآن ؟! لست مرتدية الثياب اللائقة » وقال لي «لديك نصف ساعة لترتدي خلالها ثيابك وكان ينبغي علي أن اعطيك اشعارا بذلك لولا أنني لم اعول على الذهاب الا في الساعة الخامسة عندما علمت أن حفلة كبرى أصيلة ستقام تكريما لفنانة عظيمة » ولفظ أمامي اسما هزني وآثار مشاعري ··· اسما من أوربا برمتها هزا في ذلك الوقت واسمي يومها « بيوم سيربوس » اسم اعظم النجوم الثابتة لمانا وتوهجا من بين مجموعة النجوم ·

وقلت له سأرتدي ملابسي بسرعة خلال عشر دقائق وعدت بسرعة لتبديل ثيابي دون أن تعيقني فكرة الذهاب مع غراهام بدون السيدة بريتون لان السيدة والدته عرابتي كانت تعرف ولدها وتعرفني ثم انها كانت تعتبرنا كأخ وأخت ولم تفكر في وضع مراقبين يراقبون روحاتنا وجيئاتنا · ولم يكن الوقت الحاضر مناسبا لترتيبات مظهرية فقماش

الكريب الكميتي اللون يكفي وكنت قد ارتديته في غرفة المهجع التي علق فيها ما لا يقل عن اربعين ثوبا ٠

غير ان تبدلات واصلاحات أجريت وان يدا اصلاحية هي التي أجرت مثل هذه التبدلات والاصلاحات على خزانة الثياب التي كان ردائي الكريبي موجودا بينها وعلي ان افتش عنه واخذت المفتاح وصعدت بلا خوف وأنا طائشة الفكر وفتحت الباب واندفعت الى الداخل وقد يصدق القارىء أو لا يصدق ذلك أنني عندما دخلت باندفاع لم تكن الغرفة الموجودة تحت السقف مظلمة جدا كمهدي بها فقد لاحظت أن ضوءا كضوء النجمة ـ ولكن بشكل اوسع نطاقا ـ ينبعث من احدى نواحيها ٠

وكان وميض الضوء من الوضوح بحيث أظهر فجوة الجدار العميقة مع قسم من الستارة القرمزية الوسخة التي تغطيها ولم اجازف لمعرفة السبب فلم يكن لدي وقت أو رغبة في ذلك وتناولت ملابسي المعلقة على الحائط بالقرب من الباب بفرح واندفعت بكل سرعة بعد ان اغلقت الباب ونزلت الى غرفة المهجع وكنت ارتجف من البرد بحيث أدركت أن ارتداء ملابسي بمثل تلك الاصابع الباردة أو تثبيت وغلق المشبكات والعرى بها أمر غير ممكن بتاتا ولهذا استدعيت روزين وأعطيتها رشوة لمساعدتي ولما كانت تحب الرشاوى فقد عملت جهدها لمساعدتي وأخذت تمشط شعري وتنعمه وتجدله وتضفره كما يصنع الحلاق تماما ٠

ونظمت طوق التخريم بشكل صحيح ودقيق وشدت شريط الرقبة شدا دقيقا أيضا وقامت بعملها كالحورية بيد أنيقة ورشيقة وبعد أن أعطت لي منديلي وقفازي حملت الشمعة وأنارت لي طريق نزولي وأخبرتها أنني نسيت شالي فهرعت صاعدة الى فوق وجاءت به الي ووقفت في المجاز الى جانب الدكتور جون منتظرين وقال لي جون وهو ينظر الي بعينين مزويتين « ما هذا يا لوسي ٠٠ هل تكرر حادث الاستثارة ؟ هل الراهبة مرة اخرى؟»

ونفيت نفيا قاطعا اذ كنت حائرة من أن أتهم مرة اخرى بوهم ثان الا أنه لم يصدقني وقال لي « نعم كانت هي وأنا موقن من ذلك طالما أنا حي فصورتها المرسومة في عينيك بهذا البريق الخاص وهذا التعبير الخاص لا يدع مجالا لتخطئتي » وباصرار قلت له « لم تكن هي » وفعلا أنكرت

twitter @baghdad_library

ظهورها وأنا صادقة اذ لم أرها فعلا وأجابني مؤكدا « أرى نفس الدلائل على محيـاك · اصفرار خـاص وما يسميـه الاسكتلنديون بالنظرة الزائغـة » ·

ولما أمعن في اصراره لم أر بدا من أن أعلمه بما وجدت حقيقة وبالطبع يعني ذلك معه تأثيرا آخر للقضية ذاتها انه كان وهمـا من أوهـام النظر ومرضا عصبيا وما الى ذلك ولم اصدق ذلك قط رغم انني لم أعارضـه فيما قاله فالاطباء لهم آراؤهم المادية المتسمة بالواقعية ثم جاءت الي روزين بشالي ودخلنا العربة ووجدنا المسرح مكتظا بالناس حتى سقفه ومن بينهم ملكيون ونبلاء وقلت لنفسي سنكون محظوظين جدا اذا وجدنا مكانا أمام المسرح اذ انني كنت تائقة لاشاهد شخصية سمعت عـن شهرتها بتقارير جعلتني أتوقع منها اشيـاء متميزة وساءلت نفسي عما اذا سيبدر منها ما يبرر شهرتها ببلائل الاداء وغرائبه وبأحاسيس متزمتـة تلفت انظار الجمهور وانتظرت · وكانت دراسة ذات طبيعة لم تشهدها عيناي · فقـد ظهر جلية أنها نجمة عظيمة وجديدة ولكن بأي شكل ؟ وانتظرت ظهورها على المسرح ·

وفي الساعة التاسعة من ليلة من ليالي كانون الاول ظهرت على المسرح ووجدتها تتقدم من فوق الافق مشرقة بعظمة وأبهة شاحبة وبقوة راسخة وعندما اصبحت قريبة تراءت أمامي كما لو أنهـا مزيج من الاضطراب والتشوش والفراغ والذبول النصفي والهيكل المشرف على الهلاك يتناصفها النمود والتوهج لقد سمعت عن هذه المرأة انها صريحة وبسيطة وتوقعت أن تكون ناتئة العظـام أو خشنة العظـام ومتجهمة وضخمة الجثة ولكن الذي رأيته فيها أنها ظل الملكة « فاشتي » فقد كانت جميلة كالنهار فيما مضى أما الآن فقد استحالت شاحبة كالشفق وذاوية كالشمعة المشعولة ·

لقد لحقت المعاناة بأمبراطورة المسرح التي وقفت أمـام جمهورها لا مستسلمة ولا متحملة · وقفت كمنغلقة على نفسها فيما تبديه من جهد وصارمة في مقاومتها وقفت على ما ترتديه ثنيات قديمـة وقفت كتمثال منحوت في ملابس قسم منها قرمزي غير منسجم وقسم منها أبيض كالفضة ان لم نقل كالموت · أين كان الفنان الذي رسم كليوباترة ليأت الى هنـا ويجلس ويتدارس هذه الصورة المغايرة لتشد العضلات القوية والدماء الوفيرة واللحم المكتنز الذي يتعبده ليتقرب كل الماديين وينظروا اليها ·

قلت آنها غير مستاءة من اساها وحزنها • كلا •• ان ضعف هـذه الكلمة يجعل منها آكذوبة وبالنسبة لها يصبح الذي يؤذيها متجسدا فيها على التو وتنظر اليه كما لو انه شيء يمكن شن الهجوم عليه وتمزيقـه اربا اربا فكانها مادة تتناقض مع التجريد وقبل آن تلحق بها بلوىتكون كالنمرة تمزق كل ما يهاجمها من مظاهر الويل أو البلوى آما الالمعندها فليست نتيجته على ما ترام والدموع لا تروي غلة الحكمة وحصادها واما عن المرض والموت نفسه فلا تنظر اليهما الا بعين التمرد والثورة •

وربما ان الذي يبدو عليها هو شر بيد آنها من الجهة الاخرى قوية وقوتها انتصرت على الجمال وتغلبت على التناسق وقيدت الاثنين الىجانبها اسيرين مطواعين بين يديها • ان شعرها المتطاير كما لو انه في حالة حرب لا يزال كشعر الملائكة زاهياتحت هالة من نور • لقد قيل لي آن «فاشتي» لم تكن فاشلة وقلت آن مظهرها ليس بالجيد ومع انها روح فانها كانـت خارج نطاق تقديم القرابين والضحايا • حسنا ••• اذا كانت قبل هذه القوة غير القدسية قد برزت من تحت آلا يجوز آن ينزل مثيـل لها من محتوى قدسي في يوم ما من أعلى الى تحت وساءلت نفسي مـا هو رآي الدكتور بريتون بهذه المخلوقة ؟ •

وكنت في فترات طويلةقد نسيت آن آساله كيف كانت حالتهوموقفه من هذه المشاهد ورآيه بها فالقوة الجذابة للعبقرية آخرجت قلبي عـن مداره الاعتيادي وتحول عباد الشمس من ناحية الجنوب الى ضوء صارخ هو غير ضوء الشمس انما ضوء مذنب آحمر مندفع يبدو حارا أمام النظر والاحساس • لقد شاهدت التمثيل قبل هذا ولكن لا كهذا التمثيل آبدا ، لا كهذا الذي يدهش الامل ويهدهد الرغبة ويخمدها ويبد الحافز ويوهن الادراك والذي بدلا من ان يزعج التصور بما ينبغي آن يتحقق بمرض الاعصاب ــ في الوقت عينه ــ لانه لم يتحقق ويبرز القوة ويبديهاللعيان كنهر الشتاء العميق الفائض الهادر في فيضانه يحمل الروح كورقة من الاوراق عبر اندفاعه الوعر صوب منحدره •

لقد وصفت الآنسة فانشاوي الدكتور بريتون على آنه رجل خطـير مشبوب العاطفة رزين جدا وحساس جدا ولم آجده في مثل هذا الوصف ولا يمكن آن يرميه المرء في مثل هذه النعوت ولم يكن موقفه الطبيعـي

twitter @baghdad_library

او حالته الطبيعية تنطوي على التأملية ولا على الوجدانية لقد كان مرتا وسريع التأثر · أنه رجل قادر على التفكير بشكل جيد زد على ذلك أنه رجل عمل اكثر من كونه رجل فكر · وله شعور أو احساس رائع في اعماله ولكن ليس في قلبه وتر للتعصب قط ·

وبالنسبة للمؤثرات الحلوة اللطيفة ترحب عيناه وشفتاه ترحيبا حلوا وما أجمل النظر اليه عندها كما لو أنك تعاين الاصباغ الوردية والفضية واللؤلؤية والارجوانية للغيوم الصيفية وليس له من تعاطف مع كل ما له صلة بالزوبعة من عنف وخطورة ومفاجاة واضطرام التوهجات والبروق· وعندما كانت تتاح لي الفرصة للرنو اليه كان يبهجني ويدورني عنه · انه لم يتفرج على « فاشتي » الملكة الشريرة لا باندهاش ولا بالتعبد و لابخوف انما لمجرد حب الاستطلاع الشديد · ان عذابها لم يؤلمه ولم تحرك بهساكنا تأوهاتها الاسوأ من الزعيق أما غضبها او عنفها فقد أثارته نوعا ما ولكن لا الى حد الاشمئزاز او الرعب ·

يا لك من شاب هادىء يا بريتون !! عند نظري الى وجهه اشتقت الى معرفة آرائه الحقيقية وأخيرا طرحت عليه سؤالا ابتغي به استنباطها واستيقظ على صوت كلماتي كما لو انه كان مستغرقا في نوم حالم ·· لقد كان يفكر بتقصد تام منهمكا في أفكاره الخاصة وسألته ما رأيه بفاشتي فأجابني « هم ؟؟؟ » وهو الجواب التعبيري المفصلي الاول ثم اخذت ابتسامته الغريبة تفيض على شفتيه وهي ابتسامة دقيقة حرجة وقاسية نوعا ما وفي رأيي انه في مثل هذه الاحوال تنم عواطفه عن الصراحة · وبعبارات قليلة أفصح عن رأيه واحساسه بالممثلة قائلا انها امرأة وليس فنانة ··

وعندما انتصف الليل واسودت المأساة العميقة الى حد مشهد الموت والكل حبسوا انفاسهم حتى غراهام عض على شفتيه السفلى وعقدحاجبيه وبدا الهدوء عليه وآثر الصدمة وحين عم السكون على كل الجالسين المتفرجين وتركزت الانظار على نقطة واحدة واصاخت كل الآذان السمع صوب جهة واحدة هي الشكل الابيض الممدود على مقعد وهي ترتجف من آثر مقاومتها آخر اعدائها ولا يسمع منها سوى الحشرجة وآلام الاحتضار

بعد ان استنزفت كل قواهـا في المقاومـة العنيدة وسفحت كل قطـرة من دمائها حتى جاء اوان الموت الذي يقول لـكل الاحاسيس ولـكل الآدميين « الى هذا الحد ولا حد بعده » ٠

وهنا حدث أمر مثير مترع بالنحس والشؤم وراء الكواليس وكنت ترى الناس يتراكضون والاصوات تتعالى بالتحذيرات فما الـذي جرى يا ترى ؟ هكذا كان المتفرجون يتساءلون وجاء الجواب ان شـرارة نار أوجدت دخان حريق ورن في الرواق صـوت ٠٠ النـار ـ النـار واعقب ذلك ـ بما لا يقوى القلم على وصفه ـ رعب مندفـع ومحطم وفوضى عمياء قاسية وانانية وفي تلك اللحظة شاهدت الدكتور جون على ما اتصف به من شجاعة وهدوء صميمي خالص ٠

وقال وهو يرنو الي بنفس الطيبة والدماثة المعروفة عنـه عنـد جلوسي الى جانبه وجانب أمه في البيت « على لوسي أن تستقر هـادئة في مكانها » هكذا ناشدني وجلست هادئة كمـا لو أنني جالسة على جرف مشرف على الانهيار وفي الحقيقة أن تلك كانت عادتي وهو التزام الهدوء في مثل هذه الظروف وعلى حساب حياتي نفسها عولت على البقاء فيمكاني وعدم الابتعاد عنه كي لا أسبب له القلق أو أعارض ارادته او احرجـه في تركيز اهتمامه وملاحظته في تلك الساعة الخطرة وكنا في أحد المقاعد الامامية وبعد بضع دقائق حل ضغط قاس وحرج مخيف جدا حولنا ٠

وقال جون « ما أخوف النساء وما اكثرهن رعبا ولو لم يكن بعض الرجال مثلهن تقريبا لامكن المحافظة على الامن ٠ هذا وضع مؤلم يوجد خمسون متوحشا انانيا في هذه اللحظة لو كنت قريبا من أي منهم للكمته واسقطته الارض ولكن بعض النساء هن أشجع من بعض الرجال وهنالك على مبعدة منا واحدة منهن ٠٠٠ يا الهي !! وعندما كان جـون يتحدث أسقط أحد هؤلاء المتوحشين فتاة شابة هادئة كانت متشبثة برجل أمامها فوقعت تحت اقدام الجمهور وبثانيتين تقريبـا اندفع غراهام الى امام وتعاون والرجل الذي كان معها وجاء الى التعاون معهما رجل قوي ثالث أبيض الشعر ووحدوا قواهم واصبحوا وراء الحشد من الناس وقدتدلى رأسها وشعرها الطويل على كتفه وربما اغمي عليها على ما كان يبدو من وضعها ذاك ٠

twitter @baghdad_library

وقال الدكتور جون آودعها لدي فانا طبيب « وكان جواب الرجل « ان لم يكن معك سيدة فليكن ذلك . امسك بها وآنا سانظم لك بالقـوة ممرا اذ ينبغي ايصالها الى العراء » وقال غراهام « لدي سيدة ولكنها لن تكون عائقا » واستدعاني بايماءة من عينه لاننا كنا متفرقين ولرغبتي في الوصول اليهم احتللت الحاجز وحاولت الزحف من تحته للوصول اليهم دون جدوى فصاح بي جون « تعالي وتشبثي بي ولا تغادرينا » فأطعته.

وظهرت قوة رائدنا وبراعته في شق صفوف الجمع المتكاتف كما لو كان وتدا أو اسفينا وبمثابرة وصبر وجهد وصلنـــا عبر صخرة اللحم ولدم القوية الحارة الخائفة ، الى العراء حيث نسيم الليل العليل البارد وقال له الرجل متسائلا بعد وصولنا الى الشارع « هل أنت انكليزي ؟ » فاجابه « أنا انكليزي وهل انا اتكلم مع مواطن ؟ » أجابه الرجل «حسنا.. تلطف وانتظرني دقيقتين ههنا حتى أجلب عربتي » وهنا تكلمت الفتاة « أبي .. ليس بي شيء مؤذ هل أنا اتكلم مع أبي ؟ » فأجابها جون «أنت مع صديق ووالدك قريب منا » وقالت له « أخبره أني بخـير ولم أصب بأذى باستثناء ذراعي .. آه . ذراعي !! انهم داسوا عليه » وقال لهـــا جون « ربما كان خلعا ولنأمل أن لا أذى أصاب منـــه موجودا .. تعالي يا لوسي واعطني يدا واحدة منك للحفلتين فقط » .

وقدمت العون بينما أخذ ينهمك في صنع الضمادات وما يلزم لاراحة الفتاة المعانية من الالم أنها عندما تمددت بين احضانه بهـــدوء وصبر كبتت آناتها وقال غراهام « انها خفيفة جدا خفـة الطفلة وآسر في أذني متسائلا « هل هي طفلة يا لوسي ؟ هل قدرت عمرهـــا ؟ » .. واجابت الفتاة المريضة معترضة باباء وشمم « لست طفلة .. آنا في السابعة عشرة من عمري » ثـم استطردت قائلة « استدعوا ابي ليـأتي فانني مشتاقة اليـه » .

وقدمت العربة وبقدومها أخذ الوالد ابنته من غراهام ليتركه ولكن الفتاة بنقلها من يد الى اخرى عاودها الالم وراحت تئن مرة اخرى وقال لها ابوها بحنان « عزيزتي ما بك ؟ » والتفت الى غراهام قائلا له « أنت قلت يا سيدي انك طبيب ؟ » واجابه جون « انا الدكتور بريتون » فقال له الرجل « حسنا .. ان عربتي هنا سآتي بها وارافقك » وقال له جـون

« تفضل واتبعنا » واعطى له عنوانه « فندق غريسي في شارع غريسي »·
وامضينا بعض الوقت في اعادة النظر باغراضنا ومـــا يعود الينا في داخل العربة ووصلنا الفندق بعد الرجل وابنته بعشر دقائق وكان فندقا اجنبي الشكل والتصميم وليس خانا بنايته ضخمة وعاليـة وواسعة وبه قوس الدخول عند باب الشارع يؤدي الى طريق مقنطر ومغطى الى ساحـة مربعة الشكل تحوي كلها ابنية ·

ونزلنا من العربة وصعدنا سلما بديعا عاما ووقفنا عند الرقم (٢) في منبسط الدرج للطابق الاول الذي يشتمل على مقر الامير الروسي كمـــا أسماه لي غراهام وضغطنا على جرس البـاب الثاني الـــكبير ودخلنا الى مجموعة اجنحةرائعة جداوقادنا خادم يرتدي زيا مميزا الى قاعة الاستقبال تتوهج موائدها الانكليزية بالنيران وتتوهج حيطانهـــا بمرايا اجنبية · وبالقرب من الموقد مجموعة صغيرة من النزلاء غاطسين في كراسي الاتكاء العميقة ذات الذراعين ·

ورمقنا الرجل ذو الشعر الرمادي ـ الحديدي بنظـــرة غير مريحة وكـــانت هنالك امراتان منهمكتـــان قالت احداهما بصوت خـافت « أين هريت ؟ أريد أن تأتي هريت الي » وقال الرجل الـذي أبدى تبرمه من الخادم الذي سمح لنا بالدخول بنظرته الحادة المصوبة اليه « أين السيدة هريت ؟ أريد أن تأتي هريت الي » وقال الرجـل الذي أبـدى تبرمه من فقد منحتها سيدتي الشابة أجازة حتى يوم غد » وتدخلت السيدة الشابة قائلة « نعم أنا منحتها الاجازة لانها تريد زيارة شقيقتها · وانا آسفةجدا لذلك لان الخادمتين مانون ولويزون لاتفهمان كلمة واحدة مما أقوله وأنا متبرمة بهما » ·

وتبادل جون والسيد الان كلمات الترحيب وبعـــد ان امضينا تسع دقائق في المحادثة ، دنوت من الكرسي المريح وكنت أنجز للفتاة الممدة على الكرسي التي كان قد أغمى عليها كل ما قدرت على انجازه وحـــين كنت منهمكة في عملي تقرب مني جون وكانت براعته في الجراحة لا تقل عـــن براعته في مجالات الطب الاخرى وبعد ان فحصها وجد أن لا شيء اكثـر مما اكتشفه فيها ولا توصية أكثر من توصيته التي كانت ضرورية لحالتها وأمر بحملها الى غرفته ثم همس في أذني قائلا :

twitter @baghdad_library

« اذهبي يا لوسي مع النسوة فهن على ما يبدو عليهن بليدات وبوسعك ـ في أقل تقدير ـ أن توجهي حركاتهن فتوفرين لهذه المريضة بعض الآلام التي هي في غنى عنها اذ ينبغي ان تلمس بلطف تام ورقة تامة ·
وكان في القاعة غرفة ظليلة وستارة تعليق للزينة ذات لون ازرق باهت وستائر وانسجة شفافة من الموصلين ـ وبدا لي الفراش كثلج ذرته الرياح ، بدا نظيفا ناعما وضبابيا وأوقفت النسوة على حدة ونزعت ملابس المريضة دون أن اسمح لهن بالتدخل او ابداء العون لانهن لسن أهلا لذلك ·

وكانت الفتاة نفسها جميلة ولطيفة فلففت شعرها الكث الرائع الملتمع الناعم ووقع نظري على وجهها الفتي الشاحب التعب وكان جبينها صقيلا لامعا ورموش عينيها متميزة وناعمة وعيناها هبة غنية من الطبيعة جميلة وكاملة الحجم وعميقة الغور متسيدة على الملامح الاخرى قابلة لان تصبح معبرة اكثر في ساعة اخرى وفي ظروف اخرى غير هذا الظرف حيث انها الآن تعاني وتتعذب ·

لقد كان جسمها كامل الجمال فالعنق واليدان ممرقة ومجزعة بشكل رائق وبديع كتويجيات الزهور وان الطبقة الملساء الزلقة من جليد كبريائها صقل هيكلها الخارجي البديع ، وشفتها تحمل تقوسا لو انني شاهدته قبل حادث مرضها لصعقني بشكل لا مبرر له · لقد كانت حالتها بين يدي الطبيب في اول الامر تستثير الضحك دون أن تكون صبيانية · لقد كانت مريضة قوية وراسخة ولكنها خاطبته مرة أو مرتين بشكل مفاجيء وبحدة قائلة له أنه آذاها وينبغي أن يجد وسيلة لتخفيف الالم ·

ووجدت عينيها الواسعتين الكبيرتين تستقران على وجهه كما لو أنها عينا طفل جميل منشده ومستغرب ولا ادري ما اذا كان غراهام قد لاحظ ذلك فيها واذا كان قد لاحظ ذلك فانه لابد انه احترس وابدى جانب الحذر في عدم صدها او مقابلتها بأية نظرة انتقامية وفي رأيي أنه أنجز واجبه بمنتهى الاهتمام واللطف وعمل جهد امكانه لتخفيف الالم عنها وعبرت عن شكرها له كثيرا بعد ان اكمل واجبه بقولها هذا « شكرا أيها الدكتور وليلتك سعيدة » وعندما تفوهت بذلك ارفقت كلماتها بنظرات مباشرة واضحة في جديتها ونواياها ·

وظهر أن الاذى لم يكن خطيرا واطمئن والدها من ذلك ابتسامة سعيدة فيها كل معاني السرور والامتنان توحي للمقابل بأنه يحاول مصادقته وفعلا عبر عن تشكراته وتمنياته للدكتور ورجاه ان يزوره في اليوم التالي وقالت الفتاة مخاطبة اباها « يا أبي اشكر السيدة ايضا هل هي هناك ؟ » وفتحت الستارة بابتسامة ورنوت اليها وهي نائمة نوما مريحا نسبيا ، واذا كانت في باديء الامر قد تراءت لي بانها متكبرة الا أنني موقنة بأن الاعراف قد برهنت على أنها وديعة ايضا ٠

وقال والدها « أشكر السيدة من صميم قلبي فانها كانت همامة مع ابنتي ولا نتجرأ على أن نقول للسيدة هرست من كان لها بديلا ومن أنجز عملها مشكورا لانها ربما احست بالخجل والغيرة وقدمت لنا المشروبات المنعشة بروح مضيافة ولكننا اعتذرنا وانسحبنا من فندق فريسي ٠ وفي طريق رجوعنا مررنا بالمسرح الذي عمه الصمت والظلام بعد ان غادرته الجموع الهادرة حتى المصابيح كانت قد اطفئت مع نيران المواقد وفي صبيحة اليوم التالي صدرت الجرائد وفيها خبر عن الموضوع جاء فيه أن شرارة نار سقطت على قطعة قماش مدلاة فالتهبت واخمدت بلحظات ٠

twitter @baghdad_library

الفصل الرابع والعشرون

ـ المسيو دي باسومبير ـ

آن اولئك الذين يعيشون متقاعدين من الذين سقطت ارواحهم وسط المدارس المنعزلة او غيرها من الدور المحروسة او المسورة يكونون عرضة لان تتناساهم ذاكرات اصدقائهم في الحال او بعد مدة طويلة وذاكرات سكان العالم الحر ومما لا يمكن تفسيره ـ على سبيل الاحتمال ـ انه في بعض مجالات الاتصال المتواتر يحدث توقف مؤقت وسكوت لا كلام يتخلله ونسيان عقيم يتخلله فراغ طويل الامد لا يمكن توضيحه تنقطع فيه الرسائل والاخبار وتنقطع الزيارات التي كانت متواترة في السابق وتنقطع كل التذكارات التي تشير الى الذكريات :

وتوجد دائما اسباب لها ما يبررها لهذه الارتدادات او الانحرافات اذا عرف بها فقط الناسك المنعزل ومع انه معتكف في صومعته فان علاقاته بدونها تدور في دوامة الحياة ذاتها وتلك الفترة الفارغة التي تمر به مرا بطيئا بحيث يبدو من بطئها كما لو أن اقراص الساعات تتوقف عن الدورات والساعات غير المجنحة التي تتهادى بجانبه على شاكلة دوسات اقدام اخذ التعب مأخذه منها تميل الى الاستراحة عند معالم الطريق وصواه وتلك الفترة ذاتها ربما كانت عاجة بالاحداث والركض اللاهث من اجل التحري عن الاصدقاء ·

وهذا الناسك ـ لو كان ناسكا ذكيا راشدا ـ لابتلع أفكاره الخاصة وأغلق باب عواطفه خلال اسابيع شتائه الداخلي عالما بأن القدر عينه ليقلد السنجاب أو ما يشبهه من القوارض في بعض المناسبات ومتمتعا براحة التكيف جاعلا من نفسه كرة منتفخة يدخل بواسطتها ثقب حائط الحياة ويخضع خضوعا محتشما لائقا لتيارات الهواء الذارية التي تهب صوب الداخل فتقيه وتحميه في فصل الثلوج ·

twitter @baghdad_library

وليقل « هـذا حسن ومريح » وينبغي أن يكون الامر هكذا وربما سينتفتح يوما ما قبره الثلجي ويعود الربيع الرائع الطلق وتصله الريح الجنوبية واشعة الشمس وستدعوه براعم أوراد سياج الشجيرات وترانيم الطيور واغاني الجداول المتحررة الى نشر او انبعاث ملائم • ربما يكون هذا الذي سيحدث وربما لا يكون غير ان الجليد قد يصل الى فؤاده ولـن يذوب مرة اخرى • وعند عودة الربيع قد يأتي الغراب او العقعق فـلا يخرج من الحائطين سوى عظام السنجاب والمفروض أن يكون هو على علم منذ البداية بانه خالد وفي يوم ما يسلك طريق اللحم الانساني •

بعد امسية المسرح الزاخرة بالاحداث امضيت سبعة اسابيع جرداء كسبع صفحات من الورق الابيض فما من كلمة ارسلت الي ولا زيارة ولا أثر يذكرني ووسط ذلك الوقت وردت الى خاطري فكرة احتمال حدوث شيء او مكروه بصديقي في البيت المسمى بالشرفة ،ووسط الفراغ توجد دائما نقطة مظلمة غامضة للوحيد الـذي تتألم اعصابه بعنت التوقـع الطويل ووطأته الشديدة واخذت الشكوك المنبوذة تتجمع الآن وتتكتـل بقوة تجمعها لتعود وتهوى عليه بقوة كقوة الانتقام •

واستحال الليل أيضا وقتا لا عطف فيـه ولا رحمة واضحى الليل وقتا موحشا ولا يلتقي النوم وطبيعته فالبدايات الغريبـة والنضـالات الغريبة تقض مضجعه ومجموعة الاحلام المزعجة المتصفـة برعب الكارثة والغشية المريضة من حدوث الهجرة التامة تجمعت كلها على رأسه ويا له من مسكين تعس فهو يحاول أن يتحمل ويثبت ويقاوم بيـد أنه مسكين شاحب الوجه وتعس ضائع رغم كل شيء •

وعند نهاية تلك الأسابيع السبعة الطويلة اعترفت ـ بما استثنيته خلال الاسابيع الستة الاخرى بدافع الغيرة ـ بحقيقة الاعتقاد بأن هـذه الفراغات كانت أمرا محتوما لا مفر منه وحصيلة ظـروف ومن املاءات القدر وجزءا من نصيبي في الحياة ـ وفوق كل ذلك ـ امرا لا ينبغي ان يوجه أي سؤال عن سببه ولا التعبير عن التذمر بصدده قط •

وبطبيعة الحال لم الم نفسي لهذه المعاناة التي داخلتني واشكر الباري عزوجل أن حظيت منه باحساس عـادل بـدلا من الوقوع في التهـور أو

التطرف الابله من اتهام الذات وفيما يخص اتهـــام الآخرين عـن ذلك الصمت ففي رأيي انني على علم من أن ليس لهم ذنب في الموضوع يلامون عليه وفي سري اعترفت لهم بذلك ولكنه كـــان طريق سفر وعر وشاق ولذلك أخذت اشتاق الى أيام افضل ٠

وجربت مختلف الوسائل لاساند وجودي وأغذيه واملأه فشعرت في القيام بأعمال التخريم ودراسة اللغة الالمانية دراسة شاقة وبدأت في دورة قراءة منظمة قرأت بها أقدم وأثخن الكتب الموجودة في المكتبة ٠ وفي كـل مجهوداتي كنت راشدة وقويمـة في آرائي الذاتية وفي كيفية التصرف وسألت نفسي ٠٠ ترى ؟ هل وقع مني خطأ ما في مكان ما ؟٠ يحتمل أن يكون قد بدر مني شيء من هذا القبيل ولا أعلم سوى أن النتيجة كانت كما لو انني قضمت ما لا يؤكل لسد الجوع أو قربت الماء المالح لاطفاء العطش ٠

ان ساعة عذابي كانت ساعة مجيء البريد وكنت أعرف ذلك معرفة جيدة غير أنني رحت أخدع نفسي ـ عابثة ـ بصدد هذه المعرفة مخيفـة آلام التوقع والترقب المبرحة والانهيار المريض لخيبة الامل التي تتقدم يوميا تقدما سباقا ملاحقة تلك الدائرة المعترف بها اعترافا جيدا ٠٠ان الحيوانات توضع في أقفاص ولا تطعم الا قليلا وتكون دائما على شفـــا المجاعة تنتظر طعامها بمثل ما انتظر أنا رسالتي ٠ آواه ٠٠ لـكي أتكلم الحقيقة وأتخلى عن أسلوب الهدوء الزائف الذي يتوق للبقاء طويلا فوق ما تتحمله الطبيعة أقول أنني عانيت في تلكم الاسابيع السبعة ما عانيت من المخاوف والاوجاع المرة والمحن الخفية الغريبة وقـــلة الامل وبؤسه وهجمات القنوط التي لا تحتمل والتي كانت تقترب مني أحيـانا بحيث أتحسس بأنفاسها ، تلك الانفاس التي رحت أحس بجوها المشؤوم كمـا لو أنها تنهدات ، كانت تتغلغل في اعماقي وتوقف الحركة بجـوار قلبي أو لا تنطلق الا تحت غم وكدر لا مثيل لهما ٠٠ الرســالة ٠٠ الرســالة الحبيبة لن تأتي الرســالة التي كان مجرد النظر اليهـا يعتبر حـــلاوة ما بعـــدها حـــلاوة ٠

وفي غمرة حاجتي الملحـة الشديدة ، عـدت المرة تلو المرة الى العلبة الصغيرة الموجودة في صندوقي حيث رسائله الخمسة وما أبدع ذلك الشهر الذي شهدت اجواؤه تصاعد تلك الانجم الخمسة !! فقد كان الوقت ليلا

twitter @baghdad_library

عندما زرتها وبغية عدم قيامي بمغامرة طلب شمعة في كل مساء من المطبخ اشتريت فتيلا مكسوا بالشمع واعواد الثقاب لاشعالها وفي ساعة الدراسة كنت أذهب الى حجرة النوم ولا أكسل سوى كسرات خبز لم تكن تغذيني طبعا فهزلت واصبحت كالخيال دون أن أمرض .

وكنت في ذات مساء أقرأ واذا بي احس أن لا قدرة لي على القراءة وان قرائتي للرسائل فقدت أهميتها السابقة وتمزقت آمالي مزقا أمام عيني وشعرت بأسف وحزن لتحرري من الوهم وعلى حين غرة سمعت وقع أقدام سريعة تصعد الى فوق جريا وعرفت أنها وقع اقدام جنيفرا فانشاوي فقد تناولت طعامها في المدينة في تلك الظهيرة والآن عادت وجاءت هنا لكي تستبدل شالها وغير شالها من خزينة الثياب . نعم دخلت جنيفرا وهي مرتدية ملابس من الحرير البراق وقد وقع شالها من على كتفيها وضفائر شعرها نصف المحلولة وسط رطوبة الليل كانت مدلاة دون اهتمام على عنقها وبالكاد وجدت الوقت لاعادة كنوزي الى علبتها واقفالها عندماكانت هي بجانبي وبان على محياها أنها لم تكن على ما يرام وأنها مستاءة ومعكرة المزاج .

وبدأت حديثها معي قائلة « لقد كانت أمسية عابثة سخيفة والناس كانوا سخفاء » وقلت لها « من ؟ السيدة كولونديلي ؟ أظن انك اعتبرتها دائما من نساء البيت الساحرات » فقالت لي « لم أكن في بيت السيدة كولونديلي » وقلت لها « هل هذا صحيح يظهر انك تعرفت باناس جدد » فقالت لي « لقد جاء عمي باسومبيير » وقلت لها « عمك باسومبيير ؟ ألست سعيدة لذلك ؟ أظن أنه كان المفضل لديك » .

وقالت لي جنيفرا « أنت ذاهبة في طريق الخطأ فالوجل مكروه وأنا اجتويه وامقته » وقلت لها « هل لانه أجنبي ؟ والا لماذا ؟ » وقالت لي « ليس بالاجنبي فالرجل انكليزي محض وكان له اسم انكليزي الى ما قبل ثلاثة أو اربعة اعوام ولكن امه هي الاجنبية واسمها دي باسومبيير التي توفى بعض افراد عائلتها وخلفوا له عقارات ولقبا واسمه هذا وأنه رجل مرموق في الوقت الحاضر » وقلت له « هل تكرهينه لهذا السبب ؟ »

واجابتني « هل تتصورين ما قالت أمي عنه ؟ أنه ليس عمي انما

تزوج اختها وأمي تمقته مقتا شديدا وتقول أنه قتل العمة جنيفرا بقسوة وشكله شكل دب » واستطردت تقول « ما أسوأ تلك الامسية لن أذهب بعد الآن الى فندقه الكبير · تصوريه في روحاته وندواته في أرض الغرفة وحيدا وعمره خمسون عاما وبعد ان يحادث أحدا بضع دقائق يوليه ظهره ثم يخرج من الغرفة فجأة بمثل تلك الشاكلة الغريبة وبوسعي أن اقول أن ضميره يخشاه · ويقول الجميع أنا صورة شبيهة بالعمة جنيفرا وماما تقول ان الشبه بيننا يثير والاستغراب » وقلت لها « هل كنت الزائرة الوحيدة ؟ » ·

واجابتني جنيفرا « الزائرة الوحيدة ؟ ·· نعم ولكن ميسي ابنة عمي كنت هنالك وقد أفسدها التدليل » وسألتها « هل لدى باسومبيير بنت ؟ » وقالت لي « نعم ·· نعم ·· لا تزعجيني بالاسئلة يا عزيزتي فانا تعبة » ثم تثاءبت والقت بنفسها على فراسي بلا كياسة وقالت » أظن أن الفتاة أغمي عليها وكانت على وشك أن تهلكها أقدام الناس في هرج ومرج حدث في المسرح قبل بضعة أسابيع » ·

وقلت لها « نعم وهي تعيش مع والدها في فندق كبير في شارع غريسي » وقالت لي « هل هذا صحيح ؟ وكيف عرفت ! » فقلت لها «كنت هناك » وقالت لي « هل كنت هناك حقا ؟ · أنت تذهبين الى كل الاماكن في هذه الايام وأظن ان الوالدة بريتون تأخذك معها ، انها وابنها زارا طابق دي باسومبيير وأظن (ولدي جون) سهر على ميسي بمناسبة الحادث الذي وقع لها ·· حادث ؟؟ عجبا ·· لقد كان تظاهرا وتصنعا لا غير ولا اظن أن سقوطها آذاها الى تلك الدرجة والآن حدثت بينهما ألفة ومودة وسمعت عنهما بعض الاشياء وما اكبر حمقتهما !! » ·

وقلت لها وأنا شبه متلعثمة « قلت أنك كنت الزائرة الوحيدة ؟ » وأجابتني « هل قلت ذلك ؟ ان المرء ينسى احيانا ان يعين أو يخصص ذكر امرأة مسنة وولدها » وسألتها « هل قلت أن الدكتور بريتون والسيدة والدته كانا في مسكن المسيو دي باسومبيير في ذلك المساء ؟ » فأجابتني « نعم ·· نعم وكانت (ميسي) تقوم بدور المضيفة ، يالها من دمية معتزة بنفسها » وبدأت الآنسة فانشاوي تنشي أسباب ما اصابها من غلبة بشكل شكس وبتجهم وبفتور الهمة ولكن بسخط شديد وقلة احترام » ·

twitter @baghdad_library

لقد انتهى غنجها ودلالها وكبرياؤها وزال تأثيرها وأبهتها وخيلاؤها ثم رمت بنفسها على الفراش مستشيطة غيظا وسألتها « هل الانسة ميسي دي باسومبيير استعادت صحتها الآن ؟ » فقالت لي « استعادت صحتها ؟؟ انها بلا ريب مثلك ومثلي لا تشكو من شيء وهي الآن فتاة صغيرة مولعة ومدلعة تظاهرت بمظهر المريضة لتستلفت أنظار الدكتور وتكسب عطفه وكنت ترين تلك الارملة العجوز تمددها على الاريكة (وولدي جون) يمنع الضجيج والمهيجات من حولها وخرجت من فيها امارات الازدراء وقالت « لقد كان المنظر ممرضا تاما » .

وقلت لها « ما كان ذلك ليحصل لو أنك أخذت مكان الآنسة دي باسومبيير ! » وقالت لي « أحقا ما تقولين .. أنني أكره (ولدي جون) وقلت لها « من تعنين بعبارة ولدي جون ؟ » هل تعنين الدكتور جون ؟ حتى أمه لا تسميه بهذه التسمية ! » واجابت « عليها أن تسميه كذلك فليس هو سوى جلف واحمق ومن فصيلة الدببة » .

وقلت لها « أنت تجانفين الحقيقة بقولك عنه هكذا ولأن صبري قد نفد أريد منك بشكل قاطع أن تنهضي من هذا الفراش وتغادرين هذه الغرفة » وقالت « يا للغرابة .. لقد اتخذ وجهك لون الخشخاش الاحمر ولا ادري ما الذي يحدو بك دائما الى أن تستحيلي نزقة شديدة الغضب كلما ذكر اسم جون « العظيم » !!

وأثارني الغضب الشديد وخشيت أن ارتكب حماقة صب جامه على تلك العشرة الحقيرة فأطفأت الفتيل المشمع واغلقت المنضدة التي أكتب عليها وتركتها طالما أنها لم تغادر أما هي فقد استحالت ذات وجه أحمر مزرورق وكان صباح اليوم التالي الخميس وهو نصف عطلة وانتهى تناول الفطور وقصدت الصف الاول ودنا ميعاد الساعة المزعجة ساعة وصول البريد فجلست انتظر كالصياد الذي ينتظر طريدته . هل سترد الرسالة المنتظرة الي ومع انني كنت مجهدة النفس لم أنس أن ذلك أمر ممكن أو محتمل .

وبعد لحظات من الهدوء هاجمني الخوف والقلق بشكل فظيع .لقد كان ذلك اليوم شتائيا تهب فيه الريح الشرقية وأنا منذ مدة ـ ولاأزال ـ

رفيقة حزينة للرياح وتبدلاتها • وكان للرياح الشمالية والشرقية تأثير مرعب على ذوي الاجسام الضعيفة فهي تزيد آلامهم وتضاعف احزانهم ويمكن أن تهدأ الريح الجنوبية أما الريح الغربية فهي احيانا عليلة ومبهجة مالم تأت معها على جناحيها بعبء الغيوم المبرقة وهي الحالة التي تميت كل طاقة أو قوة في الانسان •

ذلك اليوم يوم كانون الثاني كان قارسا ومظلما وتذكرت أنني غادرت الصف راكضة بلا قلنسوة الى عمق الحديقة الطويلة وتريثت بين الشجيرات المجردة عن أوراقها على أمل يائس بأن رجل البريد قد يقرع الجرس لاسمعه من مكاني لتعذر سماعه في الصف ولتجنب وطأته الشديدة على الاعصاب التي تنخرها أنياب فكرة مركزة نخرا مستديما •

ومكثت في مكاني بقدر ما وهبته الجرأة لي دون أن أخشى لفت الانظار بصدد غيابي ولففت رأسي بغطاء واق من المطر وأرهفت سمعي وأنا اترقب بقلق وعذاب شديدين رنين الجرس المرتقب الذي لابد أن تعقبه فترة سكون • كانت كالدائرة المفرغة بالنسبة لي وأخيرا عدت الى الصف قبلها •

وأول ما وقع نظري عليه كان شيئا أبيض منبسطا على منضدتي السوداء لقد كان ساعي البريد قد جاء دون أن اشعر بمجيئه وقصدت روزين غرفتي فلم ترني فيها وكانت قد أخبأت وراء ظهرها ذلك التذكار الجميل اللامع على منضدتي الا وهي الرسالة المنتظرة بحق وحقيق وكان هنالك الكثير مما شاهدته دون أن أعيه اذ كان فكري مركزا على مرسل واحد في العالم ولابد ان الرسالة كانت منه فما أعمق واخلص نبضات الشكر وعرفان الجميل التي بعثت بالحياة الجديدة الى قلبي مرة أخرى •

وتقربت اكثر ونظرت الى الرسالة وأنا في حالة اضطراب ولكنني على يقين من أمل مشاهدة اليد التي كتبت العنوان وكان حظي أن شاهدت ـ على النقيض مما توقعت ـ خط يد أنثى مجهولة وخربشتها الباهتة وليس خط يد ذكر واضح وراسخ واخذت اتحسس بأن القدر يقسو علي كثيرا وقلت بشكل يمكن سماعه « هذه قسوة » • ولكنني استطعت التغلب على ذلك الالم أيضا فالحياة لا تزال هي هي مهما كانت آلامها وغصصها

twitter @baghdad_library

في الحلوق • ان عيوننا وآذاننا وما فيها من فوائد لا تزال معنا وانكانت توقعات وتطلعات ما يسر النفوس قد زالت واصوات التعزية والسلوى قد صمتت • وفتحت الرسالة وفي ذلك الوقت عرفت خط يد الكاتبة لانه كان مألوفا لدي تماما وقد دون التاريخ على عنوان الشرفة وجاء في الرسالة ما يلي :

عزيزتي لوسي :

بودي أن اعرف منك ما فعلتيه طيلة الشهر او الشهرين الماضية فما أراني مرتابة في قدرتك على القيام بأعمالك بأقل صعوبة ولكنني أجرأ على القول بأنك كنت منشغلة بها وبأنك كنت طيلة هذه المدة سعيدة كسعادتنا هنا في البيت وبالنسبة لغراهام فان روابطه وصلاته المهنية تتسع يوما بعد يوم فهو مطلوب من قبل مرضى كثيرين ومنشغل كثيرا وقلت له ان غروره بذلك سيتزايد وأطلب منه كوالدة صالحة أن يظل متواضعا ولا يجد مني أي اطراء او تمليق فانت عارفة بذلك •

ومع ذلك كله يا لوسي لا يزال شخصا رائعا وقلب امه يتراقص فرحا كلما وقع نظرها عليه ورغم هروعه في الذهاب الى هنا وهناك طيلة النهار ورغم قيامه بواجباته حيال خمسين مريضا من ذوي أطباع وامراض متباينة ومقارعته مختلف انواع النزوات ومعاينته في بعض الاحيان حالات معاناة قاسية يبتلى بها فهو يأتي الى الدار ليلا وهو في حالة مرح وطيبة وعطف وتريننني على هذا الاساس أعيش وسط انواع من التناقضات المعنوية وفي خلال هذه الامسيات ، أمسيات شهر كانون الثاني يشرق يومي في حين أن ليالي الآخرين تغرب •

ولا يزال بحاجة الى أن ينظم نفسه ويصحح اخطاءه ويكبت ويكظم وأقدم له أنا الخدمة اللازمة في هذا الصدد ولكن هذا الولد فيه مرونة تملص ولا يوجد شيء يربكه او يغيظه أو يثيره وعندما اوصله احيانا الى حالة من الغضب والاثارة ينتقم مني بنكاته ، بيد أنك تعرفينه جيدا وتعرفين كل ماضيه وما أنا سوى امرأة مسنة اكثر سذاجة من أن اجعله موضوع نصائحي ووسوظي •

وفيما يخصني زارتني واحدة من أعضاء عائلة بريتون القدامى وهي

متهكمة وغرقى حتى آذنيها بالعمل المنزلي واريد بذلك أن يعرف غراهام شيئا مما خلفه والده ويضحك علي لاهتمامي الزائد بهذه النقطة وينظر الي نظرة التباهي فيما اوجده لنفسه ولي ايضا بحيث قال لي متسائلا ماهو الشيء الذي تريده المرأة المسنة ولم يؤت به الينا ملمحا عن القبعات النسوية ذات الزرقة السماوية ومتهما اياي بألطموح نلبس اللآليء والجواهر واقتناء الخدم من ذوي البزات الرسمية الخاصة بهم وامتلاك فندق والتباهي أمام الجماعات الانكليزية الموجودة في « فيليت » ·

وعن القبعات النسوية ذات الزرقة السماوية كنت أود أن تكوني في تلك الامسية معنا فقد جاء جون متعبا جدا وبعد ان قدمت له الشاي جلس على مقعدي بوقاحته المعهودة ولسروري العظيم اخذته سنة النوم وأنت تعرفين كيف يكايدني عندما أكون ناعسة في سبيلي الى النوم يعيبني أنا التي لم يحدث أن نمت في النهار أو أغمضت جفني اطلاقا · وبينما كان نائما وجدته جميلا جدا يا لوسي ·

انا حمقاء اذ أفخر به ولكن من يستطيع ألا يفعل ذلك ، اريني مثيلا له · أينما أمش في « فيليت » لا أجد نظيرا له · أردت أن أرتب عليه حيلة فجئت بالقبعة النسوية بمنتهى الحذر كي لا يستفيق من نومه لاغطي بها حاجبيه ولكنني وجدت أنها لا تناسبه فقد ظهر لي كما لو أنه من الشرق باستثناء جماله ولا يقوى أي واحد بعد الآن ان يقول أن شعره أحمر فهو ذو لون كستنائي يشبه كستناءة صقيلة داكنة وعندما أضفي عليه « كشميري » اشبهه بالبيك الشاب أو بالباشا الذي يتمنى كل واحد ان يشاهده ·

وكانت تسلية جيدة لي ولكن لم اتمتع بهاكل التمتع اذ كنت وحيدة وكم تمنيت أن تكوني هنا · وعندما نهض حبيبي في الوقت المعين وجد في المرآة أنه في ورطة والآن وقعت تحت تهديد انتقامه وفي نهاية رسالتي أدركت أن اليوم هو يوم الخميس الذي يعتبر نصف عطلة في « فوسيت » ولذلك استعدي في الساعة الخامسة من بعد الظهر لانني حينذاك سأرسل اليك عربة تأخذك الى البيت · ينبغي أن تأتي على وجه التأكيد وقد تلتقين بواحدة من عارفاتك القديمات · وداعا يا عزيزتي العاقلة الحكيمة يا ابنتي الموقرة بالمعمودية ·

المخلصة لك لويزا بريتون

twitter @baghdad_library

ان رسالة كهذه تعيد للمرء نشاطه ومع ذلك كـــان ينبغي أن أظـل حزينة بعد قراءتها ولكنني كنت رابطة الجأش اكثر وربما غير مبتهجة تمام الابتهاج انما مرتاحة كمن فرج عنـــه ذلك ان اصدقائي بصحة جيـــدة وسعداء وغراهام سالم من كل مكروه وأمه غير مريضة وســالمة من كـــل مكروه وكنت أضرب أخماسا بأسداس بصددها وشعورها نحوي كان هو هو لم يتبدل ٠

ولكن الغريب في الامر أن ينظـر المـــرء الى اسابيع السيدة بريتون السبعة ويقارنها بأسابيعي السبعة ثم ما أرشد الناس الذين تحف بهـــم حالة استثنائية ويمسكون لسانهم عن الكلام فلا يقولون أن حالتهم هـــذه تفت في عضدهم ٠ ويستطيع العالم أن يدرك جيدا عملية الموت جوعا ولكن ربما لا يتابع الا عدد قليل من الناس كيف يكاد البعض يجن من مزعجات الوحدة والانعزال ٠

انهم يعتبرون السجين المدفون منذ أمد طويل كما لو انه خرج من القبر مجنونا او غبيا ويتساءلون كيف تخلوا عن احاسيسهم وكيف عانت اعصابهم الملتهبة ثورانا في اول الامر وعانت العذاب الـذي لا يوصف ثم ينتقلون الى حالة الشلل الارتجافي ٠ انه موضوع بالغ التعقيد اذا وضـع تحت مشرحة البحث والنقاش وعويصا جدا بالنسبة للمفهوم العام ٠

لقد أعقب برد الصباح الشديد في اواخر اليوم تنفسا صعبا وحـادا من القفار الثلجية المترامية لروسيا ، فالمنطقة الباردة تنهدت شوقا لمنطقة معتدلة وجمدتها بسرعة والقبة الزرقاء الغائمـــة المكثفة بالثلج أخـذت ترحل من الشمال لتستقر فـــوق اوربا المترقبة وفي حوالي وقت الظهـر بدأت بالنزول وخفت الا تقـوى العربة عـلى المجيء لان العاصفة البيضاء ثارت ثورانا شديدا من حيث الكثافة والجموح بيد انني كنت واثقة مـن عرابتي فانها أن ارادت ضيفا فلابد ان تحصل عليـــه وتلقاه وفي حوالي الساعة السادسة نزلت من العربة ودخلت البيت الريفي الفخم « الشرفة »٠

ورحت من المجاز راكضة صوب الطابق الاعلى ومنه الى غرفة الاستقبال حيث وجدت السيدة بريتون وعلى محياها اشراقة يـــوم الصيف ولو كنت مستبردة اكثر من استبرادي بضعفـين لعملت قبلاتهـا الرقيقة الكريمـة

واحتضانها الودي اياي على تدفئتي وكنت مشوقة منذ مدة حتى الى اللوائح والموائد والمناضد السوداء والرحلات والوجاق والصالون الازرق الذي بدا أمامي كبيرا جدا ووجدت في نار الموقد الشبيه بنار عيد الميلاد بهاء قرمزيا أذهلني تماما ٠

وعندما أمسكت عرابتي بيدي برهة وراحت تتحادث معي وتلومني لانني هزلت اكثر مما كنت عندهم في آخر مرة لاحظت بأن الريح الثلجية عملت على تطيير شعرات شعري فارسلتني الى فوق لتنظيمه ونزع شالي ٠ وفي غرفتي الصغيرة الخاصة ذات اللون السحري الاخضر المزرورق وجدت نارا موقدة وشموعا مشعولة ولكن ظهر بين الشموع وأمام المرآة شيء فيه روعة حكايات الجن شيء ابيض صغير ٠٠ روح شتوية !!

اقول انني في أول لحظة ظننت أنه الدكتور غراهام وصوره الطينية الخادعة وبعين التشكك لاحظت تفاصيل تلك الصورة الجديدة ٠ كانت ملابسها بيضاء موشاة بنقط حمراء قرمزية وكان الطوق أحمر ولاحظت اكليلا صغيرا وشيئا صقيلا أخضر وسواء كان طَيفا أم لا فما من شيء كان يخيف فيه فتقدمت الى أمام وما أن التفت بسرعة حتى لاحظت عينا واسعة من تحت أهداب سود طويلة نعمها التزجيج :

وقالت لي باندهاش وصوت هادىء رقيقوهي تبتسم لي بأناة وترنو الي بقصد « أتيت ٠٠ ها ؟ » وسرعان ما عرفتها الآن اذ لم أر هذا الوجه الا مرة واحدة وقلت « الآنسة دي باسومبيير » وجاء الجواب « كلا ٠٠ لست أنا الآنسة باسومبيير » ولم اسالها من أنت انما انتظرت لتأتيني منها معلومات طوعية وقالت لي وهي تدنو مني اكثر » لقد تبدلت ولكنك لا تزالين أنت أنني اتذكرك جيدا فمحياك ولون شعرك وشكل وجهك هي هي » وتقدمت صوب الموقد ووقفت هي قبالتي ورنت الي وأصبح وجهها بعد الرنو معبرا اكثر فاكثر عن الفكر والاحساس الى أن ساد الاعتام على محياها وقالت لي :

« كلما تذكرت الماضي أهم بالبكاء لا لانني حزينة او حساسة فالامر معكوس تماما لانني فرحة وسعيدة تماما » واخذت اهتم وان كنت على ما يبدو واقعة في خطأ ولم ادر ماذا اقول واخيرا تمتمت قائلة « اظن انني لم التق بك الا تلك الليلة قبل بضعة اسابيع عندما كنت مصابة بأذى »

twitter @baghdad_library

وابتسمت لي قائلة « اذن نسيت كم جلست على ركبتيك وانك كنت ترفعيني وتحضنيني حتى انني كنت أنام معك ورأسي على وسادتك ولم تعودي تذكرين الليلة التي اخذت أبكي بها واصرخ كطفلة شريرة من اجل أن اكون بجانبك في الفراش واخذتيني بين ذراعيك وآنستيني معك واخذت تهدهديني وتخففين من كربي ألا تذكرين بريتون والمستر هوم ؟ » وأجبتها « اخيرا عرفت تماما ٠٠ انت بولي الصغيرة » فقالت لي « انا بولينا ماري هوم دي باسومبيير » ٠

حقا كم يغير الزمن فبولي الصغيرة كانت تحمل في ملامحها الصغيرة الشاحبة وتناسقها اللطيف وملامحها المختلفة بعض بشائر الجمال والرشاقة ولكن بولينا ماري اصبحت الآن ذات جمال لا من النوع الاخاذ ولا من النوع الريان الجسم القرنفلي الشكل مثيل جمال ابنة عمها الشقراء جنيفرا فانشاوي غير ان عمرها البالغ سبعة عشر عاما أضفى عليها سحرا غضا رائعا لا علاقة له بالبشرة رغم أن بشرتها كانت جميلة وناعمة ولو تكلمت عن جاذبيتها فانني لن أبالغ فقد كانت فعلا ذات جاذبية حقيقية على نطاق غير واسع يفوح منها شذى زهرة الكاميليا وزهرة الدهليا ٠

وقلت لها « عجبا انك تذكرين زمان بريتون القديم ؟ » فقالت لي « كل التذكر وربما احسن منك فانا اتذكر دقائق الامور اتذكر ليس الزمن فقط بل أيام الزمن وساعات اليوم » وقلت لها « ربما غابت عن تذكرك بعض الاشياء » وقالت لي « ربما بعض الاشياء القليلة على ما اظن » وقلت لها « كنت صغيرة السن ذات مشاعر حساسة وربما غابت عن ذاكرتك الانطباعات التي دفعت السرور والاسى والود والحرمان من الابوين في فكرك قبل عشرة اعوام » وقالت لي « هل تظنين انني نسيت ما كنت أحبه ودرجة حبي له عندما كنت طفلة ؟٠٠ وقلت لها « ربما توارت الحدة والشدة وربما خف أثر الطابع العميق للايام الخوالي ؟ »فاجابتني « لا ازال اذكر كل تلك الايام على نحو جيد » ٠

وبدا عليها أنها فعلا تتذكر كل شيء فعيناها كانت عيني من يقوى على التذكر ، تذكر طفولتها التي لا تزول كزوال الحلم وشبابها الذي لا يتوارى كأشعة الشمس ولم تكن تنظر الى الحياة نظرة مهلهلة او نظرة

تنافر وعدم التماسك من ناحية وتسمح لفترة واحدة ان تتصل وهي تدخل فترة اخرى انما تستبقي وتضيف وغالبا ما تستعرض الوضع منذ البداية وبذلك تنمو وتترعرع بشكل متناسق ومنسجم وبشكل ثابت كلما مرت بها الاعوام .

ولا أزال لا أقر اعتقادها بأن كل الصور التي تزاحمت في خاطرها كانت رائعة وزاهية ومنظورة بالنسبة لها فان ، وابنتها المتسمة بالولوع والعابها ونزعاتها مع رفيقها في اللعب وتكريسها الصادق لقلبها الطفولي ومخاوفها وتحفظاتها وأسرارها وبلاواها الصغيرة وآخر ألم لها ، ألم الفراق لا يمكن ان تتذكرها كلها وهززت رأسي وقلت هذا لا يمكن أن يصدقه المرء الا انها أصرت وقالت لي « ان طفلة الاعوام السبعة لا تزال تعيش في فتاة السابعة عشرة من العمر » .

واردت اختبارها فسألتها « كنت تحبين المدام بريتون كثيرا وكنت متولعة بها » فقالت لي « لا لدرجة التولع فأنا أحببتها واحترمتها كما أفعل الآن ويظهر انها تبدلت نوعا ما على ما أراها » ووافقتها على ذلك وقلت لها أنها لم تتبدل كثيرا ثم حصل صمت بيننا لمدة بضع دقائق وقالت لي وهي تجيل النظر في أرجاء الغرفة « توجد في هذه الغرفة عدة اشياء كانت عند بريتون ومنها على ما اتذكر وسادة الدبابيس والمرآة » .

وبدا لي ان الذي قالته عن قوة ذاكرتها كان صحيحا تماما وقلت لها « في رأيك اذن انك عرفت السيدة بريتون اول ما شاهدتيها » فقالت لي « اتذكرها تمام التذكر . ملامحها وبشرتها الزيتونية اللون وشعرها الاسود وطولها ومشيتها وصوتها » وقلت لها « بالطبع يقع الدكتور جون خارج الصدد وفي الحقيقة اتضح لي من تقابلك معه لاول مرة انه بدا لك كغريب » فأجابتني « في تلك الليلة كنت مرتبكة وفي حيرة من أمري » .

وقلت لها « ... متى اذن تم التعارف بينه وبين والدك ؟ » فقالت لي « تبادلا بطاقات الهوية فاسم غراهام بريتون وهو دي باسومبير أثارا اسئلة وايضاحات . هذا ما حصل في اليوم الثاني ولكن قبل ذلك بدأت اعرف شيئا » وقلت لها « أي شيء ؟ وكيف ؟ » وقالت لي «ماغرب أن يبدو من معظم الناس انهم بطيئون في التحسس بالحقيقة انهم لا يشاهدون ولكن يشعرون فقط » .

twitter @baghdad_library

واستطردت قائلة « عندما زارني الدكتور بريتون بضع مرات وجلس قريبا مني يحادثني وعندما لاحظت بظرات عينيه والتعبير الطافي على شفتيه وتشكيلة ذقنه وحركة راسه وكل ما نعرفه عن الناس الذين يدنون منا فكيف لي الا اتذكر غراهام بريتون ؟ لقد كان غراهام انحف مما هو عليه الآن ولم يكن بهذا الطول وكان له فم ارق والطف وشعر ذو لون افتح ولم يكن يتكلم بهذا العمق ٠٠ كان يتكلم كفتاة ولكنه في كل ذلك كان غراهام مثلما أنا بولي الصغيرة وانت لوسي سناو » ٠

وفكرت بنفس التفكير وعجبت كيف أن افكاري هي نفس أفكارها فهناك بعض الاشياء التي نادرا ما نلتقي بها مع امثالنا بحيث تصبح القضية كما لو أنها أعجوبة عندما تحدث مثل هذه الصدف وقلت لها « كنت أنت وغراهام رفيقين في اللعب » وسألتني بدورها « وأنت تذكرين ذلك ؟ » وقلت « ليس من ريب في أنه سيذكر ذلك ايضا » وقالت لي لم أساله فهناك بعض الاشياء التي تفاجئني وتنبيء عن أنه سيتذكر ذلك ايضا وفي ظني أن مزاجه لا يزال مرحا وعديم الاكتراث » ٠

وسالتها « هل كان هكذا في السابق ؟ الهذا السبب سحرك وفتنك ؟ او لهذا السبب تتذكرينه ؟ » فاجابتني « قلما أتذكره في ضوء آخر غير هذا الضوء ففي بعض الاحيان ترينه منكبا على الدراسة وفي بعض الاحيان ميالا للمرح وسواء كان منشغلا بكتبه او راغبا في اللعب وعندما يشعر أساسا أن كتبه او اللعبة التي يريد أن يزاولها هي التي تهمه فانه لا يكترث بمن يقراون معه او بمن يسلي نفسه معهم » ٠

وقلت له « ومع ذلك كان منحازا اليك ومولعا بك ولعا شديدا » وقالت لي « لا ٠٠٠ لم يكن الامر كذلك فقد كان له رفاق لعب آخرون هم زملاؤه في المدرسة ولم اكن اهمه كثيرا الا في أيام الاحاد حيث كان لطيفا معي فيها واتذكر ذات مرة انني كنت ماسكة يده وامشي معه الى حيث كنيسة القديسة مريم وكم كان لطيفا وهادئا في امسيات أيام الاحاد ورقيقا رغم كبرياء صبوته الحية وصبورا جدا لكل ماكنت ارتكبه من اخطاء في القراءة يتحملني الى حد الدهشة في الاعتماد عليه اذ لم يكن يمضي امسيات الاحاد سوى في البيت حتى انني كنت اخشى دائما من أن

يقبل زيارة من احد ويتخلى عنا الا انه ما كان يفعل ذلك ولا كانت بـه رغبة في أن يفعل ذلك · هـذا هـو ولا يمكن أن يكون على شاكلة آخـرى واتصور أن ايام احاده الآن هي الخروج وتناول طعامه في الخارج » ·

وهنا سمعنا صوت السيدة بريتون في أسفل الـدار تدعونا للنزول وكانت بولينا لا تريد النزول وميالة للمكوث في مكانها أمـــا أنا فكنت ميالة للنزول فنزلنا كلينا ·

twitter @baghdad_library

الفصـــل الخـامس والعشـرون

ـ الكونتيسـة الصغـيرة ـ

استعدت عرابتي بما عرف فيها من روح المرح والضيافة الاستعداد اللازم من أجل امتاعنا وفي تلك الامسية لم تظهر دلائل الامتاع الحقيقية الى آن سمعنا عبر عواء ريح تلك الليلة الشتوية أصوات تؤذن بقدوم أحد وغالبـا ما تفكـر النسوة والفتيات الجالسات دافئات بجـانب المواقـد ـ وقلوبهن وتصوراتهن راغبة في الانفصال عن مثـل هـذه الاجواء المريحة ـ بالخروج مضطرات ليطفن ويتجولن في الطرق المظلمة مغامرات وسط وطأة الجو المزعج المثلـج او ينتظـرن عـلى الابواب والسياجات الكائنة على الطريق وحيدات وسط الزوابع الهابة ينتظرن أو يصغـين لرؤية وسماع صوت الاب أو الابن أو الزوج وهو يأتي الى الدار ٠

لقد جاء الوالد وجاء الولد أخيرا الى البيت الريفي الضخم «الشرفة» ذلك ان الكونت دي باسومبيير كان يرافق الدكتور بريتون في تلك الليلة ولا ادري من من ثلاثتنا سمع صهيل الفرس قبـل الاثنتين فتسوة الجو وعنفه لم تمنعنا من النزول الى القاعـة لملاقاة الراكبين الاثنين عنـد دخولهما لتحيتهما رغـم أنهما حذرانا لنبقى في أماكننا حيث نحن دون أن نخرج ٠

وكان القادمان أبيضين كأنهما جبلان من الجبال الثلجيـة وصاحت السيدة بريتون بهما لكي يدخلا المطبخ بعد أن وجدت حالتهما ومنعتهما من أن تطأ أقدامهما على بيت السلم المفروش بالسجاد ما لم يتخلصا مـن قناعيهما القديمين لعيد الميلاد اللذين كانا يرتديانه ودخلا المطبخ ونزلنا نحن للحاق بهما والوصـول اليهما رغم كل ذلك فقد كان مطبخنا هولنديا كبيرا من النمط القديم مريحا ورائعا ٠

twitter @baghdad_library

وراحت الكونتيسة الصغيرة البيضاء ترقص في دائرة تحيط بأبيها وهي تصفق وتتصايح قائلة « أبي ·· أبي » ·· الشبيه بالدب القطبي الكبير » واخذ ذلك الدب ينفض جسمه وفرت الجنية الصغيرة من الرذاذ المتجمد وعادت الى الغلف وهي تضحك وتتوقف لرفع القناع القطبي وتخلص الوالد من البسته الثخينة وهدد بالباسها اياها كما لو أنها كتلة من التيهور ·

وتظاهرت بأنها تريد اسقاط نفسها من فوق وعندما تقرب منها والدها فرت من أمامه وابتعدت كغزالة صغيرة · وكان لحركاتها النعومة الطرية وجمال المخمل ولضحكتهانقاوة دونها نقاوة الحلقةالفضية ونقاوة البلورة وعندما فركت يدها ووقفت على ابهامي قدميها لايصال شفتيها لتلقي قبلة اخذت تشع وحولها هالة بهجة الحب وأخذ الوالد المحترم ينظر اليها كما ينظر الرجال الى ما يعتبرونه قرة العين او بؤبؤها ·

وصاح الشيخ بالدكتور براون قائلا « ماذا تراني أفعل بابنتي هذه فعقلها لا يكبر وكذا هيكلها الا ترى أنها لا تزال طفلة حلوة كما كانت في العاشرة من عمرها ؟ » وقالت السيدة بريتون « أليست طفولتها اكبر من طفولة ابني العظيم هذا » وقالت ذلك لانها كانت على خلاف ونزاع معه لانها ارادت ان يرتدي ثيابا اعتبرتها مناسبة جدا له وأبى ارتداءها أما هو فقد وقف ورنا الى ملابسها الهولندية وهو يضحك على مبعدة ذراع منها قائلا لها بلهجة من يريد أن يصالحها « تعالي ياماما ولنتصالح على طعم كأس عيد الميلاد » ·

وبينما كان الكونت واقفا بجانب نار الموقد وبولينا ماري لا تزال ترقص جيئة وذهوبا سعيدة وشاعرة بالحرية في رحاب ذلك المطبخ الكبير أوصت السيدة بريتون الخادمة « مارتا » بأن تطيب وتتبل وتسخن صحن المشروب الذي يحتسى في عيد الميلاد ونظر الكونت رافعا بيده الكأس اللامعة عاليا الى السيدة بريترن مهيدا اياها ببض الابيات الشعرية ·

وصاحت بولينا قائلة « هذا شعر اسكتلندي ··· اسكتلندي · أبي يتكلم باللهجة الاسكتلندية فهو اسكتلنديأصلا وسألها والدها هل رقصتك هذه رقصة اسكتلندية والتفت الى السيدة بريتون قائلا لها « ايتها السيدة

ستكون الان حلقة رقص خضراء في وسط مطبخك هذا عما قريب ولن تكون رقصة قاتلة ٠

واجابته ابنته قائلة « أطلب من لوسي أن ترقص معي يا أبي فهنا عندك لوسي سناو » وببساطة المستر هوم لا بكبرياء الكونت دي باسومبيير مد يديه الي قائلا بلطف بعد أن تذكرني جيدا ومع ان ذاكرته ضعيفة في حفظ الاسماء الا أن اسمي عرفه من كثرة تلفظ ابنته به أمامه كما أنه سمع عني الكثير من القصص الطويلة واعتبرني كواحدة من معارفه القدامى ٠

وراح كل واحد الآن يتذوق مشروب عيد الميلاد باستثناء بولينا التي أغاظها الا يقدم لها أحد الشراب وأن تهمل وأن تحرم وتصد عن امتيازاتها المعنوية وخاطبت غراهام الذي كان قد وضع الكأس على رف المزينة بعيدا عن متناول يديها قائلة « دعني أذق الشراب » ٠ وكانت السيدة بريتون والمستر هوم منشغلين الآن في المحادثات وقد لاحظ الدكتور جون رقصة الجنية وأحبها وأحب رشاقة حركاتها وجماليتها واستساغها وسحره ما هو موجود في الدار من راحة ومن طمأنينة وبدت امام عينيه طفلة كالسابق ٠٠٠ ترى ؟ ٠٠ كيف سيكلمها وعلى أية شاكلة ؟ فانا لم ألمحه بعد يكلمها وأولى كلماته برهنت على أن أيام « بولي الصغيرة » الاول قد استذكرها ذهنه في تلك الامسية الخالية من الهموم ٠

وخاطبها قائلا « ان مقام السيدة طلب الشراب من الابريق الفضي؟» فأجابته « أظن انني طلبت ذلك ولمحت عنه كثيرا » وقال لها « لا اوافق ولا أرضى شيئا من هذا القبيل فيما يخصني ٠ انني آسف لذلك ولا أستطيع تنفيذه » وسألته قائلة « لماذا ؟ فانا بصحة جيدة الآن فهو لا يستطيع أن يكسر عظم ترقوتي مرة اخرى أو يخلع كتفي فهل هو خمر ؟ » فأجابها « ليس خمرا ولا مشروبا منعشا » وقالت له « لا اريد مشروبا منعشا ٠٠ لا اريد مشروبا منعشا ولكن ماهو اذن ؟ » وقال لها « انه الميزر » (الميزر شراب قديم من نوع الجعة ــ المترجم) قوي مخمر يدعى « تشرين الاول القديم » معتق منذ ولادتي » ٠

وقالت له « لابد أنه نادر وغريب وملفت للنظر ٠٠ هل هو مشروب

twitter @baghdad_library

لطيف ولذيذ ؟ » وقال لها « فائق اللطافة واللذة » واخذ جرعة ثانية من ذلك الاكسير الجبار وتمطق بطعمه وبكل برود وضـــع الكاس على الرف وقالت بولين وهي تنظر اليه « أريد قليلا منه فانا لم يسبق أن شربت من « تشرين المعتق » فهل طعمه حلو ؟ وقال لها غراهام « ذو حلاوة خطرة »·

وظلت تنظر بمحيا طفلة تتوق الى شيء لذيذ المـذاق محرم عليهـا وأخيرا لان الدكتور ورق وتساهل في ارضائها وقدم لهـــا جرعة من يده ولكنه لم يسمح بأن تدخل شفتيها الورديتين المرتشفتين اكثر من قطـرة واحدة · وامسكت بيده بأربع من أصابعها لكي ترتشف منـــه اكثر قائلة بلهجة قوية « أعطني المزيد ·· أعطني المزيد » واشتمت رائحـة التوابل المزوجة بالسكر وقالت له « لا أستطيع تذوقه بسبب قوة معصمك وبسبب بخلك أيضا » ·

وقال لها بلهجة تدليل وخطورة هامسا « لا تقولي لامي أو للوسي لانهما لن يقبلا ذلك ولن ترتضياه » وقالت له «كلا لن أقول لاحد» وراحت تجرب طعم المشروب كما لو أنها تفـــك سحر الساحر وقالت « وجدت المشروب كل شيء الا ان يكون حلو المذاق ·· انه مر وحار وحاد قطـع أنفاسي ان مشروبك « اكتوبر القديم » كـان مرغوبا فيه حـــين كـان ممنوعا ·· أشكرك الآن ·· لا اريد المزيد » ·

وبانحناءة بسيطة متسمة بعدم الاكتراث وبرشاقة كرشاقة رقصتها انسلت عنه وانضمت الى ابيها · وفي رأيي أن الذي قالته كـان صحيحـا حتى قالت لي أن طفلة السابعة من عمرها هي فتـــاة السابعة عشرة من عمرها · ونظر اليها غراهام بنوع من الحـيرة والارتباك وكانت عينـه مثبتة ومركزة عليها مدة لا بأس بهـا خـلال فترة استراحة المساء وبدا عليها أنها لم تكن تنظر اليه ·

وعندما نزلنا الى قاعة الاستقبال لتناول الشاي أمسكت بولي بذراع والدها ويبدو أن مكانها الطبيعي كان الى جانبه وان عينيها وأذنيها كانت مكرسة له وكان هو والسيدة بريتون المتكلمين الرئيسين لجماعتنا الصغيرة وبولينا كانت أحسن من تصغي اليهما واحسن من ينتبه انتباها تاما لكل ما كانا يقولانه وتكرر هذه النبرة أو تلك وهذه التجربة أو تلك اوتساله « وأين كنت في ذلك الوقت يا أبي ؟ » وماذا قلت آنذاك ؟ » ·· « قـــل

للسيدة بريتون ما حدث في تلك المناسبة وهكذا كانت تدفعه للكلام ٠

ولم تعد تخضع لاية فورة من فورات المرح والطرب ٠ ان شرارة الطفولة وألقها وفورتها أجلت لليل فتقدت بدت لطيفة ومطيلة بالتفكير ومرنة وكانت جميلة المنظر عندماتودع اما سلوكها مع غراهام فقداتصف بالكبرياء والخيلاء ففي ابتسامتها الخفيفة جدا وفي انحناءتها الهادئة كانت الكونتيسة ولم يملك غراهام سوى أن ينظر بجدية ورزانة وكان يجاوبها الانحناءة بالانحناءة ولاحظت أن كان صعبا عليه أن يوفق بين رقصتها الجنية وبين كونها السيدة الرفيعة المقام ٠

وفي اليوم التالي عندما كنا متجمعين حول مائدة الافطار نرتعد من البرد القارس بعد الاغتسال صباحا أصدرت السيدة بريتون تعليمات بعدم خروج أحد من بيتها في ذلك اليوم الا اذا دفعته الضرورة الى ذلك دفعا ٠ وفي الحقيقة أن الخروج بدا شبه مستحيل فالرياح الثلجية سودت الالواح السفلى للنافذة البابية وعندما ينظر المرء الى الخارج يجد السماء والهواء في هياج وظلام دامس والريح والثلوج في نزاع غضوب ولم تكن الثلوج قد هطلت آنذاك غير أن الذي كان ينزل الى الارض كانت الرياح العاصفة تعمل فيه اقتلاعا وتدويرا ثم يفتت الى مائة شكل من الاشكال الغريبة ٠

وردت الكونتيسة كلمات السيدة بريتون بعد ان وضعت كرسيها بجانب كرسي أبيها ذي الذراعين قائلة « بابا لن يخرج وأنا التي سأهتم به ٠ أنت لن تخرج الى المدينة يا أبي ٠٠ أليس كذلك ؟ » فأجابها والدها « نعم ٠٠ ولا ٠٠ فاذا أحسنت أنت والسيدة بريتون الي تمام الاحسان يا بولي واذا اظهرتما نحوي الاهتمام والطيبة ووضعتماني في وضع جيد جدا واهتممتما بي تلطفا ربما انتظرت ساعة اخرى بعد الفطور لارى ما اذا كانت الرياح القارصة للحادة حدة الموسى ستتوقف ولكن أنت ترين أنك لم تقدمي لي الفطور ولم تهد لي شيئا وها أنا أتضور جوعا » ٠

وقالت بولينا بلهجة التوسل والاستعطاف « أسرعي أيتها السيدة بريتون رجاء وهيئي القهوة وصبيها وأنا سأهتم بالكونت دي باسومبيير في النواحي الاخرى فمنذ آن نال لقب الكونت أخذ يشعر بحاجة الى كثير

twitter @baghdad_library

من الاهتمام » ثم خرجت من بينهم وهيأت رغيفا من الخبز وجـــاءت الى ابيها تقول له « خذ الخبز بالحليب (بيستوليتة) ويوجد مربى«المرملاد» من النوع الذي كنت تتناوله في بريتون وكنت تقول أنه جيد كجودةمربى المرملاد الاسكتلندية » ٠

واعترضتها السيدة بريتون قائلة « والـــذي كنت تطلبينه لولدي وانت طفلة ٠٠ هل تتذكرين ذلك ؟ هل نسيت كيف كنت تقعدين عـــلى مرفقي وتلمســين ردني وتهمســين في أذني قائلة « أرجوك يا ماما قدمي شيئا جيدا لفراهـام كالمربى او العسـل أو مربى الفاكهـة ؟ » وقاطعها الدكتور جون ضاحكا وقد احمر وجهه خجلا قائلا لهـــا « كلا يا أمي لم يكن الامر كذلك وما كنت لاهتم بمثل هذه المآكل » ٠

وسألت السيدة بريتون بولينا ٠٠٠ « هل كـــان يحبها أم لا ؟٠٠ وأكدت بولينا بقولها « نعم كان يحبها » ٠ وقال المسيو هوم بشكلمشجع « لا لزوم للخجل من ذلك فأنا نفسي كنت أحبها ولا ازال أحبها ومـــن عادة بولينا أن تتحرى عما يحب الاصدقاء وتوفرها لهم فأنا الذي زرعت في نفسهما مثل هذه الاكلة وجاءت له بولينا قائلة « اليكها يا أبي وعليك في مثل هذه المجاملات أن تتحلى بالقناعة وتوفق مـــا بينك وبـــين هـــذه « الشرفة » في هذا اليوم » ٠

وقال الكونت « أيتها السيدة بريتـــون ألا تنقذيني من ابنتي بأن تبعثي بها الى المدرسة ٠ هل تعرفين مدرسةجيدة ؟ » وقالت السيدة بريتون مجيبة « لديك لوسي هنا فهي في مدرسة المدام بيك » وقال هوم » هل الآنسة سناو في مدرسة ؟ وأحسست بالفرح لان تسنح لي فرصة أن اقول له « أنا مدرسة » وشعرت لاول وهلةكما لو أنني وضعت في موضع غير ملائمفالسيدة بريتون وولدها يعرفان بظروفي دون أن يعـرف ذلك الكونت وابنته اذ ربما أحدثا تغييرا ــ بشكل ما أو بنـوع ما ــ في سلوكهـا الودي مني اذ ربما ما عرفا أن لي موقعي في المجتمع ٠

وتحدثت اليهم عن طيبة خاطر وعن رغبة واستعداد لذلك ولكـن حشدا من الافكار التي لم اتوقعها ولم استحضرها نهضت وسودت جـــو الكلمات وجعلتني أتنهد دون رغبتي ولم يرفع المسيو هوم عينيه عن صحن

غذائه لمدة دقيقتين تقريبا ولم يتفوه بكلمة وربما لم يلم بفحوى الكلمات وربما ظن ان اعترافا بتلك الكياسة الطبيعية يحرم التعليق أو التفسير ذلك أن الاسكتلنديين اناس فخورون يعتزون بأنفسهم ٠

ولما كان المسيو هوم بسيطا في نظرته وفي عاداته وأذواقه أدركت بأنه ليس بلا حصة من الخصائص القومية اذن هل كانت كبرياؤه مزيفة ؟ وهل أن عزة نفسه كانت صميمية ؟ أترك القضية بلا حل بمعناها الواسع أما فيما يتعلق الامر بي شخصيا لم استطع أن أجيب وفي كل وقت سوى بكونه رجلا شريفا مصداقا في صميم فؤاده ٠ لقد كان في السجية لامسا وحاسا ومفكرا وفوق عواطفه وانعكاساته سرت بهجة السوداوية من المرح أما في أوقات القلائل والحرمان فقد استحالت غيوما ٠

انه لم يعرف الشيء الكثير عن لوسي سناو والذي عرفه لم يكن دقيقا وشاملا وفي الحقيقة أن عدم فهمه صفاتي واخلاقي جعلتني أضحك في معظم الاوقات ولكنه أحس بأن طريقتي في الحياة هي في الجانب الظلي من التل وامتدحني لمسعاي في جعل الطريق مستقيما تماما فقد عبر عن استعداده لمساعدتي لو قدر أو لو سنحت له الفرصة لذلك ولعدم امكانه ذلك تمنى لي تمنيات صميمية وعندما حول نظره الي ورمقني لمحت في عينيه دلائل العطف والرقة وعندما كان يكلم كانت نبرة كلامه تدل على حب الخير ومساعدة الآخرين ٠

وقال لي المسيو هوم أن مهنتك شاقة وأتمنى لك بها الصحة والقوة لتحققي بها النجاح أما ابنته الجميلة فلم تأخذ المعلومات بهدوء فقد ركزت نظراتها علي بعينين واسعتين وبتعجب مشوب بالفزع وصاحت بي « هل أنت مدرسة ؟ » وبعد أن توقفت لحظة حول الفكرة البغيضة التي لم تستسغها قالت « حسنا !! أنا لم اعرف حقيقتك وما أنت عليه ولا فكرت يوما في أن اسألك اذ بالنسبة لي لم تكوني دائما سوى لوسي سناو » ٠

وسألتها « وما أنا الآن ؟ لا معدى لي عن توجيه السؤال ؟ » فقالت لي « أنت نفسك طبعا ولكن هل تدرسين فعلا هنا في « فيليت » فقلت لها « نعم ٠٠ انه لكذلك !!٠٠ » وسألتني « هل تحبين التدريس ؟ » فأجبتها

twitter @baghdad_library

« ليس دائما » وسألتني « ولماذا تواصلين التدريس ؟ » ونظر اليها أبوها وخشيت أن يوبخها ولكنه اكتفى بأن قال لها « واصلي في هذا القالبمن السؤال والجواب ، وبرهني على انك المغرورة الصغيرة واذا لاحظت على وجه الآنسة سناو أي أثر من آثار الاستحياء والخجل والحيرة فسأطلب منك انكف عن التساؤل وملازمة الصمت وسنكون أنا وأنت جالسين على الطعام يحيط بنا العـــار ولكن الآنسة سناو تبتسم فقط ولهذا اضغطي عليها ضغطا شديدا وضاعفي من اسئلتك الاستجوابية وأنت أيتها الآنسة سناو لماذا تواصلي الاجوبة معها ؟ فقلت لـــه « بالدرجة الاولى أخشى أن يكون هذا من أجل المال الذي أحصل عليه » ٠

وقال متسائلا « أليس الذي يحدونا لهذا هـــو الدافـع الانساني المحض ؟ » أن بولي وأنا متشبثان بهذه الفرضية باعتبارها أحسن طريقة مرنة للمحاسبة ازاء اختلاف المركز وغرابة الطور ؟ » وقلت له « كلا ٠٠ كلا ٠٠ ايها السيد انني استطعت عن طريق المأوى أن أرفع رأسي ومـن حيث راحة النفس يحدوني هذا الى التفكير بأنني في الوقت الذي استطيع فيه أن أعمل من اجـل نفسي فانني أوفر لنفسي عناء أن أكـون عالـة على أحد » ٠

وقالت الآنسة دي باسومبير لابيها « أبي ٠٠ قل ما تشاء أن تقوله فأنا أشفق على لوسي » وقال لها أبوها « احملي هذه الشفقة يا باسومبير احمليها بكلتا يديك قدر ما تشائين وضعيها في أدفأ عش من قلبك غير أن عليك أن تسمعي مني هـــذه الهمسة ، اذا أرادت ابنتي بولي أن تعرف بالتجربة الطبيعية المشكوك فيها حسنات هذا العالم فان عليها أن تفعـل كما فعلت لوسي وهو أن تعمل من أجل نفسها والا تكـون عبئـا لا عـلى الانسباء ولا على الاصدقاء » ٠

وقالت بولي وهي مستغرقة في التفكير « نعم يا ابي ولكن المسكينة لوسي ظننتها سيدة غنية ولها أصدقاء أغنياء » وقال لهـا أبوها « أنت فكرت كساذجة ومغفلة فانا لم أفكر كذلك وعندما يتسع لي الوقتللنظر في اخلاق لوسي وواجهتها التي رأيت فيها الشخص الذي عليه أنيحرس لا أن يحرس وأن تفعل شيئا لا أن تتقدم لها خدمة وفي رأيي أن هـــذا ساعدها على أن تقوم بتجربة أن عاشت طويلا لكي تدرك منفعتها الكاملة

فانها ستمجد العناية الالهية ولكن هذه المدرسة » ثم خفض صوته وبدل لهجته من الرزانة الى الدعابة وقال « هل ستقبل ابنتي ؟ وهل ستقبل المدام بيك ابنتي بولي ؟ ماذا ترين أيتها الآنسة لوسي ؟ » ٠

واجبته « لن يبقى عليك سوى أن تسأل المدام بيك ذلك وستعرف النتيجة في الحال على انها مولعة بالطالبات الانكليزيات » ثم قلت له أيضا « اذا تهيأت يا سيدي الآن لاخذ الآنسة دي باسومبيير في عربتك في هذه الظهيرة بالذات فانا ضامنة لك أن البوابة روزين لن تتباطأ في فتح الباب لك طالما تدق الجرس وأنا متأكدة ايضا من ان المدام بيك ستلبس يديها أفضل زوج من القفاز لتأتي الى الصالون للقائك » ٠

وجاوبني المستر هوم في الحال قائلا « في مثل هذه الحالة لا يوجد أية ضرورة للتأخير فالسيدة هرست تستطيع أن ترسل خصوصيات السيدة الشابة بعدها وبولي تستطيع ان تهيىء كتاب القراءة قبل حلول الليل وأنت أيتها الآنسة لوسي لي ثقة في انك لن تترددي في السهر عليها ورعايتها وأن تعلميني مابين الفينة والفينة عن تقدمها في المدرسة والتفت الى الكونتيسة دي باسومبيير قائلا لها «أظن أنك تقرين هذه الترتيبات»٠

وقالت الكونتيسة وهي تتنحنح بتردد « ظننت أنك انهيت موضوع تلقي الدراسة » وقلت لها « ان هذا يبرهن على مدى فداحة خطئنا في التفكير أما أنا فلي رأي يختلف عن رأيك اختلافا كبيرا ٠٠ آه ٠٠ يافتاتي العزيزة ان امامك الكثير والكثير مما ينبغي أن تتعلميه وكان ينبغي على بابا أن يعلمك اكثر مما علمك ٠ تعالي ٠٠ لا يوجد مانع في الوسط سوى استحصال موافقة المدام بيك ويبدو أن الجو يتحسن وانا انهيت تناول فطوري » ٠

وقالت الآنسة دي باسومبيير « ولكن يا بابا » فقال لها « ماذا في الامر ؟ » قالت له « هناك عائق » فقال لها « لا يوجد أي عائق اطلاقا » وقالت له « انه عائق خطير لا يمكن التخلص منه ٠٠ عائق كبير ككبر معطفك هذا والثلج المتراكم عليه » وقال لها « كالثلج الكثيف القابل للذوبان ؟ » فقالت له « كلا ٠٠ انه كاللحم الذي لا يذوب ٠ انه أنت نفسك ٠٠ أيتها الآنسة لوسي قولي للمدام بيك الا تصغي الى أي اقتراح

twitter @baghdad_library

من اقتراحاته المتعلقة بأخذي الى المدرسة لان ذلك يؤدي الى وجوب اخذ بابا أيضا لانه كثير المضايقات ومثير الازعاجات » ·

واستطردت تقول « والآن اسمعوا جميعا ·· سأروي لكم روايات وحكايات عنه قبل خمسة اعوام عندما كان عمري اثنى عشر عاما اقتنع بأنه أفسدني بالدلال وانني أترعرع دون أن اكون لائقة لمجابهة الحياة وبدا لي آن ليس هنالك ما يقنعه أو ما يرضيه سوى أن آذهب الىالمدرسة فماذا كانت النتيجة ؟ لقد جاء بابا الى المدرسة أيضا بشكل يدعو الى الاعجاب وكان بين يوم وآخر يأتي لزيارتي وتبرمت بذلك المدامايغريدو « ولكن ذلك لم يفد معه وكانت النتيجة آن كلينا طرد من المدرسة وعلى لوسي أن تتفاهم مع المدام بيك وتخبرها بذلك وبما سيترتب عليها آن تتوقع منه مثل هذا في هذا الصدد » ·

وسألت السيدة بريتون المسيو هوم عما اذا كان هذا صحيحا وبيان موقفه ورايه في الموضوع ولانه لم يدافع عن نفسه حكم ضده وانتصرت بولينا التي كانت لها امزجة أخرى غير ظاهرة سذاجتها · وبعد الفطور حين خرج المسيو هوم والسيدة بريتون الى الخارج رحت أتحدث عنبعض الشؤون المصلحية الخاصةبالسيدة بريتون وكنا أنا والكونتيسةوالدكتور بريتون مختلين بأنفسنا مدة قصيرة ·

وليس من ريب آن غراهام وأنا أيضا لاحظنا التغيرات التي تحصل على سحنة بولي عندما تخاطب والدها وقد وقف الدكتور جون بضعدقائق بالقرب من النافذة ينظر الى الجليد وعلى حين غرة دنا من الموقد واخذ يتكلم لا بسهولته المألوفة · ويبدو ان المواضيع الهامة لم تبلغ شفتيه ولكي يجمعها بالشكل الذي يقبله الذوق وبحالة مترددة ثم بحالة غير موفقة أخذ يتحدث عن « فيليت » بشكل غامض وعمن يسكن فيها وعن مناظرها وبناياتها المعروفة ·

وجاوبته الآنسة دي باسومبيير بنوعية نسوية بعيدة عن النزعة الفردية كليا وبشكل لبق وبنبرة ونظرة وايماءة من هنا وهناك مفعمة بالحيوية انتقلت الى عهد طفولتها عندما كانت بولي الصغيرة والذي كان يقيض على خصائصها ويدعمها وينشطها هو التناسق والدماثة والرشاقة

والهدوء بحيث ان أي شخص ذي حساسية تقل حتى عن حساسية غراهام كان يستطيع أن يهتدي الى انها نقـاط مفضلة تفضي الى ألفـــة ومودة وصداقة بالغة الصراحة والوضوح ٠

وفي الوقت الذي ظهر فيـــه الدكتور بريتـــون منصاعا وخاضعا وبالنسبة اليه رزينا كان يزال يقظا شديد الانتباه بحيث لم تفته آية من تلك الاندفاعـات والنزوات الصغـرى والتوقفـات الطبيعية ولا آية من الحركات المتحيزة أو التردد في التكلم او التلعثم في النطـق ٠ وكانت في بعض أوقات التلكؤ أو التلعثم في النطق هذه تكرر الكلمة بوضوح اكثر بطريقة مثابرة وهي عليمة بالتقصير ٠ وحيثما كـان يحدث هـــذا كان الدكتور جون يبتسم ويمضي المحادثة بينهما تراخي الشعور بضبط النفس والتقيد ولو طال الحديث أكثر لاضحى ألطف وعادت الى خدي بولينـــا وشفتيها ضحكتها التي تحدث النقرة في خديها وفي احدى المرات تلعثمت ولكن نسيت أن تصححها ولا ادري كيف طرأ التبدل على وضـع الدكتور جون فهو لم يبد مبتهجا ولم تظهر على سيمائه امارات المزحـة او الطيش ولكنه في داخل نفسه أحس بانه اكثرمرحا وعبر عما في نفسه منالارتياح البالغ بلغة سليمة وبنبرات آرق وأدمث ٠

قبل عشرة أعوام كان هذان الاثنان يقولان لاحدهما الآخـر الكثير وهذا العقد الزمني المتداخل بينهما لم يضيق فجوة التجـربة ولم يسلب تفكير أي واحـد منهما ثم ان هنالك بعض السرائر والسجايا بحيـث ان التأثير المتبادل بينهما هو من النوع الذي كلما تكلم أحدهما الكثير للآخر تكلم الآخر مثله ايضا اذ بعد المزاملة يحـدث الالتصاق وبعـد الالتصاق يحدث الاندماج والآن كان على غراهام أن يغادر الدار لان مهنته لايمكن أن ترفض الطلبات والاستدعاءات أو تتجاهلها ٠

وغادر غراهام الغرفة ولكن قبل ان يغادر البيت عاد وكنت متأكدة بأنه لم يعد من أجل ورقة او بطاقة في رحلته وهي تشكل مهمته الظاهرية انما عاد ليطمن نفسه بنظرة اخرى بان وجه بولينا كان في الواقع كماهو في مخيلته وأنه لم يخدع نفسه في نظرته اليها في ضوء متحيز أو مصطنع أو يقع في خطأ يتصف بالحمق ٠ كلا ٠٠ لقد وجد الحقيقة وأخذ معـــه نظرة رواح خجولة ووادعة جدا وجميلة وبريئة ٠

twitter @baghdad_library

وبقينا آنا وبولينا ساكتتين برهة من الزمن ثم قمنا كلينا ببعض الاعمال المنزلية فعلبة ادوات الشغل المعمولة من الخشب الابيض لسالف الايام استعيض عنها الآن بواحدة من النوع المزخرف بالحفر والتنزيل ومركبة بالفسيفساء الثمين وموشاة بالذهب واصبحت الانامل المرتجفة الناعمة التي قلما استطاعت توجيه الابرة ـ وان كانت لا تزال ناعمة ـ سريعة وماهرة بنفس تقطيبة الجبين حين الانشغال بالعمل وبنفس الطريقة اللذيذة المستساغة ونفس الالتفاتات والحركات السريعة . وشمل العمل احلال شجرة بمكان أخرى تالفة بفعل الرياح الشديدة العاصفة وفي بعض الاحيان ازالة ذرات الاوساخ والاتربة من بعض الملابس الحريرية او ازالة ما علق بها من خيوط .

وفي ذلك الصباح بينما كنت صامتة شاردة الذهنية بفعل مؤثرات الشتاء الصارمة الموحية بالخشوع النفسي وملازمة الصمت لم يكن غضب شهر كانون الثاني وشكله المبيض المجرد من الرحمة والرأفة قد انتهى والزوبعة الهائجة بصوتها الاجش لم تزل تهدر ولم يبن أي دليل على أنها ستهدأ او تنقطع .

ولو كانت جنيفرا فانشاوي رفيقتي في قاعة الاستقبال لما حدث بي الى أن اجلس متأملة ومستغرقة في التفكير والى الاصغاء والانصات دون الشعور بالانزعاج ولطاردتني وازعجتني بالاسئلة والظنون والاحداس ولاقلقتني وعذبتني بتعليقاتها واسرارها التي كنت أزهد بها وأتوق الى تجنب سماعها . وأين فانشاوي من ماري بولينا التي رنت الي بنظرة او نظرتين هادئتين وكانت شفتاها نصف مفتوحتين كما لو أنها كانت تهم بالتكلم معي ولكنها لم تفعل ذلك بعد أن وجدتني جانحة للصمت فاحترمت هذه الظاهرة وأبت أن تحادثني .

وقلت لنفسي « لن يدوم هذا طويلا اذ أنني لم أتعود اكتشاف قوة السيطرة الذاتية في النساء او الفتيات ولا قوةتكران الذات وبقدر علمي بهن آرى أن فرصة وجود القيل والقال عن اسرارهن التافهة اعتياديا وعن مشاعرهن التي هي واهنة ورديئة جدا هي معاملة لا ينبغي تضييع فرصها أما الكونتيسة الصغيرة فتعتبر استثنائية وشاذة وقد انهمكت في الخياطة الى ان تعبت ثم تناولت كتابا لتقرأ .

وبطريق الصدفة كانت قد وجدت هـــذا الكتاب في حجيرة الدكتور الخاصة لحفظ الكتب وظهر بانه كتاب قديم لبريتون مصـور في موضوع التاريخ الطبيعي وغالبا ما كنت أجدها واقفة الى جانبه واضعـة اياه على ركبته وتقرأ فيه وعندما تنتهي من القراءة تتوسل اليه أن يعلمها شرحـا عن الصور الموجودة فيه وكنت أراقبها بشوق وهنـــا تجربة حقيقية عن ذاكرتها التي تتبجح بها فهل ستذكر هذا الكتاب الذي هو بين يديها تذكرا صحيحا يا ترى ؟

نعم ... لا يمكن التشكك بذلك فهي حالما شرعت تقلب صفحاته طافت حول وجهها ومضة أثر ومضة من التعبير الذي كان معناها أنها تحيي الماضي بكل جوارحها وعندما نظرت الى صفحة العنوان الذي يحمل اسـم الكتاب ومؤلفه وناشره والى الاسم المكتوب بخط يد تلميـذ المدرسة اخذت تمرر أناملها على الصور تمريرا ناعما وديعا بعد ان نظرت اليهـا طويلا وترافق التمريرة ابتسامة رقيقة لا شعورية وهي تربت عليها ربتا خفيفا والجدير بالذكر عن خصوصية ذلك المشهد الصغير انهـا لم تقـل شيئـا بصدده . لقد كانت تشعر ولكن دون أن تصب مشاعرها بكلمات متدفقة.

وانهمكت ساعة بين ركـــام كتب المكتبة متفحصة كتابا بعـد آخر ومجلدا بعد آخر تجدد ذكرياتها بكل واحد منهـا وبعـــد ان انهت ذلك جلست على كرسي واطيء وأسندت خدها على راحة يدها وراحت في تأمـل صامت الى أن اجفلها انفتاح الباب الامامي واندفاع الهواء البارد وصوت والدها محدثا السيدة بريتون في القاعة فنهضت ونزلت الى الطابق التحتاني بثانية واحدة قائلة لابيها « أبي .. أبي .. لن تخرج » وقال لها «يا ابنتي المدللة ينبغي ان انزل الى المدينة » وقالت له « أبي .. الجو بارد جدا .. بارد جدا » .

ثم سمعت المسيو دي باسومبير يريها الملابس الثخينة التي يرتديها للاتقاء من البرد وكيف أنه سيذهب لاخذ عربته ليتدفأ داخلها ومبرهنـــا لها ــ بايجاز ــ أن ليس عليها أن تقلق على راحتـــه وقالت له « ولكنك وعدت بالعودة في هذا المساء قبل أن يحل الظلام أنت والدكتور بريتون في العربة وليس صحيحا أن تركب عربتك وتنزل الى المدينـة » وقال لهـــا

twitter @baghdad_library

« حسنا اذا شاهدت الدكتور فسأخبره أن سيدة أوصته أن يهتم بصحتي الثمينة والرجوع الى البيت مبكرا بحراستي » وقلت له « ستقول سيدة » وهو سيظن أنها والدته ويطيعك الآن ·· يا أبي حاول أن تعود بسرعة لانني أكون في حالة الاصغاء والانتظار » ·

وأوصد الباب وانطلقت العربة متدحرجة بهدوء عبر الطريق الثلجي وعادت الكونتيسة قلقة حزينة وراحت في ذلك تصغي وتراقب عند انتهاء المساء وتقطع غرفة الاستقبال جيئة وذهوبا بخطوات هادئة لا ضوضاء فيها وفي بعض الاحيان تراجع مشيتها الهادئة وتصيخ بسمعها لتتحقق من أصوات الليل وعلي أن أقول ··· صمت الليل ··· لان الريح هدأت أخيرا وتخلص الجو من جليده وبان شحوبه وعريه للعيان بوضوح من بين أغصان الشارع الجرداء كما بانت الاشراقة القطبية لقمر السنة الجديدة الجرم السماوي الابيض الشبيه بعالم الثلج وسرعان ما بانت العربة قادمة أيضا ·

ولم ترقص بولينا فرحا في تلك الامسية اذا انها هرعت لمساعدة أبيها عند دخوله الغرفة واجلسته على المقعد الذي اختارته له بنفسها وفي الوقت الذي كانت تبذر عليه كلمات الاماديح لمجيئه الى البيت بسرعة جلس ذلك الرجل على كرسيه بقوة يدي ابنته الصغيرتين وسلطانها واستشعر الفرح في استسلامه لارادتها بدافع حبه لها ·

ولم يظهر غراهام الا بعد الكونت ببعض الدقائق وكانت بولينا نصف ملتفتة عند سماع وقع اقدامه وتكلما مع بعضهما بكلمة أو بكلمتين فقط والتقت أناملهما ببعضهما التقاء خفيفا على ما كان يظهر وبقيت بولينا بجانب أبيها ورمى غراهام بنفسه في مقعد موضوع في الجانب الآخر من الغرفة · وراحت السيدة بريتون والمستر هوم يتحادثان مع بعضهما بعضا كثيرا مستعرضين ذكرياتهما القديمة التي لا ينضب الحديث عنها ولولا ذلك لساد الصمت على الجماعة في ذلك المساء ·

وبعد تناول الشاي راحت ابرة بولينا السريعة وكشتبانها الذهبي الجميل يعملان بانهماك على ضوء المصباح وسكت لسانها عن الكلام وأبت تعبا أيضا بعد عمله اليومي وكان يصغي الى الاحاديث دون ان يتفوه هو بأية كلمة وتابع بعينيه بولينا وهي تخيط وبدا ابهامها كجناح فراشة أو كالرأس الذهبي لعقرب صغيرة صفراء اللون ·

الفصل السادس والعشرون

ـ دفن الرسائل ـ

اعتبارا من هذا التاريخ لم تعد حياتي بحاجة الى تنوع فقد تقدمت بشكل جيد برضى تام من المدام بيك التي أقرت اقرارا تاما درجة اطلاعي فهذه المديرة الجديرة بوظيفتها لم تعاملني منذ الاول بغير الاحترام وعندما وجدت أنني عرضة لزيارات أخرى من البيت الريفي (الشرفة) ومن الفندق العظيم زاد الاحترام وتحول الى منزلة مميزة ٠

ولم تكن المدام مشمئزة من ذلك ففي كل الاشياء لم تكن ضعيفة بأي حال من الاحوال فقد كان هناك قدر من الاعتدال والرشد في أسخن سعيها لحرصها على مصالحها الشخصية ، وهدوء واممان في التفكير بسيطرتها على مكاسبها دون أن تجلب لها احتقار احد على انها متملقة وانتهازية وكانت تشعر أنها مسرورة لان الناس الذين لهم صلة بمؤسستها التعليمية يدركون أنها ترفع من شأن من يدرس في مدرستها ولا توهن مستواهم أو تضعفه ٠

ولم تمتدح احدا لا انا ولا سواي من صديقاتي الا مرة واحدةعندما كانت جالسة تتشمس في الحديقة وفي يدها الواحدة فنجان القهوة وفي الاخرى المجلة التي تتفحصها باهتمام وارتياح ورحت لاخذ اجازة لفترة المساء فقط وقالت لي بابتسامة لطيفة « نعم ٠٠ نعم ٠٠ يا عزيزتي خذي الاجازة بكامل رغبتي ان عملك في داري كان ولا يزال مثيرا للاعجاب ومليئا بالشهامة والتحمل والمثابرة ولك ملء الحق في أن تمتعي نفسك فاخرجي كلما أردت أن تخرجي وبالنسبة لانتقائك معارفك أرى أني فرحة جدا، فهم أناس طيبون لهم قيمتهم وجديرون بالثناء والتقدير » ثم خفضت حاجبيها واستأنفت قراءتها المجلة ٠

twitter @baghdad_library

ان القاريء لن ينظر نظرة جدية جدا الى الطرف الذي توارت فيه العلبة التي تحوي الرسائل الخمسة من خزانتي بصورة مؤقتة وكان الخوف أول نبأ مثير لي هند اكتشافي فقدانها ولكن بلحظة واحدة هدأت نفسي وهمست لها قائلة « صبرا ·· لن أفعل شيئا انما سأنتظر بسلام وستعاد الرسائل الي » وفعلا اعيدت فقد كانت في زيارة قصيرة لدى غرفة المدام وبعد الاطلاع عليها وتفحصها اعيدت ووجدتها كما كانت في اليوم التالي · ولا ادري رأيها بتلك الرسائل وماذا كان رأيها بقوة مسلسل الدكتور جون الرسائلي ؟ وبقوة أفكاره البليغة الخالية من الذرائع والخيلاء وبأسلوب ينساب انسيابا روحيا ، اعطاني مثل تلك البهجة ، ورأيها في تلك الكلمات الرقيقة القليلة المبعثرة هنا وهناك في رسائله كبعثرة اللآليء في وادي السندباد البحري : آه يا مدام بيك هلا قلت لي رأيك فيها ؟

ومن معاينتي عيني المدام بيك أدركت أن الرسائل راقت لديها فعندما استعارتها مني في يوم ما اخذت في اليوم التالي تمتحنني بنظرة تأملية ثابتة وظهرت على سيمائها الحيرة دون الحقد · واثناء ذلك الفراغ بين الدروس عندما خرجت التلميذات الى الساحة لمدة ربع ساعة من الفترة الدراسية بقيت انا وهي في الصف الاول وحيدتين وعندما التقت عيناي بعينيها طافت افكارها على شفتيها وقالت لي :

« يوجد شيء ملفت للنظر بصدد بعض كلمات اللغة الانكليزية » وقلت لها « ما هو يا مدام وكيف ؟ » وضحكت ضحكة قصيرة مكررة كلمة « كيف ؟ » باللغة الانكليزية وقالت « لا استطيع ان أفسر لك ·· كيف ؟ ولكن في اللغة الانكليزية آراء خاصة عن ·· الصداقة ·· الحب وغيرهما ولكن لا لزوم لمراقبتها والسهر عليها » ثم نهضت وابتعدت عني ووقع خطواتها كخبب الحصان القميء وقلت أتمتم مع نفسي « اذن لماذا لا تتلطفين وتتركين رسائلي للمستقبل ؟ » ·

ومع الاسف أن شيئا اندفع الى عيني واغشاها عن الرؤية وحجب عني غرفة الدراسة والحديقة وشمس الشتاء المشرقة اذ تذكرت أن الرسائل التي قرأتها لن تعود لي · لقد شاهدت آخرها ذلك النهر الجميل الذي أقمت على ضفافه ولم يصل الى شفتي من أمواجه سوى بعض القطرات التي

انعشتني وأحيتني والذي وجدت أنه ينعطف صوب مجرى آخر • لقد وجدته يهجر كوخي وحرمت من حقله ورماله واخذ يصب مياهه بعيدا بعيدا عني • حقا لقد كان التبدل صحيحا وعادلا وطبيعيا فما من كلمة يمكن التفوه بها في هذا الصدد ، بيد أنني أحب رايني ونيلي (نهرالراين ونهر النيل) وعبدت كنجي (نهر الكنج) وتألمت لان التيار العظيم يجري بعيدا عني ليتوارى كالسراب الخادع وهطلت قطرات الدموع وساحت سراعا على يدي وعلى منضدتي ورحت أبكي بكاء مرا •

وبعدها قلت لنفسي أن الامل الذي تحسرت عليه اخذ يتألم ويعاني وجعلني أتألم وأعاني ولم يمت الا عند دنو أجله وبعد حشرجة ونزاع وتباطؤ مرحبا بالموت • مرحبا به فانا اريده فالالم الطويل الامد جعلمن الصبر عادة • وفي نهاية الامر أغمضت عيني ميتي وغطيت وجهه ونظمت أطرافه بهدوء تام وينبغي اخفاء الرسائل • ان الناس الذين يفجعون باعزاء لديهم يتجمعون سوية ويحفظون تذكارات موتاهم فليس من الممكن تحمل طعنات تنفذ الى القلب في كل لحظة من اللدنات عن طريق استثارة الامى العميق •

وفي ظهيرة عطلة يوم الخميس عندما كنت ذاهبة الى كنزي للتمعن في كيفية التصرف به وأحسست ـ وفي هذه المرة بدافع قوي من الامى ـ بان يدا ستعبث به وكانت العلبة هناك حقا ولكن الشريط الذي ضمن لـه الامان كان يلفه ويحله وبدلائل اخرى علمت أن جاروري قد زاره أحد ولم يكن هذا بالامر الذي يمكن استسهاله فالمدام بيك نفسها كانت عصارة الحذر وروحيتها فعلاوة على امتلاكها دماغا تصدر به حكما لم يصدره أي دماغ بشري فان محتويات العلبة لم تكن سارة وينبغي ابداء جانب التحمل• لقد كانت كمحقق قضائي وتستطيع أن ترى الاشياء في ضوئها الحقيقي وتفهمها بشعور غير فاسد ولا منحرف ولكن فكرةقيامها بمغامرة افشائها للآخرين وربما استمتاعها مع رفيقة معهما بمستندات أقدسها تقديسا صدمتني صدمة قاسية •

وما دامت القضية قد وصلت الى هذا الحد فانني أجد سببا لاثارة مخاوفي حتى أنني ظننت بل ضمنت أن مستشارها وقريبها ومؤتمنها المسيو بول عما نوئيل قد أمضى أمسية الامس معها ورأيتها وهي كمن

twitter @baghdad_library

تستشيره وتبحث معه في قضايا لا يمكن أن تبحثها مع شخص ســـواه وفي صبيحة ذلك اليـــوم حدجني المسيو بول بنظرة يبـــدو أنه استعارها من « فاشتي » الممثلة ٠

ولم أكن لاتوقع في ذلك الوقت أن تينك العينين الزرقاوين المتقعتين تومضان بالغضب ولكنني عرفـت السبب وتحسست المعنى ٠ وفي اعتقادي انه لم يكن جديرا او محقا بأن ينظر في قضية تخصني من وجهـــة النظر العادلة ولا بأن يحاكمني بتسامح وبلا تحيز لانني وجدته دائما قاسيـــا وشكوكيا ومجرد التفكير بأن هذه الرسائل التي هي رسائل صداقة لا غير قد وقعت مرة بيديه او انها قد تقع مرة اخرى يضايقني ٠

وما الذي ينبغي علي ان افعله للحيلولة دون حدوث ذلك ؟ وفي أية زاوية من زوايا هذه الدار الغريبة يمكن أن أجد فيها أمانا أو مكمنـــا سريا ؟ ومتى كان المفتاح واقيا أو حارسا ومتى كان القفل حاجزا ؟ وهل في العلبة أو الحجرة الواقعة تحت السقف الاعلى أمان ؟٠٠ كلا ٠٠ لاأحب العلبة ثم أن معظم الصناديق والجوارير الموجودة منخورة وعفنة وتالفة ولا يمكن اغلاقها أو اقفالها والجرذ تقرض فيها أيضا وتحدث فيها ثقوبا تمر من خشبها المنخور وهناك مأوى بـــين فضلاتها المبعثرة ومحتوياتها الفاسدة ٠ ان رسائلي العزيزة ربما أكلتها الحشرات أو أن الرطوبة قد محت كتابتها ٠ كلا ٠ ان العلبة لا تفيد ولكن أين احفظها ؟٠

وبينما كنت أفكر بهذه المشكلة جلست امام نافذة غرفة المنام عـلى مقعد هناك وكان وقت ما بعد الظهيرة رائعا ومثلجا أشرقت فيـه شمس الشتاء وتوهجت صفراء على قمم شجيرات الحديقة في « الممر المحرم »حيث تتعالى شجرة الكمثرى القديمة الكبيرة جـــدا المسماة بشجـــيرة كمثرى الراهبات وهي كمثل هيكل طويل رمادي اللون اجرد ومقشر ٠ وخطرت ببالي فكرة كواحدة من الفكـــر الخيالية الغريبـــة التي تراود في بعض الاحيان الاناس المنعزلين وارتديت قلنسوتي ومعطفي وفروي وخرجت الى المدينة ٠

وبعد أن وجهت خطواتي الى الحي التاريخي من المدينـــة حيث كنت دائما الجأ الى تخومه القديمة المظلمة غريزيا في حالاتي النفسية الكئيبة ورحت أتجول من شارع الى شـــارع الى أن اجتزت وعبرت المكان شبـه

المنزل وجدت نفسي امام حانوت تاجر قديم يبيع التحف القديمة التي امتلأ بها حانوته والذي كنت انشده منه هو صندوق معدني يمكن لحمه او جرة زجاجية ثخينة او قنينة يمكن سدها بسدادة او ختمها باحكام ومن بين الاكوام المتنوعة وجدت ضالتي المنشودة الاخيرة واشتريتها ٠

ولففت الرسائل على شكل لفة صغيرة ورزمتها بحرير مزيت وربطتها بخيط من القنب ووضعتها داخل القنينة وحصلت من ذلك التاجر اليهودي القديم على سدادة وختم للتقوية وعدت لتوي الى المدرسة عند حلول الظلام وفي وقت تناول العشاء وعند الساعة السابعة بزغ القمر وبعد نصف ساعة عندما كانت التلميذات والمدرسون يدرسون في الصفوف والمدام بيك مع امها وطفلاتها في قاعة الطعام وانصاف الداخليين ذهبوا الى دورهم وروزين غادرت المجاز وعم السكون والهدوء لففت جسمي بشالي وحملت الجرة المختومة وانسللت عبر الصف الاول الى الممر المحرم ٠

وكانت الشجرة القديمة المعمرة تتعالى عند النهاية القصوى من ذلك الممشى بالقرب من مقعدي وفي خشبها القوي ثقب او تجويف عميق بالقرب من جذعها وكنت اعرف بوجود ذلك التجويف المخفي قسم منه بين جنبات اللبلاب والنباتات المعترشة المتسلقة المتكاثفة النمو وجاء في فكري ان اخبيء هناك كنزي ولم يكن قصدي اخفاء كنز فحسب بل دفن احزاني ايضا هناك ٠٠٠ احزاني التي طالما أبكتني ٠

وصنعت الطريق لي بين تلك النباتات المكثفة وعثرت على الثقب او التجويف وكان من الكبر بحيث اتسع للجرة ودسسته عميقا في الداخل وكان في باطن الحديقة بقايا مواد البناء تركها البناؤون الذين استخدموا مؤخرا لاصلاح قسم من تلك الاراضي وتحريت عن لوحة سددت بها الفتحة وعززتها بالاسمنت وغطيت الجميع بقالب الصب ثم اعدت النباتات الى ما كانت عليه وبعد ان أتممت ذلك أخذت قسطي من الراحة وظللت اتسكع ككل متفجعة على ميت لها بالقرب من الجدث الحديث ٠

وكان هواء الليل ساكنا جدا يعتمه الضباب الكثيف الذي حول ضوء القمر الى غيمة نيرة ، وفي ذلك الجو او ذلك الضباب اثرت في الحالة تأثيرا غريبا فقد شعرت آنذاك كما لو أنني في انكلترا والشفق القطبي يتدفق

twitter @baghdad_library

حول السماء وأنا وحيدة غير سعيدة بين الحقول وان كنت شاعرة بقوة متزايدة في نفسي .

ولو كانت الحياة حربا لكان من المحتم أن أخوضها بمفردي وفكرت في كيفية التخلي عن اماكني الشتوية وفي كيفية مغادرة المخيم الذي فشل امر تزويده بالطعام وربما اذا أريد احداث هذا التبدل فلابد من معركة مناوشات اخرى مع القدر واذا حدث ذلك فلدي ذهنية خوض المناوشة وقد يعينني الله على كسب المعركة ولكن اي طريق مفتوح لي واية خطة موجودة ؟

توقفت عند هذه القضية حين ظهر القمر بين الغيوم الداكنة بلمعان ابهى ونور شعاع منه حيالي ثم عتمة جزئية ملحوظة وامعنت النظر لمعرفة سبب هذا التباين الواضح المعالم الذي ظهر على حين غرة في الزقاق المظلم وبان أمام عيني أكثر ابيضاضا واسودادا ووقفت على بعد ثلاثة ياردات من تلك المرأة الطويلة ذات الرداء الاسود والحجاب الابيض ومرت دقائق لم أفر خلالها ولم أصرخ من الخوف ولما كانت باقية في محلها خاطبتها قائلة :

« من أنت ولماذا جئت الي ؟ » وظلت صامتة بدون وجه ولا ملامح وكل ما تحت جبينها مغطى بقماش أبيض وكانت لها عينان تنظران الي . وشعرت كان شجاعتي خانتني بنوع من القنوط وغالبا ما يكفي القنوط لملء الفراغ والقيام بالعمل الذي تقوم به الشجاعة فتقدمت خطوة واحدة ومددت يدي كمن يريد ملامستها ويبدو أنها تتقهقر وأنا أتقرب منها اكثر وان تقهقرها الذي كان لا يزال صامتا تحول الى تقهقر سريع .

وتدخلت بيني وبينهامجموعة الشجيرات الكاملة الاوراق والاخضرار واشجار الصنوبر المتكاثفة الدائمة الخضرة وبعد أن اجتزت تلك العقبة نظرت فلم أر شيئا وانتظرت ثم قلت « اذا كانت لديك أية مهمة أو رسالة تريدين ايصالها للرجال تعالي وسلميها ولم تحر جوابا واختفت . وفي هذه المرة لم يكن الدكتور جون موجودا لكي أتجرأ أمامه واهمس باذنه هذه الكلمات « لقد وجدت الراهبة مرة أخرى . كانت بولينا ماري تطالبني بملاقاتها في شارع كريس في خلال أيام بريتون الماضية ومع أنها لم تكن تفصح عن تولعها بي قط فان معاشرتي اياها اصبح بالنسبة لها نوعا من

الضرورة اللاشعورية واعتدت عـــلى ان الاحظ انني انسحبت الى غرفتي فانها كانت تأتي ركضا للحاق بي وتفتح الباب وتنظر منه الي وتقول لي بلهجتها الطفولية اللائغة « انزلي فلماذا تبلسين وحيدة ؟ عليك أن تأتي الى قاعة الاستقبال ·

وبنفس الروحية حثتني الآن قائلة « اتركي شارع فوسيت وتعالي وعيشي معنا وبابا سيعطيك اكثر مما تعطيك المـدام بيك بكثـير » وكان المسيو هوم قد عرض علي مبلغا ضخما يعادل ثلاثة اضعاف ما أتقاضاه في المدرسة من راتب اذا وافقت على أخذ وظيفة مرافقة ابنتـه ورفضت وفي رأيي أن كان علي ان ارفض حتى ولو كنت أفقر حالا مما أنا عليـه الآن وباقل مورد من موردي الحالي ·

وبوسعي أن أدرس كمدرسة وان أقدم دروسا للآخرين أما ان آخـذ وظيفة خاصة كمربية أطفال او وصيفة فلا وليس طبيعيا في نظري قط وبدلا من اشغال الوظيفة السابقة في دار احد الاثرياء أشغل ــ عمـــدا ــ وظيفة خادمة في منزل واشتري زوجا من القفافيز قـويا وأكنس الغرف والسلالم وأنظف الاوجاق (جمع وجـــاق) والصناديق والاقفال بسلام واستقلال وهذا افضل من أن اكون وصيفـة وبوسعي أن اخيط القمصان ولو تضورت جوعا ·

انني لست ظلا للسيدة الشهيرة حتى وان كانت كالآنسة دي باسومبيير ولست ذات طبيعة من شأنها الخضوع لاحد ولكن اذا جاءت مظاهر الاظلام والكآبة والاسى من تلقاء ذاتهـــا وبشكل طوعي فالامر يختلـف وبوسعي تحملها كالتي ابقتني سهلة الانقياد عـــلى رحلتي وسط تلميذات جيدات التعود الآن في الصف الاول من مدرسة المدام بيك او وحيدة بجانب فراشي في حجرة النوم أو في الممشى والمقعد اللذين خصصا لي في الحديقة ·

ان مؤهلاتي لم تكن قابلة للتحويل أو للتكييف أو لزخرفة حجر كريم أو جوهرة ولا لالحاقها بأي جمال ولا ذيلا لاية عظمة في العالم· أنا والمدام بيك نفهم احدانا الاخرى بدون استيعاب او تمثيل فهما جيدا ولم أكـن وصيفتها ولا مربية أطفالها · انها تركتني أتصرف بحريتي ولم تربطني بأي رباط او تشترط علي أي شرط ولم تربطني لا بها ولا بمصالحها ·

twitter @baghdad_library

وفي ذات مرة استدعيت من قبل أقاربها لمشاهدة مريض من عائلتها وبقيت اسبوعين عندهم وعند عودتها وهي ملأى بالاهتمام بمؤسستها التعليمية وقلقة من أن يكون قد حدث شيء في غيابها من خطأ أو مكروه وعندما وجدت أن الامور مضت أكثر مما يقتضيه الاعتياد وأن لا دليل على وجود اهمال ظاهر قدمت لكل معلمة هدية تقديرا لكونها موضع الاعتماد. وجاءت الي وأنا بجانب فراشي في الساعة الثانية عشرة ليلا وقالت لي أن لا هدية تعطيها لي وسأقدمها للقديس بيير بدلا من أن أقدمها لك لانني أخشى ان قدمتها لك أن يحصل سوء تفاهم بيننا وربما أدى هذا الى الانفصال وهناك شيء واحد استطيع أن أسرك به هو أن أتركك وحيدة على هواك وبحريتك وهذا ما سأفعله .

وحافظت على كلمتها وبذلك قد تكون قد أزالت بفعلها هذا أي قيد قيدتني به في السابق مهما كان بسيطا وتلذذت باحترام أنظمتها المدرسية بشكل طوعي وكعرفاني بجميلها ضاعفت وقت تكريسي لخدمة الطالبات وضاعفت وقت أتعابي في الوقت ذاته راضية . وبالنسبة للآنسة مأري دي باسومبيير زرتها برغبة صادقة وان كنت قد انتويت عدم العيش معها سرعان ما علمتني زياراتي أن حتى رفقتي الطوعية لها في بعض الاحيان ستكون مما لا يمكن الاستغناء عنها وبدا المسيو دي باسومبيير مغلقا في حدسه في هذا الصدد وأعمى حيال هذه الامكانية وغير دار ـ كأي طفل ـ بالدلالات والاحتمالات .

وسواء أقر ذلك وديا أم لا فانني أعتدت على استخدام حدسي ومن الصعب التوصل الى الحقيقة بذلك لقد كان منهمكا في المصالح العلمية ومتحمسا ومتحفزا في كل ما يمت بهواياته المفضلة بصلة ووائق ـ دون أي تشكك ـ بشؤون الحياة العامة . ومن كل ما استطعت جمعه يبدو أنه يعتبر ابنته طفلة وربما لم يعترف حتى الآن بالفكرة العامة ، فكرة أن على الآخرين أن ينظروا اليها في ضوء مختلف .

انه لا يزال يتكلم كما كان يتكلم في السابق من انه ماذا سيفعل عندما تصبح بولي امرأة وعندما تترعرع وتكبر وفي ذلك الوقت كانت بولي تقف بجانب كرسيه وتبتسم أحيانا وتمسك بيده بين يديها الصغيرتين وتقبل خصل شعره الرمادي الحديدي واحيانا تعبس وتقطب جبينها وتداعب عقصات شعرها ولكن لا تقول « بابا أنا كبرت » .

لقد كان للفتاة أمزجة مختلفة بالنسبة لمختلف الناس فمع أبيهاكانت لا تزال طفلة او شبيهة بالطفلة حنونة ورقيقة ومرحة ولعوب ومعيكانت جدية وامرأة فكرا وحسا ومع السيدة بريتون سهلة الانقياد وراغبة في التعلم وواثقة واتكالية وصريحة غير متحفظة ومع غراهام خجولة وفي الوقت الحاضر خجولة جدا وفي بعض الاحيان كانت تحاول أن تبدو باردة وفي بعض الاحيان الاخرى كانت تحاول أن تتجنبه وتنأى بنفسها عنه ٠

ان مجرد سماعها خطواته تشرع في عمل ذلك ودخوله يسكتها وعندما يتكلم معها لا تكون أجوبتها فصيحة ، وعندما يستأذن بالانصراف تبقى مرتبكة ومضطربة وحتى أبيها لاحظ ذلك السلوك عليها بحيث قال لها مرة « يا صغيرتي بولي أنت تعيشين حياة متخلفة جدا فاذا اصبحت امرأة بهذه الاساليب الخجولة لن تكوني صالحة للمجتمع الا بصعوبة ٠ أنت تنظرين الى الدكتور بريتون كما لو أنه غريب فما هذا ؟ ألا تتذكرينانك عندما كنت طفلة كنت مولعة به نوعا ما فأجابته بجفاف ممزوج بلهجة وادعة وبسيطة « نوعا ما ٠٠ يا أبي » وقال لها « وأنت لا تريدينه الآن؟ ماذا افعل ؟ » واجابته « لم يفعل شيئا وأنا أحبه قليلا ولكننا كبرنا فأضحينا غرباء الواحد عن الآخر » وقال لها « اذن دعي عنك كل هذا وازيلي الصدأ والفتور وتكلمي عندما يكون هنا ولا تخشي منه » ٠

وقالت له « انه لا يتكلم كثيرا فهل هو خائف مني ؟ ما رأيك ياابي؟» وقال لها تاكدي أن ليس هناك من رجل يخاف من مثل هذه السيدة الصامتة الصغيرة ، واجابته « اذن قل له يوما ألا يهتم عندما يراني صامتة وأنهذه عادتي وطريقتي وأن لا نية لي تجانف الصداقة » وأجابها « طريقتك ؟! أيتها الحمقاء الصغيرة ٠ بعيدا عن كونها عادتك أنها نزوة دابت عليها » وقالت له « حسنا يا أبي سأصلحها » ٠

وكانت رائعة جدا تلك الكياسة التي حاولت بها في اليوم التالي الايفاء بوعدها ووجدتها تبذل مسعى للتحادث مع الدكتور جون بدماثة وعذوبة معاشرة حول مواضيع عامة وهذا الاهتمام بعث في وجه ضيفها توهجا بهيجا وقابلها بحذر وأجابها بانعم وارق نبرة كما لو أن هناكنوعا من سعادة رقيقة رقة لعاب الشمس المعلق في الهواء ٠ كان يخشى ازعاجها بجرة نفس عميقة جدا٠ ومن المؤكد أن التقدم صوب الصداقة كانرائدها ولا يمكن نكرانه سيادة جو سحري محض على تلك المحادثات ٠

twitter @baghdad_library

وعندما انصرف الدكتور دنت من كرسي ابيها وقالت له « هل وفيت بوعدي يا أبي ؟ وهل تسلكت سلوكا أفضل ؟ » وقال لهـا أبوها « ابنتي بولي تصرفت تصرف ملكة وسأكون جد فخور بك اذا استمر هذا التسلك أنا والآنسة لوسي ينبغي أن نعنى بالجميع ونحسن كـل الاجواء ونطبق الاعراف الاخلاقية لئلا نرمى في عتمة تحرمنا مـن الشهرة في المجتمع ولا يزال لديك يا بولي أثر من الارتباك وجنوح قليل للفأفأة والتلعثم أحيانا وبلثغة كلثغة الاطفال كما لو انك لا تزالين في السادسة من عمرك » ٠

وقاطعته باستياء قائلة له « كلا يا أبي ٠٠ ليس هـذا صحيحا ٠٠ » وقال أبوها « أناشد الآنسة لوسي ألم تكن على هذه الحالة عندما تجيب على سؤال الدكتور بريتون عما اذا كانت قد شاهدت قصر الامير » بوا ليتانغ» واجابته « انني كنت هناك عدة مرات » ولفظت كلمتين من هـذه العبارة باللثغ » وقالت له « أبي أنت هجاء وذو طبع غريب فانا استطيع أن النظ كل احرف الالف باء بوضوح كما تلفظهـا أنت ٠ والآن أخبرني ٠٠ أنت معني كل العناية بأن تجعل مني مهذبة ولطيفة مع الدكتور بريتون فهـل تحبه أنت ؟ » ٠

وقال لها أبوها « تأكدي من انني احبه لصداقتي القديمة معه ثم أنه ولد طيب لام طيبـة ٠ أضيفي الى ذلـك أنه شخص طيب القلب وذكي في مهنته ٠ نعم انه شاب لطيف بما فيه الكفاية » (وذكر كلمة الشاب باللغة الاسكتلندية) واجابته بولي « انك اسكتلندي يا أبي ٠ هل لهجتك لهجـة مدينة ادنبرغ أم لهجة مدينة أبردين ؟ » واجابها أبوها كلتاهما يا بنيتي المدللة وهذا هـو الـذي يجعلني أتكلم الفرنسية بطلاقة ؟ ان اللهجـة الاسكتلندية تتفوق دائما على الفرنسية » ٠ وقالت له « أنت لا سبيـل الى تقويمك يا أبي وأنت أيضا تحتاج الى ارتياد مدرسة » ٠

وقال لهـا أبوها « حسنا يا بولي ينبغي عليـك أن تقنعي الآنسـة سناو بأن تتولانا نحن الاثنين فتجعل منك امرأة موضع اعتماد وتجعل مني مهذبا ومثقفا كلاسيكيا » ٠ ان الضوء الـذي شاهدتي تحتـه المسيو دي باسومبيير على ما يظهـر أبداني صرحـا ثقافيا فيالها من صفات مميزة متناقضة تعزى الينا في بعض الاوقات عـلى النحو الذي تشاهدنا أعينهم فالمدام بيك اعتبرتني مثقفة ومتعلمة في حين أن الآنسة فانشاوي اعتبرتني ساخرة وتهكمية وعيابة ٠٠

والمعروف عن المسيو هوم انه كان المدرس النموذجي وجوهر الرزانة والرشاد متمسكا بنوع ما بالتقاليد وربما متزمتا جدا ومقيدا ضمن حدود معينة وكثير الشكوك والوساوس في حين أن البروفيسور بول عما نوئيل ذا المقدرة والموهبة لم يضع أية فرصة للتهويل على ذهنـــه لاعتباري ذات طبيعة متقدة طائشة ومتهورة ومغامرة وتتصف بانعدام المرونة والوقاحة. وفي سري ابتسمت وأنا عالمة بأن جميع هؤلاء لم يفهموني باستثناء الصغيرة بولينا ماري .

انني لم أرد أن اكون مرشحة من قبل بولين ولا أجيرة رفقتها غير ان لطافتها وكرمها ودماثة خلقها جعلتني أنسجم معها واخيرا أقنعتني لـــكي انضم اليها في بعض نواحي الدراسة كوسيلة نظامية مقررة ومبتوت فيهـا لابقاء الصلة بيني وبينها واقترحت علي مساعدتها في تعلم اللغة الالمانية التي وجدتها ــ كما وجدتها أنا من قبل ــ صعبـة واتفقنا على أن ناخـذ دروسنا في شارع كريس لنفس المدرسة وهذا الاتفاق جعلنا نلتقي سوية بضع ساعات من كل اسبوع .

ويبدو ان المسيو باسومبير ارتاح لذلك تمامـــا وسره أن تخصص « الهة الحكمة » الوقورة قسما من فراغها للقاء بابنتـه وعزيزته الجميلة وهذا الحكم الذي قررته بنفسي جعل بروفيسور شـارع فوميت يكتشف بأساليبه التجسسية الخفية انني لـم أكـن كالسابق مستقرة ومواظبة في دوامي انما كنت أخرج بانتظام بضع ساعات من كل بضعـــة أيام فقرر وضعي تحت المراقبة وكان الناس يقولون أنه مجبول على التجسس وماهر في ذلك وكنت أود أن اصدق هذه الاقوال لو أنه كـــان قادرا على اخفاء مناوراته بصورة أفضل ولهذا شككت في كـلام الناس وفي اعتقادي أنه لم يكن اكثر من مخطط للكيد مكشوف لا مستورد ومن مدبر دسائس بصورة مكشوفة فهو يحلل دسائسه الخاصة ويدبر المكائد بشكل متقن لا لشيء الا لكي ينهمك في تبيان براعتها ويفتخر بها فيما بعد .

ولا أدري ما اذا كنت مستانسة اكثر أو مدعوة للاستفزاز اكثر حين تقرب مني ذات صباح وقال لي هامسا على شاكلة خطيرة انه كان يراقبني وان واجبه يقتضيه بان يدع الصداقة جانبا ولا يتركني أسير وفق أهوائي وظلت قضيتي معلقة دون البلوغ الى تسوية نهائية بهذه الشاكلة أو تلك

twitter @baghdad_library

ولم يدر ما الذي يفعله ازاءها وفي رأيه أن ابنة عمه المدام بيك هي الملومة عن ذلك في تركها معلمة في مدرستها تضع حبلها على غاربها. وما شأن معلمة تلبي طلبات تثقيفية من الكونتات والكونتيسات والفنادق والبيوت الريفية الفخمة وفي اعتقاده أنني تغيبت ستة أيام كما لمح لي بيد أنني قلت له أن هذا مبالغ فيه وأنني لم أفعل شيئا سوى التمتع بفائدة طروء تبدل طفيف في الآونة الاخيرة ولولا ضرورته لما تغيبت .

وقال لي « ضرورته ؟ كيف ؟ » وحثني الى النظر الى المثاليين الذين لا يطالبون بأي تبدل . ولا أدري بالانطباع الذي طفا على وجهي غداة تفوهه أمامي بذلك وكل ما اعرفه أن جوابي استفزه فراح يتهمني بالحمق والدنيوية والابيقورية وبالطموح في التوصل الى العظمة وبأنني أتوق للخيلاء والتواقة للحياة وغرورها ويبدو أنني ـ وفق ما قاله لي ـ غير مخلصة ولا أملك روحية الكياسة والعقيدة والتضحية ولذت بالصمت بعد أن اشحت بوجهي عنه بنوع ما .

وسمعت صوت دمدمة غامضة بين اسنانه لا اظن أنها كانت قسما لانه كان اكثر تدينا من ان يفعل ذلك وعندما لاقيته بعد ذلك بساعتين في المشى وانا مستعدة للذهاب لاخذ درسي بالالمانية في شارع كريسي وجدت أن ليس هناك من هو أفضل من هذا الرجل القميء في بعض النقاط ولا من هو اكثر نزقا واستبدادا منه في بعض النقاط الاخرى .

كانت مدرستنا الالمانية فرولين أنا براون امرأة ودودة في الخامسة والاربعين من عمرها تقريبا وكان ينبغي أن تعيش في عصر الملكة اليزابيث اذ كان من عاداتها أن تتناول في فطورها الثاني لحم الخنزير مع البيرة وكان محياها الذي يحمل الطبيعة المانية الصرفة يبدو وكأنه يعاني من التحفظ القاسي التعابير بما أسمته بانكليزيتنا المحافظة علما ان كلينا كنا نستشعر الراحة والاطمئنان معها غير أننا ما كنا نستطيع أن نمازحها كأن نضرب على كتفها واذا ما أردنا أن نقبل خدها فاننا كنا نفعل بلطف ونعومة دون التلمظ أو التمطق بقوة لان ذلك كان يضايقها كثيرا وسرعان ما اعتدنا على طبائعها فمشينا معها مشية جيدة جدا ونصحنا الفتيات الاجنبيات بالتصرف وفق ما كانت تهوى وقد أدهشها تقدمنا الحثيث في دراستنا واعتبرتنا فتاتين عبقريتين باردتي الطبع ومعتزتين بكرامتهما كل الاعتزاز .

لقد كانت الكونتيسة قليلة التفاهم بنفسها وصعبة الارضاء نوعا ما وربما كان لجمالها وكياستها الاثر في أحقية تلك التحسسات وفي رأيي أنه كان خطئا كبيرا أن تمارسها معي وكانت تحييني صباحا بشكل منظم وقد شعرت آنا براون بذلك الفرق الكائن بيني وبين بولينا ففي الوقت الذي كانت تنظر فيه الى بولينا نظرة خوف من جهة ونظرة توله من جهة اخرى لجمالها الحوري ورشاقتها الرائعة كانت تنظر الي نظرة أخرى كما لو كنت ملجئا مريحا لها ذات سريرة أسهل وأدمث رغم علمها بشدة مراسي ٠

وكان الكتاب الذي أحببنا قراءته وترجمته هو ديوان الشاعر شيلر وقصائده التي تعلمت بولينا بسرعة كيفية قراءتها بشكل جيد ٠ وكانت فرولين تصغي اليها بابتسامة عريضة تعبر عن ارتياحها قائلة ان صوتها كالموسيقى وترجمت القصائد أيضا بعبارات مناسبة وبتوتر الحماسة الشعرية الاصيلة يتوهج فيها خداها وترتجف شفتاها المبتسمتان وتتألق عيناها الساحرتان او تذوبان ذوبانا كلما أمعنت في القراءة وحفظت القصائد عن ظهر قلب وراحت تعيد تلاوتها في أغلب الاحيان عندما نكون وحيدتين ورددت ذات أمسية ونحن حول الموقد أبياتا شعرية باللغة الالمانية

وقالت بولين « عاش وأحب » هل هذه قمة السعادة على الارض ونهاية الحياة كما يقول هذا الشاعر ؟؟ أن تحبي ؟؟ لا أظن هذا صحيحا فقد يكون هذا الحد الاعلى للبؤس القاتل وقد يكون مضيعة للوقت لا اكثر ولا أقل ومن قبيل تعذيب للمشاعر لا طائل تحته واذا كان الشاعر شيلر قد قصد مو كلماته الشعرية هذه أن يكون محبوبا فانه قارب الحقيقة بذلك واليس « أن تكون محبوبا » هو شأن آخر يا لوسي ؟ »

وقلت لها « أوافقك في ذلك فقد يكون هذا صحيحا ولكن لماذا تتحدثين عن هذا الموضوع ؟ ما هو الحب في نظرك ؟ وماذا تعرفين عنه ؟ » واحمر خداها احمرارا قرمزيا وظهر على محياها مزيج من التبرم والاستحياء وقالت « لا أقبل منك هذا يا لوسي فمن حق بابا أن يظل ينظر الي وكأنني لا أزال طفلة وهذا ما يريحني منه ولكنك تعرفين أو ينبغي عليك أن تعرفي أنني شارفت التاسعة عشرة من عمري » ٠

وقلت لها « لا يهم حتى اذا كنت في العشرين من عمرك ٠ أننا لانتوقع احاسيس ومشاعر بالتباحث والحوار ولن تتكلم عن الحب » وقالت لي

twitter @baghdad_library

بسرعة وحيوية حارة « حقـا ·· حقـا ·· باستطاعتك أن تحاولي معرفة ما في سريرتي قدر ما تشائين ولكنني سبق أن تكلمت في ذلك وسمعت الكثير مؤخرا وبطريقة قد لا توافقين عليها » ولم أفهم شيئا مما قالته ومع ذلك لم أشأ أن أسألها واستفهم منها ما عنته بعبارتها هذه رغم أنها لم تزدني علما بعد أن لاحظت ارتباكهـا وابتسامتها الماكرة الدالة على الانتصار · وبعد أن لاحظت براءتها التامة طائفة على محياها ومقرونة بانحرافها السريع الزوال قلت لها أخيرا متسائلة : « من تحدث لك بشكل متعمد لم ترتضيه في مثل هذه المواضيع ؟ ومن تلك المقربة لك تجرأت على ذلك ؟ » واجابتني بلطف متزايد « يا لوسي ·· هي شخص يزعجني ويغمني واحيانا أود التخلص منه والابتعاد عنه لانني لا أريده » وقلت لها « انك تحيريني يا بولينا كل التحير فمن هي ؟ » واجابتني « انها ابنة عمي جنيفرا فهي تأتي عندي كلما ارادت أن تزور السيدة كولوندبلي وكلما تجدني وحيدة تبادئني الحديث عن المعجبين بها وعن الحب وعن كل ما يتصل بالحب من قريب أو بعيد » ·

وقلت لها بمنتهى البرود « طالما سمعت منها ما سمعته أنت · انه شيء لا يؤسف له ··· انه شيء حسن طالما أن الذي في ذهنيتها لا يؤثر عليك ولا يمكن أن يؤثر وكل ما ينجم عن ذلك هو اكتشافك مافي رأسها وما في قلبها » وقالت لي « انها تؤثر علي تأثيرا كبيرا فلها فن اقلاق راحتي وسعادتي وتشويش آرائي وافكاري فهي تؤذيني عن طريق هذه الاحاسيس وتؤذي أعز الناس عندي » وقلت لها « ماذا تقول ؟ أعطني فكرة عمـا تقوله فقد تكون معادلة أو مشابهة للضرر الذي تلحقه » ·

وقالت لي « انها تسيء بالكلام للناس الذين طالما احترمتهم وتحط من قدرتهم حتى إن السيدة بريتون لا تسلم منها ولا ولدها غراهام »وقلت لها « وكيف تمزج هذه بمشاعرها ·· وبحبها ؟ انها تمزجها على ما أظن ؟» وقالت لي « يا لوسي ··! انها وقحة وصلفة وفي اعتقادي أنها مخادعة وغادرة · أنت تعرفين الدكتور بريتون وكلانا نعرفه فقد يكون مهمـلا ومتكبرا وعديم الاهتمام ولكنه ليس حقيرا أو خائنا وذليلا كما تصوره ؟ وكل يوم تظهره كما لو أنه ينحني على قدميها ويتابعها متابعة الظل وتصده بالاهانات وهو يتوسل اليها بافتتان وتيتم ·· قولي لي يا لوسي هل هذا صحيح ؟! »

وقلت لها « ربما كان صحيحا انه استحلاها ذات مرة واعجب بجمالها. الا تزال تدعي بأنه لا يزال يلتمسها ويطلب يدها ؟ » وقالت لي « تقول انها ستتزوجه يوما ما فهو ينتظر رضاها وقبولها فقط » وقلت لها « ان هذه المزاعم والحكايات سببت لك هذا التحفظ في موقفك ومسلكك من غراهام وهو ما لاحظه والدك » وقالت لي « فعلا جعلوني جميعا أشك في اخلاقه وكما تقول جنيفرا انهم لا يحملون معهم صدى الحقيقة السافرة وأنا أعتقد بأنها تبالغ وربما تلفق ولكنني أريد أن اعرف الى أي مدى تفعل ذلك » .

وقلت لها « ماذا تقولين اذا أعطينا فرصة لفانشاوي لتقدم البرهان ولتظهر أمامنا قوة تبجحها » وقالت لي « أستطيع أن احقق ذلك غدا فقد قدم الوالد دعوة لبعض العلماء الجنتلمانية لتناول العشاء عنده وقد اكتشف الوالد أن غراهام أيضا هوعالم فهو بارع ـ كما يقولون ـ في أكثر من فرع علمي وسأجلس دون أن يسلبني أحد على المنضدة بين مثل هذا الجمع ولن يكون بوسعي أن أكلم السيدين أي « و.ز » العالمين الاكاديميين من باريس وساكون في وضع محفوف بالصعوبات . ان عليك أنت والمستر بريتون أن تأتيا لمساعدتي . وستكون جنيفرا معكما بالتأكيد لانني سأقدم الدعوة لها وستتاح لها فرصة تبرير سلوكها وصحة ما تدعيه » .

twitter @baghdad_library

الفصل السابع والعشرون

ـ فندق كريسي ـ

بدأ الغد يوما اكثر حيوية وانشغالا مما توقعوها او مما توقعتها أنا كان عيد ميلاد أحد الامراء الشباب من آل لاباسيكور وأن أكبر الامراء الدوق كان دي دندونو الذي خصصت في المدارس عطلة عامة تيمنا به ولا سيما في كلية « أثينييه » الكبرى · وكان لعدد من اصدقاء المسيو باسومبيير من العلماء « علاقة ـ بهذا المدى أو ذاك ـ بهذه الكلية وكان من المتوقع أن يحضروا بهذه المناسبة مع موظفي بلدية « فيليت » الموقرين امثال المسيو شيفالييه ستاس عمدة المدينة وكان اصدقاء دي باسومبيير قد استدعوه لمرافقتهم ولابد أن تكون ابنته الجميلة من ضمن المجموعة وقد كتبت لجنيفرا ولي ملاحظة تطلب منا الحضور مبكرا والانضمام اليها ·

وبينما كانت الآنسة فانشاوي وأنا نرتدي ثيابنا في المهجع أخذت هذه تستغرق بالضحك بعد أن انتهت من ارتداء ثيابها الفاخرة واخذت تطيل النظر الي فقلت لها « وماذا لديك الآن ؟ » فأجابتني قائلة بلهجتها الوقحة المتسببة العديمة التحفظ الممزوجة بمظاهر الصداقة « يبدو انمن الغرابة بمكان انك وانا أضحينا في مستوى واحد نزور نفس المنزلة الاجتماعية ولنا نفس الصلات والارتباطات » ·

وقلت لها لماذا ؟ أنا لا أكن احتراما كبيرا للصلات والارتباطات التي نوهت عنها قبل برهة وليست السيدة كولونديلي ومن لف لفها بالتي تناسبني أو يناسبنني اطلاقا » وتساءلت بلهجة صريحة لا لبس فيها من الغرابة جعلتني أضحك أنا ايضا بدوري « من أنت أيتها الآنسة سناو ؟ لقد أسميت نفسك أول ما جئت الى هنا مربية أطفال في هذه الدار

twitter @baghdad_library

وشاهدتك تحملين جورجيت طفلة المدام بيك ككل خادمة او مربية اطفال والآن تظهرين شعورك بالتفوق والمدام بيك تعاملك بادب جم يفوق أدبها في التعامل مع الباريسية سنت بيير وتلك الفتاة الوقحة ابنة عمي اتخذت منك صديقة صميمة لها » ٠

وسررت بلهجتها التي أرادت أن تريكني بهـا ووافقتها بقولي لهـا « هذا مدهش ٠٠ من أنا في الحقيقة ؟! ربما كنت شخصية بارزة متخفيـة ومن المؤسف أن ذلك لا يناسبني » وقالت لي « استغرب من أن كل هذا لم يشبع غرورك وتأخذين كل هذا بهدوء ورباطة جأش وعدم اكتراث واذا كنت لا شيئا كما ظننتك ذات مرة اذن لست سوى باردة الاحساس وعديمة الاكتراث » ٠

وقلت لها وأنا شاعرة بأن دمائي تفور نوعا ما دون أن يبـدو علي الغضب وحول عبارة لاشيء التي وصمتيني بها ذات مرة أقول لك مكررة٠٠ أية أهمية تعار لفتاة مدرسة تستخدم استخداما فظا عبارتي « لا احد ٠٠ ولا شيء » واكتفي بالقول انني أعامل بكل مكان معاملة اللطف والكياسة واسألك الآن أي شيء في الكياسة حظيت به بحيث حـدت بك الى رميي بحمى الارتباك ٠

وقالت لي باصرار « ليس بوسعي سوى أن اظهر الدهشة مما تقولين» فاجبتها قائلة « تندهشين من أعاجيب تلفيقاتك الخاصة ٠٠ هل انت الآن جاهزة للذهاب اخيرا ؟ » فقـالت لي « نعـم ٠ دعيني أتشبث بذراعـك » فقلت لها « لا أرتضي ذلك بل نمشي جنبـا الى جنب » وعندمـا تشبثت بذراعي رغم رفضي كانت دائما ترمي بكامل ثقلها علي وما دمت لم أكن أحد الجنتلمانية أو احد عشاقها فقد استأت من ذلك ٠

وصاحت « أقول لك مرة أخرى أنني بطلبي منك الامساك بذراعيك هو التفطية على ملابسك ومظهرك العام وعنيت بـه مجاملتك » فقلت لهـا هل هذا صحيح ؟ أردت أن تعبري عن أنـك لا تستحـين من أن يروك في الشارع معي ؟ قد تكون السيدة كولونديلي جالسة في النافذة وفي حضنهـا كلبها او الكولونيل دي هامال يخلل أسنانه وينظفها بعود في الشرفة يقـع نظره علينا ألن تخجلي من أن يشاهدوك معي ؟ » فقالت « نعـم » بتلك

الصراحة الخالصة التي تضفيها علي باكاذيبها التي كانت القوام الاوحد لشخصيتها ٠

وقابلت كلمة « نعم » التي قالتها برزانتي تلك الرزانة التي تعبر كما عبرت احاسيسي في النظرة التي صوبتها اليها وقالت لي ونحن نعبر الساحة الكبرى وندخل المتنزه الهادىء الجميل وهو أقرب طريق لنا الى « كريسي » أيتها المخلوقة الساخرة الهازئة لا أحد في العالم عاملنيمعاملة فظة كالتي تعاملينني أنت بها » وقلت لها « أنت السبب دعيني وحدي ٠ هدئي الجو فساتركك وحدك الآن ٠ »

وقالت لي « وكيف لا ؟ وأنتغريبة الاطوار وغامضة الى هذا الحد؟» وقلت لها « ان الغموض وغرابة الاطوار من خصائصك أنت ومن مفهوم دماغك لا اكثر ولا أقل ٠ تظاهري بالصلاح لكي أقوى على ابعاد ذلك عن ناظري » وواصلت تقول وهي تزج بيدها عنوة وبالرغم مني تحت ضبني وهذا الضبن ضغط بقوة شديدة على جانبي غير مرحب بالتطفلة عنوة « ولكن هل تعتبرين نفسك شيئا ما ؟ » وقلت لها « نعم ٠٠ أنا شخصية صاعدة ٠ كنت في زمن ما وصيفة احدى العجائز ثم مربية اطفال والآن مدرسة » وقالت لي بلهجة الحاح « قولي لي من أنت ؟ لن أكرر هذا القول مرة أخرى » وراحت تهتصر الذراع الذي تمكنت منه الآن كل التمكن وتتملقني وتلاطفني وتدغدغني الى أن اضطررت للتوقف في المتنزه لاضحك ٠

واثناء مواصلة سيرنا تعمدت تغيير الموضوع بشكل بارع مبرهنة بسذاجتها العنيدة أو بمكرها على عجزها عن أن تستطيع تحويل أيشخص عن وضعية سلامته واعتداله وتكامله العقلي اذا كان غير مدعوم بولادته أو بثروته أو باسم مدو شهير أو بصلاته الخاصة ابرموقة ٠ وبالنسبة لي كان يكفي لعقلي المطمئن أن أكون معروفة حيث العرفان واجبومطلوب والباقون دوني شانا سواء أكانوا من أصل ومحتد ونسب رفيع او ذوي مراكز اجتماعية او ذوي تحصيل ثقافي عميق فهم في نفس المكانة التي تضعهم فيها مصالحي وافكاري فهم في الدرجة الثالثة من مصافي ومقامي ٠

لقد علمني زماني أن للعالم تقديره الخاص المغاير للتقديرات

twitter @baghdad_library

الاخرى وليس من ريب عندي ان العالم محق تمـــام الاحقية في رأيه وفي اعتقادي أن آرائي ليست خاطئة · هنـــاك أشخاص يتـــدنى وضعهـم الاجتماعي اخلاقيـا ويفقدهـم قلة الانتماء او قـــلة الاتصال احترامهم لانفسهم أليس لمثل هؤلاء ما يبرر لهم وضع أعلى قيمهم على مراكزهم أو على اتصالاتهم التي هي الضمانة لهـــم من أن ينحط قدرهم أو يتـدني مقامهـم ؟

اذا كان هنالك رجل يشعر بانه سيصبح خسيســا ووضيعا وموضـع ازدراء في رأيه واعتقاده لمجرد ان أسلافه كانوا بسطاء او فقراء بدلا من أن يكونوا أغنياء وعمالا لا رأسماليين فهل يلومه احد اذا ما حـــاول أن يطمس هذه الحقائق ويحجبها عن العيون واذا ما ارتعدت فرائصه خـوفا من ان تعمل أية فرصة عـلى فضـح حقيقته ؟ كلما عشنا طويـلا وزادت تجاربنا واتسعت قلت نزعتنا للحكم عـــلى أوضاع جيراننا وسلوكياتهم ومحاولة استطلاع حكمة العالم · وحيثما يوجـد تجمع أو تحشد مراكز دفاعية جديدة سواء كانت تحيط بفضيلة المحتشم او بالرجل الذي يحظى باحترام العالم فهناك تكون مطلوبة بالتاكيد ·

لقد وصلنا الى فندي كريسي وكانت بولينا حاضرة ومستعدة ومعها السيدة بريتون وبحراستها وبحراسة المسيو دي باسومبير أخذنا الى مكان التجمع واجلسنا في مقاعد مريحة لا تبعد عن منصة الخطابة كثيرا وامامنا مقاعد المثقفين الاثينيين واعضاء المجلس البلدي وعمدة المدينـــة الذين خصصت لهم مقاعدالشرف وأحتل الامراءالشباب ومدرسوهم الخصوصيون مواقع بارزة وازدحم الجـــزء المركزي الاساسي مـــن البنـاية واكتظ بالارستقراطيين وبوجهاء المدينة ·

وفيما يتعلق بهوية البروفيسور الذي قد يلقي محاضرة فأنا لم اهتم بالموضوع ولم أحاول الاستفسار عنه وانطبع في ذهني توقـع غامض بأن عالما من هؤلاء العلماء سيقف على المنصة ويلقي خطابا رسميا نصفه ايمان جامد بالاثينيين ونصفه الآخر تملق للامراء · وعندما دخلنا كانت المنصة فارغة ولكن بعد عشر دقائق امتلأت · وبعـد لحظات ظهر رأس وصـدر وذراعان فوق الرحلة القرمزية ·

ذلك الرأس لم أكن أجهله فلونه وشكله وتعبيره مألوفة لدي ومألوفة

لدى فانشاوي أيضا وأن اسوداد جمجمتـــه وســـعة حاجبيه وشحوبهما وازرقاق ناظريه واتقادهما كانت تفاصيل مستقرة في الذاكرة وهكـــذا منطبعة بزمالة غريبة الاطوار بحيث استثارت الضحك وفي الحقيقة ظللت اضحك الى أن حميت الدماء في عروقي ثـم حنيت رأسي ووضعت منديلي وانزلت خماري للتستر على ضحكي ·

وفي ظني أنني كنت مسرورة لرؤية المسيو بول فمن دواعي السرور أن يرى المسيو بول في مثل ذلك المكان بوجهه المقطب المسود البادية مخايل صراحته وجرأته وهيمنته وغلبته لاسيما عندما يكون واقفا على منصتـه في الصف · لقد كان ظهوره مفاجأة لم اكن أتوقعها رغم علمي بأنه يحمل كرسي الرئاسة في الادب والبلاغة في الكلية · ووجه كلامه للامراء والنبلاء والحكام والمواطنين بنفس السهولة والجدية والنبرة الشديدة وبدا لي أن المسيو بول كان يتحلى بروحية جديدة غير معروفة لدي ولا اريد الآن أن أتطرق الى المشاعر الوطنية التي عبر عنها بقوة وانفعال ·

ولا أظن أن الجمهور تأثر على وجه التعميم بحرارة مشاعره ونقاوتها ولكن بعض الشباب انفعلوا عند تطرقه بفصاحته الى مـا ينبغي أن يكون طريقهم ومساعيهم لخدمة بلادهـم ولمستقبل اوربا وراحوا يصفقون لـه بحرارة ولمدة طويلة وبهدير من الهتافات فقد اعتبروه ــ رغم شراسته ــ بروفيسورهم المفضل وعندما همت جماعتنا بالانصراف ومغادرة القاعـة كان هو واقفا عندالمدخل فشاهدني وعرفني ورفع قبعته احتراما ومد يده عند العبور وقال لي « ما رأيك في هذا ؟ » وهو سؤال اعتبرته ذا خصوصية بـارزة ·

وذكرني هذا السؤال حتى في هذه اللحظة ، لحظة ايتهاجه بالنصـر بقلقه المتسم بحب البحث وبالفضول وبانعدام مـــا أسميه بضبط النفس المرغوب فيه وهو من بين ما ينقصه ويعيبه · وما كان ينبغي عليه أن يهتم في ذلك الوقت عما فكر الآخرون به ·

حسنا !! لو أنني لمته في اندفاعه لمعرفة انطباعات الناس عنه فانني ينبغي أن أمدحه لبساطته وفي قلبي مديح جم كثير ولكن ــ مع الاسف ــ لم تصل الى شفتي ومن ذا الذي تأتيه الكلمات في اللحظة المطلوبة ؟ وتمتمت

twitter @baghdad_library

ببعض التعابير الضعيفة العرجاء ولكنه استبشر كل الاستبشار عندما جاءه الناس يهنئونه بالتهاني الوفيرة وغطوا بذلك عجزي عن الاكثار ٠

جاء أحد الجنتلمانية ليقدمه للمسيو دي باسومبيير وللكونت الذي كان شاعرا بالامتنان الشديد منه لخطابه ودعاه الى تناول الغداء مع أصدقائه في فندق كريسي واعتذر عن الحضور لانه كان يخجل من الاجتماع مع ذوي الثراء وكانت فيه القوة الاستقلالية في جملته العصبية ويشعر بالبهجة عندما يرى شخصا يقدر ما فيه من السجايا والمزايا واخيرا فضل الذهاب مع صديقه الاكاديمي الفرنسي (ايم ٠ اي) عند حلول المساء ٠

وفي وقت عشاء ذلك اليوم بدت جنيفرا وبولينا ـ كلا بطريقتها الخاصة ـ جميلتين جدا فجنيفرا تتبجح بسحرها الجسماني أما بولينا فقد كانت تتألق بشكل بارز وبجاذبيتها الروحية وبنورانية عينيها وجمال ولطافة محياها المذّى بمختلف التعابير والمعاني ٠ أن جنيفرا برادئها القرمزي أطلقت ضفائرها الخفيفة التي كانت تنسجم مع ازهارها ونضارتها الشبيهة بنضارة الزهرة ٠

ان ملابس بولينا البيضاء رغم نظافتها وأناقتها تحدو بالعين الى أن ترى بهجة الحياة في مظهرها وفي حيوية سيمائها ومحياها وبعمق عينيها الحنونتين اللطيفتين والظل الاسمر لشعرها الكث الوافر المتموج ، شعرها الادكن من شعر ابنة عمها السكسونية وكذلك حاجباها واهدابها وقزحية عينيها واذا كانت الطبيعة قد رسمت كل هذه التفاصيل بشكل مخفف وبيد عديمة العناية والاكتراث في فانشاوي فانها رسمتها في الآنسة دي باسومبيير بيد بارعة وأنهتها نهاية رائعة أيضا ٠

ولم تكن بولينا بالصامتة انما كانت تتحدث ببساطة وتواضع واستحياء وبحلاوة حتة تدخل في صميم مشاعر السامعين بحيث أن اباها كان يقطع حديثه اكثر من مرة ليصغي اليها وليركز عليها نظرة بمنتهى الفخر عندما كانت تكلم فرنسيا مثقفا ومؤدبا يجرها الى الحديث معه ٠ وسحرها لغتها الفرنسية التي كانت تنطق بها دونما خطأ فالتركيب صحيح والاصطلاحات صحيحة واللهجة صحيحة وان جنيفرا التي امضت نصف حياتها على القارة لم تكن تقوى على التكلم بمثلها لا لان الكلمات

كانت تستعصي عليها بل لانها لم تكن تملك الدقة الحقيقية والنقاوة علما بأن الذي كان يسر الاب من لغة ابنته هو أنه كان دقيقا في معرفته باللغة.

وكان من بين الحاضرين المصغين الذين جاؤوا متأخرين لتناول العشاء بسبب مهنتهم هو الدكتور بريتون الذي راحت كلتا السيدتين تمعنان النظر به بهدوء حالما أخذ مقعده على المائدة وراحتا تختلسان النظر مرة اثر مرة وأن وصوله أثار الانسة فانشاوي التي كانت الى ذلك الوقت كسولة فاترة الهمة وما ان دخل الدكتور حتى اخذت تبتسم وبدا عليها الرضى وراحت تتكلم ولكن اتسم كلامها بجرح المشاعر نوعا ما وبكونه لم يناسب الحالة السائدة آنذاك.

ان ثرثرتها التافهة المفككة غير المترابطة ربما كان غرامها يصغي اليها بارتياح وربما لا يزال يرتاح اليها حتى الآن وربما كان الخيال أو التخيل هو الذي جاءنا بالفكرة التالية وهي أنه بينما كانت عين الدكتور بريتون ملأى وأذنه مغذاة بالصوت فان ذوقه وتلذذه أو استمتاعه الشديد وعقله الناشط لم تكن قد استثيرت وان أخلاقه لم يبد عليها أي أثر للاستياء أو الغضب أو البرود وكانت جنيفرا بجواره ولم يركز انتباهه لسواها وبدا الارتياح عليها بحيث ذهبت الى غرفة الاستقبال بمعنوية قوية جدا.

وما ان بلغنا ذلك المكان الا وعادت الى فتورها فرمت بنفسها على المقعد ونددت بالمحادثات والمحاضرات والعشاء واعتبرتها أشياء سخيفة وسألت ابنة عمها كيف تتحمل تلك المجموعة العادية المملة التي جمعها أبوها حوله وما ان سمعت خطوات الجنتلمانية حتى كفت عن شكواها واحتجاجها ويممت صوب البيانو وراحت تعزف عليه. وكان أول الداخلين الدكتور بريتون وأخذ موقعه بجانبها وظننت انه لن يبقى في مكانه طويلا وان هناك مقعدا بجانب الموقد سيلجأ اليه وكان يكتفي بأمعان النظر اليه وفي ذلك الوقت جاء آخرون.

ان جمال بولينا ومزاجها وعقلها سحر اولئك المفكرين الفرنسيين وأن روعة جمالها ولطف شمائلها ولباقتها الفطرية العقيقية ـ رغم عدم نضوجها ـ واءمت أذواقهم القومية فتجمهروا حواليها لا لكي يتحدثوا بالعلوم وهو ما يجعلها بكماء خرساء فيها وانما ليتكلموا في مواضيع أخرى

twitter @baghdad_library

كالآداب والفنون والحياة الواقعية وهو ما لها فيها ذخيرة مما قرأته ومما تتذكره واصغيت وكنت موقنة بأن سمعه ونظره كانا جيدين وسريعين جدا وقادرين على التمييز وعرفت بأنه جمع ما دار من الاحاديث وشعرت بأن الطريقة التي اتبعها ناسبته كثيرا وسرته الى حد الاثارة ٠

وكان في بولينا قوى مزيجة من الاحاسيس والاخلاق اكثر مما كان يتصور معظم الناس واكثر مما كان غراهام يتصور واكثر مما كانت تظهره هي لاولئك الذين لا يودون مشاهدتها واذا توخينا الصدق أيها الشعراء لا يوجد جمال بديع أو حسن رائع مكتمل ولا صفاء ودماثة موثوق بها يدون قوة رائعة مكتملة موثوق بها ٠ ان نشدانك فاكهة جيدة وزهرات الشجرة المثمرة في شجرة لا جذع فيها وفي شجرة فاقدة الحيوية هو كنشدانك سحرا في طبيعة واهنة وقد يزدهر المظهر الخارجي للجمال حول الضعف ولكنه لا يتحمل التصويح او الاصابة بآفة وسرعان ما يذوى حتى وسط أشعة الشمس السنية وبينما كان الدكتور بريتون يصغي وينتظر انفتاح الدائرة السحرية كانت نظراته تلف ـ بقلق ـ ارجاء الغرفة في بعض الفترات وبالصدفة وقعت علي وأنا جالسة في زاوية منعزلة غير بعيدة عن عرابتي وعن المسيو دي باسومبيير اللذين كانا يتحدثان محادثة الند للند وابتسم غراهام بعد أن عرفني وعبر الغرفة وسألني كيف حالك ؟ وقال لي انني أبدو شاحبة الوجه وانا ايضا ظهرت الابتسامة على وجهي علما بأن الدكتور جون لم يكلمني منذ ثلاثة أشهر تقريبا وهي مدة حتى أنه لم يشعر بها كما ظهر وجلس ولازم الصمت وكانت رغبته الظاهرة هي النظر دون المحاورة وكانت جنيفرا وبولينا مقابلتين له الآن وكان ينظر بملء رغبته واستعرض كلا الشكلين ودرس كلا الوجهين ٠

ودخل الغرفة عدة ضيوف جدد من نساء ورجال منذ تناول العشاء واخذوا وأخذنا في تبادل الحديث وشاهدت سيدا سبق أن عرفته وهو يحوم في المجاز الضيق من الصالون الداخلي هو المسيو عمانوئيل الذي كان قد عرف الكثيرين من السادة الحضور ولكنه ـ على ما أعلم كان لا يعرف السيدات فبعضهن غريبات عنه باستثنائي وعندما كان ينظر صوب المقعد وقع نظره علي وبدرت منه بادرة من يهم بالدنو مني ولكن عندما شاهد الدكتور بريتون عدل عن رغبته وتراجع ٠

ولو كان هذا فحسب لهان الامر ولما كان هنالك موجب للشجار فهو لم يقنع بالرجوع الى الخلف وانما جمد وغض حاجبيه وزم ما بين شفتيه ونظر الي بقرف وقبح بحيث لم أجد بدا من أن اشيح بوجهي عن هذا المزعج ووصل المسيو جوزيف عمانوئيل شقيق الصارم المتزمت فابعد جنيفرا عن البيانو فيالتلك اللمسة الاستاذية التي استخلصت عزف التلميذة ويا لتلك الاداة التي عبرت بالامتنان الكبير عن شكرها لانامل الفنان الحقيقي ٠

وبادرني الدكتور جون بريتون بالكلام وهو يبتسم عندما مرت من امامه جنيفرا تتهادى في مشيتها بعد ان القت نظرة الينا اثر مرورها « يا لوسي ٠٠ في الحقيقة ان الآنسة فانشاوي فتاة بديعة » وقلت له بشكل مصدق ومؤيد « طبعا !! » وقال « هل يوجد في الغرفة من يضاهيها جمالا؟ » وقلت له « لا أظن أن هنا من يضاهيها جمالا » وقال لي « أوافقك يا لوسي فانت وأنا غالبا ما نتفق في الرأي أو في الذوق أو في الحكم في أقل تقدير » وقلت له بلهجة الشك نوعا ما « أصحيح هذا ؟ » وقال لي آراني معتقدا يا لوسي بأنك لو كنت ولدا بدلا من فتاة وابنا بالمعمودية لامي بدلا من ابنة بالمعمودية لاصبحنا صديقين رائعين ولذابت واندمجت آراؤنا بعضها ببعض » ٠

لقد انتحل أو اتخذ له جوا مازحا والتمعت ومضة منحرفة بمزيج من اللطافة والسخرية ٠٠ آواه ٠٠ يا غراهام ٠٠ لقد خصصت اكثر من لحظات وحدانية انعزالية للافكار وللحسبانات ذات العلاقة بتقديرك لوسي سناو فهل كانت كلها دائما لطفا أم عدلا ؟ ولو كانت لوسي في جوهرها الشيء ذاته ولو كان لها منافع اضافية من الثروة او المركز الاجتماعي فهل كان موقفك منها وتقييمك اياها فعلا كموقفك وتقييمك الحالي ؟

ومع ذلك لست بهذه الاسئلة ألوم نفسي بشكل جدي ٠٠ كلا ٠٠ انت قد تحزنني أو تقلقني أو تبعث في نفسي الاضطراب احيانا ولكن أعلم أن حزني سريع الزوال ومزاجي سريع التمرد وسهل التشويش لقد حدث كما لو أن غيمة عبرت الشمس وربما أمام عين عدالة قاسية وفظة وعلي أنا يقع اللوم اكثر مما يقع عليك وقلت وأنا أحاول أن أخمد وقع الالم الذي

twitter @baghdad_library

يكرس حبه وولاءه للآخرين بشكل جدي أكثر وباهتمام رجولي أكثر فانه لا يكن للوسي سوى المزحة الخفيفة وقلت له متسائلة بهدوء :

« بأية نقاط نشترك أنا وأنت بالاتفاق عليها ؟ » وقال لي « نكلينا قوة ملاحظة ولكنك ربما لا تقرين لي بانني أملك هـذه القـوة ولكنني أملكها فعلا » وقلت له « ولكنك تحدثت عن الاذواق المتقاربة المتشابهة في حين أننا عندما نرى نفس الاشياء نقدرها تقديرا مغـايرا ومختلفا !! » وقال لي « لنأت ونوصل الموضوع الى التجربة ·· طبعا · لا يسعك سوى أن تنظري الى فضائل الآنسة فانشاوي بعين التقدير والثناء والآن ما رأيك في الآخرين الموجودين في هذه الغرفة ؟ أمي مثلا أو السيدين « اي » و « ز » أو لنقل هذه السيدة الصغيرة الشاحبة الوجـه الآنسة دي باسومبيير ؟ » وقلت له « أنت تعرف رأيي بوالدتك أما السيدان « ز » و « اي » فـلا أعرف عنهما شيئا » وقال لي « وما رأيك بالاخرى ؟ » فقلت له « أظن أن الاخرى تعني بها السيدة الصغيرة الشاحبة الوجه · طبعا انها شاحبـة ولكن شحوبها مؤقت لانها مجهدة من فرط الاهتياج والانفعال » ·

وقال لي « ألا تذكرينها عندما كانت طفـلة ؟ » فقلت له « أحيانا يعتريني العجب مما اذا كنت أنت لا تتذكرها ؟ » ·· وقال لي « لقـد نسيتها ولكن الملحوظ أن الظروف والاشخاص وحتى الكلمات والنظرات التي انسلت من ذاكرتك قد تحيا وتنبعث وفـق بعض ظروف وأوجه ذاكرتك ووفق ظروف وواجهة ذاكرة شخص آخر » وقلت له « هذا ممكن تماما » وواصل كلامه قائلا « نعم ·· الانبعاث ناقص يحتاج الى توكيد يقاسمك الكثير من خصوصية الحلم الغامض المعتم أو الصورة الذهنيـة المزحة بحيث أن شهادة شاهد تصبح ضرورية للتأييد ألم تكوني أنت ضيفة قبل عشرة أعوام عندما جاء المستر هوم بطفلته الصغيرة التي كنـا نسميها « بولي الصغيرة لتسكن مع ماما ؟ » وقلت له « كنت هنـاك عشية جاءوا بها وصبيحة مغادرتها » ·

وقال لي « كانت طفلة متميزة وغريبة الاطوار ألم تكن كذلك ؟ ولا أدري كيت كنت أعاملها · هل كنت مولعا بالاطفال في تلك الايام ؟ هـل كانت بي سمات لطف وكياسة آنا الـذي كنـت تلميذا طائشا ؟ انك لا تتذكرينني طبعا ؟ » وقلت له « لقد شاهدت صورتك في بيت « الشرفة »

فهي تشبهك تماما أما في الاخلاق والتصرفات فقد كنت في الامس صورة مشابهة لليوم » وقال لي « ولكن يا لوسي كيف ؟ ان جوابك هذا يشير فضولي حقا فكيف كنت في أمسي قبل عشرة أعوام ؟ » ٠

واجبته قائلة « كنت كريما ولطيفا مع اي شيء يسرك وغير لطيف أو قاسيا بلا مبرر وللاشيء » وقال لي « أظنك على خطأ ٠٠ ربما كنت قاسيا أو غير مهذب معك مثلا » وقلت له « قاسيا أو غير مهذب نحوي ؟ كلا يا غراهام ٠٠ ما كنت لاتحمل ذلك من أحد »وقال لي « هذا ما اتذكره ٠٠ لوسي سناو الهادئة لم تذق شيئا من لطفي » وقلت له « ولا القليل من قسوتك » وقال لي « لماذا ؟ هل كنت كنيرون الظالم ما كنت أظن أنني عذبت شخصا مسالما مسالمة الظل مثلك مثلا » ٠

وابتسمت وكبحت تنهدة أيضا وقلت لنفسي ٠٠ آواه ٠٠ لو انه تركني لوحدي وكف عن التحدث عني والتلميح عن هذه النعوت وهذه الخصوصيات مثل ٠٠ لوسي سناو الهادئة ـ ٠٠ الظل المسالم ورددت عليه بلا استخفاف ولا استهزاء ولكن بمنتهى التبرم والسأم ٠ وكان هو بموقف نفسي بارد يتسم بضغط المبادرة الكلامية وكنت أنا ارجو مع نفسي الا يرهقني بثقل حديثه ولحسن الحظ انتقل الى موضوع آخر وسألني :

« كيف كانت علاقاتنا أنا وبولي الصغيرة ؟ وان لم تخني ذاكرتي فاننا لم نكن اعداء » فقلت له « أنت تحدثني بمنتهى الغموض ٠٠ هل تظن ان ذاكرة بولي الصغيرة ليست اكثر وضوحا وتحديدا ؟ » وقال لي « اننا لا نتكلم عن « بولي الصغيرة » الآن ٠ أنا أعني الآنسة دي باسومبيير الا ترين أن هذه الشخصية الجليلة لا تتذكر شيئا عن بريتون ؟ انظري الى عينيها الواسعتين يالوسي !! هل تقرئين كلمة من كلمات صفحة الذكريات ؟ هل هما نفس العينين اللتين كنت أريهما صور كتاب القراءة الابتدائي ؟ انها لا تعرف أنني علمتها القراءة نوعا ما ! » وقلت له « كتاب الانجيل ليالي الآحاد ؟ » ٠

وقال لي « انها الآن تملك وجها هادئا جميلا ورائعا في حين كان وجهها في طفولتها قلقا نوعا ما ٠٠ هل تصدقين ؟ هذه السيدة كانت في طفولتها متولعة بي ! » وقلت له بتواضع ولهجة معتدلة « كانت نوعا ما

twitter @baghdad_library

متولعة بك » وقال لي « انت اذن لا تتذكرين جيـــدا ·· كنت في باديء الامر قد نسيت والآن أراني أتذكر ·· كانت تحبني وتفضلني على كـــل ما كان موجودا في بريتون » وقلت له « أترى ذلك ؟ » ·

وقال لي انني اتذكر ذلك كل التذكر وبودي لو فاتحتهابكل مايتراءى لي من الذكريات أو أفضل أن يقوم شخص آخر مثلك أنت مثلا بالذهاب واعلامها بذلك همسا وسافرح بذلك وانا جالس هنا اراقب نظرتها سرا ·· هل تستطيعين أن تفعلي ذلك ؟ اشكرك يا لوسي وسأكون ممتنا جدا منك ·· » وقلت له « هل أستطيع أن أعمل شيئا يجعلك ممتنا دائما مني؟ كلا ·· لا استطيع ذلك » ·

وشعرت بأن اصابعي تتململ وتتحرك وبيدي تتشابكان كما شعرت أيضا بشجاعة داخلية واتقاد ومقاومة ففي هذا الموضوع لم أكن أقوى على ارضاء الدكتور جون وادخال السرور الى قلبه ·· أبدا !! وبقوى ترحابية آنية أدركت أنه لا يفهم ابدا خليقتي وطبيعتي فهو يريد دائما أن ينيط بي دورا هو ليس دوري ، والطبيعة وأنا نقاومه في ذلك · انه لم يكـن يتحسس ابدا بما أنا شاعرة به ولم يقرأ ما في عيني أو وجهي أوملامحي في حين أنني لا اشك قط أن كل هذه تتكلم عما هو موجود في سريرتي وما كان منه سوى أن يميل برأسه الي ويقـــول لي بلطـف « الا تطمنيني وتريحين بالي يا لوسي ؟ » ·

وكان بودي ان اطمئنه أوفي الاقل أن انوره واعلمه بوضوح الايتوقع مني الدور الرسمي للخادمة « سوبريه » التي كانت تقوم بدور الوساطة بين عشيقين وعندما سمعت تخفيض نبرة شـــكواه المقاربـة للالتماس والتوسل ·· « ألا تطمنيني وتريحين بالي يا لوسي ؟ » أحسست بهسهسة مستهجنة تشق سمعي من الجهة الاخرى » وعلى حين غرة فح في وجهي فحيح كفحيح الافعى العاصرة قائلا لي « أيتها القطة العابثة المتغنجـة ان لديك نفسية خنوعة حزينة وحالة ولكنك لست كذلك أقول لك انك متوحشـة بهذا القلب المتوقد وبعينيك الحادتين دلائل البرق الراعد » هذا ما قالـه لي المسيو عما نوئيل في السابق ·

وقلت له « نعم أن قلبي يتوقد وانا غاضبة ولي ما يحدوني الى ذلك» غير أن البروفيسور عما نوئيل فح عبارته المهينة هذه بوجهي وولى والانكى

من ذلك أن الدكتور جون صرخ قائلا بعد ان سمع كل كلمة قالها وبعدأن وضع المنديل على وجهه ليضحك ملء شدقيه « أحسنت صنعا يا لوسي أيتها القطة الصغيرة المتغنجة سأخبر أمي بذلك هل ما لاحظته عليك يا لوســـي صحيح أم نصف صحيح ·· لقد اصبح لونـــك احمر من الغضب كلـون فانشاوي عندما تغضب · لقد شاهدته الآن وبشرفي أنه ذلك الرجل المتوحش الذي أبدى وحشيته حيالك عندما كنت معي في المرقص ·· لقد اشتـــد جنونه الآن بعد ان شاهدني أضحك وسأستثيره وازعجه » وظـل غراهام مصرا على ميلانه لالحاق الاذى به يضحك ويضحك ويسخر ويتهامس معي الى أن لم أعد أطيق الاحتمال فطفرت الدموع من عيني ·

وفي الحال ارعوى وصحا على نفسه وهنا حصل فراغ في المكان الـذي كانت تجلس فيه الآنسة دي باسومبيير بعد ان شارفت الدائرة التي كانت حواليها على الانحلال وهذه الحركة أحس بها غراهام ولفتتهاعينه في الحال حتى في الوقت الذي كان يضحـــك فيـه فنهض وتشجـع تمامـا وعبر الغرفة وأخذ مقعده هناك · لقد كان الدكتور جون محظوظا طيلة حياتـه يحظى بالنجاح دائما فلماذا؟! كانذا عين تلتقط فرصتها التقاطا وتغتنمها وذا قلب متاهب للعمل في الوقت المناسب وذا أعصاب تكفي لانجاز العمـل انجازا تاما ولا قوة تدفعه للخلف مهما كانت · ولا نقاط ضعف تعترض طريقـه ·

ما أجمل ذلك المنظر الذي بدا عليه في تلك اللحظـــة عندما نظرت بولينا لتجده الى جانبها ولتلتقي نظرتها في الحال بنظرته المقابلة المفعمـة بالحيوية وأصبح لون وجهه وهو يكلمها ، مزيجا بين الاحمرار من الخجل وبين التوهج من الانفعال وجلس الى جانبها بشجاعة وخجل خانعا وبـلا فضول ولكنه عازم في مقصده وموال لحماسته · لقد جمعت كل هـــذه المعلومات بلحظة واحدة ولم أطل ملاحظتي لان الوقت خذلني فقدتأخرت وينبغي أن أكون أنا وجنيفرا في شارع فوسيت فنهضت وودعت عرابتي والمسيو دي باسومبيير ·

ولا أدري ما اذا كان البروفيسور عما نوئيل قد لاحظ عدم موافقتي على ما بدر من الدكتور جون أو لاحظ تألمي من ذلـك أو لاحظ ان تلك الامسية لم تكن متعة عارمة للآنسة لوسي كما كان يتهمني به ولكن عندما

twitter @baghdad_library

كنت على وشك مغادرة الغرفة تقدم نحوي البروفيسور وسألني ماذا كان هنالك أحد يريد ان يوصلني آلى « فوسيت » ولكن في هـــذه المرة سألني بتأدب وحتى باحترام وبان على وجهه الندم وكمن يهم بالاعتذار ٠

ولم اعترف بأدبه اذا كان مجرد كلمات كما أنني من الناحيةالاخرى لم اقابل ندمه بنسيان فظاظته السابقة واكتفيت بالاجابة على سؤاله بهذه الكلمات « معي من سيرافقني » وهو ما صدقت به لانني وجنيفرا ذاهبتان في عربة أرسلت الينا لاخذنا الى المدرسة وانحنيت له بالشكل الذي يناسبه كما لو كنا في المدرسة ٠ وكما يفضلها هو عندما يكون في منصته وتمـر به التلميذات محييات ٠ وبعدما جئت بشالي عدت الى مجـاز الردهة ٠ وكان المسيو عما نوئيل واقفا هناك ينتظر ولاحظ بأن الليلة رائقـــة وتفوه بذلك وهو ينظر الي وأجبته بلهجة هادئة حذرة « هل هي كذلك ؟» وقلما كان شاني أن اتظاهر بالبرود والتحفظ حين يصيبني أذى أو يحل بي أسى ولم يكن المسيو بول بالذي يهضم فعل هـــذا البرود والجفاف في اللهجة الا انه تجرع الجرعة ساكتا ونظر الى شالي واعترض على لونـــه الخفيف الشفاف وقلت له بتعمد انه غامق بالشكل الذي أريده وملت بكل اباء الى درابزين السلم وطويت شالي علي ٠

وتباطأت جنيفرا في المجيء وعندما جاءت بدا عليها التعب وكـــان المسيو بول لا يزال هناك وتوقعت أذني من شفتيه نبرة غضب وتقرب منا اكثر وقلت لنفسي هل جاء لهسهسة ازدرائية وتحقيرية أخـرى يا ترى ؟ ولم يحدث ما توقعته بل تحدث المسيو بول بوداعة قائلا « أيتها الصديقتان لا تتشاجرا من اجل كلمة أخبراني هـــل أنا أم ذلك الغندور الانكليزي المتأنق (ويقصد به الدكتور بريتون) هو الذي جعل الدموع تنحدر مـن عيونكما وجعل خدودكما حارة متقدة كما هي عليه الآن ؟٠ وكان جوابي له « لست مرتبكة ولا خجلة منك أيها السيد ولا من أي واحد آثار مثـل هذه المشاعر التي تتحدث عنها وفي غضبي النظر عن كل ما حدث أكون قـد تخطيت ما جبلت نفسي عليه اعتياديا وارتكبت خطأ صريحا » ٠

وقال لي « ولكنني ماذا فعلت ؟ قولي لي ٠٠ كنت غاضبة ولا ادري ما بدر مني من اخطاء فما هي أخطائي ؟ » وقلت له وأنا ملازمة هـدوئي

التام « أخطاء كالتي أرى أن من الفضل نسيانها » وقال لي « اذن كانت كلماتي هي التي آذتك وجرحتك اعتبريها غير مقولة واقبلي تراجعي واعتذاري » وقلت له « لست غاضبة أيها السيد » وقال لي « اذن انت حزينة وأسيانة فسامحيني أيتها الآنسة لوسي » ٠

وقلت له « اسامحك أيها السيد عمانوئيل » وقال لي « لنسمع منك هذا بصوتك الطبيعي وليس بهذه النبرة الغريبة » وحملني بجوابه هذا على الضحك ومن ذا لا يضحك بسبب ظرافته وبساطته وجديته ؟ وابتسم المسيو بول ولو شاهدته أيها القاريء العزيز وهو يبتسم لعرفت الفارق الملحوظ بين محياه الآن وبين محياه قبل نصف ساعة ومن المؤكد أنني لم أشاهده يبتسم مثل هذه الابتسامة المعبرة عن المرح والرضى واللطف لا بين شفتيه ولا في عينيه فابتساماته السابقة كانت دائما تخفي السخرية والهزء والازدراء وأخذني المسيو بول الى العربة وبنفس اللحظة جاء المسيو دي باسومبيير بابنة أخيه ٠

وكانت فانشاوي في حالة نفسية ليست على ما يرام علما بأن فشلا ذريعا لحق بها في تلك الليلة أودى بها الى حالة ـ لم يكن لها به من عهد ـ من الكآبة هاجمتها حالما جلست داخل العربة وأغلق بابها أن طمنها بالدكتور بريتون وذمها له كان مليئا بالسموم فبعد أن عجزت عن اغوائه وايذائه بسحرها لم يبق لها سوى أن تكرهه وعبرت عن كراهيتها بعبارات وابعاد لا يمكن أن تقاس ولا حد لها اتصفت بالفظاعة بحيث أنني بعد أصغائي لاقوالها بروح رواقية أخذ احساسي بالاستقامة والانصاف يتقد اتقادا في الحال وحرقت الارم غضبا وبدأ الانفجار ٠٠ انفجاري ٠

ذلك أن بوسعي أن انفعل أنا أيضا ولا سيما مع زميلتي الجميلة الحالية ذات النقائص والعيوب التي لم تأل جهدا في الصاق اسوأ الوصمات بي ، وكان حسنا أن عجلات العربة كانت تحدث قعقعة صاخبة على رصيف « جوسفيل » الصواتي وقررت مهاجمة جنيفرا بعد أن استنحل ثورانها وهيجانها منذ دخولنا العربة وكان من الضروري ترويضها قبل أن نصل الى شارع فوسيت ٠

twitter @baghdad_library

والى هنا اقتضاني الامر ـ ولم أر غنى عن ـ ابراز قيمتها الحقيقية وقحولتها واجدابها في تعنيفي لها ومهاجمتي اياها وذلك كان بمثابـــة التأديب الحقيقي الذي تستاهله وأنا متأكدة تماما أنها ذهبت الى فراشهـا ونامت نوما أروح من نومها السابق بسبب استقرار ذهنها وهدوء مزاجها بعد الذي تلقته مني من هزيمة معنوية منكرة ٠

الفصـــل الثـــامن والعشـــرون

ـ سـلسلة ســاعة الجيــب ـ

للمسيو بول عما نوئيل حس حاد من جراء أي انقطاع يحدث نتيجة أي سبب من الاسباب أثناء تقديم دروسه ويكون لدخول شخص ما الصف تحت مثل هذه الظروف سواء من المدرسين أو التلميذات فرادى وجماعات قيمة وأهمية كأهمية وقيمة حياة المرأة أو حياة الفتاة • وحتى المدام بيك اذا كان عليها ان تدخل الصف تلتزم جانب الحذر الزائد عند مرورها من منصة غرفة الصف الكبيرة الحجم كالباخرة التي تغشى طريق الصخـــور الذي يفجرها •

وبالنسبة لروزين الخادمة والبوابة التي تقوم في كـل نصف ساعـة بمهمة التجسس المخيفة على التلميذات اللواتي يذهبن خلسة الى فرع آخر لتلقي دروس الموسيقى أو فن الخطابة في صالون الخطابة الكبير أو الصغير أو حيث موضع البيانو تصبح هذه الخادمة عند المحاولة الثالثـــة معقودة اللسان أحيانا من الرعب الزائد وهو شعور توجيه نظرات لا يمكن وصفها توجه اليها بمنتهى الغضب من قبل المسيو بول •

وفي صباح أحد الايام كنت جالسة في اريكة مربعة أقوم بعمل تطريزي لاحدى التلميذات التي لم تستطع تكميله فتأخرت عن التلميذات الآخريات واذا باذني تستمعان بالسماع الى صوت ايقاعي يرن في الصف المجـاور ويتزايد رنينه وتزداد قـوته شموليا وتنوعيا وكـان هنالك حائط قـوي فاصل بيني وبين الزوبعة المتجمعة ووسيلة هينة للفرار من الباب الزجاجي الى الساحة اذا كانت متهب من هذا الطريق •

واخشى أن أكون قد استمديت من البهجة أكثر مما استمديت من

twitter @baghdad_library

التحذير من تلك الدلائل الكثيرة ولم تأمن روزين المسكينة على نفسها فقد اجتازت في ذلك الصباح المبارك الممر الخطر . والان للمرة الخامسة أضحت وظيفتها الخطيرة هي الامساك بتلميذة تحت سمع المسيو بول وبصره وصاحت روزين ... « يا الهي .. يا الهي .. ما الذي سيحل بي سيقتلني المسيو .. أنا متأكدة من ذلك لانه مستشيط غيظا وحنقا وفتحت الباب مدفوعة بشجاعة قانطة وقالت لي قبل أن تتراجع :ـ

اعتبارا من هذه اللحظة ممنوع دخول الصف واول من يفتح هذا الباب أو يمر من هذا القاطع سيشنق حتى وان كانت المدام بيك نفسها ، ولم تمر عشر دقائق على الغاء هذا المرسوم حتى سمع صوت الخف الفرنسي لروزين في الممر وقالت لي « أيتها الآنسة لن أدخل الآن من أجل خمسة قطع من الفرنكات هذا الصف . ان نظارتي المسيو ترعبني حقا وهنا ممثل قادم من كلية « أثينية » وبيده رسالة وقلت للمدام بيك انني لم أسلمها خوفا فقالت لي سلميها للانسة لوسي » .

وقلت لها متسائلة « لي أنا؟!هذا شيء لا يطاق وليس ضمن اختصاص وظيفتي .. تعالي .. تعالي .. ياروزين وتحملي عبئك وكوني شجاعة . حاولي مرة اخرى .. » وقالت لي « هذا مستحيل يا آنسة . لقد عبرت الصف اليه خمس مرات في هذا اليوم وعلى المدام أن تستأجر دركيا أو شرطيا ليقوم بخدمته آه يا عزيزتي ليس بوسعي أن افعل هذا مرة أخرى » .

وقلت لها بلهجة تبرم وانزعاج « انك لجبانة ماهي الرسالة ؟ »وقالت لي أنها من النوع الذي لا يريد المسيو بول أن يزعج نفسه بها وهي دعوة للذهاب مباشرة الى كلية « أثينيه » حيث جاء زائر رسمي .. ربما هو المفتش على أن يستقبله المسيو بول وأنت تعرفين كم يكره مثل هذه المهمة» .

وقلت لها أعرف هذا جيدا فهذا الرجل القميء المتضجر المتبرم يتملص ويتبرم بكل شيء آني أو الزامي ومن المؤكد ستثور ثائرته ومع ذلك قبلت القيام بهذه المسؤولية وان كنت اتوقع مالا يرضيني منه وتمازج خوفي مع المشاعر الاخرى ومن جملتها الفضول ففتحت الباب ودخلت وأوصدته بمنتهى السرعة والهدوء الذي تسمح به اليد المقلقة غير الثابتة

اذ أن أي تباطؤ أو استعجال صاخب أو رنين المزلاج أو ترك الباب مفتوحا تعتبر بمثابة جريمة غالبا ما تكون أسوأ من ارتكاب الجريمة ذاتها ٠

ووقفت هناك ثم جلست ولاحظت أن مزاجه سيء للغاية فقد كان يعطي درسا بالرياضيات لانه كان يعطي دروسا بأي موضوع كان ما عدا الرياضيات الذي كان جافا وغاليا ما يكرهه ولا يريد اعطاء الدرس به وما كانت هنالك تلميذة الا ويعتريها الخوف عندما يتحدث عن الارقام فقد جلس ووجهه مائل على الرحلة ليلتفت الى مصدر صوت الداخل في وقت حصول ثغرة مباشرة في ارادته وفي القانون ٠

وغنمت مزيدا من الوقت للمشي داخل الصف الطويل ولائم ذلك خصوصيتي وحساسيتي كل الملاءمة لمقاومة الانفجار الغاضب الثاني مثل هذا وهو أقل وطأة من انفجار غضبه وأنا بعيدة عنه وتوقفت عند منصته أمامه تماما ولم أكن أستحق منه الاهتمام بي وبما جئت من أجله فاستمر في اعطاء دروسه ٠ ان الازدراء لم يكن يجدي أو يفيده بشيء لانه ينبغي أن يسمع مني ويجيبني على ما جئت به اليه ٠

ولانني لم أكن طويلة بالقدر الكافي الذي يؤهلني الى أن أرفع رأسي فوق رحلته أو أصل الى منصته جارت في النظر الى ما حولي لكي يتسنى لي أولا أن القي نظرة أفضل على وجهه وهو ما فاجأني ببلوى محتملة عندما دخلت وانا شبيهة تمام الشبه بنمر اسود وتمتعت مرتين بهذا المنظر الجانبي وأخذت أتقدم الى أمام وارجع الى خلف دون أن يشاهدني ٠

وفي المرة الثالثة تلقفتني وصمقتني نظارتاه وحق ما قالته روزين اذ يبان في نظارتيه رعب مربك كما لو انه ثابت لايزول دون مستوى الرعب الصادر عن آخر ليس له نظارتان ٠ واهتديت آنذاك الى فائدة التقاربية وجعلت نظارتي المفتش عقيمة بلا جدوى فنزعتها عن عينيه ووقفت أمامه وقفة الند للند وشعرت بالسرور لانني لم أخشاه كثيرا ولم أشعر بأي فزع منه وبادرني بالسؤال التالي « ٠٠٠ ماذا تريدين مني ؟ » ٠٠ وهو يهدر ويتذمر واسنانه مصطكة بحيث يوحي للسامع بان لا شيء في الارض يستطيع أن ينتزع منه ابتسامة واجبته بلهجة لا يتسنى مصالحتها « اريد الاشياء المستحيلة غير المسموع بها من قبل » ٠

twitter @baghdad_library

وكان في نيتي ألا أتصنع أو اتكلف في هـــذه المواضيع بل أن أدير المفاجأة بروحية عازمة وبصوت واطيء وسريع أبلغت المسيو بول بالنبأ الوارد من معهد « أثينيه » وبالغت في أهميته وعجالته القصوى · وبالطبع لم يسمع آية كلمة عن النبأ وقال أنه لن يذهب ولن يترك صفه ولو طالبه بذلك كل موظفي « فيليت » الرسميين ولن يخطو قاب انج واحد ولوبطلب من الملك والوزارة والهيئة التشريعية والقضائية ·

وعرفت ــ مع كل ذلك ــ أن عليه أن يذهب وان محادثته التي هـي واجب من واجباته ومصلحة من مصالحه لابد أن ينجم عنها اتفاق ومطاوعة مع المستدعين ووقفت صامتة انتظر ما سيقوله لانـــه حتى ذلك الوقت لم يحر جوابا ثم سألني ماذا تريدين مني أكثر ؟ وقلت له « لا أنتظر سوى جواب المسيو لكي نعطيه الى المبعوث » ولوح سلبا وبنفاذ الصبر ·

وتجرأت فمددت يدي ملوحة للسيدة المتكئة على عتبة النافذة وتابع حركتي الجريئة بعينيه بعطف ممزوج بالدهشة لوقاحته وتمتم قائلا « اذا وصل الامر لهذا الحد ·· اذا كانت الآنسة لوسي تتوسط عن الخادمـــة فعليها أن تضع الامر عن عاتقها وتتولاه بنفسهـا وتتكـــرم بالذهاب الى معهد « أثينييه » عوضا عنه » وقال « سأكتب ملاحظة اعتذارية وهـــذا يكفي » وبدا عليه أنه يراوغ للتملص · وبينما كنت اسلمـــه القلنسوة علقت شرابتها باطار عويناته الفولاذي الخفيـــف فسقطت من عينيـــه واصبحت مزقا ونثارة على أرض المنصة وكنت عشرات المرات أشاهـــد سقوطها من عينيه دون أن يحدث لها مكروه أما الآن فلسوء حظي لم يبـق من بلورها الصغري سوى أنجم دقيقة لا شكل لها ·

وسيطر علي الخوف حقا ·· خوف ممزوج بالاسف لانني كنت أدرى بعظيم قيمتها لديه فقد كان نظره لاتفيده الا نظارة كالتي انكسرت وتلك الزجاجات كانت توائم عينيه وعندما لمستهـا بيـــدي وهي كسر وشظايا صغيرة اخذت ارتجف واستحوذ الخوف على كل اعصابي لسوء ما حصـــل بسببي وكنت أعلم أن أسفي كان أبلغ من خوفي ولبعض اللحظات لم أجرأ على النظر الى وجه البروفيسور المحروم من نظارتيه وكان هـــو البادىء بالكلام حين قال :

الآن اصبحت أرملا من نظارتي ورفعت عيني وبدلا من ان اشاهد على وجهه مظاهر الغضب والتقطيب والتغضين العميق شاهدت الابتسامة تطفو عليه وآثار الانشراح بادية كالتي بدت عليه في فندق كريسي ولم يغضب ولم يحزن وعن الضرر الخطير الذي لحق به واظهر محيا مليئا بالرأفة والاعتدال ووقفت حياله كمسيئة منبحقة الفؤاد وهاجمني هجوما خفيفا بقوله « امرأة قوية وانكليزية مخيفة كسارة كل شيء » .

وصرح قائلا بأنه لا معدى له سوى أن يخضع لواحدة أبدت مثل هذه الشجاعة الخطرة ويطيعها فيما جاءت من أجله ثم أخذ مني كسور عويناته وصافحني مصافحة الغامز لي بكل لطف وتطمين وانحنى لي باحترام وذهب الى المعهد وهو عامر القلب بأحسن مزاج واحسن روحية . وبعد كل مظاهر الود هذه ربما عطف القاريء علي اذا عرف انني تشاجرت معه مرة اخرى قبل حلول الليل بالشكل الذي ما كان بوسعي تحاشيه .

كانت عادته بل الاحرى عادته المقبولة الجديرة بالثناء أن يصل الى الصف في المساء دون توقع مجيئه في الساعة الصامتة من الدراسة ويفرض استبداديته علينا وعلى اعمالنا فيأمر باغلاق الكتب وتحضير الدفاتر المدرسية التي تدون فيها الملاحظات ويأتي لنا بدراما ندر أن اطلعت على ما فيها ليجعلها كوعاء للملء فيملؤها نشاطا وحيوية اصيلة وعواطف فياضة كالقدح الذي يحوي الشراب المخمر .

أو يروح يسكب في عالمنا التقليدي المظلم انوار عالم براق او يرينا لمعة خاطفة عن ادبيات اليوم الراهن ويقرأ لنا مقاطع او فقرات من قصة فاتنة تسبي القلوب او مقطعا من فكاهات جريدة ادبية تثير الضحك في صالونات باريس ويهتم جدا بوجوب شطب كل ما يعتبره غير لائق امام الفتيات الصغيرات سواء كان ذلك من قصة ماساوية او عاطفية او من حكاية او من مقالة او عبارة أو فقرة ولاحظت اكثر من مرة انه اذا حذف هذه العبارات فانها تخلخل المعنى العام او تدخل الضعف في محتواها ومع ذلك كان لا يتردد في حذف الفقرات بكاملها مهما كلف الامر .

وفي تلك الامسية كنا جالسات بصمت كصمت الراهبات في رياضة روحية وكانت التلميذات منهمكات في دراساتهن والاساتذة يعملون واتذكر

twitter @baghdad_library

مهمتي آنذاك ·· كانت نوعا من التأمل الذي راق لي لانه كان هادئا ولم اكن أفعل ذلك لقتل الوقت فقط واعتبرته عند الانتهاء موهبة أو عطاء وكانت مناسبة الظهور المسرحي قريبة فاستدعى الامر آن نعمل بسرعة وكانت اصابعي في شغل شاغل من الحركة ·

وحين سمعنا رنين الجرس الحاد أدركنا كلنا ما سيحدث واذا بخطوات السيد السريعة المعروفة لدي تطرق اذن كل منا وكلمتا « هوذا السيد » تند عن كل شفة من شفاه التلميذات في آن واحد وانفتح البـــاب عـلى مصراعيه كما هو شأنه عند مجيئه وان كلمة « أفتـح » الهادئة النبرة لم تكن بالكافية لوصف حركاته وما هي الا لحظة حتى توسطنا جمعاء ·

وكانت هنـــاك منضدتان طويلتان للدراسة تحيط بهما الرحلات ويتدلى مصباح فوق منتصف كل رحلة وتحت مثل هذا المفتاح وعلى جانب المنضدة جلس المدرس بين جمع من الطالبات المصفوفات على يمينه ويساره المجتهدات والكبيرات السن منهن جلسن أقـــرب الى المصابيح وكانت عادة بيير السيد آن يرفع كرسيا ليسلمه الى مدرسة ما وعلى العموم كانت زيلي سنت بيير المدرسة الاكبر سنا ·

وكما كانت العادة كانت زيلي تنهض برشاقة ونشاط وتبتسم بملء شفتيها لتظهر جلية صفي أسنانها العليا والسفلى تلك الابتسامة الغريبة التي كانت تمر من آذن الى آذن لا يميزها الا تقوس الجنك تقوسا حـادا وعدم انتشاره على المحيا فلا تظهر الابتسامة نقرة الخد ولا تضفي الشعاع على العينين · وأتصور أن السيد بول لم يشاهدها لانه كان في شغل شاغل عنها اذ انه كان يوصف ينزوة التقلب والتحول كنزوة النسوة الموصوفـة بهذا الوصف كما كانوا يقولون ·

وخلعته نظارتاه الجديدتان في آن ينتحل عذرا عن كل سهو او خطأ غير مقصود أو تقصير يبدر منه ومهما كان عـذره من زيلي سنت بيـــير ووصل الجانب الآخر من المنضدة وقبل ان انهض لافسح له مجـال المرور همس في اذني ثائلا « لا تتحركي » ووقف بيني وبين الآنسة فانشاوي التي كانت دائما بجواري ومرفقها مدفوع بجانبي وغالبا ما كنت أقول لها ·· « جنيفرا آلا تبتعدي عني قليلا ؟ » ·

وكان من السهل أن يقول « لا تتحركي » ولكن كيف كنت أقوى على ذلك ؟ كان علي أن اقرده الى الغرفة واطلب من التلميذات أن يعدن لكي أعود أنا ايضا وكان حسنا من جنيفرا ان توسع الفجوة بيني وبينهـا وأن تدفيء نفسها خلال أمسيات الشتاء بالنار الموقدة غير أنها كانت تزعجني بكثرة تململاتها وتبرماتها وبفضولها وتدخلاتها فيما لايعنيها حتى انني كنت احتفظ بدبوسي في زناري اخزها به لانتقد نفسي من مرفقها

واظن ان المسيو عما نوئيل مـا كـان ليتعرض لنفس المعاملة التي كنت أمارسها مع فانشاوي ولهذا سحبت كـل الاشياء العائدة الى شغلي وفسحت له مجال المرور لكتبه وان اتراجع الى الخلف لافسح له مجـال المرور ولم اترك له فسحة مرور تزيد على باردة واحدة وهـو مـا كان كافيا لكل انسان راشد ولكن المسيو عما نوئيل لم يكن بالراشد ولانـه كان سريع التوقد عشر ومسته النار ربشكل مباشر ·

وصرخ في وجهي تائلا « أنت تبقسين لنفسك فراغـا وتعاملينني كمعاملة المنبوذ ؟! حسنا !! سأسوي معك هذا الموضوع ·· قيام أيتهـا الانسات » ونهضت الفتيات كلهن وصفهن الى جـانب المنفسدة الاخرى وأوقفني أنا في الممر البعيد عن الرحلة الطويلة يعد ان جاء لي بكل مافي سلة عملي وقطع الحرير ومقصي وكل أدواتي ووقف هو في الجانب الآخر·

ولم تجرأ أي فتاة على أن تضحك على تلك الاعمال السخيفة مـع انهن كن بحاجة الى القهقهة أما انا فقد دلقيت ذلك ببرود تام فجلست في مكاني منعزلة هادئة وكئيبة · وقال لي « هل مكانـك بعيد بمـا فيـه الكفاية ؟ » فقلت له « السيد هو الذي يعرف ذلـك » وقال لي « انـت تعرفين جيدا ان الامر ليس كذلك فانك أنت التي أوجدت هذا الفراغ لكبير ولا شأن لي به » وبعد ذلك واصل القراءة · ولسوء طالعه اختار ترجمة فرنسية أسماها دراما لوليم شكسبير قائلا شكسبير الالة المزيـف لاولئك الوثنيين الحمقى ·· الانكليز !! الامر الذي يدل على مدى تأثره وانكساره وثوران احاسيسه وطبائعه مما حدا بي الى عدم الرد عليه ·

وبالطبع لان الترجمة كانت فرنسية كانت ركيكة جدا ولم يبـدر مني اي مسعى خاص لاخفاء الاحتقار الذي كانت بعض اخطائه الباثسة جديرة بأن تثيره وتراءى لي أنني جديرة بأن أقول شيئا ولكن هناك من

twitter @baghdad_library

ينظر الى فكرة تخطر له ويرى أن من المحرم ترجمتها بالكلمات • لقد كان السيد أبو النظارات محاذرا ويقظا وراح يجيل بنظراته في كل مكان دون أن يستثني جهة ما وفتاة ما •

وكانت النتيجة أنه نفى نفسه الى القطب الشمالي ليواصل غضبه العارم هناك بدلا من أن يظل يجول ببصره بأرجاء الغرفة ليقيس درجة حرارتها العامة وارتأى أن من الرشاد أن يبقى تحت شعاع سمت الرأس لبرج السرطان • وانتهت القراءة وظهر أن من قبيل الدخول في المشكلة أن هو خرج دون أن يسكب غضبه أو يصرفه علما بأن القمع أو الكبت لم يكن من عادته كثيرا أما أنافلم أنبس ببنت شفة ولم أر أن من الواجب اللجوء الى التأنيب أو الانتفاضة رغم كل ما حل بي ولم أر بدا من أن الوذ بصمتي •

وجيء بالعشاء المتكون من الخبز والحليب المنقع بالماء الفاتر واحتراما لوجود البروفيسور سمح لان تكون اقراص الخبز واقداح المياه مصفقة بدلا من توزيعها بالايدي آنيا • وقال لنا « خذن اماكنكن أيتها السيدات » وبدا عليه أنه منهمك في تدوين ملاحظات هامشية على مؤلف ويليام شكسبير •وأخذن مواقعهن وقبلت الرغيف وقدح الماء أيضا وكنت آنذاك اكثر انهماكا في عملي وظللت في موقعي الذي عوقبت فيه أمضغ خبزي المنقوع باستياء وغضب وأشرب العصير برباطة جاش وهو ما لا يتوافق وعاداتي الا في النوادر •

وبدا لي ان وجود طبيعة قلقة تافهة شائكة كطبيعة المسيو بول تمتص كل المؤثرات المحمومة المنفعلة غير المستقرة كحجر المغناطيس الجذاب ولا تخلف لي سوى الهدوء ورباطة الجأش والانسجام • ونهض من متعده وقلت لنفسي ترى !! هل سيذهب بدون أن يتفوه بكلمة أخرى ؟•• نعم •• انه عاد الى الباب •• كلا • انه توجه الى درجات السلم ولكن ربما ليأخذ مقلمته التي وضعها على المنضدة •

أخذ المقلمة واخرج القلم وكسر حده بالخشب ثم اعاد تشذيبه لاخراج رصاص الكتابة وحفظه في جيبه ثم أسرع الخطى نحوي • وكانت

التلميذات والمدرسات المجتمعات حول المنضدة الاخرى يتكلمن بحرية تامة وكن دائما يكثرن من الكلام في مثل هذه الاوقات واطلقن العنان لمقاتهن.

وجاء المسيو بول ووقف خلفي وسألني ما الذي اعمله فقلت له انني اصنع سلسلة ساعة الجيب ، وسألني « لمن ؟.. » فأجبته « لجنتلمان هو احد اصدقائي وطأطأ المسيو بول رأسه ثم تقدم وأسر في اذني ببعض الكلمات المثيرة للمشاعر كان قال بأنني المرأة الوحيدة من بين الجميع التي تثير انزعاجي وانه ليس قادرا على العيش معي وفق شروط الصداقة وان لي خاصية عنادية وانني حمقاء وشريرة الى حد يثير العجب اما كيف أعالج ذلك وأي شر تلبسني منها فهو لا يعرف عنها شيئا » .

وقال « ان اي شخص يقصدني بنوايا سلمية وودية فانني أقابل وفاقه بالخلاف وحسن طويته بالعداء » ان المسيو بول يضمر لي ـ على وجه التاكيد ـ الخير فهو لم يلحق بي أي ضرر ويرى أن له الحق في التعارف بي ومصادقتي دون أن يضمر لي أية مشاعر عدوانية ولكن .. كيف كان سلوكي معه .. وبأية مزايا لاذعة وبأي زخم من التمرد وبأي وابل من الهجمات المتسمة بالاساءة قابلته بها وهناك لم أجد بدا من فتح عيني بأوسع ما في امكاني تنمان عن الاعتراض والاحتجاج وقلت له « لا اعرف شيئا عن كل ما اتهمتني به وينبغي عليك أن تصمت في الحال ولا تنبس بكلمة وبسرعة كالطلقة » ولم يرد بدا من أن يبدي لي أسفه وتألم لما بدر منه ومن خصوصيته العاثرة الحظ ورغم ذلك الطبع وتلك الحرارة والغضب وان كانت تتسم بالسماحة والشهامة رغم تطرفها الزائد فانه كان يخشى ايذائي او انزال أي حيف بي فهو رغم كل ما بدر منه نحوي كان يؤمن بأنني لست بلا خصائص طيبة وفي رأيه أنني لو اصغت لصوت المنطق والعقل ولو هو أبدى المزيد من جانب الرزانة والمزيد من جانب الاعتدال والجد لزالت الفظاظات وزال سوء التفاهم بيننا. وقال ان ذلك لو حصل لبرهنت على سجايا مميزة ولكن الحالة كما هي عليه الآن ... (وهنا اختنق صوت الرجل لمدة دقيقة واحدة بالانفعال العاطفي) .

وكان بأمكاني أن ارفع بصري اليه أو امد له بيدي او اتفوه بكلمة رقيقة مخففة عنه ولكنني خشيت أن افعل ذلك لئلا أكون بين أمرين هما اما ان اضحك واما ان ابكي اذ ان الغريب في هذا الامر كان مزيجا من

twitter @baghdad_library

العطف والسخف · وظننت أن الذي بدر منه قد انتهى أمره بذلك ولكن كلا ·· فقد جلس ليتحدث على هواه ·

بينما كان المسيو بول في خضم هذه ابواضيع المؤلمة احسست انه يروم استثارة غضبي من أجل صالحي وانه قد يوميء الى تبدل لاحظه في ملابسي التي ارتديها وحق له أن يقول انه عندما شاهدني لاول مرة أو عندما كان يلمحني من وقت الى آخر كنت قد طمنته فيما يخص ملابسي وفيما يخص النقطة التالية ·· الرزانة والبساطة المتقشفة الامر الذي آثار في نفسيته أعلى طمأنينة على مصالحي فأي مؤثر مقدر وحاسم اضطرني في الآونة الاخيرة الى تعليق زهرة في حافة قلنسوتي وأن ارتدي ياقات مطرزة ومزخرفة وحتى أن أظهر في احدى المناسبات في ثوبقرمزي داعر أبقاه مضمورا في قلبه دون ان يفاتحني به في الوقت الحاضر ·

ومرة أخرى قاطعته وفي هذه المرة دون لهجة صارمة تتسم بالاستياء والاشمئزاز وقلت له « أتقول ·· ثوب قرمزي داعر أيها السيد بول؟·· انه لم يكن كذلك ·كان ثوبا قرنفلي اللون وقرنفليا باهتا ايضا وملطفا ومخففا بشرائط سود زينية » وقال لي « قرنفلي أو قرمزي ·· اصفر أو قرمزي ·· أخضر فاتح أو ازرق سماوي ·· انه شيء واحد ··تلك كلها كانت البسة ازدهاء ومباهاة وألوان طائشة ومستهترة أما عن التلطيف والتخفيف بالشرائط الزينية السود التي تحدثت عنها فلمتكن الا من قبيل الاناقة المتكلفة ثم تنهد أسفا لانحلال أخلاقي وتفسخها ·

وقال انه يؤسفه أن يقول أنه لا يستطيع أن يكون استثنائياومدققا في هذا الموضوع كما يريد أن يكون ولانه لا يملك الاسماء الحقيقية لتلك الحلي الصغيرة ، فانه سيتناول الاخطاء الشفهية التي لن تخذله في أن يفسر سخريتي وتهكمي منه وليستثير مزاجي ونزعتي العاطفية الانية التعيسة وسيكتفي بالتحدث بتعابير عامة وبهذه التعابير العامة يعرفانه مصيب في أن أرديتي وثيابي اتخذت شكل الخصائص العللية للازياء البهية وهو ما يؤله أن يشاهدها علي ·

وسألته « أية خصائص عالية للازياء البهية اكتشفها في مرينوسي الشتوي وهو تسبيح صوفي قطني ناعم يشبه الكشمير وفي ياقتي البيضاء

البسيطة أنه لامر يحيرني ويصعب علي حزره وعندما سألته قال « انه صنع بعناية شديدة لكي يكون له تأثيره » وعلاوة على ذلك سألته « ألم يكن لي قوس شريطي على عنقي ؟ » ومضيت في كلامي قائلة « واذا نددت بقوس الشريط لسيدة ـ أيها السيد ـ أليس عليك ان تدين شيئا مشابها لذلك عند رجل ؟ » وكان جوابه الوحيد تأوهة ندت عن صدره حول طيشي على ما ظننت ·

وبعد أن جلس بضع دقائق لازم فيها الصمت سألت نفسي هل ان الذي قاله عني سيؤثر علي ويدفعني الى أن أمقته بشدة ؟ ولا اذكر بالضبط ماذا كان الجواب وما الذي أشعر عنه ولا أظن أنني تكلمت وقتئذ الا أن الذي أعلمه أننا ودعنا أحدنا الآخر على شكل ما يفعله صديقان » · وحتى عند وصول المسيو بول الى الباب التفت الي ليوضح بأن لا موجب لفهمه على أنه يدين ادانة تامة الثوب القرمزي (وقاطعته بغضب ! قرنفلي !! قرنفلي !) وان ليس في نيته أن ينكر أن منظره جميل وكل ما في الامر ان عما نوئيل له ذوقه الخاص في الالوان وان مقصده كان التشاور معي عندما ارتديه ليرى ما اذا كان من الفستيان النسيج القطني الذي شكله رمادي ـ ترابي » ·

وسألته « وما رأيك بالزهور المعلقة في اهداب قلنوستي وهي دقيقة جدا ؟ » فقال « ابقيها دقيقة كما هي ولا تحاولي تكبيرها جدا ؟ »وسألته ايضا « وما قولك بقطعة الشريط ؟ » فقال بلهجة مسامح « بوسعك ابقاؤها » وبذلك سوينا القضية بيننا ·

وقلت لنفسي « أحسنت صنعا يا لوسي سناو لقد جئت لتلقي محاضرة بديعة فجلبت على نفسك التعنيف الفظ وكل هذا بسبب شغفك وولعك اللامبرر بتوافه الدنيا وباطلها وغرورها ومن ذا الذي كان يهفو لذلك أو يفكر بذلك ؟لقد اعتبرت نفسك رزينة ورصينة بشكل سوداوي حيث تعتبرك الانسة فانشاوي ديو جينوس الثاني الفيلسوف اليوناني الذي كان يفتش بمصباحه عن انسان صالح واغلق المسيو دي باسومبيير في ذلك اليوم بأدب الحديث معي عندما دار الحديث عن المواهب المذهلة للممثلة فاشتي لانه كما قال « ان الآنسة سناو تبدو غير راضية عنها »·

twitter @baghdad_library

ولا يعرف الدكتور جون عنك سوى انك « لوسي الهادئة المخلوقة المسالمة الشبيهة بالظل وانت سمعتيه يقول ذلك ويقول أيضا « مساريء لوسي تنبع من التطرف الزائد في الذوق والاخلاق وحب الوان الاخلاق والعادات » هذه هي انطباعات اصدقائك عنك وهذه هي انطباعاتك الخاصة فتوقفي الان وانظري وشاهدي فهنا رجل قميء يختلف كل الاختلاف عن كل هؤلاء يتهمك بصراحة وبقسوة بأنك هوائية وخيالية ومنشرحة كليا وبأنك ملتهبة العواطف ونارية ٠

ان هذا الفظ التصرفات هذا الرقيب الذي لا يرحم يجمع عنك كل خطاياك التافهة البائسة المبعثرة وأشرطتك الشفافة ذوات الالوان الوردية واكاليل وهداب « أكليل الزهور وحافاته وقطعة المخرمات التافهة للملابس ويستدعيك لمحاسبتك عنها وعن كل شأن من شؤونك ٠ انك معتادة لان تسمعي أنك ظل بين أشعة شمس الحياة وانه لشيء جديد اذا ما شاهدت احدا يرفع يديه بشكاسة ليغطي بهما عينيه خوف أن تضايقيه وتزعجيه بالاشعة الفضولية الزائفة ٠

الفصـــل التاســـع والعشـــرون

ـ عيـد ميـلاد المسيو بـول ـ

استيقظت في صبيحة اليوم التالي قبل بزوغ الفجر وهممت بارتداء ملابسي ، وبقاعدة التناقضات عرفت أن ارضاء اذواق الآخرين ايضـا كان أمرا لا غنى عنه ولكي أنهي تزييني كنت بحاجة الى مشبك ذهبـي صغير ولحسن الحظ كنت أملكه في أبزيم قلادتي الوحيدة فحللته ثم ثبته، وربما تذكر القاريء وصف مهرجان المدام بيك وكيف أن هدية مناسبـة تهدى لها في أخر المهرجان من قبل المدرسة ، وشعائر مثل هذا اليومكانت ميزة لا تخصص أو تضفى الا للمدام بيك وبشكـل مخفف لقريبها او نسيبها ومستشارها المسيو بول عما نوئيل وهو يحـدث اعتباطا دون مقدمات أو اعدادات وبهذه المناسبة تهنئة التلميذات رغم محاباتـه ومساوئه ومزعجاته ·

وكان يصرح بأنه لا يقبل هدايا كصحون او جواهر ولا يريد سوى تكريم بسيط او هدايا بسيطة ولم تكن تسره حلقـة ماس او علبـة السقوط مع مظاهر الابهة والتفخيم انما يفضل عليها الزهور أو الرسوم التي تقدم له ببساطة ولمشاعر خالصـة وتلك كانت طبيعته فقـد كان رجلا لا يملك حكمة زمانه · لقد صادف عيد ميلاد المسيو بول اليـوم الاول من شهر اذار وكان يوم الخميس بشمسه البديعة وفي صباحهكانت العادة المتبعة هي حضور القداس لان الخميس كان نصف عطلة يخرجون فيها للتنزه او التسوق أو الزيارات التي كانت تتم بعد الظهيرة ·

twitter @baghdad_library

وتلك المتجمعات كلها بما كان فيهـــا من اعتبارات تتطلب ارتداء الملابس الفاخرة كمادات دارجة ورائجة ولا سيما ارتداء الياقات النظيفة وكانت الملابس المدرسية القطنية الاعتيادية تستبدل بملابس أخف واكثر شفافية وصفاء حتى أن الآنسة زيلي سنت بيـر ارتدت في ذلك الخميس ثوبا حريريا اعتبر في لاباسيكور رائعا وفخما ·· لقد تبين أنها استدعت احدى مرتبات الشعر في ذلك الصباح وهناك طالبات اكتشفن بأنها بللت منديلها برائحة عطرية جديدة بيدها ·

مسكينة ·· زيلي ·· لطالما صرحت أنها متعبة الى حـــد الموت في حياتها ، حياة العزلة والعمل الشاق وأنها بحاجة الى وسائل التسليـــة واللهو وتتوق اليها توقا شديدا وبحاجة الى من يخدمها ويعمل لها والى زوج يدفع عنها ديونها التي أغرقت فيها ويدفع أثمان ملابسها ويتركها تعيش حرة لتتمتع نوعا ما بحياتها وقيل أنها كانت تطمح الى ان يتزوجها المسيو بول حسبما كانت تدور الاشاعات علما بأن المسيو بول نفسه كان قد ركز انتباهه عليها اذ كان يجلس معها ويرنو اليها مدى دقائق بشكـل مثابر ويسمح لها بأن تخالسه النظر طيلة ربع ساعة في الصف في وقـت لا يكون فيه منهمكا بواجبه الدراسي وهو يشعر بتلك النظرات المحرقة المصوبة اليه وهو ما بين مشبع غروره وكبرياءه وما بين مرتبك حائر ، يبادلها النظرات الحادة المتسمـة بالاهتمام فهـو في بعض الاحيـان كان يخترق أعماق الغريزة اختراقا مرعبا وينفذ من مخبئه الى باطن آخـــر الفكر الكامن في القلب ليستشف الاحجيـــة وليتوصل الى مواقع الروح الجرداء القاحلة واتجاهاتها المنحرفة ومنعطفاتها الخفية الغادعة ـ وكل ما لم يعرفه الرجال والنساء ـ العمود الفقرى المحـــدودب والاضلاع الشوهاء المخلوقة معها والانكى من ذلك الوصمة التي جلبتها عليها ·

وعندما تلتقي عينـــاه الجوالتـــان المستفهمتان الرفض وتكتشف بحوثه العاتية كتمانا مخادعا ومضللا فانـه ينقلب الى شخص فظ قاسي وشرير على ما في رأيي ويسوق هؤلاء التعساء المنكمشين الخجولين ويسارع بهم الى قمة جبل الفضيحة ويعرضهم جميعا عراة ظانا انه بذلك يقـــوم بعمل عادي وفي رأيي أنه لا يحق لاي رجل أن يقوم بمثل هذه العدالة !! برجل آخر ولطالما سكبت الدموع على حالة ضحاياه دون أن يدخر حنقـا

وغيظا ولوما عميقا على نفسه وهذا ما كان يستاهله اذ كان من الصعوبة بمكان زعزعة اعتقاده الراسخ بأن الـــذي كـــان يعمله يتسم بالصحة والعـــدل ٠

وانتهى تناول الفطور ودق جرس المدرسة وامتلأت الغرفة وســاد مشهد رائع جدا في الصف حيث جلس المعلمون والطالبات بترتيب ونظام جيدين ويترقب حاملين في ايديهم باقات الزهور الفاتنة المنظر وهي من اروع أيام الربيع الطرية التي كانت تملأ الاجواء باريجها وأنا الوحيدة التي كنت لا أحمل باقة ورد اذ أنني افضل الورود وهي تنمو على اغصانها ولكن عندما تقطف وتجمع لا تسر الناظرين وتكون بلا سيقانها وجذورها عرضة للتلف وزوال الاريـــج وأن تشبيهها بالحياة أمر يحزنني ؛ يغمني فانا لا أهدي الاوراد الى من أحبه ولا أميل الى أخذها من أياد عزيزة علي ٠

ولاحظت الانسة سنت بيير أن يدي فارغتان من الزهور ولم تتصور انني مهملة واخذت عيناها تسلطان انظارها الي والى ما حولي متصورة ان لابد من أن احتفظ بباقة صغيرة من البنفسج أو ما اشبه ذلك لـكيما يحق للاخرين امتداح ذوقي وبراعتي ٠ وقالت الباريسية هني « ان هذه الانكليزية جلست هنا بلا وردة وبلا ورقة كشجرة الشتاء وتبسست زيلي بارتياح تام قائلة لي « ما اكثر حكمتك ياالوسي في احتفاظك بنقودك ٠٠ أيتها الغبية أنا ذهبت ورميت بفرنكين قيمـة باقـــة من زهور البيوت الزجاجية ٠٠ » وقالت ذلك ثم ابرزت بكل افتخار باقة ازهار صغـــيرة وسرعان ما قالت « ٠٠ اسكتوا ٠٠ اسكتوا » واذا بنا نسمع صوت خطوات فورية كالمعتاد يقظة ومتاهبة للعمل وظننا ان في جعبـــة البروفيسور ـ لو توخينا الرومانتيكية في التعبير ـ ما يبشر في ذلـك الصباح بكنـه الصداقة وكان ذلك بالفعل ٠

لقد دخل وهو في حالة نفسية جعلته مشرقا كأشعة الشمـــس الى داخل الصف الاول المضاء اضاءة جيدة فضوء الصبح الذي كان يتراقص بـين تجهيزاتنا المدرسية ويتضاحك مع حيطاننا استقى لمعانا اكثر من تحيـة المسيو بول اللطيفة لنا وككل فرنسي أصيل (وان كنت لا أدري لمـــاذا اقول ذلك لانه كان لا فرنسيا ولا بيكوريا) فقد ارتدى وفق المناسبة ، مناسبة عيد ميلاده ٠

twitter @baghdad_library

دخل مرتديا بزة جديدة والقبعة في يده المقفزة وبان منظره جيدا ومرتبا بصورة جيدة جدا وفي عينيه الزرقاوين بريق الصداقة وفي محياه العام الاسمر مخائل المشاعر الحسنة وما كان المرء ليهتم بان أنفه وان كان ليس صغيرا أو أقنى لم يكن له شكل خاص يذكر وكان خداه ناعمين وحاجباه مربعين يتسمان بمزية خاصة · ان فمه وان كان لا يشبه برعم الزهرة فانه كان مقبولا على ما كان عليه ·

ويمم صوب رحلته ووضع عليها قبعته وقفازيه قائلا « صباح الخير أيتها الصديقات » بلهجة للتخفيف نوعا ما عند البعض منا من الاثر السيء لحدة تصرفاته التي لا عداد لها وزمجراته الوحشية وليس دليل مرح أو الشعور بالصداقة الحقيقية انما كانت مجرد كلمات كان يستخدمها متى ما نقلها فؤاده الى شفتيه متسمة بسرعة الغضب وتحجر العاطفة غير أن نواة قلبه أو صميمه كانت تحوي حنانا أبعد أثرا من حنان المرء تضفي عليه تواضع صغار الاطفال وهذا يؤثره للفتيات وللنسوة اللواتي كان يثور عليهن الا انه ما كان ليقوى على أن ينكر أنه كان معهن على توافق افضل مما هو مع ابناء جنسه الرجال ·

وهنا انبرت الآنسة زيلي التي كانت تعتبر نفسها ناطقة باسم الطالبات عند كل اجتماع وتقدمت بمزيد من الانعطافات الودية الرقيقة التي كانت ترى أن لا أفضل منها للتعبير عن مشاعر الود والاحترام قائلة « نحن جمعاء نحيي المسيو بيومه السعيد ونقدم له تهانينا بمناسبة عيد ميلاده » ثم وضعت باقة وردها الثمينة أمامه وانحنى لها · وانهال قطار طويل من الهدايا عليه حتى أن الرحلة بدت كما لو أنها هرم مزدهر كسف وجه للبطل الذي وراءه وبعد انتهاء هذه التشريفات استأنفت التلميذات الجلوس على مقاعدهن وساد سكون مطبق كسكون الاموات بانتظار خطاب منه ·

ومرت خمس دقائق تقريبا والسكون لم يزل مخيما على الصف ثم خمس دقائق أخرى ولا صوت منه ولا نأمة حتى أن الكثيرات ممن كن حاضرات استغربن ــ دونما ريب ــ وتساءلن عما ينتظره المسيو من طول هذا السكوت وظل المسيو غير المرئي بلا حركة وبلا صوت وراء أكوام باقات الزهور تلك ·

واخيرا ند عن شفتيه صوت آجش كما مو آنه آت منفراغ أواجوفاف قائلا ٠٠ هل تم كل شيء ؟ ونهضت الآنسة زيلي تنظـــر الى ما حواليها وتساءلت من التلميذات « هل كلكن قدم باقة زهـــور ؟! » وقالت الفتاة البارزة في الصف « نعم ٠٠ لقد قدم الجميع باقات زهورهن من الكبريات الى الصغريات ومن الطويلات الى القصيرات » ثم أردفت قائلة « هل هذا كل شيء » بلهجة متكررة أنهتها بنبرة منخفضة بعد آن كانت تتحدث بنبرة عالية ووقفت الآن وهي تقول بابتسامتها الحلوة :

أيها السيد !! لي الشرف ان اعلمكم ان كلا منا ـ باستثناء واحدة ـ قدم الى الصف باقته وهذه الواحدة هي الآنسة لوسي التي يرجى منها أن تلتمس عذرها فهي كاجنبية ربما لا تعـــرف عاداتنا او ربما لم تحسن تقدير هذه المناسبة واعتبرتها مناسبة تافهة جدا لا لزوم لان تأخذهـــا في الاعتبـــار ٠

وقلت لها وأنا أحرق الأرم « أنت خطيبة لا بأس بك يا زيلي عندما تباشرين بالكلام » وان الجواب الذي تلقته الآنسة سنت بيير من المنصـــة جاءها على شكل ايماءة يدوية من وراء هرم الاوراد بدا كما لو انها تقلل من أهمية الكلمات وتأمر بملازمة السكوت وسرعان ما ظهرت هيئة آو حالة بعد الايماءة اليدوية فقد خرج المسيو من مكانه المكسوف وبزغ من منصته وراح ينظر طويلا الى امام وقبالته خارطة للعالم كبيرة الحجم تغطي الحائط المقابل وقال للمرة الثالثة وفي هذه المرة بلهجة مأساوية حقة « أهذا كـــل ما في الامر ٠٠ ألم يبق شيء » ٠

وأحسنت عملا اذا تقدمت الى أمام ودسست في يده علبـــة صدقية صغيرة حمراء اللون كنت أحتفظ بها في يدي آنذاك وهو ما كنت أنوي أن افعله بالتمام لولا الموقف المضحك الاولي من سلوك المسيو الـــذي الجأني الى تأخير تسليمها اليه وبدا نزوع الآنسة زيلي سنت بيير للتدخل مضحكا ومثيرا للازدراء ولعل القاريء يستغرب اذا عرف آن لوسي سناو التـــي لا تدعي لنفسها الكمال في تصرفاتها وجدت أن من الخطأ ان تدافع عـــن نفسها حيال الباريسية زيلي التي وصمتها بما وصمتها ولو تلميحا ٠

twitter @baghdad_library

وقد ظهرت على وجه المسيو بول دلائل الالم العميق واخذ عدم تجاوبي مع الآخريات مأخذ الجد وتطلب الامر ان يكون في حالة انفعال وهياج أما أنا فقد احتفظت بالعلبة وبهدوئي وجلست بلا حراك كالحجارة . وندت على شفتيه عبارة « كل شيء على ما يرام ؟ » وسرى على حاجبيه ظل برجاء الالم الشديد ممزوجا بالسخرية والتصميم فزم ما بين شفتيه وغضن خديه . وبعد أن ازدرد أي تعليق آخر كان يمكن أن يصدر عنه شرع يحاضر كعادته .

ولا اتذكر تماما عم كانت محاضرته لانني لم أصغ اليها جيدا آنذاك فان عملية ازدراده التعليق المأمول وامانته عاره ومصدر غيظه الذي لحق به آثارتا لدي الاحساس الذي قاوم بنوع ما الاثر المضحك لعبارته التي كررها « هل هذا كل شيء !؟ » . وبعد انتهاء خطابه حصل تحول سار في المجرى المألوف آثار اهتمامي وسروري مرة أخرى وبناء لحركة عرضية غير مقصودة أسقطت كشتباني على الارض وعند انحنائي لالتقاطه اصطدمت مقدمة رأسي بالزاوية الحادة لرحلتي واحدث ذلك صوتا ضعيفا الآمر الذي أغاظ المسيو بول وأفقده توازنه وألقى نظرة تهكمية عجلى حول الغرفة اتسمت بالفظاظة وشعرت بقسوتها أو في نيتها في أن تقسو عندما عبرتني وراح يسلق الانكليز بالسنة حداد .

ولم أسمع المسيو بول يتحدث ضد الانكليزيات كما سمعته في ذلك الصباح فهو لم يدخر شيئا في التهجم عليهن وعلى أدمغتهن وآدابهن وسجاياهن ومظاهرهن الشخصية ولا أزال اتذكر بشكل خاص كيف كان يعيب قاماتهن ورقباتهن الطويلة وأذرعهن النحيفة وأرديتهن القذرة وثقافتهن المتحذلقة وشكوكهن العاقة غير الورعة (!!) وكرامتهن التي لا تطاق وفضائلهن المزعومة وكل هذا وهو يحرق الارم من الغيظ والحنق .. آواه ما كان أحمقه والذعه وأوحشه وأقبحه كنتيجة طبيعية لما قاله .

وقلت في نفسي هل سازعج نفسي ايها الرجل القميء السام بمخاوف اثارة غضبك أو الاساءة الى مشاعرك ؟ كلا .. ابدا .. عليك الا تكترث بي لانني كنت صاحبة أرخص هدية في هرمك . انه ليحزنني أن احقق

هذا العزم وأنفذ هذا القرار فقد سبق أن تكلم ضد انكلترا وضدالانكليز ولم أكترث لذلك ٠

واستطعت أن أتحمله مدى ربع ساعة دون اكتراث ولكن فحيح هذا الأفعوان أو همسته دل على أنه على وشك أن يلدغ وقال مثل هذه الاشياء أخيرا ليس فقط لوصم نسائنا بل لوصم عظمائنا وأفضل رجالنا وتلطيخ الدرع البريطاني وتمريغ علمه بالوحل ٠ واحسست بأنني قد لسعت ٠ وباستمتاع شرير جاء بأكذب ما في جعبته من تلفيقات تاريخية بحيث لم يسبق أن فاله أحد بمثل هذه العملات العنيفة وابتهج قلب زيلي والصف كله وسرى الضحك الهازيء الشامت بينهن وأخيرا لم أر بدا من أن أضرب على رحلتي ضربة عنيفة وفتحت شفتي وتعالت من بينهما كلمات هذه الصرخة « ٠٠٠ تعيش انكلترا ذات التاريخ البطولي ٠٠ ولتسقط فرنسا ذات التاريخ المليء بالخرافات والحماقات » ٠

وصعق الصف كله وأظن أنهم احتسبوني مخبولة فوضع البروفيسور منديله على وجهه وراح يضحك ضحكا خبيثا بين ثناياه ٠ ياله من وحش خبيث تافه يظن أنه نال الانتصار ما دام قد أغاظني وما هي الا لحظات حتى تغير تصرفه تماما واضحى ودي المظهر وبمنتهى الرقة واستأنف موضوع الازهار وأخذ يتكلم بلهجة شعرية ورمزية عن حلاوة مظهرها وأريجها ونقاوتها وما الى ذلك واخذ يقارن بين «الفتيات الصغيرات »وبين الازاهير الزاهية المطروحة أمامه وامتدح الآنسة زيلي لتفوق هديتهاوانهى كلامه بقوله انه بمناسبة مثل هذا الصباح الربيعي البديع المتارج سيأخذ الصف كله لتناول الفطور في الضاحية الريفية ٠

وأنبريت أقول « لن أكون أنا هناك » فقال وهو يجمع الاوراد بين ذراعيه ويهم بالخروج من الصف « فليكن ذلك » أما أنا فقد جمعتاشغالي ومقصي وكشتباني والعلبة الصغيرة المهملة ووضمتها على رحلتي وصعدت الى الطابق الاعلى ولا أدري ماذا كان قد غضب أو زعل أو استاء منحديثي الا انني كنت متأكدة من انني دفعته الى ذلك ٠

ورغم الاضمحلال الغريب للغيظ الذي كان بقلبي لم استطع الجلوس ساعة واحدة على جانب فراشي تارة أتصور نظرته وتصرفه وكلماته وتارة أطرد صورها من مخيلتي قبل أن أبتسم لما حصل في ذلك

twitter @baghdad_library

المشهد وشعرت بوخزة أسى لعدم اعطائي العلبة له فقـــد اردت ارضاءه وادخال السرور الى قلبه غير أن القدر أبى ذلك ·· ومنذ الظهيرة تذكرت أن الذي يحفظ هناك قد لا يبقى سالما في مكانه دون أن تتلاعب به الايدي العابثة وقلت أن علي أن استرجع العلبة بسبب كتابتي الاحرف الاولى من اسمه ولقبه ب·ك·د·ع (بول كارل ديفيد عمانوئيل) ولهذا عدت الى الصف ·

لقد استقرت العلبة في حافظة العطلة وذهبت التلميذات النهاريات الى دورهن والتلميذات اداخليات كن يمشين وكـان المعلمون ــ باستثناء المراقب الاسبوعي ــ في المدينة يزورون أو يتسوقون وكان طاقم الاقسام المدرسية فارغا وكذلك الصالون الاكبر الذي كانت تتدلى من منتصف سقفه الكرة الارضية الكبيرة الحجم مع ثريتين كبيرتين يفروعهما الكثيرة والبيانو الكبير الذي كان مغلقا وصامتا يتمتع بعطلته الاسبوعية ·

واخذت أتجول لاجـــد الصف الاول مفتوحا جزئيا علما بأن هذه الغرفة عادة ما تكون موصدة الباب في أيام العطل ولا يمكن لاحد أن يدخل اليها ما خلا المدام بيك وأنا اللتين تحتفظ كل منا بنسخة مطابقة للمفتاح وواصلت التجول واذا بي أسمع حركة غامضة كوجود حياة ·· خطـــوة وصوت يرفع وصوت كفتح جارورة الرحلة ·

وبعد تأمل قصير الامد عرفت أن المدام بيك هي التي تفعل ذلك وأن الباب المفتوح فتحا جزئيا هو الدليـــل عـــلى ذلك وللاطمئنان بصدد هـــذه النقطة نظرت فلم الحظ ان الفستان هو للمدام بيك لا شالها ولا قلنسوتها انما وجدت معطفا ورأس رجل أسمر اللون · لقد احتل هـــذا الرجل كرسيي وفتح رحلتي واختفى أنفه لانه كان يتفحص محتوياتي واوراقي ولم أكن أشاهد سوى ظهره وان كنت متأكدة من هويته الآن لانه كـــان يرتدي نفس بدلة الاحتفال ونفس السترة (البالطو) الملطخـة بالحبر مرمية على الارض كما لو ان صاحبها ألقاها من يده لانشغاله في التحري·

والآن عرفت كما عرفت منذ مدة طويلة بأن يد عمانوئيل هي التي أمتدت على ما كان موجودا داخل رحلتي وانه هو الذي رفع أو انزل الغطاء وبعثر ما في الرحلة ثم اعاد تنظيمها ولم يكـن الموضوع موضوع تشكك فقد ترك علامات واضحة عن كل زيارة لا يرقى اليها الشك ومع ذلك لـــم

استطع الامساك به ابدا عند قيامه بما قام به رغم كل مراقباتي وتحرياتي ولم اعرف ساعات أو لحظات مجيئه انما وجدت كما لو انها أعمال الجنيات السمراء الصغيرة التي تزعم الاساطير أنها تقوم بأعمال البيت سرا ووجدت أن الاخطار المرتبكة أثناء التفتش تصحح بعد الانتهاء ٠

أما الان فقد أمسكت به أخيرا ٠ هناك هو نفس اللون الاسمر الداكن لوجهه يتدلى من بين شفتيه سيكاره الهندي الحبيب الى نفسه ٠ كان يدخن على رحلتي ٠ وسرني أن أفاجئه ومشيت على أطراف أصابعي نحوه ووقفت وراءه وحنيته رأسي بحذر تام على كتفيه ، وازدادت نبضات قلبي حين وجدت أنه بعد عداوة هذا الصباح وبعد تصديع مشاعره وتخديش طبعه بدا عليه أنه يريد النسيان ويريد أن يصفح عني فجاء لي بكتابين ضخمين جيدين يستهويان من يقرأهما لعنوانيهما وشهرة مؤلفيهما ٠

والان أراه منحنيا على الكتابين يقلب صفحاتهما الواحدة بعد الاخرى بلطف وعناية ٠ كان مشوش الذهن دون ريب ولكن بلا استعداد لايقاع الاذى بأحد وعندما اطللت على ما بين يديه زاد وجيب قلبي وكان ساهما تائه التفكير ولاده جاء ليصلح ذات البين بيني وبينه ليقدم الخدمة التي يستطيع أن يسديها لي عالمة ، أنه لا يحمل لي أية ضغينة لهذا ذاب كل غضبي تمام الذوبان وشعرت بأنني لا أكرهه ٠

وأظن أنه أحس بتنفسي فالتفت فجأة وبدا كما لو أنه ذو مزاج عصبي ولم يبدأ حديثه معي ولم تتبدل ألوانه بهذه المفاجأة واذا به يقول لي بنوع من ضبط النفس « ظننت أنك قصدت المدينة مع المعلمات والمعلمين الاخرين ٠٠ هل تظنين أنك أمسكت بي أو أنني أكترثت لذلك ؟ انني غالبا ما أزور رحلتك » فقلت له « أعرف ذلك أيها المسيو » وقال لي « أنت تجدين بين وقت وآخر كراسا أو مجلدا ولكنك لا تقرأينها لانها مرت تحت هذه » وأشار الى سيجاره الذي بين شفتيه » وقلت له « انها لكذلك ولكنها لا تصلح للمعالجة الا أنني أقرأها » ويسألني « هل تقرأينها دونما متعة ؟ » وقلت له « على المسيو ألا يناقض نفسه بنفسه وألا ينكر » وقال لي « هل تحبينها أو تحبين أية منها ؟ وهل انها مقبولة لديك ؟ » ٠

twitter @baghdad_library

قلت له « المسيو يعرف أنني أقرأها وشاهدني مئات المرات أقرأها ويعرف بأن ليس لي فراغات كثيرة لاقلل من قيمة ما يأتي به » وقال لي « انني أضمر لك مشاعر ودية واذا كنت تعرفين ذلك وتستمتعين نوعا ما من جهودي فلماذا لا يمكن أن نصبح صديقين ؟ وقلت له « من السخافة أن نقول ذلك فنحن لا نستطيع أن نكون صديقين » وواصل كلامه قائلا « نهضت في هذا الصباح بنفسية مرحة وجئت الى الصف مستبشرا وسعيدا فأفسدت علي نهاري » .

وقلت له « كلا أيها السيد .. لم أفسد عليك نهارك كله باستثناء ساعة او ساعتين وكان هذا بدون قصد مني » وقال لي متسائلا « بدون قصد ؟ ! لقد كان عيد ميلادي والكل تمنى لي السعادة الا انت . أهدتني الصغيرات في الصف الثالث هدايا كل منهن قدمت باقة زهورها ولئن بتمنياتهن لي اما انت فلم تقدمي شيئا لا برعم ورد ولا ورقة شجيرة حتى ولا نظرة منك وتقولين أن ذلك حصل بدون نية مقصودة » وقلت له « لم أقصد ايذاءك » .

وقال لي « اذن أنت لا تلمين بعاداتنا في الحقيقة . كان يكفي أن تقدمي لي مساحة بضعة سنتيمات من الورد لتبهجيني ما دمت متوقعة انه عيد ميلادي اعترفي بذلك وكل شيء سيصبح منسيا والالم سيغف » وقلت له « كنت أعرف انه عيد ميلادك وكنت متهيئة لذلك ومع ذلك لم أضع على منضدتك بضعة سنتيمات من الزهور » وقال لي « هذا حسن منك ، تحسنين صنعا اذا كنت صريحة وصادقة وكان علي أن اكرهك لو انك تملقت وكذبت علي . وأفضل أن تقولي في الحال « أنني اكرهك يا بول كارل عمانوئيل بدلا من أن تبتسمي لمنفعة ذاتية أو بدلا من أن تتظاهري تظاهرا بالود في حين أن ما في قلبك بارد وودك ممحوض وفي رأيي أنك لست كذلك ، غير انك أخطأت بشكل فادح في حياتك وفي رأيي أن حكمك زائغ ومعوج لانك تظهرين بلا اكتراث عندما يتطلب الامر منك الامتنان وعدم انكار الجميل وتظهرين احيانا بمظهر الحب والامتنان حين ينبغي أن تكوني باردة كاسمك . لا تتصوري أنني أريدك أن تتعاطفي معي ايتها الانسة فالله يقيك من ذلك » . قلت « تعاطف ؟ » . حسنا أقولها مرة أخرى فيوجد مثل هذه الكلمة ويوجد مثل هذا الامر

ولكن لا بين الجدران . لست طفلة بحيث لا ينبغي على المرء أن يتكلم معك عن أشياء موجودا . لم أفه ألا بكلمة .. تعاطف .. واطمئنك أن هذه الكلمة غريبة عن كل حياتي وآرائي .. لقد ماتت في الماضي وهي في الحاضر مقبورة في قبر عميق وعلى القبر أكوام من الاتربة طيلة فصول الشتاء العديدة المتواترة . أما في المستقبل فسيحدث انبعاث أو نشر لعزائي الروحي وقتئذ سيتبدل كل شيء شكلا وحسا والخالد سيرتدي ثياب الخلود . انه سينهض لا من أجل الارض بل من أجل السماء . وكل ما أرجوه منك أيتها الانسة لوسي سناو وهو ان عليك أن تعاملي البروفيسور بول عمانوئيل معاملة احترام » .

قلت له « لم أناقض هذا الشعور وما كان بوسعي أن افعل ذلك » وواصل كلامه معي قائلا « قولي لي متى سيكون عيد ميلادك ولن ابخل في بضع سنتيمترات من الهدية لك » وقلت له « ستقابلني بما قابلتك به أيها المسيو وهديتي هذه لك تكلف أكثر من بضعة سنتمترات وما استكثرت قيمتها او ضننت بها اليك » ثم أخرجت من الجارورة المفتوحة العلبة الصغيرة وسلمتها له وواصلت كلامي « لقد كانت الهدية في حضني في هذا الصباح ولو لم ينفذ صبر المسيو ولو لم تتدخل الانسة سمنت بيير ذلك التدخل ولو لم أكن أهدأ واكثر حكمة لسلمتها لك » .

ونظر الى العلبة وعاينت شبه حالة لازوردية ومسحة دافئة صافية تسر ناظريه وطلبت منه أن يفتحها وقال لي « هذه هي الحروف الاولى لاسمي ومن أعلمك أن اسمي هو كارل ديفيد ؟ » قلت له « طير صغير أعلمني بذلك أيها المسيو !! وقال لي « هل ان هذا الطائر طار من عندي متوجها اليك ؟ اذن يستطيع المرء أن يربط رسالة تحت جناحيه اذا مست الحاجة الى ذلك » .

وأخذ السلسلة من داخل العلبة ومع ان قيمتها لم تكن شيئا مذكورا الا انه بعد أن لاحظ انها تلتمع بحريرها وتتلألأ بالخرز راقت لديه كثيرا واعجب بها فنيا وقال لي كطفل « هل هذه لي ؟ » قلت له « نعم .. انها لك » . وقال لي هل هذا هو الشيء الذي كنت تشتغلين به في الليلة الماضية ؟ وقلت له « .. نعم ! » وسألني « هل أنهيتها في هذا الصباح ؟ »

twitter @baghdad_library

فقلت له نعم .. وقال لي متسائلا : هل باشرت بها بقصد اهدائها لي ؟ دون ريب على أن تهديها لي في ذكرى يوم ميلادي ! فقلت له نعم . فقال متسائلا أيضا « وهـذه النية لديك تواصلت وأنت تعملينهـا ؟ » .. فقلت له « نعم بالضبط » وقال « أليس اذن من الضروري أن أقطـع أي جزء وأن أتخذ سبيلا آخر على أساس ان هذا الجزء كان مخصصا لفكرة أخرى وللاخـلاص الى شيء آخر ؟ » فقلت له « لا لزوم لان تفعل ذلك وليس من الانصاف أن تفعله » وقال لي « وهذا الشيء كله لي » فأجبته « كله لك تماما » .

وما كان منه سوى أن يفتح معطفه ويثبته بحاشيـة زينيـة من صدره مبرزا أكثره ومخفيا أقله اذ لم يكن من عادته أن يخفي ما يثير اعجابه أو ما يعتبره زينة . أما العلبة فقد اعتبرها كعلبة حلويات حيث كان مغرما بالحلويات ولانه كان يفضـل أن يشـارك الاخـرين ما كان يفضله من الاطعمة فقد كان يوزع الحلويات ويعير الكتب ومما تركه لي من حلويات كهدية في رحلتي فواكه مجففة من انواع مختلفة وكان نهما في هذه كنهم الاطفال ومعظم تشكيلة طعامه البسيطـة كانت من أمثـال هذه وكان يشارك فيها أطفال الصف الثالث .

وراح يعدل معطفه قائلا لي « هذه حقيقة ثابتة الان وليس لدينا أية كلمات حولها بعد كل هذا ، وبعد أن نظر الى المؤلفين الملذين اشتراهما واقتطع بعض الاوراق منها بسكين القلم . وتلك كانت عادته عندما يعير الكتب لاسيما اذا كانت قصصا وروايات بحيث أنني كنت أحيانا أستاء من صرامة رقابته ـ نهض بمنتهى الادب وتمنى لي نهـارا طيبـا قائلا « اننا الان صديقان » واتممت في سريرة نفسي « الى أن تتخـاصم مرة أخرى » . وربما تخاصمنا مرة أخرى بنفس الامسية ولكن الغريب أنه لم يفد قط من الفرصة التي سنحت له .

وعلى خلاف توقعاتنا وصل المسيو بول في ساعة الدراسـة بعـد أن شاهدنا منه الكثير في صبيحة اليوم ذاته ولم نكن نتوقع مجيئـه مسـاء دائما وما أن جلسنا على مقاعدنا الدراسية حتى ظهر في الصف وأقـر أنني كنت مسرورة لمشاهدته بحيث أنني أبتسمت له حين وصوله وعندما اتجه الى نفس المقعد الذي حدث سوء التفاهم فيه في السابق اهتممت بعدم

فسح مجال كثير لمروره ونظر بحذر وحرص نظرة جانبية ليرى ما اذا كنت سأنتحي قليلا ولكنني لم أفعل ذلك • ورغم ازدحام الرحلة نوعا ما لم أكن أريد الارتداد أو الانسحاب أو الجلوس باختناق •

لقد كان المسيو بول بمعطفه وغطاء رأسه اليوناني برما بما كان يجاور تلك الاردية ومثقلا بها • ولم أعد اجلس مختنقة كما كان يطلب منا هو أن نقعد بجانبه فاتحرك حين أريد التحرك وأقع وأسعل حين تأتيني القحة أو السعال وحتى أتثاءب حين أكون تعبة وأفعل ما أريد فعله حيث أشاء ولم يقابل طيشي وتهوري في تلك الامسية بالعقاب الذي ربما يستحقه فقد بدا واسع الصدر ودمث الطبيعة ولم يحدجني كالسابق بنظرة شرسة ولم تند عن شفتيه كلمة فظة أو طائشة • ولم يكلمني قط الا عند انتهاء الامسية وكنت أحس بأنه في شعور صداقي وودي معي • ان للصمت معاني مختلفة تتنسم معاني متباينة ومختلفة أيضا وما من كلمات توحي من المسيو بول بالمسرة وبالمحتوى الطيب أكثر من وجوده الصامت وعندماجيء بالصينية وبدأ وقت العشاء وضجيجه لم يقل لي بعد أن ذهب الا انه يتمنى لي ليلة سعيدة واحلاما جميلة وفعلا كانت ليلتي تلك سعيدة وأحلامها جميلة •

twitter @baghdad_library

الفصـــل الثـلاثون

ـ المسيـــو بـــول ـ

المطلوب من القارىء ألا يتعجل الحكم على هـذه النتائج المريحة ويتصور ان المسيو بول منذ ذلك اليوم أصبح شخصية أخرى يسهل العيش معها وان لا خطورة أو ازعاج يصدر منه ·· كلا ·· انه بالطبع رجـل قميء ليست أمزجته على ما يرام عنـدما يثور غضبـه وما أكثر ما يثور غضبه فقد أصبح مزعجا للغاية ·

وكنت دائبة التفكير عند جلوسي مع المسيو بـول أراقب حركاته وهو يمقـد حاجبيـه ويمط شفتيـه ويزمهـا عندما يسلط ناظريه على بعض التمارين التي كنت أنجزها والتى كانت تخلو من الاخطاء الكثيرة التى كان يهمه أن يرتكبها ولان مجموعة الاخطاء عنـده كانت طيبـة المذاق وانه كان ولا يزال يريد التشبه بنابليون بونابارت من حيث جنون العظمـــة ·

لقد كان يريد التشبه بالامبراطور العظيم عن طريق معائب عدم الالتزام بالشهامة ولا يهمه أن يخاصم عشرين امرأة مثقفة ويخاصم بدون خجل جملة من المثقفين بتوجيه التهم ضدهم دون أن يهتم بخسارة الكرامة ، وكان على استعداد أن ينفي خمسين من أمثال المدام (دي ستولس) اذا كن يضايقنه ويهاجمنه وينافسنه ويعارضنه (المدام دي ستولس روائية فائدة لنفسها وفي اعتقادي ان الكثيرين من الناس اعجبوا بها واعتبروها الفرنسيين الذين كانوا يعارضون نابوليـون وقد نفاها نابوليـون من فرنسا ثلاث مرات) ·

اننى أتذكر فصلا ساخنا من فصوله مع المدام باناش التى عينتها

twitter @baghdad_library

المدام بيك بصورة مؤقتة لاعطاء دروس في التاريخ فقد كانت ذكية تملك معلومات جمة وتستثمر ما تعرفه أحسن استثمار دون أن تنشد منه فائدة لنفسها وفي اعتقادي ان الكثيرين ن الناس أعجبوا بها واعتبروها امرأة رائعة وكانت هنالك نقاط في فتنتها وجاذبيتها القوية الواسعة وفي طلعتها المعبرة التي ان تجلت فان أذواق المسيو بول لن تتحملها أو تطيقها فان صدى صوتها المدوي في القاعة يضعه في موقف حرج وان خطواتها الطويلة في الممر غالبا ما تحدو به الى أن يفسر ويتوارى عن الانظار ·

وبنية خبيثة فكر ذات مرة في أن يتطفل على صفها وبسرعة البرق ألم باسلوبها التدريسي وهو أسلوب يختلف عن أسلوبه ، وبكياسة ضئيلة وأدب ضئيل أشار الى أخطائها ولا ادري ما اذا كان قد توقع هو القبول والاهتمام غير أنه قوبل بمعارضة عنيفة وتأنيب سافر لتدخله الذي ليس له ما يبرره اطلاقا وبدلا من أن ينسحب محافظا على كرامته أخذ يتحدى فما كان من المدام باناش الميالة للقتال كملكة الامازونيات الا أن تعامله بازدراء وتهكم وانهالت عليه بعاصفة من الكلمات العنيفة ·

ولما كان المسيو بول معروفا بفصاحته والمدام باناش معروفة بذرابة اللسان فقد نشأ خصام عنيف ومشادة كلامية ضارية وبدلا من ان يعطى لها الحق ويرد لها احترامها لذاتها أخذ يعاملها بمنتهى الغضب والحقد المتسمين بالعناد ولم يجلس على مقعده أو ينتزع السيجار من فمه الا بعد أخرجت المدام من الصف بالقوة · صحيح انه انتصر ولكنني لا أستطيع أن أقول أن أكاليل ظفره قد ألقت بظلالها على هيكله بسلام · وقد سبق أن عارضته ذات مرة ولشدة استغرابي نوه أمامي بأنني قد أكون محقة ولكنه عندما عرف أن المدام باناش نموذجية في مهنتها لم يستطع أن يسيطر على أعصابه فشن عليها حرب ابادة ·

وبعد ثلاثة أشهر عندما عرف ان عدوته المهزومة تعاني من الحظ العاثر وانها منكوبة بالبطالة لعدم عثورها على عمل نسي كراهيته وأقام الدنيا وأقعدها حتى عثر لها على عمل انتقدها من غائلة البطالة وعندما قصدته لتسوية خلافاتهما ولتشكره على مسعاه الكريم من أجلها خرج من الغرفة بعد عشر دقائق باحساس من التبرم العصبي ·

لقد كان المسيو بول يهوى السلطة والتحكم ولكى يحقق ذلك كان شبيها بنابوليون في حبه للعظمة وكان من الصعوبة عليه أن يسلم لسواه دائما بل كان يجنح للمقاومة وكانت هنالك حاجة لاناس آخرين يعلمونه أن متطلباته ومستلزماته تترامى الى بعد المنطق والرشاد وان حكمه المطلق يوصله حتما الى حافة الاستبداد ٠

وحدث أن المسيو بول لم يعد بروفيسورا لي ولم يعد يعلمني وذلك منذ تاريخ انتهاء الفصل الاخير وقد سمعني بطريقة الصدفة ذات يوم وأنا اعترف بجهلي في فرع من فروع التعليم وأظنه كان يدرس الرياضيات فأخذني من يدي وامتحنني أول مرة ثم أعطاني بعض الكتب ووجدني قديرة جدا فعينني واناط بي بعض الواجبات ٠ وفعل ذلك في البدء بطيبة خاطر وبفرح ظاهر واعتقد بأنني مؤهلة كل التأهيل ولا ينقصني للتدريس شيء ٠

ان بداية كل المجهودات تميزت بحماقة شاذة وحتى عندما كنت اتوصل الى معرفة عامة ما كنت لاقوى على أن أؤكد بأنني توصلت الى حد البراعة فقد صادفتني فترة صعبة موهنة للعزيمة في كل صفحة من الصفحات التي كنت أقلبها وكان المسيو لطيفا جدا في افهامي اياها بلا تبرم أو تشك لانه كان يدري بما يلحق بي من ألم حاد وذلة يحلها بي شعوري الخاص بعجزي ولا تقوى الكلمات على ايفائه حقه بما كان يساعدني في هذا الصدد وبكل عطف وتحمل ٠ وعندما كانت الدموع تنهمر من عيوني نتيجة الجهد ونتيجة الخجل الذى كان يساورني من جراء ذلك كانت الدموع تنهمر من عينيه أيضا ٠ لقد ساعدني رغم عبء العمل الذى يضطلع به ويسرق من وقته نصف ما خصص لراحته لكي يخصصه لي ٠

وما أغرب ما عانيته من أسى عندما استسلم الفجر بغيومه الثقيلة الوطأة في آخر الامر الى ضوء النهار وعندما بدأت قواي ومقدرتي تناضل من اجل أن تتحرر من الضيق والانزعاج وعندما حل وقت المجهود وانجاز العمل وعندما تطوعت مرتين وثلاثا وأربعا لاتمام واجباتي المناطة بي لاريحه كما كنت أظن تحول عطفه الى صرامة وتحول ضياء

twitter @baghdad_library

عينيه الى شرر وأغتاظ واهتاج وراح يعارض ويسيء معاملتي وكلما أمعن في ذلك زدت في بذل المجهود الشاق ·

ان تهكماته اللاذعة أثارت دهشتي وارتباكي وملت سماعها أذناي وزادت غمزاته وتلميحاته المرة عن « غرور المثقف » وأخذت تتكرر بحيث شعرت شعورا غامضا بأنني مهددة بما لا أعرف أي مصير سأصادفه اذا انا تجاوزت الحدود المناسبة لجنسي وتمنيت لو ان لي رغبة غريبة في المعرفة غير الانثوية ·· ولكن أواه ·· لا رغبة لي في ذلك فالذي أحبه يسرني بأي مجهود من القناعة ولكن الجوع النبيل من أجل العلم المثالي المجرد والعطش المقدس من أجل السعي الى الاكتشاف ان كل هذه المشاعر والاحاسيس كانت معروفة لدي ولكن على شكل ومضات سريعة الزوال ·

ومع ذلك عندما راح المسيو بول يسخر مني ويهزأ بي أردت أن أمتلكها بشكل أكمل وأوسع وان تعسفه ومعاملته السيئة أثارت في رغبات طموحة وأمدتني بحافز قوي وزودتني بجناحين طموحين وفي البداية وقبل أن أتغلغل في عمق الحوافز كان تهكمه اللامفهوم قد أوجع رأسي ولكن شيئا فشيئا أخذت تغلي دمائي في عروقي وزاد زخم نبضاتي ومهما كانت قواي أنثوية أو بالعكس فالله هو الذي يعطيها وشعرت بأن علي ألا أخجل من أية قوى أو قدرات يحبوها الخالق لنا ·

واشتد الخصام بيننا بحيث بدا لي أنني فقدت مودة المسيو بول وأخذ يعاملني معاملة غريبة وفي معظم لحظات لقائنا كان يقول لي أنني خدعته بتظاهري بالضعف وعدم الكفاءة كذبا ثم يعود على التو ويتهمني بالتقليد والانتحال وبأنني استخرجت الجوهر من الكتب التي لم أسمع بها ويظهر أنني من فرط ما طالعت وقرأت رقدت رقودا عميقا ·

وفي احدى المرات عندما عاود اتهامه لي استشطت غيظا وثرت عليه وجمعت من رحلتي بملء يدي من الكتب قدر ما يتسع لها صدري من الحمل وكومتها على المنضدة على مقربة من قدميه وقلت له « خذها أيها السيد ولا أريد أن تعلمني أكثر بعد الان فما أنا طلبت منك أن تعلمني وأنت تفطرني الان الى أن أشعر شعورا عميقا بأن التعلم لا يجلب السعادة · وعدت الى رحلتي واسندت رأسي على ذراعي وقاطعته

فما كلمته يومين وآلمني وأحزنني ذلك لقد كان رده لي حلوا جدا ومسرة جديدة لا مثيل لها والان بعد أن زال هذا لم أعد أهتم بدروسه ٠

ان الكتب التي كومتها لم تؤخذ فقد أعيدت باهتمام الى أماكنهـا وعاد لتدريسي وكان قد استعد لقطعته نوعا ما وربما كان علي أن أطيل وضعي الدراسي معه بعد أن أبدى مرة أخـرى جانب العطف والصـلاح ومد يده بالود ولهذا فان الذكرى لم تشـا تكرير واستعـادة لحظـاته العدائية الاستبدادية ثم ان المصالحة حلوة المذاق دائما ٠

وفي أحد الاصباح جاءني نبأ من عرابتي تدعـوني الى الحضـور لسماع محاضرة تلقى بنفس الغرف العامة التي ورد ذكرها سابقا وكان الدكتور جون هو الذي جاء بالنبأ وسـلمه الى روزين الخادمـة بصورة شفهية وجاء في مؤخرة النبأ « ما أحلى وأظرف هـذا الشاب ٠٠ الدكتور جون وما أحلى عينيه وما أحلى نظراته على قلبي وعنـدما ذهبت روزين بعد تسلمها الرسالة سألني البروفيسور لماذا بدت الكآبة على وجهي وما الخبر ؟ وقلت في نفسي : صحيح ما قالته عن ولدهـا فغراهـام جميـل وظريف الشكل وله عينان رائعتا الجـمال ونظراتهما مثـيرة وتمتمت شفتاي بعبارة « انها لم تتكلم الا الصدق » ٠

وكان درس ذلك اليوم سارا جدا في نهايته واندفعت الطالبات بعد انتهاء المدرس شاعرات بالبرد وبالبهجة في آن واحد وأنا أيضا كنت على أهبة الذهاب واعتقلتني رغبة بوجوب البقاء وتمتمت بحزن بأنني بحاجة الى هواء منعش وكان الوجاق يتوهج وداخل الصف حار جـدا ٠ وكان يعتمل ويفور في صـدر المسيو بـول عمانوئيل شـك مزمن بأنني ألـم باللغتين اليونانية واللاتينية ٠

وكما يقـال ان للقرود طاقة التكلم لو أنها استخدمتهـا الا أنهـا لا تستخـدمها خـوف أن يتحول عليهـا ضرر التكلم هكـذا عزيت الي قدرة جمع المعلومات التي أخفيها اجراما مني كما يقال ٠ وان امتيازات الثقافة الكلاسيكية هي لي كما تفيد التلميحات وبخصوص أوراد عـلى شاكلة أوراد جبل هيميتوس في أتيكا اليونانية فانني انشأت مخزنا ذهبيا لا يزال عالقا في الذاكرات ٠

twitter @baghdad_library

واستخدم المسيو بول مئات الذرائع والوسائل ليفاجيء سري ويكتشفه من تعلقات ومداهنات تارة ومن تهديدات تارة أخرى للكشف عنه أو افشائه ففي بعض الاحيان كان يضع الكتب اليونانية واللاتينية في طريقي ويتجسس علي ويراقبني لمعرفة ما سأفعله بها وغير ذلك وغير ذلك · وبعد أن اسقط في يده ثار غضبه وأخذ يتثبت برأيه · وفي بعض الاحيان كنت أود لو أن شكوكه حقيقية وهناك أوقات كنت أرغب في أن أمد يدي لاحظى بالكنوز المعزوة لي ···

أواه ··· لماذا لم يتعهدني أحد في صغري لان يوصلني الى مصاف الذكاء ويوحي الي بأنني قادرة بمفاجأة واحدة وبانتصار عنيف شامل أن اوجه ضربة لروحية المسيو بول الساخرة تكون الساحقة الماحقة ·· أسفا ·· لم يكن هذا في مقدوري · واليوم بعد أن وجد المسيو أن مكائده ترتد الى نحره تخلى عن مساعيه في الحال ··

ان موضوعه الثاني كان ما يسميه بالمرأة الذكية الالمعية « وهي نوعية من نوعيات الفلتة الطبيعية وهي حدث مشؤوم لامكان له ولا فائدة في الخلقية ولا تراد لا كزوجة ولا كعاملة وأول ما ينتظرها هو الجمال ويؤمن بقرارة نفسه أن مزيجا من الوسط الانثوي المحبوب الرائق الهادىء والمستسلم المذعن هو الوسادة الوحيدة التي يمكن للفكر الرجولي والحس الرجولي أن يسند رأسه اليها ليجد الراحة بدلا من أوجاع الرأس وما دامت هذه الفلتة الطبيعية قادرة على تشغيل ذهنية الرجل فهي قادرة ولوحدها أن تحقق أية نتائج عملية · أليس كذلك ؟ (!!) وعلامة التعجب هذه يقصد بها سحب أي تناقض أو معارضة لدي ·

وقلت للمسيو بول بصدد ذلك « هذا ما لا شان لي به ولا أعيره أية أهمية » ثم أضفت على ذلك العبارة التالية « هل تسمح لي بالذهاب أيها المسيو ؟ ان جرس الغداء قد رن » وقال لي وماذا في ذلك ؟ انك لست جائعة وقلت له « الصحيح أنني كنت جائعة فلم أتناول شيئا منذ الفطور الذي تناولته في الساعة السابعة واذا لم استجب لهذا الجرس فمعنى ذلك أنني سأبقى الى عشاء الساعة الخامسة » ·

وكان هو أيضا جائعا وذهبنا فكسر بريوشة واحدة الى نصفين

(البريوش خبز محلى يهيا مع قليل من الزبدة والبيض ـ المترجم) كانت مهيأة له خصيصا وأعطاني نصفها والصحيح الذى ينبغي أن يقال عنه أن نباحه أسوأ من عضته وسيأتي خبر هجومه الحقيقي الكبير ولا أستطيع الامتناع عن التعبير عن رغبتي السرية وهي أنني أدرى بحقيقة كل ما كان يتهمني به . وسألني ذات مرة بلهجة ناعمة « ألا تشعرين شعورا خالصا بأنك جاهلة ؟ » ولو أنني أجبته بحلم واعتدال وخنوع بالايجاب القاطع فانني كنت معتقدة بأنه يمد بكلتا يديه الي ونعود أصدقاء فورا ولكنني أجبته « لست جاهلة أيها المسيو جهلا تاما بالشكل الذي تعزوه الي وانني في بعض الاحيان ـ لا في كلها ـ أشعر بأن لدي معرفتي الخاصة » .

وقال لي بحدة « ماذا تعنين ؟ » ولما كنت عاجزة عن أن أجيب على هذا السؤال توا تحاشيته بتبديل الموضوع وكان الان قد انتهى نصف بريوشته ولما كنت متأكدة من انه لا يمكن أن يشبع بتلك القطعة الصغيرة وبعد أن شممت رائحة التفاح المحمض بعيدا عن منضدة الطعام تجرأت على أن اسأله ألا تشاركني طيب رائحة ما نشمه من التفاح المحمض فقال « بلى أشاركك » وقلت له « اذن ألا تسمح لي بالخروج من باب الحديقة لعبور الساحة حتى آتي لك بصحن مليء منه لانني معتقدة بأن الطباخ « فوتون » له طريقته الخاصة المفضلة جدا في صنع الثمار المسخنة بعد أن يملأها بقليل من التوابل والسكر ويقدح أو قدحين من النبيذ الجيد فهل أذهب ؟ » .

« وقال لي مبتسما « أيتها الشرهة الصغيرة ! أتذكر جيدا كيف استطبت أكل هذا النوع عندما أعطيتك أياه وأنت تعرفين الان انك ان أتيت لي بمثل هذا التفاح فمعناه انك تأتين به لنفسك أيضا .. اذن ما عليك الا الذهاب على أن تعودي بسرعة » .

وأخيرا اعتقني على أن أعود وكانت خطتي تقضي بأن أذهب وأعود بسرعة وبايمان محض وأضع الصحن له عند الباب وأتوارى بلا توان وبلا ضبط نفسي تاركة كل النتائج على أمل تسويتها في المستقبل . ويظهر أن مقدرته العادة التي لا تطاق توقعت ما كنت أروم أن أفعله فقد التقاني عند عتبة الباب وأدخلني بسرعة الى الغرفة وبدقيقة واحدة

twitter @baghdad_library

اجلسني في مقعدي الاول وبعد أن أخذ صحن الفاكهة من يدي قسم القطعة التي كان المفروض أن تكون كلها له فقط وأمرني أن آكل حصتي . وامتثلت بدون رضى مني وأحس بالحيرة ـ على ما اتصور ـ من احجامي وعدم رغبتي وأخذ يهاجمني بعنف بسيل من الكلمات الغاضبة وبين أن قيمتي لا تعني شيئاً .

واقترح من أجل رفع هذه القيمة أن أشترك ـ بوصفي مربية ـ في الامتحانات التالية وآخذ مكاني في الصف الاول من تلميذات الدرجة الاولى ثم أحفظ انشاء باللغة الفرنسية في أي موضوع يملى علي دون الاستعانة بالقواعد أو القاموس . وكنت اعرف ما ستسفر عنه هذه التجربة المخصصة لمن لا موهبة له أو استعداد طبيعي لها ونتيجتها تكون صفراً أو نتيجة تافهة . وحول هذا الموضوع ما أكثر ما اشتد الجدل بيني وبين المسيو بول واحتدمت المعركة بصخب الطلب والرفض وبمحاولات الابتزاز ومردودات الصد والمقاومة .

في ذلك اليوم بالذات تعرضت لتوبيخ شديد فعناد كل بنات جنسي تركز على ما كان يبدو ـ في أنا وكان بي كبرياء الشيطان وغروره الجم . وساءلت نفسي هل حقا أنني أخشى الرسوب ؟ وما الذي يهم لو رسبت أو نجحت ؟ ومن أنا لكي لا أرسب اسوة باللواتي يرسبن وهن أحسن مني ؟ ولو رسبت لكان هذا أفضل لي . انه يريدني أن أرسب يريدني أسوأ من أن أرسب وبعد دقيقة توقف وجر نفسا وقال لي « هل أتكلم الان وانت تصغين الي ؟ » .

فقلت له « لن أصغي اليك في مثل هذا الموضوع قط وحتى القانون نفسه لن يثنيني عن عزمي فانا مستعدة لدفع الغرامة أو الدخول الى السجن بدلا من أن انتقص من قدري في الامتثال لنظام ووعوظ تأتيني من منصة » وقال لي « ألا ترضخين من أجل الصداقة ؟ ألا يمكن أن تؤثرين بي بحوافز أنعم وأرق ؟ » فقلت له « أبدا ولو بمقدار ذرة ولو بعد الشعرة فما من صداقة تحت الشمس يحق لها أن تحدوني الى الرضوخ والامتثال وما من صداقة بمستطيعة أن ترغمني على قبول هذا الازعاج » .

ورد علي بسخرية ـ وتتجلى سخرية المسيو بول بزم شفتيه وفتح منخريه وتقليص جفنيه ـ وقال أن لا يوجد الا نوعية التماس واحد

يمكن أن اصغي اليه وهو لا يريد أن يستخدم تلك النوعيـــة وهي بعض الاقناعات من بعض الدوائر المسلحة عاطفيا لمثل هذه المحاولة • وهنـا نفذ صبري فانفجرت بصرخة صاخبة معلنة انني أريد التخلص والخروج الى الهواء الطلق فانا على وشك الاصابة بحمى •

وأجابني الظالم الذي لا يرحم ولا يلين •• « اسكتي !! هذا مجرد ذريعة للفرار » وقلت « الى كم أعاني من فضولك ومراقباتك ؟ في الواقع انني لم أفهم قانونك ولم أفهم التاريخ الطبيعي للقضايا الخرافيـة فانا واحدة من سكان الجزيرة البـاردة والجلوس بجنب الوجـاق لا يلائمني وعلي أن أتوجه الى المشرب وأشرب قدحا من الماء لان كل الحلوى ومربى التفاح جعلتني أعطش » فقال « اذا كان هذا كل ما تريدينـــه الان فانا أقوم لك بهذه المهمة » •

وذهب ليأتي لي بالماء وبالطبع عنـدما وجـدت الباب على المزلاج ورائي لم اضيع الفرصة وقبل رجوع المسيو بول وجـــد أن فريستـه القلقة قد ولت الادبار وتخلصت من مزعجاته •

twitter @baghdad_library

الفصـــل الواحـــد والثـلاثون

ـ شـجرة البـلوط وحـورية الغـابة ـ

كان الربيع على وشك الظهور فقد تحول البرد دافئا على حين غرة وهذا التبدل في درجات الحرارة جاء لي معـــه ـ ضمن العديد مما جاء به ـ بانخفاض في قواي الجسمانية وان اجهادا في هـذا الوقت أعياني واتعبني وليالي السهاد جعلت أيامي مضنيـة · وفي احـدى الظهـائر (جمع ظهيرة) المصادفة يوم الاحد كنت أتمشى فقطعت في مشيي قرابـة فرسخ باتجاه الكنيسة وعدت منها تعبة منهكة القوى ولذت بصدفي الاول وهو ملاذي عندما أكون وحيـــدة وفرحت اذ جلست وجعلت من رحلتي وسادة لذراعي ورأسي ·

وأصغيت هنيهة بضجيج دندنة النحل في احديقة وشاهدت عبر الباب الزجاجية أوراق النبات الربيعية مبعثرة وشاهدت المدام بيك وجمعا زاهيا من الصديقات والاصدقاء كانت قد أولمت لهم وليمة عشاء بعـد قداس الصباح وكن يمشين في ممشى الحديقة تحت أغصان أشـــجار الفاكهـة التي أوردت في ذلك الفصل وارتدت لونا نقيا لطيفا « كثلج الجبال عند شروق الشمس » ·

وتركز انتباهي الاساسي على شخص واحـــد من بين مجموعـــة الضيوف ـ على ما أتذكر ـ تركز على فتاة جميلة شابة سبق أن شاهدتهـــا تزور المدام بيـك وقيـل لي في وقتهـا بشكل غامض انها كانت ابنـــة بالمعمودية للمسيو بول عمانوئيل وأن بين والدتها أو عمتها أو أية قريبة أخرى لها وبين البروفيسور صداقة قديمة خاصة ولكن المسيو بول لـم يكن ضمن فريق العطلة في ذلك اليوم غير أنني كنت قد شاهدت هذه الفتاة

twitter @baghdad_library

الصغيرة معه قبل الان وبقدر ما يتاح للمرء أن يحكم على الامور من بعيد يبدو أنه كان يستمتع بوجودها لقد شاهدتها تجـــري نحوه وتمســك بذراعه وتتعلق به وذات مرة عندما فعلت ذلك شعرت باحســاس غريب يتمشى في كياني احساس مترقع غير مريح كاحســاس عائلي سبقني عــلى ما أظن الا انني لم أشا أن أحل أسباب ذلك وعنــدما كنت أراقب تلك الفتاة التي اسمها الانسة سوفير والاحظ بريق ردائها الحريري ــ علما بأنها كانت ترتدي دائما الالبسة الغالية مما يستدل على أنها كانت من عائلة غنية ــ والاحظ ما على جسمها من أوراد زينة وزمرد ، عندما فعلت ذلك انبهرت عيني من أضوائها وأغمضتا. ومن جراء التعب الذي أحسست به ودفؤ النهار ودندنة النحل وغناء الطيور شعرت أن كل ذلك يهدهدني وأخيرا دفع بي الى النوم .

وبعد مرور ساعتين وقبل أن أنهض كانت الشمس قد توارت وراء البيوت العالية وكان لون كل من الحديقة والغرفة رماديا وآوت النحـل الى خلاياها وظهرت أكمام الزهور وذهب الضيوف أيضا وخلت الازقــة من المارة والسابلة . وعند استيقاظي شعرت بالراحة والغريب أنني لم أشعر بالبرد ولم يسر الخدر في خدي وذراعي بعد أن عانيت الضغط فوق خشب الرحلة الصلب ولا غرابة في ذلك فبدلا من الخشب الاجرد الذي وضعتها عليها وجدت شالا ثخينا مطويا بعناية وشالا آخر ــ كلاهما أخذ من المشى الذي تعلق عليــه مثل هــــذه الشالات والملابس وغطيت به تغطية أدفأتني .

من عمل ذلك يا ترى ؟ وأية صديقة ؟ من من المدرســات ؟ من من التلميذات ؟ ومن كانت معادية لي سوى سنت بيير ؟ والسؤال الذي دار في خاطري هو ... من ذا الذي تحلى بفكر كهذا الفكر وبفن كهذا الفن وبعادة كهذه العادة ومن أفاد افادة عاطفية كهذه الافادة ؟ ومن ذا الذي كانت لديه مثل هذه الخطوة الهادئة الخافتة ؟ ومثل هذه اليد الناعمــة اللطيفة ؟ ولكن لابد انني كنت أسمع خطواتها أو أشعر بها لو انها دنت مني أو لمستني .

قلت لنفسي لا أظن أن جنيفر فانشاوي هذه المخلوقة الشابة الجميلة لها مثل هذا اللطف وهذه الكياسة الجميلة في التصرف اذ لو كانت هي

لما فعلت ذلك وانما كانت تسعى لجري جرا من كرسي وقلت أخيرا ... ربما كانت المدام بيك هي التي فعلت ذلك بعد ان جاءت ووجدتني نائمة فخشيت أن أبترد اذ انها تعتبرني كماكينة مفيدة اخدم الاهداف التي أجرتني من أجلها ولهذا لم تردني القى الاذى بلا مبرر والان قلتلنفسي .. ساتمشى فالمساء رائق وليس باردا جدا ولهذا فتحت الباب الزجاجيه ودخلت الى المحل المخصص لجلوس المعلمات على المقاعد المصفوفة للاستجمام .

ودخلت الممشى المشجر الضيق ولو كان مظلما أو حتى وقت الغسق لما جازفت في دخوله لانني لم أنس الوهم الغريب لظهور الخيال أمامي (اذا كان هنالك وهم) بنفس المكان الذى وجدته قبل بضعة أشهر وكانت بقايا أشعة الشمس تضيء التاج الرمادي ليوحنا المعمدان ولم تكن الطيور الموجودة في الحديقة قد آوت بعد الى اعشاشها الكائنة بين الشجيرات وبين النباتات المعترشة الكثيفة الاغصان .

ورحت أتخطى في تلك الارجاء جيئة وذهوبا وأومضت في رأسي نفس الافكار فيتلك الليلة التى دفنت فيها جرتى الزجاجية وكيف أننى فكرت أنه اذا أردت أن أسجل تقدما ما في الحياة فعلي أن أتخذ خطوة أخرى باتجاه الموقف المستقل . ان ذلك السيل المترادف من التأملات والانعكاسات التى لم أتابعها مؤخرا لا تعني أنني هجرتها وتخليت عنها كليا واذا ما عين من الاعين حولت بصرها عني ووجه من الوجوه تجهم بوجهي ظلما وجورا فقد صوبت الى تلك التأملات المتلاحقة ضربة في الحال بحيث أنني شيئا فشيئا أكون قد أكملت نصف خطتي الموضوعة .

وقلت لنفسي « العيش لا يكلف الا القليل هنا ففي هذه البلدة الاقتصادية « فيليت » نرى الناس أكثر تحسسا بالقناعة مما هم عليه في بلدي انكلترا وأقل اهتماما بالمظاهر وبالتنافس حول الظهور حيث لا يخجل احدهم من أن يكون رضي البال في بيته وقانعا بما يستطيع ادخاره فايجار الدار في مكان مختار بتعقل ليس غاليا . واذا كنت قد وفرت ألف فرانك فبوسعي أن اقتني بها مبنى يشتمل على غرفة كبيرة وغرفتين أو ثلاث أصغر منها أؤثث الكبيرة ببضعة مقاعد وبضع رحلات وبلوحة سوداء ومنصة عالية لي عليها كرسي ومنضدة واسفنجة وبعض

twitter @baghdad_library

الطباشير وأبدأ بتدريس طلاب نهارين وبهذا أشق لنفسي طريق التقدم الى أمام ·

وغالبا ما سمعت من المدام بيك أن بدايتها لم تكن من نقطة عالية · واين هي الان مما بدأت به ؟ ان كل هذه المباني والاثاث وهذه الحديقة ملك لها اشترتها بمالها الخاص ولديها دخل كاف لتأمين حياتها الى النهاية ولها مؤسسة ناجحة ومزدهرة تؤمن النجاح لبناتها · وقلت لنفسي « تشجعي يا لوسي سناو ·· بنكران ذات وباقتصاد في الوقت الحاضر وسعيا مطردا شيئا فشيئا ان أى شيء أو غرض في الحياة لا ينبغي أن يغذلك » ·

« غامري يا لوسي واعملي على أن لا تتشكي من أن هذا الشيء أناني جدا أو محدود جدا، ويحتاج الى اهتمام · أقنعي لتعملي من أجل أن تكوني حرة مستقلة الى ان تقوي على البرهنة ـ بنيلك الجائزة ـ على أن لك الحق في أن تنظري أعلى فأعلى وبعد ذاك لن يكون لي شيء أكثر من حياتي ولن يكون البيت الحقيقي أغلى من حياتي ولن يكون هنالك ما هو اعز من حياتي أو نفسي وبقيمتها السامية أستطيع أن استنبط أشياء افضل حتى أن أكتفي بتثقيف نفسي فقط ·

وليس هناك في العالم من يحدوني الى أن أضع على قدميه ـ برضى نفسي محض ـ عبء الغرور الانساني كله انما سأتولى بشرف واعتزاز المهمة النبيلة « مهمة العمل النبيل من أجل الاخرين والعيش من أجل الاخرين » ·

ان مدار حياتك يا لوسي لا ينبغي أن يدور أو تكفيك مرحلة الهلال · حسنا جدا ·· اذا كنت أرى عددا هائلا من أبناء الخليقة ومن أبناء جلدتي في وضع ليس أفضل من وضعي واذا كنت أرى ان عددا كبيرا من الرجال وعددا أكبر منهم من النساء دائبون على حياة الشظف والعوز فعلام ينبغي أن أكون من بين الفئة المفضلة المميزة ؟! · انني أؤمن ببعض التمازج بين الامل وبين شعاع الشمس الذي يحسن أسوا قسمة واعتقد بأن هذه الحياة ليست كل شيء فلا هي البداية ولا هي النهاية وانني أؤمن وأنا أرتعد وأثق وأنا انتحب ·

وعلى هذا فان هذا الموضوع انهي أمره ومن الصواب أن ننظر نظرة صميمية في أمور حياتنا بشجاعة بين الفينة والفينة لتسويتهـــا وحلها باخلاص وانه لخادع لنفسه ويائس من يكذب على نفسه اثناء احصائـه المفردات والمواضيع ويدون تحت العنوان « سعادة » هي في اصلها بؤس · أصرخ بأعلى صوتك ··· عذاب ··· عذاب ·· قنوط ·· قنوط أكتب كلتا هاتين الكلمتين بحروف صارخة وبقلم عازم ·· فمن الافضل لك ان تدفع ديونك للقدر · زور وزيف وغش وأدخل كلمة « امتياز » بدلا من من كلمة « ألم » وانظر اذا ما كان دائنك الجبار يسمح بمرور الخدعة أو يقبل منك العملة النقدية التي تريد بهـا أن تخدعـه · هب للاقوى ماء بدلا من مطالبته اياك بالدم فهل سيأخذه ؟! لن يقبـل بحرا كامـلا بدلا من قطرة الدم الحمراء وهنا سويت حسابا آخر » ·

ومررت بشجرة « متوصالح » جبـارة الحديقة وامئت وجهي عـلى جذعها المعقد واستقرت قدمي على ســـدادها الحجري وقبرها الصغـير الكائن في جذعها وتذكرت العبارة الشعرية المقبورة معـــها وتذكرت الدكتور جون وودي الساخن له وايماني بمميزاته الفاضلة وفرحي بتناسقه ورشاقته وسألت نفسي عما بقي من صداقتنا الغريبـة الوحيدة الجانب التي كانت نصف رخامية وبمثابة نصف الحياة من جانبها الواحد صدق ومن الجانب الاخر هزء وسخرية ·

ولا أعلم اذا كان هذا الشعور قد مات انما الذي أدريه أنه دفن وفي بعض الاحيان أتصور أن القبر غير صامت وغير هادىء · وحلمت حلمـا غريبا عن الارض المقلقة للراحة وعن الشعر الذي لا يزال ذهبيا وحيـا يتلاعب داخل الكفن ، هل أنا يا ترى متسرعة ؟! ان هـذا السؤال الذي وجهته لنفسي سبق أن وجهته بحدة قاسية بعد مقابلة قصـــيرة جـرت بالصدفة مع الدكتور جون فنظراته لا تزال عطوفة ولطيفة وكذلك يده الدافئة وصوته لا يزال يهيج النبرات اذا ما ردد اسمي · قال مرة « لم أحب لوسي مطلقا » ولكنه قالها بلهجة تحنان ·

وعرفت فيما بعد أن ذلك اللطف وذلك الود وتلك اللهجة الموسيقية ليست خاصة بي فقد كانت جزءا من نفسه ومن عسلية مزاجه ولطافته ومن المرهم العطري لنزعته الدمثـة يهبها مثلما تهب الفواكه الطـرية

twitter @baghdad_library

حلاوتها للنحلة ومثلما تنشر النباتات روائحها المعطرة حولها ، وهل ان الخوخ يحب النحلة التي يغذيها أو الطير الذي يغذيه ؟ وهل أن النسرين يعطر الارجاء ؟ « ليلتلك سعيدة أيها الدكتور جون · أنت انسان طيب وانت جميل ولطيف ولكنك لست لي · ليلتك سعيدة وليحفظك الله » وبهذا انهيت تأملاتي واستغراقاتي في التفكير التي جعلت شفتي ترددان كلمتي « ليلتك سعيدة » ·

وسمعت ترديد الكلمتين ثم سمعت صداهما بالقرب مني تقول « ليلتك سعيدة أيتها الانسة أو بالاحرى مساء الخير لان الشمس لم تغرب بعد وآمل أنك نمت نوما هادئا » وجفلت وكانت لحظة مقلقة فقد عرفت الصوت وعرفت المتكلم وقلت له « تقول نمت أيها السيد ؟ متى ؟ واين ؟ » وقال لي « متى ؟ وأين ؟ يظهر انك حولت يومك الى ليل واخترت رحلة جعلت منها وسادة لكوهي مأوى صعب الاحتمال » ·

وقلت له « نعم ولين لي أيها السيد عندما كنت نائمة فقد تذكرني الشخص الواهب غير المنظور الذي لازم موقع نومي وبصرف النظر عن كيفية نومي نهضت موسدة ومغطاة » وسألني « هل دفأك الشال ؟ » فقلت له « تمام التدفئة فهل تريد تشكرات على ذلك ؟ » فقال « كلا ·· لا أريد تشكرات لكنك كنت شاحبة الوجه أثناء النوم فهل أنت مصابة بمرض الحنين الى الوطن ؟ » وقلت له « لكي يصاب المرء بالحنين الى الوطن ينبغي أن يكون له منزل » ·

وقال لي « اذن أنت بحاجة الى صديق يهتم بك ولا أرى ايتها الانسة لوسي ان هنالك من يحتاج الى صديق أكثر منك فأخطاؤك الكثيرة بحاجة الى ذلك فأنت بحاجة الى مزيد من المراقبة والخضوع للنظام والاستقرار » وهذه الفكرة فكرة الاستقرار لم تبرح رأس المسيو بول وان كل مظاهر الخضوع الاعتيادية له فشلت في استبعادها عن ذهنيته ومع ذلك سألته ماذا يعني بها ؟ » ·

قال لي « انت بحاجة الى مراقبة وحراسة ومن صالحك أن أكون أنا الذي أقوم بذلك وان أبذل جهدي للقيام بكلتا المهمتين · وبالفعل أنا أراقبك وأراقب الاخريات أيضا عن كثب وبصورة متواصلة أكثر مما

تتصورين أنت ويتصورن هن ، هل ترين تلك النافذة التي تضيء ؟ » وأشار الى شبكية احدى غرف المدرسة الداخلية المخصصة للدراسة وقال انها مخصصة لملاحظاتي ومراقباتي فهناك أجلس وأقرأ ساعات ·· انها طريقتي وانه ذوقي ، وكتابي هو هذه الحديقة التي محتوياتها ذات طبيعة بشرية · طبيعة بشرية أنثوية وأنا أعرفكن جميعا · أعرفكن جيدا ·· الانسة سنت بيير الباريسية وابنة عمي صاحبة البناية المدام بيك ذاتها » ·

وقلت له « هذا ليس بالامر الصحيح أيها المسيو ! » فقال لي « ماذا ؟! ليس هذا بالامر الصحيح ؟ بأية عقيدة ؟ وهل أن مباديء كالفين أو لوثر تدينان ذلك ؟ وماذا يهمني في ذلك فأنا لست بروتستانتيا · ان أبي كان غنيا وأنا عرفت الفقر وشعرت بأوضار الجوع عاما واحدا في احدى عليات روما (غرفة تحت السقف الاعلى) وأنا وان كنت قد تضورت جوعا وعشت تعيسا على وجبة طعام واحدة في اليوم فقد ولدت لاكون غنيا » ·

وقلت له « ان الاكتشافات التي تتم بطريقة التلصص والمراقبة ، ليست اكتشافات مشرفة » وقال لي « هذا هو التزمت بعينه · تتصورين أنني متزمت ؟ أشك في ذلك ·· هل تعلمين كيف يسير نظامي الجزويتي ؟ هل تعرفين الانسة سنت بيير ؟ » فقلت له معرفة بسيطة وجزئية » وضحك قائلا « هذا صحيح ·· تعرفينها معرفة بسيطة وجزئية في حين أنني عرفتها شابة وتجيد الظهور بمظهر الشابةككل بنات جنسها · انها مذواقة أعرفها معرفة تامة ودقيقة وهنا وجه الاختلاف » ·

واستطرد يقول « انها تظهر لي جانب الود وقد أهدت لي قفازين مخملين ولاطفتني ، وتطري علي وتتملقني وتتودد لي وأنا بدوري أبدي الجانب السهل المشجع لمن تريد ان تتودد لي من الفتيات والنساء رغم وضعية ذهني وهي وان كانت غير جميلة فقد كانت حين عرفتها شابة وتجيد الظهور بمظهر الشابة ككل بنات جنسها · انها مذواقة في ارتداء الالبسة ولها كل ما يجعلني في غنى عن أن أتألم أو أصاب بالحيرة والارتباك » ·

twitter @baghdad_library

وقلت له « ليس ضروريا أن تقول ذلك فأنا لم أشاهدك في حياتي مرتبكا أو حائرا قط » وقال لي « يا آنسة ! .. أنت لا تعرفين عني الا القليل ففي سريرتي فيض من الاعتدال والتواضع والحياء » وقلت له « أيها المسيو لم ألحظ ذلك فيك قط » وقال لي « أيتها الانسة « انهـا موجودة وكان عليك أن تلحظيها في » وقلت له « أيها المسيو .. « شاهدتك وسط المحافل وعلى المنصات العالية وفي منابر الخطابة أمـام أصحـاب الفخامات والمعالي وكنت هناك كما أنت مدرسا للصف الثالث » .

وقال لي « أيتها الانسة .. لا تستطيع الالقاب أو أصحاب الفخامات والمعالي أن تؤثر على تواضعي وان كلا من الشهرة والشعبية رائدي فانا أنشدها واستنشق الهواء فيها بحرية ولكن ..! ولكن ..! أقولها باجتزاء .. هو ذا احساسي وشعوري أمامك في هذه اللحظة بالذات وأخشى أن ألام على ذلك .. لو كنت ..! أيتها الانسة .. متزوجا ـ في حين أنني لست كذلك ـ ولو أنك تحاشيت التهكم علي لابدائي أمامك هذه الفكرة ووجدت أن من الضروري أن تفتشي لي عن سيدة تنظر الي على أساس أن أكون زوجهـا مستقبلا فحينئذ يتراءى لديك أنني مثل ما قلت لك الان .. متواضع » .

وصدقته الان تماما وبتصديقي ما قاله امتدحته بخـالص من الاحترام وتألمت له ومضى في كلامه قائلا « بالنسبة للانسة سنت بيـر أرادت ذلك مرة أن تصبح زوجة لي وهنا احترت ولم أدر أين سيقودني ضوء تلك الشبكية .. ياللشبكية الساحرة !! أية اكتشافات عجيبة قدرت أن تكتشفيها ؟ » . وتابع قائلا « وبعد أن شاهدت حقـدها وغرورها وتوافهها وطيشها وتقلبها لا هنـا فقط ، بل في أماكـن أخرى أيضـا عرفت الذي ينهيني عنها وعن كل فنون مكرها وحيلـها وانا الان آمن بعيدا عنها » .

وتابع كلامه حالا « أما تلميـذاتي تلكم الشقرادات اللطيفـات فالغريب فيهن أن أعظمهن تحفظا يمزحن مزحا صاخبـا كالاولاد وان أكثرهن احتشاما ورزانة لا يتحرجن عن أن يستلبن عناقيـد العنب ويقطفنها عنوة من حيطان الحديقة أو يهززن الاشجار لاسقاط أثمارها . ولكن عندما جاءت المعلمة الانكليزية ولفتت نظري ولمحت تفضيلها هذا المشى

المشجر المخضوضر وحبها للانفراد والوحدة قبل أن يحدث بيننا كلام لمدة طويلة ، أتذكرين آنذاك أنني جئتك بصمت وهدوء وقدمت لك باقة صغيرة من ورد البنفسج عندما كنا غرباء عن بعضنا بعضا ؟!» .

وقلت له « أتذكر ذلك وأتذكر كيف أنني جففتها واحتفظت بها ولا تزال محفوظة لدي حتى الان » وقال لي « كم سرني أنك أخذتيها بلطف وبسرعة دون احتشام مصطنع بل بكل بساطة ولطافة . وهذا الشعور حين اتذكره بخوف وحين تستعرضه عيناي أو يخطر ببالي تلميحا أمقته وأنفر منه » . ولنعد الان الى موضوعنا . أنني لست الوحيد الذي راقبتك بل في الامسيات غالبا ما كان يراقبك ملاك حارس آخر بصمت ودونما ضجيج يحوم حولك عن كثب . كانت ابنة عمي المدام بيك تتسلل اليك ليلة بعد ليلة الى الدرجات هنا وهناك لتراقب حركاتك وأنت لا تعلمين ذلك .

وقلت له « ولكن أيها المسيو هل تستطيع عن بعد ـ بعد ذلك الشباك ـ أن تشاهد ما يجري في هذه الحديقة ليلا ؟ » فقال لي « تحت ضوء القمر أستطيع أن أشاهد بالنظارات ولكن الحديقة مفتوحة أمامي . وعند السقيفة وداخلها يوجد باب يؤدي الى ساحة توصل بالكلية ومفتاح هذا الباب هو عندي أغدو وأروح به وفق ما أشاء . وفي هذه الظهيرة أفدت من دخول المدخل ذاته » .

ولم يكن لي معدى من أن أقول له « اذا كنت رجلا شريرا تحوك الخطط والتصاميم بهذه الصورة فأنت اذن انسان مرعب » ويبدو ان موقفه المجامل لم يتأثر بهذا الرأى فأشعل سيجاره وبعد أن نفخ الدخان اتكأ على الشجرة وأمال رأسه اليها ونظر الي نظرة باردة ممتعة اعتاد عليها عندما يكون مزاجه مطمئنا ورأيت أن من الصواب أن أمضي في توبيخه بمواعظ على الطريقة التي دأب على استخدامها معي ولم أدر لماذا لا ينبغي علي أن أكشف له ما في ذهني على نحو حاسم ولهذا أبرزت أمامه انطباعاتي فيما يخص نظامه فقلت له « ان المعلومات التي تحصل عليها بهذه الطريقة وهذا الاسلوب الذي ألمعت اليه آنفا يكلفك الكثير أيها المسيو فهذا الغدو والرواح وهذه المراقبات والتلصصات تنتقص من كرامتك ومن عزة نفسك » .

twitter @baghdad_library

وصاح ضاحكا ·· « كرامتي ؟!! » متى شاهدتيني أدوخ رأسي من أجل كرامتي ؟ » انك أنت الجديرة بذلك ياالوسي · كم من مرة وأنت في عزلتك تمتعت في الدوس على ما تسمينه « كرامتك » وفي الاستعلاء عليها وفي تمزيقها اربا اربا وذرايتها في الهواء » وقلت له « أيها المسيو أقول لك ان كل نظرة تلقيها من الشبكية هي خطيئة ترتكب ضد أفضل ما لديك من سجية أو طبيعة · ان دراسة القلب الانساني بهذه الصورة هي بمثابة الاستمتاع بتفاحة حواء سرا وتدنيس المقدسات وكنت أريدك أن تدين بما أدين به نفسيا » وأجابني « لا أكترث لما تدينيني به وراح يدخن السيجار وبعد هنيهة من الابتسام والسكوت التأملي قال فجأة « لقد شاهدت أشياء أخرى » · وبعد أن رمي السيجار من بين شفتيه بين الشجيرات وظلت تومض هنيهة وسط الظلمة قال « انظري الى بقية السيجار هذه أليست هذه الشرارة كعين تراقبك وتراقبني ؟ » ثم تحول نحو الحائط وأعاد اللفتة ومضى يقول « يا آنسة لوسي ·· وجدت أشياء لا يمكن تفسيرها جعلتني أراقب طيلة الليل للحصول على حل والى الان لم اتوصل اليه » ·

وكانت لهجته غريبة فثارت دمائي في عروقي ورأني أرتجف من الغيظ والغضب فسالني « هل أنت خائفة ؟ وسواء كان جوابي التالي له من معين كلماتي أو من معين عينيه الحاقدتين فقد قلت له « الجو بارد، وقد جن الليل وتأخرنا وتبدل الهواء وينبغي العودة الى النوم » فقال لي « لم تتجاوز الساعة الثامنة ليلا وقبل أن تذهبي أجيبي على سؤالي هذا فقط » ومع ذلك تريث قبل أن يطرح السؤال وأسود ظلام الحديقة وتزامنت ظلمة الليل مع تراكم الغيوم وبدأت قطرات المطر ترذ وراح رذاذا يتساقط على ما بين الاشجار وودت لو انه شعر بكل ذلك غير أنه كان أكثر انغمارا وانهماكا من أن يتحسس بذلك وطرح سؤاله التالي علي » :

« أيتها الانسة هل في طريقتك المذهبية الايمان بخوارق الطبيعة ؟ »

وأجبته « يوجد فارق بين النظرية وبين الايمان حول هذه النقطة بين من هم مثلي مذهبا أو بين ذوي المذاهب الاخرى · ولماذا أيها المسيو تطرح علي مثل هذا السؤال ؟ » وقال لي بلهجة التساؤل « لماذا تنكمشين

وتتكلمين بصوت خافت ضعيف ؟ فهل أنت من المؤمنات بالخرافات ؟ » فأجبته « أنا عصبية بطبيعتي ولا أريد الخوض في مثل هذه المواضيع وأكره ذلك أكثر بسبب ... » وهنا قاطعني قائلا « بسبب كونك تعتقدين وتؤمنين ؟ » فأجبته « كلا .. بسبب تعرضي للانطباعات .. » وقال لي « منذ أن جئت الى هنا ؟ » فقلت له « نعم .. قبل أشهر غير عديدة » وسألني « هنا ؟ في هذه الدار ؟ » فقلت له « نعم » .

وقال لي « .. حسنا جدا !! أنا مسرور بذلك . وقد عرفت ذلك نوعاما . وقبل أن تخبريني كنت شاعرا بوجود صلة والفة بيني وبينك . أنت صبورة وأنا سريع الغضب .. أنت هادئة وشاحبة وأنا أسمر ومتوقد الطبع ومع ذلك نحن متشابهان . وتوجد بيننا صلة روحية وودية ، ألا تلاحظين أن لجبينينا نفس التركيب وان عينيك كثيرة الشبه بعيني ؟ أتسمعين أن بعضا من نبرات صوتك هي على شاكلة نبرات صوتي ؟ أتعرفين أن لديك الكثير من نظراتي والتفاتاتي ، انني أحس بكل ذلك واعتقد أنك ولدت تحت برجي ونجمي . نعم تحت برجي ونجمي !! ارتجفي ما شئت اذ أنه ما دامت القضية مع كلينا هي كذلك فان خيوط مصيرنا يصعب انحلالها . ان المشكلة قد تحدث والقطيعة قد تحدث على حين غرة تاركة بعض الضرر في هذا النسيج ولكن هذه « الانطباعات » كما قلت بلهجتك الانكليزية المحترسة لدي مثلها .. لدي انطباعاتي أنا أيضا » وقلت له « أيها المسيو ألا تقول لي ما هي ؟ » فقال لي « لا أريد أكثر من ذلك ولا انتوي أكثر من ذلك .. أتعرفين لغز هذا البيت ، ولغز هذه الحديقة ؟ » فقلت له « نعم أعرف ذلك يقولون ان راهبة دفنت حية منذ مئات الاعوام تحت هذه الشجرة بالذات وتحت هذه الارض التي تحملنا وأن شبح هذه الراهبة اعتاد في سابق الايام أن يظهر ويذهب ويغدو ويروح هنا » وقلت له « أيها المسيو .. وماذا اذا كانت لا تزال تغدو وتروح هنا ؟ » وقال لي « ان شيئا يغدو ويروح هنا ويوجد شبح يتردد الى هذه الدار ليلا يختلف عن كل الاشباح الاخرى التي تبدو أثناء النهار . وبالضبط وجدت أن شيئا من هذا القبيل أكثر من مرة وفي رأيي أن رداءها الرهبني أو الديري غريب كأنه يقول لاي كائن حي آخر : انه رداء راهبة » .

twitter @baghdad_library

وقلت له « أيها السيد أنا أيضا شاهدته » وقال لي « توقعت ذلك وسواء كانت هذه الراهبة من لحم ودم أو كشيء يبقى بعد أن تجف الدماء ويضمحل اللحم فان مهمتها ربما كانت ساعية ضدك أو ضدي · واروم أن أسعى لمعرفة ما وراء هذه الاحداث التي حيرتني واربكتني واتعبتني واقول أنني أروم السعي لمعرفة ما وراء هذا اللغز » ·

وبدلا من أن يقول ماذا يعني وماذا يريد أن يفعل رفع رأسه فجاة ورفعت رأسي بمثله بنفس اللحظة وركز كلانا على نقطة واحدة ·· الشجرة العالية التي تظلل مناطق مقاعد النبتات المعروشة وتتدلى بعض أغصانها على سقف الصف الاول للطالبات فقد سمع من هناك صوت لا يعرف كنهه ولم يهتد الى تفسيره كما لو أن أغصان الشجرة تتحرك بغير اتجاهها الطبيعي وأن وزن أوراق الشجرة ذاتها يندفع ويصطدم بجذعها العظيم · نعم هنالك لا تهب النسمات وأن الشجرة الضخمة تهتز بعنف كما لو أنها تزلزل في حين أن الشجيرات واوراقها تحافظ على وضعها ساكنة ·

ولبضع دقائق تسمع اهتزازات وجيشانات بين أوراق الشجرة أو صوت مستمر كصوت التنهد ولان الجو كان مظلما بدا لي أن شيئا أقوى وأصلب من ظل الليل أو ظل الغصن يخرج من الجذع وأخيرا توقف صوت الصراع أو شق الطريق بالقوة · ترى ·· اية ولادة أعقبت ذلك المخاض ؟ واية شجرة بلوط ولدت من جراء ذلك المخاض ؟ أخذنا نراقب مراقبة شديدة ودقيقة واذا بالجرس يدق في الدار ، هو جرس المصلين وعلى حين غرة خرج من بين النبتات المعرشة شبح مجلل بالسواد والبياض وبنوع من الاندفاع الغاضب مرت سراعا الراهبة ذاتها ولكنني لم أدقق النظر في ملامحها بصورة جيدة واضعة فقد بدت طويلة القامة صارمة الملامح وبمرورها هبت الرياح وتناوحت وانهر المطر عنيفا باردا كما لو أن الليل كله أحس بذلك ·

الفصـــل الثـــاني والثـــلاثـون

ـ الرســـــالة الاولـــى ـ

كان هناك بعض الوقت أتساءل فيه عن بولينـــا مـــاري التي كان ذكرى اتصالي بها في فندق كريسي الفخم بهيجا وانقطع ذلك الاتصـــال معها لفترة ما بسبب غيابها فهي ووالدها دي باسومبيير سافرا وأمضيـــا بعض الاسابيع بين الاقاليم وبين العاصمة الفرنسية والصدفة وحـــدها أعلمتني بعد رجوعهما بمدة قصيرة ٠

وكنت يومئذ أتمشى فيما بعـــد ظهيرة ساكنة على شارع عريض هادىء تكتنفه الاشجار ، أتهادى في مشيتي البطيئة متمتعة بشمس شهر نيسان البهية ومستذكرة في الوقت عينه بعض الافكار غير السارة ، واذا بي أجـــد أمامي جمعـــا راكبا توقف كما لو أن أفراده التقـــوا بطريق الصدفة وأخذوا يتبادلون التحايا وســـط طريق عريض ذي امتداد أملس تقع على حافاته أشجار الزيزفون ٠

وكان في الجانب الواحد جنتلمان متوسط العمر وشابة وفي الجانب الاخر شاب ظريف جميل ٠ وكان وجه السيدة الشابة جميـــلا جدا وما عليها منتقى ومختار وسيماؤها ومظهرها العام رائعا يتصف بالفخـــامة والابهة ولم أزل أشعر منذ نظرت اليهم أنهم معروفون لدي وبعـــد أن تقربت منهم أكثر عرفتهم تمام المعرفة ٠٠٠ الكونت هوم دي باسومبيير وابنته والدكتور غراهام بريتون ٠

ولكم كان وجه غراهام مفعما بالحيوية والدفء وقد انكفأ الانشراح الذي كان يعكسه ٠ تلك كانت الحالة وذاك تراكم الظروف الذي أثر في الدكتور جون وفيما طرأ على محياه ٠

twitter @baghdad_library

ان اللؤلؤة التي أعجب بها كانت ذات ثمن غال وذات نقاوة عالية ولكنه لم يكن بالرجل الذي اذ قيم الجوهرة الثمينة يستطيع أن يتناسى اطار فصها في الخاتم وخلفيتها وحدث أنه شاهد بولينا بنفس الروح الشبابية وبنفس الجمال وبنفس الروعة ٠

ولكنها بوحدانيتها وعدم وجود من يرعاها ويحرسها وببزتها البسيطة وبكونها شبه عاملة ومجدة ظنها مخلوقة صغيرة جميلة واحب بعينيه حركاتها ومحياها ولكنه كان بحاجة الى شيء أكثر من ذلك لقهره واخضاعه بعد هزيمته لكي يعاد سالما الى دومنيونه دون خسارة وحتى بربح لشرف رجولته ٠ فالشخص اكتشف انسحاقه ووهنه ولا يكفي أن يتأسى ويطمئن ذاته فعلى المجتمع والعالم أن يعترف ويقر ويعجب بما فعله والا فانه سيتصور أن الذي فعله من أعمال البر كان خاطئا وعقيما وعديم الجدوى٠

عندما قهرته تلك الشابة كان بحاجة الى كل ما هو منظور هنا ٠٠ بصمة الرعاية العالية ورسامة الحماية والاهتمام الموثوق به والعون الذي يقرره العرف والثروة المشتراة ومكيفات الذوق فهذه كانت الشروط التي كان يتوجب على روحيته أن يأخذ بها قبل أن يستسلم وكانت متواجدة هنا كل التواجد والان يكن لبولينا الثناء والتقدير كسيدة مهيمنة وبالنسبة لها كانت ابتسامة التحسس ـ وليس القوة الواعية ـ تنام قريرة في عينيها ٠

وافترقا ومر من أمامي بسرعة كأنه لا يكاد يشعر بالارض التي تحت قدميه ولا يلمح شيئا قريبا منه وبدا ظريفا جدا تعلو وجهه الهمة والنشاط والقصد بكل وضوح واذا بصوت موسيقي صديق يتعالى قائلا « أبي !! هذه لوسي ٠٠ لوسي ٠٠ عزيزتي لوسي !! تعالي هنا » وأسرعت اليها وردت حجابها الى الخلف ونزلت من مرج حصانها وهرعت الي لتقبلني قائلة لي « كنت أهم بالذهاب اليك غدا لمشاهدتك أما الان فقد غيرت رأيي واستبدلته بالرجاء منك أن تأتي الي أنت فما قولك ؟ تأتين في الساعة الفلانية وامتثلت لرجائها ٠

وفي مساء اليوم التالي وجدتني عندما فدخلنا الى غرفتها الخاصة ولم أكن قد شاهدتها منذ تلك المناسبة حين قارنت بين طلباتها وبين طلبات جنيفرا فانشاوي وكان لديها الكثير مما تريد أن ترويه لي عن

سفراتها خلال تلك المدة التي لم تر احـــدانا الاخرى وكانت تتكلم بحيوية وتنشاط وجها لوجه وتصف سفراتها وصفا رائعا جدا بأسلوبهـا البسيط غير المزخرف وصوتها الصافي النـاعم ولم تكن تتكلم بسرعـــة متناهية أو ثرثرة وكان انتباهي اليها شديدا لم يعتوره أي فتور ولكنها هي بالذات بدا عليها التحول الى موضوع آخر بدلا من موضوع السفر ٠

وسارعت في انهاء الحديث ولا أدري لماذا اختصرته فقد أعقب ذلك الصمت ٠٠ الصمت القلق الذي لم يخل من دلائل الذهول ثم التفتت الي وقالت بصوت يتخلله مزيد من الخجل والمناشدة ٠ يا لوسي ! » وقلت لها « نعم ٠ تفضلي فانا سامعة ! » وسألتني « هل أن ابنـــة عمي جنيفرا لا تزال عند المدام بيك ؟ » فقلت لها « ابنـــة عمك لا تزال هناك ! ٠ يظهر أنك في شوق اليها » فقالت لي « لا ليس الى هذا الحد » ٠

وسألتها « أتريدين استدعاءها لتمضي معـــك أمسية أخـرى ؟! » فقالت لي « كلا ٠٠ أظن أنها لا تزال تتحدث عن كونها تريد الزواج » وسألتها « هل تريد الزواج بشخص يهمك أمره ؟ » فقـالت لي « ولكنها بالطبع لا تزال تفكر بالدكتور بريتون ولم تبدل فكرها حول هذه القضية وكانت قد عقدت العزم على ذلك قبل شهرين » وقلت لهـــا « لماذا ؟ وما أهمية ذلك وهل عرفت الشروط ؟ » فقالت « حصل سـوء تفاهم بسيط بينهما في ذلك المساء » وهل تبدو منزعجة أو تعبة ؟ قلت لها « كلا ٠٠ لا يبدو عليها ذلك » وأردت تبديل الموضوع فسألتها « هل سمعت شيئا عن غراهام أم شاهدتيه خلال غيابك ؟ » فأجابتني « تلقى والدي رسالة منه مرة أو مرتين بصدد الشغل على ما أظن وتعهد بأن يتولى ادارة مشروع يتطلب الاهتمـــام ويبدو أن الدكتور جون يحترم بابا ويسره أن يقـدم لـه خـــدمة » ٠

وقلت لها « نعم » ٠٠ أنت التقيت به أمس في الشارع وبوسعك أن تعرفي من وجهه أن صديقاته لا يتحسسن بأي ألم بصدد صحته » وقالت لي « والدي يفكر بك » وابتسمت لذلك « ولكنـــه ليس متمسكا دائمـــا بالعادات والتقاليد والاعراف كما تعرفين لانه في تفـكير دائب باشيـاء أخرى أكثر مما يفكر بما يمر أمام عينيه » ٠ وقال عن الدكتور جون حين غادرنا « حقيقة ان هـــذا الولد يستلفت النظر فيمـا يبدو من قوتـه

twitter @baghdad_library

وروحيته » ويسمي بريتون بالولـد وفي ظني أنه لا يزال يعتبره ولـدا كما يعتبرني أنا أيضا حتى الان فتـــاة صغيرة وحين قال ذلك لـم يكن يكلمني وانما كان يكلم نفسه بهذه العبارة يا لوسي » ٠

ومرة أخرى عادت الى لهجة المناشدة وبنفس اللحظة جاءت بمقعدها الصغير عند قدمي وجلست عليه على مقربة مني ٠ كنت ولا أزال أحبهـا فالصلات الودية بيننا وما لاحظت فيها مما هو فاخر وفي اتقـاد الذهن والاخلاص عمق من احترامي لهـا وسألتهـا « مـاذا لديك لتسـألي من لوسي ٠٠ كوني شجاعة وتكلمي » ولم ألحظ أثر الشجـــاعة في عينيها عندما التقتا بعيني ، وبدا عليها الاحراج ولم يبد على خديها أثر رباطة الجأش ولا حمرة خجل عابرة انما انفعـال خفي متجمع زاد من مسحتها التظليلية ومن درجـة حرارتهـــا وقالت لي « يا لوسي أريـد أن أعرف ما يدور في ذهنك عن الدكتور بريتون ٠ وهلا أعلمتني عن حقيقة رأيك بأخلاقه وتصرفاته ونزعاته ؟ » ٠

وأجبتها « ان أخلاقه عاليـة ٠٠ عاليـة بشكل تجدر به » وقالت متسائلة « وماذا عن تصرفاته ونزعاته ؟ » وتساءلت بالحـــاح « هـلا أعلمتيني عن تصرفاته ونزعـاته فانت على عـــلم تام بذلك » وقلت له « نعم أعرفه جيدا » وسألتني « أنت تعرفين جـوانب سـيرته المنزليـة ووجدتيه مع والدته فحدثيني عن بنوته » فأجبتها « انه ولد طيب القلب وهو أمل والدته وراحتها وفخرها وانشراحها » ٠

وأمسكت بيدي بين يديها وقالت لي معطية لكل كلمـــة من كلمات عباراتها التالية مسحة لطف خفيفة « بأية طريقة أخرى تتلمسين طيبتـه يا لوسي ؟ » فقلت لها « الدكتور بريتون انساني كريم ميال لكل ابنـاء الانسان ميلا انسانيا وهو لطيف مع أسوأ المجرمين وأسـوأ المتوحشين » وقالت لي « سمعت بعض السادة وبعض أصـدقاء الوالد يتحدثون عنـه ويقولون نفس ما قلت الان عنه ويقولون أيضا أن الكثيرين من المرضى المساكين في المستشفيات الذين يرتجفـون خوفا أمـــام بعض الجراحين الانانيين الخالين من العواطف الانسانية يرحبون به ويهللون له » ٠

فقلت لها « انهم على حق فقد شاهدت عنه أكثر مما شاهدوا هم ٠ ذات يوم أخذني معه الى المستشفى ووجدت كيف كان استقبال الناس له ٠

اقول مرة اخرى ان اصدقاء والدك تكلموا عنه ما هو الصحيح » وظهر الارتياح في عينيها عندما رفعتهما ولاحظت ان كان لها الشيء الاكثر مما تريد ان تقوله ولكنها كانت مترددة بسبب الوقت والمكان فقد اطبق ظلام الغسق وتوهج نار الصالة بحمرة الشفق وبعد ساعة لاحظت أنها كانت تريد ان تصبح الغرفة أكثر ظلاما مما كانت لتحدثني بالمزيد » .

وقلت لها لاطمئنها « ما أحدا عزلتنا هنا » وقالت لي « نعم . ان الوقت لا يزال مساء ولن أنزل لتناول الشاي لان والدي سيتناول عشاءه في الخارج » وكانت لاتزال تمسك بيدي وتلعب باصابعها الاخرى بلا وعي بجدائل شعرها الجميل وتربت براحة يدها على خدها الساخن واخيرا قد عن شفتيها صوت نقي صاف كصوت القبرة يقول « ربما استغربت ان أتكلم كثيرا عن الدكتور بريتون وأسأل أسئلة كثيرة عنه وأهتم مثل هذا الاهتمام به ... ولكن ... » .

فأجبتها مقاطعة « ليس هذا بالامر الغريب قط . انه أمر طبيعي لانك تحبينه » وقالت لي بسرعة « واذا كنت أحبه فهل هذا هو السبب الموجب لان أتحدث عنه ؟ أظن انك تتصورينني ضعيفة كابنة عم جنيفرا » وقلت لها « لو ظننتك مثلها ولو بمقدار ذرة لما جلست هنا منتظرة وصالك ولنهضت ومشيت في الغرفة جيئة وذهابا واتوقع أن تقولي كل الذي قلتيه بملاحظة دراسية فامضي في حديثك واسترسلي » .

وردت علي « بودي أن أواصل وماذا تتصورين انني سأفعل ؟ » ان تلك الصغيرة بولي التي كانت معك في منزل بريتون تلك الطفلة الصغيرة الشريرة في أعمالها الحساسة في مشاعرها اذا أرادت أن تقول الان وبلهجة قاطعة « اذا ... اذا ... أحببت الدكتور جون الى حد الموت في سبيل حبه فهل هذا كان يتوجب علي أن أتصرف تصرف الصامتة صمت القبور البكماء مثلك أنت يا لوسي سناو أنت تعرفين .. تعرفين بأنك مستعدة لتستقبليني بالاحتقار لو انني عجزت عن السيطرة على نفسي » .

وقلت لها « صحيح أنني لا أحترم كثيراً من النساء أو الفتيات الثرثارات سواء عندما يثبجحن بانتصاراتهن الحبية أو عندما ينحن ويتشكين مما يلقينه من فشل في حياتهن أو أحاسيسهن الغرامية أما

twitter @baghdad_library

بالنسبة اليك يا بولينا فانا اريد أن تتكلمي فانا جـــادة في رغبتي في السماع • أخبريني عن كل ما يجلب لك السعادة أو يريحك أن تقوليـه ولا أريد منك أكثر » •

وقالت لي « أتهتمين بي كثـــيرا يا لوسي ؟ » فقلت لهـا « أي !! يا لوسي » وقالت لي « وأنا بدوري احبك وما أشـــد ما كنت راضيـة ومرتاحة بوجودي معك في دار بريتون ، أنا تلك الطفلة المشاكسة المثيرة للقلاقل وكنت أشعر بالفرح الشديد لاتمسك بمشاكساتي ونزواتي • أما الان فانت مقبول بك لدي جدا ومرضي عنك جـــدا، وأحب أن أكلمك وأحس بأنني شديدة الثقة بك ولهذا ارجو أن تصغي الي يا لوسي » •

وراحت تعدل وضعها متكئة عـلى ذراعي وشاعرة بالراحـة دون أن تلقي بوزنها على شاكلة ما كانت تفعله فانشاوي معي وقالت لي « قبـل بضع دقائق أي منذ أن سألتيني عما اذا كنت قد سمعت شيئا عن غراهام أثناء غيابنا وقلت أنه بعث برسالتين الى والدي حول الشغل • ذلك كان أمرا صحيحا ولكنني لم أتحدث لك عن الاشياء الاخرى كلها » فقلت لها « اذن أنت راوغت ! » •

وقالت لي « لخبطت وراوغت كما تعلمين أما الان فسأتحدث لك عن الحقيقة فقد خيم الليل وبوسع المرء أن يتحدث على هواه في مثل هـــذا الوقت • أبي اعتاد على أن يسمح لي بفتح حقيبـــة رسائله وتسليمـه محتوياتها ، ففي ذات صباح وقبل حوالى ثلاثة أســـابيع لا تدرين كيف فوجئت واستغربت حين وجدت بين عشرات الرسائل المعنونة الى والدي رسـالة موجزة الى الانسة دي باسومبير وفتحتهـا في الحـال للاطـلاع عـلى ما فيهـا » •

واستطردت تقول « كان الخط اليدوي غير غريب عني ولذلك لفت نظري مباشرة وهممت أن أقول « يا أبي هذه رسالة أخرى لك من الدكتور بريتون ولكن كلمـة « الانسة » اسكتتني وفي الواقع أنني لـم أكن قـد استلمت رسالة من اي جنتلمان قبل هـــذه الرسالة • هـل كان علي أن أريها لوالدي ليفتحها ويقرأهـــا قبلي ؟ • أبدا لم أقـو عـلى أن أقوم بذلك يا لوسي » •

ومضت في كلامها قائلة « أنا اعرف تمام المعرفة آراء والدي بي . فهو ينسى عمري ويظن أنني لا أزال فتاة مدرسة وحسب . ولم يدر ان الناس الاخرين على دراية بانني ترعرعت وكبرت ووصلت الى الطول الذي أنا عليه الان ولهذا ـ بمزيج من المشاعر الغريبة بعضها تتصف بلوم النفس وبعضها مربكة وقوية لا أقوى على وصفها ـ سلمت لوالدي الاتنى عشرة رسالة العائدة اليه واحتفظت برسالتي عند تناول الفطور ثم حملتها الى فوق وبعد أن ضمنت بأنني وحدي بعد اقفال الباب بدأت أقرأ كتابته اليدوية الشبيهة بوجهه هل سبق لك أن شاهدت خط يده ؟ « وقلت لها لقد شاهدته .. واصلي ! » .

وقالت « كان ختم الرسالة اجمل من أن يفتح بكثير ولهذا قطعته بمقصي ولدى شروعي بقراءته اخيرا تراجعت عن مقصدي اذ كان من سبق الاوان أن اتجرع تلك الجرعة ، فتعالق الدرب كان بهيا ينبغي أن أملي نظري به هنيهة ثم تذكرت في الحال انني لم اتل صلواتي في ذلك الصباح ولانني سمعت والدي ينزل لتناول الفطور قبل الميعاد المقرر بقليل خشيت من أن أبقيه ينتظرني ونزلت اليه حال ارتدائي ملابسي واجلت الصلاة الى ما بعد الفطور » واستطردت قائلة :

« بعض الناس يقولون أن علي أن أخدم الانسان ولكنني لا أظن أن السماء تغار مما افعله لوالدي وفي اعتقادي انني أؤمن بالخرافات ويبدو انني سمعت صوتا يدفعني الى ان أصلي قبل أن اقرأ ما في الرسالة وأن أنكر ذاتي لحظة وأتذكر الواجب الاعظم قبل كل شيء . وأنجزت ذلك وتلوت صلواتي وأضفت عليها أنه مما حدث لا ينبغي علي أن أكدر والدي أو أسبب له أي حزن ولا أهمله قط من اجل الاخرين وهذه الفكرة ذاتها مزقت فؤادي الما فشرعت أبكي ويا لوسي رحت أشعر بوجوب اخبار والدي بكل شي لكيما يتسنى لي أن استمع الى نصائحه » .

« قرأت الرسالة يا لوسي . يقال أن الحياة مخيبة للامال أما أنا فلم أكن كذلك وقبل أن أقرأ الرسالة وأثناء قراءتها كنت أسمع وجيب قلبي وخفقانه باضطراب وارتجفت وكل رجفة بدت كما لو أنها لهثة حيوان عطشان أوصل الى بئر ليشرب منها في حالة امتلائها ويقال أن الحياة ملأى بالآلام عند البعض ولقد قرأت سير حياة الناس حيث ينتقل

twitter @baghdad_library

عابر السبيل من معاناة الى معاناة أخرى وحيث يطير الامل أمامه سريعا ولا يحط بالقرب منه ويتباطأ كثيرا في مسك يده لانهاضه من كبوته » ٠

« لقد قرأت عن الكثيرين ممن زرعوا والدموع تنهمر من عيونهم وبدلا من أن يحصدوا ما زرعوه بهذه الحالة يتعرض زرعهم لتلف مبكر أو يتعرض لزوبعة فجائية وريح دوامة تفتك به ٠ وواحسرتاه ان بعض هولاء قايلوا الشتاء بهري فارغ فماتوا من العوز في أبرد عـــام مكتنف بالظـــلام » ٠

وسألتها « هل كان سبب موت من دكرتيهم من جراء خطأ ارتكبوه ؟ » فقالت لا يكون الخطأ خطاهم على الدوام فبعضهم من أكثر الناس عمـــلا دؤوبا وأعضهم ٠ انك ترين انني لم اجد ولم اسع في حياتي ولم انشط ومع ذلك جعلني الله اترعرع تحت الشمس والظل الظليل والحماية الآمنة في مأوى جيد وغذاء جيد من فضـــل والدي العزيز والان يظهر لي شيء جديد فهمات غراهام يبدي لي جانب الود والحب » وظللنا بغـــع دقائق صامتتين بعد أن وصلنا الى هذا الحد من الحديث ثم بادرتها السؤال التالي بصوت منخفض ٠٠٠ « هل يعرف أبوك بذلك ؟ » فقالت لي « ان غراهام يتحـــدث مع ابي بمنتهى الاحترام غير انه لمح بانه لن يقتـــرب من هـــذا الشان ما لم يبرهن على أهليته وانه لن يجازف بالتقـــدم خطوة في هذا المجال ما لم يتأكد من مشاعري الحقيقية نحوه » ٠

وقلت لها « ومادا كان جوابك له ؟ » فقـــالت « كتبت له باختصـــار ولم أرفضه أو اخيب ظنه لانني أكاد أرتجف ان أنا وسمت الجواب بسمة الود الزائد فهو شديد الحساسية ويصعب ارضـــاؤه ٠ كتبت الرســـالة ثلاث مرات بعبارات بسيطة لازخرف فيها ومسيطر عليهـــا من قبلي في كل مرة وخمرتها عندي الى أن أشبهت قطعة من الثلج مطيبة بنكهة خفيفة من الماكهة أو السكر ثم غامرت في ختمها وارسالها » ٠

وقلت لها « بوركت يا بولينا ٠ نعم ما فعلت ٠ ان موهبتك الغريزية جيدة ورائعة فانت تفهمين الدكتور بريتون » وقالت لي « كيف بي وأبي لا يعرف ٠٠ كيف أعالج هذه النقطة ؟ هذا هو الذي يثير شجني » وقلت لها « لا تهتمي بذلك قط ٠٠ انتظري الان ٠ ولا تراسلينـــه مرة أخرى ما لم يعرف والدك بالامر كله ليعطيك موافقة » وسألتني « هل تتصورين

بأنه سيوافق ؟ » فاجبتها « الوقت هو الذي سيوضح لك فانتظريه ! » .

واستأنفت الحديث معي قائلة لي « الدكتور بريتون عاود مراسلتي مرة أخرى مقدما امتنانه وتقديره العميقين لرسالتي الموجزة الرزينة والان انني منتظرة منك نصيحة فانا في الوقت الذي لا تزال مشاعري نحوه هي هي لست بالقادرة على استئناف مراسلته دون علم من أبي لا أستطيع ان أفعل ذلك مرة أخرى » وقلت لها « أنت تصرفت التصرف الحسن وهذا ما سيشعر به الدكتور بريتون ويزداد اعتزازا بك وحبا لك اذا كانت به حاجة للزيادة ويا بولينا ان هذا الصقيع صقيعك اللطيف الذي يحيط بالشرارات النقية هو امتياز وهبته لك الطبيعة » .

وقالت لي « أتدرين أنني أشعر بنزعة غراهام وميوله وأرى ان ليس هناك رفه او تهذيب او تصرف تكفي لمعاملته » وقلت لها « الشيء الواضح تماما أنك تفهمينه واذا كان الامر كذلك فمهما كانت نزعات غراهام وميوله وتصرفاته فان عليك ان تعملي باخلاص وصراحة ولطف مع والدك » وقالت لي « يا لوسي انني واثقه بانني سأتصرف كما تقولين دائما ومن المؤلم أن اوقظ والدي واحرمه لذة أحلامه لمجرد أنني أريد ان أوضح له أنني لست الان طفلة » .

وقلت لها « لا تتعجلي الامور يا بولينا ودعي البوح للوقت ولمصيرك الطيب الذي لاحظت عطفه عليك ولا تشكي في أنه سيأمر الظروف ويعين الساعة باتقان ودقة . نعم سبق لي أن فكرت بحياتك كما تفكرين بها أنت وأجريت مقارنات ومفاضلات تلفت الانتباه ونحن نجهل المستقبل علما بأن الماضي بشرنا بالخير » .

ومضيت أقول لها « عندما كنت طفلة خفت عليك اذ لم يكن في الحياة من حساسية أكثر من حساسية طبيعتك في طفولتك ، وفي ظروف الصرامة أو الاهمال ما كان بوسع نفسك الظاهرية أو الداخلية أن تنضج النضوج الذي بلغته الان ولو صادفك المزيد من الالم والمزيد من الخوف والمزيد من النضال لأثر ذلك تأثيرا بالغا في أخاديد محياك ذاتها ولهدم نظامها وأزعج أعصابك وأوصلك الى حمى الاثارة الاعتيادية ولخسرت من مرحك وصحتك الشيء الكثير ولخسرت أيضا في مضمار الرشاقة والحلاوة » .

twitter @baghdad_library

« ان العناية الالهية وقتك وحمتك لا من أجلك فقط ولكن من أجل غراهام أيضا فنجمه هو أيضا صاعد ولكي يقوى على تطوير افضل ما في سريرته وطبيعته لابد له من رفيقة مثلك فينبغي أن تكوني على استعداد وينبغي اتحادكما · وعرفت ذلك منذ اليوم الاول الذي شاهدتك فيه في البيت المسمى « بالشرفة » وفي كل ما يتعلق بكما مبادلة أنت وغراهام يظهر بوضوح أن ما يلفكما سوية هو البشرى والتخطيط والانسجام » ·

ولا أظن أن الشباب المشمس البهي لكل منكما سيكون نذيرا بعصر زويمي · ومن الصلاح أن تعيشا بسلام وسعادة لا كالملائكة ولكن كالقلائل السعداء بين الخالدين · ان بعض الارواح تلفها البركات والنعم على هذه الشاكلة ، انها ارادة الخالق · انها الطريق المشهود الخالد المؤدي الى جنة عدن في حين ان أرواح الاخرين تسلك منذ البداية طريقا آخر ·

الفصـــــل الثـالث والثـلاثون

« المسيـــو بـول يحـــافظ عـلى وعـــوده »

في اليوم الاول من شهر آيار دونت ملاحظة في المدرسة الداخلية تلزمنا نحن العشرين طالبة داخلية والاربع معلمات بالنهوض في الساعة الخامسة صباحا وارتداء ملابسنا لنكون جاهزات في الساعة السادسة لكي يقودنا البروفيسور بول عمانوئيل ويأخذنا من « فيليت » في ذلك اليوم ليقي بوعده لنا بان ياخذنا الى الريف لتناول الفطور هناك . وفي الحقيقة انني لم اكن راغبة في الذهاب معهن لانني لم اتلق دعوة خاصة عند ظهور الفكرة لاول مرة واذا بي أحس بجرة اذن من المسيو بول يدعوني فيها الى الذهاب معهن ولم أشا أن أثير المزيد من المصاعب وهددني بجر الاذن ان لم ألب الدعوة ولذلك عدلت عن رأيي الاول وقررت الذهاب .

وكان الصباح الصيفي جميلا بهدوئه .. الطيور تغرد في الحديقة والضباب المشوب بالندى الخفيف كان يبشر بالدفء وكلنا استشففنا من ذلك أن الجو سيكون دافئا ورائعا وشعرنا بالفرح عندما جمعنا البستنا وأجهزتنا النزهوية لاستقبال الفصل المشمس وجرت العادة أن نرتدي البسة موحدة جديدة ونظيفة وقلنسوات مصنوعة من القش أسوة بالعاملات الفرنسيات اللواتي هن فقط المختصات بصنعها .

وما كان مسموحا بلبس الحرير الباهت أو ارتداء البسة غير جديدة . وفي الساعة السادسة صباحا دق جرس المدرسة دقا بهيجا مؤذنا بوجوب تهيئنا للخروج وتلبية دعوة المسيو بول وتجمعنا في بيت السلم على محاذاة الممر باتجاه مدخل الردهة حيث كان البروفيسور واقفا لم يرتد معطفه ذا الشكل المنفور منه وقبعته المجتواة انما كان يرتدي صدرية (بلوز) يرتديها الشاب عادة وقبعة بهيجة من صنع القش وكان يحيي صباحنا بمنتهى اللطف وكنا نقابله بابتسامات الشكر ونحن

twitter @baghdad_library

مصطفات اصطفافا منظما ثم باشرنا بنزهتنا وكانت الشوارع لا تزال هادئة والجادات العريضة التي تقوم على جانبي كل منها الاشجار رائعة المنظر ومسالمة كالحقول ٠

وفي اعتقادي أننا كنا سعيدات جدا عندما كنا نتهادى في مشياتنا ولم يكن يول يقودنا أو يتعقبنا انما كان يتمشى على محاذاة الطريق يزودنا باوامره ويتكلم مع المفضلات لديه ولم يكن يهمل اية واحدة حتى التي كان يكرهها وكنت اتحاشى أن أعمل أي شيء يستوجب الملاحظة وكنت مع جنيفرا فانشاوي أتحمل اكتاف ذلك الملاك الذي كان في حالة نفسية ممتازة ٠

وحاولت أن أجعلها ذات فائدة بأن أبقيها تتوسط بيني وبين المسيو بول وكنت ألاحظ أنه ان جاء من جانب لا يروقني وأتشكك منه كنت أتجه الى جهة أخرى حتى لا ألتقي معه لانني كنت أرتدي ثوبا جديدا قرنفلي اللون ٠ وقد أدرك المسيو بول أنه مهما اتجه الى جهة لا يجد نفسه سوى قريب من جنيفرا فانشاوي التي كانت تمتعض منه ولا ترتاح اليه وتحسبه مكروها متدخلا في شؤوننا ٠

وأخيرا عندما بدل مكانه للمرة السادسة ولاقى النتيجة ذاتها أخذ يرفع رأسه وينظر الى أمام وما ان استقرت عيناه على عيني حتى سألني قائلا « ما معنى كل هذا ؟ هل أنتما تسخران مني وتحتالان علي ؟ » وما ان وقع نظره على ثوبي القرنفلي حتى قال « آه ٠٠ الفستان القرنفلي أيضا ! » ٠

وقلت له بلهجة سريعة « ليس الا ثوب قطني رخيص وغسله أسهل من غسل الثياب الملونة الاخرى » وقال لي « يبدو ان الانسة لوسي تعبث وتتغنج بعظمة أكثر من تغنج الباريسيات بعشر مرات ٠ هل رأيتن انكليزية كهذه ؟ أنظروا الى قلنسوتها وقفازها وحذائها » وقلت له « هذه الملابس التي أرتديها هي كالملابس التي ترتديها الاخريات معنا » ولاحظت محياه فشبهته بزوبعة تهب أحيانا في الفصل ولا تحدث ضررا اذ وجدته يبتسم ويقول « في الحقيقة أنني غير غاضب وربما أنا مبتهج من كيفية تجميل نفسك واظهار جمالك في هذه النزهة المتواضعة » وقلت

له « ولكن ثوبي ليس جميلا انه نظيف لا أكثر ولا أقـل » وقال لي « انا شخصيا أحب النظافة » ٠

ووجدنا أنفسنا الان في الريف المتميز بالخمائل والأيك والازقـة الضيقة وهذه المناطق ستصبح بعد شهر مترية ومنعزلة أمـــا الان فان خضرتها في شهر أيار وغفوتها الصباحيه تجعل منها مكانا مريحـا رائع الجمال ٠ وبلغنا منطقة ارض مدورة الشكل مزروعة زراعه جيدة تحيط بها دائريا اشجار الزيزفون فامرنا بالتوقف للجلوس واخذ الراحة واخذ المسيو بول مكانه في الوسط وعمل جهده لكي نحيط به دائريا بتنظيمه ، تاركا اللواتي يحببنه اكثر مما يخشينـه اماكن قريبة منـه وتلكم كانت قليلات العدد اما اللواتي يخشينه أكثر مما يردنه فقد أبعدهن اكثر ٠

وبدأ يروى لنا قصة رواها بشكل مشوق بالشـــكل الذي يستهوي الاطفال وبأسلوب بسيط في فوته بحيث يروق لبعض المتعلمين ان يحذوا حذوه وكان في القصة القصيرة لمسات رائعة ومومضات حـــلوة ووصف جميل بحيث سرحت في خيالي عند سماعها فقد رسم فيها منظرا من مناظر الشفق ظل ملازما خاطري ولم أجد في اقـلام الفنانين وصفا لمثل ذلك المنظـــر ٠

وقلت لنفسي أن ليس لي مؤهلات مرتجلة أو قدرة مرتجلة ومثـل هذا النقص أو العجز جعلني اندهش ممن يملكهـــا كاملة ٠ ان المسيو بول لم يكن بالشخص الذي يؤلف الكتب ولكنه كان يسرف أيما اسراف في اقتناء الكتب بحيث جمع ثروة عقلية لا يستهان بها قلما جمع أحـد غيره مثلها ٠ لقد كانت ذهنيته بمثابة مكتبة لي وحيثـــما كانت تفتح أمامي كنت أحسبني أمام جنة من الجنان ولان ثقـــافتي العلمية لم تكن فياضة فلم أكن أقرأ الا النزر اليسير منها ٠

وكانت لديه مجلدات مطبوعة ومغلقة لم تكن تضجرني أو تزعجني والتمعن فيها ما كان يرهق أو يغشي البصر والافكار المدونة فيها كانت بمثابة مرهم لعيني الروح وكان لمحتوياتها الاثر الكبير في تقوية الحس البصري الداخلي وفي زيارته صفاء وقوة ورحت أفكر بالسرور الذي كان من الممكن أن يملأ فؤاد المرء الذي يحبه أكثر مما يحب هو نفسه ويجمع ويخزن تلك الكتب الذهبية المطروحة حمقا وطيشا تحت رياح السماء ٠

twitter @baghdad_library

وانتهت قصته ونهض يمشي حتى بلغ الهضبة الصغيرة المدورة حيث كنا أنا وجنيفرا منعزلتين فيها وجريا على عادته عندما يريد أن يعرف ما هو في فكر الاخرين عنه لم يكن ينتظر حتى يقولوه طوعا فبادرنا السؤال التالي « أنا أكره العمل الآلي واكره الانحناء فالجلوس ٠٠ بوسعي املاؤها وانا مسرور لمن يناسبني كامينة سر فهل بوسع الانسة نوسي ان تكتب لي اذا رجوتها ؟ » فقلت له « المسيو سريع جدا في الاملاء وسيستحثني في الكتابة بشكل سريع وسينضب اذا وجد أن قلمي لا يحافظ على سرعته الاملائية من فيه » وقال لي « حاولي مرة ودعيني اشاهد الوحش الذي اصنعه بنفسي في مثل هذه الاحوال ولكن الان لا توجد قضية املاء ٠ وفي نيتي أن اعهد اليك بعمل نافع في مكتب آخر فهل تشاهدين ذلك المنزل الزراعي الواقع هناك ؟ » فاجبته « ذلك المنزل المحاط بالاشجار ؟ نعم اشاهده ! » ٠

قال هناك سنتناول فطورنا وفي الوقت الذي ستعد لنا امراة الفلاح القهوة تقومين انت وخمس من الفتيات اللواتي ساسطفيهن بنفسي برش خمسين رغيفا من الخبز بالزبد » وبعد ان شكل جنديانه اصطفافا مرة اخرى قادنا سيرا الى المزرعة وما ان شاهدنا الفلاحون هكذا حتى رضخوا لمشيئتنا بدون أن يستسلموا ٠

وهيأت السكاكين والصحون النظيفة وجيء بالزبد الطازج وانطلقت ست من فتياتنا اللواتي اختارهن بروفيسورنا للعمل بتوجيهاته وهيأت للفطور سلة ملآى بالارغفة جاء بها الخباز الى المزرعة توقعا لقدومنا وسبق أن سخنت القهوة والشكولاته وأضيف الى الوليمة القشدة وكميات البيض الطازج المأخوذ من الدجاج البيوض ٠

وكان المسيو المعروف بسخائه دائما قد أمر بجلب كمية كبيرة من لحم الخنزير المجفف المملح والمربيات والفواكه المجففة وقال البعض منا أن تلك الكميات الكبيرة من الاطعمة تبذير طائش لا مبرر له وصرحن بذلك أمامه فانهال عليهن باللوم واتهمهن بأنهن ربات بيوت بخيلات وتركناه يؤنبنا ونحن نتناول الطعام وفق ما نشتهي ٠

ووقف الى جانب موقد مطبخ المزرعة وهو ينظر الينا بمنتهى

البهجة والسرور وفي الحقيقة انه كان من النوع الذي يشعر بسرور اذا شاهد الاخرين مسرورين فهو محب للحركة والحيوية والنشاط ويريد ان تحيطه من كل جانب الوفرة والمتعة وسألناه أين يريد الجلوس فقال لنا انتن تعلمن الان جيدا أنني عبدكن وخادمكن وأنتن سيداتي المطلقات وأنني لن أتجرأ على أخذ كرسي الا باذنكن وسماحكن ولهذا جئنا له بكرسي الفلاح الكبير الموجود عند مؤخرة المائدة الطويلة واجلسناه عليه ٠

واظن أن الذي كان يدور في أذهاننا هو ٠٠ هل يتوجب علينا أن نحبه مع كل ما عرفناه فيه من انفعالات وعربدات وهو بهذه الشاكلة من السخاء والمرونة في بعض الاحيان ؟ ٠ ان أعصابه هي التي كانت مثار الغضب والازعاج والا فانه كان كالحمل لا يؤذي ذبابة ورغم حماقته الشديدة وشكاسته وسوء طبعه أو انعدام تعاطفه لم يكن خطرا قط ٠ ان معظم اخوان المسيو عمانوئيل البروفيسورية كانوا أحرارا في تفكيرهم أو ملحدين وكان هو كالفارس القديم لا شهرة له يتسم بطفولة بريئة وبوسامة الشباب وله عواطف جياشة وانفعالات حادة وأحاسيس مرهفة ومريرة بسيطة ٠

كان الفطور وجبة شهية ممتعة ولم يقتصر المرح على مجرد كلام لان المسيو بول كان المبادر في تطوير الاحاديث والاشراف عليها واعلائها ولعبت طبيعته الصامتة غير المقيدة دورا حيا ولانه كان محاطا بالنساء والاطفال فقط فلم يكن هناك من يعترضه أو يخذله أو يثير انفعاله انطلق على سجيته الخاصة التي كانت مبعث السرور ٠

وانتهينا من تناول طعامنا وتحرر الجميع وأخذت الطالبات يركضن ويلعبن في المرج وساعد بعضهن زوجة الفلاح في رفع الاواني الخاصة بها ودعاني المسيو بول للجلوس بجواره تحت شجرة وهو يتفرج على الفتيات اللواتي كن يطفرن ويركضن على الامتداد العشبي وطلب مني أن اقرأ له بينما هو كان يدخن سيجارة وجلس على منضدة مصنوعة من الاغصان اقرأ له من كلاسيكيات « كورنيل » التي لم تثر اهتمامي وأثارت اهتمامه هو بحيث وجد فيها جماليات لم تثر انتباهي (كورنيل هو بيير كورنيل ١٦٠٦ ـ ١٦٨٤ روائي فرنسي عظيم موجد المأساة الكلاسيكية الفرنسية ـ من شرح المؤلفة في آخر صفحات كتابها) ٠

twitter @baghdad_library

وأصغى بحلاوة الصمت وبتأثير من زخم اندفاع طبيعته العامة ولاحظت عمق السعادة التي كان يستشعرها والتي ملأت ظلالها عينيه الزرقاوين ولطفت وملست جبينه العريض واستشعرت أنا أيضا السعادة ... السعادة مع اليوم الرائق البهي ومع وجوده هو كنت أسمد الناس بلطفه ذاك . وراح يسألني أسئلة جانبية ما اذا كنت أفضل الذهاب الى رفيقاتي بدلا من الجلوس معه فقلت له لا أريد الذهاب اليهن .

وسألني لو انني أخته أكنت أفضل البقاء مع أخ مثله ؟ فقلت له « نعم .. كنت أفضل ذلك !! » وسألني أنه لو ترك مدينة « فيليت » هل سيحزنها هذا ؟ » وأغلقت صفحات الكتاب ولم أجبه على هذا السؤال وسألني « أيتها الاخت الصغيرة لو أنني ارتحلت فهل سيطول تذكرك اياي ؟ » فقلت له « لا أعرف أيها المسيو لانني لا أعرف طول المدة التي تسبق انقطاعي عن تذكر كل شيء أرضي » وسألني لو انه سافر الى ما وراء البحار لمدة سنتين أو ثلاث أو خمس وعدت بعد ذلك فهل سأرحب به ؟ فأجبته « كيف لي أن أظل على قيد الحياة خلال هذه المدة ؟ » .

وقال لي « لقد كنت قاسيا وصارما معك مع كل ذلك » وأخفيت وجهي داخل صفحتي الكتاب لان عيني أغرورقتا بالدموع وسألته لماذا يتكلم على هذه الشاكلة فأجاب « لن أتكلم على هذه الشاكلة بعد الان » وأخذ يمعن في الترحيب بي وفي التحادث معي برقة واحترام زائدين وأثرت بي طريقة محادثته طيلة ذلك النهار بنوع ما فقد ظهر عطوفا ورقيقا جدا وغريب الاطوار مع مزيج من الانفعالية .

وعند حلول وقت الظهر وتوهج الحرارة في أيام حزيران أخذ الراعي يجمع خرافه من المرجة وانطلقنا عائدات الى البيت بقيادته وكان أمامنا فرسخ واحد من المسافة ينبغي أن نقطعه والطالبات تعبات بعد طول اللعب فقد فترت همتهن بعد مشية الظهيرة وبان عليهن التبرم وهن متربات الوجوه والملابس من قطع الطرق والتقينا في الطريق بعد ابتعادنا عن حدود المزرعة بعربتين كبيرتين واسعتين جاءتا للتفتيش عنا وهي عادة درجت عليها المدرسة في العناية براحة التلميذات وسلامتهن وهاتان العربتان استؤجرتا لهذا الغرض .

واتسعت العربتان لكل منا حتى وصلنا المدرسة • وعنـــد الغروب شاهدت المسيو بول عمانوئيل يخرج من الباب الامامي ترافقه المدام بيك وأخذا يتشيان مدة نصف ساعة تقريبا ويتكلمان على ما كان يظهـــر في شؤون جدية مهمة وكان منظره رزينا تبدو عليه سيماء القلق • ولا أدري عما كانا يتحدثان • وعندما دخلت المدام بيك غرفتها بعد أن حل الظلام تاركة ابن عمها يتسكع بطيئـــا جيئة وذهوبا في الحديقـــة قلت لنفسي :

« لقد سماني •• أختي الصغيرة •• في الصباح واذا كان حقيقة بمثابة أخي فهل أذهب اليه الان وأسأله عما يدور في ذهنه •• أنظر اليـــه كيف أمال رأسه الى الشجرة بذراعين متشابكتين وجبـــين مائل أنه على ما يبدو بحاجة الى من يسليه وأنا على علم من أن المدام بيك لا تستطيع أن تفعل ذلك لانهـــا تكتفي بالاحتجاج عليـــه ولومه كأن تســـأله •• وماذا الان ؟ » •

وبعد السكون تحول الى العمل وأخذ يمشي بخطوات سريعة منتصب القامة في أرجاء الحديقة وكنت أتصور بأنه ربما كان يهم بسقي أشجار البرتقال من الحوض المجاور وكما هي عادته تحول ــ عنـــد وصوله الى الساحة ــ واتجه الى مكان الارجوحة ومنها دخل البـــاب الزجـــاجي المؤدي الى الصف الاول وكنت أراقبه وهناك لم أجد في نفسي الشجاعة لانتظار دنوه مني فقد استدار فجأة وجاء يخطو بخطوات سريعة مخيفـــة وبدت عليه امارات غريبة وازداد خوفي من حركاته هـــذه وبدون أن أصغي الى صوت الرشد والمنطق وسماع تكسر أغصان الشجيرات وصوت الحصباء التي يدوس عليها في طريق عودته تواريت عن الانظار مذعورة •

ولم أنتظر حتى أستطيع اللجوء الى المصلى الذي كان فارغا الان من المصلين وأخذت أصغي من مكاني ونبضات قلبي متصـــارعة من خـــوف لا أعرف كنهه كنت أتوقعه وسمعته يمر عبر الصفـــوف كلهـــا وسمعت صوت ارتجـــاج الابواب التي كان يفتحهـــا بقوة وبانعدام الصبر وهـــو ماض في طريق هياجه لا يلوي على شيء ثم غزا غرفة الطعام وسمعتـــه يقول « اين الانسة لوسي ؟ » •

وبعد أن استعدت رباطة جأشي تهيأت للنزول ولان أفعل ــ بعد كل

twitter @baghdad_library

هذا ـ كل ما أريد أن أفعله في العالم أي الملاقاة معـــه وسمعت صوت الانسة سنت بيير تجيبه ارتجالا وكذبا « هي في فراشها » ودخل المـــر غضوبا مستشطا وهنا التقته المدام بيك فوبخته وأوصلته الى باب الشارع وطردته • وبايصاد باب الشارع داهمني تفكير مفـــاجيء مدهش عن تصرفاتي المشاكسة له ونزل ذلك التفكير علي كضربة قوية •

وكنت قد شعرت منذ البداية بأنني أنا المطلوبة وبأنه لا يفتش الا عني ولو أنني قابلته ـ وهذا ما كان يدور بخاطري ـ فمـــا الـــذي كان سيحل بي ؟ وما الذي استبقاني بعيدة عن متناول يده ؟ كان في سريرته ما يريد أن يقوله ••• ويقوله لي أنا وكنت قد أصغت السمع وركزته لسماعه منه ودار في خلدي أن الثقة بيننا انعدمت واستحالت •

وكنت أتوق للاصغاء اليه وتسليته والتخفيف عن عذابه حين ظننت أن حرية الكلام والسلوان بعيدتان عن متنـــاول الامـــل وما أن حانت الفرصة على حين غرة وفق ما كنت أهوى الا ووجدتني أراوغهـــا كما يراوغ المرء شبح الموت والفناء • حسنا •• لقد نلت جزاء عدم استقراري وتقلبي وتنافري الممخوضة بالجنون وبدلا من الراحة التي كان بامكاني الحظو بها لو أنني أخمدت أنفاس مخاوفي وقفت وقفـــة شجاعـــة مدى دقيقتين ولكنني جابهت موقفا فارغا وارتيابـــا أسود مظلما وقلقـــا موحشا • وأخيرا استلمت أجوري وأخذتها معي الى وســـادتي وأمضيت ليلتي في عـــدها •

الفصـــل الرابـــع والثـــلاثون

ـ روح الشـــر والضغينـــة ـ

استدعتني المدام بيك بعد ظهيرة يوم الخميس وسألتني ما اذا كان لدي اي مانع او عائق يعوقني عن الذهـاب الى المدينـــة واقتناء بعض الحاجيات لها من حوانيتها ولما كنت غير مشغولة وضعت نفسي في خدمتها واستلمت منها قائمة بالاصواف والحرائر وخيوط التطريز وما اليهـا التي تمس الحاجة اليها لاعمال التلميذات وذلك بعـد ان جهزت نفسي بطريقة تقيني من احتمالات خطورة الجو الغائم الغاضب المهدد ٠

وما ان شرعت في سحب رتاج باب الشارع النابض للخـــروج في الحال والذهـاب الى السـوق الا وسمعت صوت المـــدام يستدعيني الى الصالون الكبير وعنـــدما ذهبت اليها قالت لي بسرعة تفكير مرتجـل « لقد تذكرت مهمة اخرى تنجزينها لي مع ما اوصيتك به ان لم تتكلفي » وقلت لها « لا بأس ولا كلوفة فيما توصيني به » ٠

وهرعت المدام الى الصالون الصغير وجـاءت معها بسلة جميلة ملأى بفواكه المستنبتات الزجاجية الدافئة وهي فواكه رائعـة وردية الالوان وناضجة ـ شهية الى جانب ذوات الالوان الخضـــر الداكنـة والاوراق الشبيهة بالصمغ والتفـاح النجمي الاصفر اللون الذي لا أعرف من أية شجرة ينمو ٠

وقالت انها ليست ثقيلة ولن تخجل هندامك وزينتك ورجاء أودعي هذه السلة الصغيرة في بيت المدام والرافينس وأدعي لها عني بالتوفيق بمناسبة عيد ميلادها فهي تسكن في المدينة القديمة في شارع « دي ماج » المرقم (٣) ٠ ربما وجدت المسافة طويلة ولكن لديك فتـرة الظهـيرة كلها أمامك ولا تتعجلي وان لم يتسن لك أن تعودي وقت تناول عشائك فسأمر لك باعداد طعامك وهنا الطباخ فوتون الـذي تعرفينـه فسيهيء

twitter @baghdad_library

لك كل ما تريدين من المآكل ولن ينساك أحد يا عزيزتي الانسة وعند عودتك حبذا لو جئت الي للتأكد من أنك شاهدت المدام والرافينس نفسها وسلمت لها السلة يدا بيد حيث أنها حريصة على الشكليات • اذهبي بسلام • وداعا !! •

وأخيرا خرجت واستغرق قيام وكلاء الحوانيت باختيار وجمع الحرائر والاصواف وقتا طويلا لان مهمتها شاقة دائما واكتملت القائمة علما بأن الخف وحبال الاجراس والقفف والمنزلقات والشرابات الخاصة بالجزادين وغيرها توارت عن فكري فترة ما ولم يبق في فكري سوى الفراكه ونقل التمنيات للمدام والرافينس •

وكنت أحب المشي الطويل فمشيت في شارع بيسيفيل القديم لان الجو المسائي فوق المدينة أضحى ككتلة معدنية ذات لون أزرق ــ أسود مسخنة الحافية الى أن تصبح ملتهبة كالجمر الاحمر ، غير أنني أخشى الريح العاتية الزوبعية فالزوبعة تتطلب استنفاد القوى واستنزافها ثم الاستسلام الدائم للالم • ان سقوط الثلوج الكثيفة أو انهمار المطر بغزارة يعمل على كنس شوارع العاصمة الكبيرة كنسا نظيفا ويمهد لك طريقا هادئا تمر منه الى الشوارع العريضة ويحجر مدينة حية بالسحر الشرقي بأن يحول مدينة فيليت الى تدمر فلتسقط الامطار اذن ولتنزل الفيضانات بمجرد أن أتخلص من هذه السلة والفواكه باعطائها الى السيدة •

وسمعت عن بعد دقات الساعة من أعالي برج مجهول تعلن عن الخامسة والعشرين دقيقة عند وصولي الى الشارع الموصوف لي والدار المرقم بنفس الرقم ولم يكن ذلك شارعا بالمعنى المعروف انما كان جزءا من ساحة هادئة ينمو الحشيش بين صفائحها العريضة الرمادية اللون ، ودورها واسعة تبدو قديمة الشكل وراءها تتعالى الاشجار وتترامى الحدائق وكل شيء فيها موسوم بميسم القدم •

ولم يكن فيها أثر الحوانيت أو مؤسسات مصالح ذلك أن الاغنياء سبق أن اقتنوا تلك المنطقة التي تشرف أبراج كنيستها السوداء الآيلة للخراب عليها ويعبوري ذلك المكان المهجور خيم الظلام ولم أجد في كل

امتداداته أثرا للحياة ما عدا قسيسا مسنا خرج من نفس البيت الذي دون عنوانه عندي . وعندما توقفت أمام الباب الذي أوصد بعده وضغطت على جرس الباب التفت وصوب نظراته الي .

وفتح لي الباب وكان الفاتح عجوز شمطاء ترتدي ألبسة الفلاحين القديمة جدا وقلنسوة قديمة واشرطة جيوب زينية ومعطفا قصيرا وسترة من قماش وحذاء خشبيا هو أشبه بزورق صغير ، ولم تكن تعابير وجهها مريحة ونادرا ما كانت تجيب على استفساري عن المدام والرافينس وأظن أنها اختطفت السلة من يدي اختطافا لولا أن القسيس المسن تدخل وصدها وأخذ يصغي الى ما أريده .

وكان هذا القسيس ثقيل السمع وصعب علي نوعا ما افهامه أن علي أن أجد المدام والرافينس لاسلم سلة الفاكهة بيديها ولم أتكلم معه باللغة الفرنسية وانما باللغة أهالي لاباسيكور المحلية وأقنع القسيس العجوز الشمطاء بوجوب السماح لي بالدخول الى عتبة الدار وجاء معي وأصعدني الى الطابق الاعلى وأوصلني الى صالون وتركني هناك .

كانت الغرفة كبيرة ذات سقف قديم جميل ونوافذ أشبه بنوافذ الكنيسة ذات الزجاج الملون ولكنها كانت مهجورة ، وعند هبوب العاصفة تصبح عابسة بشكل غريب وفي داخلها غرفة أصغر وكانت ستارة النافذة مسدلة على النافذة البابية الوحيدة وفي الداخل بعض الاثاث ولفت نظري وجود صورة كفافية على الحائط تفسح مجالا لانفتاح الخيال ونهايتها المتلاشية تؤدي الى ممر مقوس وسلم . وكلا الممر والسلم من الحجارة الصماء الباردة لا طنافس عليها ولا مفروشات ولا صور .

وتحت ذلك السلم حنفية وعلى السلم ظل وفي آخر الامر علمت أن المنطقة كانت تحوي على ممتلكات فهل كانت ممتلكات فعلية في ذلك المكان الذي كان بجواري وفي تلك العقبة التي كانت تسدل الظلام على القنطرة وتقربت منه وشاهدته بصورة أفضل وبدأت أفهم أين أنا فهل هي تلك الساحة المربعة التي أسميت بساحة « ماجي » ؟ وهل أن الابراج الثلاثة التي تشرف عليها الحكم الصوفية الثلاثة لفن مظلم ميت يحوم حوله السحر وفتحت رقيته أمامي أشباح مدينة الاقزام وهل ان تلك الغرفة الشبيهة بالغيهب أو بغرفة السجن وتلك الصورة المتلاشية الحواشي

twitter @baghdad_library

وتلك القنطرة وذلك الممر كلها أجزاء من قصة الجن العاوية روح الشر والضغينة (مالفولا) فكيف كان شكلها ؟

ربما كان طولها ثلاثة أقدام ولكن لم يكن لمالفولا شكل (مالفولا روحية الشر هي كونيغولد امرأة من طبقة النبلاء ورد الحديث عنها في قصة مسرحية لبيزه هنريخ وبلهالم قسوت كليستة (١٧٧٧ ــ ١٨١١) في هذه المسرحية كان المفروض أن تتزوج هذه النبيلة الفارس ويترفون ستراهل وكانت قبيحة ولكنها كانت تغطي قبحها بكل أنواع الحيل الاصطناعية .. وكان من المفروض أن يتزوج الفارس كلاجين التي تحبه والتي أتهمها أبوها بصناعة السحر . وفي نهاية المسرحية تفتضح كونيغوند وتتزوج فون ستراهل محبوبته كاجين ــ من شرح المؤلفة في نهاية الكتاب) وكانت يداها الهزيلتان ملتصقتين وكان وجهها ضئيلا جدا لا يستقيم على كتفيها ولكن أمام صدرها . ويبدو أن لم تكن لهما رقبة وعلى وجهها معالم مائة عام وأكثر من هذه المدة في عينيها الخبيثتين المباديتين وفوقهما حاجبان كثيفان رماديا اللون وجفنتان شاحبتان أزرقان من القورم وكم كان منظرها قظيعا ومقبضا للنفس إ

كانت ترتدي ثوبا مقصبا ومطرزا مصبوغا باللون الأزرق الخفف كوهرة الجنطيانا الزرقاء مغطى بزخارف النسيج الجنوبي الأطلسي بقطع شفصلية نموذجية وفوق الثوب شال غالي الثمن وفستان عريض عليها بحيث أن هذا لونها السعيدة الالوان تكشف الأرض وان التقاط الاسلمية فيها كانت جواهرها فقد كان لها أقراط طويلة لامعة لان يمكن أن تكون زائفة أو مستعارة وحلقات في يديها الخنصرين وخواتم من ذهب ولحجل كريمة أوجوانية خضراء وحمراء يلتمع الدم وكانت حديداء وقزمة كملكة البرابرة المعبودة .

وقالت لي ... ماذا تريدين مني ، وذلك بصوت أخشن هو صوت الرجال أكثر مما هو صوت امرأة عجوز وفي الحقيقة كانت لها لحية فضية شعراتها كشعيرات الخنزير تلتمع على ذقنها فأجبتها « لقد سلمت سلتي لرسالتي الشفوية » وسألتني « هل هذا كل شيء » فأجبتها « هذا كل شيء » وقالت « حتا انه لمجهود منها » . عودي الى المولم بيك وقولي لها لنني أستطيع أن أشفي الدواء عندما أريد وليعة يخص لها نهايها وتمثل لي فلا داعي لها ، ثم أولتني ظهرها وانصرفت .

وحالما أدارت لي ظهرها لتنصرف دوت في الجو جلجلة الرعد وقصيزه وأومض البرق بوهجه العريض على الصالون وعلى مخدعها . ويبدو أن حكاية السحر سرت مع العوامل الطبيعية والقوى الجوية ، وأنا التاهه الهائمة على وجهها في القصر المسحور الواقعة في شركه سمعت صوت الرعد الذي استثاره السحر في الخارج . وما الذي سأقوله عن المدام بيك بعد هذا كله ؟ ان لها صداقة غريبة مع هذه الشمطاء وأوصلت اليها التحايا والرسالة الشفوية الى هذا الموقع التاريخي الغريب الشكل .

وولت تلك الشمطاء الشبيهة بالساحرة « سيدونيا » تترنح وترتعش كالمتجسدة جسدا بشريا تتوكأ على عكازها العاجي الذي كانت تنقر به الارضية الفسيفسائية وهي تدمدم دمدمة حاقدة في سيرها المرتعش . وغسلت مياه الامطار الشوارع وكان الجو قد تدنى وانخفض عميقا مع غيومه التي بعد أن كانت بلون أحمر استحالت الان بكل اسوادها الى لون أصفر شاحب كما لو انها أصيبت بفزع شديد .

ورغم أنني كنت قبل الان اتبجح بكوني لا أخشى قطرات الامطار صعب علي الخروج والتعرض لمثل ذلك الميزاب ثم اشتد هطولها وتكاثفت ومضات البرق بشكل فظيع وسقطت شظايا البرق بالقرب من ذلك المكان وتجمعت نذر الزوبعة فوق « فيليت » في الحال باقصى ما فيها من قوة على ما كان يظهر واندفعت الى تحت اندفاعا جنونيا واحدثت الصواعق المنحدرة المتشعبة المتجهة الى كل الجوانب سيولا وتكاثفت وتشابكت خطوط متعرجة حمراوات اللون في هجوم ملتمعة كالمعدن الابيض وكل هذه تهاوت من السماء بلونها المدلهم السواد وبوفرتها الثقيلة الوطاة .

وتركت صالون المدام والرافينس غير الضيافة ولجأت الى بيت سلمها البارد حيث يوجد مقعد في منبسط الدرج وهناك انتظرت وشاهدت القس المسن يتقدم على محاذاة البهو صوبي قائلا لي « من المؤكد أن الانسة لن تجلس هنا فليس من الصواب أن نعامل الغرباء الذين يحلون عندنا مثل هذه المعاملة » ورجاني أن أذهب الى الصالون بحمية واخلاص ولم يكن لي بد من أن أرفض رجاءه .

كانت الغرفة الصغيرة مؤثثة بشكل أفضل والاقامة فيها خير من الاقامة في الغرف الكبرى وقادني الى مكان هو أقرب الى مصطبة منه الى (بدوار) أي مخدع السيدة وحجرة لبسها أو جلوسها التي كانت غرفة

twitter @baghdad_library

مهيبة رغم صغرها وكان شكلها يدل على أنها مكرسة للتقاليد والشعائر الدينية وغير مصممة للاستخدام الفعلي او لاخذ قسط من الراحة فيها ٠

وجلس الاب الصالح كمرافق لي ولكنه بدلا من أن يحادثني أخذ كتابا يقلب صفحاته دون أن ينظر الي ويحرك شفتيه همسا كما لو انه كان يصلي أو يبتهل الى الله وأضاء مصباح كهربائي أصفر من فوق صلعته واصبح هيكله في الظل وظل جالسا كالتمثال وبدا كما لو أنه نسي وجودي وهو يصلي ولم يكن يرفع رأسه عن الكتاب الا عند ما كان يسمع صوت الساعقة الاعنف أو صوت القعقعة المؤذنة بدنو الخطر ٠

وحتى في ذلك الوقت وفي تلك الحالة لم يبد الخوف على محياه ولكن عندما كان يشتد الرعب كان يرفع عينيه الى السماء وانا ايضا اصبت بخوف شديد ربما انني لم اكن سوى ضغط الرعب الصاغر فان أفكاري وملاحظاتي ظلت طليقة ٠ واذا اردنا نشدان الحقيقة بدات اتخيل بان الشمس المسن يشبه الاب سيلاس الذي كنت قد ركعت أمامه في كنيسه دير المترهبات وكانت الذكرة غامضة لانني لم اشاهد كاهن الاعتراف الا في العتمة وعلى شكل جانبي من وجهه ومع كل ذلك ترسب في ذهني انه يشبهه ان لم يكن هو والذي زاد في قناعتي صوته وانا اراقبه ، وعرف بنظرة واحدة أنني أتفحصه وأمعن النظر فيه والتفت لألاحظ الغرفة وكان له هو أيضا اهتمامه شبه الغامض بذلك ٠

والى جانب صليب معقوف عقفا عجيبا بالعاج القديم مصفر الشكل يفعل الزمن منحدر صوب كرسي الصلاة وجدت صورة معلقة سبق أن لمحت خطوطها المحيطية عيناي وقد سقطت الصورة بعد تحركها بجانب الحائط ولانني لم أشاهدها بوضوح تام ظننت أنها صورة مريم العذراء وبعد أن شخصت اليها تماما شاهدت بوضوح أنها صورة سيدة بملابس راهبة ٠

ومع أن الوجه لم يكن جميلا فانه كان مبهجا ٠ كانت صورة شابة شاحبة الوجه مظللة بظلال الحزن واعتدال المصحة وظللت أمعن النظر في الصورة حتى كأنني ما كنت أريد رفع بصري عنها ٠ ويظهر أن الكاهن الطاعن في السن الذي ظننته أطرش وشيخا عاجزا استعاد قوته وقدراته بتحفظ ووقاية ، لقد كان منهمكا في كتابه كما كان يظهر دون أن يرفع رأسه وفي رأيي أنه عندما حول عينيه لاحظني منهمكة في التمعن بتلك

الصورة وبصوت متميز واضح وبطيء شرح حقيقة تلك الصورة بالملاحظات الاربعة التالية .. كانت محبوبة جدا .. وماتت وهي شابة .. ولا يزال الاخرون يتذكرونها ويبكون عليها .

وقلت للكاهن المسن .. « من يبكي عليها ؟ هذه المدام المسنة والرافينس ؟ » سألته هذا السؤال وأنا متصورة بأنني اكتشفت حزن هذه الثكلى وألمها الذي لا يشفى وهو ما يوضح شكاسة هذه السيدة المسنة وسوء طباعها وقنوطها . وهز الكاهن رأسه بنصف ابتسامة قائلا « كلا ! كلا ! ان عواطف المجدة حيال أحفادها شيء يعظمهم وحزنها لخسارتهم هو أمر مفهم بالحيوية والنشاط ولكنها العاشقة المخطوبة التي حال القدر والمعتقد والموت دون زواجها بخطيبها والخطيب حزين على موت جوستين ماري صاحبة هذه الصورة .

ووجدت ان علي أن أستنطق الكاهن أكثر فسألته « أبي !! من الذي خسر وفقد ومن الذي لا يزال حزينا على جوستين ماري ؟ » وكان الجواب قصة رومانتيكية قصيرة رواها بتأثر في ذلك الجو الزوبعي الذي لم يزل يعصف وكدت أقول انه لولا أفكار كأفكار جان جاك روسو لكانت الوطأة أكثر تأثيرا ويظهر أن الاب المحترم مولود بفرنسا ومن أصل فرنسي وزدت اعتقادا بأنه كاهن الاعتراف نفسه لانه كان ابن روما البار . وعندما رفع رأسه قدرت عمره بالسبعينات بهمومها واثقالها وفي اعتقادي أنه أب بار وصالح .

ان بطل قصته كان تلميذا له أحب هذه الشابة الشاحبة اللون جوستين ماري ابنة أبوين ثريين ووالد الفتى الذي كان مصرفيا غنيا أفلس وتوفى ولم يخلف وراءه سوى الديون والفقر المدقع ومنع الولد وقتئذ من التفكير في أمر الفتاة المترفاة ومنعته بصورة خاصة جدته الجيزبون القبيحة الشكل المسماة « مدام والرفيدي » بكل ما كان في روحيتها من مس شيطاني وسرعة غضب وسوء الطبع وشكاسته . وظلت ماري الطيبة مخلصة لحبيبها الذي أجبروه على الغاء خطوبته منها ورفضت قبول خطيب آخر رغم ما كان يملكه من أموال ودخلت الدير الى أن توفيت في رهبنتها ولازم الخطيب المحب المبتئس عذاب مستديم لازم قلبه المخلص الذي كان يعبدها به ورويت لي حقيقة ذلك الحب والحزن بطريقة أثارت شجوني مذ أصغيت اليها .

twitter @baghdad_library

وبعد أعوام من موت الفتاة المسكينة حل الخراب أيضا ببيت أبيها الذي كان تاجر جواهر واحجار كريمة وحدث أنه تلقى ضربة قاضية في البورصة لها علاقة بمضاربات وصفقات مالية فضحته وفرضت عليه غرامات مدمرة فمات حزينا على ماخسره وجراء العار الذي لحقه. وتركت والدته الحدباء وزوجته المفجوعة في حالة افلاس تام وكان الموت مترصدا لهما لولا أن خطيب ابنتها المتوفاة سارع الى انقاذهما كليهما فآواهما واهتم بهما وأحسن معاملتهما بحيث ما كان لاي ولد ـ لو كان لهما ولد ـ أن يفعل ما فعل هو لهما بذلك الحنان والاهتمام ».

« وتوفيت الوالدة ـ وكانت صالحة عموما ـ وهي تباركه أما الجدة الغريبة الاطوار التي لم تؤمن بالاله ولا بالانسانية فقد ظلت على قيد الحياة يسندها ويدعمها ذلك الولد المضحي الناكر لذاته تماما ورغم أنها كانت سبب بليته وفاجعته وسبب القضاء على أمله جاء بها الى داره » وواصل الكاهن الحديث فقال والدموع الساخنة تنهمر من عينيه « هنا أيضا في هذا البيت جاء بي أنا معلمه الخصوصي الاسبق وآواني مع « أغنس » خادمة عائلة أبيه ».

واستطرد يقول « من أجل معيشتنا وأعمال الخير التي يقوم بها أنا على علم تام من أنه ينفق ثلاثة ارباع ايراداته مبقيا الربع فقط لخبزه ولوجبات طعامه المتبرية وبذلك لم يبق له أي شيء يساعده على الزواج اطلاقا وكرس نفسه لعبادة الله ولذكرى عروسه الملاك تماما كما لو انه كاهن مثلي ».

ومسح الكاهن دموعه قبل أن يتفوه بالكلمات الاخيرة هذه وهنا رفع ناظريه ونظر الي نظرة واحدة والتقيت نظرته رغم شخصيته المحببة وهذه اللحظة من المرؤية أحدثت لدي انطباعا اثر بي كل التأثير . أن هؤلاء القسس مخلوقات غريبة ومنهم هذا الشيخ المسن الشبيه بأخر من تبقى من قومية « الأنكا » في بيرو أو بأول امبراطور صيني (الأنكا : كان قوم أنكا من الشعب الهندي القاطن بلاد بيرو القديمة وغيرها من أرجاء أمريكا الجنوبية قد كون امبراطورية عظيمة بلغت شأوا عظيما في التمدن واسم امبراطورهم الاخير « اتهوالبا » أعدمه الاسبانيون الناتحون تحت حكم فرانسيسكو بيزارو في عام ١٥٣٣ ـ شرح المؤلفة في آخر صفحات كتابها هذا) .

ان هذا الكاهن يعرفك ويعرف كل ما يهمك ويعنيك ويقدم خدماته لك متى ما طلبت منه ذلك وحالما وجد أنني أبرزت قصة ارسالي الى « قصر ماجي » نزل من درجات السلم وعبر الساحة وتوسط لي عند الخادمة التي كادت تصرفني لولا مجيئه ثم ظهوره مرة اخرى عند بيت السلم وكيفيه اخذي الى هذه الغرفه ثم الصوره ثم حكايتها المأسويه وكل أعماله التطوعية . ان كل هذه الاحداث الصغيرة تدل دلالة واضحه على حسن طويته واعمال البر التي جبلت نفسه عليها .

ولكي يخدمني اكثر قال لي « يا انسه انا موقن بان المكان الذي تودين الرجوع اليه لا يبعد كثيرا عن هذه الشوارع الغربى بالميناء » فقلت له « يبدو ان المسافه لا تزيد على نصف فرسخ » وقال لي « وسكناك ؟ » فاجبته « في شارع فوسيت » فسالني « هل تقصدين بناية المدام بيك للتلميذات ؟ » فاجبته « هي بعينها » وضرب كفا بكف قائلا « اذن لابد أن تعرفي تلميذي النجيب بول » فقلت له « اتقصد البروفيسور بول عمانوئيل بروفيسور الاداب ؟ » فقال لي « هو ذاته وليس سواه ! » .

وساد سكوت قصير الامد . وتوضحت الامور وشعرت بأنه أذعن للضغط فسألته توا « هل كنت تتكلم عن المسيو بول ؟! وهل كان تلميذك وهو الذي يتبرع للمدام والرافينس ؟ » فقال « نعم ويتبرع ايضا لانس الخادمة العجوز وأكد ـ أكثر من ذلك ـ على أنه العاشق الامين المخلص دائما وأبدا لتلك القديسة الموجودة الان في نعيم الجنة .. جوستين ماري وواصلت كلامي وشددت على السؤال التالي : « وأنت ؟ من أنت يا أبي ؟ » .

واجابني « أنا ؟ ـ أنا يا ابنتي ؟ أنا الاب سيلاس الابن المطيع للكنيسة التي سبق أن كنت فيها وبكل ثقة اعترفت عندي بما يساور قلبك وبصدق واخلاص . أنا لم أنسك يوما واحدا ولا قل اهتمامي بمصيرك يوما واحدا . والذي قاله الكاهن أثر في تأثيرا خاصا واستأنفت التحدث عن المسيو بول فقلت له متسائلة هل أن المسيو بول يسكن هنا ؟ » فقال لي كلا ! انما ياتي أحيانا ليصلي ولكي يعترف عندي وليقدم عظيم احترامه لمن هي في قلبه ويناجي أمه وله غرفتان هنا وليس له خادم ولا يطالب المدام والرافينس بالجواهر التي تستعملها والتي كان قد أعطاها اياها وهي تفخر بها وتقول أنها تعود الى أيام شبابها ومن مخلفات ولدها الجواهري وثروته » .

twitter @baghdad_library

وقلت أدمدم لنفسي « ما أكثر ما يفتقر هذا الانسان المسيو عمانوئيل الى شهامة وما أعظمه في الاشياء الاخرى » وسألت الكاهن « منذ متى توفيت هذه السيدة ؟ » وأومأت الى صورة جوستين ماري فاجابتني « توفيت منذ عشرين عاما فقد كانت تكبر المسيو بول فتيلا وكان هو شابا والان لا يزيد عمره على الاربعين عاما » ٠

وقلت للكاهن « الا يزال يبكي عليها ؟ » فقال لي « ان فؤاده سيظل يندبها على الدوام ومن مميزات المسيو بول وطبيعته الثبات والولاء » وهذه العبارة قالها تشديدا ٠ وفي تلك اللحظه اشرقت الشمس شاحبة وهزيلة رغم ان المطر استمر نزوله ولكن العاصفه تلاشت وتلك القبه الزرقاء الحارة شقت طريقها وصبت وسكبت ما في بروفهـا ولو تاخرت العاصفة اكثر لما بقي من النهار شيء يتيح لي ان اعود ٠

ولهذا نهضت وشكرت الاب لحسن ضيافته وقصصه وودعني ودعا لي بالسلام وهو ما رحبت به ثم عدت ووصلت الدار في الوقت المحدد وقت الغروب وكان غوتون قد ابقى لي طعاما شهيا لعشائي واستدعتني المدام بيك الى الغرفة الصغيرة لاقاسمها الطعام والشراب وطهرت وبيدها كاس من الشراب وهي تضحك ضحكة خافتة وبادأتني السؤال « كيف كان استقبال المدام والرافينس لك ؟ » فقلت لها « انها مخلوقة غريبة شاذة » ثم أخبرتها بالذي حصل حرفيا فقالت « يا لها من حدباء قصيرة شاذة ٠ تصوري انها تكرهني لانها تظن أنني أحب ابن عمي بول وان بيننا علاقة غرامية ٠ انه اذا أراد أن يتزوج فلا طاقة له على ذلك لان عائلته كبيرة العدد كوالرافينس والاب سيلاس والسيدة اغنس ومجموعة من العائلة غير المعروفة أسماؤهم » ٠

وقالت لي « لا يوجد رجل مثله يضع على عاتقه أعباء أثقل مما يقوى على الاضطلاع بها ويتطوع لتحمل مسؤوليات لا موجب لتحملها علما بانه يحمل فكرة رومانتيكية عن فتاة شاحبة الوجه اسمها ماري جوستن يتصور انها ملاك سماوي ومر على هذا الحادث عشرون عاما وفي رأيي أنها لم تكن سوى مخلوقة غبية (وهذه كانت ملاحظات لا لزوم لها للمدام بيك) ٠ ويريد هو أن يلتحق بها ويتخلص من كل الروابط الارضية ويقول انها زهرة نقية ٠ انك ستضحكين لو عرفت جماعة المسيو بول هؤلاء من المنحرفين والشاذين ٠ امنعك الان من تناول المرطبات وعليك بدلا من ذلك أن تتناولي عشاءك وتشربي شرابك وانسي كل شيء عن الملائكة والحدباوات والبروفيسورية ووداعا ٠

الفصـــل الخـامس والثـلاثون

ـ التـــأخـــي ـ

المدام بيك امرأة عاقلة وما كان عليـــها أن تتفوه بتلك الكلمـات فذلك خطأ وكان عليها أن تبقيني هـــادئة في تلك الليـــلة لا ان تهيج أعصابي · لقد كان ذوو الارؤس الحكيمة يظهرون كم كان المسـيو بون شخصية جيدة وخلقوا من ذلك الرجل القميء بطلا صغيرا لا لطخة عليـه ثم أخذوا يشرثرون عن سلوكه في الحب واي برهـان لي مثل ذلك اليوم يثبت ما اذا كان في الواقع يستطيع أن يحب أولا ·

لقد عرفته غيورا شكوكا كما عرفته عاطفيا ورقيقا كالهواء الدافيء ورحوما كقطرة الندى المبكرة وجافا متيبسا بحرارة شذوذياته وهذا كان كل ما شاهدته عنه وعرفته به وقد فتح كل من الاب سيلاس والمحتشمـة المدام بيك قلبه وأروني حبا عظيما له وتشبثا منه بالروح الخالدة وبكل فوز ومعتقد بدليل أنه وقف الى جانب القبر يحرسه عشرين عاما ·

وهذه فعلة لا عجز أو تكاسل أو مضيعة للوقت أو عن انغماس حي أو من أجل اطلاق العنان لاهوائه فقد برهن على ولائه بتكريس أفضـــل طاقاته لغاية تتسم بنكران الذات وأكد عليها بتضحيـــات شخصية غير محدودة وتخلى عن الانتقام وحمل صليب السلام وشعاره · والان أعرف حقيقة ما كانت عليه جوستين ماري كما لو أنني سبق أن شاهدتها ففي مدرسة المدام بيك شبيهات بها ·

انها هادئة رابطة الجاش بطيئة في حركاتها شاحبة الوجه نوعا ما ولو انها حملت أجنحة الملائكة فانني على علم ممن يناجيها من الشعراء واذا كان جبينها يلتمع بازدهاء نير وبانعكاس الهالة فانني أعرف في نيران أي قوس قزح تكونت دائرة الشعلة المقدسة · وهل علي أن أخاف وأجزع من جوستين ماري ؟ وهل أن صورة راهبة شاحبة ميتة تستطيع أن تقيم حاجزا أبديا ؟ وماذا عن أعمال البر والاحســـان التي استحوذت عـلى

twitter @baghdad_library

اهتماماته الخيرية في العالم ؟ وماذا عن قلبه الذي آل على أن يصبح أعزب الى الابـــد ؟ ٠

يظهر أيتها المدام بيك وأيها الاب سيلاس انكما لم تفكـرا بهـذين السـؤالين اللذين يحيران المرء أيما حـيرة فهما أقوى عائقين واعظـم حافزين أحسست بهما في حياتي فقـد ظللت أسابيع عـديدة بنهاراتهـا ولياليها أنام وأحلم واستيقظ بسببهما وليس في العالم كله جواب لهما الا اذا استثنينا أن هنالك رجلا قميئـا داكن الاسمرار سـبق أن وقف وجلس وتمشى وألقى المحاضرات مرتديا سترة (بالطوية) تافهة الشكل مبقعة بالحبر علاوة على بعض الاغبرة والاتربة عليها ٠

وبعد زيارتي تلك لشارع « دي ماجي » أردت ملاقاته مرة أخرى وشعرت أنه لو درى بما أعرف عنه الان فان محياه سيتخذ اشراقة جديدة أكثر اثارة للاهتمام من سابقها كما شعرت برغبة في أن اكتشف فيـــه سمة ذلك الاخلاص الفطري ودلائل الفروسية وشهامة انصاف الفرسان وعدالة القديسين وهو ما أضفاه عليه القسيس بما رواه عنه فقد أصبح في نظري « بطلي المسيحي » وعلى هـــذا الاساس وهـــذه الميزة أحببت أن أشاهده ٠

ولم تبطيء الفرصة فقد منحت موافقة مقابلته ، مقابلة ٠٠ البطل المسيحي ٠٠ ولم تكن المقابلة بطولية جدا ولا حساسة أو دينية جدا وانما كانت مقابلة حية الى حد ما بالطريقة التي حصلت فيهـا عنـد حـوالى الثالثة بعد الظهر وسط سيادة هدوء الصف الاول بعيـــدا عن حضـور المدام بيك التي كانت منشغلة في تقديم واحد من دروسها المفيدة ٠ ولم يعكر ذلك السلام الا انفجار غضوب مفاجيء لصاحب (البالطو) ٠

وفي تلك اللحظة لم يكن هنالك من هو أهـــدأ مني ومن هو أقـل تعرضا للمسؤولية من جراء غياب المدام بيـك فجلست مسـرورة وأنا منكبة على رحلتي التي كنت استخدمها لرسومي وكنت أرسم حفرا ما هو تكملة لموضوعي الاصلي وتلك كانت طبيعتي العملية في الفن ومن الغريب أن أقول أنني كنت جد متلذذة بعملي حتى أنني أخذت أنتج صورة طبق الاصل لالواح وحفريات فولاذية صينية عظيمة القيمة وغزل صوفية طويلة الالياف وكنت شديدة الاهتمام بصنعها في تلك الايام ٠

وماذا كان سبب الهياج ؟ لقـد جمع صـاحب « البالطو » رسومي

ونحوتي وأقلامي ونسختي التي صنعتها حفرا بيدي وألقاها بعيدا عن ناظري وبدا علي الارتعاش وهياج الخاطر وأبعدت عن كرسيي كجوزة الطيب المهشمة التي يرمي بها الطباخ المنفعل وخسرت الكرسي والرحلة وفي لحظة تابعت أثاثي وأشيائي التي رمى بها بعيدا بكل همجية وفي غضون دقيقتين كنت أنا وإياها في وسط الصالون الكبير وهي غرفة واسعة مجاورة كبيرة الحجم قلما تستخدم الا في حالات أخذ دروس الرقص والغناء الكورسي ٠

وبعد أن استجمعت ـ بنوع ما ـ أحاسيس الفزعة وجدت نفسي بحضرة شخصين نبيلين أحدهما أسمر اللون والاخر نير الوجه ، وللواحد منهما سيماء العسكري الصارم يرتدي معطفا ضيقا مزركشا بشريط زيني وللاخر سمات التلميذ غير المكترث أو سمات الفنان ولكلاهما شاربان كثان كبيران ولحيتان امبراطوريتان تمتد شعراتهما من الوجه الى الذقن وقد وقف المسيو عمانوئيل بعيدا عنهما بنوع ما وشرر الغضب يتطاير من عينيه والتفت الي من منبره قائلا :

أيتها الانسة ٠٠ واجبك أن تبرهني لهذين السيدين النبيلين (الجنتلمانين) على أنني غير كاذب وعليك أن تتجاوبي بأفضل ما في وسعك على الاسئلة التي يوجهانها اليك وعليك أن تكتبي عن أي موضوع ينتقيانه لك وفي رأيهما أنني أحتل مركز دجال مجرد من المثل الاخلاقية ويقولان عني أنني أكتب مقالات وأضع أسماء التلميذات عمدا تحتها على أنها لهن وأفخر بهن كتلميذات نجيبات فاهمات وبوسعك أن تدحظي مثل هذه التهم ٠

يا للسموات السامية !! ههنا محنتي التي طالما حاولت التملص منها ومن مجابهتها منذ مدة طويلة نزلت علي الان كقصف الرعد ٠ ان تينك الشخصيتين المهندمتين الساخرتين بشاربيهما الرائعين لم تكونا سوى اثنين من البروفيسورية البارزين (الغندورين) المتأنقين من الكنية هما المسيو بواساك والمسيو روشمورت المتأنقان المتحذلقان والشكوكيان الساخران ٠

ويبدو أن المسيو بول قد أعطاهما بشكل متسرع شيئا كنت قد

twitter @baghdad_library

كتبته تأليفا ولم يمدحه بوقته ولم ينوه عنه فط أمامي وكنت قد نسيت أمره بمرور الايام ولم يكن المقال مما يلفت النظر أبدا واذا كان قد لفت النظر فبالنسبة لمعدل الكتابات التي كانت التلميذات الاجنبيات يكتبنها فمثلا قلما كان من الممكن في مدرسة انكليزية أن يثير انتباه أحد او اهتمام أحد ووجد ذانك البروفيسوران أن من الاصوب أن يستجوبا كاتبته ليجدا ما اذا كان في الامر حيلة أو خدعة وعلي الان ان أدلي بشهادتي وبينتي عن الموضوع وعن أحقية ما جاء فيه ، أي أنني سأخضع الى عذاب امتحانهما ٠

وساد مشهد جدير بالذكر عندما شرعا معي بالقضايا الكلاسيكية ثم بالتاريخ الفرنسي ولم أكن أميز الا بمشقة بين ميروفييه وبين فاراموند وامتحناني في أحد الفروع العلمية فهززت رأسي قائلة « لا اعرف عنه شيئا » وبعد برهة تعبيرية شرعا معي في قضايا المعرفة العامة واختارا موضوعين كنت على المام تام بهما وتحدثت بهما باسهاب ٠

ان المسيو بول الذي كان آنذاك واقفا مكسوفا كالانقلاب الشمسي الصيفي أو الشتائي استنار وجهه الان نوعاما وفكر في نفسه بأنني لن اظهر بعد الان أمامهما حمقاء او غبية وأدرك خطأه ومع ان اجوبتي على الاسئلة التي كانا يطرحانها علي كانت سريعة وكان ذهني كالبئر المليئة وكانت الافكار زاخرة فيه ولكن كانت الكلمات تخذلني فاحيانا لم اقو على الكلام واحيانا ما كنت أريد أن أجيب وفي ظني أن اعصابي كانت تزوغ عن الصواب لتوترها ، هذا من الجهة والواحدة ، ومن الجهة الاخرى كان مزاجي منغلقا وعلى غير ما يرام ٠

وسمعت أحد الممتحنين ـ صاحب المعطف الضيق ـ يقول همسا « الست تراها غبية ؟ » فأجابه الاخر « نعم ٠٠ هي كذلك وستكون دائما غبية مثلك تماما » وأنني ذلك كل الايلام وشعرت بقسوة كلماتهما ووجدت جبين المسيو بول يتندى وعينيه تتحدثان عن تقريع عاطفي حزين ومع انه لم يكن يؤمن بافتقاري الكلي الى الذكاء العام الا أنه كان يظن أن في قدرتي التأهب والقيام بالعمل اذا قررت ذلك ٠ واخيرا لكي أنقذه وانقذ البروفيسورين وأنقذ نفسي تمتمت لهما بقولي « أيها

السيدان ·· أرى أن من الافضل أن تخليا سبيلي ولن تفيدا مني شيئا فكما قلتما أنني غبية » ·

وكان بودي لو أنني تكلمت بهدوء وبعزة نفس وكان بودي أيضا لو أسعفتني مشاعري لكيما أضبط لساني وأمسك به غير أن ذياك اللسان الغادر عجز عن أن يفي بما كنت أريده منه فتلعثم وتخاذل · وبعد ان شاهدت القاضيين يرمقان المسيو بول بنظرة انتصار عنيفة وسمعت اضطراب صوتي الوجيع انبجست الدموع من مقلتي وشرقت بها · وكانت هذه عاطفة غضب لا عاطفة أسى ولو كنت بقوة الرجل لعلمت ذينك الشخصين درسا ولتحديتهما في المكان ذاته ولكنها كانت عاطفة حبذا لو أنني استطعت معاقبتها بدلا من ابرازها » ·

ذانك العاجزان ·· ألم يشاهدا في الحال يد المبتدئة الغام في ذلك الانشاء الذي اسمياه تزويرا وتسويفا ؟! لقد كان الموضوع كلاسيكيا وعندما أملى على المسيو بول ما ينبغي أن أفعله للبدء بموضوعي سمعت ذلك لاول مرة لان الموضوع كان جديدا علي ولم تكن لي المادة الكافية لمعالجته ، بيد أن الكتب كانت جاهزة لدي وقرأت عن الحقائق وأوجدت مخطط بحث عن العظام اليابسة للواقع ثم كسوتها بالاقمشة والملابس وحاولت أن أنفخ فيها الحياة وما كان أعظم فرحي بعد أن بلغت هدفي ومقصودي · وكانت المهمة بالنسبة لي شاقة أنفقت فيها الوقت الى أن عثرت على حقائقي وانتقيتها وأوجدت صلة بينها ولم ادخر وسعا أو جهدا أو وقتا في بحثي حتى اقتنعت بالهيكل الذي صنعته وبتحليله ·

ان قوة مقتي الداخلي لاي عيب أو خطأ يطرأ على عملي مكنتني أحيانا من أن أتحاشى الاخطاء الفاضحة ولكن العلم لم يكن في رأسي مهيئا وجاهزا ولم يزرع في الربيع وينبع في الصيف ويجنى في الخريف ويخزن في الاهراء شتاء حتى اذا أردت الذهاب حيثما أشاء جمعت منها امطري ملء أحضاني واودعتها الجرار والقدور خضراء طرية غير أن المسيوين باساك وروشومورت لم يفهما ذلك ولم يتحسسا به اذ اعتبرا عملي من أعمال احدى المثقفات الناضجات ·

غير انهما لم يسمحا لي بالذهاب مع كل ذلك وعلي أن أجلس وأكتب أمامهما وعندما غمست ريشتي في الحبر بيد مرتعشة ورسمت على

twitter @baghdad_library

ابيضاض الورقة عينين نصف مغمضتين وفاضتين بدأ أحد ذينك القاضيين يعتذر لي برقة عما سببه لي من ألم قائلا لي « اننا نعمل لمصلحة الصدق وليس في نيتنا ايذاؤك وأعطاني ذلك التحقير والسخرية عزما وقوة ومتانة شدت أعصابي ولم أقل له سوى «أمل علي أيها السيد !»·

وسمى روشمورت العبارة التالية ··· « العدالة الانسانية » كموضوع فقلت له « وما شأني بذلك ؟ انها عبارة ذات مدلول وفكرة تجريدية باردة لا توحي لي بأية فكرة ذات مغزى » وكان المسيو بول واقفا وعلى وجهه امارات الحزن والصرامة حيث انتصر عليه هذان اللذان وجها اليه المتهم ونظرت الى كليهما وكنت أجمع شتات شجاعتي لاعلمهما بانني لن أكتب أية كلمة ولن أتفوه بأية كلمة من أجل ارضائهما وأن موضوعهما لا يناسبني ولا يروق لي ولا يوحي وجودهما لي بأي شيء وأن كل من يحاول أن يسدل ظلال الشك حول المسيو عمانوئيل وشرفه يفسد الحقيقة التي يتشدق بأنه بطلها وهممت أن أتفوه بكل ذلك لولا ما أومض في ذاكرتي من وميض فجائي ·

هذان الوجهان الناظرة عيونهما من بين غابة من الشعر الطويل ومن الشاربين واللحيتين ، هاتان الصورتان الباردتان الوقحتان اللتان ليستا موضوع ثقة احد هنا ، نفس الصورتين اللتين شعتا أمامي بكل اشراقة من وراء أعمدة مدخل المبنى الموصل الى « فيليت » وارعبتاني وأنا وحيدة ليلة وصولي اليها عندما سمعت منهما تعليقات وقحة ونابية ضدي والان يسوقان أمامهما أجنبية لا حول ولا قوة ولا معين ولا صديق بعد أن تصيداها مبهورة الانفاس في ساحة من سوح المدينة ·

وقلت في نفسي « أيها المرشدان المسكينان !! أيها الدليلان الكبيران للشبيبة !! لو كانت العدالة الانسانية « هي كما ينبغي أن تكون لما استطعتما المحافظة على منصبيكما الحاليين أو تمتعتما بامتيازاتكما الحالية » وعندما سيطرت هذه الفكرة على خاطري رحت أمضي في عملي وسرعان ما مثلت أمام بصري عبارة « العدالة الانسانية » في زي روائي جديد ·

تمثلت أمامي بزي عجوز شمطاء خبيثة شكسة الطباع تضع يديها

على خاصرتيها · وجدتها في دارها والخدم ينادونها طالبين أوامر منها لمساعدتهم وهو ما لم تفعله والمتسولون يقفون عند بابها ينتظرون لما قد يتجيهم من التضور جوعا وهي لا تعير لهم التفاتا أو اهتماما وحول قدميها حشد من الاطفال والمرضى والمرهقين يتصايحون بعبارات استغاثة طلبا للعطف والشفاء والخلاص على يديها دون جدوى · ان تلك المرأة « المخلصة !! » لم تكن تعبأ بأي من هؤلاء ولماذا ؟ لان لها مقعدها الدافيء الخاص بها بجانب الموقد وتسليتها غليون قصير أسود اللون وقنينة من ويسكي « سويتي سوثينك سيروب » ·

فمن هنا تدخن الغليون ومن هنا تشرب المسكر وهي متمتعة في فردوسها وحيثما تسمع صراخ الارواح المعذبة تصم آذانها بقوة واذا كان المسيو ضعيفا لا حول له ولا قوة فانها تقبض على جهاز اذكاء النار أو فرشاة تنظيف الموقد وتخمد صوته واذا كان قويا عنيفا مليئا بالحيوية فانها تشرع بتهديده وتخويفه ثم تدس يدها في جيبها العميق لتنثر عليه بعض ما تريد أن تعطيه من الفضلات ·

ذلك كان الهيكل التصميمي « للعدالة الانسانية » ان هو الا قصاصة من ورق قدمت بسرعة لخدمة السيدين « النبيلين » بوساك وروشمورت · لقد قرأها المسيو عمانوئيل من فوق كتفي دون أن ينتظر شرحا أو تعليقا مني ثم انحنيت للاستاذين وانسحبت · وفي نفس ذلك اليوم وبعد الدراسة التقيت مرة أخرى بالمسيو بول وبالطبع لم يتم التلاقي بشكل سهل فقد رافقه عظم ناخس · قال لي أثناء التلاقي ان الامتحان الاجباري لا يمكن القبول به بشكل آني ودارت بيني وبينه مناقشة حادة انتهت بأن وصمني بالعبارة التالية « المخلوقة الساخرة العديمة القلب » اعقبه رحيل المسيو الوقتي عني ·

ولم أكن أريد ابعاده نهائيا ولم أكن أشعر بالاسف لو أنني التقيت به مرة أخرى وهذا ما حدث بعد تنزهي في المنطقة المعرشة الكثيرة الاشجار القريبة من الصف فقد لاحظته يدنو من الباب الزجاجي ودنوت منه أنا أيضا أكثر ورحنا نتحادث عن بعض الازهار النابتة حول الباب وشيئا فشيئا أخذ يلقي بسلاحه وبدأ الحوار معي وانتقل الى مواضيع أخرى وأخيرا مس النقطة المثيرة للاهتمام ·

twitter @baghdad_library

ولما كان داريا بان محادثته معي في ذلك اليوم شابها التهور بشكل بارز فقد اعتذر بنوع ما واعلن عن أسفه بشكل ما بيد أنه لمح الى وجوب تقديمي بعض التسامحات له وعلق على ذلك قائلا « وان كنت أدرى بأنني غير مترقع هذا منك أيتها الانسة لوسي فأنت لا تعرفيني جيـــدا وليس لك تصور لمركزي ولا لسيرتي الشخصية أو لتاريخي الشخصي » ٠

وما ان قال « تاريخي الشخصي » حتى تابعت فكـــرته قائلة لـه « كلا ٠٠ أيها المسيو ٠٠ وبالطبع ـ وكما قلت ـ لا أعرف شيئا عـــن تاريخك ولا عن مركزك ولا عن تضحياتك ولا عن أي حزن من أحزانك أو أية محنة من محنك أو ميل من ميولك أو نزعة ن نزعاتك أو اخلاص من اخلاصاتك ٠ نعم ـ٠ لا أعرف شيئا عنـك فأنت بالنسبة لي غريب تمـــاما » ٠

وقال متمتما بلهجة مشوبة بالتعب والاستغراب وهو يقوس حاجبيه «هل هذا صحيح ؟ » وقلت له « أنت تدري أيها المسيو أنني لا أشاهدك الا في الصف مقطب الجبين صارما بمقيدتك المعروفة متسرعا ومتعاليا ولـــم اسمع عنك في المدينة أكثر من أنك كثير الاشغال والحيـوية والنشـاط عنيد ومتصلب في آرائك ، وسريع في اتخاذ القرارات ومتسرع في القيادة ولكن بطيء في الاقناع لا تلين لك قناة » ٠

ومضيت في كلامي قائلة له « ان رجـــلا مثلك لا رابطة تربطـه الاخرين لا يمكن أن تكون له صلات أو تبعيات أو مهمات أو واجبات ٠ اننا نحن اللواتي لنا معك صلة لسن سوى آلات تسخرها وترمي بهـــا هنا وهناك دون أن تأخذ في اعتبارك مشاعرهن وأحاسيسهن ٠ أنت تنشد استجماماتك في الاماكن العامة تحت أضواء الثريات وما هـذه المدرسة وتلك الكلية الا ورشتا عمل لك حيث تضع فيهما بضاعتك وسلعتك من التلميـذات ٠ وليس لي أي عـلم عن المكان الذي تعيش فيه كسيكني ، ومعنى هذا أنه قد لا يكون لك دار سكنى وأنك لست بحاجة اليها » ٠

وقال لي « ها أنا محكوم عليه ٠ ان رأيك في كان ولا يزال كما هو ففي رأيك أنني لست رجـــلا ولا عقائديا وأنني مجـرد من كل أسباب العطف لا تربطني رابطـــة بصـديق أو بعـائلة ولا تسيرني عقيـــدة أو مبدأ ٠ حسنا أيتها الانسة هذا هو جزائي في هذه الحياة » وقلت له

وانا أنظر الى سترته البالطوية التي أخذ يعبث بها خروجا على قواعد الانسانية « انك فيلسوف أيها المسيو ... فيلسوف ساخر » .

وقال لي « وأنت طاهرة الذيل كيسة ورقيقة .. ايتها الانسة انك قاسية القلب في التعامل الى درجة بعيدة » وقلت له « والان باختصار أيها المسيو انك لابد عائش في مكان ما فقل لي أين تعيش ؟ وما هو عدد الخدم الذين تستخدمهم في دارك ؟ » ويتصور فكري منيف جدا من تحت شفته يدل على الاحتقار والسخرية باجلى معانيها قال لي منفجرا من الغيظ « انني أعيش في حفرة أيتها الانسة .. في جويفة كهف لا تستطيعين أن تزجي فيها بانفك ولقد تحدثت مرة حديثا تخلله عار عدم ذكر الحقيقة كلها . تحدثت عن « دراستي » في تلك الكلية وأدري الان أن تلك الدراسة هي مقري كله فغرفتي فيها وقاعة استقبالي أما عن عدد خدمي (وراح يقلد صوتي) فانهم عشرة ، قال ذلك وقرب أصابعه العشرة من تحت عيني مباشرة » ثم قال بغضب « انني أنظف حذائي وأصبغه والمعه وافرش بالفرشاة معطفي » وكانت جملتي المعترضة « كلا أيها المسيو انك لا تفعل ذلك وهذا واضح جدا » .

واستأنف قائلا انني أرتب شؤون فراشي واقوم باعمالي المنزلية بنفسي واتحشى في مطعم على هواي وذوقي واقضي أيامي بأعمال شاقة خالية من حب أحد وحيدا طيلة الليل وانا ضار بالاخرين وأعيش وحدي كالناسكين ولا أحد يعيش في هذا العالم يكن لي الحب باستثناء بعض القلوب المسحوقة انسحاق قلبي وبعض الادميين البائسين المعدمين المعانين مالا وروحا الذين لا تمتلكهم ممالك هذا العالم » وقلت له « آه ... أيها المسيو .. انني أعرف » .. وقاطعني قائلا « ماذا تعرفين ؟؟ هل تعرفين أشياء كثيرة ؟ يقينا انني أعرف أنك لا تعرفيني يا لوسي » .

وقلت له « أنا أعرف أن لك دارا قديمة جميلة في شارع قديم بهيج من شوارع منطقة « البيس ـ فيل » فلماذا لا تذهب وتسكن فيه ؟ » وتمتم بلهجة المستغرب وقال « حقا ؟ ! » وقلت له « أنني أحب تلك الدار كثيرا أيها المسيو .. أحبها بدرجات سلمها المنخفضة صوب الباب وبأشجار السوسن الرمادية الكائنة في مقدمتها وبأشجارها المتمايلة ذات

twitter @baghdad_library

اليمين وذات الشمال في مؤخرتها - انها أشجار حقيقية وليست شجيرات أشجار داكنة الاخضرار متعالية صوب السماء ومن النبت القديم وباستطاعتك أن تجعل من تلك الغرفة موقع دراستك فهي غرفة هادئة ورزينة » .

ورنا الي عن كثب وسألني بابتسامة ممزوجة بتورد بشرة وجهه « من أين عرفت ذلك كله ؟ ومن أخبرك بذلك ؟ » فأجبته لا أحد أخبرني بذلك .. فهل تتصور أيها المسيو أنني حلمت بذلك حلما ؟ » فقال لي « هل لي ان ادخل في خيالاتك ورؤاك ؟ هل لي أن أحزر أفكار امرأة يقظة غير نائمة ناهيك عن خيالها وأحلام يقظتها ؟ » فقلت له « اذا كنت تتصور أن هذا حلم فلأروه لك !! وجدت في حلمي كائنات بشرية ودارا وشاهدت كاهنا شيخا محدودب الظهر أشيب الشعر وتزيلة مسنة أيضا وصورة رائعة وسيدة فاخرة الملبس ولكنها غريبة يصعب أن يصل رأسها الى مرفقي وجمالها الرفيع يستطيع أن ينقد دوقا ويفتديه من ذنوبه » .

لقد كانت ترتدي بدلة وضاءة كالسليكات المحتوي كبريتا ذات لون ازرق باهتا وشالا يسوى ألف فرانك تزينها حلي وزخارف يا لبهائها وسنائها ولم أشهد مثيلا لتلك اللآليء الجميلة غير أن صورتها بدت كما لو أنها قد انكسرت كسرتين وانحنت قامتها ضعفين وكما لو أنها عمرت أكثر من سني البشرية العامة حتى بلغت الاعوام التي هي كلها مشاق وأحزان فقط ، فقد أصبحت نكدة المزاج حقودة ولكن هنالك - مع كل ذلك - من يبدو أنه يهتم بها في عجزها وسقمها ، من يبدو أنه غفر لها خطاياها وآثامها على أمل أن تغفر له خطاياه وآثامه هو أيضا وعاش هؤلاء الثلاثة السيدة والكاهن والخادمة وثلاثتهم مسنون وعاجزون يأوون تحت سقف واحد وجنح حنون واحد » .

وغطى بيده القسم الاعلى من وجهه دون أن يخفي فمه الذي لاحظت أنه يتحرى عن تعبير يعجبني وقال لي « لقد تغلغلت في عمق أسراري فكيف تم لك ذلك ؟! » وأخبرته عن المهمة التي أرسلت لانجازها والزوبعة التي احتجزتني في الدار وفظاظة طبع السيدة ورقة الكاهن وعطفه وعندما جلست أنتظر انقطاع انهمار المطر أمضى الاب سيلاس الوقت بقصة رواها لي « وقال لي قصة ؟ » « أية قصة ؟! .. الاب سيلاس

ليس روائيا أو قصصيا أو رومانسيا » وقلت له « هل يسمح لي المسيو بسرد القصة ؟ » ٠

وأجابني قائلا ٠٠ « نعم ٠٠ اشرعي من الاول ودعيني أسمع لغة الانسة لوسي الفرنسية الجيدة أو غير الجيدة دون أن أهتم بالتمييز بينهما ودعينا نسمع عن نكهة البربرية والبرابرة لنبرة الجزيرة » وقلت له « لن يكون المسيو راضيا عن حكاية ذات ابعاد طموحة مشرقة يتوقف الراوي في منتصفها عن التحدث ولكنني سأقول له العنوان « تلميذ القس » وأجابني بلهجة ازدراء وعدم رضى « ما أسوأ ما أختاره الكاهن المسن الصالح من موضوع ٠ انها نقطته الضعيفة ولكن ماذا عن تلميذ القس ؟ » فقلت له « أشياء كثيرة عنه ! » ٠

وقال لي « عليك أن تعرفي تعريفا جيدا هذه الاشياء فأنا أروم معرفتها » فقلت له « هناك شباب التلميذ ثم رجولته ثم جشعه للمال ونكرانه للجميل وجحوده وعناده وعدم استقراره ومثل هذا التلميذ المسيء أيها المسيو كان عديم الاعتراف بالجميل خلوا من الشعور والعطف عديم الشهامة وعديم التسامح » وقال متسائلا بعد أن وضع سيجاره بين شفتيه ٠٠ « ثم ماذا ؟ ! » ٠

وقلت له « ثم عانى من مصائب وكوارث لم يرحمه فيها أحد وحمل عبئها بروحية لم يعجب بها أحد وتحمل مساوىء لم يعطف عليه أحد من جرائها وأخيرا لجأ الى الانتقام الذي لاتقره الاديان السماوية بحيث أخذ يلقي بكميات الفحم الحارقة على رؤوس خصومه» وقال لي «لم تخبريني عن كل شيء» فقلت له « في ظني أنني أخبرتك عن كل شيء » وأشرت الى عناوين فصول الاب سيلاس فقال لي « نسيت واحدا له علاقة بافتقار الطالب الى الود والمحبة ، واحدا من قلبه البارد القاسي وقلت له « صحيح ٠٠ أتذكر الان أن الاب سيلاس قال أن مهمته هي مهمة الكاهن تقريبا وهي وقف حياته وتكريسها » وسألني « موقوفة على أية واجبات أو مواثيق ؟ » فقلت له « على روابط الماضي واعمال البر المستقبلية » وقال لي « اذن أنت الان ملمة بكل شيء وبالحالة كلها » وقلت له « أخبرت المسيو بكل ما لدي من معلومات عنه رويت لي » ٠

twitter @baghdad_library

ومرت بضع دقائق قال لي في آخرها « والان أيتها الانسة لوسي .. انظري الي وأجيبيني عن سؤال واحد أطرحه عليك عن هذه الحقيقة التي في اعتقادي انك لن تحيدي عنها .. ارفعي عينيك وصوبيها الي ولا تترددي ولا تخشي من أنني غير موضوع ثقتك ، فأنا رجل يمكن الوثوق به » ورفعت ناظري وصوبتها الى ناظريه فقال متسائلا « والان بعد أن عرفتني تمام المعرفة وألمت بكل سوابقي ومسؤولياتي وبعد أن ظللت تعرفين عني وعن أخطائي الشيء الكثير منذ مدة طويلة هل من الممكن أن نصبح أنا وأنت صديقين ؟ » فقلت له « اذا أراد المسيو أن يتخذني صديقة له يسرني أن أقابله بالمثل فأتخذه صديقا لي » .

وقال لي « ولكني أريدك صديقة حميمة ودودة قريبة مني بكل شيء عدا وشائج الدم فهل للانسة لوسي أن تصبح أختا لرجل بائس جدا مقيد بأغلال مرهق بالاعباء ؟ » ولم اقو على الاجابة على سؤاله بالكلمات ومع ذلك أتصور أنني أحببته فأخذ يدي التي استشعرت الامان والراحة في ملمسها يده ، اذ ان صداقته لم تكن منفعة تتسم بالتردد والشك وبالامل البارد البعيد أو بالتحسس السريع الزوال الذي لا يقوى على تحمل ثقل اسبع ، أما أنا فقد شعرت أو تصورت أنني شعرت بتأييده وبدعم قوي منه كقوة الصخرة .

وكرر كلماته التالية بشكل قاطع .. « عندما أتحدث عن الصداقة أعني بها الصداقة الحقة غير انه صعب علي أن أصدق أن الكلمات مهما كانت وقورة ورزينة تبارك أذني وعلي أن أتمن وأقيم هذا النوع والنظرة القلقة التي بدرت منه ولو أنه كان ينشد حقا ثقتي واحترامي وينشد منحي ثقته واحترامه فلماذا تبدى لي بأن الحياة لا تستطيع أن تقدم وتوفر أكثر وأفضل من هذا ولو كان الامر كذلك لاصبحت قوية وثرية وفي لحظة استشعرت قوة السعادة ولكي اؤكد هذه الحقيقة سألته :

« اذا كان المسيو جادا تماما فهل يظن أن حاجته الي ماسة وأنه مهتم بي كأخت له ؟ » وأجابني على سؤالي قائلا « هذا مؤكد .. مؤكد .. ان شخصا وحيدا مثلي ليس له أخت ينبغي أن يسره كل السرور أن يجد في قلب امرأة ما ود الشقيقة الخالص » وسألته « وهل يسعني التجرؤ بالاعتماد على احترام المسيو ووده ؟ وهل يسعني التحدث معه عندما

اريد ذلك ؟ » وقال لي « على الشقيقة الصغرى أن تجرب ولن أعطي وعودا وبوسعها أن تجرب تجاريبها الخاصة مع شقيقتها الصعب المراس الى أن تحوله وفق ما يروق لها وبعد كل هذا أقول انه ليس صعب المراس وعنيدا في بعض الايدي » ٠

وعندما حان يتكلم منحتني نبرة صوته وضوء عينيه الودودتين لذة لم أشعر بها من قبل بحيث قلت لنفسي انني لن أحسد عاشقة ولا عروسة على عريسهـا ولا زوجـة على زوجهـا وامتنعت بهـذا الصـديق الذي وهبني نفسه طوعا واذا استطاع فقط أن يكون موضع ثقة ــ وبدا كما لو انه كذلك ــ فما الذي يطمعني بأكثر من هذه الصـداقة ؟ ولكن اذا ذاب كل هذا وتوارى كما يتوارى الحلم بعد اليقظة ، كما حدث هذا من قبل فماذا يا ترى ؟! » ٠

وقال لي « ما بك ؟ » اذ أن هذه الفكرة ألقت بثقلهـا على فؤادي وبظلها على محياي وأخبرته بما داخلني من شـعور ٠ وبعد لحظة توقف وبعد ابتسامة سبقها تشكير بين لي كيف أن خوفا من هذا القبيل داخله أكثر من يوم ذات مرة واستمر شهرا بطوله ٠ وبعد سماعي هذا منـه داخلتني جرأة مشوبة بالفرح وتجرأت بكلمـة من أجل الاطمئنان لـم يتحملها فقط بل حبذ تكرارها فازدادت بذلك سعادتي ٠

وشعرت بسعادة غريبة في أن أجعله يستقر ويرضى ويطمئن وأيقنت بان الارض لا تحوي أو أن الحيـاة لا تحوي مثل هـذه اللحظـات التي مرت بي الان ففي مرات عـديدة كان من نصيبي أن أتحسس بالحـزن المخيف يحيط بظلماته بي أما أن أجد ــ بلا سـابق توقع ــ أن سعـادة تتبلور في فؤادي وتجد مأوى فيـه ويتعمق وقعهـا كعمق الثواني التي أمضيتها فان ذلك لم يكن ــ لعمري ــ الا تجربة جديدة مررت بها فعـلا ٠

وسألني المسيو بول بصوت خفيض واطيء وهو لا يزال ممسكا بيدي « هل شاهدت صورة في « بدوار » السيدة (حجرة نومها) صورة معلقـة في ذلك المنزل القديم ؟ » فاجبته « نعم وجدتها وهي مصورة على لوحة » ٠ هي صورة راهبة ؟ » فقلت له « نعم ٠٠ صورة راهبـة وماذا عنهـا ؟ » فقال لي « هل سمعت أنبـاءها ؟ » فقلت له « نعـم » وقال لي « هـل

twitter @baghdad_library

تتذكرين ماذا وجدنا في المنطقة المعرشة ذات الاشجار الكثيفة ؟ » فأجبته « نعم ولن أنسى ذلك قط » ·

وقال لي « أنت لا تربطين بين الفكرتين لان ذلك من العمق والسخافة بمكان » وقلت له « فكرت بالمظهر الغريب عندما وجـــدت الصورة وكان ذلك أمرا صحيحـــا » وقال لي « انك لا تتخيلين ولن تتخيلي بأن قديســة في السماء تشغل وتقلق نفسها بأمور الدنيا ومنافساتها ومثـــل هـــذه الامور الخيالية المرضة تزعجك وتقلقـــك » فقلت له « لا أعـــرف ماذا أقول عن هذه القضية بيد أنني أؤمن بأن حلا طبيعيا تاما لهـــذا اللغز سيتم التوصل اليه في يوم ما » وقال لي « طبعا ·· طبعا · ثم أنه ليس هنالك من امرأة حية صالحة ناهيك عن روح سعيدة ســـعادة حقيقيـــة تمكر ودنا ·· أليس هذا صحيحا ؟ » ·

وقبل أن أقوى على الاجـــابة صاحت علي « فيفين بيـــك » بأنني مطلوبة · ان والدتها كانت تروم الذهاب الى المدينة لدعـــوة عـــائلة انكليزية وان وجودي في مثل هذه الحالة أمر ضروري لتقديم خـــدماتي كمترجمة ولم يكن التوقف عن الحديث خطـــأ وطيشا ولابـــد أن يظهر خلال اليوم ظل من ظلال الشر ، غير أن تلك الساعة كانت ملأى بالخـــير ولولا ذلك لكنت راغبة في أن أطرح على المسيو بول السؤال الذي يعرفني في اجابته عليه على ما اذا كانت الخيالات المرضية أي الناشئة عن مرضي التي حذرني منها موجودة في ذهنه فعلا أم لا » ·

الفصـــل الســـادس والثـــلاثون

ـ الشـــقاق والحســـد ـ

علاوة على والدة فيفين بيك تحـدث شخص آخر عن المسيو بـول وعني قبل أن يتعزز ميثاق الصداقة بيننا وقد يسألني القارىء « لماذا كنت مبتهجة بصداقتك مع المسيو بول ؟ ألم يكن منذ مدة طويلة صديقا لك ؟ ألم يقدم البرهان تلو البرهان على تحيزه ومحاباته في مشاعره ؟ » أما أنا فاقول له « نعم ·· هذا صحيح ولكني لا أزال راغبة في أن يؤكد لي بأنه صديقي الحميم · انني أحب شكوكه المعتدلة البسيطة واحترامه واذعانه اللطيف الرقيق وتلك الثقة المشتاقة للراحة التي يمتن من كل من يعلمه كيف تكون » ·

لقد أسماني شقيقته وهذا أمر حسن · نعم ·· يستطيع أن يسميني ما يشاء طالما أنه وثق بي وأفضى لي بدخيلة نفسه وبيـلواه وكنت اود لو أنني أخته شريطة ألا يدعوني لاملأ تلك العـلاقة لزوجته المستقبلية وال على نفسه ضمنا أن يمتنع عن الزواج فمن حيث هذه المعضلة أو هذا المازق لا يوجد خطر كبير منه كما يبدو ·

وخلال معظم ساعات الليلة المتعاقبة فكرت مليا في لقاء تلك الامسية واشتقت لطلوع الفجر وانبثاقه بسرعة لاسمع صـــوت الجرس المدرسي ويعد أن نهضت من فراشي وارتديت ملابسي أديت الصلوات وتناولت فطوري ببطء وتخلفت الساعات وتباطأت حتى جـــاءت ساعة تدريس الادب للصف وكانت رغبتي في أن أتوسع أكثر في التفكير بذلك التحالف الودي الاخوي لادرك كم من قدر الاخوة سيحط علينا عند لقائنا القادم ولا أدرك كم من القدر الاختوي سيظل في مشاعري الخاصة حينذاك، ولاكتشف كم سأستبقي من شجاعتها وكم هو سيستبقي من اخلاصه الاخوي ·

وجاء ·· ان الحياة هي من الترتيب والنظام بحيث ان الحـــديث

twitter @baghdad_library

لا يمكن أن يضارع التوقع ولا يستطيع فالنهار بطوله لم يدن مني ولم يكلمني وأعطى درسه بهدوء يزيد على ما اعتاد عليه وبلطف أكثر ورزانة ووقار أكثر كما لو أنه أب للتلميذات الا أنه لم يكن أخا لي فقبل مغادرته المدرسة توقعت منه ابتسامة ان لم يكن كلمة ولكن لا هـذه ولا هـذه فما كان مني سوى أن أنكس رأسي فأبت عائدة الى مأواي خجلة من نفسي ٠

وقلت لنفسي ربما كان هـذا من قبيل الصدفة وقـد يكون أمرا لا طوعيا ومن قبيل الصبر وطول الاناة وسيمضي ذلك دون رجعة ولكنه لم يمض واستمر أياما بطولها وتزايد فكبحت استغرابي وقمعته وازداد كل ما بدا لي من الاحساسات الجائشة ، والان هل لي أن أسـأل عندما عرض علي أخوته هل أنه قال متسائلا ما اذا كان يروم الاعتمـاد علي وهل أن بوسعه أن ينقض عهده وهو عارف نفسه حق المعرفة ؟ ٠

صحيح أنه وافق على أن أختبره بنفسي واضعـه تحت تجـاربي الخاصة كما يحلو لي ٠٠ أنها لوضعية عابثة وانـذار عابث وامتيـاز لا وجود له ٠ ان بعض النساء قد يلجـأن الى ذلك ولا شيء في قدراتي الغريزية يضمني في مصاف هذا الفريق النسوى الشجاع ٠ لقـد تركت وحيدة لا أقوى على عـمل شيء ، وتركت مدحـورة خائبة ثم انسحبت وحاولت نسيان أو تجاهل كل شيء بيد أن شقتي لم تنطقا بكلمة وعيناي كانتا بحاجة الى ما يذكرها بشيء ٠ يبدو أن هناك خطأ ما في تقديراتي وانتظرت مجيء الوقت ليكشف عن هذا الخطأ ٠

وجاء النهار وكان عليه ـ كالمعتاد ـ أن يعطيني درسـا ففي ذات أمسية عندما كانت الساعة تدق السابعـة تعب معي ووهبني من جهـده بسخاء ما كرسه للامتحان الذي كان يجري بدراسات مختلفة خلال الاسبوع الماضي واستعدادا لاعمال الاسبوع الذي يعقبه وفي حالات كتلك كان صفي في كل مكان حيث الطالبات والمعلمات والمعلمون الاخرون حيثمـا يكونون وبجوارهم وفي الاغلب في الفرع الثاني الكبـير حيث من السـهل اختيار زاوية هادئة أو منعزل هاديء وذلك يحدث عندما تغيب الطالبات النهاريات الكثيرات العدد وحيث تتجمع بعض الطالبات الداخليات حول منصة المشرف ٠

وعند الامسية المعتادة سمعت دقة الساعة المألوفة فجمعت كتبي وأوراقي وريشتي وحبري وقصدت الفرع الثاني من الصف ولم أجد أحدا هناك سوى الظل البارد العميق ولكنني وجدت من خلال الابواب الثنائية المفتوحة قطعة الارض المربعة الزوايا وهي ملأى بالطالبات وتعج بالاضواء حيث ضوء الشمس المتورد ملقى على القاعة وعلى الاشخاص الموجودين فيها بسنائه الرائع الزاهي حيث ألوان الحيطان وظلال ألوان الملابس المرقشة المزركشة تبدو كلها موصولة بتوهج واحد ودفؤ واحد ٠

كانت الفتيات جالسات يعملن أو يدرسن وفي وسط دائرتهن يقف المسيو عمانوعيل يتحدث بمودة ورحابة صدر مع احدى المعلمات وسترته البالطوية السوداء وشعره المعجعج مشوبة بالكثير من انعكاسات اللون القرمزي ووجهه الاسباني يجيب ـ عند تحويله في لحظة خاطفة ـ على قبلة الشمس الحارة المفعمة بالحيوية بابتسامة ملؤها الحيوية واخذت مكاني بينهن على احدى المرحلات ٠

وكانت أشجار البرتقال والعديد من النباتات الاخرى المزدهرة تستدفيء أشعة الشمس الوفيرة الضاحكة طيلة النهار والان تبدو بحاجة الى مياه وكانت للسيد بول هواية العمل في الحديقة فهو يحب أن يعنى بالنباتات ويرعاها وكنت أرى في عمله ذاك بالمجراف أو بجرة السقي هدهدة لاعصابه التعبة واراحة لها وهو ما غالبا كان يفعله والان اخذ يعنى بأشجار البرتقال والنباتات الغرنوفية وأورادها وأوراقها ونباتات الصبير الهائلة بغية اصلاحها وانعاشها كلها ٠

وكان يعمل ذلك وسيجاره الغالي الثمن بين شفتيه وهو يعتبره من أولى الضرورات ومن دلائل نعم الحياة وفخفختها ٠ وكانت دوائرها الزرقاء تتلوى بشكل جميل بين الازهار وفي ضوء المساء وكف عن التحدث مع الطالبات ومع المعلمات الا أنه كان يعلق بكلمات محببة حول بعض الاشياء الخاصة بالدار من التي تخصه بالذات بوصفه استاذا وكانت هنالك كلبة صغيرة جميلة الشكل باللون الحريري تتعقبه في تنقله بين الاشجار وتنظر الى وجهه بعينين معبرتين وأنزل نظارتيه من عينيه ودلف اليها وانحنى الى جانبها كما لو أنه صورة مصغرة لاسد يحمي مملكته ٠

وكانت هنالك نباتات كثيرة وبما أن الحدائقي الهاوي ظل يأتي بالمياه من البئر الموجودة في الساحة وينقلها بيديه فقد استغرق عمله

twitter @baghdad_library

بعض الوقت ودقت ساعة المدرسة الكبرى مؤذنة بمرور ساعة أخرى ولم تعد تنطلي على المحاضرات والمحاضرين الشباب أخدوعة غروب الشمس فقد ولى النهار وعرفت أن درسي لتلك الامسية ينبغي أن يصبح قصيرا جدا والان انتهى العمل بأشجار البرتقال والنباتات الفرنوفية وأشجار الكاميليا فهل يا ترى سيأتي دوري أنا ؟ ٠

ولكن ٠٠ وا أسفاه ٠٠ توجد في الحديقة نباتات اخرى تسترجب عنايته فهناك شجيرات الورد الجميلة وأجاصها وهناك زهور أخرى منتقاة وأخذت الكلبة الصغيرة تتبع صاحب السترة البالطوية بنباحها وعوائها عبر مماشي الاشجار وخليت بعض كتبي ولم أحملها لعدم وجود الحاجة اليها كلها وجلست أفكر وأنتظر دون أن أعي غزو النسق الزاحف ٠

وكان مرح الكلبة الصغيرة « سيلفي » عند ظهورها مرة أخرى يؤذن بعودة صاحب السترة الشبيهة بالبالطو وأودعت قارورة السقي بجانب البئر بعد أن أنجزت مهمتها وكنت مسرورة جدا في تلك اللحظة حين شاهدت المسيو يغسل يديه في حوض حجري صغير ولم يكن قد بقي أي وقت للتدريس حينذاك ولابد أن يدق في الحال جرس الصلاة ولكن علينا أن نتلاقى قبل أن يدق وأن نتكلم وستظهر في عينيه سانحة قراءة أحجية استحيائه وخجله ٠

وبعد انتهاء وضوئه وقف وهو يرتب بيطء أطراف أردانه ويشخص ببصره الى الهالة الشاحبة في جوز الفضاء المتلألىء ونورها يتوهج خافتا على النافذة الناتئة لكنيسة يوحنا المعمدان وراقبت الكلبة الصغيرة « سيلفي » تلك الحالة بتأمل ، فسكوته وبروده ضايقها وأزعجها وراحت تعوي وتقفز نحوه لوضع نهاية لبروده ذاك واستلفت وضعها هذا انتباه المسيو بول الذي قال عنها « أيتها المخلوقة الصغيرة ، يبدو أن علي ألا أنساك لحظة واحدة » ٠

ووقف عن السير ورفعها الى ذراعيه ومشى الهوينا في الساحة التي تقرب باردة واحدة من خط النوافذ الذي كنت أجلس بالقرب من احداها وتمشى الهوينا بطيئا واضعا كلبة السبانيلي القصيرة القوائم على صدره وهو يوصفها بأوصاف جميلة محببة وبصوت عاطفي رقيق ٠ وعند درجات الباب الامامي التفت الى الخلف وحدج القبة الزرقاء بنظرة أخرى مركزا اياها على الهلال المتعالي فوق الكاتدرائية الرمادية اللون وفوق الابراج القصبية وسقوف الدور البعيدة التي يبهت لونها

لتضمحل في بحر أزرق من الضباب الليلي متنسما هـــواء الغسق العليل وملاحظا اشعاعة الحديقة الموشكة على الخفوت ٠

وعلى حين غرة نظر حوله واذا ببارقة لماعة من عينيه تمحو الواجهة البيضاء للصفوف وتكنس الخط الطويل الملتقى النوافذ ٠ أظن أنه انحنى مسلما ولو أنه فعلها بسرعة بحيث لم يدع لي مجـــالا للرد على تحيتـه العاجلة وبلحظة توارى عن ناظري وظهرت حدود الهلال النيرة شاحبـة في السماء لا ظل لها أمام الباب الامامي المغـــلق ٠ ولملمت كل ما كان عندي فوق الرحلة وحملتها بين ذراعي كومة غير مستخدمة وأعدتها الى مكانها الخاص في الصف الثالث ودق جرس الصلاة فلبيت واجبه ٠

ان يوم غد ليس يوم وجوده في شارع فوسيت فهو اليـوم المكرس كله لارتياده الكلية وراجعت الساعات المتخللة بين التدريس فوجـــدت المساء قريبا وسلحت نفسي لمقاومة ساعاته المملة ولم أفكر فيما لو أن علي أن أبقي مع زملائي وزميلاتي أم أظل وحيدة منعزلة عنهن واستقر رأيي على فكرة الانعزال عنهن ٠

واذا كان هنالك أمل للعزاء في أية لحظـة فما من قلب بشـري في الدار أو رأس يذعن له ما لم يكن مستقره تحت غطاء رحلتي وبعد أن هدأت بين أوراق بعض الكتب أخذت أقط القـــلم الرصاص أو أبري الطرف المستدق لقلم الحبر أو أضع السائل الاســود في المحبرة ، ويقلب مثقل بالهموم فتحت غطاء رحلتي وبيد متعبة قلبت محتـــوياتها فماذا وجـــدت ؟ !

وجدت الكتب المعروفة واحدا فواحدا والمجلدات المغلفة بأغلفـــة ملفوفة قد رفعت وأعيدت الى مكانها بشكل قانط ميئوس منه ولم يكن للكتب محر خاص ولم تكن من الكتب المسلية ٠ ووجـــدت فيها شيئـا جديدا ٠٠ وجدت كراسا ذا لون ارجواني فاتح لم أشاهده سابقا وأعدت تنظيم رحلتي بنفس اليوم ٠٠ ويظهر أن الكراس أدخل في الساعة الاخيرة عندما كنا نتناول عشاءنا ففتحته وماذا تراني وجدت فيـــه ؟ وبماذا حدثني الكراس ؟ » ٠

انه لم يكن حكاية ولا شعرا ولا مقـالا ولا تأريخا ولم يغن أو يرو أو يبحث ، انما كان موضوعا لاهوتيا للوعظ والاقنـــاع بقـلم الاب سيلاس وبـول عمانوئيل ٠ في تلك الامسية لم يتوضح الغروب فالشرق

twitter @baghdad_library

والغرب كلاهما أضحيا غيمة واحدة وما من ضباب الصيف الليلي ليخفف لون المدى الوردي ـ الازرق الا أن ضباباأكثف زحف من منطقة الاراضي . سبخة **فلف منطقة فيليت** الرمادية اللون ، وفي هذه الليلة لابد أن تكون ثارورة **السقي بجانب المشكاة** قرب البئر ٠

وكان المطر يرذ طيلة ما بعد الظهيرة ويسمع صوت سقوطه السريع بهدوء ولم يكن الجو يساعد على الخروج الى الازقة المبللة تحت الاشجار التي تتساقط من أوراقها قطرات المطر ورحت اتسمع الى نباح الكلبة سيلي في الحديقة وكان مباحها من نوع النباح الترحيبي ومن المؤكد أن لم يكن أحد معها ولكن تلك النبحة السريعة المرحة لم تكن تصـــدر الا تكريما لحضور أحـد ٠

وكنت أشـرف من الباب الزجاجي والعريشة المقوسة على المجـــاز الضيق للمنطقة الضيقة المحرمة حيث كانت الكلبة سيلفي تندفع متلألئة في ذلك الطريق المظلم كالزهرة البيضاء غدوا ورواحا وهي تعوي وتقفز وتشاكس الطيور الصغيرة بين الشجيرات وعاينت لمدة خمس دقائق فلم ينجم عن التذير شيء فعدت الى كتبي وفي الحـــال انقطع نباح الكلبـة فعاودت النظر فوجدتها موجودة على مبعدة ياردات عـديدة وهي تهـز بذيلها بالسرعة التي تستطيعها العضلة المحـركة لها وترامت عمليـــة استخدام المجراف بيد لا تكل من العمل ولا تمل ٠

وكان المشتغل هو المسيو بول عمانوئيـــل الذي كان منحنيـــا فوق التربة يحفر في قالب التربة الرطبة بين الشجيرات الكثيرة الحاملة لقطرات المطر ويعمل بمشقة كما لو أن عليه أن يقدم مايوازي أجرته اليومية بعرق جبينه الملتزم ٠ وفي تلك الحالة قرأت مزاجه المنغص فهو يحفر هكذا في الجليد الصلب في أبرد أيام الشتاء عندما تستحثه عاطفة داخلية مؤلمـة سواء أكانت عن انفعال عاطفي أم عن أفكار حزينة لها صلة بتقـــريع الذات فهو يحفر في الوقت الذي يعينه بجبين مقطب وعزم ثابت دون أن يرفع رأسه أو يفتح شفتيه ٠

وراقبت الكلبة ذلك حتى تعبت وبعد فراغ مراوغة كانت تمـرح فيه هنا وتندفع هنالك وتتشمشم هنا وهناك وجـدتني في آخر الامر في الصف وراحت في الحال تركض نابحة كما لو انها تحثني على مشاركتها مرحها أو مجهود سيدها فقد سبق لها أن شاهدتني أتمشى معه أحيانا في

ذلك الزقاق ولا أشك في أن واجبي الان هو أن أنضم اليه بصرف النظر عن رطوبة الجو ٠

واتخذ نباحها شكلا حدا بالمسيو بول الى أن يرفع بصره الى الاعلى وبالطبع أدرك سبب نباحها وعلى من تنبح وصفر لها ليستدعيها فما كان منها سوى أن زادت من نباحها أقوى فأقوى ويبدو أنها كانت تريد مني أن أفتح لها الباب الزجاجي ولما أعيا المسيو بول ما ابتغاه رمى بمجرافه ودنا مني وفتح الباب فتحا جزئيا ٠

واندفعت الكلبية بكل قوتها وقفزت الى حضني وراح كفاها يداعبان عنقي وكان خيشومها ولسانها الصغيران منهمكين بجهد لا مثيل له في مناطق من وجهي وحلقي وعيني أما ذيلها الكث فقد كان يتلوى بحركاته حول الرحلة يبعثر الكتب والاوراق هنا وهناك ٠ وتقدم المسيو بول ليهدىء حركاتها الصاخبة وليصلح ما أفسده ذيلها المتحرك باستمرار وبعد أن جمع الكتب وأمسك بها وضعها تحت سترته البالطوية حيث استكانت استكانة الجرذي ولكن رأسها ظل ينظر فقد كانت صغيرة الحجم جدا ولها أكثر الاوجه براءة وجمالا وأطول الاذنين نعومة وأروع العينين سوادا في العالم

وأخذ المسيو بول يداعبها ويربت على ظهرها وتلك التربيتة التحبيبية لم تثر الدهشة لان تلك الحيوانة كانت تستثير الود بجمالها وحيوية حياتها وبينما كان يربت ظهر الكلبة ويلاطفها وقع بصره على الاوراق والكتب المعادة الى محلها واستقر على الكراس الديني وتحركت شفتاه وهم في أن يكبت ما يريد أن يقوله ٠٠ ماذا ؟! ٠٠ هل عاهد نفسه على ألا يكلمني بعد ذلك ؟ واذا كان الامر كذلك وربما وجدت طبيعته الافضل أن التعبير عما عاهد نفسه به يكون مشرفا أكثر لو أنه خرقه بدلا من أن يرعاه ويحترمه لانه بالمجهود الثاني الذي بذله تكلم معي متسائلا اياي « ألم تقرئي الكراس بعد ؟ ! يظهر انك لم تقرئيه واذا كنت قد قرأتيه ألم تجديه مشجعا ومغريا بما فيه الكفاية ؟ » واكتفيت بالجواب التالي ٠٠٠ « لقد قرأته ! » ٠

وانتظر متوقعا تعليقي عليه ورأيي به دون أن يسألني الا أنني كنت في وضع نفساني لم يسمح لي بأن أقول أكثر من ذلك « واذا كان هنالك مسلمات وحقوق ممنوعة فانها تقع على التلميذ المطواع جدا للاب سيلاس وليس علي » ٠ واستقرت عيناه علي برقة ووداعة

twitter @baghdad_library

واستشففت الحنان في شعاع عينيه الزرقاوين مشوبا بآثار القلق وظل يثير الشفقة ووجدت معاني مركبة ومتناقضة ونوعا من الملامة يذوب فيستحيل ندما ٠

وربما كان يسره في تلك اللحظة أن يكتشف حسا عاطفيا في بيد أنني لم استطع ابرازه وفي لحظة أخرى كان علي أن أتخلى عن الارتباك لولا أنني اعتزمت أخذ بعض البراعات وأقلام الريشة من رحلتي لكي أشرع بتصليحها بهدوء ٠ وكنت على علم من أن اي عمل سيحدث تأثيرا على مزاجه فيحركه لانه لم يكن يريدني المضي في تصليح أقلامي اطلاقا وكانت سكيني القاطعة مفلولة وكليلة دائما ولم تكن يدي بارعة في مثل هذه الشؤون وأخذت أقط وأشظي على شكل رقاقات وحدث أنني جرحت اصبعي شبه متعمدة متوخية اعادته الى حالته الطبيعية لياخذ راحته في توجيه اللوم والتوبيخ الي ٠

وصاح أخيرا « هذه الخرقاء ستفرم يدها فرما » ووضع الكلبة أرضا وأخذ مني أقلام الحبر والمقطاطات وأخذ هو يقط ويقرض ويحدد ويروس الاقلام بدقة الالة وبسرعتها وخفتها ووجه الي السؤال التالي وهو منهمك في عمله « هل راق لك الكراس ؟ » وقلت وأنا أكتم تثاؤبه « من الصعب أن أقول ! » وأظن أن سنة من النوم تملكتني نوعاما وكرر السؤال « ألم يؤثر فيك الكراس ؟ » وبعد توقف قنيل أن ادركت أن لا فائدة ترجى من محادثته بهذه اللهجة ولان حالتي كانت سيئة أجبته « أنظر الي الان ٠٠ ان الله سبحانه والطبيعة ذاتها منحاني ما يكفيني من الرشد والعاطفة بحيث لا مجال لان أتاثر عميقا باية دعوة أو مناشدة مهما كانت مؤثرة وفي الحقيقة أنني لم أتاثر به قلامة ظفر » ٠

وبعد هذا مباشرة أصبحت هدفا لنقدات قاسية مثيرة أكثر مما هي مؤدبة وأصغيت باستمتاع لكل تلك النقدات وبعد ذينك اليومين اللذين انصرما بصمت غير طبيعي أضحى كوقع الموسيقى أن أسمع كلمات المسيو بول بطريقته القديمة وظللت أصغي مسلية نفسي والكلبة سيلفي بعلبة ملبس كان المسيو بول قد أعطانيها هدية مزودة بالفاكهة المجففة والشوكولاتة اسرني أن أجد حتى شيء بسيط أقدره من يد المسيو في الوقت المناسب وكان هو ينظر الى كلينا ونحن ناكل من هديته وألقى السكين القاطعة للاقلام من يده وسلمني حزمة الاقلام المقطوعة قائلا لي :

« حدثيني بصراحة كيف كنت تفكرين بي خلال اليومين الماضيين ؟ »
ولم أعبأ بسؤاله هذا ولم أجبه عليه اذ أن فحواه أدمع عيني ومضيت في ملاطفة الكلبة أما هو فقد أمال رأسه فوق رحلتي وأنحنى صوبي قائلا « سميت نفسي أخاك ويصعب أن أقول ما أنا بخصوصك هل أنا أخ ؟ هل أنا صديق ؟ لا أقوى على القول ولكن شيئا واحدا اتضح لي هو انني دائب التفكير بك وأشعر بانني أميل اليك تماما ولكن علي أن أراجع نفسي فانا موضع خشية وخوف وأفضل ما لدي من الاصدقاء حذروني من الخطر وأمروا في أذني أن التزم جانب الاحتراس » . وقلت له « يحسن بك أن تصغي الى نصائح أصدقائك وليس عليك سوى أن تبدي جانب الاحتراس » (وحصل جدل بينهما حول بعض الخلافات المذهبية فلوسي بروتستانتية المذهب والمسيو بول كاثوليكي ولم نشأ ترجمة بعض فقراتها اذ أنها لا تقدم ولا تؤخر في المسلسل الروائي لهذه القصة ـ المترجم) وانتهى الجدل بأن دعا بول للوسي أن يباركها الله ويبارك الجميع .

twitter @baghdad_library

الفصـــل الســابع والثـــلاثون

ـ شـــــروق الشمس ـ

كان عملا حسنا قد بولينـــا أن تقطع مراسلاتها مع غراهـــام الى أن يوافق أبوها على اجراء الاتصال وما كان بمقدور غراهام الذي يعيش على مبعدة فرسخ واحد من فندق كريسي الا أن يزورها لماما أو في أغلب الاحيان وكلا العاشقين أرادا ـ في بادىء الامر وباعتقادي ـ أن يبقيـــا بعيدين الواحد عن الاخر وأبتيا نيتيهما سرا بقدر ما تتطلبـــه المغازلة والتوادد ولكنهما في المشاعر كانا قريبين جدا من بعضهما بعضا ٠

وكل الذي كان بين غراهام وبولينا كان حسنا اذ أيقظ في غراهام كل ما هو نبيل وأنماه فيما يخص اعجابه الماضي بالانســة فانشــاوي ففي تصوري أن عقله كان عاجزا تقريبا عن تحقيق شيء بيد أن مجمـل عقليات واذواقه السامية أضحت الان مثار اسفهام فهذه ـ ككل قدراته وقواه الاخرى ـ كانت ناشطة وفاعلة وتواقة الى غذاء ومستعدة لقبول الترضية اذا ما جاءت مثل هذه الترضية ٠

لا استطيع أن أقـول أن بولينا حدت بغراهـــام ـ تصميما ـ عـلى التحدث عن الكتب أو أنها تولت لنفسها مهـمة شكلية ، مهـمة كسبه أو وضعت خطة تحسين ذهنيته لانها كانت تعتبره كاملا بل أن غراهام نفسه هو الذي نوه ـ بطريق الصدفة النادرة جـــدا ـ عن بعض الكتب التي كان قد قرأها وأنها عندما رحبت بها بتجاوب عاطفي ـ وهو ما ارتاح اليه ـ أخذ يتحدث باستفاضة وارتياح عن تلك الكتب وغيرها من المواضيع واضفت اليه بارتياح وأجابته بحيوية ونشاط ٠

وفي كل جواب متلاحق كانت تشنف سمع غراهام انغـــام موسيقى أروع وأبدع وقعا على أعصابه وفي كل منها كان يجد نبرة موحية مقنعة وساحرة تفتح أمامه دارا ملأى بالكنوز قلما يعرفها أحد تبرز له قـوة

twitter @baghdad_library

لا شائبة فيها في ذهنيته والطيبة المستترة ـ على أفضلها ـ في قلبه وكل منها تهوى الطريقة التي تؤديها الاخرى كلاما من صوت وأداء غنائي وتعبير سار ، وكل منها تستمتع كل الاستمتاع بنكهة الاخرى وتتحسس بمزاياها وتدرك معانيها وفحواها بسرعة غريبة وتتلاقى أفكارهما غالبا وتتناظران وتتساويان كجوهرتين مختارتين ٠

فغراهام يمتلك ثروة من المرح بطبيعته ولا تمتلك بولينا معينا زاخرا من حيوية الشباب ولانها هادئة لا حانق يحفزها فهي ميالة للاسترسال في التفكير أما الان فتبدو مرحة كالقبرة بحضور حبيبها اللطيف وتصوب اليه ناظرين كضوء المسرة الرائق المريح أما مدى جمالها في حالة شعورها بسعادتها فلا أستطيع تقديره أو سبره ، ورحت أنشد مشاهدتها والتلاقي معها أما بالنسبة لبرود تحفظها والتزامها اللطيف وهو الرصيد الذي تعتمد عليه فما الذي بقي منه حتى الان يا ترى ؟ ! ٠

ان غراهام لا حول له فمعه مؤثر الكرم والوفرة الذي سرعان ما يذيب التقيد المفروض ذاتيا والان دل سويت أيام بريتون الاول ؟ ربما انقطعت وشائجها في أول الامر بنوع من الحياء المبتسم ثم بصراحة لا تشوبها شائبة وثقة متزايدة فقد حقق غراهام لنفسه فرصة أفضل مما أرادني أن أوفرها له وحقق له التحرر من المساعدة التي تلزمه بالخشوع وهو ما رفضته لهمي التي لا ترغب في النزول عند رغبات الاخرين ٠ وما كان يتذكره عن برلي الصغيرة وجد الوسيلة الصحيحة للتعبير عنه في نبرات صوته وفي شفتيه اللطيفتين الرائعتين وبأفضل مما لو أوحيتها أنا بكثير ٠

لقد كانت بولينا تقول لي أكثر من مرة عندما نكون وحيدتين ما أروع وأدهش وأغرب لو أنني اكتشفت فيه ثروة ودقة تذكره في هذا الصدد وروت لي كيف أنه عندما كان يرنو اليها كانت تعاوده الذكريات برعة مفاجئة وكيف أنها ذات مرة وضعت رأسها بين ذراعيه تداعب بعض مناطق جسمه وتصيح ٠٠٠ غراهام ٠٠٠ أهواك يا غراهام وأخبرها كيف أنها تأتي بكرسي صغير تصعد عليه لكيما تصل الى ركبته وقال لها في ذلك اليوم تذكرت كيف أن يديك الصغيرتين كانتا تداعبان خدي أو تطمرانها بين خصل شعري الكث ويتذكر لمسة سبابتها على نقرة ذقنه ولثغة كلماتها الطفولية وكيف كانت تتساءل عن سبب فتحه

عينيه وتقول أن له وجها بديعا غريبا أبدع من وجه أمه أو وجه أبيها أو وجه لوسي ستاو ٠

وكانت تعلق بولينا على ذلك فتستغرب من جرأة طفولتها أما الان فتقول ان كل ما فيه هو من السحر الحلال ومن القدسية فخصلات شعره لا يمكن الوصول الى أعماقها وتقول لي يا لوسي انني أشعر بخوف كلما رنوت الى ذقنه المرمري الرصين ومنمحه اليونانية الجميلة ٠ يقال للمرأة أنها جميلة ولكن يا لوسي ليس هو كالمرأة ولذلك أرى أنه غير جميل ويا عجبا بم اذن أنعته وهل أن الناس الاخرين يعاينونه كمثل معاينتي اياه ؟ وهل أنت معجبة به يا لوسي ؟ ٠

وكان جوابي لها على مثل هذه الاسئلة الكثيرة ذات مرة ٠٠٠ « ساخبرك بحقيقة الامر يا بولينا ٠ انني لم أره انما نظرت اليه مرتين أو ثلاث مرات قبل حوالى عام واحد قبل أن يحس بوجودي ثم أغمضت عيني عنه ولو أنه أغمض مقلتيه انتني عشرة مرة بين كل شروق شمس اليوم وغروبها ــ فلولا الذكرى ــ لصعب علي أن أقول أي شكل لهما » ٠

وقالت لي بصوت مهموس « ماذا تعنين بذلك يا لوسي ؟ » فقلت لها « أعني بذلك أنني أقيم الرؤيا وأرفض أن أضرب بعجارة عمياء » ووجدت أن من الافضل أن يكون جوابي لها قويا عنيفا على التو وان أسكت الى الابد مظاهر ثقتها العاطفية الرقيقة التي حولت شفتيها عسلية الحلاوة تلكما الشفتين اللتين كانتا تقذفان في اذني أحيانا ما هو أثقل من الرصاص المذاب ٠ ومنذ ذلك الوقت لم تعد تتحدث أمامي عن جمال حبيبها الا في بعض الاحايين حينما كانت تتفوه عنه بهدوء واستحياء ببعض العبارات التي كانت تتخذ شكل الايقاع النغمي والصوت الموسيقي المختار بعناية وكانت مثل هذه العبارات تثير غضبي أحيانا كل الاثارة وعرفت أنني بعد ذلك أخذت أكيل لها الكلمات الصارمة والنظرات الشزرة ومع ذلك كانت السعادة التي لا تشوبها شائبة تطفح على محياها ولمعان في عينيها واعتبرتني فقط لوسي العصبية وقالت لي ذات مرة وهي تبتسم « أيتها الفتاة الاسبارطية الشجاعة المتكبرة الفخورة بذاتها ان غراهام يقول أنك أكثر النساء السريعات التقلب الغريبات الاطوار ولكن مع ذلك نراك كلانا رائعة وممتازة » ٠

وقلت لها « ان كليكما تجهلان حقيقتي ولا وجوب لان تكون

twitter @baghdad_library

خصوصيتي الصالحة موضوع محادثاتكما وآرائكما المتبادلة .. ان حياتي نوعية تختلف عن نوعية حياتكما » وقالت لي « لكن حياتنا يا لوسي حياة جميلة أو أنها ستكون جميلة وأنت ستقاسميننا جمالها » وقلت لها « لن أقاسم حياة رجل أو حياة امرأة في هذا العالم بمقياس المقاسمة الذي تفهمينه . ان لي صديقا واحدا خاصا بي وان لم يتأكد وجوده بعد وما لم يتأكد وجوده فانني صديقة الوحدة وسأعيش حياة الوحدة » وقالت لي « ولكن الوحدة ان هي الا حزن » وقلت لها « نعم انها الحزن بذاته وفي الحياة أسوأ من ذلك وأسوأ وأعمق من الانقباضية أو السوداوية ... يوجد « انسحاق القلب أسى وحسرة » وقالت لي « استغرب ما اذا كان هنالك من يفهمك حق الفهم .

يوجد في العاشقين مشاعر الافتتان بالانانية والغرور فتبدو عليهم علامات السعادة التي تكتنفهم ما تكلفهم فيولينا مثلا اوقفت مراسلاتها ومع ذلك ظل الدكتور بريتس يراسلها وهي محجمة عن المراسلة ولكنها عادت فأجابته من أجل أن توبخه وتعنفه على مراسلاته فقط وأبرزت لي تلك الرسائل بنوع من التعمد الطفولي والغطرسة الموروثة وحمستني على قراءتها وعندما قرأت رسائل غراهام احترت في كيفية تفهم تعاليها وكبريائها فقد كانت رسائل بديعة تمازجها قوة الرجولة والتوقان من جهة والبساطة والشهامة من الجهة الاخرى .

ربما بدت رسائلها سارة له غير أنها لم تكتب لتبيان مواهبها أو للتعبير عن حبها انما على العكس فقد كتبتها كما لو أنها تخفي عنه ودها وأحاسيسها العاطفية وانطلاق عنان غيرة عشيقها ولكن كيف تستطيع مثل هذه الرسائل أن تخدم مثل هذا الغرض ؟ لقد أضحى غراهام عزيزا عليها كحياتها تجتذبها كاجتذابه المغناطيس القوي وبالنسبة اليها يوجد تاثير في نفسها لا يمكن وصفه لكل ما يتشوه به ويكتبه ويفكر به ولكل نظرة من نظراته فبهذا الاعتراف السري في قرارة نفسها توهجت رسائلها بدءا بالتحية وانتهاء بالوداع .

وبدأ تململها وقلها حين قالت لي « لو أن أبي يعرف .. أريد أن يعرف أبي بالموضوع وأخشى ذلك في الوقت عينه اذ لا يسعني الا أعلم غراهام بذلك ولا أتوق الى أكثر من أن تسوى هذه القضية وبصراحة أنني أخشى هذه الازمة . انني أعرف ـ وأنا متأكدة من ذلك ـ ان أبي سيثور غضبه في أول الامر وأخشى أن يكرهني لذلك . وربما تبدو

القضية له أمرا يتسم بالشؤم وسيكون الامر مفاجأة وصدمة لي ومن الصعب أن أتصور مقدما تأثير الامر كله علي » ٠

وحقيقة الامر أن والدها الهادىء أبدا بدأ يثور ويتململ بنوع ما فقد كان في جهل وهمي من حيث النقطة الواحدة ولكن ضوءا مزعجا بدا يراود عينه وينتهك حرمتها ولم يقل لها شيئا ولكنه أحس بأنها لم تعد تنظر اليه أو تهتم به أو تفكر فيه فوجدته يطيل النظر اليها ويعتزم أمرا ٠ وفي الامسيات كانت بولينا في غرفة تغيير ملابسها وأعتقد بأنها كانت تكتب رسالة لغراهام فقد تركتني في المكتبة أطالع كتابا فدخل المسيو باسومبيير وجلس وهممت بالخروج لكنه رجاني بالمكوث بوداعة ورقة ولمست رغبته في أن اذعن له واختار مقعده قريبا من النافذة على مبعدة نسبية مني وفتح رحلة أخرج منها ما يبدو كما لو أنه دفتر مذكرات وأخذ يقرأ منه فقرة لبضع دقائق ثم قال لي « هل تعرفين يا آنسة ستاو عمر ابنتي الصغيرة ؟ » فقلت له « حوالي ثمانية عشر عاما أليس كذلك يا سيدي ؟ ٠ وقال لي « يبدو أن هذا صحيح فهذه المذكرة الجيبية الصغيرة تقول لي أنها ولدت في الخامس من شهر آيار أي قبل ١٨ عاما ، انه لامر غريب فقد أضعت عمرها الحقيقي ، ذلك أنني كنت أتصوره متراوحا بين ١٢ و ١٤ سنة وهو تاريخ غير محدد بالضبط ولكنها لا تزال تبدو كطفلة رغم أنها في حوالي الثامنة عشر من عمرها » وكررت القول « انها ترعرعت وطالت قامتها بحيث لا مجال لقامة لها أطول بعد الان » ٠

وقال المسيو دي باسومبيير بلهجة نافذة في الحواس كما تنفذ نبرات صوت ابنته « الله ٠٠ يا جوهرتي الصغيرة ! » وقلت له « لماذا تتنهد وتتحسر يا سيدي ؟ » وأنا عالمة بحقيقة شاعره وان كان لا يتكلم عنها قط ، وقال لي « انها الجوهرة الوحيدة التي أملكها وسيرى الاخرون أنها نقية وسيشترونها لانفسهم » ولم أحر جوابا لما قاله وكان غراهام يتغدى معنا في ذلك اليوم باشراقته سواء في حديثه أو نظراته ولا أدري مر الزهو المزدهر الذي كان يونق ويزخرف محياه ويروع الاتصال به ٠

وتحت ضغط الامل الاسمى ظهر شيء في حالته النفسية كلها استرعى الانتباه وأظن أنه كان قد تقدم في ذلك اليوم ليبين ما يستهدفه وما يطمع في تحقيقه ووجد المسيو دي باسومبيير نفسه مضطرا الى التوصل الى جلية الامر فانه وان كان بطيئا في الملاحظة الا انه كان متفوقا في الاستنتاج ولما كان قد أمسك بالخيط قبل هذا فقد قاده الى المتاهة

twitter @baghdad_library

الطويلة أو الى المشكلة واذا به يسأل « أين هي ؟ » فأجبته « انها في الطابق الاعلى » وسألني « ماذا تفعل هناك ؟ » فأجبته « أنها تكتب » وقال لي متسائلا « تكتب ؟ هل انها تكتب ؟ هل تتلقى رسائل ؟! » ٠

فقلت له « كلا ٠٠ سوى التي تريها لي ٠٠ وياسيدي ٠٠ هي وهو يرومان استشارتك منذ مدة طويلة » فأجابني « أف وتعسا !! انهم يستغفلونني أنا الاب المسن ٠٠ انني في طريقي الى القبر » وقلت له « آه ٠٠ يا مسيو دي باسومبيير ليس الامر كذلك وهذا لا يمكن أن يكون انما بولينا تريد أن تعبر عما تريد والدكتور بريتون أيضا سيساعدها فيما تريد أن تقوله لك » فقال لي « فات الاوان تقريبا الان والامور تقدمت عن ميعادها كما يبدو لي » وقلت له « يا سيدي ٠٠ لن يتحقق شيء ما لم توافق عليه أنت بالذات ٠ لا شيء بينهما انهما يحبان بعضهما بعضا فقط » وقال لي « فقط ؟ فقط ؟ ؟ » ٠

ولما كان القدر قد أوكلني القيام بمهمة الائتمان على الاسرار وبمهمة الوساطة أضطررت الى أن أواصل الحديث معه فقلت له « في مئات المرات حاول الدكتور بريتون أن يناشدكم حول الموضوع يا سيدي ولكنه رغم شجاعته خانته قواه فهو يخشاك بشكل يفوق الوصف » فقال لي « لا معدى له من أن يخشاني فهو يمس أفضل ما أملك في هذه الدنيا ولو أنه تركها وشأنها لبقيت طفلة عندي أعواما طوالا ثم أسألك ٠٠ هل انهما محطوبان ؟ ! » فقلت له « لا يمكن أن يفعلا ذلك دون استحصال اذن منك » ٠

وقال لي « حسنا منك يا آنسة لوسي أن تتحدثي وتفكري بهذا الاحتشام الذي يميزك الا أن هذا الامر يغمني ويحزنني فهذه الطفلة الصغيرة هي جل ما أملك وليست لدي فتيات أخريات أو ولد وكان على بريتون أن يتوجه وجهات أخرى فهناك نسوة جميلات وغنيات لا أظن أنهن يرفضنه لو أنه تقدم اليهن فله نظراته وبحوثه وصلاته ألم يجد بديلا من ابنتي بولي بينهن جميعا ؟ » ٠

وقلت له « لو لم يجد بولي لوجدته الاخريات ولسرهن كالانسة فانشاوي ابنة أخيك مثلا » وقال لي « لو طلب مني جنيفرا لاعطيتها له عن طيبة خاطر أما « بولي » فلن أدعه يحصل عليها ٠٠ كلا ٠٠ لن أدعه فهو ليس كفؤا لها » وأكد بغشونة « بأي شيء هو ند لها ؟ انهم يتحدثون عن الثروة ٠٠ انني لست بالجشع أو البغيل ولست بالرجل المصلحي رغم أن العالم يتحدث عن هذه الاشياء ثم أن بولي ستصبح غنية » ٠

وقلت له « نعم ·· ان هذا أمر معروف وكل مدينة فيليت تعرف أنها وارثة » وسألني « هل انهم يتحدثون عن ابنتي الصغيرة في هذا الضوء ؟ » فقلت له « نعم ·· يا سيدي أنهم يتحدثون في هذا الضوء » ثم بدت عليه علائم التفكير العميق اما أنا فقد شعرت بالجرأة لان أساله « هل ترى يا سيدي أن هنالك من هو ند لبولينا ؟ هل يفضل أي شخص على الدكتور بريتون ؟ وهل ترى ان مركزا ارفع أو ثروة أعظم يغير الوضع حيال صهرك المستقبلي ؟ » فقال لي « انك أثرتيني بهذا » وقلت له « انظر الى رجال فيليت الارستقراطيين فانت لن ترضى بهم يا سيدي » ·

وقال لي « لن أرضى بذلك حتى لو كان أحدهم دوقا أو بارونا أو فيكونتا أو ما شابه ذلك » وبعد أن تشجعت بكوني جوبهت منه بالاهتمام وليس بالرفض والصد قلت له « قيل لي أن الكثيرين من هؤلاء يفكرون بها يا سيدي وهناك خاطبون آخرون سيأتون وعلى هذا رفضت الدكتور بريتون فأين تولي وجهك وبمن ستهتم علما بأن الطموحين لن يرضوا بديلا عن الوراثة ويبدو لي أن بولينا تسحر كل من يشاهدها » وقال لي « أحقا ما تقولين ؟ وكيف ؟ ان فتاتي الصغيرة لا أظن أنها جميلة » وقلت له « سيدي ·· ان الانسة دي باسومبير جميلة جدا » ·

وقال لي « أمر سخيف ! أستميحك عذرا أيتها الانسة سناو أظن أنك متحيزة جدا · أنا أحب بولي وكل أساليبها في الحياة وكل نظراتها ثم أنني والدها ولم أفكر يوما ما بجمالها · انها تريحني فهي رقيقة تشبه الحورية وهي عزيزة على قلبي وأنت مخطئة في التحدث عن جمالها » وقلت له « انها فاتنة يا سيدي · انها تفتن الناس دون أن يكون لمركزك وأموالك شأن بذلك » ·

وقال لي « ثروتي ؟ مركزي ؟ هل هذه هي ما يغري غراهام على ما أظن ؟ » فقلت له « الدكتور بريتون يعرف هذه الامور جيدا فتأكد من ذلك يا سيو دي باسومبير وقدرها كما يقدرها جنتلمان في مثل هذه الظروف فالدكتور بريتون ليس له مطمع بذلك فهو يحب ابنتك حبا جما ويشعر بخصائصها الرائعة التي تؤثر فيه تمام التأثير » وقال لي « ماذا تقولين ؟ هل لابنتي الصغيرة المدللة خصائص رائعة ؟ » فقلت له « آه ·· يا سيدي لو كنت شاهدتها في تلك الامسية حيث دعاها الى العشاء الكثيرون من الشخصيات البارزة المثقفة ! »

twitter @baghdad_library

واستطردت في وصفها فقلت له « لقد سحرت تماما بسلوكها الحسن في ذلك اليوم وان وضعيتها النسوية جعلتني ابتسم لها » وسألني « هل شاهدتيها بنفسك وشاهدت الشخصيات الفرنسية تحيق بها في قاعة الاستقبال ؟ » فقلت له « نعم » • وكانت في وضع مريح وكان الناظر اليها يتصورها طفلة رائعة الجمال • ويا سيدي سمعت اولئك الفرنسيين يقولون عنها انها « تركيب من الظرف والذكاء والجمال » والدكتور بريتون قال عنها نفس ما قالوا •

وقال لي « انها طفلة عزيزة وصالحة ليس في ذلك من ريب وأعتقد بأن لها بعض الخصائص وكنت أفكر فيها على الدوام ولازمني المرض في ذات مرة فظلت ترعاني وتهتم بي • وظن الناس أني ميت لا محالة من جراء ذلك المرض وأتذكر كيف أنها زادت قوة وعطفا علي كلما كانت حالتي المرضية تسوء وعندما شفيت كانت في غرفة نومي كالشمس الزاهية بأشعتها وكانت تلعب حول كرسيي بهدوء ولا تحدث جلبة أو ضوضاء من أجل راحتي والان يطلبون يدها للزواج منها وأنا لا اريد الافتراق عنها » •

وقلت له وهو يتأوه « أنت تعرف الدكتور بريتون والسيدة بريتون والدته وأنه سيكون أقل فراقا لها من أن تزوجها لشخص آخر » وبانت على سحنته الكآبة وتمتم قائلا « أعرف لويزا بريتون منذ مدة طويلة فهي وأنا صديقان قديمان جدا فقد كانت حلوة رائعة الجمال عندما كانت فتاة صغيرة • انك تتكلمين ــ أيتها الانسة سناو ــ عن الجمال فهي كانت جميلة طويلة القامة زاهرة متوردة الخدين تفوق ابنتي جمالا عندما كانت في الثامنة عشرة وكانت لها عربة ومنزلة رفيعة لا تجدينها الا عند الاميرات وهي الان امرأة وسيمة وصالحة والولد شبيه بها وهذا كان رأيي دائما وأنا أفضله على سواه وأتمنى له التوفيق والآن يجازيني بهذه السرقة ، ذلك أن ابنتي الصغير تحب والدها المسن حبا جما وحقيقيا وانتهى كل شيء الان دونما ريب وسأصبح بعد الان عائقا وعبئا ثقيلا •

وانفتح الباب ودخل الكنز الصغير مرتديا ثياب المساء الجميلة وان حيويتها التي تأتي أحيانا مع انتهاء النهار أدفأت خديها وعينيها وان مسحة اللون القرمزي أضفت سموا وجلالا على بنيتها فقد أنزلت عقص شعرها وضفائرها طويلة بكاملها على عنقها السوسني وناسب ثوبها الابيض حرارة شهر حزيران ولما كانت تتصور أنني وحدي جاءت

برسالتها التي كتبتها الان لكي أقرأها نرعـــا ما واضطربت وترقفت برهة عن السير وتصاعد اللون الوردي على وجهها وفاض على خديها وعلى كل سحنتها ٠

وقال لها المسيو دي باسومبيير بصوت واطيء وابتسامـة وقـورة « هل تخجلين من رؤية والدك ؟ ان هـذا شيء جديد لم آلفه من قبل » وقالت بلهجة التأكيد « لست خجلة ٠٠ أبدا ٠٠ لست خجلة ٠٠ وأرسلت دوامة أخرى من قلبها مزيدا من اللون القرمزي وقالت « ظننتك موجودا في قاعة الاستقبال وأنا لي شغل مع لوسي » ٠

وقال لها أبوها « ظننت أنني جالس مع غراهام بريتون على ما أظن ؟ ولكنه على وشك أن يصل الي في الحال بعد أن استدعيته يا بولي وبوسعه أن يبرد رسائلك لك » واجابته بلهجة نكدة مشوبة بالانفعال والمحراجة « أنا لا أروم ابراد رسائل » وقال لها « اذن ما الذي تفعلين بها ؟ تعالي الي وقولي لي » وبان على محياها وذهنها أنهـــا تريد التردد لحظـة ما قائلة له « هل آتي ؟ » ثم أخذت تدنو منه ٠

وقال لها « منذ متى أصبحت كاتبة رسـائل يا بولي ؟ يظهر انك شرعت منذ البارحة عندما وجدتك جالسة قرب أقلامك الريشية وحبرك وأنت منشغلة بمسكها بكلتـــا يديك » وقالت له « كلا يا والدي ليست رسائل للابراد من حقيبة رسائل ٠ انها مجرد ملاحظات أقدمها بين الحين والحين وباليد لصاحبها من أجل أن يطمئن » وقال لها أبوها « تقصدين الانسة لوسي ٠٠ أليس كذلك ؟ » فقالت « كلا يا أبي ليست المقصودة لوسي ! » وقال لها « اذن هو المسيو بريتون والا فمن يكون ؟ » وقالت له « كلا يا أبي ٠٠ ليس المسيو بريتون » وقال لهـــا « اذن من يا ابنتي الصغيرة ٠٠ قولي الصدق أمام والدك » ٠

وحنا قالت له وهي تجهش بالبكاء « سأقول لك الصدق يا أبي ٠٠ الصدق كله ٠ يسرني أن أبوح لك بالصدق ٠ يسرني ذلك وان كنت أشعر بالخوف » ولوحظ عيها الارتعاش والانفعـال والشعور المضطرم وهزها هزا تجميعها لشجاعتها وقالت له « أكره اخفـاء أعمالي عنـك يا أبي فأنا أخشاك وأهواك ٠٠ خذ الرسالة واقرأها وانظر الى عنوانها »٠

ووضعت الرسالة على ركبته فالتقطها وقرأهـــا من البـداية الى النهاية بيد مرتجفة وعينين بارقتين وطواها وعاين كاتبتها بنظرة ملؤها الغرابة والتحنان والدهشة المؤلمة قائلا « أحقا تستطيع هـــذه أن تكتب

twitter @baghdad_library

هكذا » هذه الصغيرة التي كانت بالامس القريب تجلس على ركبتي هل تستطيع أن تشعر هكذا ؟ وقالت له « يا والدي ·· هل أنا مخطئة ؟ هل آلمتك هذه الرسالة ؟ » ·

وقال لها « لا يوجد خطأ في الامر يا ماري الصغيرة البريئة ولكنها آلمتني » وقالت له « اصغ يا أبي ·· لا ينبغي أن تتألم مني ·· أنا مستعدة لبذل أي شيء من أجل الا أؤلمك · أفضل الموت على أن أجعلك غاضبا أو تعيسا فانا جد شريرة ان لم أفعل ذلك من أجلك » وأخذت أوصالها ترتجف ثم قالت له « هل أساءت اليك الرسالة ؟ · هل يجب الا ترسل ؟ هل أمزقها يا ابي ؟ سأفعل ذلك من أجلك بمجرد أن تأمرني » وقال لها « لا أمرك بشيء » ·

وقالت له ابنته « مرني بشيء يا أبي · عبر لي عما تريده ·· أناشدك الا تستاء وتتألم مما فعلت ولكن لا تحزن غراهام فانا لا أقوى على تحمل ذلك فانا أحبك يا أبي وأحب غراهام ايضا لان ·· لان ·· من المستحيل علي أن أتخلى عن حبه » وقال لها أبوها « ان هذا الذي تسمينه غراهام يا بولي ليس سوى شاب نذل · وهذا رأيي الحالي فيه وربما استخربت اذا سمعتيني أقول أنني لا أحبه اطلاقا ولو بقدر ذرة · لقد شاهدت قبل أعوام في عين هذا الفتى شيئا لم يكن لامه العمق الذي تستطيع أن تنهي رجلا عن خوض جدول مائي الى ذلك العمق والان وعلى حين غرة أجد نفسي مضروبا على أم رأسي » ·

وقالت له « يا والدي · لم يحل بك ما تصورته فأنت سالم وآمن على الضفة وبوسعك أن تفعل ما تشاء وتتصرف بما تشاء فسلطتك مطلقة لا يوجد ما هو فوقها · وبوسعك أن تزجني في دير للراهبات فتسحق بذلك قلب غراهام اذا فضلت أن تكون بهذه القسوة أوتوقراطيا مرة وقيصرا مرة أخرى فهل تريد أن تفعل ذلك ؟ » · وقال لها « الى الشيطان به·· الى نفيه الى سيبيريا هو وكل أصحاب الشوارب الحمراء·· أقول لك انني أكرهه يا بولي وأعجب من كونك تحبينه » ·

وقالت له « أتعلم يا أبي أنك ضالع في الشر فانا لم يسبق لي أن شاهدتك بهذه الحالة الانتقامية الظالمة فعلى وجهك تعبير لم ألفه فيك ولا يمت اليك بصلة » وقال والدها وهو بحالة تبرم وانزعاج زائدين « ليول عن وجهي ! ! » وكنت على اعتقاد بأن والدها لو ظل على هذا الرفض فانها ستحزم أمرها وتركض وراءه لان قلبها مسلوب ·· مسلوب

ومنفصم عن والدها الشيخ المسن تماما » ٠

وقالت له « يا أبي ان هذا لظلم واثم وليس من الصواب أن تتكلم بهذه اللهجة فانا لم أبتعد عنك وليس من كائن بشري بقـــادر عـلى أن يؤثر علي فيقطع صلتي بك » وقال لها بغضب شديد « اذهبي وتزوجي يا بولي ٠ تزوجي من أصحاب الشوارب الحمر ولا تكوني ابنتي وكوني زوجة » وقالت « أصحاب الشوارب الحمـــر ؟ ! لست أدري ما تعنيـه يا والدي ٠ لا داعي للتحامل وأنت تقول لي دائما أن كل الاسكوتلنديين أبناء بلدك هم ضحايا الظلم والجور والآن لم تبرهن على ما كنت تقول على ما أظن ما دمت لا تميز بين الحمر وبين السمر » وقال لها « اتركي جانبا الاسكتلنديين المظلومين واليك عني يا بنية » ٠

وظلت واقفة تنظر اليه مدى دقيقة واحـدة وأرادت أن تبـــدي جانب الحزم الذي يتعالى على جانب التوبيخ ولما كانت تدري بطبيعـة والدها وبجوانب ضعفه فقد توقعت مجيء المشهد الذي أخذ يتبلور دون أن يفاجئها مفاجأة ورغبت في أن يمر مر الكرام بعزة تعتمد على مردود الفعل فان كرامتها لم تجدها نفعا وعلى حين غرة ذابت روحها في وسط عينيها وهرعت نحوه باكية تعانقه وتقول له « لن أتخلى عنك يا والدي ٠٠ لن أتركك وحيدا ولن أغمك أو أكون سببا في ايلامك قط » وتمتم والدها قائلا « يا حملي الوديع يا حبيبتي يا كنزي الثمين » قال هـذه الكلمات بوجه متجهم وبصوت أجش ولم يزد عليها ٠

وزاد ظلام الغرفة الان وسمعت حركة خطوة في الخارج ظننت أنه الخادم ياتي لنا بالشموع وفتحت الباب بهدوء لمنع الدخول بعنف ولـم يكن في حجرة الانتظار أي خادم انمـا وجدت جنتلمانا طـويل القـامة واضعا قبعته على المنضدة ونازعا قفـازيه ببطء ومتريثـا في مكانه في الانتظار كما بدا لي آنذاك ولم يدعني بالايمـــاءة أو بالكلمات وانمـا عينه قالت لي « تعالي يا لوسي » وذهبت اليه ٠

وكانت الابتسامة تفيض على وجهه حين كان ينظر الي ولـم يطرأ أي أثر للانفعال على وجهه الا انعكس بابتسامة على نوعية الهياج الذي كان يعتمل في قلبـه وسـألني وهو يرميء الى المكتبـــة « هـل المسيـو دي باسومبيير هناك ؟! » فاجبته « انه هناك ! » وقال لي « شاهدني عند العشاء وفهمني ! » فقلت له « نعم يا غراهام » وقال لي « جيئي به الان للمحاكمة اذن وجيئي بها هي أيضا !» وقلت له «ان المسير هوم يكلم ابنته» وقال بلهجة العجب والحزن « هذه اللحظات هي لحظات حادة وصارمـة

twitter @baghdad_library

يا لوسي اليس كذلك ؟ » ٠

وكانت مظاهر الاثارة بادية عليه ولاحظت احدى يديه ترجف وساد ترقب قلق وتصاعدت أنفاسه وانبهرت وفي كل هذه الحالات لم تفارق الابتسامة شفتيه وسألني قائلا « هل هو غاضب جدا يا لوسي ؟ » وقلت له « انها مخلصة لك جدا يا غراهام » وقال لي « ما الذي سيحل بي » وقلت له « يا غراهام ينبغي أن يكون نجمك محظوظا وسعيدا » ٠

وهتف قائلا « هل ينبغي أن يكون كذلك ٠٠ ياللانبياء اللطفاء ! انا كالقلب الضعيف الآيل للهمود ٠٠ في رأيي أن كل النساء مخلصات يا لوسي وعلي أن أحبهن فعلا ٠ ان والدتي صالحة ٠ ورائعة جدا وأنت صادقة الولاء وبقوة الفولاذ ألست كذلك ؟ » فقلت له « نعم يا غراهام » وقال لي « اذن مدي لي يديك يا أختي بالمعمودية فهي يد صديقة كانت كذلك وستبقى على الدوام والان وأنا في هذه المحنة وفي هذه المغامرة العظيمة ليكن الله مع الحق ٠٠ قولي ٠٠ آمين ٠٠ يا لوسي ٠

وتحول بانظاره الي وانتظرني لكي أقول ٠٠ آمين !٠٠ وقلت ذلك لمجرد أن أدخل السرور الى قلبه لقد جاء السحر القديم وأتمنى له النجاح وأدري أنه سيلاقيه فقد ولد لينتصر في حين أن هناك من يولدون لكي يلاقوا الهزيمة والخذلان وقال لي « اتبعيني » وتبعته حيث المسيو هوم موجود وسأله جون غراهام « سيدي ماذا كان حكمك علي ؟ » ونظر اليه الوالد اما البنت فقد غطت وجهها ٠

وقال المستر هوم « حسنا يا بريتون لقد منحتني حسن ضيافتك الاعتيادية وأنا أيضا استضفتك وأكرمت وفادتك وأخذت مني أفضل ما لدي ٠ وكان يسرني دائما أن أراك مسرورا برؤية أفضل ما لدي واثمنه وكنت تكلمني بلطف وفي غضون ذلك لا أقول أنك سرقتني وسلبت ما لدي ولكنني في الواقع مسلوب والذي سلبته يبدو أنك حظرت به وحصلت عليه فالغلبة لك » وقال له غراهام « ليس من طبعي الاستلاب » فقال له « الاستلاب ؟ لا ٠٠ أنت انتصرت وغلبت يا جون غراهام فأنت منحدر من سكان نجاد اسكتلندة ومن الرؤساء وتوجد أروعة السلتيين في كل نظراتك وأحاديثك وأفكارك ولك مكرهم وسحرهم » ٠

وقال غراهام وقد غطى احمرار الخجل الخالص وجهه بما مازجه من دفء الصدق والاخلاص « سيدي انني مخلص بما فيه الكفاية ولكنني لا أنكر انك في بعض الاحيان تتهمني بحق ففي حضورك لم أقو على أن أتجرأ للبوح بما أكنه فؤادي فانا أعتبرك بحق مالك أثمن شيء خصه

العالم لي فكم تمنيته وكم حاولت الحصول عليه والان جئت أطلبه منك يا سيدي » ٠

وقال له المسيو هوم « انك تطلب الكثير يا جون » وقال له « صحيح أنني أطلب الكثير جدا وهذا الكثير هو من معين سخائك واعتبره هدية من ينبوع عدالتكم اذ ليس بمقدوري الحصول عليه كمكافاة اطلاقا » وقال المسيو هوم موجها الكلام لابنته « هل سمعت لسان النجدي ٠ انظري يا بولي ٠٠ أجيبي هذا الاسكتلندي الشجاع الخاطب وابعديه » ٠

ونظرت بولي بحياء الى خاطبها الظريف وبحنان الى والدها المتغضن وقالت « أبي !! انني أحب كليكما وبوسعي الاهتمام بكما ولا لزوم لابعاد غراهام فهو يستطيع العيش معنا فليس بذي الظل الثقيل » وتحدثت بتلك البساطة اللغوية التي هي ضرورية أحيانا في مثل هذه الاوقات لحمل الوالد والخطيب على الابتسام وبالفعل ابتسما وقال المستر هوم باصرار « سيظل ثقيل الظل علي فأنا لا أريده يا بولي فهو طويل القامة جدا وأنه واقف في طريقي فأرسليه بعيدا عني » ٠

وقالت له ابنته « ستألفه وتعتاد على وجوده يا أبي ٠ انه يبدو طويل القامة بافراط وعندما أنظر اليه أعتبر نفسي ناظرة الى برج من الابراج وانا بالتعميم لا أريد طوله على شاكلة أخرى » وأجابها والدها « اعترض عليه بكل معنى الكلمة يا بولي وبوسعي العمل بلا صهر ولا أريد أفضل انسان في العالم يقف بوجهي في هذا الشأن فاطردي هذا الجنتلمان » وقالت له ابنته « انه يعرفك منذ زمن طويل يا والدي ويناسبك مناسبة لا شائبة فيها » ٠

وأجابها والدها « يناسبني ؟ أحقا يناسبني ؟ لقد تظاهر لي بتأييد آرائي لكي يتوصل الى ما يريد ولالطفني لمنفعته الخاصة وأظن يا بولي أن علي وعليك أن نقول له وداعا » وقالت له « أجل ذلك الى يوم غد فقط وصافح غراهام يا والدي » فقال لها « كلا ٠٠ لن افعل ذلك فلست صديقا له ولا تحشريني بينكما تمليقا » ٠

وقالت له ابنته « أنتما صديقان حقا ٠ مد يدك اليمنى لوالدي يا غراهام ويا والدي مد يدك أنت أيضا ودعهما يتلامسان ولا تكن فظا يا والدي ٠ شد أصابعك وكن مرنا ٠ ليس هذا تشابكا يا والدي انك تمسك يده كشد الملزمة وتكاد تسحق عظام يد غراهام ٠ انك تؤذيه » وربما آذاه فعلا لوجود محبس كبير الحجم في أصبعه وعملت نتوآته على جرح يد غراهام بقوة وسال الدم من جرحها ولكن هذا الجرح جعل غراهام يضحك مثلما أن القلق جعله يبتسم قبل الان ٠

twitter @baghdad_library

وقال المستر هوم للدكتور غراهام أخيرا « هـــل لك أن تأتي الى مكتبي وذهبا الى المكتب ولم يبق لقاؤهما طويلا وأظن أنه كان حاسما فقد واجه الخاطب استجوابات من المسيو هوم حول أمور كثيرة وفي آخر الامر استطاع أن يبرهن له بأنه أهل لزواجه من ابنته ومرة أخرى ظهر الوالد والعاشق في المكتبة وأغلق المسيو دي باسومبيير الباب وأشار الى ابنتـــه قائلا للدكتور بريتون « خذها • خـــذها ، ياجون وليرعك الله كلمـــا رعيتها أنت » •

وبعد مدة غير طويلة ربما قاربت الاسبوعين وجدت ثلاثة أشخاص هم الكونت دي باسومبيير وابنته والدكتور غراهام بريتون جالسين على مقعد واحد كائن تحت شجرة ظليلة أغصانها منتشرة انتشارا واطئا في الارض الكائنة في قصر « بواليتانغ » فقد جاءوا الى هناك للتمتع بالامسية الصيفية ، وخارج الهوايات الرئيسة كانت عربتهم تنتظر لاخـذهم الى البيت وقد ترامت امتدادات الحشيش الاخضر للمرجـة حولهم تراميـا هادئا ومعتما نوعا ما •

وكان القصر يتعالى على مبعدة من ذلك المكان أبيض كمرمر جبـل أتيكا اليوناني الرائع وعلى رؤوسهم تومض نجمة السمـــاء وزخرفت المكان امتدادة صحراوية من شجيرات الورد وكان الجو رائعا وحلوا والمنظر موحشا ووحدانيا خـلا لهؤلاء الثلاثة وقد جلست بولينا بين الرجـلين الجنتلمانيين وعندما كانوا يتحـادثون كانت يداها الصغيرتان منشغلتين في عمل ما وظننت لاول وهلة أنها كانت تعبث بباقة زهر صغيرة ولكـن كان في حضنها مقص صغـير قصت به من شـــعر الرجلين وربطتهمـــا بعقصتها وقالت لهما « الان صنعت لكما تعويذة تحفظ صداقتكما انتما الاثنين الى الابد ولن تتشاحنا طالما أنا احتفظ بهذه التعويذة •

لقد صنعت التعويذة حقا وأطرت الرقيـــة التي جعلت العـــداء مستحيلا والمفروض في بولينا أن تصبح سببا في اتحـــادهما وتوافقهما ومؤثرا فيهما وسببا في تواثق ووئام متبادل بينهما وحصلت على سعادتها من ذلك • والذي كانت تستعيره كانت تعيده مع الفائدة وسـألت نفسي هل هنالك سعادة كهذه السعادة على الارض كلهـــا ؟ سألت نفسي هـذا السؤال وأنا أراقب الوالد والفتاة والزوج المقبل والثلاثة موحـــدون تحل عليهم النعمة والبركة •

نعم ••• ان الامر كذلك فبدون التلوين الرومانتيكي أو المبالغـة الخيالية أقول ان الامر كذلك • ان بعض الارواح الحقيقية تتوقع فعلا

طيلة أيام أو طيلة أعوام سعادة تحل عليها من السماء وفي اعتقادي اذا كانت مثل هذه السعادة التامة محسوسا بها من قبل أناس طيبين (لانها لا تحل على الاشرار) فان أثرها الحلو لا يمكن أن يضيع كليا ومهما تتالت المحن والتجارب ومهما توالت الآلام والامراض وظلال الموت فان الاسبقية المجيدة تظل تنير باشراقتها وتبهج أرجاء العذاب الشديد وتبدد الغيوم الكثيفة • سأستطرد أكثر وأقول انني مرتئة بأن هنالك بعض الكائنات البشرية ولدت هكذا وترعرعت هكذا واقتيدت هكذا من المهد الى اللحد بحيث لا معاناة مفرطة غزت قدرهم وقسمتهم ولا اسوداد عاصف أعتم حل بهم وغالبا ما لا يكون هؤلاء قد اشبعوا رغبتهم وانما هم أناس اصطفتهم الطبيعة رجالا كانوا أم نساء أو وكلاء لعطايا الله ونعمه •

ولكي لا أؤخر الحقيقة السعيدة أقول أن غراهام بريتون وبولينا دي باسومبيير تزوجا وبرهن بريتون على أنه واحد من أمثال هؤلاء الوكلاء ولم يتفسخ مع الزمن انما اضمحلت أخطاؤه ونضجت فضائله وشع واستنار مستقبله وكذلك شع واستنار مستقبل زوجته الجميلة وحافظت على زوجها واعانته ليتقدم وكانت بمثابة حجر الزاوية لتكوين سعادته •

هذان الزوجان مباركان فعلا لان الاعوام جاءت بهما بازدهار عظيم وصلاح عظيم ومرت الاعوام الطوال وتوفى دي باسومبيير في آخر الامر وبعده لويزا بريتون بعد شيخوخة وخلف الزوجان بنات وأولادا مات قسم منهم وبقى القسم الاخر وكان لبريتون ولد أيضا ورث عنه كتبه ومركزه الاجتماعي وربى طفلاته تربية دمثة تخللتها اليد التقية وهذان الزوجان أقول مرة أخرى انهما بوركا لان الله سبحانه وجد انهما زوجان صالحان للبركة •

twitter @baghdad_library

الفصـــل الثـامـــن والثـلاثون

ـ الغيـــــوم تتـــراكـم ـ

في صباح الخميس تجمعنا في الصف منتظرين تلقي درس الاداب وجاءت الساعة التي نتوقع فيها دخول استاذ الاداب البروفيسور بـول عمانوئيل ـ وكانت طالبات الصف الاول جالسات بهـــدوء تام وقطع الانشاءات المكتوبة في دفاترهن المهياة منذ الدرس الاخير موضوعة عـلى رحلاتهن ومربوطة بأشرطة ربطا نظيفا مرتبا بيد البروفيسور عندما كان يدور حول رحلات الطالبات جريا على عادته ·

وكان الشهر تموزا وصباحه جميلا رائقا والباب الزجاجي مفتوحا فتحا جزئيا يدخل منه نسيم عليل وأوراق النباتات المتنامية على النافذة العليا تتمايل وتنحني ويبدو كما لو أنها تتهـامس فيما بينها ولـم يكن المسيو عمانوئيل حريصا على الشكليات دائمـــا ولم نكن نعجب لمجيئـه متأخرا ولكننا استغربنا عندما فتح الباب في آخر الامـر وبـدلا من أن يدخل هو بحركته الاندفاعية السريعة دخلت علينا المدام بيـك دخـولا رزينـــا ·

ودنت من رحة المسيو بول ووقفت حيالها ولفت عليها الشال الخفيف الذي كان على ذراعيها وبدأت تتحدث بصوت واطيء ونغمة رصينـــة ونظرة ثابتة قائلة « في هذا الصباح لا يوجـــد درس للاداب وجـاءت الفقرة الثانية من كلامها بعد توقف دقيقتين فقالت : من المحتمـــل أن دروس الاداب تؤجل الى اسبوع واحد وخلال هذه المدة سأحاول ايجـــاد بديل كفء عن المسيو عمانوئيل وسنملأ الفراغ الحاصل بشكل مفيد ·

ومضت المدام بيك في كلامها قائلة : ان بروفيسوركم ـ أيتهـــا السيدات ـ ينوي الان أخذ اجازة ويهيىء نفسه لسفرة طويلة وواجبـه الفجائي يتطلب منه أن يقطع مسافة طويلة وينوي مغادرة أوربا لمـــدة غير محدودة وربما يخبركم عن ذلك بنفسه وبصـورة مفصـلة أكثر · أيتها السيدات ستقران في هذا الصباح درسكن الذي اعتدتن أن تأخذوه من المسيو عمانوئيل مع الانسة لوسي · قالت هذا وانحنت بأدب وجرت

twitter @baghdad_library

شالها جرا قويا وخرجت من الصف • وساد سكون شامل ثم دارت تمتمات حول الغرفة واعتقد أن بعض الطالبات يكن تأثرا •

ومضى بعض الوقت واذا بالفوضاء والتهامس والعويل يتزايد وشعرت بالفرضى تدب بشكل عام كما لو أن بناتنا شعرن بأن الحذر والتقيد بالنظام لم يبق له وجود وان الرقابة قد توارت كليا عن الصف واستطعت ـ بالعادة المتبعة والشعور بالواجب ـ ن أعيد النظام الى الصف وجعلت القراءة الانكليزية طويلة المدى استدامت حتى الصباح كله •

وأتذكر أنني شعرت بنفاذ صبري ازاء التلميذات النائحات وفي الحقيقة أن عواطفهن لم تكن ذات أهمية كبرى اي أنها لم تكن أصيلة انما كانت من قبيل الهياج الهستيري وصارحتهن بذلك وانحيت باللائمة عليهن بقسوة ظاهرة وفي الحقيقة انني ما كنت أقوى على تدريسهن وسط تعالي بكائهن وانهمار دموعهن ونشيجهن ولم أقو على تحمل ذلك وانقطع بكاؤهن الا واحدة الجأتني الضرورة اللازمة وأعانتني على الدنو منها ومبادرتها الكلام طالبة منها أن تكف عن هذا التظاهر وأنها ملزمة بأن تقهر تشنجها •

وحق لتلك الفتاة أن تكرهني غير أنني طلبت منها المكوث بعد انتهاء وقت الدراسة وانصراف زميلاتها من الصف وعندما ذهب الجميع فعلت ما لم أفعله مع أية منهن قبل ذلك فقد احتضنتها وقبلت خدها ثم خرجت من الصف معها سريعا ولكنها انفعلت من تصرفي وسالت عواطفها وبكت بكاءا مرا فاق بكاءها في داخل الصف • وانهمكت في واجبي كل دقيقة من دقائق النهار وكنت أروم الجلوس ساهرة طيلة الليل لو أن الشمعة اسعفتني وأعانتني على ذلك باشتعالها •

ولم يجد انشغالي بواجبي وظهر أنني جنيت من ذلك السوء وكاد يمرضني بعد الاشاعات التي سرت في اليوم التالي وبالطبع أخذت الالسن تتحدث عن غياب المسيو بول في كل مكان بعد تكتم عن الموضوع لم يدم طويلا وانتشرت الافواه بعده وفي كل مكان ما كان يسمع الا اسم المسيو بول عما نوئيل والا الاستغراب عن سر هذا الحدث •

ودار الحديث بكثرة في كل مكان وسمعت في اليوم الثالث أنه يروم السفر بحرا أسبوعا ثم قيل أنه ينوي الذهاب الى جزائر الهند الغربية ورنوت الى وجه المدام بيك والى عينيها لكي تقول شيئا تنفي فيه أو

تؤيد الشائعات الدائرة وتابعتها ومضيت في أثرها لاستجلي حقيقة الامر ولكن لم يبد منها ما يزيد على ما قالته عنه رسميا في الصف .

وقالت ان هذا الانفصال هو خسارة جسيمة لهـــا ولا تدري كيف تملأ الفراغ الذي سيحدثه غيابه لانه كان يدهـــا اليمنى وما الـــذي تستطيع أن تفعله بدونه ؟ وكانت قد عارضت فكرته ودفن المسيو بون اقنعها بان ذلك واجبه الذي ينبغي ان يحققه وتحدثت في دل هذا عندي في الصف أو على منضدة العشاء وكنت توجه حديثها بصوت تسمعه الانسه « زيلي سنت بيير » .

وقلت لها لماذا ينبغي أن يعتبر سفره واجبا له يقوم به ؟ واستطعت أن أسألها هذا السؤال وان أمسك بيدها فجأة لانها كانت تجتـــازني في الصف أو على منضدة العشاء وكانت توجه حديثها بصوت تسمعه الانسه بها . ففي ! لنسمع القضية كلها منك لماذا يعتبر واجبـــه مغادرة البلد والسفر الى الخارج ولكن المدام كانت تخاطب دائما بعض المعلمـــات وتتجنب النظر الي كما لو أنني عديمة الاكتراث بالموضوع .

وانتهى الاسبوع دون أن يقال أي شيء عن المسيو عمانوئيل وعن توديعه ايانا وبدا كما لو أن لا أحد مهتم بأمر مجيئه ولم تســـأل أية واحدة عما اذا كان سيأتي أم لا وكم تكلمن عنـــه دون أن يركزن عـــلى هذه النطقة الاساسية أما بالنسبة للمدام بيك فكانت تراه وتتحـــدث معه كما يحلو لها فلماذا لا تهتم في موضوع التساؤل عما اذا كان سيأتي الى الصف أم لا ؟ وانتهى الاسبوع وقيل لنا أنه سيسافر في اليوم الفلاني وأن وجهته هي مدينة « باسيتير » البلدة الرئيسية في مجموعة جـــزر غوادلوب التي هي مجموعة واحدة من مجموعات جزر ليوارد في البحـــر الكاريبي وتعود المصلحة التي يروم تحقيقها الى صديق له وليس لمصلحته هو وغرقت في التفكير فيه واستحوذ علي السهاد .

وعندما كنت أحس بعدم وجوده لم يكن لي من معين وكيف أكف عن التفكير به والمسيو عمانوئيل كان لطيفا جدا معي في آخـــر الايام ونمت عواطفه تجاهي أكثر فأكثر وزاد اهتمامه بي بشكل ألطف وأرق ومر علينا شهر واحد منذ أن سوينا خلافاتنا المذهبيـــة دون أن نتخاصم ولم نكن قد تفارقنا بل عشنا على مقربة من أحدنا الاخر نتحادث الساعات

twitter @baghdad_library

الطوال مع بعضنا بعضا يلفنا الانسجام والصفاء والود المتبادل كما لو كنا قد تربينا في بيت واحد واطلع على مشاريعي وخططي في الحياة وسره مشروعي المدرسي وكان يطلب مني تكراره على مسامعه حتى اعتبره حلما من الاحلام الوارده في الف ليلة وليلة وكنا نتحسس بالوئام وبالامل تحسسا عميقا وبالود والاحترام العميق والثقة المتعززة ٠

كانت دروسي التي أقدمها في الصف سهلة في تلك الايام فما من احد يوبخني توبيخا عنيفا بصدد « عقليتي » ولا من مضايقات وازعاجات لقد كانت هنالك اوقات كنا نجلس فيها كلينا صامتين دقائق عديدة ولا نتكلم خلالها قط وعندما كنا نفترق عند الغسق أو عند تلبية نداء الواجب كان يدعوني بمثل الكلمات التالية « ما أحلى الاستقرار والراحة ٠ ما اثمن السعادة الهادئة » ٠

في احدى الامسيات منذ أقل من عشرة أيام كان قد انضم الي ماشيا أياي في الممشى المنجر بالقرب من محل سكناي وأمسك بيدي فرغب تلقاي الى وجهه وظننت أنه يريد اثارة اهتمامي وقال لي بلهجة ناعمة « أيتها الصديقة العزيزة الحلوة المسلية المؤاسية » وأحسست من لمسته ونبايا كلماته باحساس جديد وفكر غريب وسألت نفسي ٠٠ « ترى ؟ هل انه اضحى أكثر من صديق وأكثر من أخ ؟ وهل أن نظرته تتحدث عن لطف يكمن وراء الاخوة والصداقة والتفاهم ؟ » لقد كان لنظرته النصيحة أبنية ما تريد أن تقوله وقادتني يده الى أيام مضت واختلجت شتاء المفسرتان ٠ وفي ممشى الشفق حدث انقطاع في الكلام شابه النحس فقد واجهنا هيكلين بشريين هما هيكل امرأة وهيكل قس وادا بهما لمدام بيك والاب سيلاس ٠

وان انسى سحنة الاب سيلاس فقد تكلم معي بحماسته واستماع شديد ونظر الى تلميذه نظرة صارمة أمام المدام بيك فقد تظاهرت طبعا بأنها لم تلحظ شيئا ورغم أن ابن عمها ممسكا بيدي أنا الاجنبية المتهرطقة ولم يغلها قط بل ظل متشبثا بها ٠ وبعد هذه الحوادث فاجأني الاعلان عن سفره واعتبرت هذا الاعلان أمرا لا يمكن تصديقه في أول الامر ولم يكن هذا سوى تكرار مماثل صادقت عليه ١٥٠ تلميذة أجبرت ازاء ذلك على القبول به أما الاسبوع المعلق بأيامه الفارغة ولكن الملتهبة ،

الاسبوع الذي لم ترد منه أية كلمة عن تبيان السبب ، فانني أتذكره ولا أستطيع أن أصف مرور أيامه علي ٠

وبدأ اليوم الاخير وقلنا انه سيزورنا ليودعنا أو لن يأتي ولن تراه أية منا أبدا ، وهذا البديل بدأ كما لو انه غير حاضر في ذهنية أية مخلوقة أو مخلوق حي في هذه المدرسة فقد نهضت كل منا في الساعة المعهودة وتناولت فطورها دون اشارة ودون فكرة واضحة عن البروفيسور ولجأن بالعادة المتبعة الى واجباتهن الاعتيادية ٠ لقد كانت الدار كثيرة النسيان أليفة مروضة باجراءاتها التي تدربت عليها وبدت ذات وجه غير مترقع وبالصعوبة كنت أتنفس في ذلك الجو الراكد الخانق وسألت نفسي أما من أحد يعيرني صوتا ؟ أما لاحد من رغبة أو من كلمة ينطق بها ؟ أما من أحد يصلي لكي أرد عليه بكلمة ٠٠ آمين ؟٠

لقد وجدت كل التلميذات مجتمعات على طلب وقت يمضينه بالعبث أو طلب عطلة أو التعثر بدرس محذوف ولم يقوين على محاصرة المدام بيك بالاسئلة وعلى الاصرار على مقابلة الاستاذ مقابلة أخيرة ، الاستاذ الذي أحبه البعض في الاقل وبلا ريب ولكن ٠٠٠ أواه ٠٠٠ ما معنى محبة الاكثرية ؟ انني أعرف أين كان يعيش وأعرف أين أقوى على سماع أخباره أو على الاتصال به فالمسافة لم تكن أكثر من مرمى حجر ٠

وسألت نفسي ٠٠ هل يمكن أن يكون في الغرفة الاخرى لا يستدعيه منها أحد ؟ لم أستطع الانتفاع بمعلوماتي أو القيام بمتابعة أو بالتحري أو بالتذكر لان هذه الاشياء لم تكن لي القوة الكافية لمعالجتها وربما كان المسيو عمانوئيل قد مر بالقرب مني أو مر بصمت دون أن يلحظه أحد ٠ وضاع الصباح كله وجاءت الظهيرة وما بعد الظهيرة وظننت أن كل شيء قد انتهى وخفق قلبي وهاجت دمائي وكأنما تغيرت مسالكها ومجاريها وشعرت بأنني محمومة بنوع ما وصعب علي بقائي في عملي أو القيام بأي عمل كان علما بأن العالم الصغير من حولي لم يتأثر بشيء ما كالذي تأثرت به بل كان مرحا كعادته لا يهمه شيء ولا يخشى شيئا ولا يفكر بشيء ٠

ان اولئك الفتيات اللواتي انتحبن أنفسهن قبل سبعة أيام للنبأ المفزع بدا عليهن أنهن نسين كل شيء ، نسين النبأ وأهميته ونسين

twitter @baghdad_library

هواطفهن وقبل أن تدق الساعة الخامسة بقليل وهي ساعة الانصراف أرسلت المدام بيك بطلبي وهي في غرفتها لاقرأ لهـا رسالة انكليزية تلقتها ولاترجمها لها واكتب لهـا جوابها وقبل أن أذهب لاحظت أنهـا أوصدت بلطف بابي غرفتها واوصدت حتى النافذة البابية بقوة رغم أن اليوم كان حارا وان دوران الهواء كان أمرا ضروريا ولاسيما بالنسبة لها فلماذا احتراسها ذاك ؟ أنها لريبة تثير التساؤل وانعدام ثقة ورغبة في تحاشي صوت وأي صوت يا ترى ؟

وأسفيت بكل جوارحي وبصورة لـم يبـدر مثيلها في حياتي · أسفيت كالمساء وكذئب الشتاء وهو يتشمشم في الثلج لكي يشتم رائحة فريسته ويسمع خطوات المسافر عن بعد وكان برسمي أن أكتب وأصغي في آن واحـد · وسمعت وأنا في منتصف الرسـالة ما أرقف قلمي عن الكتابة ، سمعت صوت خطى في المجاز ولم يقرع جرس الباب وروزينـو التي لم تكن تقوم بأي عمل الا بعـد أن تصـدر اليهـا الاوامر بذلك ترقصت مثل ذلك الجرس التنبيهي ، وشاهدت المدام توقفي عن الكتابة فأخذت تقع وتحدث ضجيجا وتتحدث بصوت عال وانتقل صوت الخطوات الى الصفوف ·

وقالت المدام لي « واصلي ! » ولكن يدي كانتا مقيـدتين وكان في أذني رقرا وأفكاري في أسر · وكانت الصفوف في بناية أخرى تفصلهـا عن دار السكنى قاعة ورغم أن القاعة كانت الفاصلة كنت أسمع جلبة الاعداد المفاجئة من التلميذات وصوت نهوض الصف كله في آن واحد · وقالت المدام « انهن يتخلين عن العمل » وكانت الساعة تؤذن بالتخـلي عن العمل فعلا ولكن لماذا ذلك السكوت المفاجي ؟ وذلك القمع المفاجيء للجلبة والضجيج ؟ وقلت لها « يا مدام لأرى مابهن ! » ·

وتركت القلم وغادرت غرفتها أما هي فلم تقبل بالبقاء في مكانهـا ولانها كانت عاجزة عن رفض طلبي فقد نهضت ولحقتني وكأنها ظـلي وانعطفت صوب الدرجة الاخيرة من السلم وسألتهـا « هل تأتين أنت أيضا ؟ » وأجابتني بنعم وهي تقابل نظرتي مقابلة خاصة بنظرة منهـا مكفهرة وعازمة في آن واحد وانطلقنا ولكن ليس سوية انما كانت تتابع خطواتي · لقد جاء !! ودخل الصف الاول وشاهدته ولم أشك أبدا في أنهم حاولوا ابعاده ولكنه جاء ·

ووقفت الفتيات على شكل شبه دائرة وكان يمر بينهن ويودعهن ضاغطا على كل يد من ايديهن ويلامس شفتيه خد كل منهن وهذه العادة الاجنبية الاخيرة المتمسكة بالشكليات القديمه يسمح بها عند العراق الطويل وصعب علي ان اتصور ان المدام بيك تطاردني على هذه الشاكله وتتابع خطاي وترافبني عن كثب بحيث ان عنقي وكتفي استشعرت الحمى من حر انفاسها وكانما اهمز بمهمازها بشكل فظيع ٠

وكان يدنو وأصبح الشكل شبه الدائري دائرة تامة ووصل الى اخر تلميذة ثم التفت الى خلف ولكن المدام كانت امامي بعد حركه مفاجئة منها وبدا كما لو انها توسع ابعاد خطاها وتوسع نطاق ملابسها بحيث أصبحت انا في كسوف لا يشاهدني احد وكانت ادرى الناس بضعفي واستطاعت تقدير درجة عجزي المعنوي وتخلفي العام عن التوكيد الذاتي وهو أمر يسهل فيه ضربي عند حدوث أزمة ما ٠

وهرعت الى قريبها وأغرقته بسيل من الكلمات لتسيطر على انتباهه وأسرعت به الى الباب ثم الى الباب الزجاجي المشرف على الحديقة واظن أنه كان يجيل ببصره على ما حواليه ولكن الغرفة كلها كانت تعج بالضجيج والارتباك وانقسمت المجموعة الشبيهة بالدائرة الى مجموعات صغيرة بحيث وضعت بين ثلاثين فتاة بشكل مزري وتم للمدام بيك ما كانت تريد أن تفعله وأخذته بعيدا عني حتى لا يشاهدني بحيث يظن أنني غائبة ودقت الساعة الخامسة وقرع جرس الانصراف القوي وأصبحت الغرف والمدرسة بلا تلميذات ٠

ولاح أمام ذاكرتي ظلام دامس وذهول عميق فأضحيت في غضون بضع دقائق وحيدة يلفني حزن لا يوصف على خسارة لا يمكن تحملها فما عساني أن أفعل أزاء ذلك ؟ أواه !! ماذا عساني أن أفعل بعد أن تبدد نظام حياتي ؟ ماذا عساي أن أفعل ؟ لم أدر ٠ وفي تلك اللحظة جاءتني طفلة هي أصغر طفلة في المدرسة وقالت لي ببساطتها وبراءتها وبصوت مضطرب لاثغ « يا آنسة ! طلب مني أن أسلمك هذا من المسيو بول الذي أوصاني أن أتحرى عنك في كل أنحاء المدرسة من العلية حتى القبو وعندما أعثر عليك أسلمك هذا » ٠

وسلمت لي الطفلة رسالة موجزة ألقتها حمامة على ركبتي لا عنوان فيها ولا اسم باستثناء الكلمات التالية ٠٠ « لم يكن في نيتي أن أتركك

twitter @baghdad_library

عندما قلت وداعا للجميع ولكنني أملت أن أشاهدك في الصف فصعب علي ذلك وكان الفشل من نصيبي ولم يبق مجال للمقابلة • استعدي لملاقاتي قبل أن أسافر أو ينبغي علي أن أشاهدك عند فراغي وعنـــد ما تتاح الفرصة لي للتحدث اليك حديثا مستفيضا طـــويلا استعدي لذلك لان وقتي محدود والان محتكر تماما ثم ان لي شغلا خاصا لا أبوح به لاحـد حتى ولو كان هذا الاحد أنت » وتحت هذه العبارات اسم (بول) •

وقلت لنفسي ماذا يقصد بعبارة « كوني حاضرة ؟ » اذن ربمـــا يريدني في هذا المساء وهل يعني هذا أنه لن يسافر غـدا ؟ نعم •• انا متاكده من ذلك فقد سمعت الاعـــلان عن ميعاد سفر باخرته •• ينبغي ـ والحالة هذه ـ ان اكون مستعدة وهل ان هذا اللقاء المنتظر مند مدة طويلة سيتم ؟ ان الوقت قصير جـــدا والمخططون يبـدو عليهم التيقظ والنشاط والرغبة في العدوان • ان طريق الدخول يبدو عسيرا وشاقـا كاخدود هوة عميقة : لقد تفرشخ (أبوليون) ملاك الهاوية او الجحيـم من فوقه وهو ينفث اللهب في الكتاب المعنون « تقـدم الرحاله لبونيان » كان أبوليون او ملاك الهوة التي لا مقر لها يشبـــه التنين أو العنريت وينفث اللهب وتمكنه قدماه الطويلتان المعرشفتان من أن يفرشخ منعرج الساقين على ضحاياه فيطرحهم أرضا (من شرح المؤلفة المتسلسل في آخر الكتاب) وسألت نفسي « هل يقـــدر لقلبي العظيم الغلبة والانتصار ؟ وهل لرشدي ودليلي ان يصلني ؟ » •

من يدري ؟ وبدأت أستعيد بعض شجاعتي وراحتي وسلواي وظهر لي أنني استشعر خفقان قلبه بصدق واخـــلاص مع كل خفقـات قلبي وانتظرت مجيء بطلي • لقد جاء أبوليون يقود جحيمه وراءه وفي رأيي انه اذا كان من شأن الابدية صد العذاب والعيلولة دونه فان شكلها لـــن يكون شكل عذاب النيران وحدث في تلك الامسية أنني انتظرت واثقـة من غصن الزيتون الذي جـاءت به الحمامة المبعوثة ومع الثقـــة التي راودتني كنت أحس بخوف شـديد للغاية وضـاغط على النفس للغـاية وبرودته المهلكة •

وبدت أولى الساعات طويلة وبطيئة الحركة ومن الناحية الروحيـة تشبثت بأهداب الابدية الطائرة التي كانت تمر في طيرانهـــا كالغيمـة المنقشعة بفعل الرياح الهابة وكالسحابة العالية التي تفرقها الزوبعـة • لقد مرت الساعات وانقضى كل نهار الصيف الحار الطويل وبقيت أنا بين

الظلال الزرق الباردة وانتهت الصلوات وحان موعد النوم ولكنني ظللت باقية في الصف الاول الكئيب ناسية أو متناسية الانظمة وهي الانظمة التي لم انسها أو أتناساها سابقا ·

أما كم مرة خطوت أرضية الصف جيئة وذهوبا فهو أمر لم يبق في فكري ويبدو لي أنني ظللت أمشي طوال ساعات بين الرحلات وبجانبها ثم بكيت في أخر الامر ثم سيطرت على دموعي وأنا أناجي الليل في وحدتي وسيطرت على نشيجي أيضا وظلت الاحزان تعتصر قلبي وتشق طريقها اليه في تلك الدار ويا لها من أشجان قدسية ·

وبعيد الساعة الحادية عشرة ـ وهي ساعة تعتبر متأخرة جدا في شارع فوسيت ـ فتح الباب فتحا هادئا لا متلصصا وغزا ضوء الصباح ضوء القمر واذا بفاتحة الباب هي المدام بيك دخلت كما لو أنها تدخل في مناسبة نظامية في فصل نظامي وبدلا من أن تخاطبني في الحال اتجهت الى رحلتها واخذت مفاتيحها كما لو أنها تريد التفتيش عن شيء ما وراحت تتواني وتتلكأ في تفتيشها طويلا بهدوء تام ولم يحتمل مزاجي ذلك فقد تركت ورائي الاحترامات التي تعودت على تقديمها والمخاوف التي كنت أستشعرها منها ويعد الان لن أتحمل أي نير من الانيار ولن أتحمل أي زجر أو كبح ·

وقالت المدام « لقد فات كثيرا أوان اللجوء الى الفراش فنظام الدار يداس عليه منذ مدة طويلة جدا » ولم تلق المدام مني تعليقا أو جوابا ولم اكن قد دققت ممشاي وعليه عندما جاءت في طريقي أزحتها عنه · وقالت لي « دعيني أقنعك لكي تلازمي الهدوء أيتها الانسة ودعيني آخذك الى غرفة نومك » وأعطت لعباراتها هذه نبرة لطيفة وقلت لها « كلا ! لا أنت ولا سواك يستطيع أن يقنعني أو يقودني » وقالت لي « ينبغي أن يكون فراشك دافئا والطباخ غوتون جالس حتى هذه الساعة · وفراشك سيريحك ويهديء أعصابك » ·

وقلت لها وانا أتفجر غضبا « أنت من صاحبات المذهب الحسي فتحت أغطية صفائك وهدوئك وسلامك ولياقتك وذوقك ولانك تعتبرين من ذوات المذهب الحسي فاجعلي فراشك دافئا وناعما وخذي المسكنات واللحوم والمشروبات مطيبة ومتبلة وحلوة قدر ما تشائين واذا كان لديك حزن ما أو قنوط ما فانشدي الملطفات والاطايب من مصادرك المختارة واتركيني وشأني » ·

twitter @baghdad_library

وقالت لي « علي أن أرسل شخصا آخر لمراقبتك أيتهـــا الانسة · سأرسل لذلك غوتون » وقلت لها « ارفض ذلك !! دعيني وشاني وارفعي يدك عني وعن حياتي ومتعلقاتها وأوجاعها · أيتها المدام ·· اقول لك بصراحة أن لا يوجد في يدك سـوى القشعريرة والسـم · أنت تسمين وتشلين المقابل بسمك » وقالت لي « ماذا فعلت لك أيتها الانسة ؟ عليك الا تتزوجي بول لانه لا يستطيع الزواج » وقلت لها « ان الذي لا يتزوج لا يدع سواه يتزوج » قلت لها ذلك وأنا أعرف سرا أنها تهواه وكانت دائما تريده لنفسها وكانت تقول عنه أنه لا يمكن احتماله وأنه منصرف لشؤون الورع والتقوى ولم تكن تحبه حقيقة بل كانت تريـد الزواج منه حفاظا على مصالحها ·

ولا أدري كيف تغلغلت في عمق أسرار المدام بيك هل حـدث ذلك بطرق المصادفات أم بفعل الوحي او الالهـام ؟ لا ادري متى وكيف ففي خلال عيشي معها أيضا أدركت شيئا فشيئا أنها لم تصادق من هو شاعر بالنقص حيالها فينبغي عليها أن تكون في حالة منافسة معه وكانت الان منافسة لي قلبا وقالبا وبالروح والقلب وان كانت تفعل ذلك سرا ولا يعلم بذلك أحد سواي وسواها ·

ووقفت دقيقتين حيال المدام شاعرة بأن المـرأة ضمن سيطرتي لان قناعها المعتاد وتنكرها في بعض الحالات المشابهة لهذه الحالة وفي بعض حالات الادراك الحسي المشابهة لهذه الحالة ـ تصبح بالنسبة لي مجـرد شبكة ملآى بالثقوب وأمامي مجرد امرأة لا قلب لها مطلقة عنان أهوائها تتسم بالغشة والحقارة فقد أخذت تنحسر عني وتتراجع بخنوع وهدوء مشوبة بقلق شديد ·

وقالت لي أنني ان كنت غـير مقتنعة بوجوب أخذي الراحة فانها لا معدى لها عن أن تتركني وشأني على مضض وهو ما فعلته بعـــد أن عجزت عن ضبط نفسها · وهذه كانت أول مناوشة تحـدث بيني وبين المدام بيك ولم يحدث بعد ذلك شيء مماثل بيننا أبدا ولم تبدل وضعهـا مني قلامة ظفر اطلاقا ولا يخطر ببالي أنها انتقمت أو حاولت الانتقام مني ولا أدري أنها أبغضتني لتلك الصراحة التي بدت مني بفظاعة ازاءها وأظن أنها حمت نفسها مني بفلسفة خفية من قـوة عقليتها وذهنيتهـا وعولت على نسيان ما يزعجها تذكره ولم تتكرر بيني وبينها أية حادثة ·

وانقضت تلك الليلة وكل الليالي الاخرى وانقضت حتى الليلة الغائمة لما قبل الحادثة وفي حوالى الساعة السادسة وهي الساعة التي تنادي أهل المنزل خرجت الى الساحة وغسلت وجهي بماء البئر البارد النقي ودخلت عن طريق المربعات الارضية الى مكان فيه مرآة وضعت في حجرة خصوصية سنديانية صغيرة ونظرت الى وجهي فاستبان لي أن تغيرات حصلت فيه فقد ابيض خداي وشفتاي واصبحت عيناي كالزجاج وبان الانتفاخ والاحمرار في جفنيهما ٠

وعند التقائي بزميلاتي في الصف علمت انهن جميعا كن ينظرن الي ويعرفن ما في سريرتي وما في دخيلة قلبي وتاكد لي أن حتى أصغر التلميذات كن يضربن أخماسا بأسداس عما حدث لي ومن أجل من أتعذب ومن أجل من كل هذا المصير القانط وشرعت ايزابيل الطفلة التي خدمتها ورعيتها أثناء مرضها توجه الي اللوم ٠ ترى هل كانت تسخر مني عندما قالت لي ما أكثر شحوب وجهك فهل أنت مريضة جدا أيتها الانسة ؟ » قالت ذلك لي بعد أن وضعت اصبعها في فمها وراحت ترنو الي بنظرات حمقاء ووجدتها في ذلك الوقت أجمل من أية محققة ذكية ٠

وقبل أن ينتهي النهار استطعت أن أعرف سبب عرفاني بجميل أهل الدار كلهم هؤلاء الذين كان يشغلهم هذا الشاغل أو ذاك عن أن يقرأوا ما في القلوب والسرائر وعن أن يفسروا الكلمات الغامضة والذي يزمع أمرا عليه أن يحافظ على كتمانه وفي ذلك اليوم أدركت بالبرهان تلو البرهان لا فقط عدم اهتدائهم تكهنا الى سبب حزني الحالي وانما أدركت أيضا أن سريرة حياتي الخاصة كلها طيلة الاشهر الستة الماضية كانت ولا تزال حياتي الخاصة فقط ولم يعرف أحد ولم يلاحظ أحد أنني محتفظة ـ كاتمة ما عندي ـ بحياة واحدة من بين حيوات الاخرين ومرت الاشاعات من أمامي تنظر الي نظرات فضولية ملؤها المكر والتحايل تحوم حولي دائما دون أن تقوى على التركيز على ما أكنه في دخيلة نفسي ٠

ان المسيو بول عماتوئيل قد جاء وذهب وأعلمت بذلك وسميت من أجل ذلك ودارت الاشاعات عن أنه كان يستدعيني بالمناسبة أو بدون مناسبة وكنت البي ذلك طائعة راضية وأنه يحب الانسة لوسي وان

twitter @baghdad_library

الانسة لوسي معه وتلك كانت « البيانات الرسمية » الصادرة عني وعنه ولم يعلق أحد على ذلك فضلا عن أن يدينه ولم يوميء اليه أحد أو يسخر منه أحد ٠

وأي ألم جسماني يضارع مثل هـذا الالم ؟ الالـم الذي لازمني بالتاكيد بسبب ذهابه دون أن يودعني وبسبب هـذا الاعتقـاد الفظيع بقسوته ، اعتقادي بحسد امرأة وتعصب الكاهن مذهبيا وهما ما جعلاني أخسره ولا تراه عيوني وهل من عجب اذا وجدت نفسي في المساء القادم كالمساء الذي سبقه متهيجة الاعصاب معذبة النفس أخطـو في الغرفـة خطوات الوحدة في حالة لم تتبدل من البؤس والكآبة الصامتة ٠

ولم ترسل المدام بيك في طلبي في تلك الليلة لتبعث بي الى فراش النوم ولم تتقرب أو تدن مني انما أرسـلت جنيفرا فانشاوي وكيلتهـا المقتدرة لتحقق لها الغرض الذي لم تستطع بنفسها تحقيقه وأول سؤال بادرتني به جنيفرا هو « هل ان الم الرأس عنـدك شديد جـدا في هذه الليلة ؟ » وكانت تظن كسواها أنني أشكو ن ألم في الرأس ، ألم لا يمكن احتماله بدا في اصفـرار وجهي اصفـرارا فظيعـا وفي ألم لا يوصف في قدمي ، وأولى كلماتها هذه أوحت لي بأن أفر من وجههـا الى أي مكان يبعدني عنها وبعد أن شكت لي هي أيضا عن أوجاع في رأسهـا انتهت المهمة فصعدت الى فوق وفي الحال استلقيت على فراشي وكأنما في فراشي البائس عقارب لاسعة في لحمي ولم يطـل الامر بي في فراشي أكثر من خمس دقائق واذا بوكيل آخر للمدام بيك يأتيني ويدخـل وكان الطباخ غوتون الذي جـاء لي بشيء اشـربه وكنت عطشى الى حد التلف فشربت برغبة شديدة ومع أن العصير كان حلوا وجدت مذاقـه مرا في حلقي كالـدواء ٠

وقل لي غوتون بعد أن سلم لي العصير « انه سيجعلك تنامين نومـا مريحا يا عزيزتي » ثم استعاد القدح الفارغ من يدي وشعرت حقا بأن للعصير مفعوله فقد خدرني تخديرا قويا وسكن آلامي وشعرت بالهدوء في تلك الليلة وأوى أفراد الدار الى أفرشتهم وأضيئت أنوار الليل وساد سكون على المهجع ونام الجميع نوما هادئا وهم خلو من آلام الرأس والقلب باستثنائي أنا المسهدة واذا بمفعـول الدواء يـدب في عروقي ولا أدري ما اذا كانت المدام قد زادت من نسبة الجرعة أو أنقصتها وظهرت النتيجة بشكل لم تكن تتوقعها وبدلا من الخدر جاء الهياج ٠

وراودني فكر جديد ، حلم يقظة ودقت أبواب التجمع في الكليات على غير وقتها المعهود وانبرى من بينها الخيال بجموحه ومغامراته وعاينت المدام تنظر بازدراء وتقول « انهضي أيتها الكسلى في هذه الليلة ستكون ارادتي هي السائدة لا ارادتك وصـــاحت بي « انظري أمامـك لترى الليل » وعندما رفعت الستارة عن النافذة البابية أظهرت لي بايماءتها الملوكية الخاصة بدر الليل في مجال عميق رائع ·

وبالنسبة لحواسي اللاهثة تحول النور ظلاما والحدود الضيقـــة وحرارة المهج المزهقة بشكل لا يمكن احتماله وأغرتني بالخروج ومغادرة هذا الوكر واقتفاء أثرها حيث الندى والبرودة والبهـاء ومكنتني من القاء نظرة غريبة على مدينة «فيليت» في منتصف الليل وأظهرت لي بشكل خاص المتنزه ولا سيما الصيفي منه بمماشيه وممراته الطويلة المشجرة يسودها الصمت والوحدة والامان ·

وبين كل هذه حوض من الحجارة الضخمـــة أعرفه حق المعرفـة حيث كنت غالبا ما أجلس الى جانبه بين ظلال الاشجار ومياهها الباردة وحشياتها ذوات الاوراق الخضراء وماذا عن كل ذلك ؟ كانت بوابـات المتنزه موصدة يحرسها الحرس بحيث لا يمكن أن يدخل اليها أحـد اهي مخفورة وسألت نفسي « هل يمكن أن أفعلها ؟ انها نقطة جديرة بالاعتبار وبدلا من من أن أمعن بها التفكير شـرعت في ارتـداء ملابسي ميكانيكيا لا أقوى على النوم أو حتى التمدد على الفراش ، منفعلـة من رأسي الى أخمص قدمي وما الذي يمكن أن أفعله أفضـل من أن أرتدي ملابسي ؟

كانت البوابات موصدة والجنود تخفرها وهل معنى ذلك أن لا أحد يقوى على دخـول المتنزه ؟ وفي اليوم التالي عندما كنت أتمشى وجـدت ثغرة في السياج الخشبي ووتدا مكسورا ، وجدت ذلك كله بصورة واضحة جدا ، وجدت الفتحة الضيقة بين سيقان أشجار الزيزفون وبين صفوف الاشجـــار ولم يكن بوسع الرجل أن يمر منها ولا امرأة بدينة كالمـدام بيك ولكنني تصورت أن بامكاني النفوذ من الفتحة وقلت لأجرب حظي وعندما نفذت منها أصبح المتنزه ملكا لي بضوئه القمري ومتنزهـه في منتصف الليلة تلك ·

ما أعمق نومة من ناموا في المهجع وما أهدأ تنفسهم في كل أرجـاء الدار الواسعة وسألت نفسي عن الوقت وكنت من القلق بحيث لم أستطع التقدير · هناك ساعة كبيرة تحت الصف فما الذي أعاقني عن أن أغامر

twitter @baghdad_library

في النزول لاعرف الوقت وفي مثل هذا البدر ينبغي أن يكون وجهها الابيض العظيم وأرقامها السوداء النفاثة واضحة وضوحا رائعا وبالنسبة لما يعيق هذه الدرجة من السلم لم يكن العائق هو صرير المفصل أو قرقعة المزلاج ففي مثل تلك الليالي الصيفية الحارة ، ليالي شهر تموز يكون الهواء المحبوس مزعجا لا يمكن تحمله وكان باب الغرفة مفتوحا على مصراعيه فهل أن ألواح بناية المهجع الخشبية تتحمل دوسات القدم دون أن تخون ؟ نعم ٠٠ آنني أدري بأن علي أن أتجنب لوحة الخشب المخلخلة وأدري بأن بيت السلم الذي هو من خشب البلوط يسقسق نوعاما عندما أنزل منه ولكنه لا يسقسق بقوة فأنا الان في أرضية المربعات ٠

لقد وجدت أبواب الصفوف الكبرى موصدة ومصومعلة ومثبتة بالرتاجات ومن الجهة الاخرى كان مدخل الممشى مفتوحا ، وبدت الصفوف أمام ناظري وفكري كما لو أنها سجون كبرى مزعجة مدفونة وراء الشوارع العامة وبالنسبة لي ملآى بذكريات أشباح لا تحتمل ومرمية بشكل بائس بين قيودها وتوافهها ويوفر المر منظرا عاما مبهجا مؤديا الى ردهة علية تشرف اشرافا مباشرا على الشوارع ٠

صه !! ٠٠ الساعة تدق بعمق كعمق هدوء هذا الدير القديم ، تدق الساعة الحادية عشرة وأذني تصيخ السمع لطنين الدقة الاخيرة ورنينها وتناهى اليها صوت كصوت الاجراس أو الغرفة الموسيقية ، صوت تمازجت فيه قوة الحلاوة والانتصار والتفجع ٠ آه ٠٠ لأقترب من هذه الموسيقى أكثر ولأصغ اليها وحدي بجانب الحوض الذي يحيط بمرقعه الحشيش والنباتات لاذهب ٠٠٠ لاذهب فمن ذا يعيقني عن ذلك ومن لا يعين الحرية ويأخذ بيدها ؟٠

هنالك في المر أو في ممشى الحديقة المشجر علقت سترتي وتنورتي وقبعتي الكبيرة وشالي ولا يوجد قفل في باب رواق العربات الهاتل الثقيل ولا يوجد قفل أتحرى عنه فهو ينغلق بنوع من الرتاج الزنبركي ولا يمكن فتحه من الخارج وانما يفتح من الداخل فقط عن طريق سحبه سحبا هادئا فهل بوسعي أن أقوم بذلك ؟ انه سهل الانقياد بيدي وينفتح بسهولة ومن رصيف شارع فوسيت الهادىء أخذت أهيم بتلك الليلة الصيفية واستغرقت في تفكيري مطلقة عنان خيالي فالقمر من فوق رأسي وأشعر برطوبة الندى في جوه ٠

الا أنني لست أريد البقاء هنا اذ هي موقع الاشباح المسحورة

تحت الزنزانة التي أكاد أسمع تأوهات مساجينها • ان هـذا السلام الوقور المهيب ليس بالذي أنشده وبالذي أقوى على تحمله فعندي أن وجه ذلك الجو يحمل وجه العالم الميت • ان المتنزه هادىء أيضـا وأدري أن صفاء مملا يسوده في كل مكان ومع ذلك لأذهب الى المتنزه •

واخذت طريقا معروفا ومشيت صـوب القصر الملكي « هوتفيـل » حيث تصدر عنها نغمات الموسيقى التي اسكتت الان وربمـا ستنبعث ومضيت في طريقي دون أن تصل الى سمعي موسيقى الفرقة ولا موسيقى الاجراس حيث حل محلها صوت آخر ، صوت كصوت التيـار القـوي والمجرى المائي وخريره القوي متعقبا كلما تقدمت وانبعثت الاضـوية وتعاظمت حركة الناس وجلجلت الاجراس فمـا الخبر ؟ والى اين أنا واصلة ؟ ووجدت نفسي وأنا ادخل مستوى الارض المؤدية الى القصـر الكبير « وكأنني في خضم سـحر مرعبة وسـط جـمع بهي بهيج مليء بالحيوية والنشاط » •

ان مدينة فيليت في وهج واحد ونور واحد وسيع الامتداد ويبدو كما لو أن العالم كله خارج نطاق ما وجدته والسماء لا وجود لها فالمدينة بمشاغلها الخاصة تشعـ بهاءها وملابسهـا الزاهية وأطقـم عرباتها وجيادها الجميلة وفرسانها الشهـام محتشدين في شوارعها ، وشـاهدت حتى عشرات من الاقنعة •• انه لمنظر غريب ، أغرب من الاحلام ولكن اين هو المتنزه يا ترى ؟ ! ينبغي أن أكون على مقربة منه ، ففي منتصف هذا السطوع ينبغي أن يكون ظليلا وهـادئا فهناك لا توجـد مشاعل ولا مصابيح ولا جموع من الناس •• هل توجد ؟

وكنت أسأل هذا السؤال حين مرت بي عربة مفتوحة ملأى باوجـه أعرفها فالمكان كان يعج بالناس ولا يمكن لعربة أن تمشي في حـالات كهذه الا بطيئا وتضطرب الخيول النشيطة عندما يلجم نشـاطها ولهذا وجدت راكبي تلك العربة مشاهدة جيدة ولم يشاهـدوني هم وكادوا يلامسون شالي عند وقفتهم وكذلك قبعتي علما بأنه في مثل ذلك الزحام البشري المتعدد الالوان لم يكن من السهـولة بمكان ملاحظـة الالبسة •

ووجدت الكونت دي باسومبيير وعرابتي بلباسيهما الجميلين في حالة مرح ووجدت أيضا بولينا ماري تحيط بها الهالة الثلاثية جمالها وشبابها وسعادتها وعندما ينظر المرء الى محياها الجميل وعينيها اللتين تشعـان بالنور البهيج قلما يقوى على ملاحظة اناقتها في ذلك المهرجان ولم أعرف

twitter @baghdad_library

سوى أن ألوان ملابسها كانت بيضاء خفيفة عروسية والى جانبها وجدت غراهام بريتون .

وسرني كثيرا جـــدا أن ألحق بهؤلاء الاصـدقاء دون أن يروني وبالفعل مشيت في أثرهم الى المتنزه على ما كنت أظن وراقبتهم راجلة لان العربات ممنوع دخولها الى هناك وعلى البوابة الحـــديدية الكائنـة بين الاعمدة الحجرية امتدت قنطرة متوهجة بنيت على شكل أنجم متراصـــة وتبعتهم بحذر من تحت القنطرة فأين هم الان وأين أنا ؟! .

انهم في أرض ساحرة وحديقة فاتنة رائعة الجمال والبهـاء وسهل تلمعه شهب ذات ألوان وغابة تعج بالالـــوان الارجوانية والياقوتيـة ونيران ذهبية مرصعة بالنباتات التي تزرع من أجل استخدام أوراقهـا للزينة .. انها منطقة لا كمنطقة الاشجـــار والظلال وانما منطقـــة أغرب ، ثروة هندسية من معابد وهياكل وأهرام ومســلات وسفينكسات (الكائنات الخرافية في الميثولوجيا الاغريقية) وربما لا يصـــدق المرء اذا قلت أن عجائب القصر ورموزهـا ظهرت كلهـا في ذلك المتنزه المسمى بمتنزه فيليت .

ومع ان السر كان سري طيلة خمس دقائق فان مفتاح السر اكتشف وأزيل ما كان يحيطه من وهم ورغم أنني أدركت بسرعـــة مواد هـذه الاجزاء المهيبة وهي الخشب والصبغ والكرتون أو المقـــوى فان هـذه الاكتشافات عجزت عن أن تقضي على الجو الساحر وعلى روعـــة تلك الليلة وتوصلت الى معرفتي وتفسيري المهرجـان الخـــلوي العظيم كله وهو مهرجان لم تشهد له مدينة فيليت مثيـــلا أو تتذوق ما يماثلـه ، افتتح عند فجر ذلك اليوم واستمر على عظمتـه وزهـــوه حتى منتصف الليـــل تقريبـــا .

وسر هذا المهرجان حسبما يرويه تاريخ مدينة فيليت أن أزمـــة مخيفة حلت وهددت مصير « لاباسيكور » وأحدقت أخطار لا أدري مداهـا بحقوق وحريات المواطنين الشهام وراجت آنذاك شائعـــات عن وقوع الحروب الفعلية ذاتها وحدث نوع من النضـــال والقتال في الشـوارع وضجيج وركض هنا وهناك بسبب القلق والاضطراب .

وهوجمت التحصينات وتمرد المواطنون واستدعيت الجيوش وساد الهرج والمرج والتقريع وبعض الاطلاقات النارية هنا وهناك . وتقول التقاليد التاريخية للمدينة أن بعض المواطنين سقطـــوا قتـــلى وأبرز

للمواطنين سياج بني بمهابة ليحوي عظام الشهداء ومهما كان الامر عين يوم واحد من أيام العام يجري به مهرجان تكريمي لاولئك المواطنين والشهداء ولذكراهم وتقام في صبيحة ذلك اليوم شعائر دينية في كنيسة يوحنا المعمدان ويخصص مساؤه للمشاهدين والزينات والانارات التي هي كالتي أشاهدها الان ٠

وبينما كنت أنظر الى بعض الطيور الجميلة المشابهة للقالق التي توجد بكثرة في المستنقعات وعلى أطراف البحيرات عندما يكون الجو دافئا وقع نظري على طريق مشجر واسع يعج بأضواء المشاعل في نهايته صورة للسفينكس ـ أضعت مكان جماعتي الذين تتبعت أثرهم واختفوا عن ناظري كما يختفي الاشباح بين ذلك المشهد الذي كان كالحلم يتحرك فيه كل شيء ويشعر كل فرد فيه بالانطلاق وكل صوت يشبه الصدى وقد توارت بولينا وجماعتها مع أنني بالكاد أصدق أنني شاهدتهم فعلا ولم أخسرهم كأدلاء في تلك الفوضى بقدر ما خسرتهم كحماة لي في وسط تلك الليلة ٠

لقد حضر نصف الفلاحين مع أطفالهم من الضواحي القريبة من المدينة لحضور المهرجان البهيج والمواطنون المحترمون كانوا كلهم في خارج المدينة وحواليها مرتدين أحسن ما لديهم من الملابس ومرت في الطرق بسلام واختلطت مع ذلك الجمهور الكبير الغفير العدد ولم يكن بوسعي ملازمة الهدوء أو ملاحظة كل شيء بسهولة وتمتعت بالمشاهد وأنا أكتشف هواء الليل العليل والضوء الساري الذي ما ان يومض ههنا حتى يبهت ويتلاشى هناك وبالنسبة للسعادة أو الامل فقد تصافحت معها وأصبحت صديقة لهما أما الان فقد أخذت أسخر من القنوط وأبدي تبرمي به ٠

وكان هدفي المهم وأنا أمضي في طريقي أن أجد الحوض الحجري المائي بعمقه الصافي وبطانته الخضراء وفكرت بنباته المغضوض وببرودته وبالعطش الذي يستشعره المحموم بين سطوع الاضوية وسرعة حركة الجمهور والحشد المزدحم من الناس وضجيجهم المتواصل وظللت أشتاق في الخفاء الى الوصول الى تلك المرآة الصقيلة وأفاجيء القمر وهو يلقي بنوره على جبهتها اللؤلؤية ٠ واهتديت في آخر الامر الى طريقي وان تراءى لي بأن من الصعب علي المضي فيه بشكل مباشر حيث

twitter @baghdad_library

يدعوني هذا المنظر وذلك الصوت بسلوك هذا الزقاق أو ذاك وهـــذا الممشى المشجر أو ذاك .

وفجأة شاهدت الاشجار المتكاثفة وتناهت الى سمعي من بعيد أصوات الاغاني والموسيقى الجميلة المريحة وظننت أنني انحـدرت وتهت فجـأة فالاصوات كانت هناك وبدا لي أن لا عداد لها ولا عداد لأدوات العزف والايواق على أنواعها وتراءى لي كما لو أن البحر أضحى كله يغني مـع كل ما فيه من أمواج .

لقد اجتاح تياره المندفع هذا الطريق ثم انحسر وتراجع فتابعت أثر تراجعه وانحساره فقادتني قدماي الى بناية بيزنطية (أشـارت المؤلفـة في شرحها المدون تسلسلا في آخر قصتها الى النمط الهندسي الذي سـار عليه البيزنطيون القـدماء في القسطنطينية عنـدما كانت عاصمـة الامبراطورية الرومانية الشرقية من القرن السادس الى القرن الخامس عشر حين غزاها الاتراك) ثم وصلت الى كشـك في الحديقـة بالقرب من منتصف المتنزه الذي وقف حوله الالوف من الناس تتـاطروا لحضور حفلة موسيقية في الهواء الطلق الذي سمعته كان غناء مجزعة للجنود أو للعبادين ، غناء ممتعا للجميع .

وشوهدت السيدات مجتمعات ومنظرهن تحت تلك الاضـواء كان أجمل وأبهى وبعض ملابسهن كانت شفافة جدا تظهر مفاتن أعضائهن وابدانهن وكان لبعضها بريق الساتان الاطلسي وقد احتـل معظم تلكم السيدات كراسي المتنزه الخفيفة الصغيرة ووراءهن وبجـانبهن حراسهن من الجنتلمانية أما الصفوف الخارجية لذلك المجتمـع فقـد تألفت من المواطنين والعوام والشرطة وأخذت مكاني بينهم وراق لي أن أكون وحيدة وسط المظاهر ، مظاهر الحيوية والمرح ولم تكن بي أية رغبة في أن أزاحم سواي وأشق طريقي بين صفوفهم وكان مكاني بعيـدا أسمع الموسيقى ولا أرى الا الشيء القليل .

وسمعت صوتا عند الكرسي ذي الذراعين يتجرأ بمبـادرته الكلام معي قائلا « ليس هذا مكانا مناسبا للأوانس » وقالها بصوت غير مهذب والتفت لاردعه بدلا من أن أجيبه على عبارته فوجدت شخصـا مواطنـا وغريبا تماما كما اعتقدت لاول لحظة ولكن بنظرتي اليه ثانية عرفته . انه صاحب مكتبة حرفية يبيع فيها الكتب والادوات الحرفية ويجهز شارع

فوسيت بكتبه وقرطاسياته وهو سيء الصيت في مدرستنا الداخلية بسرعة انفعاله حتى معنا نحن زبائنه الرئيسيين أما بالنسبة لي فقد كان عطوفا معي يساعدني على ازالة مشاكلي في بعض الاحيـــان بصدد التحـــويل الخارجي ويقدم لي بعض الخدمات ٠

لقد كان رجلا ذكيا ورغم حدة طباعه كان رجلا طيب القلب وخطرت لي فكرة أحيانا بأن بعض طباعه يحاكي طبـــاع المسيو بول عمانوئيل الذي له به معرفة جيدة وسبق أن شاهدته واقفـــا على طاولته الطويلة يقلب صفحات بعض الموضوعات الشهرية الدورية والغريب أن هـــذا الرجل عرفني من قبعتي القشية وشالي المطوي طيا محكما ٠

وقد أصر على أن يفسح لي مجال المرور من بين الجمهور فأفلح في ذلك وأوصلني الى مكان أفضل واكمل انسانيته فحصل لي على كرسي من مكان آخر وتأكد لي أن بعض من يقال عنهم بأنهم مزعجون ليسوا اسوا الناس وهذا الرجل بسلوكه المؤدب لم يجد غرابة في ان يجدني هنا وحيدة وبعد أن حصل على مكان مريح لي وكرسي اجلس عليه انسحب دون ان يطلب مني أي شيء أو يسألني اي سؤال او يبـــدي لي أية ملاحظـــة ٠

ولم يمض على جلـــوسي خمس دقائق الا وادركت ان الفرصـــة وصديقي المواطن جاءا بي مرة اخرى لكي اكون ضمن القدرة على مشاهدة جماعتي المألوفة فالى يميني جلس البريتونيون ومعهـــم دي باسومبير وضمن نوش يدي اليمنى ـ لو أنني مددتها ـ جلست شخصيه تشبه ملكة الجن بثيابها السوسنية الجميـــلة ، والذي لم يكن أبيض ســـوسنيا كان باخضرار الغابة وجلست عرابتي أيضا جـــد قريبـــة مني بحيث لو أنني أملت وجهي الى أمام صوبها لكانت أنفاسي كافية لتحريك شريط قبعتها ٠ لقد كانوا قريبين مني كثيرا وشعرت بالحرج وعدم الارتياح من أكون على هذه المقربة من معارف محبين لدي ٠

وجفلت حراجة حين سمعت السيدة بريتون وهي تلتفت نحو المسيو دوم وتحدثت اليه بنوع من قوة النكرى قائلة « لا أدري ما كانت تقوله صغيرتي لوسي الحبيبة الهادئة في كل هذا لو كانت معنا ؟ ٠٠ كنت أود احضارها معنا لكي تتمتع بكل هذا » وأجابها الشيخ الطيب « نعـــم ٠٠ نعم ٠٠ كان ينبغي علينا أن نفعل ذلك وندعو هذه الفتـــاة الحساسة الوقورة وانا شخصيا أريد لها السعادة التامة والطمأنينة » ٠

twitter @baghdad_library

لقد كان هذان الشخصان عزيزين على قلبي ولا يزالان كذلك فهما لا يعرفان الا القليل عن مصدر الالم الذي أوصل لوسي الى حمى جمعتها تحرج طائشة بلا دليل وأوصلتها الى حافة ما يشبه الجنون المؤقت • وكانت لي بقية ذهنية لكي أميل الى أكتافهما واجيب على طيبتهما بتشكرات عني • ان المسيو دي باسومبيير لم يكن يعرفني أما انا فكنت أعرفه وأعجب بسريرته الطيبة التي كانت تروق لي وباخلاصه الواضح الصريح ووداده الدافيء وحميته الطبيعية •

وكان ينبغي علي أن أتكلم على ما أتصور ولكن غراهام التفت في ذلك الوقت باحدى حركاته الجميلة التي تختلف عن حركات الرجل العادي الطبع القصير القامة ووراء ظهره حوالى مائة صف من النساس وألوف يجتذبون نظره الفاحص فلماذا اذن ركز كل نظراته الي فأثار اضطرابي بكل ما في تينك العينين الزرقاوين الواسعتين من قوة ؟ ولماذا عندما وقع نظره علي لم يكتف بنظرة واحدة ؟ ولماذا دار على كرسيه وأسند مرفقه على ظهره وراح يتأملني بعمق ؟•

ولم يقو على رؤية وجهي لانني كنت قد أطلته صوب الارض وبالتأكيد لم يعرفني كل المعرفة وبعد أن انحنيت التفت دون أن يعرفني ونهض من مقعده وحاول أن يقترب وبعد دقيقتين اكتشف أمري وكان أمامي طريق واحد فقط لصده أو لمراوغته هو افهامه ضمنيا بنوع من الايماءة التوسلية أن يتركني ويدعني وشأني ولو أصر بعد ذلك ربما آثار سخط لوسي ذلك أن كل الذي لا يزال موجودا فيه من فخامة أو طيبة أو عطف ــ ولوسي تشعر بها جميعا ــ لن يبقيها أليفة أو مسالمة •

ونظر ثم كف عن محاولته وهز رأسه الجميل ولم ينبس ببنت شفة وعاد الى مقعده ولم يعد يلتفت الي أو يزعجني بنظرته الا في مرة واحدة فقط حين حدجني بنظرة فيها من معاني الجزع والقلق أكثر مما فيها من معاني الاستطلاع والفضول وتكلم بكلمات كادت توقف ــ بنوع ما ــ وجيب قلبي مثلما تسكت الريح الجنوبية الارض • ان آراء غراهام عني لم تكن أبدا من قبيل عدم الاكتراث السافر وأراني مؤمنة بتلبه الطيب فقد أبقى مكانا في دائرة تحت الاضواء لتأوي اليه لوسي متى شاءت •

ولم يكن المكان الذي أبقاه خصيصا لي في منزله جميلا كالغرف التي

كان اصدقاؤه يقيمون أو يجلسون فيها أو كالقـــاعة التي كان يحتفظ فيها لشؤونه الانسانية وشؤون البر والاحسان أو يحتفظ فيها لشؤونه العلمية ولم يكن يشبه الجناح الذي كان يستخدم لاقامة ولائم الزواج الفاخرة • ومع ذلك برهن لي بعطفه الطويل الامد على أنه احتفظ لي بحجرة صغيرة في الجـانب الاخر من الباب كتب عليهـا « غرفة لوسي » • وأنا أيضا احتفظت له بمكان لم أقسه بالمقياس ولا بالمسطرة ولا بالبوصلة أنه شبيه بخيمـة « بيري ـ بانو » (خيمـة بيري بانو ورد ذكرهـا في ألف ليلة وليلة وهي الخيمة التي كان أحمـــد أصغر أولاد الملك يتلاقى تحتها الجنية الجميلة بيري ـ بانو التي كان لها خيمة سحرية ـ من شرح المؤلفة في آخر المؤلف) ، ولما كنت قد توقعت الشـؤم في تلك الليلة لـم أستطع المكوث في مكاني القريب منهم وكان علي أن أغـادر ذلك المكان الخطر والمقعد الخطر وانتهزت الفرصة الملائمة فنهضت موليـــة الادبار وربما ظن أو ربما اعتقد بأن لوسي احتوت عواطفها ضمن ذلك النسال وانها احتمت بقبعتها ولم يتسن له التأكد من ذلك لانه لم ير وجهي وهل كان لنفسية القلق أن تتهدهد في ذلك الوقت لو لم أقـم بما يكفـي من المغامرة ؟ الم أبدأ في التخاذل والشعور بالجبن والرغبـــة في أن أكون آمنة تحت سقف ما ؟ •

لم يكن الامر كذلك فقد كنت لا أزال أشـــعر بالترف من فراشي الكائن في مهجع المدرسة بصورة لا تقـــوى العبارات عـلى تصويره حق التصوير وتشيشت بكل ما من شأنه أن أصرف النظر عن التفكير وشعرت أيضا ـ بنوع ما ـ ان دراما تلك الليلة بدأت آنذاك فقط وان متدمـة الرواية لم تكد تبدأ ففي هذا المسرح المدغل الذي يحيطه العشب والنبت وجدت ظل اللغز الحقيقي وان الممثلين والاحداث كانوا ينتظرون وراء المشاهد دون أن ينتظرهم أحد ، هذا ما كنت أظنه وهذا ما اخبرني بـه النذير والحاسة التي تتوقع الشر والشؤم •

وهمت على وجهي دون تخطيط ودون قصد ، ومن وراء دفعـــات المرافق التي تحدث في الاماكن المزدحمة وصلت الى مكان كثير الاشجار في بعض الاماكن ومنفرد الاشجار في بعض الاماكن الاخرى وهو ما أراحني من الاكتظاظ وزحام الناس وأعطى للمكان صفة الانفـراد والتبعثر ،

twitter @baghdad_library

وتلك المناطق كانت بعيدة عن الموسيقى وبنوع ما بعيدة عن المصابيح ٠

الا أن الاصوات كانت تصل لتريح بعض ما يعانيه المرء ولم تكن المصابيح ضرورية هنا لوجود مصابيح القصر المعتلي في السماء وكانت النوافذ بمجموعاتها قد استقرت هنا أيضا لانها فكرت بان أطفالها ـ في هذه الساعة المتأخرة من الليل ـ ينبغي أن يكونوا بعيدين عن ذلك الازدحام وهناك ثلاث شجرات جميلة وطويلة خلقت بالتفافها ظلة مكتفة فوق هضبة صغيرة مخضوضرة عليها مقعد يتسع لعدة أشخاص وظهرت أنها متروكة لشخص واحد فجلست عليها والاخرون من الناس واقفون حولها وشاهدت بين دائرتهم المحتشمة سيدة تمسك بيدها طفلة صغيرة ٠

وعندما نظرت الى الطفلة الصغيرة وجدتها تتلاعى وتدور حول عتب قدمها وتهتز وتندفع من هذا الجانب الى الجانب الاخر بالتفاتات جلزونية مرحة وغريبة الاندفاع واثارت اهتمامي تلك الحركات السابقة فاثرت في وذكرتني بما يشابهها كل المشابهة واسعفت النظر فيما ترتديه من سترة الفرو الحريرية والبليكية الارجوانية الطويلة ولفاعها الطويل من فرو ونسيج رقيق وزغب الاوز وغطاء راسها الابيض بكل ما في زينة السيد ٠ وبادحسار كان زيا مهرجانيا لطفلة معروفة لدي تمام المعرفة هي ديزيريه بيك وكانت هي نفسها أو عفريته تشبهها تمام الشبه ٠

وكان ينبغي علي أن أعتبر تأثير هذا الاكتشاف كقصف الرعد ولكنه كان سابا لاوانه اذ ينبغي أن يزيد على أكثر من درجة قبل أن يعمل الدروة وعلى يد من تستطيع أن تهتز ديزيريه الانيسة اللطيفة بهذه الصورة الطليقة وقفاز من تستطيع أن تمزق بطيش وبلا اهتمام وذراع من تتحمل مثل هذا العنت دون عقاب وعلى أهداب البسة من تروح وتغدو دائسة بقدميها بوقاحة ان لم تكن يد أمها وقفازها وذراعها ورداؤها ؟ وهناك وجدت المدام بيك واقفة بشالها الهندي وقبعتها المصنوعة من الكريب ٠٠ القماش الرقيق الجميل ذي اللون الباهت الاخضر أر ٠

يا للغرابة !! كنت متأكدة من أن المدام بيك لابد أن تكون في مثل هذا الوقت في فراشها وديزيريه في مهدها وسريرها ومن المؤكد أن

لا أحد لاحظ « الانسة لوسي » لان الجميـــع كانوا مشغولين وكنا نحن الثلاثة نمرح في متنزه المهرجـان النير في منتصف الليل · والحقيقـة أن المدام كانت تعمل وفق هواها الذي له ما يبرره ·

لقد تذكرت الان كيف أنها قالت ذات مرة بين المعلمـات والمعلمين أننا عندما نتصور ـ في الاغلب ـ أنها نائمة في غرفتها تكون قد ارتدت ملابسها لتستمتع بوقتها في الاوبرات او المســارح أو قاعات الرقص وليس للمدام رغبة في حياة الرهبنة وانما جل اهتمامها منصب للتمتـع بملذات الدنيا والاستمتاع بها ·

هناك ستة جنتلمانية من اصدقائها يحيطون بها بينهم اثنـــان أو ثلاثة عرفتهم كل المعرفة هناك ، أخوها المسيو فكتور كينت وشخص آخر ذو شاربين وشعر طويل يتميز بكونه هادئا قليل الكلام ويحمل طابعـــا ومظهرا خارجيا لا يقع نظري عليه الا ويثيرني فأتحول الى مكان آخر فهو مزيج من مظاهر عدم الاكتراث والتكتم ومتناقضات السلوك والخـــلق والمحيا فوجهه يتخذ أشكالا قابلة للتبدل فهو من جهة متحمس ومن جهـة بارد الطبع والمشاعر وفي وقت ما يرى متجهما وفي آخر مشـــرقا ·· انه جوزيف عمانوئيل شقيق المسيو بول عمانوئيل « فرجل السلام » هـــذا يذكرني بشقيقه المتقد المتوهج ·

وعلاوة عـلى ذينـك الاثنين فكتور وجـوزيف أعرف ثالثا يقف في الظل ويشاهد مطاطيء الرأس فملابسه ورأســـه الاشيب الاصلع يجعله شخصا ممجوجا ومجتوى وهناك الاب سيلاس الذي لا يتصور أحـد أنه لا يكون موجودا في مثل هذه المهرجانات لان المناسبة تعتبر مناسبة تضحية وطنية تباركها الكنيسة بافتخار واعتزاز والجدير بالذكر أن جنودا من القسس كانوا موجودين في المتنزه في تلك الليلة حتى المدام والرافينس الشمطاء كانت موجودة وبدت كما لو أنها لا شبح ولا جثة هامدة وانمـا امرأة قاسية القلب لم تتورع تلك الحدباء في أن تضرب الطفلة ديزيرية ضربة قوية بعصاها ذات العروة الذهبية لمجرد أنها أرادت تناول قطعـة من اللحم وقطعة من الحـلوى ·

twitter @baghdad_library

الفصل التاسع والثلاثون

ـ معارف قدامى وجدد ـ

ولم أفضل مغادرة المكان القريب من الزمرة الثلاثية حيث ظلة الاشجار الملتفة بعضها على بعض والليل يهمس ضامنا الحماية وأومض الصباح ايماضة واحدة لكيما أعثر فيه على مقعد مظلم آمن ثم زال ٠ ولأرو الان باختصار للقراء حقيقة ما حدث خلال الاسبوعين الماضيين الغامضين فقد كنت أجمع سرا من الاشاعات الدائرة وكل ما يتصل بأسباب رحلة عمانوئيل والغاية منها والقصة قصيرة وليست بالجديدة حرفها الاول الثروة وحرفها الاخير الفائدة ٠

واذا كانت المدام والرافينس القبيحة الوجه كمعبود الهنود قد ظهر انها أصبحت غنية وغنية جدا ومع أنها الان لا تملك المال فانها لابد أن تصبح في يوم ما غنية ففي « باسيتير » في غواديلوب كانت تمتلك عقارا شاسعا من الاراضي كبائنة أو مهر عن زواجها قبل ستين عاما وصودرت بعد اشهار افلاسه والان لم يعد أحد يطالب بها واذا قيض لها وكيل مقتدر لمتابعة هذه القضية فلابد أن تثمر خلال بضعة أعرام بنطاق واسع ٠

فالاب سيلاس اهتم في ذلك من أجل الكنيسة وماغلوار والرافينس هي الابنة المتعبدة والمدام بيك نسيبتها من بعيد وتعرف أن الحدباء ليس لها عائلة خاصة بها وراحت تهتم وتعنى بها من أجل هذه الغاية ولذلك فان المدام بيك والاب سيلاس أخذا يهتمان بالموضوع للحصول على المال ويهتمان برعاية أمر العقار الموجود في جزائر الهند الغربية ولان المسافة بعيدة والجو محفوف بالمخاطر فينبغي أن يختارا رجلا مؤهلا مستقيما يكرس نفسه لهذا الغرض ٠

وقد سعت المدام والرافينس الى الاحتفاظ بمثل هذا الرجل لخدمتها

twitter @baghdad_library

طوال عشرين عاما فأفسدت حياته واعتاشت على مجهوده كالقطريات القديمة ومثل هذا الرجل دربه وعلمه الاب سيلاس، وقربت بينهما أواصر الاقرار بالفضل والعرفان بالجميل والمعتقد والعادة والسلوك ويقول الاب سيلاس إن مثل هذا الرجل تعرفه المدام بيك وتستطيع أن تؤثر عليه بوصفه تلميذي اذ بقي في وربا وغامر بالارتداد لانه أضحى ذا صلة بمهرطقة خرجت عن عقيدتها المذهبية وأبدت المدام بيك عن رأيها الخاص في وجوب التغرب للحصول على المال واقترحت قيام المسيو بول بذلك ٠

أما المدام والرافينس فكانت تريد الحصول على مالها وأرضها وكانت أدرى ببول لان يكون أفضل وكيل أمين لها وعلى هذا الاساس التم شمل الثلاثة الانانيين ليلقوا بالعبء على الشخص غير الاناني وراحوا يناقشونه ويقنعونه ويلتمسونه ووضعوا أنفسهم تحت رحمته ورموا بأنفسهم بيديه ـ ائتمانا ـ لمصالحهم ولم يطلبوا منه سوى عامين أو ثلاثة أعوام من التكريس لهذا الغرض وبعد ذلك يستطيع أن يفعل ما يشاء واحدهم ربما يتمنى له الموت خلال هذه المدة ولم يسائل أحد منهم نفسه ما قد يداخله من آلام عند مغادرته أوربا وماذا ستكون تقديرات وتوقعات مستقبله ٠ لم يسأل أحد عن ذلك وكل شيء من هذا القبيل كان غامضا لدي وكل ما أدريه أنه ذهب ولم يترك أثرا وهنا تنتهي معلوماتي منه ٠

وجلست ورأسي مائل وجبهتي مستندة على يدي بين سيقان الاشجار المتجمعة المتكاثفة وفروع الاغصان المقطوعة وأي حديث صادر عن جيراني أستطيع أن أسمعه لو أردت لانني كنت قريبة منهم كثيرا وكانوا يتكلمون عن الملابس والموسيقى والاضوية وبداعة الليل وروعتها وسمعتهم يقولون « ان الجو رائق ومناسب لسفرته وستمتع الباخرة « انتيكا » بشكل جيد » ولم يذكروا عن مسارها أو ركابها شيئا ٠

وربما لم تهتم المدام والرافينس العجوز بذلك الحديث كثيرا وأنا كذلك وقد رأيتها قلقة تحرك رأسها ذات اليمين وذات الشمال وتعاين ما بين الاشجار وبين الجمهور كما لو أنها تتوقع وصول أحد وتأخر وصوله فعيل صبرها وسمعتها تتحدث مع نفسها بصوت متذمر غير مسموع بوضوح وأخيرا بدا عليها كما لو انها معولة على أن تحصل على جواب لسؤالها وصاحب بصوت عال قائلة بالكلمات الموجزة البسيطة التالية التي صدمتني وأدهشتني ٠٠ أيتها السيدات والسادة أين ظلت

حتى الان جوستين ســـاري ؟ ·· تلك هي ·· تلك هي جوستين مـاري قادمة أما أنا فقلت في نفسي ·· ما هذا ؟ جوستين ماري الراهبة الميتـة منذ زمن طويل ؟ أين هي ؟ انها في قبرها يا مـــدام والرافينس · ماذا تريدين منها ؟ أنت التي ينبغي أن تذهبي اليها لانهـــا لا يمكن أن تأتي هي اليـــك » ·

كان ينبغي أن أجيبها بنفس هذا الجـــواب لو كان لي علاقـة في الموضوع ولكن يظهر أن لا أحـد كان كتفكيري ولم يستغرب أو يجفـل أحد كما استغربت وجفلت آنا من كلامها ولم يتحير أحـد مثلما تحيرت أنا الا أن جوابا عاما هادئا وصل الى أذن تلك الحدباء الساحرة المزعجة للموتى قائلا لها « ان جوستين ماري قادمة انها في كشك الحديقة وستكون هنا في الحـــال ·

وبين ذلك السؤال وهذا الجواب حصل تبدل في الحـــديث المتصف بالسهولة والتفكك والانقطاع المشوب بالقيل والقال ودارت حول دائرة المجموعة الايماءات والاشارات الضمنية والتعليقات بصدد أشخاص لـم تذكر اسماؤهم أو ظروفهم وأخذت أصغي الان باهتمـام محتوم فرض القضاء والقدر ولم أفهم منه أكثر من وجود خطـــة مهيئة بصدد شبح جوستين ماري حية أم ميتة ، ويظهر ان المجلس العائلي كان يتكلم عنهـا بنوع ما ولسبب ما ويبدو أن هناك قضية زواج وثروة لا أدري كنههـــا أو تفصيلاتها ربما تتعلق بفكتور كينت أو بجوزيف عمانوئيل الاعزبين ·

وفي احدى المرات تراءى لي بأن الايماءات والتلميحات تدور بصدد شاب غريب عن المجموعة جميل الشعر يدعى هنريخ موهلر · وبين كل ذلك الهزل والمزاح ظلت المدام والرافينس تتفوه من وقت الى آخر بصوت أجش وعيلت صبرا باستمرار مراقبتها الحقـــودة للطفلة ديزيريه التي كانت سبب اهاجة العجوز التي كانت تهـــددها بعصاها وصاح أحـــد الجنتلمانية « انظري ·· هوذا جوستين ماري قادمة » · وكانت هـــذه اللحظة مميزة لدي ذكرتني بالراهبة المصورة على اللوحـــة وفي ذاكرتي قصة الحب المحزنة وشبح الراهبة في العلية وشبح الممشى المشجر وولادة التعريشة الغريبة وعانيت من الحس الداخلي أو شـــعور القلب بقرب حـدوث شيء مفاجيء بعد اكتشافاتي تلك وباعتقـــاد قـــوي بـدنو وقت الفضيحة ·

وعندما تشط بنا الذكرى مرة أخرى فأين سنبقى وأين سنقف وأية شجرة شتوية ساقطة الاوراق والغصون وأي حيوان في الطريق الجانبي

twitter @baghdad_library

يمضغ بصوت طاحن وأية غنيمة عابرة وحزم نور القمر التي تشق طريقها الى الارض لن يكسوها الخيال كساء روحيا ويجعل منها صورة وهمية أمام عيوننا · وبقوة مهيبة ضغط على قلبي توقع اكتشاف لغز فقد سبق أن شاهدت مثل هذا اللغز ومثل هذا الوهم في كأس فهل سيقدر لي أن أواجه مثل هذا الكأس وملت بجيدي الى أمام ورحت أنظر واذا بجوزيف عمانوئيل يصيح « انها آتية » ·

وانفتحت دائرة التجمع لكي تقبل عضوا جديدا مرحبا به وفي تلك اللحظة حدث أن مشعلا حمله أحدهم ساعد توهجه نور القمر الباهت على تسوية الازمة ومن المؤكد أن المجاورين لي أحسوا بنوع من القلق الذي أحسست به لم أعرف قدر درجته وبالنسبة للجمهور الحاضر هناك ربما حبس أبردهم شعورا أنفاسه لمدة · أما بالنسبة لي فان حياتي قد أصابها الانجماد · وانتهى كل شيء فاللحظة جاءت والراهبة جاءت وانتهت الازمة واجتيزت المفاجأة ·

وأصبحت أنوار المشعل على مبعدة ياردة واحدة وكان يحمله حارس المتنزه وكاد لسانه اللاهب يمس وجه الفتاة المتوقعة ـ هناك ـ حيث وقف بهيكلها الواضح أمامي وماذا كانت تشبه ؟ وماذا كانت ترتدي ؟ وكيف كانت تنظر ؟ ومن أين ؟ توجد أقنعة عديدة في المتنزه هذه الليلة وعندما نتوغل في ساعات الليل الاخيرة تسود مظاهر الصخب والعربدة وأعراف الطقوس والشعائر الاجتماعية في الخارج بحيث ـ لن تنتقدني أيها القارىء ـ ان قلت لك أنها كانت كراهبة العليسة ترتدي الاردية السوداء وأردية الرأس البيضاء وانها تشبه الانبعاث الجسماني وأنها كشبح ناهض ·

أنها زيف وكذب ·· انها ملفقات وتزويرات ·· ولن نتحدث عن هذا الهراء ولنكن مخلصين وصريحين في التحدث عن الحقيقة · ان الشيء المألوف أو العادي أو الطبيعي هي الكلمة التي لم نحسن اختيارها فهنا فتاة من « فيليت » من المدرسة الداخلية وسيمة الطلعة وجميلة جدا جمالها جمال أهل المدينة ويبدو أنها تتغذى جيدا فهي عبلة وسمينة بخدين مدورين وعينين جميلتين وشعر كث وارتدت أفخر الملابس الجميلة ولم تكن وحدها اذ تكون حرسها من ثلاثة أشخاص اثنين منهم كبار السن تسمى أحدهما « عمي » والاخرى « عمتي » وتضحك وتتحادث بود ولهجة بهيجة وهي ممتلئة الجسم عامرة الصدر وفي ريعان الشباب ويبدو أن عليها امارات فاتنات الطبقة البورجوازية ·

وقلت أن شكلها لا يشبه جوستين ماري ولا الاشباح ولا الالغاز ولم يتم التوصل الى تسوية أخيرة فهذه الفتاة لم تكن كالراهبة التي عاينتها ولا كالتي شاهدتها في العلية أو في الحديقة لان راهبتي أطول منها بشبر • لقد شاهدنا حسناء المدينة وألقينا نظرة خاطفة على العم المسن الوقور وعلى العمة المسنة الوقورة فهل لنا أن نلقي نظرة على العضو الثالث من تلك المجموعة ونخصص له ملاحظة من الملاحظات ؟ علينا أن نعرف من هو •

لقد تبين لنا أننا لم نلقه لاول مرة وأخذت أضرب كفا بكف بقوة عنيفة وأخذت نفسا عميقا جدا وأوقفت صراخا كاد يفلت من فمي رابتلعت صيحة ومنعت انبجاسة وتحدثت مع نفسي ولم أحرك به سوى الحجارة ولكنني تأكدت مما شاهدت ومن بين العتمة التي استقرت في عيني من جراء بكائي طوال العديد من الليالي عرفته !!• قالوا انه سيسافر في الباخرة المسماة « أنتيكا » المدام بيك قالت ذلك •• لقد كذبت أو قالت ما كان ذات مرة أمرا صحيحا ولم تنقضه عندما أصبح كذبا • لقد ابحرت « الانتيكا » وبقي هنا بول عمانوئيل الذي شاهدته واقفا على مقربة مني •

ترى ! هل كنت فرحة ؟ شعرت أن حملا هائلا انزاح عني !! هل كان أمرا حقيقيا أن أضمن لي السرور ؟ لست أدري •• علي أن أسأل أولا ماذا كانت الظروف التي رافقت فترة الراحة ؟ والى أي مدى كان هذا الارجاء ذا علاقة بي ؟ ألم يكن هؤلاء الذين تمسهم القضية قريبين أكثر منه ؟ وبعد كل ذلك •• من تكون تلك الفتاة الشابة جوستين ماري ؟! لم تكن الفتاة غريبة ابدا •• فهي معروفة لدي اذ سبق أن شاهدتها عندما كانت تزور شارع فوسيت ومن المحتمل انها من الجماعة التي تلتقي بها المدام بيك أيام الاحاد •

انها قريبة عائلتي المدام بيك والمدام والرافينس ، أخذت اسمها في المعمودية من الراهبة القديسة التي تكون عمتها لو أنها عائشة حتى الان واسمها النسبي « سوفير » وهي وارثة ويتيمة والمسيو عمانوئيل حارسها ووصي عليها وبعضهم يقول أنه عرابها ويريد مجلس العائلة من هذه الوارثة أن تتزوج على واحد من زمرتها فمن هو يا ترى ؟ انه لسؤال حيوي هام من هو ؟!

وشعرت بفرح شديد الان بعد ان وضع الدواء في الجرعة الحلوة التي جعلتني في حالة أكره بها الفراش والغرفة وكنت أعلم على الدوام

twitter @baghdad_library

ان حياتي كلها تريد التوصل الى الحقيقة المحضة وبودي أن أشاهد الالهة في هيكلها بالذات وأرفع عن وجهها الحجاب وأتجرأ على أن القي عليها النظرة المروعة ٠

وقد أصبحت زمرة والرافينس المتزايد عددهم الان سعيدة جدا وقصد الرجال أكشاك الحديقة لاخذ قسطهم من الراحة وجلسوا على الاعشاب الكائنة تحت الاشجار وأخذوا يشربون الانخاب ويبادلون المشاعر الودية ويضحكون ويداعبون المسيو بول ويمازحونه وعلمت من ممازحة المدام بيك اياه ومقابلته اياها بمحيا غير طلق جدا انه هو الذي طلب ارجاء سفرته بصورة مؤقتة دون أن يعبأ حتى بنصائح أصدقائه وخلى الباخرة « أنتيكا » تذهب وحجز في الباخرة « بول أي فرجيني » التي تسافر بعدها بأسبوعين لينجز كما يقول مهمة مصلحية صغيرة ٠

وماذا كانت مصلحته يا ترى ؟ لا أحد يدري ٠٠ ومع ذلك كان هنالك شخص يبدو أنه موضع ثقته وائتمانه فقد تبادل هو وجوستين ماري نظرة ذات معنى ومالها ما اذا كانت الصغيرة ستساعدني أم لا وكان جوابها سريعا « الله يدري » ثم استدركت فقالت « ساساعدك بكل جوارحي وبوسعك أن تفعل بي ما تشاء يا عرابي » ٠

وهذه « العرابة » العزيزة رفعت يدها ووضعتها على شفتيه الشاكرتين ولاحظت أن هذه الحركة أقلقت التيتوني الشاب هنريخ موهلر ولم يرتح اليها حتى انه عبر عن تذمره ببعض الكلمات أما المسيو بول فقد ابتسم في وجهه وبانتصار الفاتح المضمون وقساوته جر صاحبه الى جانبه اكثر ٠ وكان في تلك الليلة فرحا جدا لم يبد عليه أنه استكان لتبدل المشهد والعمل فقد كان حياة الزمرة الحقيقية لانه مجبول على التحكم والاستبداد وقرر أن يكون المتسيد في المرح وفي العمل وفي التزعم وكان له القدح المعلى في كل شيء في الكلام وفي الضحك وفي العمل النشيط ٠

وظل المرح والمزاح على قدم وساق بينهم وترسب لدي من أخبار المسيو بول أنه في الوقت الذي تغيب فيه لكي يعمل من أجل الاخرين فان هؤلاء الاخرين الذين لم يعترفوا بجميله سيحرسون له الثروة التي تركها في اوربا ٠ وليات لهم بكنز هندي فانهم لن يعطوه عوضا عنه سوى عروس شابة ووارثة غنية وبالنسبة لرسامته الورعة ونذر الولاء والاخلاص فقد تنوسي أمره ، ذلك أن الحاضر الساحر المزدهر تغلب على الماضي وفي آخر الامر كانت راهبته في قبرها حقا ٠

لابد ان يكون الامر كذلك وقد تكشف الوضع حقيقة فالشعور السبقي لم يخطيء قط فأنا وحدي الذي أسأت التقدير لفترة ما ولم اعر اهتماما للوحي الذي ظننت أنه كان يتحدث عن الخيال أو الرؤيا في حين أن تنبؤه لامس الواقع .

وكان علي أن أتوقف مدة أكثر في التأمل بعد الذي شاهدته وربما انتويت وقصدت قبل أن أستنبط النتائج وربما وجد البعض المقدمات المنطقية مشكوكا فيها والبراهين غير كافية وكان ينبغي امكان النظر في بعض الامور المشكوك فيها قبل القبول بفكرة للزواج بين فقير ورجل مضح في الاربعين من عمره وبين فتاة قاصرة غنية في الثامنة عشرة من عمرها ولكن كنت بعيدة عن مثل هذه التحولات والمسكنات ، عن مثل هذا الاشتطاط والزوغان عن الواقع وعن هذا التهرب الجبان من الرهبة والفزع ومن الواقع المستحوذ السريع الخطى وعن المقاومة العابثة المترنحة المتداعية للقوة التي لا شأن لها الا الزحف المظفر واحراز الغلبة وكنت بعيدة أيضا عن التهرب الخؤون من الحقيقة .

وسارعت لقبول الخطة كلها والمشروع كله ووسعت مفهومي وقاومت كل شيء وجمعت كل شيء بنوع من حمق الاستعجال والتسرع وطويتها حولي كما يفعل الجندي حين يضرب في ميدان القتال ويلف علم بلاده على صدره وتاشدت الايمان وتضرعت اليه ليسمرني بالحقيقة والثقة حتى اذا ما دخلت المسامير روحي وعيت على حقيقتي . وكنت قد صرحت ابان افتتاني قائلة « أيتها الحقيقة أنت السيدة الصالحة لكل خدمك المخلصين وحين اهتصرتني اهتصارا اكذوبة واحدة شعرت بالمعاناة وحتى عندما كانت الاكذوبة لا تزال حلوة المذاق تضفي الجمال على الخيال والدفؤ على الاحاسيس كان عذابها يذهب بي كل مذهب وأن شعور القناعة بأن المحبة قد تم الحظو بها ما كان في الامكان فصلها عن الفزع أو الرهبة التي كانت تتصور امكان فقدانها بمجرد حركة واحدة من دولاب القوة الموجهة فالحقيقة عرت الاكذوبة وأبعدتها كما عرت وأبعدت التملق والمداهنة وها أنا أمامكم ... حرة .

ولم يبق لي شيء الان سوى أن آخذ حريتي معي الى غرفتي وأحملها معي الى فراشي لارى ما عساي أن أفعل بها ولم تكن اللعبة قد تمت بعد اذ كان علي أن أنتظر وأراقب بصورة مطولة أكثر ذلك المشهد الغرامي تحت الاشجار وتلك المغازلة بين الشجيرات والأجام وما دام الحب لم يكن موجودا في تلك التظاهرات فمعنى ذلك أن خيالي كان سخيا وابداعيا

twitter @baghdad_library

يمكن ان تمنح له أعمق حياة وأسمى ألوان التماطف ٠

غير أنني ما كنت أقدر نظرتي حق قدرها فتعاميت عن الحقيقة عندما رصنت عزمي دون أن أدنس طبيعتي ٠٠ وبعدها ٠٠ شعرت بشيء يمزقني من تحت شالي وشيئا كأنما ينهش في جنبي كنسر حاد البراثن قوي المنقار ولكي أصارعه يتبغي أن أكون وحيدة وأظن أنني لم أشعر بالحسد قط حتى الان ٠ ولم يكن هذا شبيها بالترتيبات الحبية للدكتور جون وبولينا التي ــ عندما كنت أغمض عيني وأغلق أذني وأنا أجرجر الى الخلف افكاري ــ كان حسي المتناغم يستشعر السحر ويعترف بالجميل ٠٠٠

أما هذا فقد كان نظيفا ذلك أن الحب وليد الجمال ليس حبي ولا علاقة لي به ولا يمت الي بصلة ولا أجرأ على التدخل في أمره والتطفل عليه ولكن الحب الاخر الذي يقتحم الحياة بعد المعرفة الطويلة ويتمرس بالآلام ويتقدس بالنار ويمهر بالاخلاص ويتعزز بالاشابة المتينة والود المحض غير الممحوض يهبه الفكر الالمعي المتوقد لفحصه بمقاييسه وتجاريبه ومصقولا ومزخرفا الى حد الاكتمال ٠٠ ان مثل هذا الحب الذي يزدري العاطفة الرعناء هو شغلي الشاغل وهو الذي أركز فيه جل اهتمامي ٠

ابتعدت عن المجموع الواقف بجانب الاشجار وعن ذلك الصخب المرح وقد ولى منتصف الليل بساعات طويلة وانتهى عزف الفرقة الموسيقية وبدأت الجموع تعود ورقت صفوفها المتماوجة قبل هذا وتابعت الجمع المنحسر تاركة المتنزه المتلألىء « هوت ــ فيل » المضاء اضاءة نيرة حتى ذلك الوقت المتأخر من منتصف الليل وبدأت انشد الظلماء بعد النور ٠

ولا يجدر بي أن أقول ٠٠ الظلماء ٠٠ لان نور القمر البهي الجمال ــ الذي تنوسي أمره في المتنزه كان لا يزال يتموج على الارض بشكل يفوق التصور ، كان في أعالي السماء ينير بهدوء رائق ٠ لقد كانت الموسيقى ومرح المهرجان والمظاهر البراقة لتلك المصابيح قد غطت عليه مدة ما ولكنه الان عاد بدرا بأبهته منتصرا بسكوته وأخذت المصابيح المتنافسة معه تخفت وتخبو أما هو فقد بقي مكانه كالمصير الابيض أو القدر الابيض ٠

لقد سكتب الابواق عن النفير وتنوسي أمرهـــا أما قلم البـــدر الشعاعي فقد ظل يكتب في سجلات السماء والارض لأرشيفات خالـــدة وبدا لي البدر وتلك الانجم كنماذج وشهود على الحيقة المهيمنة . وان تلك الشوارع المضاءة بالزيوت سادها سكوت مطبق وأخذ الناس يمرون بي عائدين الى دورهم هنـا وهنـاك بلا حـديث ولا ضجيج ويتوارون بسرعـــة .

انني أحب « فيليت » حبا جما وهي على هذه الشاكلة وأنا مزمعة على متابعة مغامرتي الى النهاية الناجحة والوصول الى فراشي في المهجـع الكبير قبل أن تعود المدام بيك ولم يبق بيني وبين « فوسيت » ســـوى شارع واحد وما أن دخلته لاول مرة حتى سمعت صـــوت العربة يشـق السكون العميق لذلك الحي ولاحظتها تتقدم بسرعة متناهية ، ووقـــع الحوافر يجلجل على الطريق الممهد وكان الشارع ضيقا وأنا ماضية في سيري على الرصيف الممهد ومرت العربة بي .

وماذا وجدت أو أتخيل أنني وجدت وهي تمر بسرعة على مقربـة مني ؟ من المؤكد أنني شاهدت يدا تلوح لي بمنديلها فهل ذلك التلويح كان موجها لي ؟ ومن ذا يعرفني هنا ؟ . لا يمكن أن تكون العربة عربة المسيو دي باسومبيير ولا عربة المستر بريتون ، وفندق كريسي والبيت الريفي (الشرفة) ليسا في هذه الناحية ووجدت ألا وقت متـــاح لي للحور والحدس لأن علي أن أسرع للوصول الى البيت .

وبعد وصولي الى شارع فوسيت ثم المدرسة الداخلية وجـــدت كل شيء ساكنا وهادئا ولم تصل العربة الصغيرة مقلة المدام بيك وطفلتهـا ديزيريه وكنت قد تركت الباب الكبير مفتوحا فتحا جزئيا فهل سأجـده كذلك ؟ ربما أن الريح أو حادثة ما خلخلت الرتاج الزنبركي عن مكانه قليلا وفي مثل هذه الحالة يصبح القنـــوط من شيء تسليما واعترافـا بصحته وربما ستسفر مغامرتي عن كارثة فقد دفعت دفعا خفيفا مصراع الباب فهل سأسلم من النتيجة ؟

نعم دخلت على رؤوس أصابعي دون أن أحدث صـــوتا كما لو أن عفريتا سمحا ينتظر في داخل المجـــاز ليفتح عنـــدما يقـــال له « افتح يا سمسم ! » ودخلت بانناس محبوسة ومكبوتة وصعدت حافية الى بيت السلم قاصدة المهجع ووصلت مضجعي . نعم .. وصلته وتنفست الصعداء وفي اللحظة الاخرى كدت أصرخ ولكن شكرا للسماء لم يحدث شيء من هذا القبيل وفي تلك الساعة كان صمت كصمت القبور سائدا في المهجع

twitter @baghdad_library

في الدار كلها فالكل نائمات ، وسكون كهذا يعني أن لا أحـــد يحلم من مجموع ١٩ سريرا طويلا للاحراك ولا نامة وفي الفراش العشرين لا أجد من ينام فيه فقد تركته خاويا فما الذي هو موجود ـ اذن ـ بين الستائر نصف المسحوبة ؟

ما هو ذلك الشبح الغريب المظلم الطويل القامة المتسلل المستلقي على ظهره ؟ هل هو لص تسلل من باب الشارع المفتوحة وهو يكمن هناك متربصا ؟ • انه يبدو شديد السواد وبدا لي أنه ليس بانسان • هـــل يكون كلبا ودخل في الشارع منسلا خلسة واستقر هنا ؟ هل سينهض وينقض علي لو دنوت منه ؟ علي أن أدنو باي حال من الاحوال وتشجعت فخطوت خطوة الى أمام • وأصبت بدوار بعد أن وجدت في ضوء المصباح الخافت الشبح القديم ممددا على فراشي • شبح الراهبة •

وفكرت وأنا خائفـــة لو أنني صرخت لكان ذلك وبالا علي وليكن الشبح من يكون فليس من الصواب أن أصاب بالذعر أو أن أصرخ أو أن يغمى علي • وعلاوة على ذلك شعرت بأني لست مغلوبة على أمري فبعـد أن اعتدت على مثل هذه الاشياء أصبحت أعصـــابي لا تريد أن تصـاب بالهستريا • لقد كانت دمائي ســـاخنة من الانوار ونغمـات الموسيقى والالوف المؤلفة من الناس المتزاحمين في المهرجـــان وكنت كمن أصيبت بسموط كارثة جديدة فتحديت الشبح •

وبلحظة وبدون صراخ هجمت على الفراش المسحور فلم يثب بوجهي أحد أو يندفع أو يثور وكانت الحركة كلها لي وكذلك الحياة والواقـع والجوهر والقوة كما شعرت غريزتي • لقد مزقتها تمزيقا •• مزقت تلك الروح الشـــريرة !• ورفعت الى أعلى تلك العفريتـة !• وهززت بيدي جسم تلك الفاجرة •• اللعـز !• فسقطت عـــلى الارض ورحت أدوس عليها بقدمي • واخذت أنظر هنا أيضا الى الاشجـار الصاوية فصوتها المصوخة أوراقها والى حصان دون كيشوت الاعجف « روزينانت » والى طبقة الغيوم الخفيفة ورفيف أنوار القمر فقد ظهر أن الراهبـــة الطويلة القامة لم تكن سوى حشية طويلة البست ثوبا طويلا فضفاضـا يلفها بشكل فني حجاب أبيض وفي الحقيقة أن ملابسهـــا ـ على غرابة ما كاد يبدو منها ـ كانت ملابس راهبة حقيقية رتبتها أيد لتثير بهـــا الأوهام فمن أين جاءت تلك الثياب الرهبنية ؟ ومن ذا الـذي دبر تلك الحيلة وذلك المكر والخداع يا ترى ؟ •

هذه الاسئلة لا تزال باقية ففي ضمادة الرأس ألصقت قصاصة من ورق كتب عليها بالقلم الرصاص ما يلي من الكلمات الساخرة « راهبة العلية تعطي للوسي سناو رداءها ولن يراها أحد في شارع فوسيت بعد الان » ويا ترى من هو الذي فعل ذلك ولماذا ؟ لقد شاهدتها ثلاث مرات وليس لامرأة من معارفي هيكل هذا الشبح ولم يكن طولها مضارعا لطول أنثى ولا يمكن أن أعزو هذه الدسيسة الى أي رجـــل أعرفه البتة ولـو للحظـة واحـدة ٠

وكنت لا أزال مرتبكة وحيرى بشكل لا يمكن وصفه ولكنني مع ذلك استطعت في الحال ــ وبصورة سليمة ــ أن أريح نفسي من كل ما كان قد أشغلني من أمر هذا الشبح ورحت أسخر من نفسي كيف أنني أشغلت ذهني بتوافه كهذه وان كانت لها ميزة الاحجية التي لا يتسنى حلهـــا ٠

وشرعت في حزم أجزاء الحشية والحجاب والضمادات وأخبأتهـــا تحت وسادتي ثم تمددت على فراشي وأصخت السمع حتى سمعت صوت دواليب عربة المدام بيك الصغيرة وهي تعود الى البيت ، ولما كنت مجهدة وتعبة للغاية مما شاهدته في ليلة المهرجان وقبلها من مزعجـات الليالي الاخرى المسهدة استطعت بواسطة مادة مخدرة فقط أن أنام نوما عميقا ٠

twitter @baghdad_library

الفصـــــل الاربعـــون

ـ الزوجـــان السعيـــدان ـ

ظهر ان اليوم الذي أعقب الليـلة المشهودة لمنتصف الصيف لم يكن يوما اعتياديا ولا أعني أنه جاء بعلامات من السماء العليا أو بأعاجيب من الارض الدنيا ولا أعزوه الى ظواهر الارصاد الجـوية أو الطبيعيـة كالزوابع والفيضانات أو الرياح الدوامية فقد أشرقت الشمس مرحـة جذلة يوجهها التموزي وزخرف الصبح جمالها وأينقه باللون اليانوتي وملأ حضنها بالزهور التي سقطت منها بوابل القـطرات وحمر سيقهـا واستيقظت الساعات طلعه نشطة كالحواري وأفرغت على التلال المبكرة قوارير نداها وانسكبت باهتة بلا بخار ، لاوزوردية اللون بهيـة المنظر وقادت جياد الشمس في طريق حارق خال من الغيوم ٠

وبالايجاز كان يوما بديعا رائعا كأبدع يوم يتباهى به الصيف بيد أنني أشك فيما اذا كنت القاطنة الوحيدة في شارع فوسيت التي اهتمت بهذه الحقيقة وبتدوين مثل هـذه الملاحظات عنها، فهنـاك فكرة اخـرى شغلت رؤوسا أخرى ، فكرة لهـا حصة في تاملاتي وأذكاري ٠ وبينمـا كنت اتمشى في الحديقة شاعرة بأشعة الشمس وملاحظـة فضارة الغرس والزرع أخذت أفكر مليا بنفس الموضوع الذي شغل المدرسة كلها وأي موضوع ؟! الموضوع التالي فقط ٠

عند تلاوة صلوات الصبح وجدت مكانا خاليا في الصف الاول من أعضاء المدرسة الداخلية وعند وقت تناول الفطور لاحظت وجود فنجان من القهوة لا وجود لصاحبه وعندما كانت الخادمة تهيىء الافرشة وجدت فنجانا آخر وسادة موضوعة على شكل طولاني مغطـاة بثوب نسـائي يرتدى في الليل وعندما جاءت مدرسـة الموسيقى التي تدرس جنيفـرا فانشاوي مبكرة في الصباح لتعطيها الدرس الصباحي لم تجد تلميذتهـا في البيت ٠

twitter @baghdad_library

واستمر البحث في كل مكان عنها ولم تبق زاوية من زوايا الدور دون تفتيش ولم يعثر حتى على قصاصة ورق تبين حقيقة غيابها فقد توارت الحورية وغمرتها الليلة الماضية واختفت كما يختفي النيزك في الليلة الظلماء • وارتعبت المراقبات وكان رعب المديرة المهملة أعمق ولم يسبق لي أن شاهدت المدام بيك بذلك الاصفرار وذلك الرعب المرتسمين على وجهها اذ اعتبرت ذلك ضربة عليها لسوء حذرها وهو أضعف جانب فيها وكذلك على مصلحتها اذ لابد أن تسأل كيف حدث ذلك ؟ ومن أي منفذ خرجت ؟

لم نجد نافذة بابية غير موصدة ولم نجد أي زجاج مكسور وكل الابواب موصدة ايصادا محكما آنارت ارتياح المدام بيك جدا من هذه الناحية وتذكرت مرور العربة التي كانت تنقل شخصين وتلك التلويحة المحيرة من المنديل الذي لم الحظ من كان يحمله ويلوح به الي • ومن هذه المقدمة المنطقية ومن مقدمة أو مقدمتين أخريين لا يمكن أن ينفذ اليها سواي استطعت التوصل الى دلالة واحدة او استنتاج واحد هو الهروب مع عشيق أو الزواج من غير رضى الاهل •

وأخيرا أخبرت المدام بيك بظنوني هذه وعزوت الامر الى خطوبة المسيو دي هامال للانسة جنيفرا فانتشاوي وصح ما توقعته وهو اتصال المدام بيك ــ بعد عرفانها الموضوع ــ بالسيدة كولونديلي التي كانت قد بعثت منذ مدة طويلة هذا الامر معها محملة اياها المسؤولية كما اتصلت بالمسيو دي باسومبيير أيضا •

ووجدنا ان فندق كريسي يعج بالحركة لما قد حصل وظهر أن جنيفرا قد كتبت رسالة لابنة عمها بولينا تخبرها بنيتها الزواج من المسيو دي هامال بشكل غامض ووصلت أخبار من عائلة دي هامال هذا وكان المسيو دي باسومبيير يتابع أثر الهاربين وأخيرا فاجأهما ولكن بعد فوات الاوان • وخلال يوم من أيام الاسبوع جاءني البريد بالملاحظة التالية التي تحتوي على تفسير وتوضيح لاكثر من نقطة واحدة من الموضوع :

عزيزتي القديمة تيم (اختصارا لتيمون)

انني الان طليقة ومنطلقة كطلقة • أنا والفريد انتوينا الزواج منذ الاول على هذه الشاكلة ولا نريد الزواج بالطريقة الروتينية المعروفة لدى الناس الاخرين والفريد راغب أشد الرغبة في ذلك وأنا كذلك •• حمدا لله • هل تعرفين الفريد الذي اعتاد أن يلقبك « بالتنين »

انه بعد أن شاهد منك الكثير خلال الاشهر القـــلائل الماضية أخذ يشعر بأنه صديق خالص لك ويامل ألا تبعدي عنا بعد الان ويروم الاعتذار لك عن أي ازعاج ربما سببه لك ويخشى أن يكون قد سبب لك انزعاجـا عندما داهمك في العلية وانت تقرئين رسالة يبدو أنها كانت ذات أهمية خاصة لك ، الا أنه لم يكن له يد من ان يفاجئك ولكنك فوجئت بذلك مفاجاة مدهشة وأنت منشغلة بالرسالة ٠

ومقابل ذلك يقول أنك حيا بالانتقـــام منه اخفتيه وأفزعتيـــه باندفاعك لاخذ شال او رداء أو اي غطاء أخر عندما فتح نارا مضيئـة لاشعال سيجارة وهو ينتظرني ٠ هل كنت في ذلك الوقت تتصورين ان المسيو لي كومت دي هامال هو الراهبة التي شاهدتيها في العلية ؟ لقـد كان وجوده من أجل أن يقابل خادمتك المطيعة جنيفرا ٠٠

وسأخبرك كيف حدث ذلك ٠٠ تعرفين أن له الحق في الدخـول الى المدرسة الثانوية التي فيها اثنان أو ثلاثة من أولاد أخته الكبرى المـدام دي ميلكي وتعرفين أن ساحة المدرسة تقع في الجانب الاخر من الحـائط العالي الواقع على حدود المسر الممنوع ٠

وأن الفريد يستطيع أن يتسلق مثلما يستطيع أن يرقص أو يبارز بالسيف وكانت متعته في أن يتسلق حيطـــان مدرستنا الداخليـة بأن يتسلق في أول الامر الحائط ثم بمساعدة الشجرة العاليـــة المفروشة أغصانها فوق العريشة الكبرى والمرمية بعض أغصانها على سقف البنايات الواطئة للاراضي التابعة لمدرستنا حاول أن يتسلق بنـاية الصف الاول والصالون الاكبر ٠

وفي احدى الليالي وقع من على الشجرة الانفة الذكر وكسر بعض غصونها وكادت تدق عنقه وبعد ذلك استحوذ عليـــه فزع فظيع وهـو يركض وكاد أن يمسك به شخصان هما المدام بيك والمسيو بول عمانوئيل وظل يسير في المشى ومن الصالون الكبير ليس الصعود والتسلق صعبـــا باتجاه أعلى قالب بنـــائي ينتهي في العليـــة أي الحجرة الواقعـة تحت السقف الاعـلى ٠

وانت تعرفين أن الكوة تترك نصف مفتوحة ليل نهار لدخول الهواء وبواسطة هذه الكوة استطاع الدخول وقبل عام واحـــد تقريبا سنحت فرصة أمامي لاحدثه عن أسطورة الراهبة التي حدث به الى أن يتزيا بزيها كفكرة رومانتيكية وأفلح في التزيي بزي هذا الشبح بنباهة وذكاء تامين أما اتخاذه زي الراهبة الاسود والابيض فقد كاد يقع في الفخ مرة بعـد

twitter @baghdad_library

مرة ، مرة كاد يقع بيديك والمرة الاخرى بيـــد ذلك النمر الجزويتي المسيو بول ويعتبرهما أنت وهو جريئين جدا ٠

والذي أثار عجبي ودهشتي هو احتفـــاظك بهذا السر أكثر من كونك اتصفت بالشجاعة بعد كل زيارات ذلك الشبـح دون أن تصرخي ودون أن تخبري أحدا وتثيري الدار كله وما يجاوره تم ماذا كان رايت في الراهبة التي تامت في فراشك ؟ لقد البستها أردية الراهبـة الم يكن تلبيسي حاذقا الم تزعقي وتصرخي عنـدما شاهدتنيها ؟ لو كنت مكانك لجننت من الخوف أما انت فاية اعصـاب لك ؟ هل هي من حديد حقيقي ملفوف بجـلد ؟

اعتقـــد أنك لا تشعرين بأي شيء فليست لديك نفس الحساسية التي أملكها أنا ويبدو أنك باردة التحسس بالالم أو بالخوف او بالحزن ٠ انك كذلك الفيلسوف اليوناني القديم ديوجينس ٠ حسنـــا يا جدتي العزيزة هل أنت غاضبة جدا من هروبي في الليـلة المقمرة كما لو أنني في مسابقة ركض ؟ أطمئنك بأن ذلك لم يكن الا مزاحا وتفكهـة رائعـه وفعلت ذلك نكاية بتلك الفتاة الوقحة بولينا وذلك الدب الدكتور جـون لاريهما أنني أستطيع رغم كل استعلائهما أن أتزوج كما تزوجا ٠

لقد كان المسيو دي باسومبيير غاضبـــا على الفريد في أول الامـر بشكل غريب وهدد باقامة دعوى اختطاف فتاة قاصرة بشكل جدي ممـا الجاني مضطرة الى أن أقوم بدور تمثيلي عاطفي فركضت أمامه وبكيت بصوت عال وبللت ثلاثة مناديل جيبية متضـــرعة أمامـــه وأنا أنادى « يا عمي ! » حتى تتاذل ولانت عواطفه وما فائدة احداث الضجـة في الزواج ٠٠ لقد تزوجت الان وانتهى كل شيء ولا يزالون يقـولون ان زواجنا ميس شرعيا لانني لست في العمر الحقيقي للزواج كما لو أن هذا أمر خطير ٠

وعلى كل فاننا سنتزوج ثانية وسيكون لي جهاز عرس وستشرف السيدة كولوندبلي على سيره وهناك بعض الامال في أن يعطينا عمي المسيو دي باسيومبيير هبة أو دوطة محترمة تكون مريحة جدا لنا لان الفريد ليس له شيء سوى لقب النبل والوراثة والاصالة وكل ما أريده هو أن أرى عمي يقوم بذلك دون قيد أو شرط بنفسية سخية جنتلمانية ٠

انه في نفسية غير راضية بحيث جعل المهر أو الدوطة رهنا بوجوب تقديم الفريد وعدا خطيا تحريريا بأنه ينقطع عن لعب النرد أو لعب الورق

منذ اليوم الذي يسلم المبلغ الينا • انهم يتهمون ملاكي بأنه مقامر وأنا لا أعرف أي شيء عن هذا الامر بيد أنني أعرف بأنه مخلوق عزيز ومعبودي ويعجز اطرائي وتمجيدي للعبقرية التي نظم بها دي هامال هروبنا وما أذكاه حين اصطفى ليلة المهرجان لذلك لان المدام التي يعرف طباعها ستكون غائبة في وجه التأكيد بذهابها الى الحفلة الموسيقية المقامة في المتنزه ••

وكنت أفكر أنك ذهبت معها لانني وجدتك تنهضين وتتركين المهجع في الساعة الحادية عشرة ولا استطيع أن اتصور كيف عدت وحيدة على قدميك فقد شاهدناك حقا في شارع القديسة جين القديم •• ألم تشاهديني وأنا الوح لك بمنديلي من نافذة العربة ؟• وداعا وافرحي من أجل حظي السعيد وهنئيني لسعادتي الكبرى وصدقيني فيما أقوله يا عزيزتي الساهرة المتهكمة المبغضة للبشر وأدعو لك الصحة التامة والنفسية الوادعة والبهجة والحيوية •

المخلصة لك جنيفرا لورا دي هامال
فانشاوي سابقا

ملاحظة : تذكري انني الان كونتيسة وسيسر أبي وأمي والبنات في الدار أن يسمعوا ذلك وستكون ابنتي كونتيسة واختي كذلك • مرحى هذا افضل مما لو أخذت لقب السيدة جون بريتون •

ان القارىء لابد ان يتوقع ـ بعد انتهاء مذكرات السيدة فانشاوي ـ سماع كونها كفرت تكفيرا مريرا في اخر الامر عن طيش شبابها وبالطبع فان قسما كبيرا من معاناتها يكمن في تحفظها لمستقبلها والكلمات القلائل التالية ستجد المزيد من معرفتي بها • لقد وجدتها عند نهاية شهر العسل عندما زارت المدام بيك وبعثت في طلبي عندما كانت في الصالون وكيف أنها اندفعت نحوي لتحضنني وهي تضحك وبدت جميلة وزاهية جدا فقد كانت عقائص شعرها أطول وخداها أكثر احمرارا من السابق وغطاؤها الرأسي ونقابها وأورادها البرتقالية وملابس عرسها أروع بكثير عن ذي قبل •

وصاحت جنيفرا في الحال : لقد حصلت على دوطتي •• وكنت دائما أحس ان في كيانها عنصرا تجاريا رغم استخفافها بالبورجوازية

twitter @baghdad_library

والبرجوازيين وقد صالحت عمها دي باسومبيير تماما ·· مع العلم انـــه كان يسمى الفريد ·· بالمغفل ·· فتلك هي طريقته الاسكتلاندية ·· وقالت لي : انني اعتقد أن بولينا تحسدني ، والدكتور جون يقتله الحسد ويكاد دماغه يتمزق وأنا سعيدة جدا وأدري أن لا شيء يهوزني قط ·· الا اذا كانت عربة أو فندقا ، والان ساقدمك الى زوجي الفريد ·· فتعالي !

وظهر الفريد من الصالون الداخلي حيث كان يكلم المدام بيك ويتلقى تهانيها وتقريعاتها المازحة ·· وقدمت له بأسماء ثلاثة ·· تيمون ·· التنين ·· ديوجينوس ·· وكان الكولونيل الشاب مؤدبا جدا واعتذر لي بكل لطف وكياسة ·· عن زيارات الشبح ، وما الى ذلك منهيا كلامه وهو يومىء الى عروسه ·· افضل الاعتذار لكل ما ارتكبته من خطايا ··

ثم أرسلته العروس الى المدام بيك وجرتني قريبة منها وشرعـــت تخنقني بترهاتها وسخافاتها ومزاجها السائب غير المتحفظ ونزقها وطيشها ·· وابرزت لي خلقتها بافتخار وزهو وأسمت نفسها مدام لاكونتيس دي هامال وطلبت مني رأيي فيما قالته قراية عشر مرات ·· وتكلمت القليل كما هي عادتي ، وكما توحي لي طبيعتي ·· ولم تتوقع مني شيئا أفضل وهي أدرى الناس بأنني مقلة في مدح الناس ·· وسرها استهزائي الجاف بها وكلما كانت سخنتي كذلك كانت تكثر من الضحك المرح ·

وأقنع دي هامال بعد زواجه مباشرة بوجوب تخليه عن سلك الجيش لتخليصه من اتصالات وعادات لا جدوى منها ولا ربح فيها وأوجد لـــه منصب ملحق ثقافي في سفارة ·· وسافر هو وزوجته الى الخارج وظلـــت تراسلني أعواما عديدة ، وخلال عام أو عامين اقتصرت مراسلاتها عـــلى شؤونها الخاصة ، وعلى الفريد فقط ، ثم كفت عن ذكر زوجها وركزت بدلا منه على وليدها الفريد فانشاوي دي باسومبيير دي هامال مبتهجة كل التبجح بخصيته ومزاياه ممزوجة بالتذمر من زواجها ومن كونها اصبحت أما ، ثم جاءت الرسائل ملأى بالشكوى من الفريد الاول ، أي زوجها ، وأخذ المسيو دي باسومبيير يطالبهم بديونه ·· وأصبحت حياتها محفوفـــة بالصعوبات ، وحالها مدعاة للشفقة ·· وبعد أن حصلت على وصيتها أخذت تكافح في معركة الحياة بالتوكيل والتفويض ·· وعلى العموم كانت تعاني ولكن معاناتها كانت أقل من معاناة سواها ممن عرفتهم في حياتي ··

الفصـــل الواحـــد والاربعـــون

ـ منـزل في حـي « فـويـورغ » ـ

هل يتوجب علي قبل أن أنتهي أن أقـدم كشفـا عن تلك الحرية وذلك التجديد اللذين حصلت عليهما في ليلة المهرجان ؟ وهل علي أن أبين كيف أن هذين الرفيقين القويين « التجديد والحرية » اللذين جئت بهمـا معي من المتنزه النير كانا يتحملان عبء تجربة أحـد معارفي الصميمين ؟

لقد جربتهما في اليوم التالي بالذات وتفاخرا بقوتهما صراحـة وعلانية عندما نبهاني عن الحب وقيـوده ولكن بموجب حقائقي وليس كلماتي وبموجب بعض شواهـد الارتياح الافضـل أو العزاء الافضـل وبعض تجارب الحياة المريحة اعتذرت الحرية وأعلنت أنهـا في الوقت الحاضر عاجزة عن تقديم العون لي أما التجديد فلم يتكلم قط لانه مـات فجأة في الليل ·

ولم يبق لي شيء أفعله سوى أن أثق بأن الحدس قد أسرع بي كثيرا واشتط بي كثيرا جدا ولم يدعني أخفف من عبء الساعة الجـائرة عن طريق من يذكرني بسحر الحسد المشوه للسحنة · وبعـد نزاع قصـير عابث وجدت نفسي مرة أخرى أسيرة الحيرة وفي خضم القـلق ومكبلة الايدي وفي حالة عنت مجهد ·

وسألت نفسي ·· ترى ·· هل يقدر لي أن أراه قبل أن يسـافر ؟ هل أخطر آنا ببالـه ؟ هل ينوي العـودة ؟ هل يأتي به هذا اليوم الي ؟ أو هذه الساعة ؟ هل علي أن أتفحص هذا الالم المقيم الطويل الامـد ؟ وهذا العذاب العنيف في آخر الامر وهذا الملوى الذي بليه ونزعه الامـل والشك من أساسيهما يهز الحياة هزا ثم أن اليـد التي تضـرب بعنف لا يمكن أن تربت بلطف لان الغياب يعترض حاجزها وحدودها ·

لقد كان ذلك اليوم في نظري عيد الافتراض ولم تكن الساعة ساعة

twitter @baghdad_library

الدراسة فطالبات المدرسة الداخلية ومعلموها ومعلماتها بعد حضورهم مدارس الصباح خرجوا في نزهة طويلة في الريف لتناول وجبة خفيفة من الطعام أو وجبة ما بعد الظهيرة في مزرعة من المزارع ولم أذهب معهم اذ لم يبق على ابحار المسيو بول سوى يومين وكنت في حالة التشبث بآخر فرصة تبقت لدي مثلما يتشبث المشرف على الغرق بعد تحطم الباخرة بآخر طوف أو رمث.

كانت لي بعض اعمال النجارة لأنجزها في الصف الاول وبعض أعمال التصليح أجريها على بعض الرحلات والمقاعد الطويلة فالعطل ساعدت على انجاز مثل هذه العمليات التي لا يمكن انجازها عندما تكون الصفوف ملأى بالطالبات وجلست وحيدة معولة على أن أتحول فيما بعد الى الحديقة وأترك المكان آمنا ولكن عندما شعرت بفتور همتي في أن أنجز هذه الاعمال سمعت صوت العمال قادمين .

ان الفنانين والخدم الاجانب يصنعون وينجزون كل شيء أزواجا وفي رأيي أن نجارين اثنين من مواطني لاباسيكورين قادران على خلع مسمار وفي الوقت الذي كنت أشد غطاء رأسي الذي علق باشرطته بحركة من يدي خرجت لارى خطوة أي عامل تلك التي سمعتها قادمة ولاحظت أن ذلك الرجل كان يرتدي حذائين بدلا من قبقابين وقلت ربما كان هذا رئيس النجارين جاء ليفتش قبل أن يرسل عماله ولففت وشاحي وهو يتقدم نحوي ثم فتح الباب وكان ظهري موجها اليه وشعرت برعشة خفيفة واحساس خفيف أسرع زوالا من أن يحللا .

والتفت فوقفت لانظر الى المدخل فوجدته مليئا بشخص طبعت عيناي في دماغي أنه المسيو بول وكان يرتدي الملابس التي أعدها ليسافر بها .. معطف رجالي ضيق محفوظة حافته بحاشية قرنفلية زينية وظننت أنه مسافر توا مع علمي بأن باخرته لن تمخر قبل مرور يومين آخرين وبدا مرحا ولطيفا وكان كله صداقة وتفاهما ودخل وبداخله الشوق وربما كانت عروسه جوستين هي التي نورته على هذه الشاكلة .

ومهما كان سبب فرحه فليس علي أن ألقي شروق شمعة بغيمة واذا كانت هذه آخر لحظتي معه فلا ينبغي أن أبددها ببرود مني فضلا عن أنني لا أزال أحبه حبا لا يجوز أن أفسده حتى بالغيرة ذاتها وكل

كلمة تند عن شفتيه أو نظرة وديعة لطيفة من عينيه تفيدني وتريحني طيلة حياتي لانها ستكون عزاء لي في آخر طريق لوحدتي وسأقبلها وأتذوق أكسيرها ولا يجوز لي أن أفسد قدحها بكبريائي ٠

وطبما ستكون المقابلة قصيرة وسيقول لي ما قاله لكل من التلميذات المجتمعات وسيأخذ يدي مدى دقيقتين ويلمس خدي بشفتيه لاول مرة وآخرها ولن يبقى بعد ذلك شيء بيني وبينه لأن الوداع سيكون حاسما والانفصال نهائيا وتتسع الفجوة بيننا بحيث لا أقوى على قطعها والذهاب اليه وفعلا أخذ يدي بأحدى يديه وبالاخرى سوى غطاء رأسي وعدله وحدق في وجهي ٠

وتوارت ابتسامته النيرة وشفتاه عبرتا عن لغة بلا كلام تشبه لغة الأم التي تجد وليدها متغيرا كل التغيير بدون أن تتوقع ذلك كحمى داهمته أو كحاجة أزرت به ٠ واذا بتقريع يوجه اليه دون أن يتوقعه وبامرأة تقول له بلهجة سريعة « بول ٠٠ بول ٠٠ بول ٠٠ تعالى الى الصالون فلدي أشياء كثيرة هامة أريد أن أسرها اليك ٠ لدي حديث معك يطول النهار كله وكذلك يريدك فكتور وجوزيف لنفس الغرض ٠٠ تعالى يا بول ٠٠ تعالى الينا ! » ٠

لقد جاءت المدام بيك الى المكان بفعل الحذر والاحتراس أو بغريزة غامضة وأصبحت قريبة بحيث زجت بنفسها زجا بيني وبين المسيو بول وهي ترد الكلمات التالية ٠٠٠ « تعالى يا بول ٠٠ تعالى يا بول ٠٠ » وعيناها تحدجاني شزرا واندفعت نحو نسيبها وظننت انه تقهقر وتراجع أمامها وانه سيخرج ولم أعد اتحمل أكثر وصرخت بما يتحدى الكبح قائلة « فؤادي سيتمزق » ٠

والذي شعرت به آنذاك كان كانسحاق القلب ولكن همسة من المسيو بول أزالت كل عنت لازمني حيث قال لي هامسا « ثقي بي » وكأنما انزاح عن صدري عبء ثقيل وفتح لي متنفسا سري عني وبغصص عديدة وارتجاف ثلجي وبارتعاش قوي يشوبها الارتياح رحت أبكي وقالت المدام بيك للمسيو بول « دعها لي ٠٠ انها مجرد أزمة نفسية وسأقابلها بالود وتزال » ٠

وبدا لي أن تركي لها ولودها يشبه ترك شخص أمام المسمم وكأس سمه وعندما أجابها المسيو بول بعمق وفظاظة واجتراء « أتركيني ٠٠ اتركيني » شعرت كما لو أن موسيقى غريبة منعشة للروح تعطيني

twitter @baghdad_library

الحياة وكرر كلمة « اتركيني » بمنخرين مفتوحين من الغضب وبعضلات وجه مرتجفة وهو يردد هذه الكلمة وقالت المدام له بعنف « ولكن هذا لن يجدي نفعا » وفي هذه المرة فح في وجهها فحا قائلا لها « اخرجي ! » · وهددته الان بالباب سيلاس وبأنها ستستدعيه الى هذا المكان ، هددته باصرار والحاح وكان جوابه الان صيحات أعلى وأكثر هياجا « أيتها المرأة أخرجي من هنا في الحال ! » وكان في أعلى درجات الثوران وأحببته في حنقه وغيظه الشديد ذاك أحببته بكل عواطفي وجوارحي في تلك اللحظة وقالت له المدام « ان الذي تفعله هو خطأ يختص به رجال لا يوثق بهم ولا يؤتمنون وذوو أمزجة خيالية لا يركن اليها وخطوتك هذه هي خطوة متهورة وطائشة ومتقلبة واجراء يثير الاغاظة وعديمة الاحترام في راي أشخاص أكثر رسوخا وثباتا وأكثر عزما وتصميما » ·

وقال لها بلهجة أهدأ « أنت تجهلين ما في من خصائص الرسوخ والعزم والتصميم ولكنك سترين ·· وهذه الحادثة ستعلمك كيف تكونين متراضعة وغير مغرورة بذاتك فكوني لطيفة وكوني امرأة ·· انظري الى هذا الوجه الوادع المسكين أنت تعرفين أنني صديقك وصديق أصدقائك وبالرغم من كبريائك وتعاليك تعرفين جيدا أنني أهل للثقة وللتضحية بنفسي ولكن قلبي موجع بما أشاهده الان وينبغي أن أعزى وأن أعزي سواي فاتركيني يا هذه ! » ·

وحملت عبارة « اتركيني يا هذه ! » في هذه المرة من معاني المرارة وصيغة الامر الالزامي ما جعل من الصعب حتى على المدام بيك نفسها ألا تخضع وتمتثل الا أنها مع كل ذلك وقفت وقفة ثابتة ونظرت اليه دونما رهبة أو فزع فالتفت بعين ناهية صارمة وثابتة كالحجارة وكانت تهم بفتح شفتيها لترد عليه ردا سريعا حاسما ·

غير أنني وجدت في وجه بول نورا وثارا سريعة الثوران ومن الصعب علي أن أصف حركته ففي الظاهر لم تكن عنيفة · وانما أبقت شكلا تأديبيا ومد يدا آمرة اليها فكادت تلمسها وعلى ما ظننت فرت وانطلقت مسرعة من الغرفة وكان الباب مغلقا بثانية واحدة وتبدد من وجهه الان انفجار الغضب وبسرعة متناهية طلب مني مبتسما أن أمسح دموعي وانتظر عودة الهدوء الى وجهي ، وبين الفينة والفينة كانت تند من شفتيه كلمة من كلمات تطمين الخاطر وتلطيفه ·

وسرعان ما وجدت نفسي جالسة بجانبه مرة أخرى بعد أن عادت الطمأنينة الى روحي وانقشع عني القنوط وتوارت كآبتي وانبعث في

قرارة قلبي الامل والشعور بالصداقة وما عـــدت أشعر بأنني مريضـة وبأنني افضل الموت على الحياة وبادرني الكلام قائلا « اذن كنت حزينـة جدا لفقدان صديقك ؟ » وقلت له « أيها السيد ·· قتلني التفكير بأنني منسية اذ لم اسمع منك في كل تلك الايام المملة المرهقة كلـــمة واحـدة وسحقني احتمال تطور الى تأكيد بأنك ستفارقني دون توديع » ·

وقال لي « هل أعلمك الان بانني قلت للمدام بيك أنك لا تعرفينني ؟ هل علي الان أن أبرز لك خصائصي وخلائقي ؟ حتى يكون ذلك برهانا على أنني صديق صدوق ؟ حسنا ·· ان البرهان حاضـر وجئت لابرر نفسي وأبرئها » وقلت له « قل ما شئت وأعلمني بما تشاء أيها السيـد فانا مصغية اليك الان » وقال لي « اذن عليك قبل كل شيء أن تخرجي معي الى مسافة ما من المدينة فقد جئت لمشـــاهدتك ولهذا الغرض » ·

وبدون أن أستفهم منه ما يعني بذمك أو أسير خطته أو أبدي أيـة معارضة أعدت شد غطاء رأسي وكنت مستعدة للخروج معه وأخذني الى الجادة العريضة ·· وهي الشارع المكتظ بالاشجار الذي دأبنا عدة مرات على الجلوس على مقاعده الكائنة تحت أشجار الليمون ولم يسألني ما اذا كنت تعبة أنما رنا الي بناظريه وقال لي وهو يكرر كلماتي ويقلد بلطف ودماثة ورقة ـ صوتي ونبرتي الاجنبية وهو ما كان دائما يفعله أثناء تبادل الحديث بيننا يمازجه مزاح غير مؤذ ودعابة لا تجرح ·

قال لي بطريقته هذه مكررا كلـماتي « في كل تلك الايام المملة المرهقة لم أنسك حتى ساعة واحـــدة والنسوة المخلصات يخطئن حين يفكرن بأنهن المخلصات الوحيدات من بين المخلوقات وسرت لطافة ورقـة على كل ارجاء محياه واستنارت عيناه البنفسجيتان من تحت أهدابهمـــا الاسبانية وقال لي « لنمش الهوينا الآن » وسألته بجرأة ملحة لمقصـــد اعتبرته مهما جدا « هل يسؤوك النظر الي ؟ » وهنـــا توقف وأعطاني جوابا مقتضبا وقويا ، جوابا أسكتني وأخضعني وطمنني عميقا وبعـد هذا عرفت ما أنا بالنسبة اليه وما ينبغي أن أكونه لبقية العالم ولـــم أعد أهتم أو أقلق وسألت نفسي أهي دلالة ضعف مني حين أحاول التأكد من رأيي حول المظهر ؟ أخشى أن يكون ذلك ضعفا مني · ولكنني في هذه القضية ينبغي الا أكون كذلك وبدلا من ذلك ينبغي أن أثيل على نفسي أن أدخل السرور الى قلب المسيو بول برغبة قوية تنبعث من أعماقي ·

ولا أدري بالضبط أين تنزهنا وأين همنـــا على أوجهنا فمشيتنـا كانت في الواقع طويلة وان بدت في الظاهر قصيرة والطريق كان مبهجـا واليوم جميلا وتحدث المسيو بول عن سفرته المقبلة التي قال انها قـــد

twitter @baghdad_library

تستغرق ثلاثة أعوام وعند رجوعه من غواد يلوب سيتطلع الى التخلص من مسؤولياته وينتهج طريقا واضحا وسألني عما أنوي فعله أثنـــاء فترة غيابه وذكرني بأنني قلت له ذات يوم أنني سأدير مدرسة خـــاصة بي وسألني ماذا كنت قد تخليت عن تلك الفكرة فقلت له « كلا ·· لم أتخل عنها وسأبذل قصـــارى جهـــدي لاحتفظ بالذي يمكنني من ان أحقق تلك الفكرة » ·

وفهمت منه أنه لا يريد بقائي في شارع فوسيت مخافة أن أفتقـــده هناك كثيرا وأشعر بالوحشة والانفراد ويزداد حزني وهـــذا أمر مؤكـــد الا أنني وعدته بأن أبذل قصارى جهدي لتحمل وطأة سفره وقال لي بصوت واطيء « ولا يزال عندي اعتراض آخر حول اقامتك الحالية فمثلا حين أكتب لك الرسائل في بعض الاحيان أخشى ألا ترصل اليك بسلام فهناك في بعض الظـــروف من يسعى من جماعتنـــا الى التلاعب بها وربما الى عدم توصيلها ·

وقال لي « اذا كتبت الي رسائل فينبغي أن أحظى بها ولابد لي من ذلك فهناك عشرة مدراء وعشرين مديرة ولن يستطيعوا حجبها عني ولن أتحمل مثل هذا النوع من الانضباط أو القاعدة أيهـــا السيد ·· ولن أتحمل ذلك أبدا ·· » وأجابني « مهلا سنرسم خطة لذلك فلدينا وسائلنا ثم توقف عن الكلام وكنا في ذلك الوقت عـــائدين من مشيتنا الطويلـــة فوصلنا وسط الضاحية النظيفة حيث البيوت صغيرة وان كانت جميلـــة كما يظهر ثم توقف المسيو بـــول أمام عتبة باب بيضـــاء لدار نظيفـــة وأنيقـــة ·

وقال لي « سأدخل هنا ولم يطرق على الباب انما أخرج من جيبـــه مفتاحا وفتح الباب ودخل في الحال واستدعاني للدخـــول ثم أغلق الباب وراءنا ولم يكن في الدار خادم وكان مجازه صغيرا والدار صغيرة أيضا وان كانت مصبوغة حديثا وفق الذوق السليم وتغلق منظر مجازه المشجر نافذة فرنسية وكرمات عنب منظمة عند الالواح الزجاجية القريبـــة من النواند والنبات المعترش ، والاوارق الخضر تقبل الحشيش وكان السكوت مخيما في ذلك الدار ·

وفتح المسيو بول بابا داخلية كشفت عن ردهـــة وصالون أنيقين جدا ووجدتهما رائعين جـــدا أيضا فحيطانهما الجميلة ملونـــة باللون الاحمر وأرضيتهما مصقولة تغطي وسطها قطع من السجاد وتلتمع المنضدة المدورة الصغيرة كالمرآة فوق المقعد وهناك سرير صغير وخزانة ضيقـــة

عالية ذات أدراج وهي نصف مفتوحة وحاجب شفاف من الحرير الاحمر وراء الخزفيات الصينية منضدة على الرفوف وساعة حائطية فرنسية ومصباح وقطع من الحلوى والبسكويت .

وهناك تجويفة في شباك واسع ملأى بالمشاجب والمحامل التي رصفت فوقها مزهريات فوق كل منها نبتة خضراء بديعة متوهجة الازهار وفي احدى الزوايا منضدة صغيرة ذات قائمة واحدة مرمرية الرأس وعليها صندوق أعمال وكانت شبكية الغرفة مفتوحة يتماوج من فتحتها الهواء الخارجي الذي يدخل معه أريج البنفسج وقلت « يا لجمال هذا المكان » وضحك المسيو بول عندما شاهدني مرتاحة .

وسألته همسا وأنا شبه خائفة من السكون العميق المخيم في الدار « هل نجلس وننتظر هنا ؟ » وقال لي « هل نلقي نظرة الى زاوية أو زاويتين من هذه الدار الصغيرة أولا ؟ » وقلت له « هل تريد أن تأخذ حريتك في التجوال بكل أرجاء الدار ؟ » أجابني « نعم أريد ذلك » وقادني الى الطريق وأراني مطبخا صغيرا فيه وجاق صغير وفرنا صغيرا وبعض القطع النحاسية وكرسيين ومنضدة وخزانة صغيرة تحوي طقما من الآنية الخزفية .

وقال المسيو بول « توجد في الصالون أدوات صنع القهوة » وعاينت في ضوء قوله هذا ستة صحون للعشاء خضراء وبيضاء وأربعة صحون في بيت السلم النظيف الضيق سمح لي بأن القي نظرة على غرفتين جميلتين للنوم ثم قادني الى تحت مرة أخرى ووقفنا حيال باب أكبر موصد وأخرج مفتاحا ثانيا وأدخله في قفل الباب وفتحه وسمح لي بالدخول قبله وقال لي انظري لنفسك .

ووجدت نفسي في شقة جيدة الحجم أنيقة ونظيفة وان كانت اقل امتلاء بالاثاث والموجودات من سواها ولم تكن مفروشة بالسجاد بل كان فيها صفان من الرحلات والمقاعد الطويلة باللون الاخضر وممشى في الوسط ينتهي بمنصة وكرسي التعليم ومنضدته ووراءها سبورة وعلى الحيطان علقت خريطتان ومن الشبابيك تبدو بعض النباتات والاغراس وباختصار كانت الغرفة تحتوي على كل ما هو موجود في الصف .

وقلت له « اذن هذه مدرسة صغيرة فلمن هي ؟ لم أسمع قط بوجود مؤسسة في هذا الحي » فأجابني متسائلا « هل تتلطفين بقبول بضع نشرات تمهيدية كهذه لتوزيعها لمصلحة صديقة لي ؟ » وأخرج من جيب معطفه بعض الرزم من هذه الوثائق وسلمها لي فنظرت اليها وقرأت

twitter @baghdad_library

ما فيها مما طبع بحروف كبيرة « مدرسة خارجية للبنات ضاحية كلوتيلد المرقمة (٧) مديرة المدرسة الانسة لوسي سناو » وماذا قلت للمسيو بول عما تؤيل بعد ذلك ؟ قلت له « هل أنت الذي فعلت ذلك ؟ هل هذه دارك ؟ هل أنت الذي أنشأتها ؟ هل أنت الذي طبع هذه النشرات التمهيدية ؟ هل تعنيني أنا بالذات ؟ هل أنا المديرة ؟ هل توجد لوسي سناو أخرى ؟ قل لي ·· قل شيئا لأسمعه ! » ·

ولأنه لم يتكلم غير أنني مع ذلك فهمت سبب سكوته السار ونظرته المطأطئة الضاحكة وموقفه ، فهمت ذلك كله الان وقلت له بصوت عال « أخبرني الحقيقة ·· ينبغي أن أفهم كل شيء ·· كل شيء !! » وسقطت رزمة الاوراق من يده على الارض ومد يده لالتقاطها وكنت أسرع منه لمساعدته وقال لي « آه ·· أنت قلت أنني نسيتك كل تلك الايام المرهقة » ·

وقدمت له التشكرات عن الاسابيع الثلاثة المجهدة التي عمل خلالها من صباح دور الى منجد أثاث ومن مصمم غرف الى أعمال أخرى ولم يكن في فكره خلال تلك الاسابيع الا لوسي سناو · ولم أدر بالضبط ماذا علي أن أفعل فأحيانا كنت مثلا أداعب طوف ودنه وقد أخذت فعلا بطيبة خلقه التي غمرني بها غمرا وان تطمينه اياي كان بمثابة نور يهبط الي من السماء وكانت نظرته الحنونة العطوفة المولعة هي التي هزتني بشكل لا يمكن تصوره وفي وسط كل ذلك أضطررت الى التطرق الى الاشياء العملية فسألته « ما موضوع ما سينشأ من القلاقل في طريق عملنا ومن التكاليف مثلا وهل لديك المال اللازم لذلك ؟ » ·

وأجابني بفؤاد منشرح « عندي منه الكثير فقد جمعته من مجهوداتي التدريسية وهو مبلغ يعتد به وفكرت منذ زمن بوجوب جمعه منتظرا مثل هذه الساعة ليل نهار ولاسيما في الاونة الاخيرة ولكنني لم أجمع المال من أجل الجمع فقط فليس هذا من شأني ولا من طبعي والان جوابا لأسئلتك الاخيرة « ·· أين كنت يا مسيو بول ؟ وماذا كنت تفعل ؟ وما دهاك وما سرك ؟ » وأراني أقول لك الان « ستعيشين هنا في مدرستك وتخدمين نفسك وتعنين بها وأنا بعيد عنك وستفكرين بي أحيانا وتهتمين بصحتك وسعادتك من أجلي وعندما أعود ·· (وهنا توقف وترك فراغا) ·

ووعدت أن أفعل كل ماطلبه مني قائلة له «ساكون المديرة المشرفة لكل ما هو ملكك وأخدمك بكل اخلاص واثق بأنك ستعود الي ويكون الكشف

الحسابي جاهزا . أيها السيد !! أنت فاضل ومخلص جدا » وفي مثل هذه اللغة غير المسعفة ولا المناسبة ناضلت مع مشاعري واحاسيسي من أجل أن أعبر تعبيرا صحيحا فعجزت عن ذلك .

كانت مخاطبتي اياه مشوبة بالانفعال والضعف والانفلات وببرودة كبرودة الجليد منحه في مجهودها أو يتخللها الارتعاش والاضطراب واخذ يتاملني في حالتي تلك رافعا يده ممسدا بها شعري بلطف وأمرها على شفتي امرارا اما أنا فقد تشبثت بها بكل احترام وتبجيل فقد أصبح مليكي ويده السخية ملكية ومفخمة وكان اجلالي واحترامي له مسرة لقلبي وواجبا من اسمى واجباتي .

وانتهت ساعات ما بعد الظهيرة وألقت ساعات المساء الأهدأ بظلالها على حي فوبورغ الساكن وضيفني المسيو بول وانشغل بضيافتي منذ الصباح واحتاج الى بعض المرطبات والمنعشات من الشراب وطلب مني ان أقدم له الشوكولاتة في انيته الصينية الذهبية الجميلة وخرج وأوصى ما مست اليه الحاجة من المطعم ووضع المنضدة ومعها كرسيان في الشرفة الكائنة خارج النافذة الفرنسية وتحت الكروم المستورة المحجبة وقبلت ان أكون المضيفة بفرح مازجه الخجل فهيأت صينية الطعام والشراب وخدمت المضيف الكريم !! .

وهذه الشرفة كانت وراء الدار وأحاطت بنا حدائق حي فوبورغ والحقول المترامية أمام نواظرنا وكان الهواء عليلا هادئا ومن فرقنا ترنو أشجار الحور والنار والسرو والورد الى القمر الذي ما كان أبهاه وأروقه فقد كان القلب يختلج لابتسامته وأومضت نجمة بجانبه باشعتها التي لا ينافسها منافس في حبها النقي وفي حديقة كبيرة مجاورة كانت المياه تنبثق من النافورة التي كان يعلوها تمثال مائل برأسه صنوب انبجاسات مياهها .

وحادثني المسيو بول بصوت هو من اللطف بحيث يمازج ممازجة متناغمة مع الهمس الفضي وتدفق المياه واللهفة الموسيقية حيث يرتل النسيم العليل وينبوع المياه وأوراق النبتة الزينية صلاة المساء المهدهدة .. يا أيتها الساعة السعيدة تريثي لحظة وانشري مجموعة رياشك الزينية وأوقفي جناحيك عن التصفيق وأميلي الى جبين السماء ويا أيها الملاك الابيض دع نورك يتباطأ ووجه انعكاساته الى الغيوم المتتالية وسلم

twitter @baghdad_library

ابتهاجك وتهليلك الى ذلك الزمن الذي هو بحاجـــة الى التأمـلات والى استعادة الاحداث الماضية ٠

وكانت وجبة طعامنا بسيطـة مكونة من شوكولاتة وقرص رغيف وصحن من ثمار الصيف الطازجة وكرز وثمار القطرب بأوراقها الخضراء وكانت جلسة مؤنسة فضلناها على كل الاكلات وسررت بلا وصف للخدمة التي كنت أسديها له وسألته ما اذا كان صديقاه الاب سيلاس والمـــدم بيك يعرفان بما قد فعل وما اذا كانا قد شاهدا داري هذه ٠

فقال لي كلا يا صديقتي لا أحد يدري بالذي صنعته الاك أنت وأنا فهو موقوف ومخصص لكلينا دون أن يشاركنا فيه أحد أو يعكر صفـــوه شيئا أحد وازدف مبتسما « زيدي على ذلك أنني أريد أن أبرهن للآنسة لوسي انني احفظ السر لانها كثيرا ما كانت توبخني بطريقة ساخرة على احتـــراري للاحتراس والحذر الضروري وكم لمحت لي بأن كل شؤوني هي على غرار مـــر ٠٠٠ « بوليجينيلي » (شخصية مضحكة كان يتبجح بأنه يحفظ الاسرار في حين أن أسراره يعرفها الجميع) ٠ وكان هـــذا صحيحا تماما فانا لم أستأنه من ذلك ولا من أي شيء آخـــر يستوجب النقد أما الآن فان صاحب هذه الذهنية الرائعة والقلب الكبير والقامة القصيرة المتصف بالعيـــوب يستحق مني التقـــدير والاخـــلاص وسيكون تقديري واخلاصي له مطردا على الدوام ٠

ومضيت في توجيه أسئلتي اليه فسألته لمن هذه الدار ومن هو صاحب الملك وكم يبلغ ايجاره وأعطاني تحريريا المواصفات والمفردات كما يلي بعد أن هيأ كل الاشياء ٠٠ لقد صدق حـــدسي أن البيت لم يكن بيتـــه فمن الصعوبة بمكان أن يصبح المسيو بول مالك دار طالمـــا أنني أدري بتبذيره فهو يحصـــل على مـــال لا بأس به ولكنه اعتاد على انفـــاقه فهـــو بحاجة الى من يحافظ على ماله ولذلك فالمشتمل يعـــود الى مواطن ثري في « بيسفيل » كما يقول عنه المسيو بول ٠

وقال لي « ان هذا المالك صديق لي يا لوسي ويحترمك كل الاحترام ولشدة عجبي علمت منه أنه لم يكن سوى المسيو « ميريت » صاحب المكتبة الطيب القلب العصبي المزاج الذي شق لي بين الصفوف مكانا وهيأ لي مقعدا ليلة المهرجان المقام في المتنزه وعلمت أن المالك محترم يملك ثروة

كبيرة وعدة دور في حي فوبورغ وكان أيجار الدار « المشتمل » معتدلا يعادل نصف قيمته عند الاخرين وهو قريب من وسط « ميريت » .

وقال المسيو بول لي « واذا جاء الحظ على غير ما تتوقعين — وان كنت عتقد بانه سيجيء وفق ما تشائين — فان فاتحني تقول لي انت ستكونين في ايد أمينه فالمسيو ميريت لن يسعى لابتزازك فاجره أمام الواحد موجودة لديك ادخارا وبعدها عن الانسة لوسي أن تتثق بالله وبنفسها والان ما هو موقفك من التلميذات ؟ فاجبته « ساوزع عليهن نشرتي التمهيدية » وقال لي « صح ما ستفعلينه ولكني لا تضيعي الوقت أقول لك انني أعطيت واحدة للمسيو ميريت بالامس » وقلت له « ايها السيد أنت لم تنس شيئا .. أنت مدهش .. وأقول لك انني لا اتوقع أن يرسل البورجوازيون بناتهم الى مدرستي النهارية الصغيرة ولن يهمني شيء ان لم ياتوا وسأفتخر ان جاءت بنات أمثال بنات المسيو ميريت .

وتابع المسيو بول كلامه قائلا « زيدي على ذلك أن هنالك تلميذة وعدت بارتياد مدرستك لتعلم اللغة الانكليزية ولانها غنية فستدفع لك أجورا عالية وهي عرابتي جوستين ماري وقلت له « ما هو الاسم ؟ هذا الاسم الثلاثي ما شانه ؟ والى تلك اللحظة كنت أصغي بسرور عارم وأجيبه بسرعة مرحة ولكن هذا الاسم جمد دمي في عروقي وكففت عن الكلام ولم أنبس ببنت شفة ولم يخف تأثير ذلك على سيماء وجهي وفي الحقيقة أنني لم أقو على اخفائه فقال لي المسيو بول « ما دهاك ؟ » فقلت له « لا شيء » وقال لي متسائلا « تقولين لا شيء ؟ ! » لقد تغيرت ملامح وجهك وبهت لونك ولون عينيك أتقولين لا شيء ؟ أنت مريضة اذن وربما مجهدة أو تعانين من أمر ما فقولي لي ما هو ؟ » وقلت له « ليس لدي ما أقوله » .

وقرب كرسيه مني ولم تبد عليه العبرة أو الغيظ رغم أنني ظللت صامتة وباردة وحاول أن يدفعني الى الكلام وراح يستعطفني ويتوسل الي دون أن يكل وانتظرني بفارغ الصبر . وقال لي « جوستين ماري فتاة فاضلة مطواعة وودودة وليست سريعة الغضب فلو تعرفت عليهـا لاحببتها » وقلت له « لا أظن ذلك ولا أريدها أن تاتي هنا » وقال لي « أتريدين أن تربكيني وتحرجيني ؟ في الحقيقة لابد أن في الأمر شيئا

twitter @baghdad_library

.. ها أنت شاحبة الوجه كهذا التمثال .. اعتمدي على بول كارلوس واعلميه بالذي يغمك » .

ولامس كرسيه كرسيي ومد يده الي وأمالني صوبه وقال لي مرة اخرى متسائلا «هل تعرفين جوستين ماري؟» فقلت له «ان الاسم الذي تلفظه انهكني وشل قواي بلا حدود ، لم ينهكني فحسب بل أثارني وأهاجني وسخن دماء عروقي » . وتذكرت ساعة الالم المفاجيء وأيام مرض القلب وليالها ومهما كان من أمر دنوه مني كما هو الان ومهما كان من أمر التحام حياته بحياتي التحاما قويا ومهما كان من أمر ابتعاده عني ثم تقربه مني والتحام عواطفه بعواطفي فان فكرة التدخل فيما بيننا وانفصال قلبينا لا يمكن الاصغاء اليها الا وسط هياج عارم وانفعال عنيف طائش وغضب ومقاومة ولا يمكن لاية عين بشرية او وجنة بشرية ازاءها أن تخفي شرارة غضبها ولا يمكن لاي لسان بشري اعتاد على قول الصدق أن يكبح صراخ الغضب وقلت له « أريد أن أقول لك شيئا .. أريد أن أبوح لك بكل شيء » .

قال لي « تكلمي يا لوسي ! تقربي وتكلمي .. من ذا الذي ثمنك الم أكن أنا ؟ من هو صديقك ان لم يكن بول عمانوئيل ؟ تكلمي يا لوسي .. تكلمي » ورحت أتكلم وأفلتت شفتاي كل شيء مما هو موجود في خاطري وذاكرتي كالسيل الجارف وعدت القهقرى الى ليلة المتنزه وتحدثت عن جرعة الدواء المطيبة المزوجة بمادة طبية .. لماذا قدمت لي ؟ وتحدثت عن تأثيرها المدوخ وكيف أبعدتني عن مهجعي وحملتني خارجا بفعل جاذبية خيال زاه ومغرياته .

وتحدثت عن وحدتي في تلك الليلة على المرجة وتحت الاشجار وبالقرب من الصهريج العميق الباردة مياهه وتحدثت عن المشهد والجمهور والمسرحيات القصيرة والموسيقى والمصابيح والاشياء الرائعة ودوي المدافع المسموع من بعيد وقرع الاجراس العالي وكل ما واجهته تفصيلا وكل ما أدركته وعرفته وسمعته ورأيته وراقبته بنفسي وكيف أصغيت وما سمعته كله وما جاء الى فكري حدسا والتاريخ كله اجتزاء .

وبدلا من أن يحقق ويراجع ما سردته حثني على الاسترسال سواء بايماءة منه أو بابتسامة أو بنصف كلمة تبدر منه وقبل أن أنتهي من

حديثي وسردي أمسك بكلتا يدي واستشار عيني بنظرة فاحصة وبدا على وجهه شيء لم يكن المقصود منه هدهدتي أو اسكاتي ونسي مبدأه وتخلى عن عادته في قمع المقابل واخماد صوته ٠

واظن أنني استحققت منه ملامة وتوبيخا وأنني كنت في حالة عجرفة وحمق عندما منعت جوستين ماري من أن تدخل داري او تبقى تحت سقفي غير أنه ابتسم لي وأظهر جانبه المرح ولم ادر ان كان في مزاجي مثل هذا الغضب والغيرة والخيلاء حتى يومنا هذا وضمني الى صدره وشعرت بأنني خجلة من أخطائي وأخذني وأخذ كل شيء يدر مني الى الدار وفي تلك الحالة التي استبد فيها الغضب بي احتفظ هو بتعابير السلام المرسومة على وجهه وشنف سمعي بكلماته التالية ٠٠ « يا لوسي اليك حبي ٠ قاسميني حياتي وكوني أعز ما لدي على الارض » ٠

وعدنا القهقرى مشيا على أقدامنا الى شارع فوسيت تحت ضوء القمر الذي القى بأنواره على الحديقة الكبرى وأثناء السير أخبرني المسيو أن الفتاة جوستين ماري سوفير مخطوبة ـ برضاه ـ منذ أشهر لشاب الماني تاجر اسمه هنريخ موهلر على أن يتم الزواج خلال عام واحد وان بعض أقرباته (أقرباء بول) يبدو انهم يريدون تزويجها منه لضمان ثروة للعائلة أما هو أي بول فانه يرى أن المشروع غير مرغوب فيه وان الفكرة غير مقبول بها كليا ٠

ووصلنا دار المدام بيك حين كانت تدق الساعة التاسعة في كنيسة يوحنا المعمدان ففي مثل هذه الساعة ـ وفي هذه الدار ـ قبل ١٨ شهرا كان بول يمعن النظر في وجهي وفي عيني ويتحدث عن مصيري وفي هذا المساء بالذات أراه ينظر الي ويتحدث عن رسم مستقبلي فكم تختلف مثل هذه النظرة عن تلك وما أبعد مصيري ذاك عن مصيري هذا ٠٠

واعتبرني آنذاك مولودة تحت نجمته التي تنشر نورها علي كنشر البيرق وفي ذلك الوقت الذي كنت لا أعرفه معرفة صحيحة ولم أكن أحبه واعتبرته غظا واعتبرت كلامه غريبا وأغاظني القوام القصير والتكوين النحيل واللون الاسمر والسلوك والاخلاق أما الان فاراني تحت كنفه عائشة بعطفه وحبه وأفضله الآن على كل الانام ٠ وافترقنا وأعطاني كلمة عهد بعودته وودعني وافترقنا وفي اليوم التالي أبحر ٠

twitter @baghdad_library

الفصل الثاني والاربعون

ـ النهاية ـ

الانسان لا قدرة له على التنبؤ وليس الحب مهبط الوحي فالخوف يتصور في بعض الاحيان أشياء تافهة .. تلك الاعوام أعوام الغياب كم أمرضتني توقعاتها وويلاتها التي ابتليت بها وقربتني من حافة الموت المؤكد فقد أدركت طبيعة حرياتها ولم أتشكك بعذاباتها . لقد غاب المسيو عماتوئيل عني ثلاثة أعوام وهذه الاعوام كانت أسعد أعوام حياتي واذا كنت أيها القارىء تستغرب من هذا التناقض فاصغ لما سأقوله .

باشرت في مدرستي واشتغلت .. اشتغلت بشكل مجهد واعتبرت نفسي وصية على ملكه ويعرف الباري أنني صممت على أن أقدم عند عودته كشف حساباته وارتادت الطالبات مدرستي ، المواطنون العاديون في أول الامر ثم سرعان ما انهالت عليها فتيات الطبقة الراقية .

وعند منتصف العام الثاني دخلت يدي بالصدفة مئات اضافية من الباونات وتلقيت من انكلترا رسالة بهذا المبلغ الذي أرسله الي المستر مارشمونت وريث وابن عم سيدتي العزيزة التي توفيت بعد أن خدمتها في دارها أرسلها لي بعد أن شفي من مرض خطير ألم به وكان المبلغ هدية من سيدتي الي بعد أن عثر على وصيتها هذه بطريقة الصدفة وفيها اسمي لوسي سناو وأعطت السيدة باريت عنواني اليه ولم أدر اذا كان ارساله المبلغ الي نتيجة تقريع الضمير أم لا ولم احاول أن أعرف شيئا من هذا القبيل انما اكتفيت باستلام المبلغ والاستفادة منه .

واستفدت من المبلغ بأن جازفت فاشتريت الدار المجاور لداري وأصبحت مدرستي الخارجية داخلية وأقفلت في مشروعي ولم يكمن

twitter @baghdad_library

سبب النجاح الذي لاقيته في نفسي بدرجة كبيرة ولا في موهبتي ولا في قرتي واقتداري بقدر ما كمن في حالة جديدة من الظروف الطارئة وفي حياة تبدلت تبدلا مدهشا وفي قلب مفرج عنه يشعر بالارتياح .

ان الربيع الذي حرك طاقاتي كان يكمن بعيدا وراء البحـــار في جزيرة هندية وعند الوداع حصلت على ميراث من تفكير في الحاضر وأمل في المستقبل وحافز للمثابرة على طريقة السير في مشروعي المجهد وعلى منهجي المتسم بالصبر والجراة ولم أهن ولم أنكس الرايـــة ولم تهزني أحداث قليلة أما معظم الاشياء فقد كانت تبهجني وتثير دربي .

ولا تتصور ان هذا الشعور الكريم بقي أو عـــاش كليا على أمـــل موروث أو وعد من وعود الفـــراق فهناك ممون سخي موننـي بوقـــود وفيرة وقتني من كل قشعريرة برد ومن كل ضيق وما كنت لاعاني من مرارة الفقر المدقع ولم أكن لاتوقع القلق أو أترقبه ففي كل بريد كانت لي رسالة منه ملآى بالعطاء الثر وبالحب الصميمي .

كان يكتب لي لأنه كان بحاجـــة الى أن يكتب ولم يكن ليختصـــر لانه لم يكن يريد الاختصار فقد كان يجلس ويتناول ريشة الكتابة والورق لانه كان يحب لومي وفي قلبه الكثير مما يريد أن يقضي به لهـــنا كتابة ولانه كان مخلصا كثير الاهتمام زاخر المشاعر ولانه كان حنونا وصادق الولاء بعيدا عن الخداع والاحتيال ولا كذب في دخيلته .

ان الاعتذار لم يقطر زيته الزلق على شفتيه ولم يعرض أخاديعـــه الخبانة بريشته ولا أباطيله الخسيسة ولم يكن يلسع أو يثبط العزيمـــة في رسالته فقد كانت رسائله قوتا حقيقيا يغـــذيني وماء فراتا يسقيني ويبل عطشي به ، وهل كنت أنا ممتنة منه ؟ الله يعـــلم فما من بشري لا يكون متقنعا لكائن بشري يتعامل بمثل هذا العطف وبشكل متواصـــل ونبيل ولم يكن يريدني ان أبدل طريقتي الذهبية انما أعطاني الحرية في أن أكون كما أشاء لانه من شأني ولانه ولد صادقا ومخلصا بلا تزوير ولا مكر ولا احتيال حرا وليس عبدا .

والان انصرمت الاعوام الثلاثة وتأكدت من عودة المسيو عمانوئيل في الخريف وسيكون ملي قبـــل ضباب تشرين الثاني . ان مدرستي ازدهرت وبيتي حاجتي وهبات له مكتبة صغيرة ملئت رفوفها بالكتب التي

كان قد أودعها عندي وبالكتب التي كان يفضلها على سواها وفي فكري أنني أحببته عندما سافر وأحبه الان بدرجة أخرى فهو لي أكثر من السابق .

الشمس عبرت الاعتدال الربيعي أو الخريفي أي عبرت خط الاستواء وقصرت ساعات اليوم وذوت أوراق الاشجار وصوحت وانه قادم الي . كان البرد القارس يظهر في الليالي وآخذ شهر تشرين الثاني يبعث ضبابه مقدماً والريح تنقل عويل الخريف ولكنه قادم الي . السماء مدلاة بكمالها وظلامها والسحب العالية المفرقة تأتي من الغرب وتتخذ الغيوم أشكالا غريبة من قناطر الى طاقة من الاشعة .

وتتوالى الأصباح بعد الامسيات متألقة وبهية وذات سلطة كسلطة الملك في الدولة والسماوات شعلة واحدة مضيئة ومقفرة . أنني عليمة ببعض علائم الاجواء فقد دأبت منذ طفولتي على مراقبتها وملاحظتها ويا الهي عاين ذلك الشراع برحمتك واحرسه ! . كانت الرياح تتحول صوب الغرب وهي تعول وتنادي بالويل والثبور عند كل نافذة . انها ترتفع وتنتفخ ثم تتقلص ثم تهيم عبر الدار في هذه الليلة ولست أقوى على هدهدة عصفاتها والساعات المتقدمة تزيدها قوة وعند منتصف الليل يسمع كل المسهدين ويخشى الزوبعة العاتية القادمة من الجنوب الغربي .

وتلك الزوبعة زأرت وهدرت مدى سعة أيام ولم تتوقف الا بعد أن امتلأ المحيط الاطلسي بحطام السفن الغارقة في مياهه ولم تتوقف الا بعد ان ابتلعت أعماقه كل شيء ، ولم تتوقف الا بعد أن أنجز ملاك العاصفة مهمته الكاملة وطوى جناحيه اللذين يعتبر كل حفيف منهما رعدا قاصفا وكل خفقة ريش من رياشهما زوبعة هابة .

أيها السلام حل في تلك المناطق حيث ألوف النائحين أو المصلين ينتظرون عذابهم عند السواحل يصنون لصوت لم ينطق أو يتلفظ به أحد . وعندما حل السكون لم يحس البعض به وعندما عادت الشمس كان ضوؤها بمثابة ليل عند البعض .

twitter @baghdad_library

قف هنا · قف توا ويكفي ما قيل ودع آمال التصورات والخيالات المشمسة وخلها واسمح لهم أن يتحسسوا بالمرح وبالفـــرح مـــرة أخرى بعيدين عن الرعب الاكبر وان ينعموا بأعمال الانقاذ ممن حلت بهـــم الاخطار والاهوال وبالارتياح المدهش العجيب من الرهبـــة والفـــزع وبالاستمتاع بعودتهم · دعهم يتصورون ويتأملون زيجـاتهم وحيواتهم المستقبلية السعيدة ·

لقد كانت المدام بيك في حالة ازدهار طيلة أيام حيـــاتها وكذلك الآب سيلاس أما المـدام والرافينس فقد بلغت التسعين من عمرها قبل أن تتوفى ·· وداعـــا ··

twitter @baghdad_library

فيليت

آخر واعظم ما ألفته الشاعرة والكاتبة الروائية المشهورة شارلوت برونتي بعد روايتها الشهيرة « جين اير » ٠

- سياق روائي مليء بالمفاجآت ، تحليل دقيق ، مظاهر الحب العنيف ٠
- وصف شاعري لاروع منه ٠

رواية « فيليت » قطعة خالدة من الأدب الكلاسيكي العالمي ٠

- قلوب منسحقة جوى في مدرستها الداخلية للبنات ٠

الروعة في رواية « فيليت »

عندما فرغت جورج ايليوت من قراءة رواية « فيليت » لدى أول ظهورها في عام ١٨٥٣ جلست في حالة انفعال شديد وكتبت لصديقة لها « انني الآن فقط أعود الى التحسس بالعالم الحقيقي الذي يكتنفني بعد أن قرأت رواية « فيليت » وهو مؤلف مدهش آخر لـ شارلوت برونتي ظهر بعد « جين اير » فيه ما هو خارق للطبيعة تقريبا في تأثيره وسلطانه ٠

السعر ٢٫٥٠٠ دينار